شهور في ديار العرب

العلامة مسعود عالم الندوي

ترجمة وتعليق

أ.د. سمير عبدالحميد إبراهيم

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

سلسلة الأعمال المحكمة (٣٧)

شهور في ديار العرب

العلامة مسعود عالم الندوي

ترجمة وتعليق
أ.د. سمير عبدالحميد إبراهيم

صدر بمناسبة مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الندوي، مسعود عالم

شهور في ديار العرب / ترجمة سمير عبدالحميد إبراهيم .- الرياض.

٦٤٨ص ؛ ١٧×٢٤سم **(سلسلة الأعمال المحكمة ؛ ٣٧)**

ردمك ٠-٤٢-٦٢٤-٩٩٦٠

١ - العالم العربي - وصف ورحلات أ- ابراهيم ، سمير عبدالحميد (مترجم)

ب- العنوان

ديوي ٩١٥،٦٠٤ ١٩/٢٣٦٥

رقم الإيداع : ١٩/٢٣٦٥

ردمك : ٠-٤٢-٦٢٤-٩٩٦٠

الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢ - هاتف: ٤٩١١٣٠٠
ناسوخ: ٤٩١١٩٤٩ - برقياً: ٤٠٦٤٤٤
URL/Kapl.Sakhr.com
E-mail: Kapl@anet.net.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

تصدير

الحمد الله على نعمة التوحيد والوحدة ، والشكر للمولى عز وجل على شرف حمل رسالة نبي الأمة ، وخدمة أقدس بقعتين على وجه الأرض ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كانت هذه الأمّة ـ ومازالت ـ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني بعد ما تشرفت بهبوط الرسالة الإسلامية على أرضها الطاهرة ، لتنير ظلام العالم وتبدد جهالته ، تنجب الرجال الأفذاذ على مدار التاريخ ، فخرج من صلب أرض الجزيرة العربية ، من قيضهم الله تعالى ، ليعيدوا لهذه البلاد الغالية مجدها وسؤددها ويدخلوها التاريخ الحديث بعد قرون من التنازع والتناحر والفرقة وانتشار الخوف على النفس والعرض والمال ؛ فكان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ الذي حقق فيها ما يشبه المعجزات في فترة زمنية محدودة ، حينما زاوج بين الماضي والحاضر ، في أسلوب عزَّ أن يكون له مثيل في العالم ، وأصبحت إنجازاته ـ طيب الله ثراه ـ دينًا على عاتق أجيال هذه الأمة حاضرًا ومستقبلاً .

انطلقت مسيرة التوحيد المظفرة في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ ؛ لتتوالى مسيرة الوحدة والبناء لهذه البلاد . والآن وبعد مسيرة المائة عام التي نحتفي بها جميعًا ؛ تخليدًا لذكرى استرجاع الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ لمدينة الرياض ، والإعلان عن هذه الانطلاقة المظفرة والميمونة لتوحيد أجزاء الجزيرة العربية في وحدة عظيمة لا مثيل لها في

العصر الحديث ؛ وعرفانًا وتقديراً بالجهود الكبيرة لأبناء الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ؛ وماتحقق من إنجازات عظيمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز ـ حفظه الله ، فإن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة التي تشرفت بحمل اسم الملك المؤسس والتي أنجزها ورعاها بخيره وبره صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ـ حفظه الله ـ تشارك في هذه المناسبة الغالية علينا جميعًا بمجموعة من المشاريع العلمية والتوثيقية لتاريخ الملك المؤسس ـ طيب الله ثراه ، حيث يأتي كتاب (**شهور في ديار العرب**) ترجمة صادقة لاهتمام المكتبة بدعم ومساندة الدراسات التي تخدم تاريخ الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ وتاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها الوطني .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

مقدمة المترجم

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . . . وبعد :

فيأتي صدور الترجمة العربية لكتاب " شهور في ديار العرب " للعلامة مسعود عالم الندوي ، مساهمة في احتفالات المملكة العربية السعودية بمناسبة مرور مائة عام على توحيد الملك عبد العزيز لأجزاء البلاد وتأسيسه للمملكة العربية السعودية ، والعلامة مسعود عالم الندوي ، من كبار علماء الهند ، جذبته ديار نجد ، وأهلها ، لأسباب عديدة ، يأتي في مقدمتها ، الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فاشتاق الرجل إلى لقاء علماء نجد، ليعرف منهم المزيد عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وشاء الله له أن يسعد بلقاء جلالة الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية الحديثة ، الذي أخذ على عاتقه حماية الدعوة الإصلاحية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

نزل الشيخ في الرياض ضيفًا على حكومة جلالة الملك ، والتقى بالملك عبد العزيز وولي العهد في أول يوم وصل فيه إلى مدينة الرياض، في الثامن من ذي القعدة ١٣٦٨ هجرية / الأول من سبتمبر ١٩٤٩م ، وتوالت لقاءاته بالعلماء

الكبار في الرياض ، كما التقى بالملك عبد العزيز مرة أخرى في الحفل السنوي الذي يقيمه الملك عبد العزيز لضيوف الرحمن ، فكتب العلامة مسعود عالم الندوي عن لقاءاته هذه ، وأشاد بجهود صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، من أجل الحفاظ على شرع الله وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقضاء على البدع وأمور الشرك ، كما أثنى على العلماء ، وأشاد بتمسكهم بالحق .

ولا شك أن هذه الترجمة ، التي توخيت فيها الدقة ، ستضيف جديداً إلى المكتبة العربية ، وستكون مصدراً ومرجعًا للدارسين المتخصصين وغيرهم في مجالات الدراسات الأدبية والإنسانية بشتى فروعها ، فهي تتضمن معلومات وافرة عن الحياة الثقافية والعلمية المتنوعة ، وعن الحياة الاجتماعية بشتى جوانبها ، وعن الحياة السياسية والعوامل المؤثرة فيها ، خلال تلك الفترة ، بالإضافة إلى النواحي الاقتصادية .

وسيجد المهتمون بدراسة المكتبات والصحافة والإعلام والأدب والعمران وما إلى ذلك مادة جيدة يفيدون منها في دراساتهم لهذه المنطقة .

ولا أود أن ألخص هنا ما ورد في الرحلة ، ولكني أكتفي بالقول بأن القارئ سيجد نفسه أمام نمط جديد من أدب الرحلة ، يجعل من هذا الكتاب المترجم عن اللغة الأردية وثيقة تؤرخ لهذه المرحلة من تاريخ جزيرة العرب بجوانبه المتنوعة ، يساعد في ذلك ما أضافه كاتب هذه السطور من حواشي وتعليقات ، أحسبها مفيدة للقارئ العربي بالإضافة إلى مقدمة موجزة عن حياة المؤلف وكتابه " شهور في ديار العرب " .

وإنني إذ أشكر لمكتبة الملك عبد العزيز العامة توفير سبل ترجمة هذه الرحلة وطباعتها ، محققة بذلك الأهداف السامية لحكومة خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين ، الرامية لدعم أواصر المحبة بين الشعوب الإسلامية ، أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ فيصل بن عبد الرحمن بن معمر ، وكيل الحرس الوطني للشئون الثقافية والتعليمية والمشرف العام على مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ولسعادة الدكتور عبد الكريم بن عبد الرحمن الزيد نائب المشرف العام على مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، داعيا الله أن يجعل هذه الترجمة فتحا لسلسلة أخرى من الترجمات والأبحاث ، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه تعالى .

الرياض غرة رجب ١٤١٩ هـ

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

العلامة مسعود عالم الندوي
وكتابه شهور في ديار العرب

بقلم المترجم

العلامة مسعود عالم الندوي :

ولد العلامة مسعود عالم الندوي سنة ١٣٢٩هجرية / ١٩٠٨م والتحق بدار العلوم (ندوة العلماء) في مدينة لكهنو الهندية ، وهو في الثامنة عشرة من عمره، فأظهر نبوغًا لفت أنظار أساتذته إليه حتى كتب عنه الشيخ محمد تقي الدين الهلالي ما يلي :

- " كان أفضل تلامذتي في كلية ندوة العلماء ، التي أقمت فيها من سنة ١٣٤٩ إلى سنة ١٣٥٢هجرية . . وما رأيت في الاجتهاد والتحصيل مثل مسعود عالم ، وكان كذلك مخلصًا في دينه ، وذا أخلاق كريمة ، وشجاعة ، لا يخاف في الحق لومة لائم " . ومما يدل على نبوغه زمان دراسته إصداره لمجلة حررها هو وأقرانه الطلاب ، أطلق عليها اسم الرائد ، كانت تخط بأقلام الطلاب ، ولا تزال هذه المجلة الخطية موجودة حتى اليوم ، وقد رآها كاتب السطور حين نزلت ضيفًا على الندوة سنة ١٩٧٨م أثناء إقامتي في باكستان .

ومما يدل على نبوغه المبكر أنه اختار موضوعًا لأطروحته بعد تخرجه بعنوان " لم يضعف الشعر العربي بعد ظهور الإسلام ، لكنه ازدهر وتطور " فتحدى العلامة مسعود عالم الندوي في أطروحته المؤرخين الذين حاولوا الإشارة إلى أن الإسلام أضعف من قوة الشعر العربي ومنع ازدهاره ورقيه ، موضحًا أن موضوعات الشعر العربي تميزت ، بعد ظهور الإسلام ، بالقوة والجزالة ، بالإضافة إلى السهولة والسلاسة ، وأثبت في بحثه تأثير الإسلام الإيجابي الواضح ، ذلك التأثير الذي شمل جميع جوانب الحياة في جزيرة العرب .

كان لوصول الشيخ تقي الدين الهلالي إلى ندوة العلماء أعظم الأثر على طلاب الندوة وبخاصة مسعود الندوي ، وحين اتفق سيد سليمان الندوي والشيخ الهلالي على إصدار مجلة عربية ، وقع الاختيار دون تردد على مسعود عالم الندوي ليكون مديراً لتحريرها ، وهكذا صدرت مجلة الضياء في محرم عام ١٣٥١ هجرية ، فأخذت تنشر الموضوعات الأدبية ، وأخبار العالم الإسلامي ، وتعليقات على الأحوال في الهند ، وكان مسعود يكتب فيها بالعربية مقالاً ثابتاً ، ويحرر بعض موضوعاتها ، وحين ترك الشيخ الهلالي ندوة العلماء سنة ١٣٥٣ هجرية ، وذهب إلى العراق ليقيم هناك إقامة دائمة ، تأثر العلامة مسعود عالم الندوي كثيراً ، وصعب عليه فراق أستاذه ، حتى إنه فكر أن يهجر الندوة ، ويسافر ليقيم مع أستاذه في بلدة " الزبير " التي كانت تعج بالعلماء من أهل نجد ، وذلك من أجل تحصيل العلوم العربية .

ويمكن تقدير مشاعره تلك من الخطاب الذي كتبه إلى زميله آنذاك الشيخ أبي الحسن الندوي وجاء فيه :

- " يعيش الأستاذ الهلالي الآن في الزبير ، أنوي الذهاب لأقيم هناك مدة سنة ، والدكتور الهلالي موافق ، غير أن مدير دار المصنفين (مولانا مسعود علي الندوي) لا يوافق ، لكن يبدو أنه يوافق على شرط أن تتولى (أي الشيخ أبو الحسن الندوي) مسئولية مجلة الضياء ، فإذا وافقت ، يمكنني ترتيب أمر السفر في الحال . "

وفي خطاب آخر كتب إليه ما يلي :

" سوف أذهب إلى الهلالي ، وأُقيم عنده ، إذا سمحت الظروف والأحوال، أنوي السفر إلى بغداد وبقية مدن العراق وإلى فلسطين أيضًا ، لكن هذا كله مجرد أحلام . . أحلام فقط "

لم يتمكن العلامة مسعود عالم الندوي من استخراج جواز سفره ، بناء على توصية من الشرطة السرية في حكومة الولاية ، وهكذا لم يتمكن من السفر إلى الزبير ، وظل كما هو في دار العلوم (ندوة العلماء) حيث أقام مع زميله الشيخ أبي الحسن الندوي في غرفة واحدة ، كانت سكنًا لهما ، ومكتبًا لمجلة الضياء أيضا .

كانت مجلة الضياء لسان حال ندوة العلماء ، ربّت جماعة من المحررين والكتاب وأصحاب الأقلام القوية ، فكانت بداية عهد للصحافة العربية في الهند، وهي البذرة التي أنبتت فيما بعد مجلة البعث الإسلامي ، وجريدة الرائد، وكانت ترد إليهم صحف العالم العربي مثل : فتى العرب الصادرة من دمشق ، وصحيفة " الجامعة الإسلامية " الصادرة من فلسطين ، لسان حال المفتي

الحاج أمين الحسيني ، بالإضافة إلى المنار ، والهلال ، والمقتطف ، ومجلة الزهراء والمجمع العلمي ، والعرفان ، وحين وصل الهلالي عرف تلميذيه مسعود وأبا الحسن بمجلة محب الدين الخطيب " الفتح " ، فبدأ مسعود عالم يرسل مقالاته إلى الفتح ، بعد أن صقلت الضياء ذوقه على الكتابة .

كان مسعود عالم الندوي يعيش حياة بسيطة ، ومنظمة ، يصلي الفجر ، ثم يغرق في تلاوة القرآن الكريم ، ويبدأ بعد ذلك في التدريس أو التحضير للدروس ، فقد كان يدرس الأدب والإنشاء ، وإذا ما وصل البريد في الساعة الحادية عشرة ، وكان يتضمن الخطابات الواردة من البلدان العربية ، يقوم بفرزه، ويبدأ في ترتيب مقالات الضياء ، وتحريرها ، وبعد العصر تبدأ فترة الراحة ، ثم يأتي دور الأدب .

كان مسعود عالم الندوي يميل إلى مطالعة أشعار غالب ، وإقبال بالأردية ، وأشعار شوقي ومعروف الرصافي بالعربية ، كما كان يتأثر بكتابات أبي الكلام آزاد ، وسيد سليمان الندوي ، ويعترف بمكانة الأمير شكيب أرسلان والعلامة رشيد رضا ، وكان لا يفتأ يقرأ كتاب حاضر العالم الإسلامي لأمير البيان شكيب أرسلان ، الذي رشحه مسعود في إحدى الندوات ليكون " أعظم شخصية في العالم الإسلامي " .

توقفت مجلة الضياء عن الصدور بعد ثلاث سنوات ، لأسباب مالية ، واستمر مسعود يعمل أستاذاً للأدب ، بعد أن حقق شهرة واسعة من خلال الضياء، فقد تعرفت عليه الدوائر الإعلامية في البلاد العربية ، وصار من كتاب

مجلة " الفتح " الممتازين ، إذ نشر فيها مقالات متتالية تضمنت كتابه " حاضر مسلمي الهند وغابرهم " .

ويذكر الشيخ أبو الحسن الندوي " أن مسعوداً كان رجلاً بسيطاً في ملبسه ومأكله ، وكان زاهداً تقيا ، كريما ينفق ما لديه بسعة صدر ، وهمة عالية ، وبالنسبة للعقائد كان سلفيا ، متمسكا بالتوحيد ، واتباع السنة ، لا يعطي في ذلك اعتباراً لأحد مهما كان ، وربما كان للوراثة أثرها ، فبعض أقاربه من جماعة أهل الحديث ، ومنها أنه تأثر بصحبة الشيخ تقي الدين الهلالي . "

في سنة ١٣٥٦ هجرية / ١٩٣٧ م حدثت بعض الأمور التي أقلقت مسعودا كثيراً مما اضطره إلى الذهاب إلى مدينة " بجنور " حيث اشترك في إدارة مجلة " مدينة " فأثبت كفاءة عالية في الكتابة بالأردية ، ورغم أن أصدقاءه شجعوه على الاستمرار في هذا العمل إلا أنه لم يكن مطمئناً ، وكان حزيناً لفراق " دار العلوم – ندوة العلماء " فرجع إليها بعد ستة أشهر ، لكنه عاد فتركها ، وذهب إلى " بتنه " بعد أن وجد عرضا للعمل مفهرسا Catalouger في مكتبة " خوادبخش " الشهيرة هناك ، وبهذا أُتيحت له الفرصة ليكون قريبا من وطنه (بهار) ووالده (مولانا عبد الشكور) كما أُتيحت له الفرصة للعمل في مكان هادئ .

في أثناء عمله في بتنه نضجت أفكاره ، وتحمس أكثر فأكثر للدعوة إلى الدين الحق ، ونشر العقيدة الصحيحة ، مما أثار عليه بعض الناس من حوله حتى نعتوه بصفات صارت لاصقة له فيما بعد ، وهي أنه " ندوي ، وهابي ، عربي " فكانوا يقولون بالأردية :

ندويت : نسبة إلى انتمائه لندوة العلماء ودفاعه عنها .

وهابيت : نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، نظرًا لأنه كان سلفيًا يدافع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية .

عربيت : نسبة إلى العرب لأنه كان محبًا للعرب ولكل ما هو عربي .

ولم يتراجع العلامة مسعود عالم الندوي عن هدفه أي الدعوة إلى الله وإلى دين الحق ومحاربة البدع وأمور الشرك ، وقبض على الجمر ، وصبر ، وخاصة حين كان يكتب كتابه عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذي ترجم فيما بعد إلى العربية بعنوان " محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه " وكان قد أرسل خطابا إلى الشيخ أبي الحسن الندوي جاء فيه :

- " أنا الآن تائه في وادي نجد ، وكان من نتيجة ذلك أنني أخذت أتمسك أكثر فأكثر بالسلفية ، رغم أن هذه صفة ، لو أُطلقت عليّ ، فهي صفة نظرية فقط ، وأنا محروم من تطبيقها عمليًا "

ومن الجدير بالذكر أن مسعودًا كان أثناء عمله بندوة العلماء ، يمتدح كثيرًا مقالات مجلة القرآن التي كان يصدرها المودودي ، ويمتدح فكر المودودي ، وحين زار المودودي لكهنو سنة ١٩٤١م ، وأقام في بيت الضيافة بندوة العلماء ، اقترح إصدار مجلة عربية ، وطلب من الشيخ أبي الحسن الندوي أن يديرها ، رفض الشيخ أبو الحسن ، ورشح له مسعودا معتبرًا إياه أكثر الناس مناسبة لهذا المنصب ، إلا أن المجلة لم تصدر ، نظرًا لبعض الظروف ، وصار العلامة

مسعود عالم الندوي بعد ذلك مسئولا عن شعبة نشر الكتب العربية للجماعة الإسلامية ، وانتقل بشكل دائم إلى مدينة " جالندهر " حيث أسس مركزاً للنشر والدعوة باسم " دار العروبة للدعوة الإسلامية " .

وفي سنة ١٩٤٧م كان تقسيم شبه القارة ، وكانت " دار العروبة " في " جالندهر " التي آلت للهند ، لا تزال في المهد ، فانتقلت دار العروبة من الهند إلى باكستان ، وفقد العلامة مسعود عالم الندوي ذخيرة ضخمة من الكتب ، ووصل باكستان ليبدأ من جديد تأسيس دار العروبة في مدينة " كوجرانواله " الباكستانية مرة وفي حيدر آباد السند مرة أخرى ، ثم استقر بعد ذلك في مدينة " روالبندي " التي كانت بجوها مناسبة لصحته ، فقد كان يرحمه الله مصابا بالربو .

ويشاء الله أن يحقق له حلمه القديم فيسافر سنة ١٣٦٨ هجرية / ١٩٤٩م إلى العراق ، بعد انتظار طال ، ووفقه الله في رحلته ، فلقي أستاذه الهلالي ، وتجول في مدن العراق ، وسافر إلى الكويت وبعدها . .

تحققت أمنيته التي كان يتمناها ، فوصل إلى وادي نجد الذي تجول فيه بخياله من قبل ، فصار الخيال واقعا ، ومن وادي نجد إلى الأماكن المقدسة ، واستمرت رحلته نصف عام أو أكثر ، فسطر يومياته ونشرها بعنوان " شهور في ديار العرب " .

بعد عودته من رحلته ، ظل يعمل دون توقف ، وظل يكتب مقالاته ، ويترجم بعض ما كان يكتبه المودودي إلى اللغة العربية ، وظل قويًا كالصخرة ،

يدافع عن الكتاب والسنة ، واعتقل لأنه شارك في حركة " ختم النبوة " وزج به في السجن رغم مرضه ، مما جعل الشيخ أبا الحسن الندوي زميل دراسته ، ورفيق غرفته ، في ندوة العلماء ، يشعر بالحزن والأسى ، فعبر عن ذلك بقوله :

- " إنني أعترف من كل قلبي بأسبقيته وأفضليته ، وتأخري وتراجعي ، فطلبت من عاصم أن يسلمه خطابي الذي يحمل تهنئتي له ، وأن يسمعه هذا الشطر من البيت الشعري للشاعر أبي حسن التهامي ، شبيهي في الاسم ، مع تغيير بسيط : " فسبقتني وأخوك في المضمار "

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي :

وبعد أن فُك أسره في ٣ أغسطس عام ١٩٥٣م أرسلت له خطاب تهنئة ، فرد علي :

- " تسلمت خطابك الثاني ، شكراً جزيلا ، ماذا أقول عن اعتقالي ؟ وماذا أقول عن فك إساري ، إنني أسطر بذلك سيرة حياتي . . "

فتذكرت قصة يوسف عليه السلام ، وتذكرت قصة الإمام أحمد ، وتذكرت عزيمة مجاهدي الهند من أهل السلف في صادق بور ، واستمر تبادل الخطابات بيننا حتى وصلني خطابه التالي في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣هجرية :

" أنا ذاهب إلى كراتشي يوم الاثنين ، ولنرى ماذا كتب الله لي ؟! "

وكتب الله له أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، بعد ثمانية عشر يوما في الحادي عشر من رجب سنة ١٣٧٣هجرية / ٧١ مارس ١٩٥٤م ، وتمت مراسم الدفن

بحضور جمهور كبير من سفراء البلاد العربية وعمداء المدن والعلماء ، وهكذا عاش أربعة وأربعين عاما ، أدى خلالها كثيراً من الخدمات للأمة الإسلامية : تأليفا ، وتصنيفا ، ودعوة إلى الحق .

شهور في ديار العرب :

يتضح من مطالعة سيرة هذا العالم الجليل العلامة مسعود عالم الندوي أنه كان داعية إلى الله ، يمضي على الطريق الصحيح ،ولهذا كان من الطبيعي وهو يسطر يومياته التي نشرها بعنوان " شهور في ديار العرب " أن يعطي أهمية أكبر في كتابه هذا للقضايا الدينية ، وللشخصيات الإسلامية ، ولم يغفل عن هدفه ، وهو تبليغ الدين الحق ، والتنبيه على ما قد يقع فيه البعض من شرك خفي أو بدعة ، وكان للطريقة التي كتب بها يومياته أكبر الأثر في جعل الأحداث قريبة إلى ذهنه ، وإلى قلمه ، وفرض أسلوب التعبير السهل السلس .

نوعية الرحلة :

ورغم أن بعض النقاد يرى أن رحلته هذه يمكن أن تكون وثائق سياسية ، إلا أن المؤلف نفسه يعارض هذه الفكرة ، ويرى أن دارس التاريخ لا يجب أن يعتمد على ما ورد في الرحلة ، رغم أنه هو نفسه من تلامذة التاريخ ، لأنه كتب هذه اليوميات ليروح بها عن نفسه ، ويقطع بها بعض وقته ، وحين نشر بعض حلقاتها في مجلة الكوثر ، انهالت عليه الخطابات يريد أصحابها منه أن يستمر في الكتابة ، وأن يتحدث عن قضايا أخرى مختلفة ويقول بالحرف الواحد :

- " إنها صدرت من خلال وجهة نظر خاصة ، فكاتبها من طلاب التاريخ ، ومع هذا لن يجد القارئ أثرًا للتاريخ فيها " .

وعلى كل حال يمكن أن تصنف هذه الرحلة على أنها رحلة من رحلات الدعوة والتبليغ والحج ، وأيضا تدخل ضمن الرحلات العلمية ، فقد قصد المؤلف أيضا تحصيل العلوم والمعارف ، وهو من أقدم الأسباب التي دفعت الناس إلى الرحلة ، فمن المعروف أن العلوم النقلية تفرض على مبتغيها الرحلة إلى منابعها ، وهذا هو ما دعا مؤلفنا إلى السفر إلى مواطن العلم في البلاد العربية .

ومن الملاحظ أن المؤلف اعتمد على المشاهدات العينية ، وعلى ما سمعه من أخبار ، وكذلك على مطالعة الرحلات السابقة للمنطقة ذاتها ، وعلى كتب المعارف الأخرى ، وإن افتقر - كما ذكر - إلى مصادر الجغرافيا وإلى خرائط البلدان التي ارتحل إليها .

وقد بدأت الرحلة بمقدمة ، اتضح فيها العنصر الديني ، كما أوضح المؤلف الظروف التي دفعته إلى القيام بالرحلة ، والأمور التي اعتنى بها ، والمنهج الذي سلكه ، ألا وهو اتباع طريقة المذكرات اليومية ، أما عن اللغة فكما ذكرت جاءت سهلة سلسة ، والمؤلف أديب بطبعه ، إلا أن الطابع الأدبي لا يسود كثيرا كتاباته هنا ، رغم وجود العناصر الأدبية ، فاللغة سهلة تكاد تقترب من لغة الحديث اليومية ، ضمنها آيات من القرآن الكريم ، وأدعية ، وأشعارا بالأردية والفارسية والعربية ، وغلبت عليه المشاعر الفياضة أحيانا ، ففاضت على أسلوبه ، فجاءت لغته رقيقة المستوى ، عظيمة التأثير والإمتاع .

الزمان والمكان :

تمتد فترة السفر من غرة جمادى الآخرة عام ١٣٦٨هجرية / ٨٢ إبريل ١٩٤٩م حتى ٢٢ صفر عام ١٣٦٩هجرية / ٣١ ديسمبر ١٩٤٩م أي حوالي سبعة أشهر تقريبا ، وتبدأ الرحلة من ميناء كراتشي إلى ميناء البصرة بحرا ، ومن البصرة إلى بغداد برا ، ومن بغداد إلى الموصل فكركوك ، فبغداد ثانية ، ومنها إلى البصرة والزبير ، ثم الكويت ، ويعبر الصحراء من الكويت إلى مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وبعد قيامه في الرياض عدة أيام يسافر عبر الصحراء مرة أخرى إلى مكة المكرمة عن طريق الطائف ، فيؤدي فريضة الحج ، وينطلق إلى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي الشريف ، ثم يعود إلى جدة ، ليركب السفينة من ميناء جدة ، عائدا إلى ميناء كراتشي الذي خرج منه .

ظل الشيخ مسعود عالم الندوي يحلم بالسفر إلى بلاد العرب للقاء أستاذه الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي ، ولم يتحقق حلمه سريعا ، إلا أنه كان يحمل بداخله الأماني ، وكان أمله في الله كبيرا ، فحقق له الله ما تمنى ، وكان أستاذه في بغداد يفخر بتلميذه في جميع المحافل ، وهكذا خرج من كراتشي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ليصل البصرة في السادس من رجب ، وإلى بغداد في الحادي عشر منه ، ويظل يتنقل ما بين بغداد والموصل وكركوك ، والبصرة والزبير ، ثم وصل الكويت في غرة ذي القعدة ، وبعدها وصل إلى مشارف الرياض في الثامن من ذي القعدة ليقضي بها عشرة أيام ضيفا على حكومة جلالة الملك عبد العزيز ، ثم وصل مكة المكرمة عن طريق

الطائف في الحادي والعشرين من ذي القعدة ، فقضى شعائر الحج ، وقصد المدينة المنورة للزيارة في الرابع من محرم عام ١٣٦٩هجرية ، ومن المدينة إلى جدة وخلال أيام استقل السفينة من جدة في الثاني عشر من صفر الموافق الثالث من ديسمبر ١٩٤٩م ليصل من حيث بدأ ، أي مدينة كراتشي في الثالث والعشرين من صفر عام ١٣٦٩هجرية ، الموافق للرابع عشر من ديسمبر عام ١٩٤٩م .

وهكذا ركب المؤلف الباخرة وعبر المحيط والبحر ، وركب قطار السكة الحديد في العراق وركب الحافلات والناقلات (اللوريات) وركب السيارات الملكية ، والسيارات الخاصة وسيارات الأجرة ، ولم يسلم الأمر من تنقله على رجليه رغم مرضه ، وهكذا جرب جميع أنواع المركبات عدا الطائرات ، التي كاد أن يركبها من الرياض إلى الطائف لولا ظروف تواجده بالرياض ، ورغبته هو نفسه في السفر برا مستخدما عربة البريد الحكومية .

والتقى المؤلف في سفره هذا بأنماط مختلفة من البشر ، فقد التقى على ظهر السفينة بأناس عاديين ، وبعلماء وموظفين ، والتقى عند نزوله العراق بالحمالين والخدم والسائقين ، وفي بغداد التقى بالعلماء والأدباء ، وبعمال المطابع ، وأصحاب الحوانيت ، وهلم جرا ، وفي الكويت التقى بالتجار ، ووكلائهم ، وبالسماسرة ، وأتباعهم ، وفي الرياض شاءت إرادة الله أن يلتقي في اليوم الأول لوصوله بجلالة الملك عبد العزيز وولي عهده ، ثم تعددت لقاءاته بالعلماء والأدباء ، وكذا بضيوف المملكة العربية السعودية المقيمين بدار الضيافة الملكية ، وفي مكة التقى بالعلماء من جميع أنحاء العالم ، والتقى بأدباء

العالم الإسلامي ، كما التقى بالسفراء وأمراء الحج ، وسعد بلقاء جلالة الملك عبد العزيز مرة أخرى ، واحتك بطائفة المعلمين والمطوفين وصبيانهم ، وتعامل مع أصحاب الحوانيت والمكتبات ، وأصحاب المدارس الدينية وغيرهم ، وكذا الحال في المدينة المنورة ، وقد وصف كل هؤلاء ، باختصار تارة ، وبإسهاب تارة أخرى .

المحتوى والمضمون (دراسة تحليلية) :

تظهر شخصية المؤلف واضحة تماما على صفحات رحلته ، فمن الصفحة الأولى نلاحظ أن الكاتب لا يصدر عنه أي شيء إلا إذا كان له هدف ، فقد جاء إلى العراق للقاء أستاذه الذي شغفه حبا ، ثم شدّه الشوق إلى نجد ، وامتلأ قلبه بحب نجد وأهلها فنراه وهو في الزبير يذكر أهل نجد :

- " تقع الزبير في المكان الذي كان يضم سوق البصرة المشهور ، أي سوق مربد الذي يأتي ذكره كثيرا في التاريخ والأدب ، وبلدة الزبير الحالية تضم قبائل نجدية . . . تسكن هنا منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة "

وبينما هو في الطريق إلى الرياض يذكر مدينة الرياض ويكتب عن الملك عبد العزيز ما يلي :

- " يتولى جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حكم البلاد منذ تسعة وأربعين عاما ، وفي عهده ازدهرت إمارة الرياض بشكل ملحوظ ، بعد تأسيسه للمملكة العربية السعودية ، وبعد اكتشاف البترول في المنطقة

الشرقية للمملكة ، وقد أدى اكتشاف البترول إلى ظهور نتائج عديدة ، وهكذا يقرض الملك عبد العزيز اليوم ، ملك الوادي " غير ذي زرع " حكام بلاد مثل سوريا ملايين الروبيات . . ويلقب الملك عبد العزيز الذي ينتمي إلى نجد ، وكان أميرا عليها ، بلقب جلالة الملك عبد العزيز ، وهو يستأثر اليوم بإعجاب الناس ، ويجذب إليه الكثيرين بشخصيته الرائعة . . "

ويقول الكاتب في موضع آخر :

ـ " وهناك شيء آخر جذب كاتب السطور إلى نجد ، قبل مائتي عام كانت نجد مركزاً لدعوة عظيمة الشأن (أي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية) كان لها تأثيرها الواضح في ظهور أدب متنوع بلغات العالم المختلفة ، وكان كاتب هذه السطور من المهتمين بهذه الدعوة . . . . وهكذا ظل الشوق إلى نجد ، يحرك أوتار قلبي ، وحكاية نجد كما يقولون تكمن في منطقة نجد (أي أن المعنى في بطن الشاعر) لهذا اشتقت للوصول إلى نجد ، حتى أجد حلا للمسائل التي تؤرقني ، عن طريق مساعدة علماء نجد أنفسهم "

وصف الكاتب الرياض وصفا دقيقا ، وأشاد بالعلاقة الحميمة بين الملك والعلماء ، ووصف لقاءه بجلالة الملك في الرياض :

– " دخلت إلى بلاط جلالة الملك عبد العزيز ، صالة كبيرة ، مهيبة ، مفروشة بالسجاد الفخم النظيف ، صفت الكراسي والطاولات ، وكان هناك حاجب ، وحراس يقفون خارج الصالة ، وفي الداخل وعلى الجانب الأيمن ،

على مسافة معينة جلس شخص ، وبناء على إرشادات أحد المسئولين ، تركت بابا ، ودخلت من باب آخر ، ثم جلست على يمين السلطان ، تاركا بيني وبينه كرسيا خاليا ، كان الإرهاق يبدو على وجه الملك ابن سعود ، كانت التجاعيد قد ظهرت واضحة على وجهه ، وبدت عليه آثار السنين ، سألني بصوت فيه خشوع :

- كيف حالك ؟

- ولم أجد فرصة للتحدث معه في غير حديث السلام ، والتحية الرسمي . . . . جلست فقط في عالم من الصمت لدقيقة أو دقيقة ونصف فأشار علي المرشد فقلت للملك :

- السلام عليكم . . وخرجت من الباب الأول .

وقد وصف الكاتب لقاء الملك عبد العزيز بضيوف الرحمن في مكة ونقتطف هنا بعض الجمل التي أوردها في الرحلة :

- " بعد فترة وجيزة دخلنا قاعة الطعام ، حيث صفت الموائد الطويلة ومن حولها الكراسي . . . وكان الموظفون على قدر كبير من الأدب ، وبينما نحن على هذا الوضع دوى صوت الحاجب معلنا : " جلالة الملك عبد العزيز " . . . ثم علا التصفيق . . وكان إبراهيم الغزاوي شاعر الملك الخاص هو الذي خطف الأضواء من بين جميع الشعراء الذين ألقوا بقصائدهم . . وبعد انتهاء دور الشعر سمح للضيوف بالسلام على جلالة الملك . . . "

نقد المؤلف للبدع وثناؤه على السلفية :

نقد الكاتب ما شاهده من بدع انتشرت بين بعض الناس ، وبخاصة في المساجد التي أقيمت على الأضرحة في مدن العراق، وأثنى على السلفية ، وامتدح ما قامت به حكومة جلالة الملك عبد العزيز ، من قضاء على البدع والأعمال الشركية ، وورد هذا الثناء في مواضع كثيرة ، فكتب مثلا ينقد الجهلة من مرتكبي البدع :

- " مع أن الحكومة الحالية لابن سعود قضت على مراكز البدع كلها ، لكن ما هو علاج الجهلة ؟ لقد شاهدت عددا من النسوة من منطقة البنجاب يقبلن حائط مسجد قباء ، ويجعلن من أنفسهن فداء له . . "

وفي موضع آخر يذكر مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة :

- " ألقيت نظرة على مكتبة شيخ الإسلام ، ويبدو الأمر هناك وكأنك ذاهب إلى مزار ، لا إلى مكتبة ، ويأتي هنا عامة الحجاج ، رجالاً ونساء ، فتوضع أمامهم نسخة قديمة من القرآن الكريم ، فيتبركون بها ، ويضع إبراهيم حمدي المصحف على رؤوس الزائرين ، ويمس به أعينهم ، ولا يحرم صدورهم أيضا من بركاته !! ويعود الزائرون . . وقد اغرورقت عيونهم بالدموع، وقبل عودتهم يعطون إبراهيم حمدي ما تجود به نفوسهم ، وهذا هو بيت القصيد من هذه الزيارة . . هذا شأن الله في خلقه . . لقد حطم جيش ابن سعود القباب ، فجعلوا من المكتبات مزارات !! "

إعجابه بعلماء نجد :

كان المؤلف معجبا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ، ولهذا كتب كتابه عن سيرة الشيخ ، ورجع إلى مصادر عديدة بلغات مختلفة ، وصدر الكتاب الذي طبعت ترجمته بالعربية فيما بعد ، وفي رحلته هذه التقى بالكثير من العلماء ، الذين حرص على التحدث إليهم ، والاستفادة منهم ، ففي العراق التقى بالشيخ حمد الجاسر وكتب عن لقائه هذا ما يلي :

- . . "كان ضمن المدعوين عالم نجدي يدعى حمد بن جاسر ، وهو من تلاميذ الأستاذ الهلالي ، عالم وخبير ممتاز في جغرافية الجزيرة العربية ، وعلم الأنساب ، وهو موضوع تخصصه ، لديه شوق ، ورغبة عارمة للبحث والتحقيق، وهو يرتحل الآن بحثا عن المصادر والمراجع ، وبالصدفة كنت أعرفه وكان يعرفني ، فدار الحديث عن سيرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ودعوته . . . "

وفي مكة التقى بكبار علماء نجد :

- "جلسنا على سطح البيت ، كانت الجلسة على الطريقة العربية ، وكان من بين الحضور الأخ الثاني للشيخ وهو عبد الله بن إبراهيم ، وعبد اللطيف بن إبراهيم ، وعبد الملك بن إبراهيم (إمام مسجد القصر الملكي) كما قدم أيضا أحد تلاميذ الشيخ وهو عالم ممتاز يدعى الشيخ عبد العزيز بن باز ، وحضر أيضا عالم الزبير المطلع الذواقة " مشعان " بالإضافة إلى أبناء الشيخ وكاتبه وبقية الضيوف "

وفي موضع آخر يذكر زيارة أهل العلم له :

- "بدأ أهل العلم وغيرهم يفدون للسؤال عن صحتنا ، جاء الشيخ عمر بن حسن ، والشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللطيف ، واليوم أكرمني الشيخ عبد العزيز بن باز بزيارته ، مع تلاميذه ومحبيه ، وقد ترك هذا الأمر في نفسي أثرًا كبيرًا ، فقد كلف نفسه مشقة القدوم ، وهذا فضل كبير منه ، كما أنه رجل عالم ، يتقلد منصبا رفيعا ، وأكبر من كل هذا وذاك أنه لا يدانيه أحد في جرأته على قول الحق . . . "

الأحوال الاجتماعية والثقافية :

استطرد المؤلف أحيانا في وصفه للحياة الاجتماعية في المدن التي زارها ، ابتداء من البصرة وانتهاء بمدينة جدة ، وأوضح تأثير الظروف السياسية والاقتصادية على الحياة الاجتماعية ، وقام بتحليل هذه الظروف تحليلا دقيقا ، ويمكن للقارئ الرجوع إلى الصفحات التي تحدث فيها عن أثر الأتراك على سكان المدينة المنورة ، والإصلاحات التي قامت بها حكومة جلالة الملك عبدالعزيز من أجل رفع المستوى الثقافي والتعليمي هناك .

وكان الكاتب دقيق الملاحظة فانتبه إلى وجود نسوة في أحد أسواق الكويت، يعملن بالتجارة ، وهن يجلسن بزيهن الإسلامي ، ويضرب بهن المثل على أن المرأة يمكن أن تؤدي دورها في المجتمع ، دون أن تخرج على تعاليم الشرع ، وناقش عندئذ سفور النساء ، وبخاصة النساء القادمات في موسم الحج من مختلف بلدان العالم الإسلامي .

ناقش المؤلف أيضا أحوال الصحافة في العالم العربي ، وبخاصة في المدن التي زارها ، كما كتب عن المكتبات الحكومية والمكتبات الخاصة ، وذكر المدارس بأنواعها ، والتعليم في العراق والكويت والمملكة العربية السعودية وخاصة في الرياض والطائف ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، كما وصف المدن والعمران وصفا دقيقا يقول عن الرياض :

- " والسيارات هنا كثيرة ، إلا أن كثرتها في الحواري الضيقة ، وعلى الطرق غير الممهدة يؤذي الكثيرين ففي كل آن وحين ، يتعرض الناس للغبار والتراب ، وهذه السيارات من أحدث طراز ، وأهل المدينة يميلون إلى الحياة البدوية ، ولا تجد في الرياض كلها سيارة أجرة ، أما العربةالحنطور التي تجرها الخيول ، والركشا (الهندية الباكستانية) والعربة الكارو ، وما شابه ذلك فهي أشياء غير معروفة هنا ، ولا تسأل بعد ذلك عن الحافلات أو الترام ! ! فالإنسان هنا يعتمد كلية على الحكومة ! ! "

- " توجد بعض الشوارع المرصوفة بالإسفلت خارج نطاق المدينة ، ومن بينها شارع يصل إلى المطار ، فالمطار بعيد جدا . . . ويملك التجار عربات نقل بضائع ، وهذه الناقلات هي التي تتحرك على الطريق الواصل بين الرياض ومكة المكرمة ، ويستخدمها عامة المسافرين والحجاج ، ويدفعون أجرة زهيدة وهي ثلاثون ريالا على الأكثر . . . "

روح الدعابة والفكاهة :

رغم جدية المؤلف التي تزيد أحيانا عن حدها ، إلا أن المواقف التي تعرض لها اضطرته أحيانا إلى الكتابة بأسلوب فيه دعابة وفكاهة ، أو بأسلوب

ساخر أحيانا ، فحين استوقفه ضابط الجمرك العراقي ، وسأله بعد أن شاهد ما معه من كتب دينية :

- "هل أنت من الإخوان المسلمين ؟ "

فتردد الكاتب برهة ثم قال ردا على السؤال بعدد مساو من الكلمات :

- لا أنا من باكستان .

ونلاحظ هنا عنصر السخرية في حديثه عن المطوف :

- "مطوفنا هو شيخ المطوفين ، يتمتع بنصيب وافر من متاع الحياة ، ومن الجاه والحشم ، ولهذا فهو ليس بحاجة إلينا نحن المساكين ، كما أنه في غفلة عنا وعن العالمين ، ورغم معرفته بمرض العبد لله ، فقد ظل على حاله لا يسأل حتى بكلمة ، وقد قمنا بإبلاغه بذلك عن طريق خدمه وموظفيه ، فأرسل يعتذر عن عدم حضوره ، وابتسم لعاصم قائلا : أنا لم أر حتى بيتكم . . انظر ! لعلي آتيكم !! "

وحين كتب المؤلف عن المخدوعين من الجهلة ساق كلامه بسخرية مهذبة :

- "أتي الحجاج هنا رجالا ونساء ، فتوضع أمامهم نسخة قديمة من القرآن الكريم ، فيتبركون به ، ويضع إبراهيم حمدي المصحف على رؤوس الزائرين ، ويمس به أعينهم ولا يحرم صدورهم أيضا من بركاته !! . . . ويعود الزائرون من هذه الزيارة بعد أن يكونوا قد حصلوا على فيض البركات . . وقبل عودتهم

يعطون إبراهيم حمدي ما تجود به أنفسهم ، وهذا هو بيت القصيد من هذه الزيارة . . وهذا شأن الله في خلقه . . "

الدقة في التعبير :

من الملاحظ في الرحلة أن المؤلف كان دقيقًا جدا في تعبيراته ، وفي استخدامه للألفاظ والمصطلحات ، وقد اعترف في نهاية صفحات يومياته أنه سيراجع كل ما كتب ، لأن للمراجعة فائدتين :

١ - تدارك السهو والخطأ .

٢- مراجعة الأفكار السابقة وتحليلها .

ويقول عن سبب ذلك :

- " فقد قطعت برأي في بعض المسائل منذ ستة أشهر ، وأشعر الآن أن بعض هذه الآراء صحيح تماما ، بينما خمّنت . . وظهر لي خطأ تخميني ، أو بالغت فيما يتعلق ببعض الأمور ، وهكذا قيدت هذه التخمينات بكلمتي (لعل) و (غالبا) "

العناصر الأدبية في الرحلة :

لا شك أن العلامة مسعود عالم الندوي كان باحثا ومحققا قبل أن يكون أديبا ، ولهذا أبدع في كتابه " محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه " ولكنه أثبت كفاءته ، وتفوق باعه في الأدب حين عمل في جريدة

" مدينة " التي كانت تصدر في مدينة بجنور وذلك عام ١٣٥٦هجرية / ١٩٣٧م ، مما دفع أصدقاءه إلى تشجيعه على الاستمرار في هذا الميدان ، ولكنه تراجع وعاد إلى ندوة العلماء ، وعلى كل حال كان العلامة مسعود الندوي يكتب نثراً فنيًا حين يطلق العنان لمشاعره وأحاسيسه التي قل أن تنطلق ، نظرا لأنه كان يميل إلى كبت مشاعره وأحاسيسه ، وعدم الإفصاح عما بداخله في معظم الأحيان ، وكانت له قدرة فائقة على التحكم في ذلك .

لقد صقلت قراءاته الأدبية منذ فترة مبكرة أسلوبه وكتاباته ، وأثرت على طريقته في التعبير الأدبي ، رغم أنه لم يعتبر نفسه أديبا ، فقد كتب في نهاية رحلته ما يلي :

- "يجب أن ينظر إلى هذه اليوميات على أنها مجموعة " تأثرات " وقتية ، فلا فائدة من البحث فيها عن أسلوب بياني رائع ، أو عن وقائع تاريخية مفيدة "

إذا بحثنا عن العناصر الأدبية في هذه الرحلة ، وجدنا الكثير منها ، فالكاتب يضمن كتاباته الأدعية المسنونة ، مع آيات الذكر الحكيم ، ويستشهد بأبيات شعرية لشعراء كتبوا بالأردية والفارسية والعربية ، بالإضافة إلى عبارات النثر الفني التي نلاحظها حين تلتهب مشاعر الكاتب أحياناً ، حتى في عبارات الوصف العادية ، فقد وصف الطريق الصحراوي بين الكويت والرياض بعبارات مؤثرة :

" تحركت العربة ، فأخذت أقرأ الدعاء المأثور : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » . تحركت العربة خارج المدينة ، ودخلت في الصحراء ، صحراء قاحلة جرداء ، تترامى من بعيد ، حيث لا تُرى نبتة خضراء ، أو قطرة

ماء ، والأرض من أمامنا تبدو أحيانا رمالا ناعمة ، وأحيانا ما تختلط الرمال بالأحجار والحصى . . وكان الطريق يعلو ثم يهبط بشكل حاد ، بينما الهواء الساخن يلفح الوجوه ، فيضطر الإنسان إلى تغطية وجهه حتى في الغروب . . "

والعلامة مسعود عالم الندوي يرفض أن يضعف أمام مشاعره ويشرح ذلك بقوله :

- " لقد نزع المتصوفة ومن جذبهم التصوف إلى الكتابة عن هذا السفر المبارك (سفر الحج) بأسلوب بياني كله عشق وحب ، والعبد الفقير رغم قصوره ، ورغم ذنوبه ، عاشق للسنة ومولع باتباعها، إلا أنني لا أستحسن أسلوب التعبير بوصل الحبيب ، وفراق ليلى ، وعالم جنون العشق . . . إلخ في حضرة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل حال فلكل إنسان ذوقه "

- " وقد يفهمها البعض على أنني " وهابي " أو " نجدي " فهذا هو ذوق العبد لله . . "

ويكمل العلامة مسعود كلامه :

- " خلاصة القول أن القافلة تمضي الآن إلى ديار الحرم ، والقلب عامر بالشوق ، وحلاوة العواطف ، فما هو قدر بساطنا ؟! وما هي إمكانياتنا ؟! العبد الفقير محروم من الوسائل المادية ، لكنه فضل الله المالك الحقيقي ، فها هي مشكلات الطريق تسهل ، وها نحن نمضي إلى الهدف المنشود ، بسكينة وهدوء، نلبي دعوة ربنا المعبود . "

ويخشى الأديب العواطف الغامرة لأنها تؤدي إلى العشق ، والعشق يؤدي إلى البدعة يقول :

- . . " فالمضي على طريق العشق ، وطريق السنة ، يحتاج إلى همة ، وقد قال أحد الشعراء بالفارسية :

- در كفى جام شريعت   در كفى سندان عشق

- هر هوس تا كه نداند   جام وسندان باختن

- في كف كأس الشريعة

- وفي كف سندان العشق

- وكل من في طبعه هوس العشق

- لا يعرف اللعب بالكأس والسندان .

ومرة أخرى يعبر الكاتب بعبارات بيانية رائعة عن المشاعر التي احتوته ، وهو في طريقه إلى المدينة المنورة :

- "انطلقت القافلة . . . وتملكني الشوق ، ورغم جفاف مشاعري ، ورغم سلفيتي الشديدة التي يعيبني البعض عليها ، فقد وجدت قلبي يضطرب ، فقد كنت أعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر من هذه الطرق ، لم يكن هناك سيارات ، ولا مركبات ، فلعلي أسأل غبار الطريق ، لأجد لآثار أقدامه (صلى الله عليه وسلم) علامات ، وكما قال الشاعر :

تعطر وادي النعمان كله بمرور الحبيب

تضوع مسكا بطن نعمان إذ أمست

بها زينب في نسوة عطرات

- " كانت أرض المدينة المنورة تقترب وتقترب ، والعبد الفقير يدندن بأنغام سرية ، تتلاشى وسط هجوم السعال المتواصل ، فأخذت أردد الصلاة على النبي ، مع أنغام المدائح النبوية ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم "

وفي موضع آخر تطغى عليه مشاعره بعد زيارته للمسجد النبوي :

- " قسوت على قلبي ، وطويت متاع سفري ، فليساعدني الله ، ويوفقني إلى العودة من مدينة حبيبه صلى الله عليه وسلم ، فربيع المدينة دائم ، فلماذا لا ننجذب إليها ، وإذا لم نعشق مدينة الحبيب ، فأي مكان نعشق ؟! وأي مكان يجذب القلب ، ويهز الروح ؟ . . من ناحية الذهاب ، نحن لا شك ذاهبون ، عائدون إلى ديارنا ، لكن صورة المدينة المنورة ستظل باقية على مرآة قلوبنا :

- فما رأته العين لا يزال ماثلا أمام العين
- ما رأته العين ، ذاب ، وامتزج في القلب
- ماذا أحكي ؟ وماذا أقول عن ربيع المدينة ؟
- ربيعها ربيع في ربيع في ربيع

وهكذا يتضح من هذه النماذج وغيرها مما سيطالعه القارئ الكريم أن العناصر الأدبية في الرحلة واضحة ، وأن رحلة العلامة مسعود عالم الندوي " شهور في ديار العرب " تستحق أن تحتل مكانة في أدب الرحلة ، سواء بلغتها الأصلية (الأردية) أو باللغة العربية التي ترجمناها إليها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه تعالى .

د. سمير عبد الحميد إبراهيم
أستاذ اللغة الأردية وآدابها
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالرياض

مقدمة المؤلف

كاتب هذه السطور طالب علم ضعيف ، لديه شغف باللغة العربية وأدبها منذ نعومة أظفاره ، سنحت له الفرصة من قبل للقاء العرب ، إلا أن هذه هي الزيارة الأولى لبلاد العرب ، ولهذا كانت هذه الرحلة القصيرة ، تحقيقا لأمل طالما راوده ، طوال سنوات حياته .

بدأت الرحلة في الأيام الأخيرة من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٨ هجرية (٢٨ إبريل ١٩٤٩م) وانتهت في ٢٢ صفر سنة ١٣٦٩ هجرية (ديسمبر ١٩٤٩م) وهكذا بقيت خارج باكستان مدة سبعة أشهر ونصف ، تجولت خلالها في مختلف مدن العراق والكويت ، ووجدت فرصة طيبة للسياحة والتجوال في مدينة الرياض العاصمة ، كبرى مدن نجد ، وفي النهاية كان لي نصيب في حج بيت الله ، وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا سعدت بأداء فريضة الحج ، وزيارة المسجد النبوي ، وحاولت قدر المستطاع ، الاستفادة من المؤتمر الدائم لمسلمي العالم ، ولم أقصر ، ولو للحظة واحدة في بذل جهدي ، والتوفيق والرشاد بيد الله عز وجل ، فعلى الإنسان أن يسعى وبالله التوفيق .

ولا بد أن نشير إلى أن العقيدة الصحيحة ، والعزم القوي هما كل ما لدينا من رأس مال ، وهما عوننا في عزيمتنا ونضالنا ، ضد عالم الكفر والجحود الذي يحيط بنا .

بدأت أكتب هذه اليوميات في البداية ، لأُروّح بها عن نفسي ، وأقطع بها بعض وقتي ، وبعد شهر أو شهرين ، راودتني فكرة طباعتها ونشرها ، فقمت على سبيل التجربة بنشر حلقتين أو ثلاث في مجلة " الكوثر " ، بعدها وصلتني عشرات الخطابات ، من الأحباب والأصدقاء ، يحثونني على الاستمرار ، ويطلبون مني أن أتناول في يومياتي بعض القضايا السياسية أيضا ، فكان لتشجيعهم أثر في استمراري في كتابة هذه اليوميات .

تجدر الإشارة هنا إلى أن كتابة هذه اليوميات صدرت من خلال وجهة نظر خاصة ، فكاتبها ، العبد الفقير ، من طلاب التاريخ ، ومع هذا لن يجد القارئ أثرا للتاريخ في هذه اليوميات ، ذلك لأن أهم هدف في هذا السفر ، كان البحث عن أصحاب متعاطفين معنا نحن القائمين على أمور الدعوة الإسلامية في شبه القارة ، ويكون لهم نفس الاتجاه ، وقلّ أن توفرت لي فرصة لزيارة الآثار القديمة أو الأماكن المشهورة ، ولم أستطع - بطبيعتي وبحكم تكويني النفسي- الاهتمام بأي مكان سوى الحرمين الشريفين ، وهكذا قضيت معظم وقتي في لقاء الشباب المتعاطف معنا ، ولقاء العلماء من أهل السلف، والأدباء أيضا ، وهكذا يلقي هذا الكتاب - الذي يتضمن هذه اليوميات - الضوء بوضوح وجلاء على هذا الأمر .

ولابد أن أشير هنا إلى أنه طوال هذه الرحلة ، كان يرافقني ، ويعاونني ، ويساعدني أخي محمد عاصم سلمه الله ، رفيق دار العروبة ، وكان من الصعب على عبد فقير ، عاجز ، مريض مثلي أن يتغلب على مشقات السفر ومشكلاته ، دون رفقته وصحبته ، ومع أن شكري له ، وثنائي عليه ، يتعديان حدود الشكر

الرسمي ، إلا أنني يجب أن أنوه في هذه المقدمة المختصرة بهذا الأمر ، وأرى من الضروري أن أكرر الشكر له من صميم قلبي .

كما أشكر السيد منهاج علوي الحاصل على شهادة الليسانس مع مرتبة الشرف ، فقد قرأ مسودة هذا الكتاب ، وقدم المشورة المناسبة ، فيما يتعلق بالمصطلحات اللغوية . وقد اعتمد العبد الفقير في طباعة هذا الكتاب على ذوق الناشر ، وأدعو الله أن يخلو الكتاب من الأخطاء .

وفي النهاية ألجأ إلى الله ، رب العزة ، أن يتقبل منا إخلاص النوايا ، وأن يجعل هذا العمل المتواضع في ميزان حسناتنا آمين .

٩ ربيع الآخر ٦٩هجرية

مسعود عالم الندوي

كراتشـــــي

٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ ٢٨ إبريل ١٩٤٩م

تقرر أن نسافر اليوم بالسفينة " دواركا " ، فاعتمدنا على فضل الله وتوفيقه، وإلا فالسفر طويل ، والمسافر ضعيف وعليل ، وليس هناك غير الدعاء نرفعه إلى الله ليهبنا إخلاص النية ، وأن يجعل سفرنا هذا بصعوباته ومشقاته في سبيله عز وجل .

وصلنا الميناء في تمام الساعة الثانية عشرة ، وبعد الانتهاء من إجراءات السفر سُمح لنا بركوب السفينة في الساعة الثالثة والنصف ، كان بعض الأصدقاء قد ودعونا ، وبقي من بينهم السيد / رحمت إلهي الذي أخذ يساعد عاصم ، وقد تم إعفاء ركاب الدرجة الأولى من " القرنطينة " وتقرر أن يكون الفحص الطبي على ظهر السفينة ، وتولى مسئولو الجمرك فحص الأمتعة وتفقد محتوياتها ، لم يكن معنا غير كتب تتناول موضوعات الدعوة الإسلامية ، وبعض الكتيبات والمنشورات المتعلقة بالدعوة أيضا ، تصدرها جماعتنا .

ألقى ضباط الجمرك نظرة على الكتب ، وأدوا عملهم بكل هدوء ، وبخلق طيب ، رأى أحدهم كتيب " الحياة بعد الموت " فقال : منذ فترة طويلة وأنا أشتاق لمطالعة هذا الكتيب ، هل طُبع مرة أخرى ؟ . . وانتهت مرحلة الفحص الجمركي بسهولة شديدة .

كما ذكرت ركبنا السفينة في تمام الساعة الثالثة والنصف ، لكن عاصماً لم يستطع الحصول على الإذن بالركوب قبل الساعة الخامسة ، كنا قد حاولنا الحصول على تذكرتين في الدرجة الثانية ، لكن محاولتنا باءت بالفشل ، واضطررنا إلى أن نأخذ تذكرة في الدرجة الأولى ، وأخرى على السطح . . تأخر سحب " هلب " السفينة من المرساة ، ولذلك لم نستطع أن نشاهد هذا المنظر ، وقد شعرت فقط بهذا الأمر حوالي الساعة الثامنة والنصف ليلا ، حين ابتعدت السفينة عن الساحل .

كانت " كابينة " الدرجة الأولى مخصصة لراكبين اثنين ، ولهذا شعرت بقلق شديد ، وأخذت أدعو الله ألا يكون رفيقي في " الكابينة " شخص مستهتر لا مبال ، ولحسن حظي كان رفيقي شاب كجراتي ، يُدعى عيسى حبيب ، تاجر كبير ، كانت أسرته بأكملها متوجهة لزيارة كربلاء ، مع أنهم جميعا دون استثناء من أهل السنة ، كان يصلي معي المغرب والعشاء ، وكان ملتزما بأداء الصلوات في أوقاتها .

كان محمد عاصم يأتي إليّ باستمرار ، فبعد أن تحركت السفينة ، أُغلقت الأبواب العلوية ، وكان من الممكن الذهاب والإياب عن طريق المطعم ، فكان محمد عاصم يأتيني ثم يتركني بعد صلاة العشاء .

كراتشــي - البصــرة

الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة ٦٨ هجرية / ٢٩ إبريل ١٩٤٩م

مضى الليل لطيفا ، لم يتيسر لي مثل هذا النوم الهادئ منذ أسابيع ، فتحت عيني فقط مرة واحدة في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وبعدها نمت حتى الصباح ، استيقظت في الساعة السادسة صباحا ، ودخلت دورة المياه ، وتوضأت ثم صليت . شعرت ببعض الآلام في جسمي ، لم أشكو من الدوار أو البرد أو ما شابه ذلك .

في الدرجة الأولى تم تحصيل مبلغ ٩٦ روبية للطعام بواقع ١٦ روبية يوميا ، إلا أن الطعام كان من النوع العادي ، ومن الممكن أن يكون الطعام الأوربي أفضل بكثير لكني فضلت طعام " المسلمين " نظرا للشك في أمر " الذبح " ، وكان " محب عزيز علي ميانه " قد نصحني بأن يكون الفطور على الطريقة الإفرنجية ، بينما بقية الطعام على الطريقة " البلدي " ، وحاولت العمل بنصيحته ، لكن المسئولين بالسفينة قالوا باستحالة هذا الأمر ، فإما أن تكون سيدا إنجليزيا تماما ، وتأكل الوجبات كلها على الطريقة الإنجليزية ، وإما أن تكون " ابن بلد " فتأكل الطعام على طريقة أولاد البلد ، وليس هناك وسط بين هذا وذاك ، فقبلت بالأمر الثاني أي أن أكون ابن بلد ، وأن يكون طعامي على طريقة أهل وطني .

الساعة الآن الثامنة والنصف صباحا ، أشعر بالتحسن والراحة ، كما أشعر بالرغبة في الكتابة ، بعد أن قضيت شهرا ونصف الشهر في كراتشي دون أن أكتب شيئا ، فلم أجد فرصة إلا لمقابلة ممثلي البلاد العربية ، وتبادل الآراء معهم .

كانت الكتب مرصوصة ومرتبة في الصناديق ، من ذا الذي أفسد ترتيبها ، وغيّر من وضعها ؟! ليس فيها كتاب جديد ، هناك بعض أعداد من مجلة " الرسالة " سأقرأها فيما بعد . . إذن لماذا لا أبدأ في كتابة يومياتي ؟! قبل تسع عشرة سنة أو قبل عشرين سنة ، في زمان التلمذة في ندوة العلماء ، كنت ملتزما بكتابة يوميات ، فماذا لو مارست هذه الهواية في سفري هذا ؟! وحين قررت الكتابة ظهرت مسألة أخرى : هل أكتب بالعربية ، أو بالأردية ؟! كان رأي محمد عاصم هو أن أترك الأردية هناك على شاطئ باكستان ، وأن أستخدم اللغة العربية في محادثاتي ، وفي تمضية شئون حياتي ، ووافقته فيما يتعلق بالمحادثة، ففي كراتشي تلاشت رهبة هذا الأمر ، وتخلصت مما كان يعتريني من تردد أثناء التحدث بالعربية .

كانت السفينة تعج بالركاب العرب ، فكنت ألتقي بهم ، وإن شاء الله لن يكون أمامي مشكلة ما في التحدث بالعربية ، حين أصل إلى البصرة وبغداد ، لكن فيما يتعلق باليوميات ، شعرت برغبة عارمة في تسطيرها باللغة الأردية .

أخبرنا أحد الأصدقاء في كراتشي بأن ظفر أحسن عائد إلى تركيا على نفس السفينة ، وكنت قد سمعت أو قرأت اسمه ، فقد ورد ذكره بالخير في مجلة

" معارف " إذ ترجم إلى اللغة التركية كتاب " الفاروق " للعلامة شبلي النعماني[١] ، وسيرة عائشة ، وثلاثة مجلدات من سيرة النبي لسيد سليمان الندوي [٢] (لكن عُرف فيما بعد أنه لم يكن المترجم ، وأن المترجم الأصلي هو الأديب التركي المعروف عمر رضا ، بينما اقتصر عمل ظفر أحسن على المساعدة في تفهيم المتن الأردي) فشدنا الشوق للقائه ، وذهبنا إليه ثلاث مرات ، وطرقنا باب " كابينته " لكن دون جدوى ، وفي النهاية ، وبعد فترة ، التقينا به على سطح السفينة ، كانت زوجته ترافقه في رحلته هذه ، بدأنا الحديث ، وبسرعة تطرقنا إلى الحديث عن " مولانا سندهي " [٣] فقد أقام معه ظفر أحسن في أفغانستان لسبع سنوات ، كما كان معه أيضا في روسيا ، ورافقه في تركيا ، عرضت عليه رأيي المتواضع ، فيما يتعلق بنظريات وأفكار مولانا سندهي ، كان يوافقه ويتحدث بلسانه ، وعلى كل حال ، جرى الحديث بشكل طيب ، وساده طابع المجاملة والود ، لم يطلع على الكتابين الأخيرين لمولانا سندهي ، وكان يحملهما معه ، وتناول الحديث فيما بعد تركيا وروسيا ، نظرا لحديثنا المتواصل عن مولانا سندهي ، كان معارضا تماما لروسيا وظل يقول : اقضوا على الرأسمالية والإقطاع وإلا جاءت الشيوعية ، وإذا جاءت الشيوعية ، فلن يكون هناك دين ، ولا مجتمع ، ولا حياة أسرية ، وقد زار روسيا عدة مرات ، وكانت آخر جولاته فيها سنة ١٩٣٧م قال بتعاطف شديد :

- لا يوجد في بخارى اليوم من يعرف اسم الإمام البخاري !

كان من الصعب أن أتفق معه فيما يتعلق بتركيا ، لا شك أنني عرفت منه أمرا جديدا والله وحده يعلم مدى صحة هذا الأمر ، فحتى اليوم كنا نعرف من

خلال كتّابنا المعتبرين أن الصلاة في تركيا ، لا يمكن أن تؤدى باللغة العربية ، أي أن القرآن الكريم لا يُقرأ هناك بمتنه العربي ، بل كان يُسمح فقط بقراءة الترجمة التركية ، إلا أن ظفر عارض هذه المعلومة ورفضها بشدة قائلا :

- لم يحدث هذا أبداً ، واليوم أيضا تقام الصلاة ويرتل القرآن بمتنه العربي، ولا خلاف ألبتة على هذا الأمر .

حدثنا أيضا عن القضايا الأخرى التي تتعلق بتركيا الحديثة ، وهو يعطي " سند جواز " لـ" بدع " كمال أتاتورك التي ظهرت في ظل ظروف خاصة ، وكان قول كاتب هذه السطور ، العبد الفقير ، إنه يجب أن تسمى الأشياء بأسمائها ، وأن نقول إن المنكر منكر ، وإلا فعلى الدين السلام ، وعلى كل حال ، فالرجل يعتبر ، بل ويؤمن ، بأن الإسلام (الدين) هو نظام حياة كامل ، وشريعة كاملة ، ويؤمن أيضا ، ويعترف بأن هدف تركيا أيضا يجب أن يكون تطبيق هذا الدين الكامل ، ويرى أيضا أن تركيا متجهة ناحية الدين ، وأنها سترجع إلى الدين ثانية، وطبقا لقوله : " ستكون هناك مرحلة إحياء الدين في تركيا " .

بحثنا أيضا مسألة باكستان ، كان في يدي كتيبات بالعربية ، فبدأ يقول :

- أعطني كتبا بالأردية وسوف أترجمها .

فقلت :

- إن شاء الله ، ستصلك في تركيا مجموعة كاملة من الكتب ، لدينا الآن نسخة واحدة من كل كتاب ، يمكن أن تطالعها هنا في السفينة .

فطلب الكتب بسرور شديد ورغبة عارمة ، وبعد مدة قدمنا له بعض الكتيبات بالأردية والإنجليزية .

كانت "كابينتنا " في الطابق الثاني ، وكان هناك مكان فسيح بالإضافة إلى الكبائن ، وفي الطابق الثالث كانت هناك صالة فيها مكتبة صغيرة تضم كتبا عامة ، وفيها نسخ من القرآن الكريم ، وكذلك الإنجيل ، وكانت نسخة القرآن الكريم تتضمن المتن مع ترجمة عبد الله يوسف ، هذا بالإضافة إلى كتاب واحد فقط عن الإسلام ! ومن حسن الحظ أنه كتاب محمد أسد Islam At The Cross Road الإسلام على مفترق الطرق .

قضيت بقية يوم الجمعة في التطلع إلى الوجوه ، والبحث عن بعض الناس المعقولين ، كان هناك كثير من العرب ، لكن أغلبهم كانوا من غير المتعلمين ، يميلون إلى اللهو واللعب ، أما من كانوا على عرش السفينة ، من ركاب الدرجة الأولى والثانية وعامة مسافري الدرجة الثالثة ، فحالهم جميعا واحدة ، ولهذا نزلت أبحث عن بعض الناس المعقولين .

كانت " كابينتنا " متصلة بمكتب رئيس المضيفين ، أقام صديقنا التاجر الشاب علاقة صداقة مع الجميع ، ولهذا حظيت بدوري بعطف جميع العاملين على ظهر السفينة ، ولم يكن هناك أي حاجز ، يحول دون تردد محمد عاصم على " كابينتي " وإلا فالمسافر على درجة (الديك) أي السطح لا يمكنه أن ينزل من فوق إلى مكان مسافري الدرجة الأولى .

لكن كيف عقدت أواصر الصداقة تلك ؟! هذه قصة وعبرة . . يمكن أن نقدر منها مدى انحطاط المجتمع ، فموظفي السفينة العاديين الذين يريدون بث

الرعب أو فرض الاحترام بالقوة على مسافري الدرجة الأولى ، كانوا يطيعون تماما ما يقوله هذا الشاب ، ويمتثلون لأوامر هذا الشاب ، صاحب الثقافة البسيطة والتعليم العادي . في يوم الثامن والعشرين سألني هذا الشاب الميمني هذا السؤال :

- لي صديق وموظف سيأتيان إلى "الكابينة" . . فهل لديك اعتراض على هذا؟

- لا . . فأنا نفسي لي صديق حميم سوف يتردد عليّ أيضا . . لكن كيف يمكن هذا والأبواب مغلقة ، وقد قال رئيس المضيفين إن مسافري "السطح" لا يمكن أن يأتوا إلى أماكن مسافري الدرجة الأولى؟ - هكذا سألته ، فضحك الشاب وقال :

- لا تقلق بشأنه ، كنت أحتاج فقط إلى موافقتك ، أما بقية المسألة فحلها سهل .

ثم أخرج من جيبه حافظة نقوده قائلا :

- إن فيها قوة جبارة . . .

وبعدها عرفت أن من بين أصدقائه مسافرين بدون تذاكر ، فقد انشغلت الأماكن كلها ، وكان لا بد لاثنين من أصدقائه من السفر ، فاعتمدا على "قاضي الحاجات" وركبا السفينة ، ومع سير السفينة على سطح البحر ، تم تصفية الأمر ! ! واليوم هو اليوم الثاني ، وقد صفا الجو تماما بين الشاب الميمني ، وبين

جميع مسئولي السفينة ، وعمالها وموظفيها ، وكان الشاب يتطلع إليّ مرة بعد مرة ويقول : لم تعد للإنسان اليوم قيمة تُذكر . . القيمة كلها فيما يوجد بداخل هذه . . ويهز حافظة نقوده .

كانت نية هذا الشاب - عيسى حبيب - سليمة ، وهكذا كانت فطرته أيضا ، وهو يؤدي الصلاة في أوقاتها ، وقلبه عامر بحب الله ورسوله ، ونظرا لقلة تعليمه وخراب البيئة المحيطة به ، لم تتضح له الصورة الصحيحة للدين ، ولا يزال التصور الصحيح للدين لديه مبهما غير واضح ، وينتمي الشاب أصلا إلى بلدة " جوناكره " (٤) ويمارس التجارة فيما بين كراتشي وبمباي (٥) وكلكته وبعض المدن الأخرى ، وهو يعرف اللغتين الكجراتية والأردية بالإضافة إلى لغته الأم ، ويعرف قليلا من الإنجليزية ، ومعرفته بالأردية قليلة أيضا ، كان يطالع كتاب خطبات (٦) وظل يردد مرة بعد مرة : الكتاب جيد جدا، من فضلك أعطني بعض الكتب الشبيهة بهذا الكتاب الجيد .

في العاشرة صباحا أعلن رئيس المضيفين أن السفينة تدخل الآن الخليج العربي ، ونظرا لافتقاري إلى الخرائط التوضيحية ، لم أتمتع جيدا بالسفر ، كنا نمر بجزر صغيرة ، تعلوها هضاب وجبال غير مرتفعة ، لا نعرف تاريخها ولا جغرافيتها ، ولم يكن مسافرو الدرجة الأولى في الكبائن ، يستطيعون مقابلة القبطان بدون معرفة مسبقة ، أو بدون تقديم سابق أو موعد ، اتباعا لتقاليد الثقافة الإنجليزية ، وفي الدرجة الثانية كان هناك الكثير من الجهلة ، أو ممن هم على قدر بسيط جدا من التعليم ، وكان يوجد معلم للحجاج من مكة ، مع محمد عاصم ، رافقه منذ بدأت الرحلة من كراتشي، كان الرجل في طريقه إلى

البحرين ، وربطتنا به معرفة بسيطة ، أخبرنا اليوم عن مكان اسمه " رأس الخيمة " عندئذ طاف في ذهني تاريخ هذا المكان كله ، فقد كان المكان قبلا مركزا بحريا للفدائيين العرب ، تمكنت شركة الهند الشرقية بعد حروب متعددة وشرسة من تدميره والقضاء عليه ، وقد سيطر عليه أهل نجد في زمان قوتهم (أي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر) وكانوا يشجعون الفدائيين البحريين الذين يقال لهم بالعربية " قراصنة " وبالإنجليزية "Pirates" وهكذا ظهر العداء بين الإنجليز ، وبين أهل نجد بسبب هذا الأمر ، ومن ثم لعب الإنجليز دورا كبيرا في الإساءة إليهم والافتراء عليهم ، وبخاصة على أصحاب الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب [٧].

كان معنا خريطة عادية ، تتضمن فقط إشارة إلى الأماكن المشهورة ، وفي الطابق الثالث للسفينة ، كانت هناك خريطة جيدة للخليج العربي ، محفورة على الخشب، ولكن ورد فيها أسماء الموانى المشهورة فقط ، دون ذكر للأبعاد والمسافات .

بقي شئ واحد يتعلق بمتع السفر الخاصة ، وهو أن جميع العاملين من الطبقة الدنيا كانوا هنودا ، وكان من بينهم بعض النصارى ، لم تقع عيناي على مسلم واحد ، ولم أشتبه في وجود مسلم ، عدا مسلم واحد في المطعم ، أما الموظفون والعاملون من الطبقة العليا ، فكانوا من الإنجليز الهنود ، أو الهنود المتفرنجين ، ومن الممكن أن يكون القبطان ومن معه من الإنجليز ، لكن جميع الموظفين والعاملين الهنود كانوا يفهمون الإنجليزية ، وكانوا يفضلون أيضا إصدار الأوامر وتعنيف الركاب بالإنجليزية .

بالأمس أرسل عيسى حبيب " برقية " إلى كراتشي ، أعددت له مضمون البرقية وكتبتها على ورقة ، فرغب أن أرافقه ، فوصلنا إلى المكتب ، وكان بالغرفة المجاورة أحد السادة الإنجليز الهنود ، يقضي وقت راحته ، فقال بغطرسة شديدة :

– ماذا . . ؟

– نريد أن نبعث برسالة !

– لماذا لم تأت صباحا ؟

– أليس هذا وقت إرسال الرسائل ؟ " هكذا استفسرت منه فقال :

– ليس هناك جدول معين .

وحين سألته بحزم لماذا لا يمكن إرسال الرسالة في هذا الوقت ، بدا عليه نوع من الاعتدال والاتزان .

دار الحوار بأكمله باللغة الإنجليزية ، وحين تم التعامل معه بما يناسبه ، ابتسم ورحب بنا وظهر عليه الأدب ، كان هذا الموظف المحترم إنجليزيا هنديا ، وكان هذا هو حال الموظفين الهنود أيضا ، لقد ذهب الإنجليز لكن عبوديتهم لا تزال باقية ، فالعبودية الفكرية أسوأ ألف مرة من العبودية الجسدية .

السبت ٢ رجب ٦٨هجرية / أول مايو ١٩٤٩م

اليوم أشعر بالكآبة والحزن ، وأشعر أيضا بالتعب والضعف ، استمر شعوري بضيق التنفس مع بزوغ الفجر ، شربت الشاي وأخذت الدواء ، وبعد

استعمال اللوز والعسل زال عني ضيق التنفس نتيجة إصابتي بداء الربو ، لكن تأثير ذلك استمر طوال اليوم ، وهذا الدور ينتابني في بعض الأحيان ، ولا فرق بين ما انتابني بالأمس وبين ما ينتابني عادة .

الخليج العربي ساكن كالبحيرة ، ولا يوجد هناك أدنى إحساس بالحركة داخل " الكابينة " ، لم أنل حظا من هذا السكون منذ سنوات عديدة ، وبقيت أفكر وأفكر لساعات طوال ، مرت أمامي صفحات الحياة السوداء ، صفحة ، صفحة ، انتابني شعور عجيب من الحسرة والندم ، اقترب العمر من الأربعين ، وأخذ السؤال يلح عليّ : ماذا ؟ ثم ماذا ؟ كانت حياة الندوة [٨] حياة علم وأدب ، لكنها لم تَخْلُ من الشوائب ، ومن العيوب ، ومن التفاخر والتكتلات ، والتحزب و" الشللية " . . قضيت في بتنة [٩] سبع سنوات ، في هدوء تام ، وسط جو علمي هادئ ، رافقت الكتب ومؤلفيها الكبار ، كانت حياة يُغبط عليها أي طالب أو دارس ، إلا أن قيمة ذلك الهدوء كانت غالية ، كان القلب ينقبض من داخله ، الوظيفة الرسمية ، العلاقة مع غير المؤهلين من حولي ، المجاملات في كل وقت ، والتملق في كل لحظة ، ولم أكد أبدأ حياتي العملية حتى ظهر التحزب باسم الندوة ، حدثت معارك شديدة . . سامحنا الله . . حمي وطيس آخر معارك الجاهلية في ذلك الوقت حين تأسست الجماعة الإسلامية ، وصار العبد الفقير عضوا فيها .

في يوليو سنة ١٩٤٢م عقد المجلس الإقليمي لجمعية تطوير اللغة الأردية (أنجمن ترقي اردو) جلسته ، ونظرا لأهداف خاصة ثار المجلس الإقليمي على المجلس المركزي ، فقمنا بالوقوف في صف المجلس المركزي ، وكان معظم

المتشاحنين من الشباب الذي ينتمي إلى الشيوعية وحزب المؤتمر ، ولهذا تم تقديم العبد لله كاتب هذه السطور ليكون قائدا للعصبة – ليغفر لنا الله فقد كانت هذه آخر معركة من أجل الأهداف الذاتية ، ومن أجل التحزّب ، لا يزال أثر جرح المشاركة فيها باقيا في قلب العبد الفقير حتى يومنا هذا ، كان رفيقي وصديقي تقي الدين النعماني يوجه حديثه لي مرة تلو الأخرى قائلا :

- ما ذا تفعل ؟ ماذا تفعل ، أين تضيع طاقتك وجهدك ؟

- يا أخي . . هذه آخر معركة ، يجب أن ننتقم للندوة من خلالها

- هكذا كنت أرد على تساؤله المستمر .

ومنذ أكتوبر سنة ١٩٤٢م بدأت صفحة جديدة في كتاب حياتي ، لم يبتعد عني اليأس ، ولم يفارقني الفشل ، فقد تعرضت لمراحل الفشل على درب الحياة ، لم تكتمل الهمة والعزيمة ، ولم تتم المخططات ، ولم نتمكن من إخراج الفكرة الخاصة بإصدار مجلة عربية إلى حيز الوجود ، وطبع ستة كتيبات فقط ، وظلت مسودة كتاب " غربة الإسلام في الهند " ناقصة منذ سنتين ، ولم يتحقق برنامج الحج والسياحة في العالم الإسلامي ، لأسباب قهرية ذاتية ، فقد كنت مستعدا تماما قبل التقسيم (١٠) وأعددت الزاد والعتاد بفضل من الله وكرمه، لكن هذه المأساة غيرت الدنيا ، فكل ما جمعته خلال عشرين عاما ، بيع بثمن بخس لا يتعدى قيمة " البضائع الرجوع " أو قيمة ما يلق بسلة المهملات ، وتلك الكتب لو حاولت شراءها ثانية ، فلن أستطيع إلى ذلك سبيلا ، لقد قرأت تلك الكتب كلمة ، كلمة ، وحرفا ، حرفا وكتبت تعليقات

على الهوامش ، وألفت صفحاتها وسطورها ، حتى بدت ماثلة في ناظري حتى اليوم . ويخيل إليّ وأنا أكتب هذه السطور أن مجلدات حاضر العالم الإسلامي ، والفتح بمقالاتها وأبوابها ، ماثلة أمامي ، تتراءى لي أمام عيني ، وما أريد أن أقول هو أنني واجهت مشكلات ، وسأواجه أيضا مشكلات ، لكن ضميري مطمئن ، هناك اختلاف مع الأصدقاء والأحبة ، لكن هذا الاختلاف ليس لأغراض ذاتية ، قد يكون لي رأي مختلف عن رأي أصدقائي في بعض القضايا ، لكني لا أصرّ عليه ، ومهما كان العمل قليلا أو كثيرا ، فأنا أدعو الله أن يكون خالصا لوجهه تعالى . . .

رحت أمضي على هذا النحو ، أفكر أن يكون عملي في سبيل الله ، واستمرت هذه الأفكار تسيطر عليّ حتى بلغت مدينة البصرة .

يرى شيوخنا أن محاسبة النفس هذه نوع من التصوف ، ويقولون : إنك عمليا تقول بالتصوف ، ويقول العبد الفقير : على رسلكم ، إنكم تنسبون كل فعل طيب إلى التصوف ، ثم أحيانا تقولون بالتصوف ، نحن نتبرأ من هذا الدجل والخداع الذي يظهر اليوم بصفة عامة داخل عباءة التصوف ، وداخل ستارة التصوف، نحن ننكر هذه البدع التي دخلت الدين الخالص عن طريق التصوف، وفي النهاية من ذا الذي ينكر " الإحسان " والتعلق بالله ، إلا أن يكون كافرا ؟!! والعياذ بالله .

واليوم في تمام الساعة الثالثة عصرا (الخامسة بتوقيت كراتشي) ألقت السفينة بمرساها في البحرين ، كان الساحل بعيدا ، لهذا اضطر المسافرون إلى

الوصول بالقوارب ، كان نظام نقلهم إلى الساحل سيئا للغاية ، فبينما كانت النسوة من القواعد والنسوة الضعاف يتدحرجن ، ويسقطن على المراكب ، كان الرجال الأشداء الأقوياء يركبون بسرعة ، وبدا الأمر وكأن كل شيء يتم بدون ترتيب على الإطلاق ، وكأن السفينة بدون ربان أو قبطان ، ولم يكن هناك ترتيب أو نظام من قبل أمير البحرين ، وكان علم المملكة المتحدة أي الراية البريطانية يرفرف خفاقا في الأجواء !!

انشغل جميع المسافرين بمشاهدة هذا المنظر ، وكنت بدوري أدور هنا وهناك أحيانا قاصدا الفرجة ، واستمر هذا العمل حتى الساعة التاسعة أو العاشرة ليلا . كان صديقنا محمد عاصم سعيدا بهذه الفرجة والمشاهدة ، كانت صحته قد تدهورت في كراتشي ، فاستعاد صحته ، واستعاد قوته ونشاطه في السفينة ، وصار كما كان في روالبندي في كامل عافيته .

الأحد ٣ رجب ٦٨ هجرية / ٢ مايو ١٩٤٩م

استمـر الحال كما هو عليه ، واستمر ضيق التنفس أيضا ، كان الجو باردا إلى حد ما ، وكانت الريح لا تزال تهب عاصفة منذ أمس ، ويبدو أن سرعتها ستزيد اليوم ، يقول المسئولون بالسفينة إن هناك طوفانا في بحر العرب ، على كل حال انشغلنا نحن بأمورنا وأعمالنا .

تعددت لقاءاتنا مع الناس ، إلا أن مدة الصحبة كانت قصيرة ، قرأ ظفر أحسن الكتب ، وأعادها إلينا ، تأثر كثيرا بكتاب " معاشي مسئله " أي القضية الاقتصادية وقال : يبدو أن المودودي [١١] درس الموضوع دراسة عميقة ،

وأضاف أيضا قوله بأن مولانا سندهي يريد هذا أيضا ، فلماذا لا يتم توحيد الجهود كلها ؟

فقال العبد الفقير :

- أولا اقرأ جميع كتبنا ، واقرأ آخر مؤلفات مولانا سندهي التي تحملها معك، ثم كوّن رأيك ، أما فيما يتعلق بتوحيد الجهود ، فليس هناك من يدعو لتوحيد الجهود أكثر منا ، إلا أن عمارة توحيد الجهود يمكن أن تقوم على أسس الاتحاد الفكري .

بالأمس التقيت صدفة بمولانا عبد القدير بدايوني [١٢] لم يسبق لي أن لقيته من قبل ، كان يتجول على سطح السفينة فبدا لي من بعيد بشكله المتميز ، رأيته فتنحنحت ، عندها التفت إليّ . . وبعد السلام والتحيات تعارفنا ، وتبادلنا الحديث ، ومولانا عبد القدير هو حفيد مولانا فضل رسول بدايوني ، وابن مولانا عبد القادر بدايوني ، وقد ذكره مولانا أبو الكلام آزاد [١٣] في " تذكرته " ، كما أشار العبد الفقير كاتب هذه السطور ، إلى مآثره في كتاب " بهلي اسلامي تحريك " أي الحركة الإسلامية الأولى ، ولم أسعد بقراءة مؤلفاته ، فالرجل لطيف وعلى خلق ، يتحلى بشخصية جذابة ، زار بغداد عدة مرات ، يتكلم العربية بطلاقة ، لديه ذوق في قول الشعر ، ولا يزال حتى اليوم - في الغالب - يتقلد منصب " مفتي مملكة آصفية " في حيدر آباد [١٤] ظل يردد : أنا موجود طالما وجد عثمان علي خان .

التقيت به اليوم أيضا ، ذكر لي أنه ذاهب في مهمة خاصة للقاء المفتي أمين الحسيني ، فإذا لم يتمكن من لقائه فسوف يعود من فوره ، لكن الأمر المحير هو أنه يذكر هذه المهمة الهامة لكل شخص ، ويتحدث عنها أيضا ، قال بعد ما شاهد ما معنا من كتب وكتيبات عربية :

- أنت أيضا على علاقة بجماعة المودودي الإسلامية ؟

- فقلت له :

-أنا على علاقة بالجماعة الإسلامية ، لكن القول بأنها جماعة المودودي فهذا غير صحيح . . هكذا جاء ردي عليه قاطعا فقال :

- أقصد التي أسسها المودودي . ثم ذكر أن المودودي كان يتردد على بدايون في طفولته ، إذ كان صديقا لأحد أقاربه .

في المساء جاء للقائنا الشاب إقبال أحمد ، كان قادما من لاهور ، قاصدا لندن ، نال أعلى الدرجات العلمية في الكيمياء من جامعة البنجاب ، وهو ينتمي إلى الجماعة القاديانية [١٥] وبعد أن تبادلنا الأحاديث ، أظهرت له بنفسي " أحمديتي " فأخذ منا بعض الكتب لقراءتها ، وقال بأنه كان يرغب منذ فترة في التحدث إلى إنسان " معقول " عن النظام الإسلامي ، وفي المساء دار بيننا الحديث ، فعرفت أنه لم يكن على يقين من أن النظام الإسلامي ، يمكن أن يطبق في العصر الحاضر ، وأن هناك من هم على مقدرة بتدوين الدستور الإسلامي وتشكيله ، واستمر الحديث بيننا لفترة طويلة ، كان يطري ويثني على

المخطط الدستوري لمحمد أسد ، واستعار مني كتاب " النظرية السياسية في الإسلام (الترجمة الإنجليزية) لمطالعته ، ثم رجع بعد قليل وقال : لقد قرأت الكثير من مثل هذه الكتب(Lot of such things) وبعدها أيضا تبادلنا الأحاديث لفترة .

سيظل على ظهر السفينة لمدة يومين آخرين ، وسيستمر الحال على ما هو عليه ، وسوف يسافر من البصرة إلى بغداد فدمشق ويتابع سفره .

تحدثت اليوم مع هندوكي من السند ، شغوف بالقراءة والمطالعة ، لكن الفرصة لم تسنح لي بإطلاعه على كتبنا فقد كان ذاهبا إلى الكويت - يقول : يجب الآن فصل الدين عن السياسة والحكومة في كل من باكستان والهند ، الإسلام رائع وسام ، لكن مسلمي اليوم في مذلة ، يتصفون بسوء الخلق ، وقد انحطوا كثيرا ، ليس بينهم وبين الإسلام أدنى علاقة ، في قلبي عاطفة شديدة واحترام عظيم للإسلام .

حاولت أن أُفهمه رأيي لكنني أحسست أنه لا يستطيع أن يفهم بطريقة كاملة ما كنت أقوله له باللغة الإنجليزية ، على كل حال لم أتراجع عن محاولتي معه ، وفي النهاية سألني : ماذا تريد ؟ هل تهدف إلى تبليغ دينك للآخرين ؟! فأعطيته إجابة مناسبة ، فرد قائلا : أتمنى لك كل التوفيق والنجاح . فاعتذرت قائلا : للأسف لم أستطع أن أفهمك كلامي كله باللغة الإنجليزية ، كما أن عنوانه بالكويت ليس ثابتا ، فهو يتنقل بين عدة أماكن . .

حولت الريح العاصفة ضوء الصباح إلى لون المساء ، ولم تكد السفينة

تقترب من الكويت حتى هبت عاصفة هوجاء ، تركت السفينة لفترة في حالة من الفوضى الشديدة ، وعلى مسافة قريبة غرق أحد القوارب ، واضطرت السفينة للالتفاف والدوران بطريقة خطرة لإنقاذه ، وكان من الصعب الوقوف في وجه الريح ، حدث دوار على أثر الدوران السريع ، فبقيت جالسا على مقعد ، وبجواري جلس مولانا بدايوني ، وكنا بحمد الله آمنين ، لم يطرأ على قلوبنا أي خوف ، لاحظنا الخوف والهلع على وجوه عدد من الناس ، بينما كان البعض قد حملوا آلات التصوير ، وانصرفوا إلى لهوهم فرحين مسرورين .

كان معنا محمد عاصم الذي شكا هو الآخر من دوار الرأس ، ثم ذهب في النهاية إلى أسفل وغرق في النوم ، بينما استمرت الفوضى لمدة ساعة ، وبعد الساعة الخامسة ألقت السفينة بمرساها ، وكما هو الحال في البحرين ، وقفت السفينة بعيدا عن الساحل . وشاع خبر مفاده أن السفينة ستظل هكذا طوال الليل ، ثم تتجه غدا (٣ مايو) ظهرا إلى عبادان .

الثلاثاء ٤ رجب ٦٨ هجرية ٣ مايو ١٩٤٩م

الحمد لله ! أشعر الآن بتحسن كبير ، وقد انشرح صدري ، وأتوقع أن نطوي سفر البحر بخير وسعادة ، وذلك بفضل الله ، ظلت البضائع تنقل من السفينة طوال الليل ، ولا تزال تنقل حتى الآن ، ومن المتوقع أن ترفع السفينة مرساها عند الظهر ، وعادة ما تستغرق المسافة إلى البصرة سبع عشرة ساعة ، لكن هذا الطريق يستغرق غالبا ثماني وأربعين ساعة .

أقلعت السفينة ظهرا ، وتوقفت بالقرب من شط العرب في الساعة السادسة

مساءً ، وشط العرب هو مكان التقاء دجلة بالفرات ، الماء هنا ضحل في معظمه، ولهذا فالسفينة تمضي هنا برعاية مشرفين معينين ، ويقولون إن السفينة ستتابع رحلتها آخر الليل .

سعدنا اليوم في صحبة مولانا بدايوني بالحديث عن الشعر والشعراء ، ودار البحث عن أشعار مختلف أدباء العربية والفارسية والأردية ، وتركز الحديث بصفة خاصة على شعراء المدائح النبوية (النعت) (١٦) وقد أبان العبد الفقير عن رأيه ، لكن إنشاد الشعر هو ديدن مولانا ، فلديه حافظة قوية ، وذاكرة جبارة، وكان حديثي معه عجيبا من ناحية ، فحين ورد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني ، قال دون أدني تكلف : يا أخي ! أقول لك شيئا لآخر مرة . . أنا قبوري ، وأنت تنتمي للجماعة الإسلامية ، الآن تحدث عن الشعراء أصحاب المدائح النبوية ، فقلت له وأنا أشيد بقصيدة البردة الشهيرة للبوصيري : إن بها بيتا أو بيتين ، تجاوز فيهما الشاعر مقام النبوة ، فقال على الفور :

يا أكرم الخلق مالي في الورى أحد سواك عند حلول الحادث الجسم

أنشد هذا البيت ثم قال : هذا البيت من القصيدة هو شغلي الشاغل ، ورغم كل شيء ، فهو يدخل السرور والبهجة على قلب الإنسان . . ثم دارت بيننا أحاديث ممتعة .

استمر الحديث مع الشاب القادياني طوال المساء ، ولفترة متأخرة ، عن إمكانية تطبيق النظام الإسلامي في العصر الحاضر ، فلم يكن الشاب على يقين من هذا الأمر ، وقد حاول كاتب السطور بكل طريقة ، إفهامه ماهية القضية ،

وفشلت في الغالب في هذا ، فهو قادياني من رأسه إلى قدميه ، متعصب ، أوقف حياته من أجل " القاديانية " .

حاولت بشتى الطرق أن أجد رجلا معقولا من بين المسافرين العرب ، فأتحدث معه وأتبادل معه المشورة ، ولكن محاولتي ذهبت هباء ، كم تغيرت الدنيا ! قبل خمسة وعشرين سنة صرخ المرحوم مولانا محمد علي [(١٧)] بسبب أمور بسيطة صدرت عن شريف مكة ، ثم وضع أمله في ابن سعود .

الأربعاء ٥ رجب ٦٨هجرية / ٤ مايو ١٩٤٩م

في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل بدأت السفينة في الإبحار من جديد ، فتحت عيني في الخامسة صباحا ، فوجدت أننا على شط العرب ، متجهين ناحية عبادان ، منظر عجيب وممتع ، كانت هناك واحة خضراء يانعة على طرف النهر ، بامتداد خمسين ميلا تقريبا ، بينما تناثرت البيوت الصغيرة المقامة من الطين واللبن هنا وهناك ، وكلما تقدمت السفينة إلى الأمام تغيرت أشكال البيوت .

وصلنا إلى عبادان في الساعة السابعة ، وعبادان خاضعة لسيطرة إيران ، كانت قبلا قرية صغيرة ، تحولت بفضل شركة الزيت الإنجليزية إلى بلدة عامرة ، ومدينة مزدهرة ، فيها مصانع تكرير البترول ، لذا ترتفع في سمائها مداخن عالية جدا لا حصر لها ، شاهدت لافتات وضعت في أماكن متفرقة ، مكتوب عليها بالفارسية " ممنوع التدخين " ، " يمنع تدخين السجائر في هذا المكان " أما

آبار البترول فهي بعيدة جدا عن هذا المكان ، لكن مقر الشركة يقع هنا ، ولهذا نشاهد السفن الراسية بأعداد كبيرة كل سفينة تنتظر دورها .

تحركنا من عبادان إلى خرّم شهر في الساعة الثانية عشرة ، كانت تسمي قبلا " المحمرة " وفي عهد رضا شاه ، حين اشتدت النعرة الوطنية ، تغير اسمها فأصبحت " خرم شهر " وقد وصلت السفينة إلى هذا المكان في حوالي السابعة والنصف وألقت بمرساها ، وتجدر الإشارة إلى أن ازدهار هذا الميناء أيضا كان بفضل شركة البترول . . استمر تفريغ البضائع طوال الليل ، المسافة من هنا حتى البصرة ساعتان فقط ، لكن السفينة لا يمكن أن تتقدم بعد ذلك قيد أنملة .

في العصر وقعت حادثة عجيبة ، وهي في حد ذاتها ليست عجيبة أو غريبة ، لكنها بالنسبة لي - حتى الآن - عجيبة ، فقد ركب شاب من البحرين ، يرتدي زيا إفرنجيا ، ويبدو من شكله وهيئته أنه من أهل بورما أو الملايو أو إندونيسيا ، كان من حيث الشكل والهيئة ممتازا ، واعتقدت في البداية أنه مندوب إندونيسيا ، فقد كنت شاهدت السفير الإندونيسي على هذه الهيئة ، كما كان ممثلو الحكومة الإندونيسية أيضا في كراتشي على هذه الهيئة ، وساورني الشك أحيانا في أنه مسلم ، وشعرت بالرغبة أكثر من مرة في التحدث معه ، لكن الحياء والتردد منعاني ، وهكذا مر يومان ، واليوم هو آخر أيام السفر ، وسنكون في البصرة صباح غد ، ومن هنا أردت أن أعرف على الأقل المعلومات الأساسية عنه .

في الساعة الرابعة شاهدته على السطح ، عرفت من خلال تبادلنا للأسئلة

والأجوبة أنه ينتمي أصلا إلى بخارى ، وأنه يقيم الآن إقامة دائمة في المدينة المنورة ، درس في مصر ، وعمل مدرسا لفترة في إحدى المدارس الحكومية في مكة المكرمة ، وهو الآن موظف في شركة البترول الأمريكية في الظهران، كان في طريقه إلى لبنان لقضاء العطلة الصيفية . .

جلسنا معاً على أريكة واحدة ، وبدأنا الحديث بالعربية بدلا من الإنجليزية، وإذا به يحضر زجاجة من البيرة ، و بدأ يشرب ويقول لي : تفضل ، فاعتذرت له ، مر بالصدفة مولانا بدايوني ،فرأى المنظر ، فأنشد بيتا من الشعر في تحريم " بنت الكرم " أي النبيذ ، ثم ذهب بعيدا ، وساورني الشعور بالقلق الشديد ، فنهضت ، وأخذت أستفسر من بعض الناس ، كانت الزجاجة موجودة، وقال الجميع في صوت واحد : إنها خمر ، فتجرأت وسألت عادل محي الدين بخاري ، فنفى هذا الإنسان العجيب أن يكون هذا خمرا ، ثم اختفى وغاب عني .

على كل حال كان رجلا معقولا . وبعدها حين التقيت به على ساحل البصرة ، رحب بي بحرارة وحفاوة ، لكن مشكلة الشراب وقضية النبيذ كانت لا تزال تؤرقني ، أدعو الله أن يبعد عني سوء الظن . .

البصرة

الخميس ٦ رجب ٦٨ هجرية / ٥ مايو ١٩٤٩م

ظلت السفينة راسية في ميناء خرم شهر طوال الليل ، ثم أبحرت في الساعة الخامسة صباحا ، كانت هذه الرحلة التي استمرت ساعتين رحلة طيبة وممتعة ، فمنظر شط العرب الرائع مع نسيم الصباح العليل ، أوجد بداخلي مشاعر المتعة والسرور ، أضف إلى ذلك أن حالتي الصحية ، ظلت على ما يُرام رغم إهمالي ، ونشاطي الجسماني المتزايد ، ولم يشعر من حولي بمرضي أو بمعاناتي .

وصلت السفينة إلى ميناء البصرة في الساعة السابعة ، ويقال للميناء " معقل " وكانت محطة السكة الحديد قريبة من هذا المكان ، كنا قد تسلمنا على ظهر السفينة استمارة من مسئولي الرسوم الجمركية ، وكان كل ما لدينا " حزمة " أو " رزمة " من المطبوعات ، وهو بالنسبة لهم شيء جديد ، وكان العبد الفقير على استعداد لدفع الرسوم الجمركية المستحقة على هذه المطبوعات ، ولكن الكتب الدينية هنا " مستثناة " من الرسوم ، بحكم القانون .

تطلع ضابط الجمرك وقال :

– أظن . . هذه كتب دينية .

- فقلت مؤكدا :

- نعم هذه كتب دينية ، ليس الهدف بيعها أو الاتجار بها .

فأخذ بعض الكتيبات العربية ، فأعطيته معها أيضا كتيبا بالإنجليزية بعنوان " ماذا بعد الإلحاد ؟! " فأخذنا إلى رئيسه ، فقرأ الرئيس عناوين الكتيبات وقال : كتب دينية . . ! ثم اطلع بعد ذلك على جواز السفر ، وتأخر الأمر كثيرا ، وتمكنا على كل حال من مغادرة السفينة في الساعة الحادية عشرة .

كان سلوك الحمالين وأصحاب سيارات الأجرة سلوكا قبيحا وسيئا ، ورغم ادعائهم بأنهم يطلبون أجرة معقولة ، فقد جعلونا " على الحديدة " ومن المؤسف ألا تصل خطاباتنا إلى أحد معارفنا في الوقت المناسب ، وإلا سهل علينا الأمر كثيرا . . في النهاية نزلنا في أحد الفنادق ، ولحسن الحظ أو لسوء الحظ ،كان هذا أكبر وأعظم فنادق البصرة ، كانت تكلفة الإقامة مع الطعام جنيها ونصف جنيه يوميا ، وعلى كل حال كان من الضروري أن ننزل في مكان تتوفر فيه سبل الراحة ، كانت هناك أماكن كثيرة رخيصة ، خاصة بزائري كربلاء والعتبات العالية ! الذين كان في انتظارهم خدامهم عند السفينة ، يحدقون هنا وهناك ، يبحثون عنهم ، وخارج الميناء سأل أحدهم رفيقي محمد عاصم : " هل (مدد علي) معك ؟ فقال عاصم بطريقة سلفية خالصة : لا . .

وحين أخذنا سيارة وبدأنا نضع أمتعتنا هرع إلينا ثلاثة من " معلمي الشيعة " وهجموا علينا وأخذوا يسألون : هل تقصدون كربلاء ؟ فقلت لهم بجفاء : لا . . أريد الذهاب إلى عشار (أي البصرة الجديدة)

كانت قضيتنا هي الفندق ، اسمه جبهة النهر River Front ويقع على ساحل شط العرب ، مرت سفينتنا صباحا من هذا المكان ، لا يوجد مثيل له من حيث الموقع الجذاب والهواء العليل .

خرجنا من الفندق عصرا نبحث في البداية عن مكتب البريد ، لا توجد هنا بطاقات بريدية ، بحثنا عن مظروف خاص بالبريد الجوي ، فقيل لنا : يمكن الحصول عليه في الغد . وبعدها مضينا نبحث عن عبد الله العقيل(١٨) كان الأستاذ الكريم الفاضل الدكتور تقي الدين الهلالي (١٩) قد أعطانا عنوانه ، كان على علم بوصولي ، لكنه لم يكن يعرف تاريخ الوصول بالضبط ، ولهذا لم يستطع القدوم لاستقبالنا في الميناء ، لقينا الرجل بترحاب وبحب وإخلاص وود ، رجل في عنفوان الشباب ، له مكانة طيبة ، سلفي العقيدة ، أي " وهابي كح " ، ليس بضيق الأفق ولا بقصير النظر . سألني بعد حديثنا المختصر :

- هل قابلت أبا محمود ؟

فقلت له :

- ما معنى قابلت ؟ إننا في لقاء مستمر

ظل يسأل عن الحال بكل ود ومحبة ، ويتحقق من أن أمورنا تمضي على ما يرام ، عاطفة دينية صادقة ، وحماس فياض ، لغته سهلة بسيطة مستواها أعلى من اللغة العادية ، ربما كان هذا من فيض الأستاذ الهلالي ، تأثرت كثيرا بهذا الشاب ، فما يتصف به من حماس ، وما بداخله من عاطفة قوية لخدمة الدين ، أمر يستحق التقدير العظيم .

في صحبة عبد الله العقيل ، التقيت بعدد من الشباب ، حلقة طيبة ، تضم طلاب علم ، وموظفين في مكاتب رسمية ، يعملون في صمت ، فإذا ما وجدت أدنى شبهة في انتمائهم إلى دين ، أو إلى حركة دينية مثل الإخوان المسلمين أو غيرها ، بدأت المحاسبة والمؤاخذة ، فالتشدد مع الإخوان ومع خدام الدين في العراق ومصر على حد سواء ، وقد ذكر أحد الشباب أن للإنجليز يدًا في هذا الأمر ، فهم متسلطون على البلدين ومسيطرون عليهما .

يعلق هؤلاء الشباب الصالحون آمالا كبيرة على باكستان ، وخاصة بعد صدور قرار الأهداف [٢٠] وحين أوضحت لهم مشكلاتنا تحيروا وتعجبوا ثم قال أحدهم وكان متحمسا ومتعاطفا : على الأقل هناك مجال للعمل ، هنا لا يوجد لدينا مجال للدعوة إلى الدين .

التقينا بعد صلاة المغرب بعبد الله الموصلي (قاضي البصرة) ظل يسأل عن باكستان وعن وزرائها ، وأخذ يوجه أسئلة فيها نوع من التحقيق والتفتيش والبحث ، فأجبته بقدر ما تسمح به صراحتي ، وكان يريد أن يفهم نوعية مشكلة كشمير ، ثم كان آخر سؤال وجهه إليّ هو :

- " ماذا يريد هؤلاء الإنجليز الكلاب ؟ " فأجبته قائلا :

- إنهم يؤمنون بمنطق القوة والطاقة .

- والقوة والطاقة مع من ؟

- كل إنسان يعرف الإجابة على هذا السؤال .

رافقنا عبد الله العقيل وعبد الهادي (سكرتير الجمعية الإسلامية) إلى الفندق ، شرحنا لهما أحوال الجماعة ، وأخذا نسخة من كل كتيب باللغتين الإنجليزية واللغة العربية ، فقلت لهما : هذه هدية مشتركة لأصدقاء البصرة .

الجمعة ٧ رجب ٦٨ هجرية / ٦ مايو ١٩٤٩م

لم أنعم بالنوم جيدا طوال الليل ، كانت الغرفة مغلقة والمروحة تدور ، دون فائدة ، لقد تعودنا على النوم في الشرفات وعلى أسطح المنازل ، لذلك لم أكن أشعر بالراحة ، فلم أنم جيداً ، وبدا أن التعب أخذ مني مأخذه ، لم يكن هناك ماء حار ، ولهذا لم ننعم أيضا بالاستحمام . إلا أن الفطور في الصباح كان جيدا ، وكان الشاي على ذوقنا ، لم أتمكن من كتابة يومياتي ليومين ، ورأيت أن أكملهما فيما بعد ، ولم أكد أجلس لاستكمالها حتى قدمت جماعة من الشباب ، وطبقا لمشورتهم ، تقرر أن ننتقل إلى فندق أرخص ، حيث نستأجر غرفة ، على أن يكون المأكل والمشرب في أحد المطاعم القريبة ، فالفندق للإقامة فقط .

حمل أحد الشباب ويدعى محمد فاضلي - يعمل موظفا بأحد المكاتب - الأمتعة وانطلق بها إلى الفندق المقترح ، وانطلقت أنا مع بقية الأصدقاء إلى المسجد ، كنا في يوم الجمعة ، وكنت في غاية السعادة لأني سأتمتع بأداء الصلاة بطريقة طيبة ، ولكن اليأس الشديد أصابني .

في عشار مسجدان فقط ، صليت في مسجد مقام على البدع ، التي راجت بين المصليين ، ومستوى التلاوة والتجويد عادي ، فقرّاء القرآن في مدينة لكهنو يتلون القرآن أفضل من القراء هنا بكثير ، استمرت قراءة القرآن قبل الخطبة لفترة

طويلة ، ظل المقرئ يعيد ويكرر ، ثم أعلن عن الفاتحة لإيصال الثواب ، ثم بدأت بدع أخرى مختلفة متنوعة . . ما أطيب ما قال أحد الناس : إن البدع توجد في كل مكان بأشكال متنوعة وجديدة ، إلا أن السنة واحدة في كل مكان ، فأساس السنة قوي ومصدرها واضح وبيّن ، ولهذا فإن طرق متبعي السنة واحدة من مراكش إلى الصين ، فالبدعة وهم ، وهي نتيجة حب التجديد لدى عامة الناس ، ولهذا فهي تبدو بأشكال مختلفة وفريدة من مكان لآخر .

كان من بين من التقينا بهم اليوم سالم حلبي ، وهو إنسان ممتاز ، ظل معنا من الصباح حتى الساعة الحادية عشرة ليلا ، وسالم حلبي من سكان الموصل ، ويعمل في منصب رفيع بوزارة الدفاع ، كله حماس ، كما أنه سلفي متمسك بسلفيته ،درس بإحدى الكليات وهو على علم طيب بالقرآن والسنة عن طريق مطالعاته الخاصة ، وقراءاته في الحديث واسعة جدا ، وله نظرة عميقة فاحصة في القضايا الخاصة بالتحريف والبدع المنتشرة ، كان في البداية ملحداً ، ويقول : " لقد اعتنقت الإسلام من تلقاء نفسي "

استمر الحديث مع الأصدقاء إلى ما بعد العشاء ، وتم التعرف بطريقة جيدة على الدعوة ، امتدح عبد الهادي كتابي النظرية السياسية ، والحكومة الإسلامية وأثنى عليهما كثيرا ، وأظهر عن رغبته في الحصول على عشرين أو ثلاثين نسخة، لتوزيعها على أوسع نطاق ، يقول :

" الشباب المثقف الذي يأتي إلينا بسطاء جدا ، مثل الصفحة البيضاء ، الدين في البلاد العربية مظلوم ، لو قدمنا لهم الغذاء الفكري من باكستان ، فسيكون لهذا عظيم الأثر على المدى البعيد إن شاء الله "

أخذ مختلف الأصدقاء يوجهون أسئلتهم لنا عن نظام عملنا في الدعوة إلى الله ، وعن طريقة عملنا ومنهجنا ، وقد غمرهم السرور بعد أن استمعوا إلى التفصيلات ، ولا شك أنهم تعجبوا من خبر القبض على المودودي ورفاقه ، فهؤلاء الأحباب الطيبون يعتقدون أن الحكم في باكستان حكم إسلامي خالص ، وأن وزراء باكستان وحكام باكستان جميعهم يعشقون الإسلام ، وأنهم يتبعون الأحكام الإلهية .

شرحت لهم الوضع ، فقال بعضهم : إن آمالنا على كل حال منعقدة عليكم ، فجماعتكم جماعة نشيطة ، والوضع هنا مختلف ، فالقيامة تقوم إذا ما ذكر أحد اسم الدين .

السبت ٨ رجب ٦٨هجرية / ٧ مايو ١٩٤٩م

نمت في وقت متأخر بالليل ، أصابني تعب شديد ، لكني أشكر الله العلي القدير ألف ألف شكر ، فلم يصبني ألم من أي نوع ، كتبت خطابات للأهل والأحباب ، وبقيت في الفندق حتى العصر ، لم أغادره ، حتى جاء عبد الله العقيل قبيل أذان العصر ، فذهبت معه إلى مكتب " الجمعية الإسلامية " حيث يتجمع هناك يوميا بعض الشباب الذين يضمهم فكر من نوع خاص ، ومكتب الجمعية عبارة عن غرفة ملحقة بجامع الخضيري ، كان بالقرب من الجامع محل حلاق ، فذهبت إليه ، وقصرت شعري ، ومن هناك ، وبعد صلاة المغرب ، بقيت لفترة طويلة في بيت عبد الهادي ، أوضح المزيد من أسلوب ومنهج الدعوة لدي الجماعة الإسلامية ، وكان عبد الهادي قد قرأ كتابين من الكتب التي

أعطيناها له ، وتأثر بهما كثيرا ، وهو شاب صالح جدا ، وتقي ، و " الدعوة " تتم في البصرة من خلال جهوده ، قال كلاما كان له أعظم الأثر على قلبي ، فقد شرح خطر فكرة القومية ، فذكر أن القومية العربية أكثر سوءا من القومية الهندية ، ففي الهند على الأقل قد توجد جاذبية الوطن والتعلق به ، أما هنا ، فما كسبه العرب ، وما حصلوا عليه كان عن طريق الإسلام ، وبسبب الإسلام ، ومع هذا فهؤلاء الناس مخدوعون بالقومية العربية ، فأي أسف أكثر من هذا .

ثم قال بإصرار شديد : لا بد أن نكتب في ذم القومية العربية ، ولا بد أن نعلن رفضنا لها .

لقد تأثر هؤلاء الناس بعد أن سمعوا عن منهجنا ، ونظريتنا ، وأسلوب عملنا ، وتطرق الحديث عن مواضع في سورة يوسف عليه السلام .

الأحد ٩ رجب ٦٨هجرية ٨ مايو ١٩٤٩م

اليوم زرنا الزبير ، منطقة رائعة ، تبعد عن البصرة مسافة عشرة أميال تقريبا ، وتضم قبر الزبير رضي الله عنه ، ولهذا أطلق على المنطقة كلها اسم الزبير ، كما توجد قبور الحسن البصري ، وبقية الشيوخ خارج هذه المنطقة ، حيث توجد أيضا مقابر عامة أهل الزبير ، وعلى الطريق الواصل من الزبير إلى البصرة تشاهد بعض الأطلال ، وتقع الزبير ذاتها في المكان الذي كان يضم سوق البصرة المشهور ، أي سوق مربد الذي يأتي ذكره كثيرا في كتب التاريخ والأدب ، وبلدة الزبير الحالية تضم قبائل نجدية ، كما تضم أيضا بعض الأسر المغربية (المراكشية) ومن بين الأسر المغربية يحتل بيت الشيخ محمد أمين

الشنقيطي [٢٢] مكانة ممتازة ، وينتسب الأستاذ المحترم الدكتور الهلالي إلى ابنة الشيخ الشنقيطي ، وتسكن القبائل النجدية هنا منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ، فقد كانت الحالة الاقتصادية لنجد في السابق سيئة للغاية ، فكانت القبائل البدوية تضيق في معظم الأوقات بالفقر والإفلاس ، فترحل إلى العراق والشام .

والحالة الدينية للزبير طيبة ، فبينما كنا نحن منذ عشرين أو خمسة وعشرين سنة نفتقر إلى العلم الديني نظرا لجهلنا بالعربية كان في هذه المنطقة الصغيرة علماء كبار ، نذكر من بينهم بصفة خاصة العالم الجليل محمد عبد الرحمن السند الذي حرم من نعمة البصر منذ ميلاده فوهبه الله قدرة عظيمة على الحفظ ، ومن الملاحظ أن ضعف البصر ، وموهبة الحفظ ، والذاكرة القوية من خصائص العربية القومية .

توجد هنا مدرستان ، وكلتاهما مثل المدارس الأهلية في الهند ، تعتمدان على مساعدات الأهالي ، ومن بينهما مدرسة الحجاج ، وهي مدرسة عامرة ، نظامها جيد ، وناظرها هو الأستاذ ناصر الأحمد ، التقى بنا ، ورحب بنا في أدب جم ، وتحدث معنا لفترة طويلة ، ثم قدم إلينا بقية المدرسين ، وعرفنا بهم ، فتحدثنا معهم ، إلا أن الوقت كان وقت الدرس ، ومن هنا لم أتمكن من التحدث مع المدرسين لفترة طويلة ، تجولنا في المدرسة وشاهدنا الفصول الدراسية ، والمدرسة مدرسة ابتدائية يقضي فيها التلاميذ ست سنوات دراسية وتبدو بشكل عام مدرسة جيدة .

في الزبير جماعة من الشباب المحافظين على دينهم ، المتحمسين لعقيدتهم ، كما توجد مكتبة المنار التي يمكن للقارئ أن يستعير منها الكتب ،

كما هو الحال في مكتبات البصرة ، التقيت ببعض الطلاب الصالحين من بينهم عبد العزيز سعد الربيعة وهو شاب ممتاز جدا ، التقى بي ، ورحب بي ترحيبا حارا ، كان عبد الله العقيل قد أخبره بوجودنا ، فركب السيارة وجاء إلينا ، وبقينا معا حتى المساء ، تناولنا أيضا طعام الغداء في بيته ، وكانت هذه أول فرصة أتناول فيها الطعام على الطريقة العربية في منطقة عربية خالصة ، زبدة خالصة ، وتمر من الدرجة الأولى ، شعرنا بلذة كبيرة ، كنا قد قرأنا عن حكايات الضيافة العربية ، والكرم العربي في الكتب ، والآن نشاهد هذا بطريقة عملية على الطبيعة . إن الاستقبال الذي شهدناه في البصرة من عبد الله العقيل ثم من عبد العزيز سعد الربيعة في الزبير ، وما اتصفا به من حسن خلق ، ومحاولاتهما توفير جميع سبل الراحة لنا ، بجميع الأشكال ، أمر لا يمكن لأحد أن يتصوره ، لا في الهند ولا في باكستان ، ورغم هذا فهما دائما يعتذران ويرددان هذه العبارة : والله إننا مقصرون . . "

ومن الجدير بالذكر أن أهل الزبير من السلف المتمسكين بسلفيتهم ، وقد كانوا يسألون مرارا وتكرارا عن أحوال أهل الحديث في الهند وباكستان ، وفي الزبير مكتبة تضم كتبا إنجليزية ، وهي مكتبة رائعة ، وهي تقوم بدور الدعاية للسياسة البريطانية ، وقد وجدت مجلة " البشير " على الطاولة .

الاثنين ١٠ رجب ٦٨هجرية / ٩ مايو ١٩٤٩م

قررنا مساء اليوم التوجه إلى بغداد ، كان موعدنا مع الأصدقاء في الرابعة ، لهذا كانت لدينا فرصة للراحة طوال اليوم ، كتبت مذكرات يومين بينما ظل عاصم يرتب متاع السفر ، ثم قضى بقية وقته في الكتابة .

بالأمس لم أتمكن من لقاء عالم صالح يدعى عبد الله الرابح ، فقد ذهب خارج الزبير قبل أن يعلم بوصولي ، وهو مدرس في المدرسة الأخرى في الزبير ، وهي مدرسة دينية على الطراز القديم ، على هيئة المدارس العربية في منطقة البنجاب ، مدرس واحد فقط ، واثنا عشر تلميذا ، وتدرس هناك العلوم القديمة ، أما العلوم والفنون الجديدة ، فلم تعرف طريقها إلى هذه المدرسة ، ومن الجدير بالذكر أن عبد الله الرابح هو أيضا تلميذ الأستاذ المحترم الدكتور هلالي ، وهو سلفي المشرب ، ولهذا اشتقت كثيرا للقائه ، وقد جاء إلينا اليوم من تلقاء نفسه ودار بيننا الحديث والنقاش لساعة أو ساعتين وهو رجل صالح ، لديه علم وافر .

التقينا في الساعة الرابعة بالأصدقاء في مكتب الجمعية الإسلامية ، وفي الساعة الخامسة والنصف ذهبنا إلى المحطة ، وظل معنا بعض الشباب ، وهكذا تمكنا من إنزال أمتعتنا من سيارة الأجرة دون مساعدة الحمالين ، وبدون مساعدتهم أيضا ركبنا القطار ، ورأينا هنا لأول مرة البساطة والكدح ، ففي جماعتنا هذا أمر عام ، لكن في البصرة ، كانت مشاهدتنا للبساطة والكدح من جانب أصحاب " البدلات " الأنيقة أمرا يدعو للسرور ، وقد رأى عاصم هذا الأمر فيهم ، فقام بدوره بإثبات الكفاءة التقليدية لأهل البنجاب .

أراد الأحباب أن يلتقطوا لنا صورا جماعية تذكارية ، وأصر البعض على ذلك ، وكأن هناك إجماعًا بين علماء العرب على جواز التصوير ، وابتداء من سيد رشيد رضا رحمه الله (٢٣) حتى أحمد عبد الرحمن البنا (والد الشهيد حسن البنا وهو محدث مشهور لا يزال على قيد الحياة) ومحمد بهجة البيطار ، حتى

العالم السلفي المشهور في دمشق ، جميعهم يلتقطون الصور ويقولون بجواز التصوير ، وبناء على إصرار الأصدقاء قال كاتب هذه السطور بلطف :

– للأسف نحن لا نتفق في هذا الأمر مع اجتهاد علماء مصر والشام .

فقدم سالم الحلبي دلائل عظيمة ، ومن وجهة نظره فالحديث حسن ، لكنه اعترف بأن صدره لم ينشرح لهذه المسألة فقلت له :

– دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وفي النهاية تراجع عن اقتراحه .

حواشي وتعليقات

١ – العلامة شبلي النعماني أديب هندي مسلم ، ومؤرخ ، كتب بالأردية والفارسية والعربية ، أسهم في تأسيس ندوة العلماء في لكهنو ، ولد عام ١٢٧٣هجرية / ١٨٥٧م في قرية بندول التابعة لأعظم كره ، وتوفي عام ١٩١٤م ، من أهم مؤلفاته الفاروق (بالأردية) وقد ترجم إلى العربية وصدر عن دار السلام بالرياض وراجعه كاتب هذه السطور .

انظر : الاتجاه الإسلامي في أدب شبلي النعماني ، سمير عبد الحميد إبراهيم مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ١٧ رجب ١٤١٧ – نوفمبر ١٩٩٦م والأدب الأردي الإسلامي ، سمير عبد الحميد إبراهيم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤١١هجرية-١٩٩١م ص ٤٠٨ – ٤١٨ .

٢ – العلامة سيد سليمان الندوي : اسمه أنيس الحسن وكنيته أبو نجيب ، وسماه أهله فيما بعد بسليمان ، ولد في صفر من عام ١٣٠٢هجرية نوفمبر ١٨٨٤م ، درس على يد والده ثم انتقل إلى بتنه ، ومنها إلى ندوة العلماء في لكهنو سنة ١٣١٩هجرية / ١٩٠١م فتعلم وتربى في جو الندوة ، وتتلمذ على يد شبلي النعماني وغيره، له مؤلفات عظيمة منها سيرة النبي في عدة مجلدات ، وهو الكتاب الذي لم يكمله شبلي النعماني ، وله كتاب ترجم

إلى العربية في السيرة النبوية ، كانت له لقاءات متعددة بالملك عبد العزيز . انظر الأدب الأردي الإسلامي ص ٥١٣ وما بعدها وأيضا صفحات من تاريخ الملك عبد العزيز في الأدب الأردي ، بحث في مجلة جامعة الإمام العدد الخاص بمناسبة الاحتفال بمرور ١٠٠ عام على تأسيس المملكة العربية السعودية .

٣ - مولانا سندهي يشير إلى مولانا عبيد الله سندهي ، الذي سافر إلى كابل بناء على طلب من شيخ الهند سيد حسين أحمد مدني وذلك في أكتوبر ١٩١٥م وقد كتب مولانا سندهي عن سفره هذا كتابا بعنوان (كابل مين سات سال) أي سبع سنوات في كابل . انظر اردو ادب مين سفرنامه ، انور سديد لاهور ص ٢٢٤-٢٢٧

٤ - بلدة جوناكره بلدة شهيرة في الهند ، ينتسب إليها الكثير من العلماء المسلمين في الهند

٥ - بمباي من مدن الهند الشهيرة وقد تغير اسمها الآن (منذ سنتين تقريبا) وصار يطلق علينا منباي بضم الميم وسكون النون .

٦ - يعد كتاب " خطبات " لأبي الأعلى المودودي من الكتب المفيدة لشرح مبادئ الإسلام ، وهو يتضمن مجموعة الخطب التي ألقاها المودودي في المسجد يوم الجمعة ، وللوقوف على مضمون هذه الخطب انظر الترجمة العربية : خطب الجمعة ترجمة وتقديم سمير عبد الحميد إبراهيم مطبعة الحلبي بالقاهرة نشر دار الأنصار ١٩٨٢م

٧ - انظر : تأثير الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب على الهند أبحاث ندوة أسبوع الشيخ المجلد الأول والثاني ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وأيضا الأدب الأردي الإسلامي الصفحات المتعلقة ، وكتاب مؤلف هذه الرحلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه وكتاب الشيخ محمد منظر النعماني بالأردية عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رأي علماء الهند ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم تحت الطبع .

٨ - ظهرت حركة ندوة العلماء لتتوسط بين اتجاهين : اتجاه مدرسة ديوبند واتجاه كلية عليكره ، وقد أوجد فكرتها الشيخ محمد علي المونكيري وقادها العلامة شبلي النعماني وزملاؤه ، فكانت دار العلوم التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة بين الثقافتين الإسلامية والغربية . انظر : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبي الحسن الندوي ، ط الدار الكويتية ١٩٦٨ ص ٧٤ وما بعدها وانظر : الأدب الأردي الإسلامي (مراكز الإشعاع الديني في شبه القارة) ص ٥٠٣ وما بعدها .

٩ - تعد مدينة بتنه من المدن الهامة في شمال الهند اشتهرت بالعلم والعلماء والمكتبات العامرة بالكتب الإسلامية والمخطوطات وقد عمل مؤلف الرحلة في مكتبتها فترة طويلة بعد تخرجه في دار العلوم بالندوة .

١٠ - يقصد بالتقسيم ظهور دولتي الهند وباكستان (الشرقية والغربية) أواخر سنة ١٩٤٧م

١١ - انتشرت كتب المودودي بعد أن ترجمت إلى العربية وللمزيد من المعلومات انظر " أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته " سمير عبد الحميد إبراهيم دار الأنصار القاهرة ١٩٨٠م وكتاب الدكتور محمد عماره عن المودودي دار الشروق القاهرة ١٩٩١ .

١٢ - عبد القدير بدايوني من علماء الهند الذين اتخذوا موقفا من الحركة السلفية في الهند ، وروج لمصطلح " وهابي " بمعنى متشدد ، وهو أول من استخدم هذا المصطلح بهذا المعنى كما ذكر مؤلف الرحلة .

١٣ - ولد أبو الكلام آزاد في مكة المكرمة في ذي الحجة ١٣٠٥ هجرية أغسطس ١٨٨٨م وكان أعمامه من دهلي بينما أخواله من المدينة المنورة ، نظم الشعر وتخلص (أي اتخذ اسما فنيا يذكره في شعره) بآزاد ، أصدر مجلة لسان الصدق وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وشارك بمقالاته في العديد من مجلات وصحف الهند مثل : مخزن ووكيل والندوة والهلال والبلاغ ، كما لعب دورا سياسيا بارزا بعد استقلال الهند ، وتوفي في شوال ١٣٧٧ هجرية فبراير ١٩٥٨م . انظر : الأدب الأردي الإسلامي ص ٥٨٥-٦٠٤

١٤ - يشير إلى المملكة الآصفية في حيدر آباد ، وقد ظهرت إمارة حيدر آباد كإمارة مستقلة منذ عام ١١٤٢ هجرية ١٧١٢م ، وضمتها الهند إليها منذ عام ١٩٤٨م ففقدت شخصيتها السياسية وصارت تعرف باسم (اندرا برديش) وكان يطلق عليها إمارة حيدر آباد أو نظام حيدر آباد ويطلق أيضا

اسم نظام على السلطان ، وأول سلاطين حيدر آباد هو نظام الملك آصف شاه الذي تولى سنة ١١٢٤هجرية ، وعاشرهم هو مير عثمان علي خان الذي استمرت إمارته حتى قيام الهند ، وهو الذي ورد ذكره هنا في الرحلة . انظر بالإنجليزية Indian .Muslims,A Political History, Ram Gopal Bombay 1959

١٥- انظر عن القاديانية ما كتبه العلامة إحسان إلهي ظهير في كتابه القاديانية الذي طبع عدة مرات في لاهور و القاهرة ، وما كتبة المودودي بعنوان القاديانية طبع الكويت ١٩٧٤م وأيضا الدكتور محمد أحمد معلوف القاديانية ط القاهرة ١٩٦٩م .

١٦ - ورد مصطلح " نعت " وهو مصطلح أدبي يستخدم في الأردية والفارسية ، ويطلق على المدائح النبوية التي احتلت مساحة كبيرة في آداب الشعوب الإسلامية انظر ما صدر عن عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام من كتب ضمن سلسلة آداب الشعوب الإسلامية .

١٧ - مولانا محمد علي ، هو محمد علي جوهر ولد ببلدة رامبور عام ١٢٩٥هجرية / ١٨٧٨م تخرج في جامعة عليكره ،ودرس في جامعة اكسفورد التاريخ الحديث وأصدر صحيفة بالإنجليزية في كلكتا The Comrade ذاع صيتها ، كما اصدر صحيفة همدرد بالأردية ، شارك في حركة الخلافة ، والتقى بالملك عبد العزيز ، وظل يعلن بأن الملك عبدالعزيز هو القائد الذي يمكنه أن يقود العالم الإسلامي في تلك الفترة .

انظر : الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية شوال ١٤١٩م .

١٨- الشيخ عبد الله العقيل من العلماء الدعاة ، أصله من نجد ، وهاجر مع أسرته إلى الزبير بالعراق ، ثم هاجر إلى الكويت ، درس في الأزهر ، وشارك طلابه كفاحهم ، ربطته علاقات طيبة مع مسلمي العالم ، وقد عمل في خدمة الدعوة والشئون الإسلامية في الكويت من موقعه كوكيل لوزارة الأوقاف الكويتية ، و يتقلد منصب أمين عام رابطة العالم الإسلامي لشئون المساجد ، ويقيم في جدة بالمملكة العربية السعودية ، وقد لقيه كاتب السطور في لاهور حين ألقى محاضرة رائعة في طلاب جامعة البنجاب ، وفي طوكيو حين حضر افتتاح المركز الإسلامي ، وقد وصفه كاتب الرحلة بما يستحق ، أطال الله في عمره .

١٩ - الشيخ (الدكتور) محمد تقي الدين الهلالي غني عن التعريف ، ونشير هنا إلى أنه احتل لدى علماء الهند مكانة عظيمة ، وقد ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه " في مسيرة الحياة " واعتبر قدومه الهند من أهم الأحداث التي صنعت تاريخا مجيدا (جزء ١ ص ٩٧) والهلالي من أساتذة اللغة العربية الذين يحتج برأيهم ، وقد كان الحكم بين رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان في قضايا اللغة العربية وتعبيراتها ، انظر كتاب في مسيرة الحياة ج١ وأيضا كتاب " السيد رشيد رضا " أو إخاء أربعين سنة للأمير شكيب أرسلان، وللوقوف على أسلوبه في الكتابة انظر مقدمته للكتاب الذي راجع ترجمته (محمد بن عبد الوهاب) لمؤلف هذه الرحلة ط جامعة الإمام ١٤٠٤هجرية ١٩٨٤م ص ٥-٧ .

٢٠ - يقصد بذلك مقترحات وضع الدستور الإسلامي في باكستان .

٢١ - والشنقيطي نسبة إلى شنقيط التي اشتهرت بالعلماء وهي في موريتانيا

٢٢- رشيد رضا وهو محمد رشيد ابن علي رضا الفقيه والمصلح الديني المعروف ، ولد بقرية القلمون من نواحي طرابلس الشام ١٢٨٢هجرية / ١٨٦٥م وارتحل إلى مصر واتصل بالإمام محمد عبده الذي أصبح أستاذا له في دراسة العقيدة وفي سنة ١٣١٦ أصدر مجلة المنار ، وقد حارب البدع وأسباب التخلف في العالم الإسلامي ، ومن مؤلفاته تفسير القرآن وتاريخ الأستاذ الإمام والوحي المحمدي ومحاورات المصلح والمقلد والوهابيون في الحجاز وانجيل برنابا وغيرها وقد زار الهند والتقى بعلمائها واحتل مكانة طيبة في قلوبهم انظر القاموس الإسلامي لأحمد عطية المجلد الثاني مكتبة النهضة مصر ١٣٨٦هجرية ص ٥٣٧-٥٣٨ .

بـــغـــــــــداد

الثلاثاء ١١ رجب ٦٨هجرية / ١٠ مايو ١٩٤٩ م

كان السفر من البصرة إلى بغداد ممتعا ورائعا ، حجز لنا عبد الله العقيل مقعدين في الدرجة الثانية ، كان القطار يسير ، ولا يوجد في العربة كلها سوى راكبين أو ثلاثة ، ومع هذا لا يمكن للنوم أن يداعب جفون الركاب ، لكنني أعترف أن هذه هي أول مرة في حياتي ، أتمكن فيها من النوم في القطار بهدوء تام ، فعربات القطار هنا مريحة أكثر من عربات القطار في الهند ، وقد جُعلت كل أربعة مقاعد داخل غرفة منفصلة ، ولكل غرفة باب خاص ، وخارج الغرف ممر طويل يضم ثلاث أو أربع غرف ، لكل منها حمامان مشتركان : أحدهما على الطراز الشرقي والآخر على الطراز الغربي ، هذا بالإضافة إلى وجود خادم طوال الوقت ، فإذا ما اقتضت الضرورة الحاجة إلى شيء ، يمكن للراكب أن يطلبه من الخادم ، فيمكن أن تطلب منه إحضار علبة أو صندوق به طعام ، والماء البارد متوفر في جميع الأوقات ، و مجانا ، فكنا إذا طلبنا منه الماء ، أحضر على الفور دورقا مملوءا بالماء ، فسقانا ماء باردا ، وكأننا في حفل ، كما يمكن توفير فراش للنوم حسب الطلب ، على أن تُدفع أجرة بسيطة مقابل ذلك ، إلا أن مستوى الطعام لم يكن على مستوى الخدمة ، وهو عادي جدا بالنسبة لقيمته ، وقد تناولنا في القطار طعام العشاء ، وشاي الصباح مع الفطور ، ودفعنا

مقابل ذلك تسع روبيات ونصف تقريبا للفرد الواحد ، وقد طلبنا طعام فطور لشخص واحد ، تفاديا لغلاء الأسعار ، وتناولناه معا ، والمبلغ الذي دفعناه كان شاملا لعشرة بالمائة حق الخدمة ، وكان هذا هو الحال أيضا في فندق جبهة النهر في البصرة : ثلاثة دنانير (جنيهات) إقامة لشخصين مع الطعام، مضافا إلى ذلك عشرة بالمائة حق الخدمة ، أي ثلاثمائة فلس .

شاهدنا هنا شيئا عجيبا ، وهو أن الحمّال أو الموظف إذا ما شاهد أجنبيا ، حاول خداعه بشتى الطرق ، ففي القطار حاول الموظف أن يأخذ ثلاثين فلسفا زيادة ، وراح يتكلم أحيانا بالأردية ، وأحيانا بالإنجليزية ، وأحيانا بالعربية ، ويقول : إنكم لا تفهمون اللغة ، ولكن حين واجهناه بشدة وبإصرار ، وأخبرناه أنه يريد خداعنا ، وأننا نفهم ما يقول بالإنجليزية والعربية ، عندئذ أعاد إلينا النقود وهو يحملق فينا فارغا فاه .

والتجربة الأكثر مرارة كانت في المعقل (ميناء البصرة) فقد اتفقنا على الأجرة إلا أن الموظف أو الدلال ، أخذ روبية ونصف زيادة ، مع أن كلا منا كان يفخر كثيرا بمقدرته في ضبط الحساب ، وبراعته في ذلك ، والخلاصة أن لعابهم كان يسيل طمعا إذا ما رأوا زيّا أجنبيا ، ولأن ضحايا هذا الأمر لا يزالون يترددون - كزوار - على كربلاء ، ومزار الشيخ عبد القادر الجيلاني ، فإن هؤلاء الطماعين قد تلطخت أفواههم بدماء ضحاياهم .

وصلنا بغداد في الساعة العاشرة ، قدم الأستاذ المحترم الدكتور الهلالي مع صديقه عزيز أمين الزبيري إلى محطة القطار ، وهكذا نجونا من هجوم

الحمالين، لكن سائق السيارة الأجرة لم يقلع عن عادته ، وتعارك كثيرا مع الأستاذ الهلالي .

عرفنا من الأستاذ الهلالي أن الغرف التي تؤجر متوفرة ، ويمكن الحصول عليها بسهولة ، ولكن من المناسب الإقامة في الفندق ليومين أو ثلاثة ، فالظروف هنا تقتضي أن تعرف الشرطة ، أننا زائرون وسياح ، وهكذا انطلقنا من المحطة مباشرة إلى شارع الرشيد ، وأخذنا غرفة في فندق البصرة ، حيث وضعنا أمتعتنا .

يقسم شارع الرشيد بغداد إلى نصفين ، ويقع فندق البصرة في هذا الشارع، وهو فندق عادي ، أجرة السكن فيه مائة وثلاثون فلسا للفرد ، وهذا السعر بالنسبة لبغداد مناسب جدا ، بل رخيص جدا ، والفندق أحسن من فندق السعادة في البصرة ، الذي يؤجر الغرفة بمائة وخمسين فلسا يوميا .

التقينا بعدها بالأستاذ طه فياض رئيس تحرير " السجل " وهو من الأصدقاء المقربين للأستاذ الهلالي ، يحترمه كثيرا ويقدره ، وقد تبادلت معه الرسائل وكنت أكتب مقالات في صحيفته ، وهي الصحيفة الإسلامية الوحيدة الحرة في بغداد ، فبقية الصحف جميعها يمثل كل منها حزبا من الأحزاب ، وطه فياض رجل مخلص ومتدين ، لديه اهتمام خاص بباكستان ، تناولنا طعام الغداء عند الأستاذ الهلالي ، وقضينا عنده ساعات القيلولة ، وفي المساء خرجنا للبحث عن غرفة للإيجار ، بجوار مسجد الإمام أبي حنيفة في الأعظمية ، كانت هناك غرف كثيرة خالية ، لكنها مظلمة وضيقة ، وإذا وجدت مثيلاتها في لاهور

أو في روالبندي ، فلن يتعدى إيجارها ثلاث أو أربع روبيات ، إلا أن مثل هذه الغرف هنا لا يقل إيجارها هنا عن دينارين (جنيهين) .

تعتبر الأعظمية حيا من أحياء بغداد ، وهي تنتسب إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، إذ يوجد فيها قبره ، وعلى القبر أُقيمت قبة رائعة ، وبجواره أقيم مسجد أيضا ، ويتصل بالمسجد (الجامع) كلية الشريعة في بغداد ، حيث تدرس العلوم الدينية ، كان الوقت مساءً ، وكنا برفقة الأستاذ الهلالي ، ولهذا لم نستطع الدخول ، ولما كان بناء المسجد متصلا بالقبر والقبة ، فقد تحرزنا من أداء الصلاة هناك ، لقد غيرت أوربا كثيرا من شكل الأستاذ الهلالي وهيئته ، لكنها لم تغير شيئا من عقائده ، فأفكاره هي بذاتها ، أفكاره السلفية الخالصة ، وهو لا يقلد أساتذته وشيوخه كما هو الحال لدى أهل السلف الهنود ، لكنه بشخصه متشدد في الفروع .

قضينا شطرا من الليل في مقهى ، والشيء الملفت للنظر في بغداد ، بل الأكثر وضوحا هنا هو عدد المقاهي في المدينة ، فبين كل عشرة أقدام تجد مقهى ، ومن العجيب أن هذه المقاهي عامرة تماما من الصباح حتى المساء ، لا أدري من أين يأتي هؤلاء الخلق ؟! وهل يوجد في بغداد هواية أخرى غير الجلوس على المقاهي ؟! أشك أحيانا في هذا الأمر . ويروج القمار في بعض المقاهي على رؤوس الأشهاد ، وبالقرب من مقر إقامتنا في شارع الرشيد ، كان هناك مقهى يمارس فيه القمار باستمرار ، وعلى مرأى ومسمع من الناس .

على كل حال لا يعد الجلوس على المقاهي في بغداد عيبا ، وهكذا يجلس الناس من مختلف الطبقات والمشارب على المقاهي ، ويشكلون عليها حلقات مختلفة ، طبقا لنوعياتهم واهتماماتهم ،وكان هناك مقهى بالقرب من الأعظمية، يجلس عليه أحيانا فياض ، وقد دعانا للقائه هناك ، فوصلنا في الساعة التاسعة ، وجلسنا هناك ساعة ونصف ، وسط حلقة معقولة من الناس ، تم التعارف بيننا ، كان من بين الحضور أستاذ في الكيمياء ، أخذ يسأل عن نظام التعليم في باكستان والهند ، ورواتب الأساتذة ، وتحدثنا معه أيضا عن إنشاء جامعة في العراق .

الأربعاء ١٢ رجب ٦٨هجرية / ١١ مايو ١٩٤٩م

وصلنا في الصباح إلى باب الشيخ ، وباب الشيخ هو الاسم الذي يطلق على " مقام " الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ولم يكن وصولنا هناك بقصد " الزيارة " وكلمة " الزيارة " هذه زلة لسان ، وإلا فالهدف كان معاودة اللقاء بمولانا [1] عبد القادر بدايوني ، ثم قمنا بجولة سريعة في المزار ، وكان المجاورون يشيرون علينا بأن المزار (القبر) من هذه الناحية ، لكني كنت بالفطرة لا أريد التوجه هناك ، فزيارة القبور قد تذكرنا أحيانا بالموت . . والآن هذه القبور لا تتطلب احتراما وأدبا أقل من الاحترام والأدب في بلاط الملوك ، والعبد الله المسكين يرى أن الجلوس في حضرة غير الله حرام . . حرام .

التقينا بعدد من الهنود عند باب الشيخ ، يقيم معظمهم هنا منذ سنوات طوال ، ويوجد رواق كبير للمسافرين ، عرفنا أنه يمكننا أيضا أن نقيم فيه إن أردنا

ذلك ، كما يمكن أيضا الحصول على غرفة خاصة، ولكن إذا حدث وأقمنا هنا ، فإن هذا يعني ضياع الهدف الذي من أجله ارتحلنا ، وتركنا ديارنا وأهلنا ، وهكذا شعرت في كل لحظة بالضجر والضيق .

قدم الأستاذ الهلالي إلى الفندق ظهرا ، فذهبنا معه إلى مكتب " السجل " وشاهدنا الغرفة ، وجدنا غرفة بسيطة خالية في الطابق الثاني ، وتم الاتفاق على استئجارها بثلاثة دنانير (جنيهات) في الشهر ، وكان أمامها سطح واسع أيضا ، يمكن أن يرقد فيه عشرة أشخاص ، كان رجال المطبعة يعملون حتى الساعة التاسعة ليلا ، بينما كان طه فياض يغادر في المساء إلى بيته القريب من الأعظمية، كانت هذه الغرفة متصلة تماما بغرفة رئيس التحرير ، إلا أن طه فياض كان يجلس في معظم الأحيان في الطابق الأول ، وهكذا انتهينا من مسألة السكن والإقامة .

كان سوق شارع الرشيد قريبا ، حيث يمكننا الحصول على جميع حاجياتنا، وسوق شارع الرشيد ليس ندا لأسواق كراتشي ،ولكن من ناحية كثرة مرور السيارات والعربات ، فهو يفوق أكثر أحياء كراتشي ازدحاما بالسكان ، والشارع ليس بالواسع ، ومع هذا فهناك صعوبة كبيرة في عبوره ، طوال أوقات اليوم ، ولا يبعد باب المعظم (حيث تنطلق الحافلات إلى جميع الجهات) عن هنا إلا بمقدار فرسخ أو فرسخين ، فشارع الرشيد ينتهي عند باب المعظم .

في المساء حضر إلينا الأستاذ الهلالي ، ودار الحديث عن موضوعات مختلفة ومتشعبة ، واستفدنا من حديثه كثيرا ، وأدى كاتب هذه السطور اختبارا

في اللغتين الإنجليزية والألمانية ، وحفظ الله عليّ ماء وجهي في اختبار اللغة الإنجليزية ، أما في الألمانية فقد كان لدي إلمام بها ليس إلا ، ومن هنا فقد كان فشلي في الاختبار أمرا طبيعيا ، أردت من صميم قلبي أن أستفيد من هذه الفرصة، فأزيد من كفاءتي في اللغة الألمانية ، ولكن أين لي بالصحة ؟! وأين لي بالوقت ؟! على كل حال كل شيء بيد الله ولنري ما سيحدث .

اهتم الأستاذ الهلالي بعاصم أيضا ، فراح يوجه له السؤال تلو السؤال ، واختبره في النحو أيضا ، وقد تركنا أثرا طيبا بشكل عام ، وفي هذه الجلسة فكرنا في برنامج العمل القادم .

الخميس ١٣ رجب ٦٨هجرية / ١٢ مايو ١٩٤٩م

انتقلنا في الصباح إلى " مكتب السجل " وقضينا معظم الوقت في ترتيب الأمتعة ، كان تسعون بالمائة من العمل من نصيب عاصم ، بينما كان عملي قاصرا على الإشارة والتوجيه ، ثم قمنا بشراء سرير حديدي ، وكرسيين ، ومنضدة من سوق " الحراج " (حيث تباع الأشياء المستعملة والأشياء المباعة في المزاد) كان السرير بدينارين ، والكرسيان بدينار ونصف ، أما المنضدة فكانت رخيصة بأقل من دينار ، أنفقنا حوالي إحدى عشرة روبية ونصف الروبية! غلاء لم يكن يخطر على البال ، ويمكن تقدير هذا الغلاء إذا عرفنا أن مثل هذه المنضدة لا يزيد ثمنها بأي حال من الأحوال قبل الحرب عن روبية ونصف ، وثمنها اليوم لا يزيد عن خمس روبيات ، والكرسي الذي يقدر ثمنه هنا بعشر روبيات يمكن الحصول عليه في باكستان بثلاث أو أربع روبيات . والعجيب أن كل الأشياء عدا المنضدة أشياء قديمة ومستهلكة .

في المساء اتجهنا مرة ثانية ناحية باب الشيخ ، والتقينا بالفقيه " مولانا " عبد القدير الذي أخذ يشرح لنا برنامجه ، وظل يقول مرة بعد مرة : إن احتجتم لأي شيء فأخبروني ، فأنا أعرف كل شيء هنا ، غدا سأدعو بعض خاصة القوم عندي ، وهي دعوة سنوية ، واليوم توجد جلسة وعظ ، وغدا أيضا سنحتفل بالمولد الشريف !! وبعد غد نقصد كربلاء . . تفضلوا صباح الأحد ، وسوف نتناول الشاي هنا ، فقلت : لا تنتظرنا ، إذا وجدنا فرصة فسنأتي ، والباقي على الله .

حضر اليوم رئيس وزراء باكستان وشاع الخبر في كل مكان ، غدا ستقدم له دعوة من قبل الباكستانيين هنا ، وطه فياض مدعو أيضا ، وكان قد طلب لي بطاقة دعوة ، واتصل هاتفيا بأحد الناس في هذا الصدد ، ولو جاء الرد بالإيجاب، فسيطلعني على ذلك .

كان متأثرا جدا اليوم لدرجة أنه كتب افتتاحية جريدة السجل عن رئيس وزراء باكستان ، ودعا في افتتاحيته رئيس الوزراء إلى المضي على طريق الإسلام ، وإلى تطبيق الشريعة الإسلامية بأسرع ما يمكن . .

طُبعت الصحيفة . . . فجاء إلينا في الطابق العلوي وأخذ يسمعنا وهو واقف . . .

- ليته يقرأ مقالك هذا . . !

- لا . . هؤلاء الناس سوف يترجمون له المقال ويعطونه إياه ، هذا ضروري ، فهذه هي الجريدة الإسلامية الوحيدة في العراق .

ومثلما نستعمل نحن التعبير " مسلم بالمولد " يستعمل هو التعبير المسلم الجغرافي ، وللجريدة تأثير كبير في الدوائر الباكستانية هنا في بغداد .

الجمعة ١٤ رجب ٦٨ هجرية / ٣١ مايو ١٩٤٩م

نشعر الآن بالاطمئنان في غرفتنا ، سنظل هنا حتى صلاة الجمعة ، كان عاصم يكتب بعض الرسائل ، بينما كتبت بدوري يوميات ثلاثة أيام مضت ، نشرب الشاي الذي أعددناه بأنفسنا لأول مرة بعد خروجنا من كراتشي ، وقد أصبح عاصم الآن ماهرا في فن إعداد الشاي ، معنا السخان ، وإن شاء الله ، لن يكون هناك تعب فيما يتعلق بطعام الفطور .

لا شك أن الباحث عن الحليب هنا كالباحث عن الماء وسط صحراء الربع الخالي [٢] إلا أنه يمكن الحصول على الزبد والقشدة من السوق ، لكن من المستحيل الحصول على الحليب ، فلكل بلد تقاليده وعاداته ، فأنهار الحليب مثلا تجري في البنجاب ، وهنا يشربون الشاي بدون حليب [٣] وطوال اليوم ، عشر مرات أو عشرين مرة ! ، إلا أنهم يشربون الشاي بالحليب فقط في الصباح، على كل حال تتوفر علب الحليب ، وقد اقتنعنا بها ، ورضينا بما قسم الله لنا .

صلينا الجمعة في مسجد الحي ، حيث يصلي الأستاذ الهلالي عادة ، وحيث لا يوجد قبر ، لكن عدد المصلين في أكثر المناطق ازدحاما بالسكان كان يدعو للأسف ، كانت الصلاة غنيمة ، كما لم تكن الخطبة على المستوى ، كتبها الإمام ثم ألقاها على المصلين .

خرجنا بعد صلاة الجمعة ، ومررنا بشارع الرشيد ، فوجدنا المقاهي كلها عامرة ، والمحلات كلها مفتوحة ، فلا يشعر الإنسان وقت صلاة الجمعة بأن هناك أمرا غير عادي ، فيوم الجمعة كبقية أيام الأسبوع ، بينما الواجب أن يتوقف البيع والشراء أصلا وقت صلاة الجمعة .

تناولنا طعام الغداء في بيت طه فياض مدير تحرير السجل ، فهو يسكن بالقرب من الأعظمية ، وقضينا وقت القيلولة عنده أيضا ، وفي الساعة الرابعة قمنا بزيارة الشيخ أمجد الزهاوي [٤] في بيته الذي يقع في شارع الأعظم ، وهو قريب من بيت طه فياض ، كنت قد التقيت به عدة مرات في كراتشي ، وبالرغم من أنه رجل من الطراز القديم ، وأفكاره قديمة ، لكنه مخلص ، وفي قلبه حرارة الإيمان ، والأستاذ الهلالي كما نعرف معارض شديد لأولئك المتسامحين المجاملين ، ومع هذا فهو يمتدح الزهاوي ويقول " هو أفضل الفقهاء (وفقيه هنا بمعنى مولوي أي شيخ) والزهاوي كما ذكرت رجل على الطراز القديم ، متمسك بالقديم ، أي يمكن أن نطلق عليه اصطلاحا " مولوي جامد " لكن إذا ما شاهدنا غرفة الاستقبال في بيته ، عرفنا أنه لا يقل أبدا عن أي " جنتلمان " متحضر في كراتشي .

قابلنا بترحاب شديد ، وأظهر لنا محبة خالصة ، وأخذ يسأل عن المودودي . ذهبنا معه إلى باب المعظم ، ونزلنا من الحافلة ، وذهبنا إلى جامع المرادية ، حيث يؤم الصلاة هناك ، كمال الدين الطائي (سكرتير الجمعية الإسلامية) ولاحظنا وجود غرفتين نظيفتين داخل حدود المسجد ، الغرفة الأولى غرفة جلوسه حيث يجتمع بها عدد من المثقفين والمتعلمين ، وكان

الشيخ الزهاوي والطائي على وشك الذهاب لحضور دعوة رئيس وزراء باكستان، بقينا نتحدث مع بقية الضيوف ، قال أحدهم ويدعى إسماعيل راشد كلاما جذابا ، ويبدو من حديثه أنه رجل يعرف بواطن الأمور ، وأنا أعرفه منذ زمان إصدار " الضياء " [٥] كان يرسل بعض المقالات في ذلك الوقت ، ولهذا أهديناه ثلاثة كتب ، وقد ظل لفترة يعبر عن تأثره الشديد بما قرأ ، ويطلب منا المزيد من النسخ ، وناقشنا في ترجمة بعض المصطلحات ، وكان بشكل عام راضيا ، ومطمئنا لأسلوب وتعبيرات كتبنا ومطبوعاتنا ، ووعد بأن يأتي إلينا في اليوم التالي ، إلا أنني رأيت من المناسب أن نذهب إليه ، فمكان إقامتنا لا يبعد عن المسجد أكثر من فرسخين .

السبت ١٥ رجب ٦٨هجرية / ١٤ مايو ١٩٤٩م

أشعر اليوم بالتعب يغمرني ، كتبت يومياتي ، ورحت أتصفح بعض الكتب التي أحضرتها معي من البصرة ، كانت فيها كتابات جيدة في ذم الاشتراكية [٦] ورفضها ، لكنها مختصرة ، وأسوأ من ذلك أنها لم توضح تماما شروحاتها للاشتراكية ، فإذا كانت أصول الاشتراكية غير واضحة ، وغير معروفة، فكيف يمكن فهم ما يكتب في ذمها ورفضها ؟! وظل محمد عاصم مشغولا في كتابة الخطابات ، وكان هذا هو عمله الدائم .

صباح اليوم قدم محمد محمود الصواف فجأة للقائنا ، ويعد الرجل من أكبر علماء العراق المسلمين إخلاصا ومن أشدهم عاطفة ، كما أنه خطيب مفوه ، أُطلق سراحه بعد اعتقال دام خمسة أشهر ، وكان قد اعتقل بتهمة الانتماء إلى

جماعة الإخوان المسلمين ، ومن محاسن الصدف أن إطلاق سراحه نفذ يوم وصولنا إلى بغداد ، فقال : كان قدومكم قدوم خير وبركة ، لقد جئت فقط للسلام ، فقد كنت مشغولا جدا لأربعة أيام ، قابلنا بحب وإخلاص ، وأخذ يقول وهو يودعنا : إن شاء الله سوف يطول لقاؤنا ونسعد بصحبتكم قريبا .

بعد العصر وصل الأستاذ الهلالي إلى الأعظمية ، وطبقا للبرنامج ، رأيت أن أبدأ من اليوم الاستفادة منه ، فقد ترجم عاصم المحاضرات الخاصة بكتاب " نظام الحياة " (٧) وقام العبد الفقير بتصحيح الترجمة ، والآن إذا سمعها الأستاذ الهلالي فسيكون الأمر مفيدا ، وهكذا سيسمع كلامنا من ناحية ، ونستفيد نحن بدورنا منه في المراجعة من ناحية أخرى ، فهو نفسه لا يستطيع القراءة لضعف بصره ، وهكذا قمنا بعمل اليوم طبقا للبرنامج المقرر ، ظل عاصم يقرأ الترجمة العربية ، بينما كان العبد الفقير يتابع الأصل الأردي حتى يمكن إفهام الأستاذ الهلالي مفهوم المؤلف الأصلي ، فقرة ، فقرة ، فيتولى بنفسه تصحيح الترجمة، طبقا للبلاغة العربية .

استمر برنامجنا هذا حتى المغرب ، وكان الأستاذ الهلالي قد حدد موعدا لاختبار ابنته ، فهو يدرسها القرآن الكريم والنحو في البيت ، وذلك نظرا لفساد بيئة المدارس الحكومية ، واليوم موعد امتحان النحو ، كانت تدرس «ملحة الإعراب» للحريري ، وكان الأستاذ الهلالي قد دعا الأستاذ أحمد يوسف نجاتي لامتحانها ، وهو مصري صديق للأستاذ الهلالي ، كنت أقرأ مقالاته التي تنشر في مجلة " الرسالة " المصرية ، كان الامتحان صعبا إلى حد ما ، فأحمد نجاتي أديب من أدباء العربية ، وكانت إجابات " خولة " (ابنة الأستاذ) طيبة وجيدة ،

لهجتها في الحديث ممتازة ، حصلت على ثمانين درجة من مائة ، ونجحت في الامتحان ، واستفدنا نحن أيضا من هذا الامتحان ، واتضحت لنا بعض مسائل النحو الصعبة .

بعد المغرب جاء الأستاذ كمال الطائي ، وقدم لنا بعض الكتيبات بالإنجليزية ، انتهى إسماعيل راشد من كتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " وقد تجمع عند الأستاذ كمال الطائي نخبة طيبة من الناس ، اجتمعوا عنده وقرؤوا هذا الكتاب ، فقد وصلتنا طلبات من أنحاء متفرقة ، يريد أصحابها المزيد من النسخ، وطلب كمال الطائي بصفة خاصة جميع الإصدارات ، واستمر النقاش لفترة طويلة ، كان كمال الطائي يتكلم أكثر مني ، إلا أن إسماعيل راشد كان أكثر المتكلمين ، والرجل ذكي ، وعلى دراية بالأمور ، قال : حكومة باكستان الآن ضعيفة ، وليس من المناسب معارضتها حتى لا يجد المغرضون فرصتهم ، وقد عرف من أمجد الزهاوي المزيد من أخبار القبض على المودودي ، وموقف الجماعة الإسلامية ، وقد أوضح كاتب السطور حقيقة الأمر ، فقال حين عرف حقيقة الأمر : إذن الاختلافات اختلافات أساسية، فقلت : لا . . إنها اختلافات دينية خالصة ، فقال : لقد أخطأت الفهم، لقد قلت أساسي يعني اختلافات أصولية ، فهذا هو الوقت ، إذا وضع الدستور فلا يمكن عمل شيء ، حين كان الدستور يوضع لم يكن هناك أي شعور ديني .

في الساعة التاسعة والنصف كان الوداع ، فقدم لنا كمال الدين الطائي الدعوة لتناول الشاي بعد عصر يوم الثلاثاء حتى يعرفنا على بقية أهل العلم ، فالمدارس الدينية تعطل يوم الثلاثاء بالإضافة إلى العطلة العامة يوم الجمعة ؟

الأحد ١٦ رجب ٦٨هجرية / ١٥ مايو ١٩٤٩م

كانت حالتي طيبة ، ورغم تناولنا الطعام في السوق إلا أن صحتنا بحمد الله جيدة ، فألف شكر لله تبارك وتعالى على نعمته ، لم أغادر اليوم مقر إقامتي حتى صلاة العصر ، ذهبت فقط لفترة قصيرة إلى المكتبة العامة ، وظل عاصم يطالع الكتب هناك حتى الساعة الرابعة أو الخامسة ، وقد أُنشئت هذه المكتبة تحت رعاية وزارة التعليم ، وتقع عند باب المعظم في نهاية شارع الرشيد ، وإدارتها طيبة ، وهي منظمة تنظيما جيدا ، ويتعامل القائمون عليها مع روادها بلطف وطيبة ، وقاعة المطالعة فسيحة وواسعة ، ترد عليها الصحف يوميا بأعداد كبيرة ، وقد شاهدت اليوم الصحيفة الإنجليزية Iraq Times التي تصدر هنا في بغداد ، ولاحظت أن أخبار باكستان تنشر فيها بطريقة بارزة .

بدأت منذ اليوم استكمال كتابة " غربة الإسلام في الهند " لم أتمكن من كتابة حرف واحد منذ سنتين ، كنت أكتب تاريخ الإسلام في الهند قبل أن يحدث التقسيم ، وبعد توقفي لمرتين ، وصلت إلى عهد شاه ولي الله الدهلوي (٧) حوالي مائتي صفحة ، ثم توقف العمل تماما ، والآن أنوي أن أستفيد من إقامتي في بغداد فأكمل هذا الكتاب ، رغم أن المراجع لا يمكن أن تتوفر لي هنا ، وهو نفس المانع الذي حال بيني وبين استكمال الكتاب في روالبندي أيضا ، كان من الواجب أن أجمع الكتب الضرورية للكتاب كله ، كما كانت هناك مذكرات عن الكتب النادرة لكن تقسيم شبه القارة " لخبط " كل شيء ، وجئت بعد أن أنقذت المسودة التي معي ، وهو أمر يستحق أن أتوجه من أجله بالشكر إلى الله العلي القدير ألف شكر .

على كل حال أبدأ اليوم العمل باسم الله ، وحتى أتعود على الموضوع ، لا بد أن أبدأ المراجعة من جديد ، سوف أقضي عشرة أيام أو اثني عشر يوما ، وسأعمل ساعة أو ساعة ونصف يوميا .

في المساء قدم إلينا كالعادة الأستاذ الهلالي ، ودار الحديث عن تصحيح المحاضرة الأولى من كتاب " نظام الحياة " وتناولناه فقرة ، فقرة ، وهو يرى أنه لا يوجد في العراق إلا القليل يمكنهم قراءة هذه الأشياء الصعبة ، كان يائسا تماما من العراق ، وسعيدا ومسرورا بباكستان ، والمثل عندنا يقول : " مغني الحي لا يطرب " وأيضا " الطبل البعيد يرن " .

لقد ترك الأستاذ الهلالي لكهنو سنة ١٩٣٣م ، في تلك الفترة لا يمكنه أن يقدر الضرر الذي أحدثته حركة " مسلم ليك " (حزب الرابطة الإسلامية)[٩] في الحالة الدينية العامة ، والحالة الاجتماعية للمسلمين ، كان من فضل الله أن مطبوعات الجماعة الإسلامية موجودة ، تؤدي واجبها ، وجهود مولانا إلياس[١٠] كانت تثمر بين عامة الناس ، وإلا فلو لم توجد هاتان الحركتان ، لمضت باكستان والهند أيضا على خطى تركيا وإيران .

الاثنين ١٧ رجب ٦٨ هجرية / ١٦ مايو ١٩٤٩م

خرجنا اليوم نبحث عن مصرف Eastern Bank وكان معنا طه فياض ، تقدمنا من شارع الرشيد ، ووصلنا إلى شارع السموأل ، حيث توجد البنوك بكثرة ، ومن هذا الشارع تتفرع حارة فيها مستودعات تجار الجملة ، والسموأل شاعر يهودي مشهور في زمان الجاهلية ، واليهود موجودون بكثرة في البنوك ،

وربما أُطلق على الشارع اسم السموأل لهذا السبب ، وإلا فما علاقة البنوك بالشاعر ؟! هذا قياس من عندي ، وإلا فأسماء الشوارع هنا تمتاز بالصبغة القومية والإسلامية ، وهي تسمى بالأسماء الإسلامية وبأسماء الشعراء ابتداء من بلال رضي الله عنه وانتهاء بالخنساء والمتنبي .

على كل حال التقينا بداية بمدير " البنك العربي " الذي ظن أننا سنعطيه " حوالة مالية " حتى يطلب المبلغ ، ويُدخله في حساب البنك ، فهناك خطورة في حمل مبلغ كبير في سفر كهذا ، لكننا عرفنا في البنك ، أن هذا الأمر ، يحتاج إلى إذن إقامة دائمة ، ولا يمكن فتح حساب لمن لديهم إذن مرور مؤقت مثلنا ، وحين وصلنا إلى مصرف Eastern Bank وجدنا هناك أيضا صعوبة في فتح الحساب ، فقد كانوا يطلبون " ضمانة " وفي النهاية طلبنا المبلغ ، وأودعناه أمانة لدى تاجر صديق لفياض يدعى الحاج هاشم يونس .

رجعت وحدي إذ ذهب طه فياض لقضاء بعض أعماله ، وبينما كنت أسير ببطء ، إذا بشاب يندفع ناحيتي قائلا : تفضل . . تفضل . بدا من شكله وهيئته عراقيا ، لم أرفض دعوته ، ذهبنا إلى محل قريب ، وهناك استقبلني حشد كبير من الناس بحفاوة بالغة وخلق طيب ، قال الرجل بلغة أردية فصيحة :

- أأنت مسعود الندوي ؟!

- نعم العبد الفقير هو مسعود الندوي .

- عرفت أنك قادم .

كان هـذا الرجل يدعى الشيخ تصـدق حسين قادري ، وهو من سكـان بلدة " كاتهياوار "[١١] يقيم في العراق منذ ثلاث وثلاثين سنة ، حصل على الجنسية العراقية ، يتكلم العربية " الركيكة " أو كما يقولون " المكسرة " ويقرأ الصحف أيضا ، ذكر أيضا مقالة كاتب هذه السطور ، فيما يتعلق بحادثة البنجاب الشرقي ، كان يتأسف على الاختلافات القائمة بين الهنود والباكستانيين المحليين (أي داخل العراق) وساورني الشك فيما يتعلق به ، لكن أتباع قادري لم يجعلوني أقيم رأيا - لقد وصلني خبر هذا الاختلاف ، فالقاديانيون يسيطرون على جمعية الهنود هنا ، ولهذا انفصل عنه بعض الأعضاء ، ولهذا السبب ونتيجة الجهود المتحدة لبعض علماء العراق وبعض مسلمي الهند ، قامت الحكومة بحل هذه الجمعية ، ولهذا تحدثت إليه باحتياط شديد .

كان موعد اللقاء مع الشيخ أمجد الزهاوي قد تحدد وقت الظهر في جامع السليمانية ، حيث يقوم بالتدريس على الطريقة القديمة ، وقد أوقف الرجل مكتبته كلها لهذا الجامع ، كنت بحاجة إلى تفسير ابن كثير ، حضرت في الساعة الواحدة ، بينما كان يقوم بالتدريس ، فتحدثنا معا بعد أن فرغ من الدرس ، وبالصدفة كان قد نسي علاّقة المفاتيح ، ولهذا لم أتمكن من مشاهدة المكتبة كلها ، كان هناك بعض الكتب على الأرفف ، فوجدت من بينها المجلدين الأولين لتفسير ابن كثير ، فسمح لي باستعارتهما ، بصدر رحب ، ودون أن يسجلهما ، وظل يردد : لا بد أن تأتي ثانية في يوم آخر ، وتأخذ ما تحتاج إليه من كتب . ومن المصادفات السعيدة أن محمد بن كمال الخطيب الدمشقي المدير المسئول لمجلة التمدن الإسلامي ، التي تصدر في دمشق ، كان قد قدم

للقاء الزهاوي أيضا ، فرأى بطاقتي الملصقة على حقيبتي ، فأخذ جانب المبادرة، ورحب بي بأدب جم ، وأخذ يسأل عن الشيخ قمر الدين ، ويثني على جهوده التبليغية ، وسأل عن المودودي قائلا :

- ألا يزال في السجن حتى الآن ؟!

- نعم .

فقال ضاحكا :

- إنك لم تؤد حق الصحبة .

فبادر الزهاوي بقوله :

- إنه من خاصة أصحابه

فضحك الخطيب وقال :

- إنه لم يصاحبه في السجن

فقلت :

- هذا العمل يقوم به أصحابه الآخرون .

بعد هذه " المداعبة " دار الحديث عن كتاب " النظرية السياسية " فقد نشر تعليق عنه في مجلته ، وأخذ يشكو من قلة التفاصيل ، فقال له كاتب السطور :

- إن هدف هذه الكتيبات أو الكتب تقديم الأصول فقط ، وتوجيه الفكر إلى الاتجاه الإسلامي الصحيح .

أعطيناه كتابين آخرين ، ووعدناه بإرسال ثلاثة كتب أخرى فيما بعد ، ومن الجدير بالذكر أننا تعارفنا منذ خمس عشرة سنة ، فقد كنا نتبادل معا الضياء ومجلة التمدن الإسلامي ، وكانت مقالات العبد الفقير تطبع في الضياء ، وقد دعاني لزيارة دمشق ، وحين أخبرته باستحالة إضافة التأشيرة على جواز السفر ، قال :

- هذه مسئوليتي ، إذا تم الأمر بشكل قانوني ، فبها ونعمت ، وإلا فإن واجبي سيكون الحصول على إذن دخول من وزارة الخارجية في سوريا ، هل لديك تصريح من باكستان أم لا ؟

فقلت :

- هذه مسألة تحتاج إلى تفكير

وعلى كل حال سيبقى الرجل في بغداد وسنلتقي به فيما بعد .

كنا على موعد في المساء للقاء الأستاذ الهلالي في كلية الملكة عالية ، حيث يقوم ببعض أعمال الترجمة مستعينا بأحد الإنجليز ، كان موعدنا اليوم في الخامسة ، وحضرت حسب الموعد وبقيت أنتظر لفترة ، لكنه لم يحضر .

رحت أتجول لفترة في " الكرخ " فنهر دجلة يقسم بغداد إلى قسمين ، كان لكل منهما اسم خاص في العصر العباسي : الرصافة والكرخ ، والكرخ بقي باسمه حتى اليوم بينما المدينة الأصلية في الرصافة ، ولهذا يقال لها بغداد .

صليت المغرب في مسجد الحي ، وبقيت في مسكني لم أغادره .

الثلاثاء ١٨ رجب ٦٨ هجرية ١٧ مايو ١٩٤٩م

لم أكد أنتهي من مشاغلي الصباحية حتى حضر كمال الدين الطائي ، فبقينا نناقش مختلف القضايا لمدة طويلة ، وسألت عن تصدق حسين قادري ، فقال : هو زعيم القاديانيين ، وبسببه أساء الكثير من الناس فهم بعض الأمور ، ومع استمرار الحديث وتشعبه ، دعاني لتناول طعام الغداء ، فأصابني القلق ، لأن تناول طعام الغداء ، والعودة إلى البيت يصيبني بالتعب ، ثم إنه كان قد تقرر عقد اجتماع للعلماء المحليين هنا ، لتناول الشاي معا ، لكنه قال ببساطة : لا مجال للرفض ، و كنت قد سمعت الأستاذ الهلالي اليوم يشيد بأخلاقه ويثني على أخلاقه الحميدة .

في الظهر مر عليّ الطائي ، وبالصدفة سنحت لي الفرصة لمشاهدة حجرته الداخلية ، يا لها من مكتبة رائعة ! كانت مملوءة بالكتب ، إلا أن الرجل اعتقل في زمان الحرب مدة ثلاث سنوات ، للاشتباه في وجود علاقة بينه وبين رشيد الكيلاني (١٢) فاضطر أولاده إلى بيع الكتب ، لم يكن أمامهم من سبيل غير ذلك ، قال بألم شديد وهو يضغط على الكلمات :

- إنهم يعشقون الكتب ، وأنا أشعر بما سببه لهم ذلك من ألم وحزن .

يشتري الرسالة أيضا ، كما تأتيه المجلة الإسلامية Islamic Review من لندن ، قدم عاصم ليأخذ حوالي خمسة عشر عددا من الرسالة وعددين من المجلة الإسلامية Islamic Review ليطالعها ، ثم قررنا أن تكون زيارة بقية المكتبة يوم الثلاثاء .

جاء الطائي ثانية بعد العصر ، كما قدم عدد كبير من علماء المدينة ، ودار الحديث عن قضايا باكستان ، قال أحد الحضور بصراحة تامة متسائلا : ما هي القضية ، من ناحية تدق طبول الدعاية للدستور الإسلامي في باكستان ، والتدين وما إلى ذلك ، ومن ناحية أخرى تذهب النساء المتحررات السافرات إلى أمريكا وأوربا لتمثيل البلاد هناك ، ثم ذكر بصفة خاصة زوجة رئيس الوزراء .

فقال العبد الفقير : إن أرباب الحكومة الحاليين جميعهم دون استثناء تلاميذ الإنجليز ، وهم من محبي الثقافة الإنجليزية ، يمضون على درب الإنجليز ، ويتتبعون خطاهم ، أما الأمة فهي بين بين ،وهناك جماعة تدعو إلى التمسك بأصول الدين منذ عشر سنوات ، وكان من ثمار جهودها أن وافق المجلس التشريعي على قرار الأهداف ، الذي سمعتم به ، ويبدو أن الرجل أدرك حقيقة الأمر فقال : الآن اطمأن قلبي .

وهكذا تحدث بقية الحضور ، وأصر أحد العلماء على أخذ ثلاثة كتب ، فاشترطت عليه إعادتها إلينا فقال : " إن أمكن ذلك " فسجلت عنوانه .

قدم إلينا شابان في وقت متأخر قليلا ، أحدهما من المثقفين ثقافة جديدة ، فكان هو الوحيد من بين جماعة العلماء له دراية بالمصطلحات والعلوم الحديثة ، إلا أن الفرصة لم تسمح لي بالتحدث معه بالتفصيل ، وسط جماعة العلماء ، وقد دعاني لزيارة مدرسته يوم السبت ، يوم امتحان الطلاب ، فقبلت دعوته شاكرا .

سأل الشاب الثاني - وكان يرتدي بذلة ، كما كانت هيئته ، وكان شكله كبقية شباب العراق - أحد المعارف قائلا : هل هذا هو المودودي ؟ فرد عليه قائلا : لا ليس هو ، هذا هو مترجم كتب المودودي و . . . "

وفهمت بدوري من هذا التساؤل مدى انتشار كتبنا بين الدوائر الخاصة هنا ، وللأسف لم يكن لدي نسخ كافية .

قبيل المغرب حضر الشيخ أمجد الزهاوي ، فكانت فرصة لنتبادل الحديث معا بالتفصيل ، فهو رجل مخلص للغاية ، ومتعاطف معنا كثيرا ، يعد من أكبر علماء بغداد ، قد يخدع الإنسان فيه من ظاهر لباسه ، وقبل أن ألتقي به في كراتشي كان الأصدقاء قد تحدثوا عنه بطريقة لم تجعلني أميل إليه ، ثم لقيته بالصدفة ، بل تعددت لقاءاتي به ، فلم أحسن الظن به ، نظرا لهيئته وشكله ، ونظرا للأفكار القديمة ، ولكن بعد مجيئي هنا ، عرفت قدره ، فهو العالم الوحيد في بغداد الذي يتفق الجميع - مؤيدوه ومعارضوه - على إخلاصه ، ويعترف الجميع بجرأته وشجاعته في قول الحق والدفاع عن الدين ، فحين بدأت محاسبة الإخوان ومطاردتهم ، كان هو أول من رفع صوت الاحتجاج عاليا ، وله مكانة رفيعة في الأوساط الرسمية أيضا ، لكنه بلغ من العمر الآن مرحلة يكون من الصعب على الإنسان فيها أن يغير من فكره ونظرياته ، يؤمن بالتصوف ، كان يسأل : هل في باكستان شيخ كبير (صوفي) ؟ -لم يكن يدري شيئا عن رأي محدثه في التصوف ، على كل حال قلت له في أدب جم : ليس هناك صوفي معقول ، كلهم جهلة - فالتفت إلى قائلا : ما فائدة العلم في هذا ؟

علـم الله يكـفي ، يجب أن يكون لـه مرتبة في التصوف ، فقلت : هناك بين الصوفية علماء ، فقال : أنا أحب التصوف ، لا العلم .

دار الحديث لفترة طويلة ، واستمر كاتب هذه السطور يتحدث باختصار في أدب جم عن موضوعات مختلفة ، لكن معظم الحديث كان من جانبه هو ، ونظرا لما يتصف به من شفقة ، تحاملت على نفسي ، ولم أتمكن من الحديث مع الآخرين بطريقة جيدة ، وهو ما أسفت عليه أيضا .

صلينا المغرب ثم العشاء . . وبعد صلاة العشاء انتقلت في معية طه فياض إلى منزل محمد محمود الصواف ، لكن للأسف لم يكن موجودا ، ولم ألتق به حتى الآن لقاءً منفرداً ، ولم أتحدث معه بالتفصيل ، كما لم أتمكن من التعرف على شباب دائرته أيضا .

الأربعاء ١٩ رجب ١٣٦٨هـ / ١٨ مايو ١٩٤٩م

ذهب محمد عاصم صباحا إلى محمد محمود الصواف ، كان يتوق إلى لقائه ، والتحدث معه حديثا مفصلا ، وبقي معه حتى الساعة التاسعة من صباح يوم الخميس ، فبيته قريب منا ، ومكان إقامتنا في وسط المدينة ، كنا نفكر في البداية أن نقيم في الأعظمية ، ولكن عرفنا الآن أن الإقامة هناك كانت ستمثل بالنسبة لنا صعوبة كبيرة .

بقيت في غرفتي طوال اليوم ، وفي المساء حضر الأستاذ الهلالي ، لم يكن على ما يرام ، فتوقف على الفور موضوع تصحيح مسودة كتاب " نظام الحياة " وكنت في الحقيقة قد جعلت فكرة التصحيح تلك حتى نستفيد من الأستاذ الهلالي ، وإلا فمواضع التصحيح كانت قليلة جدا ، بينما كان النقاش

يتركز على الأدب واللغة ، والأستاذ الهلالي " إمام " في الأدب واللغة ، كما أنه على دراية طيبة أيضا بالحديث .

لا بد أن أشير هنا إلى أنني استفدت في بيت الأستاذ الهلالي من شخصين من الموصل ، أحدهما خرج من توه من المعتقل ، وكان قد اعتقل بتهمة الانتماء إلى حركة الإخوان المسلمين ، فأهل الموصل فيهم عاطفة دينية قوية ، كما أن " السلفية " متأصلة بين أهلها ، وكان الرجلان من أهل السلف ، إلا أنهما من ناحية التشدد وضيق النظر لا يقلان عن أهل الحديث عندنا ، وقد أخبرهما الأستاذ الهلالي عنا بعد أن سألاه ، وقال لهما :

" هؤلاء أيضا سلفيون ، لكن جل اهتماماتهم موجهة إلى إصلاح نظام الحكم ، ومع هذا فعندهم أيضا جماعة أهل حديث ، والمنتمون إليها يعملون بطريقتهم الخاصة . "

لم يكن الأستاذ الهلالي قد تمكن بعد من فهم دعوة الجماعة الإسلامية ، وأسلوب عملها بطريقة جيدة ، وهو أولا وقبل كل شيء معذور ، لا يستطيع القراءة بنفسه ، وهذا يمثل صعوبة كبيرة بالنسبة له ، ولما كنت تلميذا له ، لهذا تأثر بكلامي ، وأثناء تصحيح مسودة كتاب " نظام الحياة " تأثر كثيرا بما ورد فيه ، فكان يردد دائما على سمعي : قلّ أن يوجد في العراق من يستطيع قراءة هذا النوع من الموضوعات الموزونة الدقيقة ، رغم أنني أرى أن هذه الفكرة ليست صحيحة تماما ، فهناك في دوائر المثقفين من يطلب مثل هذه الكتب التي تتناول الموضوعات الجادة ، ولكن للأسف سيظل العراق هو العراق ، ونحن

عاجزون عن تقديم الكتب التي تتناول هذه الموضوعات أيضا في مصر ، فحركة الإخوان بتمامها قائمة على العواطف والأحاسيس ، ولا يوجد لديها أساس فكري ، ولهذا فهي قاصرة عن إيجاد الحلول العلمية والعملية للمشكلات الحالية ، فلا يمكن لقوة الخطابة فقط أن تحدث تغييرا ثابتا في نظام الحياة .

الخميس ٢٠ رجب ٦٨هجرية / ١٩ مايو ١٩٤٩م .

في الساعة التاسعة صباحا التقينا بمحمد محمود الصواف ، في بيته ، وتحدثنا معه مدة ساعة ، ومحمد محمود الصواف رجل جريء ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، وهو خطيب مفوه ، ويرأس جماعة من الشباب المخلص المتدين في العراق ، قدمنا له كتيبات بالعربية ، وأعطيناه كتيبا باللغة الإنجليزية ، حتى يقرأه الشباب ، كان الحديث مجملا وخاطفا ، قرأ المجموعة الثالثة من سلسلة " دعوتنا " وقال : " ولهذا فأرباب الحكومة متخوفون منكم . "

وقد ثبت لنا بالتجربة أن المجموعة الثالثة من سلسلة دعوتنا مفيدة جدا للتعريف بمنهجنا في الدعوة .

حصلنا على إذن " الإقامة " في العراق رسميا ، كان معنا إذن خاص بالزيارة والسياحة ، وكان من الضروري الحصول على إذن خاص بالإقامة ، كان طه فياض قد تحدث هاتفيا مع الموظف المسئول ، ولهذا لم تكن هناك صعوبة تذكر في الحصول على إذن الإقامة ، وهكذا حصلنا على الفور على الإذن بالإقامة لمدة ثلاثة أشهر ، يمكن تمديدها فيما بعد لسنة ، ونحن لا نريد تمديدها أكثر من ثلاثة أشهر أخرى .

قضينا معظم يومنا مع محمد كمال الخطيب الدمشقي ، وكان قد قدم عند عودة الصواف ، فرافقنا أيضا إلى مكتب " مدير الإقامة " ثم أخذنا إلى " وكالة " أخيه الشيخ ماجد الخطيب ، وهناك حصلنا على العدد الجديد من مجلة التمدن الإسلامي ، وقد نشر في هذا العدد عرضا لكتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " مع اقتباسات كثيرة من الكتب ، وكان الخطيب قد اطلع على هذا الكتاب عند الشيخ قمر الدين في مكة المكرمة .

تناولنا طعام الغداء في بيته وبقينا معه أيضا وقت الظهر ، فأطلعنا على شجرة الأسرة التي نقشت وكتبت بجهد جهيد ، وبدقة متناهية ، وأُثبت عليها أيضا شهادات علماء دمشق المشهورين .

في المساء حضر إلينا الأستاذ الهلالي ، كان لا يزال متوعكا ، فجاء الطبيب ليفحصه ، ولم يتمكن من الحصول على الدواء الذي وصفه له ، فذهب محمد عاصم مع شكيب (نجل الأستاذ الهلالي) إلى الطبيب ، ومعهما الوصفة الطبية، فوجداه قد عاد إلى البيت ، فجاءا إلينا في مقر إقامتنا ، فصلينا المغرب والعشاء ، وأعد عاصم الشاي الأخضر ، فارتشفناه بلذة وسرور ، فلا يوجد هنا شاي أخضر ، وكنا قد أحضرنا معنا " علبة " من كراتشي ، وأخذنا نستخدمها باحتياط شديد . . لكن إلى متى ؟!

الجمعة ٢١ رجب ٦٨هجرية / ٢٠ مايو ١٩٤٩م

دعانا إسماعيل راشد لتناول طعام الفطور صباحا ، وهو يسكن أيضا في الأعظمية ، اتصل طه فياض هاتفيا في الصباح ، وذكر أنه ينتظر عند " جامع

الإمام الأعظم " فنزلنا من الحافلة عند هذا المكان ، ووصلنا مع طه فياض إلى منزل إسماعيل راشد ، وجلسنا عند شاطئ دجلة ، كان المنظر رائعا ، بدأ الحديث مع إسماعيل راشد عن كتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " فقد انتهى من قراءته ليلا ، وكان متأثرا جدا ، وحين أخبرته أن مطبوعاتنا بالأردية كثيرة جدا ، ومنتشرة بين الناس على نطاق واسع ، فرح كثيرا وقال : ترجموها كلها إلى العربية ، أقيموا " دارا للترجمة " .

في تلك الفترة لم تكن هناك إمكانية لإصلاح الأفكار المتعلقة بإحياء علوم الدين وتفسير البيضاوي .

ثم دار الحديث عن موضوعات أخرى ، ولكنه كان يعود إلى هذا الموضوع مرة بعد مرة ، ولم يسمح لي بالحديث .

صلينا الجمعة في مسجد كمال الدين الطائي ، قرأ الخطبة اليوم عالم يدعى " بدر الدين " لغته رائعة ، كلها حماس ، ولهجته لهجة عربية خالصة ، ولغته بليغة ، رغم وجود تأثير إيراني على لهجة أهل العراق ، وليس لديهم امتياز خاص في تجويد القرآن الكريم ، ولكني بقدر ما سررت بالخطبة ، حزنت وأصابتني كآبة شديدة من طريقة الصلاة ، صلاة الجمعة ، ويكتفي الإمام بأربع أو خمس آيات !! الركوع والسجود خطفاً بمنتهى السرعة . . لم أسعد حتى الآن بالصلاة في أي مسجد من مساجد العراق .

حضر الطائي بعد العصر ، فاطلعت على قائمة الكتب الموجودة في مكتبته ، مكتبة طيبة ، لا يمكن أن تجتمع مثل هذه الكتب العربية في مكتبة

بلاهور ، ودار الحديث عند العديد من الناس ، وحضر أيضا أمجد الزهاوي ، وعلى شرف كاتب هذه السطور رتب الطائي جلسة خاصة ، وتحدث الشيخ الزهاوي عن العلاقات بين باكستان وأفغانستان وقام الحاضرون بتوجيه أسئلة مختلفة .

السبت ٢٢ رجب ٦٨ هجرية / ٢١ مايو ١٩٤٩م

في الصباح حضر الشيخ محمد قزلجي ، طالع ثلاثة من كتبنا ، وسر بها سرورا عظيما ، وأخذ يسأل عن أحوال المودودي وبناء على رغبته أعطيناه كتابا " هدية " حتى يستفيد منه رفاقه والطلبة أيضا ، والرجل معتدل ، ولديه شوق كبير للعلم ، وهذا قليل جدا لدى العلماء القدامى ، حين أخبرناه بأن معظم كتبنا باللغة الأردية عبر عن رغبته في تعلم اللغة الأردية ، فعرض عليه كاتب هذه السطور خدماته ، فأعلن عن استعداده للمجيء عندنا يوميا ، وكان المانع في هذا عدم وجود كتاب ابتدائي لتعليم الأردية ، وقررت أن أكتب لبعض الأصدقاء في كراتشي ، لإرسال مثل هذه الكتب ، والشيخ قزلجي كردي ، يعرف الفارسية جيدا ، ولهجته العربية لهجة واضحة ، ومستوى لغته أعلى من المستوى العادي ، تجاوز الخمسين سنة ، ويتولى التدريس في أحد مساجد الأعظمية ، فجميع المساجد هنا دون استثناء مدارس أيضا ، وهي على الطراز القديم أيضا ، وهذه المدارس شبيهة بمساجد ومدارس البنجاب ، لكن الفرق هو أن الأوقاف تدفع هنا راتبا معقولا للقائمين عليها ، فالشيخ الواحد ينال أجورا معقولة عن عدة أعمال مختلفة في وقت واحد : أجر وراتب للتدريس ، وآخر للوعظ ، وثالث لخطبة الجمعة ، ورابع للإمامة العامة ، وهكذا ينال العالم

العادي حوالي أربعين جنيها في الشهر ، إلا أن هؤلاء العلماء ليس لديهم علم واسع أو فكر رفيع ، وهم مثل علمائنا القدامى كـ" نبّوت الخفير " وزيهم يختلف عن زي عامة الناس ، ومن الجدير بالذكر أن الطلبة يرتدون أيضا زي العلماء ، ومعظم الطلاب يحصلون على الطعام والملبس مجانا .

في المساء عقدنا كالعادة جلسة عند الأستاذ الهلالي ، وبعد تصحيح المحاضرة الأولى في كتاب " نظام الحياة " ظل يطالع كراسات الامتحانات ، بصره ضعيف جدا ، لهذا كان عاصم يقرأ له ، والقراءة أمامه درس مفيد في حد ذاته ، فلا يهتم الناس في الهند عامة ، وفي البنجاب خاصة بمخارج الألفاظ ، وهنا لا يمكن فهم الكلام بأكمله دون تصحيح المخارج .

الأحد ٢٣ رجب ٦٨هجرية / ٢٢ مايو ١٩٤٩م

كنا على موعد اليوم مع الأستاذ الهلالي ، كان سيقوم بتصحيح كراسات اختبار النحو والتفسير ، ظل عاصم يقرأ بينما الشيخ يسمع ، وكان كاتب السطور يساعده أحيانا ، وأحيانا ينشغل بمطالعة الصحف العربية ، وبقينا على هذا الحال حتى الظهر ، وبعدها تناولنا طعام الغداء ، ثم رقدنا قليلا .

استمر تصحيح الكراسات لفترة ، ثم ودعناه في الساعة الخامسة . وفي طريق عودتنا عرجنا للسلام على الشيخ أمجد الزهاوي ، الذي رحب بنا بحرارة كالعادة ، وكان عند المدير العام للأوقاف ، فظل يوضح لنا برنامجه ، الذي يتلخص في أن العلماء هذه الأيام يؤدون أعمالا مختلفة ، ومتنوعة في مساجد متفرقة ، فبعضهم يعمل مدرسا في مسجد ، بينما يتولى منصب الإمامة مدرس

آخر ، ويقوم الثاني بمهمة الوعظ والخطابة ، ونتيجة لهذا فالنظام عقيم ، ويريد مدير الأوقاف أن يتولى شخص واحد ، جميع المهام في المسجد الواحد ، ويكون مسئولا عن هذا المسجد مسئولية كاملة ، فمستوى الراتب لا يقل عن مستوى راتب أي موظف في الهيئات الحكومية الأخرى .

استأذن مدير الأوقاف ، فبدأ الشيخ الزهاوي الحديث مرة أخرى ، يقول إن الأصل هو الجهاد والقوة ، فالرجل مخلص جدا ، ومقبول لدى جميع طبقات الناس .

وصلنا إلى مجلس كمال الطائي في جامع المرادية ، كان ذلك قبيل المغرب ، وكان هناك حشد كبير وجمهور غفير ، فبالأمس قام أحد أعضاء الشيعة ويدعى عبد الرازق الظاهر بالهجوم على العلماء في البرلمان ، أثناء بحث ميزانية الأوقاف وقال : لقد جعل هؤلاء الناس من العمامة ، وسيلة لكسب الرزق ، لم يظهر من بينهم من هو في مستوى فكر جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وميرزا تقي الدين .

كان هؤلاء العلماء يكتبون برقية احتجاج ، ويظهرون غضبا وغيظا من خلال اللهجة الشديدة للغاية ، كتب إسماعيل راشد مسودة البرقية ، وتجاوز أحد العلماء حد مخالفته للشيعة ، وجاء عندي وبدأ يقول : طالما لم يتم القضاء على أهل البيت فلا يمكن أن يتحقق الأمن والأمان في الدنيا ! !

تحدثنا مع إسماعيل راشد بعد صلاة المغرب ، وكان قد انتهى من قراءة " الدين القيم " وتأثر به كثيرا وظل يكرر قوله : يمكن أن تنجح هذه الطريقة في

تقديم الدين للناس ، وإن شاء الله ستحققون النجاح ، لا يزال في العراق روح ، بالرغم من المساوئ ، لكن لا يوجد هنا مفكر أو داعية ، يمكن أن يتولى زمام الأمور .

وكان يسأل مرة بعد مرة : كيف يمكن أن يظهر الإيمان في القلوب ؟ اكتب هذا السؤال للشيخ المودودي ، فقلت له : إذا كان الداعي مخلصا ، وكان ظاهره كباطنه ، فلا بد أن يكون له أثر ، وصُحبة الداعي الطاهر المخلص ، تظهر الإيمان في القلوب ، ولا شك أن الإيمان يظهر من خلال مطالعة الفكر الصحيح والتلقين الصحيح ، وأنا هنا أشير إلى أن علماءكم هنا مشغولون بترتيب وتنسيق عباءاتهم وعماماتهم والحفاظ عليها ، وقد زاد بينهم الحسد ، ووصل إلى حد كبير ، وإذا ما وجد من بينهم عالم مخلص أيضا ، فهو يفتقد إلى العلم والفكر الصحيح .

في الحقيقة حدث بيننا وبين إسماعيل راشد تآلف شديد ، أخذنا بكل احترام في سيارته إلى الأعظمية ، صلينا العشاء في مسجد الإمام الأعظم ، المسجد فخم وهو مركز ديني لمدينة بغداد ، وبجواره كلية الشريعة ، وهي الكلية الوحيدة للتعليم الديني ، وهي على الطراز القديم تماما ، وشكلها بسيط جدا ، والعراق متخلف جدا فيما يتعلق بدور التعليم الديني ، وعلى جانب المسجد يوجد قبر الإمام الأعظم ، لكننا لم نر شيئا فقد كان الوقت ليلا والباب مغلقا ! !

الاثنين ٢٤ رجب ٦٨ هجرية / ٢٣ مايو ١٩٤٩م

جلسنا في مقر إقامتنا حتى العصر ، كنت منهكا ومتعبا ، ظهرت آثار ضيق التنفس ، وفي المساء ذهبنا بصحبة محمد بن كمال الخطيب إلى منزل الحاج حمدي الأعظمي ، وهو مدير كلية الشريعة الملحقة بجامع الإمام الأعظم ، كان بيته قريبا من الجامع ، تجاوز الرجل الستين من عمره ، وهو عالم دين من الطراز القديم ، لكن لديه شغف بالعلم ، مكتبته رائعة ، يجيد اللغة التركية إجادة تامة ، فقد كان أستاذا للأدب التركي في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى ، وبالصدفة عرفت أن زوجته تركية ، ولهذا كان دائم السفر إلى هناك ، كنت بدوري مشتاقا إلى لقائه ، لكني سمعت عن مآثره الأخرى !! فقد قام بفصل بعض الطلاب الممتازين ، فقط ، لأن لهم علاقة بالإخوان المسلمين ، بينما يدرس الطلاب الآخرون ممن لهم علاقة بالإخوان المسلمين في الكليات الأخرى ، ولم يحرموا من التعليم ، بسبب هاجس الحكومة أو خوفها ، وهكذا فقد لاحظنا أن جميع العلماء متسامحون في باب العقائد ، أو كما يقال باللغة العادية " مبتدعة " وكان الأستاذ الهلالي قد أطلعنا على ذلك منذ اليوم الأول ، ولكنه سمح لنا رغم ذلك بلقائهم .

على كل حال كنا مترددين ، حتى قام محمد بن كمال الخطيب بإعلان استعداده لمرافقتنا ، والقيام بمهمة التعارف بيننا ، وهكذا حضرنا دون سابق موعد ، فرحب بنا ترحيبا عظيما وظل يقول : كنت أنا نفسي أشتاق للقياكم ، ثم ذكر العلامة سليمان الندوي والعلامة شبلي النعماني ، وقال إنه قرأ ترجمة سيرة النبي والفاروق وسيرة عائشة باللغة التركية ، وأثنى كثيرا على الانتقاد لمولانا

شبلي (وهو نقد تاريخ التمدن الإسلامي) وبعد الحديث الرسمي ، كان معظم كلامنا عن تركيا ، وكان يقول مثله مثل ظفر أحسن إن تلاوة متن القرآن الكريم بالعربية ، لم تمنع أبدا في تركيا ، لكن الأذان باللغة العربية ممنوع ، وهذا التغيير حدث بعد موت كمال أتاتورك ، ظننت أن السيد حمدي يخبرنا بأن عصر كمال أتاتورك كان أفضل من العصر الحالي بالنسبة للدين . . والله أعلم بالصواب ، وظننت أيضا أنه غير منحاز فيما يتعلق بتركيا ، لكن يفهم من حديثه أنه متعصب لتركيا .

على كل حال قدم لنا معلومات قيمة عن تركيا ، وأطلعنا على مجلات دينية تصدر من تركيا : سبيل الرشاد ، سلامت ، وأهل سنت ، وشاهدت في أحد أعداد مجلة " سلامت " صورة ميان بشير احمد . (السفير الباكستاني في تركيا)

طلبنا الإذن بعد المغرب ، لم يكن الوقت كافيا ، فقدم لنا دعوة للقائه مرة ثانية ، وتناول طعام الغداء معه يوم الثلاثاء القادم ، ولما كنا في شوق لزيارة مكتبته ، لم نتردد في قبول الدعوة .

عرجنا على الأستاذ الهلالي في طريق عودتنا ، ودار الحديث معه عن موضوعات مختلفة ، وكان إسماعيل وهو من جماعة أهل الحديث الأصوليين في الموصل موجودا أيضا ، فصلينا معا صلاة العشاء ، ورجعنا إلى مقر إقامتنا في الساعة العاشرة ليلا .

توجد مكتبة الإخوان في الأعظمية ، أعطيناهم نسخة بالإنجليزية من جميع مطبوعاتنا ، فهم شغوفون فقط بالمطبوعات الصادرة باللغة الإنجليزية .

الثلاثاء ٢٥ رجب ٦٨ هجرية ٢٤ مايو ١٩٤٩م

لم أنعم بالنوم طوال الليل ، ولهذا كنت متعبا في الصباح ، وكان ضيق التنفس ظاهرا وواضحا نتيجة داء الربو الذي أعاني منه ، كنت قد وعدت الأستاذ الهلالي باللقاء في الساعة التاسعة ، ولهذا ذهبت إليه في التاسعة والنصف ، واستمر تصحيح أوراق إجابات الاختبار حتى الساعة الثانية عشرة ، ظل عاصم يقرأ بينما بقي كاتب السطور في راحة تامة .

رجعنا حوالي الساعة الواحدة ، كانت أشعة الشمس محرقة ، ولهذا أصابني تعب على تعبي ، وظل عاصم أيضا يشكو من الصداع ، وبقينا دون عمل حتى المساء .

جاءني كمال الطائي بعد العصر ، ودار بيننا حديث عادي ، على كل حال لم أهتم بوجوده كثيرا ، فرقدت أطالع كتابا عن حياة الرافعي [١٣] لم يكن لدى الطائي ما يفعله ، لكنه كان يهتم بجمع الكتب ، بطريقة ملفتة للنظر ، ومن بين جلسائه إسماعيل راشد ، رجل ذكي تتهمه بعض الدوائر بالتجسس ، والله وحده يعلم ، لكن ما نشعر به هنا ، هو وجود حسد شديد بين العلماء ، فالطبقة الجديدة منهم طبقة بعيدة عن الدين تماما وينتشر فيها سوء الخلق الذي يعجز هؤلاء الناس عن علاجه ، وفي دائرة الإخوان المسلمين يوجد عدد لا بأس به من الشباب الصالح ، يتحلون بالشجاعة وفيهم أيضا عاطفة التضحية ، لم أتمكن من لقائهم حتى الآن بسبب الامتحانات التي ستنتهي خلال أسبوع أو عشرة أيام ، وعندئذ يمكن الالتقاء بهم .

في طريق العودة أردت زيارة الصواف لكني عرفت أنه غير موجود بالمكتب .

الأربعاء ٢٦ رجب ٦٨هجرية / ٢٥ مايو ١٩٤٩م

أشعر اليوم أيضا بالتعب ، كان ذلك من أثر ضربة الشمس ، بالأمس ذهبنا مساء إلى الأستاذ الهلالي ، واستمرت عملية تصحيح أوراق الامتحانات ، ورجعنا بعد العشاء .

كان محمد بن كمال الخطيب قد حضر إلينا ظهرا ، ودار الحديث عن موضوعات مختلفة ، وحضر أيضا مندوب جمعية التمدن الإسلامي سفير فواز ، وكان قد رجع من جولة في البصرة ، بينما أرسل عبد الله العقيل الحصر إلينا ، فبدأنا نعيد ترتيب الغرفة .

الخميس ٢٧ رجب ٦٨ هجرية / ٢٦ مايو ١٩٤٩م

الحمد لله أشعر اليوم بتحسن ، زال ضيق التنفس وزال الخلجان ، لم نغادر غرفتنا طوال النهار ، وفي المساء ذهبنا كالعادة إلى الأستاذ الهلالي ، واستمر تصحيح أوراق الامتحانات ، ورجعنا قبيل العشاء .

كان هناك احتفال بذكرى ليلة الإسراء ، تحت إشراف الجمعية الإسلامية ، في حديقة قاعة الملك فيصل المتصلة بباب المعظم ، كان كمال الدين الطائي قد قدم لنا الدعوة قبلا ، ورغم كراهيتي للاجتماعات الرسمية والبدع ، إلا أنني اشتركت في هذا الحفل ، فمن الضروري الاشتراك في جميع أنواع الاحتفالات

والجلسات والندوات والاجتماعات ، للوقوف جيدا على الأحوال الاجتماعية الصحيحة ، لأي بلد أو أمة ، كان المكان الذي عقد فيه الحفل رائعا وجميلا ، يسر الناظرين ، وكان يطلق على القاعة اسم حديقة ، رغم أنها صالة موجودة ضمن حدود قاعة الملك فيصل ، حيث تعقد فيها الجلسات والندوات في فصل الشتاء ، ولمواجهة حرارة الصيف صنعوا مكانا مربعا وسط الخضرة ، وجعلوا وسط هذا المكان ممرات ومسالك جميلة ، تشرح النفس وتسر العين ، نصبوا الزينات على الجوانب الأربعة ، وفي وسط الصالة (البهو) وضعوا أحجارا من القرميد على شكل بلاطات ثُبتت على أطرافها أنوار جميلة ، وبني على أطراف الصالة ممران يعلوان قليلا على مستوى الصالة ، وعلى أحدهما وضع مكبر الصوت ، وبجانبه منظمو الجلسة والخطباء والشعراء ، بينما جعل الممر الآخر لكبار الضيوف ، يتقدمهم لابسو العمائم من العلماء .

حضرت مع عاصم في الوقت المحدد ، فتسلمنا البرنامج مطبوعا عند الباب ، ووصلنا إلى مكان الجلسة ، وسلمنا على منظمي الجلسة ، وكان لنا نصيب في المكان المواجه للخطباء والشعراء ، وبالصدفة كان بجواري طه فياض الذي وصل قبلنا ، ووصل الصواف فيما بعد ، فجلس بيني وبين طه فياض .

سمعنا الخطب ، لم يكن فيها شيء خاص ، كانت كلها خطبًا مكتوبة قبلا ، ولهذا لم يسمح لأي خطيب بأكثر من خمس عشرة دقيقة ، وأظهر الشعراء جواهر معانيهم ، وكان هناك أمر مشترك في الخطابة والشعر ، ألا وهو البكاء

على حال فلسطين ، إن العراك الذي دار بين مجموعة الدول العربية أذل العرب والمسلمين في العالم ذلا ، لا يقدر على محو آثاره إلا رب العزة ، لكنه تبارك وتعالى قرر قانونه المحكم الخاص بالتبديل والإصلاح ، فهو لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

كان تنظيم الحفل مدعاة للإعجاب والإطراء ، فمع وجود المشروبات ، لم يوجد أي نوع من الفوضى ، كان الجلوس على الكراسي ، ورغم اتساع المكان لم يتعد عدد الحاضرين عن ألف وخمسمائة ، وكان كل ما يدور في الحفل يذاع على الهواء ، ولهذا كان عدد كبير من الناس يجلسون على المقاهي، يتمتعون بسماع ما يدور في ذلك الحفل .

الجمعة ٢٨ رجب ٦٨هجرية / ٢٧ مايو ١٩٤٩م

التقى محمد بن كمال الخطيب بسيد عاصم الكيلاني نقيب الأشراف ، لم يتمكن من وضع برنامج ما ، في البداية بعد صلاة الجمعة دعانا الشيخ إبراهيم بن مصطفى لطعام الغداء ، وحين جاء ذكر الأستاذ الهلالي ، ظهرت آثار الفزع على وجهه ، فالأستاذ الهلالي يكره البدعيين والقبوريين كراهية شديدة ، وسيد عاصم الكيلاني يعد من رؤساء بغداد ، ومن خاصة رجالها ، وهو يدعي أنه من أبناء الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وهو صاحب عزة وجاه ، ولكن مكانته عند الأستاذ الهلالي لا تتعدى مكانة أي قبوري ، من مجاوري القبور ، وعلى كل حال ، تأجل هذا اللقاء في الحال .

أدينا صلاة الجمعة في جامع الشيخ صندل ، الذي يقع في الكرخ على شاطئ دجلة الآخر ، وهو مكان قديم ، ويسمى المسجد باسم الشيخ صندل ، وهو أحد الشيوخ القدامى ، لكن بناء المسجد الحالي بناء جديد .

أفتتحت في الكرخ مدرسة دينية باسم المتوسطة الدينية ، ناظرها هو إبراهيم مصطفى ، وهذه أول مدرسة دينية عليا تقام في العراق ، فالعراق يخلو تماما من المدارس العربية (الدينية) ، وحاله كحال البنجاب في كل مسجد مدرسة ، لكن هناك فرق بين البنجاب والعراق ، فمرتبات " شيوخ " مساجد البنجاب بسيطة جدا ، وحالة الطلبة تدعو للرثاء ، ولكن لا يوجد هنا طلبة ، بينما العلماء يتقاضون رواتب عالية جدا من الأوقاف ، وكلية الشريعة هي أول مدرسة دينية ، مستواها مثل مستوى المدرسة الثانوية ، وفي كلية الشريعة أربعون مدرسا استدعوا من مصر ، ويرجعون إلى مصر أثناء العطلة ، وقد قدمت هذه الدعوة على شرفهم ، في صلاة الجمعة قرأ الخطبة الشيخ بدر الدين الأزهري (المدرس بكلية الشريعة) كانت الخطبة رائعة والصلاة معقولة ، وكان الطعام على أحسن وجه ، لكن للأسف كان اجتماع العلماء وحديثهم عاديا وسطحيا ، وجدت شابا بدا عليه الحماس والنشاط ، تحدثت معه وأعطيناه مجموعة من مطبوعاتنا ليعرف بها أصحابه ، كنا على موعد للقاء الأستاذ الهلالي في كلية الملكة عالية ، كان يترجم بمساعدة أحد الإنجليز بعض المقالات المتعلقة عن لسان الدين الخطيب العالم والأديب الأندلسي الشهير [١٤] فاشترك كاتب هذه السطور في هذا العمل أيضا .

لم تخلُ هذه الجلسة من الفائدة .

قمنا اليوم بترتيب الغرفة من جديد ، كنا في انتظار الحصر تأتينا من البصرة، والآن صارت الغرفة جديرة بأن يجلس فيها ثلاثة أو أربعة ، لكنها من ناحية السكن والإقامة هنا لا تليق حتى بالعمال ، وكان يكفي أن نبين لأحبابنا أن غرفتنا على مستوى نظافة وترتيب غرفة طلبة ندوة العلماء .

السبت ٢٩ رجب ٦٨ هجرية / ٢٨ مايو ١٩٤٩م

تناولنا طعام الغداء اليوم ، واضطررنا إلى المشي تحت أشعة الشمس مما أصابني بالإرهاق والتعب ، وفي الليل شعرت بصعوبة في التنفس ، وتعرضت لغثيان بسيط ، مما جعلني أرقد طول اليوم في المسكن ، وحين علم الأستاذ الهلالي بالأمر حضر إليّ بعد فراغه من الكلية ، وجلس معي لفترة طويلة ، وزارني أيضا محمد الخطيب واطمأن عليّ .

في المساء تحدثت مع صحافي صديق لطه فياض ، يدعى جعفر مال الله[١٥] أظهر أسفه وحزنه على سفور زوجة رئيس الوزراء وتبرجها ، ثم ذكر واقعة عن سفير باكستان غضنفر علي خان ، جعلتني أتبلل خجلا ، فالمسكين يسمع عن باكستان ، وتمسك أهلها بالدين ، وفجأة يشاهد هذا المنظر المخجل أمام عينيه ، فيأسف ويحزن ويصاب بالحيرة ، وقام كاتب هذه السطور باطلاعه على أحوال باكستان الحقيقية ، فاطمأن قلبه وهدأ .

الأحد أول شعبان ٦٨ هجرية / ٢٩ مايو ١٩٤٩م

لا أزال متعبا اليوم أيضا ، لكني أحسن كثيرا مما كنت عليه بالأمس ، وصلتني خطابات محمد ناظم ، ورحمت إلهي ، وكان ضمن الخطابات خطاب

تعارف وتوصية من السيد / عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية ، باسم السفير السعودي في العراق .

في المساء ذهبنا كالعادة إلى منزل الأستاذ الهلالي ، استمرت عملية تصحيح أوراق الامتحانات ، ثم تناولنا الطعام عنده ، وفرح الأستاذ الهلالي كثيرا حين رأى خطاب السيد / عبد الحميد الخطيب ، لم يكن كاتب هذه السطور يرغب في مثل خطابات التوصية هذه ، لكن الأستاذ الهلالي يعوّل كثيرا على أهمية هذه الأشياء الآن .

الاثنين ٢ شعبان ٦٨ هجرية / ٣٠ مايو ١٩٤٩م

أشعر بتحسن - والحمد لله - ذهبت في الصباح إلى الحلاق ، فهذب لحيتي ، واضطررت إلى إعطائه ما يوازي روبيتين وستين بيسه ، المعيشة هنا غالية جدا ، لا يمكن أن تشاهد حلاقا على قارعة الطريق ، فكل منهم له " صالون " رائع ، والحلاقون لا يتبادلون الحديث إلا مع لابسي " البذلات " كانت هذه أول مرة أزور فيها صالون حلاقة ، خلال الأسابيع الثلاثة ، فقد كنت أقوم بتهذيب لحيتي بنفسي ، وقد علمني السفر هذا العمل الجديد .

مساء اليوم كان الأستاذ الهلالي مشغولا ببرنامجه الخاص بالترجمة ، فوصلنا نحن أيضا إلى كلية الملكة عالية ، واشتركنا في جلسة الترجمة ، ورغم أن هذه كلية للبنات ، إلا أن الأساتذة كلهم من الرجال ، ولا يوجد هناك حجاب على الإطلاق ، والزي يتصف بالعري ، ورغم ذلك فمثل هذا اللباس هنا مألوف تماما ، وهو اللباس الرائج أيضا في بيوت المتمسكين بدينهم ، والفرق هو أن

النساء المتحررات يتجولن خارج البيوت بهذا اللباس ، أما نساء البيوت المتمسكة بالدين فيخرجن واضعات عباءة سوداء فوق هذا اللباس ، وتلف بعضهن أجسامهن بهذا الجلباب ، بحيث يغطي جميع الجسم عدا الوجه ، وفتيات الكلية أيضا قسمان ، إلا أنهن جميعا سواء داخل جدران الكلية ، وكنت قد دخلت إلى الكلية عدة مرات مع الأستاذ الهلالي ، والله يعلم ما مر علينا ، لكن لا يوجد ما يستحق الذكر عن جو الكلية هذا .

بعد المغرب حضرنا إلى منزل محمد محمود الصواف ، فالتقينا به دون موعد مسبق ، وسعدنا بصحبته لساعة تقريبا ، وكان معه رجل من سكان الموصل ، وبعد فترة وصل طالب بكلية الطب ، وطلاب هذه الكلية مثلهم مثل طلاب باكستان والهند ، يستجيبون تماما لدعوة الحق ، والآن تعقد الاختبارات الشفوية ، لهذا لم أتمكن من لقاء الطلاب بشكل جيد .

الثلاثاء ٣ شعبان ٦٨ هجرية / ٣١ مايو ١٩٤٩م

التقينا اليوم بالحاج حمدي الأعظمي (عميد كلية الشريعة) كان علينا أن نصل عنده في الساعة العاشرة صباحا ، بيته العامر بجوار " جامع أبي حنيفة " ارتوينا لثلاث ساعات برواء الكتب ، وحمدي الأعظمي على معرفة جيدة بالهند، وأهل العلم فيها ، ظل يسأل عن نواب صديق حسن خان [١٦] وعن آله وأحفاده ، وظل يمتدح شبلي النعماني ، وأطلعنا على الترجمة التركية لسيرة النبي (عصر سعادت) كما ظل يسأل أيضا عن أحوال أبي الكلام آزاد .

يعتبر الحاج حمدي نفسه سلفيا ، بل ظل يقول لي مرة بعد مرة : يمكن ألا تعجب بكلامي ، إني معجب بالسلفية ، لكن أهل بغداد يعتبرون هذا مكرا وكذبا ، فصديقنا طه أيوب يعتبره " عبد بطنه " والأستاذ الهلالي يقول إنه زنديق ، والله أعلم بأحوال القلوب ، فتقديرنا الخاص أن الرجل ليس له مسلك خاص ، يمكن أن يستقيم عليه ، أو يمكن أن يتحمل من جرائه أي خسارة ، فهو يجامل كل إنسان ، ولا شك أنه يعشق الكتب ، ولا يوجد عند أحد من الناس ، في بغداد كلها ، مكتبة تساوي مكتبته الزاخرة .

رقدت أطالع كتاب عبد الله القصيمي هذه هي الأغلال ، وكنت قد رأيت كتاب محمد عبد الرزاق حمزة في الرد على هذا الكتاب ، فظل في قلبي شوق لمطالعة الكتاب الأصلي ، يقول الأستاذ الهلالي : إن أصل الكتاب من تأليف إسماعيل مظهر ، والقصيمي ساعد فقط في تحريف وتأويل الآيات القرآنية والأحاديث .

بعد الظهر ذهبنا إلى الأستاذ الهلالي ، وقضينا وقت القيلولة عنده ، وقبيل المغرب ذهبنا إلى منزل أمجد الزهاوي ، رجل مخلص تماما ، وهو الرجل الوحيد الذي يتفق الجميع — محبوه ومن اختلفوا معه - على إخلاصه ، وكالعادة أظهر اهتمامه بباكستان وأفغانستان والأسلحة والجهاد ، وأثناء حديثنا حضر شخص فهمت من لباسه وحديثه أنه عراقي ، لكنه بدأ بعد قليل يتكلم الأردية الصافية السلسة وسألني : متى حضرت ؟

والرجل من سكان الكجرات (البنجاب) ويعمل في إحدى الوظائف هنا ، وهو من مريدي (بير كولره شريف) [١٧] وقد قدم ليرسل عن طريقنا رسالة ، يبدو أنه رجل معقول ، ظل يسأل عن القاديانية ، ثم وعد بلقائنا مرة ثانية .

في طريق عودتنا التقينا بالصواف ، الذي سمع اسم الحاج حمدي فبدأ على الفور يستغفر الله ، ويعلن التوبة ، قلت له : هدفنا أن نلتقي بجميع الناس، من كل نوع ، ومن كل طائفة ، لأن هذا يمكننا من معرفة الأمور وتقديرها بشكل صحيح ، ومعرفة الأحوال بطريقة جيدة ، وقد ذكرت له في أول الجلسة أن العبد الفقير تلميذ للأستاذ الهلالي .

الأربعاء ٤ شعبان ٦٨ هجرية / أول يونيو ١٩٤٩ م

لم أخرج من البيت حتى العصر ، فقد انشغلت بقراءة كتاب القصيمي «هذه هي الأغلال» ونسخة من مجلة الرسالة ، بينما كان صوت المذياع يصدح بالموسيقى في حجرة مدير " السجل " المجاورة ، وفي الطابق الأسفل كانت مطبعة السلام ، ومكتب النذير ، وهناك أيضا كان المذياع يصدح بالموسيقى ، و أحيانا كانت هناك أصوات متنوعة تتناهى إلى سمعي من مختلف الاتجاهات ، لماذا لا يستفيد هؤلاء من التمتع بالاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم وتجويده صباح مساء ؟!

وصلنا في المساء إلى عبد الله الخيال القائم بالأعمال في سفارة المملكة العربية السعودية ، فقد أخذ طه فياض موعدا بالهاتف ، التقينا به ، رجل بسيط ، من أهالي نجد ، يبدو من ملامح وجهه أنه لم ينل قسطا كبيرا من التعليم ،

والأهم من هذا وذاك أنه على عكس السفراء الآخرين ، وممثلي الحكومات الأخرى ، فيه بساطة ، ويتمتع بحسن الخلق ، تحدثنا لفترة . . سيذهب غدا إلى الظهران ، ويمكث هناك أسبوعين ، وعند عودته ستتوالى لقاءاتنا ، كما أكد لنا ، وكرر تأكيده مرة بعد مرة على ضرورة اللقاء .

قرأ خطاب السيد / عبد الحميد الخطيب وسأل : هل صدرت ترجمة كتاب الإسلام والاشتراكية ، وكانت الإجابة بالنفي ، أهديناه ثلاثة كتب من مطبوعاتنا، وطلبنا منه أن يعطي اهتمامه الخاص للنقاط الثلاث في كتاب "دعوتنا " - تسلم هذه الكتب وشكرنا .

وصلنا متأخرين إلى الأستاذ الهلالي ، واستمرت عملية تصحيح كراسات الامتحان ، ووضعنا برنامجا للقاء عدد من الأدباء والعلماء ، ورجعنا في الساعة العاشرة ليلا .

الخميس ٥ شعبان ٦٨ هجرية / ٢ يونيو ١٩٤٩م

بقيت طوال اليوم في البيت ، أقرأ (هذه هي الأغلال) ومجلة الرسالة ، ثم كتبت خطابا مفصلا إلى غازي ، وفي المساء حضر الأستاذ الهلالي بنفسه ، فذهبنا معه إلى طبيب العيون ، وفي أثناء عودتنا صلينا المغرب في مسجد الحي، وبعدها شرفنا الأستاذ الهلالي في مقر إقامتنا ، فجلسنا لفترة طويلة على السطح في الهواء الطلق ، وجاء طه فياض أيضا ، فكانت صحبة ممتعة .

أفكر منذ فترة في لقاء محمد بهجت الأثري [١٨] فقدمني إليه الأستاذ الهلالي هاتفيا ، وضرب معه موعدا لنذهب إليه ، فرد الرجل بلطف شديد :

القادم يُزار ، سوف آتي بنفسي ، وتم الاتفاق على أن يأتي إلى دفتر " السجل " صباح يوم السبت ، ومحمد بهجت الأثري عالم مشهور وأديب فذ ، لا يوجد له مثيل بين العلماء والأدباء في بغداد ، ومع هذا فقليل من الناس في المدينة يعرفونه ، ولم يجد الرجل قبولا لدى الناس ، وقد ذكرت هذا لطه فياض متسائلا ، فقال :

- رجل متكبر متغطرس أناني ، يقول عن نفسه إنه سلفي ، لكنه لا يؤدي الصلاة ، والأستاذ الهلالي يمتدحه - من الباب للطاق - ويطيب له سماع اسمه .

على كل حال كنا في شوق للقائه ويمكننا في ظرف خمس دقائق أن نصدق أو نكذب هذه الروايات .

الجمعة ٦ شعبان ٦٨ هجرية / ٣ يونيو ١٩٤٩م

صلينا الجمعة في جامع " المرادية " وصلنا - طه فياض ومحمد عاصم والعبد الفقير - قبل الصلاة ، فوجدنا الطائي قد سبقنا إلى هناك ، وكان هناك شخصان يتناقشان في موضوع العلاقات بين باكستان وأفغانستان .

بعد الصلاة ذهبنا إلى الأعظمية ، وتناولنا طعام الغداء مع الأستاذ الهلالي ، واستأذن طه فياض مع شخص آخر بعد الغداء ، بينما قضينا القيلولة عند الأستاذ الهلالي ، وذهبنا بعد العصر إلى كلية الملكة عالية ، فاليوم هو يوم الترجمة الإنجليزية ، حضر الصواف قبل المغرب فقرأنا عليه خطاب "أبومحمود " كان مكتوبا بالأردية ، وطلب منا أن نترجمه له بالعربية ، ثم صلينا المغرب في

مكتب " جمعية الهداية الإسلامية " وتعقد الجمعية جلستين كل أسبوع ، حيث يُدرس القرآن في يوم الجمعة ، ويدرس الحديث يوم الثلاثاء، فاليوم درس القرآن ، وهكذا قام الشيخ محمد قاسم القيسي بتفسير آيات من سورة البقرة (واتبعوا ما تتلو الشياطين . . . إلخ) تفسيرا مختصرا وبعدها قرأ سكرتير الجمعية صفحات من كتاب في التفسير ، وهو في الغالب تفسير لأحد العلماء المصريين المعاصرين .

السبت ٧ شعبان ٦٨ هجرية / ٤ نوفمبر ١٩٤٩م

حضر إلينا اليوم محمد بهجت الأثري ، وكان قد سبقه إلينا الأستاذ المحترم الهلالي ، ودار النقاش والحديث لساعة ، ظل يسوق أسئلة عن بدر الدين العلوي وعبد العزيز ميمن [19] ،وامتدح علم وفضل عبد العزيز ميمن ، يريد المجمع العلمي العراقي إصدار مجلة ، وكان يرغب في أن أكتب لهم مقالة علمية ، سأل عن العلاقات بين باكستان والهند ، وتأسف وحزن على فسق وفجور أحد المسئولين الرسميين الباكستانيين ، وعند ذكر الحالة الدينية في باكستان أطلعته على ثلاثة كتب من كتبنا ، وقدمت له بعض الكتيبات المطبوعة باللغة الإنجليزية ، فأظهر رغبة في قراءتها ، فأخبرته أننا طلبنا نسخا أخرى ، وإن شاء الله سنهديها له حين تصلنا .

والرجل صاحب معرفة ، يريد أن يطلع على الأمور الصحيحة ، ويريد أن يتعرف على الأحوال الواقعية ،لم يكن على يقين من الأخبار التي تنشر عن الأحوال الدينية في باكستان ، وظل يردد : طالما ظل هؤلاء الحكام الذين لا

يخافون الله يسيطرون علينا فلا يمكن أن يتم أي إصلاح ، وذكر نشاطات الجماعة الإسلامية في باكستان ، وقرار الأهداف الخاص بالدستور داخل البرلمان ، وقال :

- ندعو الله أن يوفقكم وإلا لن تكون تجربة طيبة .

وقال عن نظام حيدر آباد [٢٠] :

- بعد أن وعد هذا الشخص بإنشاء الجامعة المقترحة في القــدس ، لم يقدم ولا فلسًا ، رغم أن سماحة المفتي أمين الحسيني ، ومحمد علي علوبة ذهبا إليه بصفة خاصة ، والآن نرى غضب الله الذي حل عليه ، لقد فقد جميع ثروته وملكه "

وودعنا الرجل على وعد بلقاء آخر ، لا يوجد ما يدعو للشك في ظاهر أخلاقه ، أما الباطن فالله وحده يعلمه ، وطه فياض غاضب منه إلى حد كبير ، يقول : " لم يره أحد حتى اليوم في المسجد "

كان الأستاذ الهلالي مشغولا في المساء ، ولهذا ذهبنا إلى الطائي ، وبقينا عنده فترة ، ذهبنا لنستعير منه كتاب " حجة الله البالغة " [٢١] وكتابا دراسيا في الجغرافيا ، وعند عودتنا وقت المغرب ، التقينا بالصواف ، فجلسنا في مقر إقامتنا على السطح ، وجاء طه فياض أيضا ، وفي أثناء الحديث جاء ذكر أحوال مصر واستشهاد حسن البنا ، فسيطر الحماس على الصواف وبدأ يتكلم بعاطفة جياشة .

من الجدير بالذكر أن الطبقة المثقفة هنا على يقين من أن الحكومة المصرية قتلت حسن البنا ، يقول الصواف :

- كانت جراحه بسيطة ، لكنه لم يتمكن من الحصول على الإسعافات الطبية ، فقد حاصرت الشرطة والجيش المستشفى .

ويتهم طه فياض والصواف النقراشي شخصيا ، ليته بذل عشر العشر من محاولاته القضاء على الأخوان المسلمين في معاداة اليهود .

الأحد ٨ شعبان ٦٨ هجرية / ٤ يونيو ١٩٤٩م

بقينا في مقر إقامتنا طوال اليوم ، حضر إلينا الهلالي في المساء ، فذهبنا معه إلى الدكتور محمود هاشمي (طبيب متخصص في أمراض العيون) كان قد فحص الأستاذ الهلالي من قبل ، ووعد بتسليمه نتيجة الفحص اليوم ، قال الطبيب : " الآن وصلت حالة عين الأستاذ الهلالي إلى درجة لا يجدي معها العلاج " والمسكين وصل إلى حالة صعبة للغاية ، ولله في عباده شأن ، فإذا ما حرم عبدا من عباده من نعمة البصر ، وهبه نعمة الحفظ ، فقد كان الأستاذ الهلالي إذا ما سمع شيئا حفظه على الفور ، لقد قرأ الحديث النبوي منذ أكثر من عشرين سنة ، لكن إذا سألته اليوم عن أي حديث ، أسمعك إياه على الفور ، بل وترد على لسانه الروايات التي تثار حول مسألة ما ، تتعلق بالحديث ذاته ، وهذا هو الحال أيضا بالنسبة للقرآن الكريم وكلام العرب .

ظل معنا الأستاذ الهلالي لفترة طويلة بعد المغرب ، وجاء طه فياض ومعه صديقه الصحافي جعفر مال الله ، فدار الحديث عن موضوعات مختلفة ،

تحدثنا عن وفد حـيدر آباد ، وكانت وزارة لائق علي قد أرسلت وفودا للدعاية في مختلف البلاد ، وقد أنفقت هذه الوفود أموالا طائلة ، وقدموا الدعوات للكثير من الناس ، ولم يحظ جعفر مال الله بشيء من هذا ، ومن هنا كان قلقا ! ! .

الأحـد ٩ شعبان ٦٨هجرية / ٦ يونيو ١٩٤٩م

ذهبنا اليوم إلى الأستاذ الهلالي ، وبدأ العمل في تصحيح ومراجعة كتاب " نظام الحياة " [٢٢] من جديد ، وبنشاط وهمة ، فليس لدى الأستاذ الآن ما يشغله ولهذا فيمكن أن نستفيد منه بقدر ما نريد ، فمراجعة الترجمة تمضي ، ولكن خلال المراجعة تدور بيننا مناقشات ، وأبحاث علمية ، وأدبية جيدة ، كما أن هذه أفضل وسيلة للتعريف بمطبوعاتنا ، وبمنهجنا في الدعوة ، انتهينا اليوم من تصحيح محاضرة كاملة ، عارض الأستاذ الهلالي اليوم معارضة شديدة حقوق الذميين في " النظام السياسي " وبخاصة هذه العبارة " مسموح للذميين بالتبليغ (أي الدعوة) بل وبنقد الإسلام أيضا " واعتبر هذا كلاما مضللا للغاية ، يقول : " فيما يتعلق بالتبليغ والدعوة ، فهذا مفهوم ، لكن السماح بنقد الإسلام ، فهذا أمر غير مقبول ، ويتعارض مع تعاليم الإسلام "

وقد ذكر كاتب السطور هذا الأمر للمودوي ، الذي فسر رأيه بما لم يطمئن إليه كاتب السطور ، والآن بعد اعتراض الأستاذ الهلالي ، شق عليّ هذا الأمر ، وجعلني أتوجس خيفة ، وعلى كل حال سنتكلم مع المؤلف في هذا الشأن قبل نشر الكتاب ، وإذا لم تسمح قيود الحكومة بذلك ، فسوف يطبع هكذا على حاله مع كتابة ملحوظة .

تناولنا الطعام مع الأستاذ الهلالي وذهبنا بعد العصر إلى بيت الأستاذ الزهاوي ، كان قد استعار كتاب الإنصاف لشاه ولي الله ، ذهب عاصم مع الأستاذ الهلالي إلى محاضرة ، فقد كنت أريد أن يستفيد عاصم من الأستاذ الهلالي بقدر المستطاع ، وشكرا لله فبعد شهر تقريبا تحسن أسلوبه الإنشائي ، وتحسنت طريقته في الحديث أيضا .

بعد المغرب نزلنا على الصواف في منزله ، أصبحت بيننا وبينه الآن ألفة وأنس ، كان يقرأ كتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " فبادرني بقوله : " كنت في صحبتك " .

الثلاثاء ١٠ شعبان ٦٨ هجرية / ٧ يونيو ١٩٤٩م

قرأت بعض أبواب " هذه هي الأغلال للقصيمي " ويبدو أن هذا الكتاب أكثر تضليلا من كتاب " تذكره " للمشرقي [٢٣] كما أن لهجة السب والشتم فيه لهجة سوقية مبتذلة ، ويضع القصيمي - طبقا لما ورد في كتابه - ثلاثة حلول :

١ - كفر وإلحاد أوربا

٢ - الدين الصحيح ، أي علاوة على وجود الله ، فهو يؤمن بأن الإنسان هو كل شيء ، أي يعترف بالإنسان كخالق للقدر أيضا .

٣ - إلقاء الأخلاق والصفات الحميدة خلف الظهر تماما ، واتباع أي مسلك ، طالما كان وراءه نفع مادي حتى لو تعارض مع أحكام الله وسنة رسوله .

ويرى أن دين الإسلام الحالي ! الذي مسخ تماما منذ ألف سنة لا يوجد فيه حل آخر غير ما أورده من قبل ، من حلول سابقة ، ولهذا فالحل الأول أفضل ألف مرة من الحل الثاني ، وفي غمرة حماقته وسفاهته يشيد بعقيدة ألوهية المسيح ، معتبرا هذا اعتراف بأفضلية الإنسان ، والكتاب كله مملوء بمثل هذه الخرافات .

وقد عُلم أنه بجهود علماء نجد واحتجاجهم ، أو قفت الحكومة السعودية منحة القصيمي ، وأجرت هذه المنحة على عالم آخر هو ابن السعدي ، وهذا أمر يدعو للفرح والسرور .

في المساء وصلنا إلى " الزوية " للقاء الشاعر والأديب العراقي المشهور محمد رضا الشبيبي ، وتقع " الزوية " في الجهة الشرقية من المدينة ، كنت أقرأ أشعار الشبيبي منذ مدة ، في الأيام السابقة شاهدت مقالا بعنوان " إلى الدين من جديد " نشر في مجلة " رسالة الإسلام " التي تصدر في القاهرة ، كان المقال مختصرا لكن يفهم منه أن كاتبه يحمل في ذهنه تصورا صحيحا للإسلام .

ولا تقتصر شهرة الشبيبي كأديب وشاعر على العراق فقط بل تتعداه إلى جميع بلدان العالم العربي ، كان قد تقلد منصب وزير التعليم عدة مرات ، وهو عضو في مجلس النواب أيضا ، ومثل هؤلاء الناس في العراق لا يهتمون عادة بالدين والخلق ، إلا أن الشبيبي يستثنى من هذه القائمة ، وربما كان لتشيعه دخل في هذا ، كنت أخشى الإفصاح عن شوقي للقائه ، نظرا لأنه ينتمي إلى طائفة الشيعة ، وقد جاء ذكره ذات مرة في إحدى الجلسات عند كمال الطائي فقال أحد الناس :

- كلب بن كلب .

فرد الآخر :

- قرد بن قرد

وبقيت لا أحرك ساكنا ، وظللت مبهوتا ،ولم أعلق بكلمة ، لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الأستاذ الهلالي يخلو من مثل هذه التعصبات بل يمكن القول إنه متسامح إلى درجة كبيرة ، تزيد أحيانا عن الحد ، ولهذا ذهبنا في معيته للقاء الشبيبي ، بعد أن حددنا وقت اللقاء عن طريق الهاتف ، جلسنا ساعة ودار حديث علمي وأدبي رائع ، تعامل معنا الرجل بأدب جم وخلق حسن ، كان قد بقي معنا ثلاثة كتب من مطبوعاتنا ، فقدمناها له ، إذ كنت أرى أن وصول مطبوعاتنا إلى دوائر الشيعة أمر طيب ، أثنيت على كلام الأديب وامتدحته كثيرا، بل أسمعته بعضا من أشعاره التي أحفظها ، فقال في أدب جم : " ذكرتني بالذي مضى ، كان هذا في وقت كانت ينابيع الشعر عندي لا تزال تندفع ، أما الآن فقد جفت هذا الينابيع . " ثم وعد بأن يرسل إليّ ديوانه الجديد، فلم تكن لديه آنذاك نسخة من الديوان ، وعلى كل حال كانت صحبة ممتعة طيبة .

الجمعة ١٣ شعبان ٦٨ هجرية / ١٠ يونيو ١٩٤٩م

كانت الجلسة في المساء عند الطائي ، استعرت بعض الكتب لمطالعتها ، وتحدثت لفترة طويلة مع إسماعيل راشد ، فهو الرجل الذكي الفاهم من بين

جلساء الطائي ، دار الحديث عن باكستان ، وقد فهم وأدرك الأحوال الحقيقية هناك ، كما ساعدت مقالات كاتب هذه السطور في " السجل " على إفهامه الوضع الحقيقي في باكستان .

السبت ١٤ شعبان ٦٨ هجرية / ١١ يونيو ١٩٤٩م

أشعر اليوم بالكسل ، درجة الحرارة ترتفع ، يحفظنا الله ، عقدنا جلسة مسائية عند الأستاذ الهلالي كالعادة ، كتب الأستاذ الهلالي تقريرا مفصلا عن منهجه في التدريس ، بناء على طلب من عميد الكلية ، فأخذ عاصم يقرأه بينما الأستاذ الهلالي يراجعه ويصححه ، كان التقرير ككتيب عن منهج وطريقة تعليم الأدب العربي والنحو ، ألقى الهلالي فيه الضوء بصفة خاصة على حالة تعليم اللغة العربية في بغداد أيضا .

كان محمد محمود الصواف موجودا بالصدفة أيضا ، فطرح اقتراحا بإقامة فرع لـ " جمعية الإخوة الإسلامية " الموجودة في باكستان ، ودعا إلى ذلك الشيخ الزهاوي ، رغم أن الحكومة لا تسمح هذه الأيام بإقامة جمعيات جديدة ، إلا أنه نتيجة لإخلاص الشيخ الزهاوي ومكانته المتينة ، تم عرض " لائحة الجمعية " وسيتم الحصول على التصريح ، وقد كتبت اللائحة بطريقة رائعة ، وندعو الله أن تطبق بشكل عملي .

الأحد ١٥ شعبان ٦٨ هجرية / ١٢ يونيو ١٩٤٩م

انشغلت في الصباح بقراءة رحلة الأمير شكيب أرسلان للحج " الارتسامات اللطاف في خاطر الحج إلى أقدس مطاف " ماذا أقول عن حلاوة

اللغة ، وحسن البيان ، وبلاغة الأسلوب ، لكن الرجل يفتقد قوة الإحساس والحرارة والعاطفة الجياشة ، لقد قرأت مذكرات وأسفار حج كثيرة ، لكن الأثر الذي تركته رحلة مولانا عبد الماجد دريابادي في قلبي وعقلي ، لم تتمكن بلاغة رحلة الأمير شكيب أرسلان من محوه أو القضاء عليه .

في المساء التقيت عند الهلالي بشابين من شباب الأعظمية ، أسرعا إلينا من أجل الاطلاع على مطبوعاتنا ، فقلت لهما سوف نقدمها لكم إذا وصلتنا ، ماذا يمكن أن أقول غير ذلك ، لقد كتبت ثلاثة خطابات قبل ذلك إلى لاهور ، لم يأتني الرد على أي منها حتى الآن ، وراح الشابان يسألان الأستاذ الهلالي عن عدة قضايا ، قام صواف بترتيب أمر الإشراف على تدريسهم ، ولكنه هو نفسه جاهل ، لا يدري شيئا عن الأفكار الجديدة ولا عن الحالات الحاضرة ، ولا يعرف من اللغات غير العربية ، ولا يمكنه أن يواجه الاتجاهات الفكرية الحديثة على أساس العواطف ، والأستاذ الهلالي أكثر من ممتاز من ناحية العلم والاطلاع ، بقي في أوروبا سبع سنوات ، يعرف الألمانية والإنجليزية ، لكنه حتى الآن متشدد فيما يتعلق بالفروع ، قلت له بأدب جم :

- ألا يمكن أن تتسامح قليلا في الفروع من أجل الأصول ؟

فقال :

- من أجل نفسي أم من أجل الآخرين؟

فقلت :

- من أجل الآخرين .

فقال :

– لست مستعدا لهذا حتى الآن . . كيف يمكن أن أصلي في تلك المساجد المقامة على القبور .

وبطبيعة الحال جميع المساجد الكبرى في بغداد مقامة على قبر أحد الشيوخ، ولهذا فهو يعتبر الصلاة فيها حرام ، ويأتي إلى منطقتنا ليصلي الجمعة، في مسجد يسمى " جامع عارف آغا " لا يوجد فيه قبر .

وهكذا فإن تشدده في الفروع من ناحية ، وعدم اطلاعه على الحلول العلمية للمشكلات المعاصرة من ناحية أخرى ، لا تمكن الشباب من الاستفادة منه كما ينبغي ، كما أنه لا يعترف أيضا بأهمية التغيير الفكري ، وكان يكرر دائما قوله : هذه فلسفة . . هذه فلسفة ، وهو يقصد هذه فلسفة للدين ، وما نحتاجه هو التطبيق العملي ، أي تطبيق شريعة الإسلام ، وقال ذات مرة : يجب عليكم أن تقضوا ثلاثة أرباع أوقاتكم في مطالعة الأحاديث النبوية وفهمها ، وربع الوقت في مطالعة العلوم السياسية وفهمها ، والحقيقة أن هذه نقطة الضعف العامة لدى أهل الحديث ، فهؤلاء الناس يرجحون بشكل عملي الحديث على القرآن الكريم ، رغم أنهم لا يقرون ولا يعترفون بهذا الأمر ، فمولوي عبدالغفار أيضا كان يذكر مثل هذا الكلام ، قال ذات مرة في روالبندي بأسى شديد عن محمد عاصم : هناك أمر واحد يدعو للأسف ، يجب على محمد عاصم أن يركز على الحديث النبوي ، فقلت : بل عليه أن يركز على القرآن الكريم ، إذ يجب أن نقيم مأتما على من يجهل القرآن الكريم قبل الحديث .

بعد المغرب قدم شاب تونسي يدعى بلقاسم كرد للقاء الأستاذ الهلالي ، كان الشاب يدرس هنا في دار المعلمين العليا ، تمكن من الخروج من تونس هاربا ، وإلا فالسلطة الفرنسية لا تسمح لأحد بالخروج من البلاد طلبا للعلم ، ومن يسمح له بذلك يكون من أتباع الحكومة ، فيسمح له بالسفر إلى باريس فقط ، كان بلقاسم يدرس أولا في مصر ، ثم قدم بعد ذلك إلى العراق ، وتتحمل الحكومة العراقية مصروفات الطلاب القادمين من البلاد العربية ، وهذه خدمة جليلة تقدمها الحكومة العراقية ، وهكذا كان يدرس في كلية الشريعة خمسة طلاب من تركيا ، فروا من بلادهم ، وقدموا إلى العراق ، وتتكفل الحكومة العراقية بنفقات تعليمهم الديني ، وفي كلية الملكة عالية أيضا توجد بعض الفتيات التركيات ، وبلقاسم كرد أيضا ضيف على الحكومة العراقية ، ويكمل تعليمه هنا ، وهو شاب ذكي جدا ، وعاقل وفاهم ، كان الأستاذ الهلالي يذم فرنسا ويمتدح الإنجليز ، فعارضه بلقاسم بأدب واحترام ، وكان حديثه معقولا إلى حد ما ، عرض فيه أدلته بوضوح ، ورغم ذلك لم يوافقه الهلالي ، وفي النهاية قدم الهلالي الهند وباكستان كمثال وقال :

" إن حرية هذين البلدين دليل على حسن نوايا الإنجليز وحكمتهم السياسية "

فقال بلقاسم : هذه الحرية حصلت عليها الهند بقوة ساعديها ، كما أن الظروف الدولية أيضا كان لها دخل في هذا .

أراد كاتب السطور أن يقول شيئا لكن الأستاذ الهلالي تدخل قائلا : انتظر أنا سأتكلم ، ثم تفصل أنت بيننا . . وكان قراري في النهاية في حق بلقاسم إلى

حد ما ، مع قولي بأن الحكم الإنجليزي أحسن بكثير من الحكم الفرنسي ، فلم تحدث في الهند تلك المظالم التي يتعرض لها حتى اليوم أهالي مراكش والجزائر ، فهذه حقيقة ، فأهل بلدنا (الهند وباكستان) لا يمكن أن يتصوروا تلك المظالم [٢٤] وليسوا على دراية أو علم بها .

الأحد ١٧ شعبان ٦٨ هجرية / ٤١ يونيو ١٩٤٩م

قدم الأستاذ الهلالي إلينا بنفسه ، فجلسنا على سطح البيت ، أعد لنا عاصم الشاي ، ودار الحديث بيننا عن بعض القضايا اللغوية والنحوية حتى صلاة المغرب ، واستأذن الأستاذ الهلالي بعد صلاة المغرب ، وبعد قليل حضر طه فياض رئيس تحرير السجل وبصحبته صديقه جعفر مال الله (الذي يشارك في تحرير إدارة جريدة الاتحاد) ، سألني جعفر عن أمور حياتي ، لأنه كان يريد أن يعرفني لقراء الجريدة الأسبوعية ، فقال العبد الفقير :

– ليست عندي سيرة ذاتية أقدمها لك ، كما أنه ليس لدي مذكرات حياة تستحق النشر ، فأنا أعيش حياة طالب علم عادي .

فطلب مني صورة شخصية ، فأوضحت له مسلكي ، لكن يبدو أن علماء العرب يجمعون على جواز التصوير الفوتوغرافي ، فقال طه فياض : لقد كان رشيد رضا [٢٥] وهو عالم ومحدث يقول بجواز التصوير فقلت :

– في الواقع هذا أمر يدعو للعجب ، فلا يوجد من هو أكثر مني اعترافا بعلمه وفضله ، لكن وجود أي شكل من الأشكال يسمح بجواز التصوير أمر بعيد عن فهمي .

وعندئذ سكت الجميع ، وفيما يتعلق باللحية ، يفهم الناس هنا أمرها ، يعرفون أنها سنة ، وأنها شعار ، وإطلاقها أمر طيب ، لكن تحريم التصوير أمر لا يفهمه الناس هنا ، فلماذا يسمعون كلامنا نحن طلاب العلم بعد أن سمعوا كلام رشيد رضا ومحمد عبده ؟!

على كل حال لم نكن على استعداد لتغيير مسلكنا خوفا من اتهامنا " بالتمشيخ " أو من أجل خاطر ما يفهمونه هم ، بعدها طلب جعفر مال الله مني مقالا ، فقلت : نعم . . لا مانع من ذلك ، وبعد بحث وتمحيص ، وعدته بأن أكتب موضوعا عن تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ، على أن أسلمه له مساء يوم السبت . وكنت أنوي أن أوضح في هذا المقال منهج الحركة الإسلامية الحالية وطريقة الدعوة . . أدعو الله أن يساعدنا في ذلك .

الأربعاء ١٨ شعبان ٦٨ هجرية / ١٥ يونيو ١٩٤٩م

انتهيت من قراءة " الارتسامات " [٢٦] وكنت قد اشتقت إلى قراءة هذه الرحلة الحجازية منذ فترة ، لكن اليأس أصابني حين كنت أقرأها ، فهي تبدو كتاب جغرافيا أكثر منها رحلة حج ، لا ذكر فيها للحج ولا مناسك الحج ، كما لا يوجد فيها ذكر لمشاعر الأديب أثناء أدائه لشعائر الحج ، قضى في الطائف يوما حارا في فصل الصيف ، فكتب عن جغرافية الطائف بأكملها ، ظل فترة في المدينة المنورة قبل الحرب ، ولهذا لم يتوجه لزيارة مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم وقت الحج !! وعلى كل حال لكل إنسان ذوقه ومزاجه ، هكذا قال ، وصدق فيما قال .

ذات مرة كان أستاذي سيد سليمان الندوي يقرأ كتب الأمير شكيب أرسلان بحب شديد ، وذلك قبل حوالي سبع سنوات . . ، اليوم ليس لها طعم، فيها كل شيء : التاريخ ، والجغرافيا ، و فيها الكثير من أفكار علمية وبحثية . . كل شيء ، ماذا نقول عن تحرير وقوة بيان أمير البيان ؟! لكن القلب يبحث عن شيء آخر . . لقد عبرت قافلة العمر حدود الأربعين ، ومنذ ست أو سبع سنوات، والاتجاه الآن إلى منزل آخر حيث إقامة الدين ، ولا يمكن لمثل هذه الأشياء أن تطفئ ما بداخلي، فما فائدة العلم إذا خلا من روح الدين ؟! وحاشا أن نقصد هنا أن الأمير شكيب أرسلان خلا من الدين .

من الملاحظ أن المعارضين للحكومات الغربية ، الذين مضوا على نهج جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وظلوا محرومين لفترة من زيارة وطنهم والبلاد العربية ، فاقوا في معاناتهم الجميع ، ولم يعان أحد في تلك الفترة مثلما عانى هؤلاء ، إلا أنهم جميعا لم يكن لديهم تصور للمفهوم الصحيح للدين ، كانوا فقط مغرمين بالقوة السياسية .

وعلى كل حال كان هؤلاء يتمنون أن تظهر قوة إسلامية في العالم سواء في شخصية السلطان عبد الحميد أو في شخصية السلطان ابن سعود ، يجب أن توجد قوة سياسية ، ويجب أن تكون هناك حرية ، ومهما يكن نظام الحكم فيجب التفكير في إمكانية العمل طبقا للدستور الإسلامي ، لم يكن لأولئك المفكرين السابقين اهتمام بهذا الأمر ، على كل حال يغفر الله للجميع ، فالأمير شكيب أرسلان من أكثر القادة السياسيين في تلك الفترة إخلاصا وعلما وحكمة، وقد حقق الله له آخر أمانيه ، فبعد أن بقي في المنفى فترة توفي في

وطنه (لبنان) (في ديسمبر ١٩٤٦) وكان ذلك أيضا بعد أن تحرر وطنه الحبيب ، فقد كان قد عقد العهد على ألا يضع قدمه هناك ، طالما ظل العلم الفرنسي يرفرف على أرض سوريا ولبنان .

التقيت في المساء بالأستاذ محمد بهجت الأثري ، وكنت قد حددت معه وقت اللقاء بالهاتف ، جلسنا معا لساعة تقريبا ، والأثري عالم وأديب عراقي مشهور . . قابلنا بكل سرور ، ورحب بنا بحرارة ، وعاملنا بأدب وحسن خلق ، لكنه زاد عن حده حين استمر يمدح نفسه ، وعلى كل حال لم يخلُ هذا اللقاء من الفائدة ، فلسماع اللغة دخل كبير في تحسن لهجتنا ولغتنا العربية ، ومثل هذه اللقاءات لا تخلو عادة من فائدة سماع اللغة .

الجمعة ٢٠ شعبان ٦٨ هجرية / ١٧ يونيو ١٩٤٩م

صباح اليوم زارنا شابان كلهما حماس وحب للعمل ، أحدهما طالب في كلية الطب ، قرأ كتابين من كتبنا : النظرية السياسية ، والحكومة الإسلامية ، وتأثر بهما كثيرا ، في قلبيهما عاطفة صادقة ، لا يفهمان الدين على أنه مسألة خاصة ، كما يري بعض " المتمشيخين " فتصور الدين كنظام كامل ، موجود في ذهن كل منهما ، وهذا ما أكد عليه حسن البنا بشدة في كتاباته ، فما نفتقده هو العلم فقط ، فحسن البنا بنفسه لم يكن عالما كبيرا ، كان مؤمنا ومجاهدا ، لا شك أنه أوجد عاطفة الإيمان وشوق الجهاد في شريحة كبيرة من الناس ، وكانت هذه المأثرة هي سبب استشهاده ، فقد كان وارثو العرش الفرعوني ، يتخوفون ويرتعدون من عاطفة الإيمان وشوق الجهاد ، وفي النهاية قاموا على طريقتهم ، بتجفيف ينبوع الإيمان . . ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا .

ولكن في عصرنا هذا يبقى الفكر ، وسهم الفكر أمضى من أي سلاح تقليدي آخر ، ولا يوجد رجل يخوض الميدان بسلاح الفكر ! ! يوجد في العراق على رأس هذا الجماعة محمد محمود صواف ، شاب صالح مجاهد ، وخطيب قدير ، أنهى تعليمه في الأزهر الشريف ، وهو سلفي العقيدة ، أي أنه على عكس علماء العراق ، صاحب فكر صحيح ، وبعيد عن البدع ، إلا أنه يفتقر إلى العلم ، يقوم بتدريس الشباب القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، لكنه لا يدري - بطريقة مباشرة - شيئا عن القضايا الجديدة ومعضلاتها ، ولهذا فإن مطبوعاتنا تجد أرضا طيبة خصبة هنا ، ولو وصلت بعض مطبوعاتنا هنا ، ولو قدمنا لهم غذاءً فكريا عن طريق مجلة شهرية ، بشكل مستمر ، فإن هذه الجماعة من الشباب يمكن أن تمضي على الطريق الصحيح ، وتعمل بطريقة صحيحة ، فهؤلاء الناس في أشد الحاجة الآن إلى المعلومات ، يتلهفون على كل جديد ، ويقرؤون بشوق وشغف .

في المساء حضر الأستاذ الهلالي ، وجلسنا معا لفترة طويلة في الهواء الطلق على سطح المنزل ، حيث أعد لنا عاصم الشاي اللذيذ .

السبت ٢١ شعبان ٦٨هجرية / ١٨ يونيو ١٩٤٩م

في الصباح جاء الأستاذ الهلالي ، وأخذ عاصم إلى السوق ، لشراء بعض الحاجيات ، كنت أود أن يستفيد منه عاصم بقدر المستطاع ، فالأستاذ الهلالي إمام في اللغة والأدب ، لا يوجد في العراق كلها أديب يطاوله ، وعلمه في الحديث لا يصل إليه أحد .

رجع عاصم في الساعة الحادية عشرة ، وبينما نفكر في أمر الطعام ، إذا بخبر يفيد أن أحد الأصدقاء اتصل بنا هاتفيا ، وحين ذهبنا إلى حجرة مدير السجل حيث يوجد الهاتف ، وجدنا الأستاذ الهلالي يتحدث من الأعظمية ، أخبرنا أنه أعد لنا أرزا وسمكا ، وطلب منا أن نذهب إلى بيته في الساعة الثانية عشرة ، أردت أن أعتذر له نظرا لحرارة الشمس المحرقة في وسط النهار ، لكن لهجته كانت لهجة آمرة ، فلم يترك لي فرصة للاعتذار .

تناولنا الطعام واسترحنا وقت القيلولة ، ثم قمنا بعد ذلك بتصحيح المحاضرة الرابعة من نظام الحياة ، حضر الشاب التونسي بلقاسم كرد ، وجعل من تونس وباكستان موضوعا للحديث ، وفيما كان الأستاذ الهلالي يعبر عن كراهيته لفرنسا وتفضيله للإنجليز ، كان رأي بلقاسم معتدلا ، وكان بلقاسم يتميز عن شباب العراق بلغته الجميلة الواضحة ، فالشبان العراقيون بصفة عامة يتحدثون لغة نصفها عامي ، ونصفها فصيح ، ومن ناحيتي عرفت بعد وصولي هنا أن هناك فرقا بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ، وفي هذا ضرر على اللغة ، إذ لا يمكن للعامة فهم الفصحى ، بينما الخاصة لا يمكنهم الاستمرار في الحديث بالفصحى ، وإذا ما صرفنا النظر عن الأدباء ، وخاصة أهل العلم ، فإن الطبقة المتوسطة من الناس لا يتكلمون الفصحى ، وهي خصوصية تجدها فقط عند بلقاسم ، فلغة أهل المغرب (شمال إفريقية : مراكش والجزائر وتونس) لغة طيبة بشكل عام ، وهم يتميزون بإجادتهم للنحو وعلم اللغة .

الأحد ٢٢ شعبان ٦٨ هجرية / ١٩ يونيو ١٩٤٩م

تلقيت اليـوم خطابات طويلة مفصلة من الأصدقاء والأحباب ، شملنا السرور والفرح ، وشعرت بالاطمئنان ، فقد مكنتني خطابات كل من غلام محمد ، وتشودهري علي أحمد خان ، وصديقي أحمد عرفان غازي سلمه الله، من التعرف على أحوال باكستان ، وساق لي مراد علي شاه بشرى إرسال الكتب ، وهكذا سأظل أنتظر الكتب حتى تصلنا فيزداد نشاطنا من جديد إن شاء الله .

شكوت في بغداد – ولأول مرة – من سوء الهضم ، أشعر بالإرهاق والتعب، لهذا السبب أجّلت الذهاب إلى الأعظمية ، وعقدنا مجلسنا عند كمال الدين الطائي بعد مدة ، وهناك دار الحديث عن بعض المسائل والقضايا الفرعية، فهؤلاء الناس من أولهم إلى آخرهم يتسامحون في أمور العقيدة وبألفاظ أخرى " بدعيون " أخذ أحد الحاضرين يطلب مني تأييده في قضية ما ، ويلح في ذلك إلحاحا شديدا ، فأوضحت لهم مسلكي ، مقدما الدلائل اللازمة في باب الفروع ، قلت لهم :

– دعوتنا تركز على الأصول ، نحن لا نثير أبدا مسائل الفروع ، ونعطي لكل شخص الحرية ، فرفع اليدين أو عدم رفعها ، لا يصيب الدين – في رأينا – بأي ضرر أو خلل ، وكاتب هذه السطور له رأي فيما يتعلق بالفروع ، لكنه لا يفرضه على الآخرين ، وهذا ما نتوقع أن يفعله الآخرون أيضا .

عندئذ سكت هذا الشخص .

الاثنين ٢٣ شعبان ٦٨ هجرية / ٢٠ مايو ١٩٤٩م

في الصباح الباكر زارني الأستاذ الهلالي ، فتكلمنا عن موضوعات تتعلق بالحديث النبوي الشريف والفقه ، وكان قد طبع التقرير الذي كتبه عن طريقة التعليم ومنهجه في ذلك ، فراجعه كاتب هذه السطور ، لقد صار التقرير بحثا جيدا عن تعليم اللغة والنحو ، والمراجعة ، ثم حبك الموضوعات المتعلقة بأسلوب التعليم ، وقام عاصم مرة أخرى بقراءة التقرير علينا من جديد .

كان الأستاذ الهلالي يريد أن نكتب خطابا إلى صديقه الألماني ، لكن الصعوبة لم تكن في اللغة بقدر ما كانت في الإملاء ، من سيقوم بالكتابة ؟! - وعندنا مثل بالفارسية يروج بيننا يقول (زبان يار من تركي ومن تركي نميدانم) حبيبي يتكلم التركية وأنا أجهل التركية . . في النهاية شحذت الهمة وبدأت أكتب ما يمليه عليّ الأستاذ المحترم ، وبعدها قرأت له الخطاب ، وهو ينصت ، ثم أخذ يسأل عن بعض الكلمات الصعبة ، وكان هذا درسا لي في اللغة الألمانية ، فلم أتمكن من الحصول على أي كتاب بالألمانية حتى الآن ، وهذه فرصة أتمنى لو تكررت ثانية ، فقد تذكرت القليل الذي تعلمته عن اللغة الألمانية .

كنا على موعد مع الأستاذ الهلالي في المساء بكلية الملكة عالية ، لكن " مستر دوف Mr. Duff لم يأت ، فبقينا نتجاذب أطراف الحديث ، كانت الكلية تشهد العطلة الصيفية ، ولهذا جلست في صالة المكتبة ، في هدوء وسكينة ، وجاء الأستاذ الهلالي بثلاثة أعداد من " الإنصاف " وخطاب مفصل عن مظفر شاه ، كان خطاب مظفر شاه يقطر بالسعادة ، لقد تركت محبته وإخلاصه أثرا

كبيرا على قلبي ، دعوت من كل قلبي لجريدة الإنصاف [٢٧] ولجميع العاملين بها ، أخذت أردد في خاطري :

" مسعود ! مكانك أيضا في مدينة لكهنو . . أو في مدينة بتنه . . ميدان أهل العزم هناك ، لكن كيف يمضي العمل في دار العروبة ؟ لقد ظهرت أمامي خارطة جديدة للعمل ، من خلال رحلتي إلى العراق ، والله وحده الآن يعلم إلى أين تقودني هذه الرحلة بفضل من الله وكرمه ؟! "

وكنت إذا ما انتابني هذا الصراع الداخلي ، وهذه المشاعر المتضاربة أقرأ قوله تعالى : " أفوض أمري لله " وهكذا أنجو من هذا الصراع وأتخلص من هذه المشاعر المتضاربة .

ذهبنا بعد ذلك إلى منزل الشيخ أمجد الزهاوي ، كنا في طور تأسيس فرع جمعية " الأخوة الإسلامية (باكستان) ، ويحتاج تأسيس أي جمعية هنا إلى إذن من وزارة الداخلية ، فجاء الشيخ الزهاوي بخطاب من سكرتير المؤتمر الإسلامي ، فكان لذلك أثره الطيب ، واشتراك الزهاوي في المؤتمر الإسلامي بكراتشي أثر عليه كثيرا ، إذ كان جمود العلماء العام في العراق ، وعدم الإحساس الديني قد أصابه بالسقم والكآبة ، والآن عاد من كراتشي مملوءا بالحماس ، مفعما بالعاطفة والعزم ، يتوق لعمل شيء ما ، ولهذا اختار بعض الأفراد الصالحين ، ومن أطيب الأمور أنه يعتمد كثيرا على محمد محمود الصواف ، ولو كان هناك من عنصر صالح في العراق ، فهم هؤلاء الشباب ، الذين أُتهموا بعلاقتهم بالإخوان المسلمين ، وتعلق الآمال عليهم ، ويمكن أن

يُتوقع منهم نشاط وجهد في سبيل إقامة الدين ، ومحمد محمود الصواف هو رئيس هذه النخبة من الشباب ، ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ الهلالي وطه فياض ضُمّا إلى الأعضاء المؤسسين أيضا .

الثلاثاء ٢٤ شعبان ٦٨ هجرية / ٢١ يونيو ١٩٤٩م

وصلنا خبر يفيد أن مؤتمرا إسلاميا جديدا سيعقد في كراتشي في شهر أكتوبر أو نوفمبر ، كان الشيخ الزهاوي قلقا ومضطربا ، فالجلسة الثانية للمؤتمر كانت قد تقررت في فبراير ، فما الداعي للعجلة ؟! كان إقبال شيدائي قد وضع قبلا برنامجا لمؤتمر إسلامي ، لكن حسن الأعظمي (٢٨) أخذ جانب المبادرة ، لكنه لم يتمكن من عقد المؤتمر الذي خطط له ، فهل من الممكن أن تكون هناك محاولة منه حتى يُعقد المؤتمر طبقا لاقتراحه ؟ طبقا لمقولة الزهاوي فقد اطلع على حقيقة الأمر من الأحباب الباكستانيين .

جاء القنصل الباكستاني الدكتور محمد صديق إلى بغداد ، كان يعمل من قبل في البحرين في الهيئة السياسية ، وهكذا فبعد خدمته في السفارة الإنجليزية، ظهر شك لدى الناس ، وحامت حوله الشبهات ، حين تقرر أن يعمل في السفارة الباكستانية .

والحال هنا يدعو للعجب فالحكومة والسياسة وكل شيء في يد الإنجليز ، فأي حزب ، وأي اسم ، وأي . . وأي . . هم جميعا ممن شملهم من قبل عطف سادتنا الإنجليز ، ولهذا فالجمهور هنا ينظر إلى كل عمل على أنه من تدبير الإنجليز في الخفاء .

لـم يكن في العراق حتى الآن أي ممثل ثابت لباكستان ، فقد كان راجه غضنفر علي خان (السفير الباكستاني في إيران) يمثل أيضا باكستان في العراق ، والآن سيتولى الدكتور صديق وظيفة القائم بأعمال القنصلية في بغداد نائبا عنه ، ويأتي أحيانا راجه غضنفر علي خان إلى بغداد ، لكن هناك قصصا وحكايات مخجلة عن أخلاقه ، ذاعت وانتشرت هنا ، والله وحده أعلم بحقيقة الحال ، ولكن إذا ما ذكره أحد ، أصابنا الخجل ، نظرا لأنه ينتسب إلى باكستان .

الأربعاء ٢٥ شعبان ٦٨هجرية / ٢٣ يونيو ١٩٤٩م

في المساء شاهدت عند الأستاذ الهلالي العدد الجديد من مجلة " الهدي النبوي " عدد رجب ٦٨ هجرية ، والهدي النبوي هي لسان حال السلفية في مصر ، فيها بحث عن جواز التصوير (الرسم) والتصوير الفوتوغرافي ، وكانت هذه أول مجلة تجرأت وأصدرت بيانا عن الحكم الصحيح المتعلق بالتصوير ، ودار الحديث أيضامع الأستاذ الهلالي عن هذا الموضوع ، فهو – إلى حد ما – يقول بجواز التصوير الفوتوغرافي ، فقلت له :

– إذا كانت المسألة متساوية من الناحيتين (أي الجواز والتحريم) فمن الواجب – عملا بالحيطة – ألا يفتح باب الجواز .

فقال :

– إنني على يقين بجواز تلك الصور التي لا ظل لها ، أنت لم تطالع هذه المسألة بصفة خاصة .

ماذا عساي أقول لأستاذي سوى قول الشاعر : (أخبروه بماذا نخبره ؟)

تضمنت المجلة خبرا مهمًا آخر وهو أن جلالة الملك عبد العزيز بن سعود قرر أخيرا وقف المنحة الشهرية التي كانت تصرف للقصيمي ، مؤلف كتاب " هذي هي الأغلال " ، وجاء في تفصيل الخبر أن علماء نجد قدموا إلى السلطان ابن سعود عريضة تتعلق بكفريات القصيمي ، فأمر السلطان باستتابته ، وتقرر أن يكون ذلك عن طريق تأليفه لكتاب يرفض فيه ما ورد في الكتاب المذكور ، ويعلن توبته مما كان عليه ، ولكن كان وراء القصيمي رأس ملاحدة مصر إسماعيل مظهر ، وهكذا رفض القصيمي ما ظنه مذلة ، وأخذته العزة بالإثم ، وفي النهاية أوقف السلطان هذه المنحة الشهرية (٤٠ جنيها أي حوالي ٣٥٠ روبية) ولن يؤثر هذا بأي حال من الأحوال على القصيمي ، فيمكنه أن ينال من موسكو ثمانين جنيها بدلا من أربعين جنيها ، وعلى كل حال لقد فض سلطان نجد والحجاز يده ، وخلص نفسه من هذه المسئولية .

انتهينا من تصحيح بعض صفحات المحاضرة الرابعة لنظام الحياة ، وأثناء المراجعة دار بحث لغوي مفيد ، فالأستاذ الهلالي معارض شديد لأي مصطلحات جديدة أو أسلوب بياني حديث ، فكان كلما جاءت فقرة فيها مصطلح جديد أو أسلوب حديث ، ألقى فينا خطابا عن هذا " التفريخ " قائلا :

- إن ترجمة اللغة وأساليب البيان ، وتقليد أساليب اللغات الأخرى ، تجعل القوم مترجمين مقلدين غير مبدعين .

وعلى سبيل المثال نقول عن التعبير الأردي (اقتصادي زندكي) في العربية (الحياة الاقتصادية) لكن كلمة الحياة (زندكي - Life) عند العرب لها معان

مختلفة ، ويعبر عنها العرب بلفظ " حالة " لكن الصعوبة تكمن في أن الطبقة التي نحاول إفهامها ، لا يمكن أن تفهم كل شيء من كلمة " حالة " كما نفهمها نحن من كلمة " الحياة " ، فيجب أن نراعي في الخطاب لغة الدعوة ، وهكذا فإن صديقنا محمد ناظم الندوي في كراتشي (وهو أيضا من أفاضل العارفين باللغة العربية وآدابها وهو مثل كاتب هذه السطور من تلاميذ الأستاذ الهلالي) ذكر فيما يتعلق بنظرية الإسلام السياسية أن : هذا الأسلوب البياني تقليد للإنجليزية ، ولو وضع الاسم طبقا لأسلوب البيان العربي لكان أفضل .

لا شك أن قوله هذا صحيح إلى حد ما ، لكن كيف يمكن لمن يقرأ عبارة " النظرية الإسلام السياسية " (هكذا في الأصل) أن يفكر ويتعمق ؟ ولو وضعنا العنوان هكذا : " نظرية سياسية في الإسلام " لكان شيئا عاديا ، ولكان العنوان مألوفا ، ولما احتاج السامع إلى جهد فكري لاستيعاب معنى العنوان .

ولا يعني هذا أننا لا نهتم باللغة ومصطلحاتها الشائعة ، فصحة اللغة والالتزام بمصطلحاتها هو شرط أوليّ لحسن البيان ، ولا شك أن هناك ضرورة للالتزام بأساليب البيان ، واستخدام المجاز والكناية ، وهذه ليست بدعة جديدة، ففي العصر العباسي أبدع ابن المقفع وغيره آلاف الأساليب البيانية الجديدة ، وهكذا اقترحت في القرن الماضي ، مئات التعبيرات في اللغة والأدب ، بطريقة لا يشعر اليوم أحد بأنها غريبة على اللغة .

الخميس ٢٦ شعبان ٦٨ هجرية / ٢٣ يونيو ١٩٤٩

بينما كنا نجلس عند الأستاذ الهلالي مساءً ، إذا بشابين في زي عسكري يدخلان ، فرحب بهما الأستاذ ترحيبا حاراً ، كانا من منطقة " ريف "

(بمراكش) يدرسان بالكلية العسكرية في بغداد ، كان أحدهما تلميذا قديما للعلامة الهلالي ،وكان يحضر دروس الهلالي في تطوان (بمراكش وكانت خاضعة للإسبان) وكان أيضا قد عرف كاتب هذه السطور عن طريق مجلة " لسان الدين " أما الشاب الثاني فقد تعرف على الهلالي بعد أن جاء هنا ، تجمعهم الغربة أحيانا ، فيأتون إلى الأستاذ الهلالي ، وقد فر الشابان من بلدهما ، فالحكومة الفرنسية لا تعطي جوازات سفر بأي شكل من الأشكال في بلاد المشرق العربي، ومن يأتي هنا يأتي هاربا ، ويظل هكذا دائما ، لقد جاء هؤلاء الشباب يملؤهم الحماس ، وتغمرهم العاطفة ، بعد أن أُغلقت أبواب الوطن في وجوههم ، وهم يريدون أن يتعلموا تعليما عسكريا ، ليشاركوا بعد ذلك في حرب الفدائيين ضد فرنسا ، وقد تجددت آمالهم حديثا بعد إطلاق سراح المجاهد المراكشي الشهيد أمير محمد بن عبد الكريم الريفي (٢٩) فهؤلاء الشباب يحلمون بعمل عسكري ضد فرنسا ، على كل حال هذا فضل كبير من الحكومة العراقية ، أن تقوم بتعليم وتربية هؤلاء الشباب اللاجئين مجانا ، وتقدم لهم الحكومة بالإضافة إلى جميع نفقات التعليم والطعام والمسكن ، مصروف جيب قدره حوالي أربعة دنانير (٥٣ روبية وربع الروبية) شهريا ، وتشهد الكليات هذه الأيام العطلة الصيفية ، ولهذا فالمدينة الجامعية مغلقة ، مما زاد من قلق الطلاب ، إلا أنه أمكن في النهاية الاتصال بالأمير عبد الإله (وصي العرش) الذي أمر بالسماح بفتح المدينة الجامعية للطلبة ، كما أمر أيضا بتخصيص سيارة لنقلهم حيثما شاءوا ، ويدرس هنا بهذه الطريقة عدد من

طلاب المغرب العربي (مراكش والجزائر وتونس) ولا يقتصر الأمر عليهم بل يوجد عدد كبير من طلاب البلدان الأخرى مثل : تركيا ، وإندونيسيا ، وشرق الأردن ، وحضرموت ، وهذا فضل وإحسان من الحكومة ، إلا أن هناك أمرا يدعو للأسف ، وهو أن الطلاب يأتون هنا فيتعلمون " اللادينية " و سوء الخلق، فالحالة الأخلاقية سيئة جدا ، وهي تؤثر بالضرورة في الطلاب القادمين من الخارج ، ويظل الأستاذ الهلالي ينصح هؤلاء الطلاب المغاربة لفترات طويلة ، وفي النهاية تقرر أن يأتي هؤلاء إليه في أيام العطلة ، ليعلمهم القرآن الكريم واللغة الإنجليزية ، وهم يعرفون قليلا من الفرنسية والإسبانية .

بعد المغرب وصل أحد شباب الأعظمية ، وقرر هؤلاء الناس أن يقوم الأستاذ الهلالي بتدريسهم القرآن الكريم ، بعد صلاة التراويح ، طوال شهر رمضان المبارك ، فالأستاذ يصلي التراويح وحده في آخر الليل ، وهؤلاء يفرغون من صلاة التراويح في العاشرة ، لهذا تقرر أن يكون الدرس من العاشرة حتى الثانية عشرة ، والأستاذ بدوره لا ينام الليل ، لكن هذا صعب على من هو مثلي ، وإلا كنت اشتركت معهم في هذا الدرس ، فأنا أهتم بالموضوعات القرآنية أكثر من اللغة والأدب .

تقرر أيضا في هذا المجلس أن نلتقي يوم السبت مع الطلبة غير العراقيين في دار البعثات ، ووعد أحد أعضاء مكتبة الإخوان المسلمين (بالأعظمية) بمرافقتنا .

الجمعة ٢٧ شعبان ٦٨ هجرية / ٢٣ يونيو ١٩٤٩م

صلينا الجمعة في مسجد حيدر خان القريب ، فقد كان مسجد الحي مغلقا ، ولا يمكن أداء الصلاة فيه نظرا لعمليات الترميم والإصلاح ، اشتدت حرارة الجو عن الحد ، ولهذا كان من الصعب علينا أن نذهب بعيدا ، وعلى كل حال فالصلاة في جميع المساجد على شاكلة واحدة ، والبدع أمر مشترك في جميع المساجد ، هدى الله الجميع ، فأنا أشتاق منذ فترة طويلة لأداء صلاة طيبة ، فالصلاة في لكهنو وفي بتنه لها طعم مختلف ، وهي صلاة مؤثرة ، وهو ما تفتقده مساجد البنجاب أيضا ، ولكن لا شك أن التلاوة والالتزام بآداب الصلاة معا خلف المودودي في دار الإسلام لها تأثير ومتعة في نفوس المصليين ، وكنت أحيانا ما أجد فرصة للصلاة خلف علماء أفاضل مثل حافظ محمد فتح الله ، فصلاته طيبة ، وأحيانا خلف مولوي عطاء الله (الفيروزبوري) ومولوي عبد الغفار ، ولكن الأمر هنا مختلف ، فلا تراعى آداب الصلاة مطلقا ، كم أسفت !! وكم تأذيت كثيرا !!

في المساء عقدت جلسة " الترجمة " في كلية الملكة عالية ، ووصل مستر دوف في الوقت المحدد ، ووصل الأستاذ الهلالي متأخرا قليلا ، ودار الحديث مع مستر دوف ، فهو موظف في الفرع المحلي (العراقي) للبنك الإمبراطوري الإيراني ، وعنده شغف كبير ، وحب للأدب والعلم ، ويتكلم العربية أيضا .

تحدثنا معه بمزيج من اللغات ، فقد كان يرغب في التحدث بالعربية ، بينما كنت أنا أرغب في التحدث بالإنجليزية ، كنا في هذا طلاب علم ، ولكل منا عذره .

بعد الفراغ من الترجمة حددنا وقتا للقاء عباس الغزاوي ، ورغم عمله كمحام إلا أنه باحث جيد ومحب للعلم والأدب ، ألف عددا من الكتب ، كما أنه ناشر كتب أيضا ، ويقوم بأعمال تجارية ، وهكذا احتل مكانة بين أهل بغداد ، عنده مكتبة عامرة بالكتب ، وهو يعرف الأستاذ الهلالي معرفة جيدة ، ويتردد على بيته كثيرا ، وبعد حديث طويل بالهاتف تقرر أن نزور مكتبه مساء يوم الأحد .

قبيل المغرب ذهبنا إلى منزل الشيخ أمجد الزهاوي ، ومن دواعي السرور أن الأستاذ الهلالي بدأ يتردد عليه ، وبالصدفة كان عنده عالم فلسطيني يدعى " صبحي الخضرا " كان قاضيا في القدس من قبل ، ويعمل هذه الأيام أستاذا للتفسير وأصول الفقه في كلية الحقوق بدمشق ، دار في الجلسة حديث علمي جذاب ومفيد ، استمر حتى الساعة العاشرة ليلا ، وتطرقنا إلى بحث قضايا مختلفة ابتداء من الحديث والفقه وانتهاء بالقضايا السياسية .

جاء ذكر أحوال فلسطين أيضا ، كان العالم الفلسطيني بطبيعته يائسا ، لم يكن لديه أدنى شك في أن القصور ، كل القصور ، كان من جانب الزعماء العرب ، ففي رأي أصحاب الفهم في العراق ، أن دم فلسطين معلق برقبة عبدالله (شرق الأردن) والأمير عبد الإله (الوصي على العرش) ونوري السعيد (رئيس وزراء العراق) لكن أحدا لا يمكن أن يتكلم ولا ينبس ببنت شفة ، فسيف القانون العسكري (الطوارئ) مسلط على الرقاب ، لم يذكر صبحي الخضرا أي شخص بالاسم ، والزهاوي يرى أن الزعماء العرب معذورون ، لكن كاتب هذه السطور قال بشدة :

- إن جامعة الدول العربية ، وأعضاء الجامعة ، لا يمكن أن يزيلوا هذه الوصمة التي لصقت بهم ، والغريب في الأمر أيضا ، والمحير ، أنهم لم يفيقوا من غفوتهم ، فهم مشغولون ليل نهار بإلقاء التهم على بعضهم .

وفي النهاية استفسر العالم الفلسطيني (وهو شافعي المذهب) عما إذا كان يوجد في الهند وباكستان كثير من الشوافع فقلت له :

- يوجد شوافع كثيرون في ماليبار وما حولها فقط .

ثم أشار ناحيتنا وقال :

- هؤلاء الإخوان كانوا يرفعون اليدين (وكان محمد عاصم يرفع يديه في الصلاة) .

فقال الأستاذ الهلالي :

- هؤلاء الناس من جماعة أهل الحديث .

فتدخلت قائلا :

- أنا مسلم فقط ، لا شك أن محمد عاصم من جماعة أهل الحديث .

عندئذ تحمس الأستاذ الهلالي وقال بطريقة غاضبة جدا :

- نعم . . نعم . . نحن مسلمون ، ومن جماعة أهل الحديث أيضا .

على كل حال امتدت جلسة اليوم كثيرا ، وكانت ممتعة ، ورغم حدة النقاش ، فقد جرى الحديث في جو من المحبة الخالصة والتسامح .

الاثنين ٢٨ شعبان ٦٨ هجرية / ٢٥ يونيو ١٩٤٩م

وصلنا إلى الأعظمية — حيث توجد مكتبة الإخوان - في الساعة التاسعة طبقا للبرنامج ، وهناك شاهدنا بعض الشباب يجلسون ، فكانت فرصة للاختلاط بهم والتحدث إليهم ، عرفنا أن الطلاب من الخارج ، ينامون في معظم الأحيان في أوقات متأخرة ، ولهذا بقينا فترة أطول ، ثم دخلنا إلى دار البعثات في الساعة العاشرة ، مبنى رائع يتكون من طابقين ، كان معظم الطلاب غائبين أو مشغولين بالامتحانات ، التقينا بثلاثة طلاب إندونيسيين فقط ، مع طالب حضرمي ، جلسنا في حجرة صغيرة ، تتسع لثلاثة ، لكنها غير نظيفة ، فغرف طلاب ندوة العلماء العادية أفضل منها بكثير ، وأكثر منها نظافة . . استمر الحديث لفترة ، كانت آثار الحياة منعدمة ، عرفنا من الطالب العراقي الذي رافقنا أن هؤلاء الناس كانوا قبلا بحالة طيبة ، إلا أن الوضع الأخلاقي العام هنا كان له تأثيره السيئ عليهم . . قلت لهم :

- كانت لدي رغبة مستمرة في أن يدرس هنا طلاب الهند وباكستان ، لكني كنت أخاف الجو العام هنا .

فقالوا في صوت واحد :

- لا . . ! لا . . ! لا يمكن أن تتوقع هنا فائدة غير الضرر .

جاء أمام أعيننا الطلاب الهنود الذين درسوا في مصر ، رجعوا إلى الهند ، يبدون في معظم الأحيان وهو يتنقلون في وظائفهم وأعمالهم .

كان الطلبة الأتراك يسكنون بالقرب من كلية الشريعة ، فذهبنا للقائهم في كلية الشريعة ، كانوا في مجموعهم خمسة طلاب ، يدرسون في كلية الشريعة على نفقة الحكومة العراقية ، سررنا كثيرا بلقائهم ، فقد وجدنا فيهم حياة ونشاطا ، على عكس ما وجدنا في الطلاب الإندونيسيين ، كما أنهم على دراية كاملة بأحوال بلادهم ، وحين استفسرنا عن الحالة الدينية والأخلاقية في تركيا ، وجدناهم في غاية الاطمئنان ، وكلهم أمل ، والحالة الدينية في استنبول أفضل كثيرا من الحالة الدينية في بغداد ، وقد بدأت آثار تغيير موقف الحكومة تتضح ، ووصلنا خبر افتتاح مدرسة دينية في أنقرة ، وسألناهم عن موقف الحكومة التركية من تلاوة القرآن الكريم بمتنه العربي ، فقالوا إن الحكومة لم تفرض قيودا من أي نوع على قراءة القرآن الكريم ، وهذه خرافة لا أساس لها من الصحة ، ولا شك أن الأذان باللغة العربية ممنوع ، وهذا المنع يمكن أن ينتهي قريبا ، وسألني هؤلاء الشباب عن باكستان ، فقلت لهم : إن أهل بلدي يبجلون الأتراك، إلا أن موقف الناس بدأ يتغير بعد الانقلاب التركي والعلمانية التركية ، فمحبتهم لأحد ، وعداوتهم له هي فقط من أجل الإسلام ، لكن عامة الناس لا يزالون حتى الآن يمتدحون مصطفى كمال ، وجهاد الأتراك وخدماتهم من أجل الإسلام .

استمرت جلستنا معهم حوالي ساعة وربع الساعة ، سعدنا كثيرا بلقائهم ، وسوف ألتقي بهم ثانية حين تصلنا بعض المطبوعات ، لأقدم لهم بعض النسخ ، فهؤلاء شباب متدينون ، فيهم حماس ونشاط ، وجميعهم دون استثناء من حفظة القرآن الكريم .

في المساء أخـذنـا جولـة في سـوق الوراقين (الكتب) وجدنا فيه محلا واحدا عظيما ، هو " المكتبة العصرية " دعانا صاحب المكتبة إلى لقائه في صباح الغد، وهو يغلق مكتبته في الساعة السابعة مساء .

خرجنا للبحث عن مكتبة " ميكنزي " وهي مكتبة أمريكية تبيع الكتب الإنجليزية ، كنا نحتاج إلى كتاب بالإنجليزية لتعليم اللغة الألمانية ، كان الوقت يمضي ، ولم أستطع أن أبدأ مطالعة اللغة الألمانية ، وفي شارع الرشيد في الناحية الجنوبية على اليمين ، شاهدنا اسم مكتبة ، كانت مكتبة رائعة على الطراز الحديث لكن الساعة اقتربت من السابعة ، ولهذا اشترينا كتابا بسرعة ورجعنا ، ومكتبة ميكنزي أيضا تغلق أبوابها في السابعة .

في الطريق عرّجنا على تصدق حسين قادري لدقيقتين ، وهو ينتمي إلى الجماعة الأحمدية اللاهورية (٣٠) رجل مثقف ، متحضر وشهم ، يعرفني حق المعرفة ، ويعرف أيضا أنني أعبر عن رأيي دون خوف أو حرج ، فيما يتعلق بجماعته ، وذلك في مختلف مجالس بغداد ، وفي العموم يتسامح الناس مع القاديانيين الذين ينتمون إلى الجماعة الأحمدية اللاهورية ، ولكني أعتبرهم أكثر خطرا من القاديانيين الأصليين ، ورغم كل هذا فالرجل يرحب بي بحرارة شديدة ، ويقابلني بخلق حسن ، يجب أن نتعلم منه آداب التبليغ . .

في أثناء حديثي معه جاء ذكر " جواز السفر " فقال : إن شاء الله سوف يتم الحصول على إذن دمشق عن طريق القنصلية الباكستانية ، وبالصدفة كان عند قادري رجل رأى تحمسي ، وحبي للعلم وللمعرفة ، فدعاني لزيارة المتحف ، فهو موظف بالمتحف . .

ماذا يريد الأعمى ؟ عينين . .

فقبلت الدعوة على الفور بكل سرور وقلت : إن العبد الفقير مشتاق لهذا منذ فترة ، فقد امتدح محمد رضا الشبيبي بشكل خاص مكتبة المتحف ، لكني كنت أبحث عن رفيق أو دليل ، وهو ما توفر لي في النهاية ، وتم الاتفاق على اللقاء يوم الاثنين في محل قادري ، فمحله قريب من المتحف ، ولا يبعد كثيرا عن مسكننا .

الأحد ٢٩ شعبان ٦٨ هجرية / ٢٦ يونيو ١٩٤٩م

اتفقنا على لقاء عباس الغزاوي ،وجاء الأستاذ الهلالي وجعفر مال الله في الوقت المحدد ، واصطحبا في طريقهما طه فياض ، الذي كان قد غير مسكنه ، ووصلت القافلة بأكملها إلى بيت عباس الغزاوي في تمام الساعة السادسة .

بعد التحيات والسلامات واستكمال ما هو متعارف عليه طبقا للعادات العربية من تكرار عبارة أهلا وسهلا ، ومسّاكم الله بالخير ، وما إلى ذلك ، أخذ الغزاوي زمام المبادرة وبدأ الحديث ، كانت الحلقة الأولى من مقالة العبد الفقير " الدعوة الإسلامية في الهند " قد نشرت بالأمس ، وذكرت فيها براءتي من التصوف ، كما ذكرت أيضا الأضرار التي لحقت بالإسلام في الهند من جراء التصوف ، وقد أُعجب الغزاوي بهذا كثيرا ، فجعل منه موضوع حديثنا .

ثم دار الحديث عن الإسماعيلية الباطنية ، وجميع الفرق من هذا القبيل ، وبعدها تفقدنا المكتبة ، وقام هو بنفسه بإحضار المخطوطات النادرة وأطلعنا

عليها ، كان من فائدة عملي في مكتبة بتنة لسبع سنوات ، أن أقف ساكنا دون حراك ، لا أتكلم ، ولا أنطق بنصف جملة حين أشاهد المخطوطات ، ولكن رفاقي هنا لم يكن لديهم أي اهتمام على الإطلاق بالمخطوطات ونماذج الخط .

ورغم أن مكتبة الغزاوي كانت رائعة حقا ، إلا أنها تفتقد التنظيم والترتيب ، كما أنه لا يوجد أيضا اهتمام بالنظافة ، وقد أوضح طه فياض هذا الأمر ، لكن صاحب المكتبة لم تعجبه هذه الملاحظة ، وراح يركز على قضية عدم التنظيم والترتيب .

صلينا المغرب في بيته ، وظل الغزاوي وابنه وجعفر مال الله جالسين .

قدم إلينا علاوة على المشروبات والقهوة كتابين من منشوراته ، هدية للعبد الفقير ولعاصم أيضا .

الاثنين غرة رمضان ٦٨ هجرية / ٢٧ يونيو ١٩٤٩م

اليوم أول أيام رمضان المبارك ، كانت المحلات في معظمها مغلقة بحكم القانون ، كان المذياع يذيع يوميا تلاوات من آي الذكر الحكيم ، فزادت أوقات إذاعتها اليوم ، لكن إذا لم تحدث التلاوة أثرها على القلب ، فما فائدة ذلك ؟! الوضع هنا مثلما الحال في بتنه وجالندهر وروالبندي : المشروبات والعصائر علنا في الأسواق ، وكذلك التدخين على رؤوس الأشهاد ، لا يوجد أي نوع من أنواع الحياء ، والأمر واحد في كل مكان ، من الممكن أن تكون الغواية هنا أكثر والضلال أشد .

وصلنا إلى المتحف في الساعة العاشرة ، قال مرشدنا : إننا سنلتقي بالمدير العام، فقلت : لا مانع ، فأعطيته بطاقة فيها اسمي ، فدعانا على الفور إلى مكتبه .

كان المدير العام للمتحف هو الدكتور ناجي الأصيل ، وهو رجل مشهور ، أدى دور الوساطة بين الشريف حسين والإنجليز ، أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد حصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، له مقدرة كاملة على اللغة الإنجليزية ، ولغته العربية جميلة جدا ، ويتحدث على طريقة العلماء .

دار الحديث بيننا لربع ساعة ، راح يستفسر عن جواهر لال نهرو ، وظفر الله ، وأبي الكلام آزاد ، وتقسيم الهند ، يبدو أن الرجل يعرف بواطن الأمور ، وهو واسع الاطلاع ، لم أستطع أن أستكشف أفكاره الحقيقية فيما يتعلق بالدين، وكلما حاولت أن أصل إلى هدفي ، وأن أستنطقه ، كان يقطع الحديث، ويغير دفته ، فهو رجل سياسي محنك ، كنا في مكتبه وقت العمل ولهذا لم توجد فرصة لإطالة الجلوس معه .

كانت هناك مكتبة ملحقة بالمتحف ، فتراجعت تاركا مرشدي ودخلت المكتبة ، لم يكن الوقت كافيا ، لهذا لم أتمكن من مشاهدتها جيدا ، كانت نظرة سريعة ، المكتبة رائعة جدا ومرتبة ترتيبا جميلا ، ومنظمة على أحسن وجه ، تزخر بالمطبوعات في جميع فنون اللغة العربية ، كما توجد بها مصادر ومراجع باللغة الإنجليزية والفرنسية ، كما يوجد بها أيضا مؤلفات أوربية ، متعلقة بالقضايا السياسية للعراق والشرق ، والخلاصة أن هذه المكتبة بالنسبة للباحثين مكتبة جيدة ، ومن حسن الحظ أنها لا تبعد كثيرا عن مقر إقامتنا .

كان من الضروري هنا أن أذكر المسئول عن المكتبة فهو شاب نصراني يدعى كركيس عواد وهو يتقلد منصب أمين المكتبة المسئول ، كنت قد قرأت مقالاته ، ذكرت له ذلك ففرح كثيرا ، سألني عن سيد هاشم الندوي ، وعبد القدوس الهاشمي الندوي وعبد العزيز ميمن[٣١] لديه ذوق طيب فيما يتعلق بالمخطوطات ، ولهذا فقد كان على معرفة بهؤلاء الدارسين ، وبالصدفة كانت هناك مجموعة كاملة من الفهرس الوصفي التفصيلي لمكتبة بتنه ، فقلت له إن هذه المكتبة كائنة في بلدتي ، وقد توليت بنفسي استكمال هذا الفهرس ، وتدوينه مدة سبع سنوات ، ففرح وسر سرورا كبيرا وأحاطني بمحبته وعطفه .

الثلاثاء ٢ رمضان ٦٨ هجرية / ٢٨ يونيو ١٩٤٩م

رغم أننا في رمضان إلا أننا ذهبنا مساء إلى الأستاذ الهلالي ، انشغل محمد عاصم بمراجعة حفظه للقرآن الكريم ، كان يصلي التراويح ، وكان قد حفظ ستة عشر جزءاً حتى الآن ، ويمكنه أن يراجعها في رمضان ، كان الصيام قد ترك أثره على الأستاذ الهلالي ، فأصابه ضعف وإرهاق ، بالإضافة إلى أنه بدأ سلسلة مقالات بعنوان " أحاديث رمضان " تنشر في السجل ، طوال الشهر الكريم ، إلا أنه كان يعاني من صعوبة في مسألة الإملاء ، نظرا لعدم وجود مساعد له ، وغالبا ما يأتي عنده بعض الإخوة من شباب الأعظمية ، ولم يستطع أحدهم المجيء اليوم ، فتوليت بنفسي هذه المهمة ، واستمر هذا العمل ، أي الإملاء والكتابة حتى المغرب ، وبعد صلاة المغرب تناولنا ما أنعم الله به علينا ، ثم استأنفنا العمل من جديد .

الأربعاء ٣ رمضان ٦٨ هجرية / ٢٩ يونيو ١٩٤٩م

كنا قد دخلنا العراق بتصريح مرور (زائر) الذي يسمح لنا طبقا للقانون بزيارة العراق فقط ، وفكرنا في أن نحصل على إذن من القنصلية الباكستانية لزيارة دمشق والأراضي المقدسة ، ولكن من عساه يساعدنا في ذلك ؟! إنني أميل بطبعي إلى الابتعاد عن مثل هذا الاحتكاك ، والدخول في مناقشات من هذا القبيل ، مضى يومان أو ثلاثة وكنا بالصدفة قد ذكرنا هذا الأمر أمام قادري الذي قال على الفور إن هذا أمر سهل وسيتم إن شاء الله ، فسلمناه جوازات السفر . وحين ذهب عاصم اليوم ليستفسر عن الأمر ، وجد أن جواز المرور جاهز ، لكن ليس عليه سوريا والمملكة العربية السعودية بل عليه إذن بزيارة شرق الأردن ولبنان وتركيا .

على كل حال لقد سهّل الله لنا هذه المرحلة ، والمرحلة الثانية بيد الله أيضا ، فلم تتهيأ حتى الآن وسائل زيارة الحرمين بشكل كامل ، ولكن ليس الأمر على الله ببعيد ، فهو القادر المطلق على أن يجعل من نصيبنا ، في سفرنا هذا ، السعادة بالحج والزيارة .

استشرنا أصحاب الأمر ، واستفسرنا عن الأحوال من بعض الأصدقاء ، ويمكن أن نصل إلى قرار ما في نهاية رمضان ، ونحن الآن في اليوم الثالث من رمضان المبارك ، لكن هذا العبد المذنب ، محروم من سعادة الصوم ، فمنذ مدة طويلة لم أتمكن من الحصول على سعادة الصوم ، والعام الماضي ، ونظرا لشدة المرض ،لم أتمكن حتى من صيام يوم واحد ، وقبلها وخلال سنتين ،

تمكنت من صيام عشرين يوما كل سنة ، وكان هذا بفضل من الله وكرمه ، وبمساعدة أخي وصديقي " قطبي " الماهر في الطبخ وبمساعدة صديقي وعزيزي " حكيم ظفر حسين " الماهر في إعداد المشروبات والمعجنات الخاصة .

شعرت بالقلق الشديد ، وبعد استشارة الأستاذ المحترم العلامة الهلالي ، والصديق العزيز محمد عاصم سلمه الله ، تقرر أن أستفيد من " رخصة " السفر والمرض ، والله تعالى أعلم بأحوال القلوب ، ولكني رغم عدم صيامي ، كنت أشعر بالأذى الشديد بعد أن شاهدت الحالة العامة للمدينة ، فرغم أن المطاعم والمقاهي كانت مغلقة بحكم القانون ، إلا أن المشروبات كانت تدور علناً في الشوارع ، وكان التدخين في كل مكان دون حرج ، تفتح المقاهي في الساعة السادسة ، ويبدأ لعب الشطرنج ، وممارسة القمار على رؤوس الأشهاد ، ويذيع المذياع بين آونة وأخرى آيات من الذكر الحكيم ، لكن خَلْقَ الله هؤلاء مشغولون ، غارقون في اللهو واللعب كالعادة ، إذا كان هؤلاء القوم قد نالهم الذل في فلسطين ، فعلى من يقع الخطأ والتقصير؟

يشاهد العقلاء والمتدينون هذه الأحوال ، فيتألمون وتعتصر قلوبهم حزنا ، ولكن عددهم قليل ، فالحكومة في يد الفسّاق والفجار ، ولا أثر لتغير الأحزاب والوزارات ، أذكر أنه ذات مرة كتب مصطفى حسني السباعي (المشرف الحالي على الاخوان المسلمين في سوريا) مقالا في مجلة الفتح جاء فيه :

" إن هذه الأحزاب السياسية تختلف مع بعضها في كل شيء ، لكنها جميعها متفقة على شيء واحد ، هو العداء للدين ، لأنه لا يوجد من سبيل

للإصلاح سوى تبديل نظام الحكومة ، وتغيير نظام الحكومة متوقف على تغيير المجتمع ، وللأسف لا يفهم العلماء هذا الأمر ، فهم يهتمون فقط بسادتهم وأرباب نعمتهم ، يرتبون عمامتهم وعباءتهم ، ويحافظون على موائدهم العامرة فقط "

لقد فهم الإخوان المسلمين هذه الحقيقة ، وهم يحملون بداخلهم عاطفة العمل وفي قلوبهم حماس للجهاد ، لكن قوى الباطل كلها تقف ضدهم ، وإذا كانوا يفتقدون شيئا ، فهم يفتقدون النضج الفكري ، والعلم الصحيح ، أما الشوق إن كان موجودا فليس من الصعب التعبير عنه .

الخميس ٤ رمضان ٦٨ هجرية / ٣٠ يويو ١٩٤٩م

انتهيت اليوم من قراءة كتاب الشيخ محمد سليمان المصري " من أخلاق العلماء " وهو مجموعة طيبة من أقوال وأفعال علماء الحق ، قابلة للاحتذاء ، كما أن ترتيب الكتاب جيد ومناسب ، كما أن معظم الاقتباسات التي أثبتها المؤلف أخذها من الكتب القديمة ، وكان عرض المؤلف وتقديمه لكتابه بمثابة درس يتعلمه الآخرون ، يصل مباشرة إلى صميم الفؤاد ، من خلال اللغة الجميلة المؤثرة ، وقد كان يستخدم أحيانا اللغة الصحافية .

تذكرت هنا أن بعض الأحبة يهوون ترجمة الكتب العربية ، لكنهم للأسف لا يحسنون اختيار ما يترجمون ، ويا حبذا لو ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردية، مع مقدمة مناسبة وحواشي ، إنني على يقين من أن هذا سيكون خدمة علمية مفيدة للغاية ، لكن المترجمين عادة يضعون نصب أعينهم حاجة السوق .

في المساء درست الألمانية على يد الأستاذ الهلالي ،وبعد الانتهاء من الدرس أخذنا نقلب " تحفة الأحوذي "[٣٢] ليستفيد منه الأستاذ الهلالي في سلسلة مقالاته " أحاديث رمضان " ، وكان أحد شباب الأعظمية ، ويدعى صالح الدباغ قد جاء ليتولى أمر الكتابة .

نظرا لظروف شهر رمضان ، توقف عملنا الخاص بالمراجعة والتصحيح ، ولهذا جئت إلى الأستاذ يوم السبت ، لأطمئن على تصحيح باقي المحاضرات ، وحتى أقرأ عليه أيضا ستة كتيبات مطبوعة ، وأحقق بهذا فائدتين :

الفائدة الأولى : تصحيح هذه المطبوعات ، فالأستاذ الهلالي ناقد لغوي لاذع ، وهو شديد في أمر اللغة ولا يرحم في ذلك أحدا ، ولا ينجو من نقده اللاذع كبار الكتاب والأدباء ، أما العبد لله فهو أعجمي ، وتلميذه أيضا .

والفائدة الثانية تعريفه بمطبوعاتنا ، وما نكتب وننشر من فكر ، فالرجل بنفسه لا يستطيع أن يقرأ نظرا لضعف بصره .

وصلتنا ثلاثة طرود من الكتب ، كان محمد عاصم قد ذهب عدة مرات إلى دائرة البريد ، وبالأمس علمنا أن المسألة فيها شيء من التعقيد ، فنحن في زمان القانون العسكري (قانون الطواريء) وينظر إلى المطبوعات الخارجية بعين الشك والريبة ، قال الصواف : لعل الكتب لا تكون ممنوعة من الدخول ! ! فهؤلاء الناس يخافون من اسم " منهاج الانقلاب الإسلامي " ولهذا يجب أن نستفيد من مكانة ومركز طه فياض ، فعن طريقه يمكن أن تُحل المسألة بسهولة ، فإذا ضبطت هذه الكتب ، أو تقرر منع دخولها ، فإن برنامجنا سيتعطل ، على

كل حال إننا متوكلون على الله ، فقد جئنا هنا بعونه تعالى ، وهو وحده يشملنا برعايته وتوفيقه في كل مرحلة ، وإذا كنا ننتظر البلاء والاختبار ، فندعو الله أيضا أن يوفقنا في الصبر والاستقامة .

الجمعة ٥ رمضان ٦٨ هجرية / أول يوليو ١٩٤٩م

جاءنا الصواف في الصباح ، وجلس معنا فترة طويلة ، كان قد قرأ ثلاثة كتب من مطبوعاتنا ، وهو ينتظر بقية المطبوعات ، ظل يسأل ويستفسر عن عمر المودودي وأحواله ، وعلمنا منه أن الحكومة المصرية تتعقب الآن الإخوان المسلمين ، فأصابنا الحزن والغم ، فكل من يشتبه في انتمائه بشكل أو بآخر للإخوان يتم القبض عليه ، ويزج به في المعتقل ، ومن المحير في الأمر أن أعداء الإسلام ، وأعداء مصر يمشون في شوارع القاهرة ، يتبخترون هنا وهناك، أمام أعين جيش الحكومة وشرطتها ، ولا تتخذ الحكومة ضدهم أي إجراء ، ولا تحاسبهم ، وهي تصب جام غضبها وغيظها على دعاة الإسلام .

لقد بدأ النقراشي هذه السياسة ، التي لا يزال يُعمل بها حتى الآن ، فشهادة حسن البنا كانت بعد مقتل النقراشي ، وكان أحد الأصدقاء قد قال في كراتشي بأن هناك أسبابا خاصة ، لها دخل في خفايا هذه السياسة ، ولهذا فلا أثر على الإطلاق لتغيير الوزارات ، والأخبار الحالية تصدق هذا ، ويرى العارفون ببواطن الأمور أن للإنجليز يد في هذا الأمر ، والمحاسبة التي تحدث هنا في العراق تؤيد هذا الكلام أيضا ، فكل شيء هنا يتم بإشارة من الإنجليز ، ويقول العارفون بأن نور السعيد (رئيس الوزراء الحالي) أكثر إنجليزية من الإنجليز أنفسهم .

لقد أُطلق سراح الصواف ورفاقه ، لكن عين الحكومة لم تغفل حتى الآن عنهم ، وكان الصواف أستاذا في كلية الشريعة ، ولا أمل في أن يعود إلى وظيفته، والمثقفون هنا - وخاصة العلماء منهم - لم يتعودوا على كسب العيش الحر ، ولهذا لم يتمكن الصواف من اتخاذ أي قرار حتى الآن ، بينما قام بشير صقال ، وهو عالم مشهور من الموصل (اعتقل مع الصواف وأُطلق سراحه معه أيضا) بفتح محل بقالة ، وقد نجح في عمله الجديد ، فالناس يقبلون بشكل ملحوظ على الشراء من محله ، حتى صار من الزحام كأنه " محل تموين " ، ونشرت في السجل افتتاحية عن الرجل ، وكان العنوان الرئيسي عجيبا أيضا : " بشير الصقال أصبح بقالا " ويلقي طه فياض باللوم الشديد على الحكومة ، فقد كان من جراء سياستها الخاطئة ، حرمان أهل الموصل من دروس ومواعظ عالم جليل ، والحكومة على كل حال ملومة في ذلك ، لكنه لا يليق بعلماء الحق ، أن يكونوا موظفين لدى الحكومة ، ولا يمكن أن يؤدى حق الدعوة بطريقة صحيحة ، وهم مكبلون بقيود الوظيفة الحكومية ، يقول الأستاذ الهلالي :

" إن المهنة أو العمل الحر ممكن في باكستان ، لكنه صعب هنا ، فالعراق حتى الآن لم يصل إلى مستوى الهند وباكستان ، وإذا كان هذا سيحقق نجاحا في الموصل إلا أنه أمر صعب في بغداد "

لكن دوائر خاصة في الأعظمية تقول :

" يمكن أن يتحقق النجاح في بغداد أيضا ، وهم مستعدون لمساعدة الصواف بمختلف الطرق "

وصلنا عند الطائي اليوم ، بعد غياب طويل ، أمّ الصلاة نيابة عنه نائبه (المؤذن) وهو أمر مؤسف ، إذا أخذنا في الاعتبار آداب الصلاة ، أما منظر التراويح أيضا فيدعو للأسف الشديد ، تُتلى آيتان ، آيتان في كل ركعة مع سجدات خفيفة ، وقد صلى الطائي الفرض مع أصحابه ثم ذهب إلى مجلسه ، كان يقول :

- التراويح ثقيلة عليّ !! "

ومعه تلميذ شاب (وهو بجبته وعمامته أكبر منه) قال :

- أنا ضعيف ، يصيبني التعب !! "

جاء ذكر رمضان في الهند ونحن في مجلسه ، فذكرنا حلاوة التراويح ، وذكرنا لهم بعض الأمور المتعلقة ، فقال هؤلاء في حيرة :

- هل قرأت جزءاً كاملا في ليلة ؟ "

فقلت :

- يا سيد . . هذا أقل القليل ، وإلا فالإمام الحافظ جيدا يقرأ جزأين وثلاثة ، وهناك شاب في مديريتنا يختم القرآن كله كل سنة في ليلة [٣٣]

إن العجلة في الصلاة أمر غير مستحسن ، كما أن المسخرة التي شاهدناها هنا في الصلاة أمر يدعو لأسف ما بعده أسف .

السبت ٦ رمضان ٦٨ هجرية / ٢ يوليو ١٩٤٩م

الجو هنا يناسب صحتي تماما ، لكن استمرار الأكل في المطاعم بدأ يترك أثره عليّ ، فالمعدة تفسد تدريجيا ، وقد أُصبت طوال النهار بالضعف ، ثم

أُصبت بنزلة شديدة بعد الظهر ، وشعرت بالغثيان في الليل ، وتمكنت من النوم بعد الثانية عشرة .

ذهبت إلى الأستاذ الهلالي رغم تعبي وضعفي ، وبدأنا اليوم عملية التصحيح والمراجعة ، طبقا للبرنامج المتبع ، وآمل أن نلتزم بهذا ونستمر عليه .

حضر ثلاثة من الشباب قبل المغرب : اثنان من مراكش وواحد من الجزائر ، يتعلمون على نفقة الحكومة العراقية ، وكانوا يرغبون في دراسة اللغة الإنجليزية والعلوم الإسلامية على يد الأستاذ الهلالي ، وتم الاتفاق على أن يدرس هؤلاء كتاب قراءة باللغة الإنجليزية ، بالإضافة إلى رسالة الأستاذ الهلالي بعنوان " مختصر حدي الخليل " .

ذهب محمد عاصم اليوم إلى دائرة البريد في معية الأستاذ طه فياض ، وعلمنا أنه من الضروري قانونيا أن تُقرأ هذه الكتب قبل فسحها ، وسوف تقدم نسخة من كل مطبوعة إلى مراقب المطبوعات ، وسيتم إحضارها في الساعة العاشرة ، وعلى الله توكلنا ، فقد توقف عملنا تماما ، انتظارا لهذه الكتب ، وها قد وصلت الكتب لكن العوائق القانونية حالت دون تسلمها ، ندعو الله أن يعتبروا كتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " غير ضار بأحد . .

ولا بد أن أكرر هنا ، وأقول بأن عملنا في سبيل الدعوة لا يمكن أن يمضي بدون المطبوعات ، ذلك لأن إيضاح الأمور العلمية الدقيقة بالتفصيل شفويا من الصعوبة بمكان ، بالإضافة إلى أن الناس لم يعتادوا على سماع الكلام الجاف ، ولا شك في أن الناس هذه الأيام لديهم شغف بقراءة الكتب ، والفرق هو اختيار الكتب ، ونوعية الكتب ، فالطبقة " المتدينة " وأصحاب الذوق الرفيع يطالعون

الكتب بشوق ورغبة ويعترفون بعد ذلك بكفاءة المؤلف ، وشمولية الموضوع ، واستيعاب أسلوب البيان ، لدرجة أن مطبوعاتنا أدت المهمة جيدا ، وهي تكفي للتعريف بمنهجنا الدعوي ، وتظل مسألة قبول الفكر والاستعداد للعمل متوقفة على القارئ نفسه . كما أننا نشعر بضرورة بذل الجهد الكبير ، واتباع أسلوب المرونة ، ولا تكفي هذه الزيارة السريعة ، هذا بالإضافة إلى أن التوفيق الإلهي هو أول شرط في هذا المجال .

ساورنا الشك في البداية ألا تكون لغة الترجمة قادرة على أداء المفهوم الأصلي ، لكن الناس هنا ، من أصحاب الذوق الرفيع ، أدخلوا الطمأنينة على قلوبنا في هذا الشأن ، أما فيما يتعلق بالإصلاح والمراجعة ، فهذا أمر ينطبق على كل شيء . . على كل حال سوف تنال لغتنا أيضا نصيبها من نعم هذا السفر ومن بركاته ، وسوف يكون ذلك عونا لنا في الترجمة والتأليف مستقبلا .

الأحد ٧ رمضان ٦٨ هجرية / ٣ يوليو ١٩٤٩م

ظل التعب يسيطر عليّ ، ورغم ذلك فقد واظبت على حضور جلسة الأستاذ الهلالي في الصباح ، انتهينا من تصحيح الصفحات الثلاث الأولى من " النظام الروحاني " وقد تأثر الأستاذ الهلالي كثيرا وقال :

- إن شاء الله لن تذهب جهودنا في تصحيح هذه المحاضرات هباءً ، بعض الفقرات ما شاء الله . . كلام عال . . لو طبعت بطريقة جيدة فسوف توزع على نطاق واسع ، فموضوعات هذه المقالات أو المحاضرات ، لا نظير لها هنا ، ويمكن أن تطبع بطريقة جميلة في دمشق ، سوف أكتب خطابا إلى

صديقي بهجت البيطار [٣٤] وإذا ما ذهبت إلى دمشق سألقاه وأرتب معه أمر الطباعة .

فقلت :

- الحمد لله على أن طباعة رسائلنا هذه أمر يدعو للاطمئنان ، ولن يشكو أحد هنا من الطباعة بإذن الله .

سمع الأستاذ كلامي ففرح وغمره السرور ، فالمسكين صار كالأعمى نظرا لضعف بصره ، ورغم أن مطبوعاتنا كانت موجودة عنده إلا أنه لم يتمكن من قراءتها ، وكل ما كان يقلقه ، أنه كان يخشى أن تطبع هذه الكتب بمستوى طباعة " الضياء " التي كان يشاهدها أثناء تدريسه لنا منذ سنوات طوال .

ذهبنا إلى بيت الصواف بعد المغرب ، وتحدثت معه بالتفصيل عن أسلوب الدعوة ، والقصور الذي يبدو في منهج وأسلوب عمل الإخوان ، كنت أريد أن أفند له بعض الأمور ولكنه قاطعني قائلا :

- أهدافنا وأهدافكم واحدة تماما ، لقد قرأت ثلاثة كتب من مطبوعاتكم : النظرية السياسية ، والحكومة الإسلامية والدين الحق ، فشعرت أن ما جاء فيها يتطابق تماما مع منهجنا ودعوتنا .

ومن العجيب أن أكثر من رحب بالدعوة هنا هم طلاب الكليات ، الذين يتولى الصواف تربيتهم تربية دينية ، إذ يلتقي به بصفة مستمرة بعض الطلاب ، وهو يمارس عمله من حيث يوجد ، أي من بيته ، وهدفه هو تعميق المفاهيم

الإسلامية لديهم ، والوصول بهم إلى مرحلة من النضج الفكري تؤهلهم للعمل الدعوي .

لم نكد نبدأ الحديث في هذا الموضوع حتى دق جرس الباب ، ودخل شاب ، فقال الصواف :

- انظر ! ها قد جاء أحدهم ، هذا فيصل ، عمّ المجاهدين ، وهو مناضل نشط ، مدرس بالمدرسة الثانوية ويجيد اللغة الإنجليزية .

فسأل من فوره عن مطبوعاتنا ، فقال الصواف :

- نحن في انتظار رقيب المطبوعات .

فقال فيصل :

- لو قرأها هؤلاء الناس فلن يسمحوا بدخولها ، كيف جئتم بهذه الكتب معكم ؟!

فقلت :

- جئنا بها معنا ، وقال المسؤولون بالجمارك بأنها كتب دينية وسمحوا لنا بدخولها .

قدم شابان آخران ، أحدهما يدعى " نوري " وهو الأخ الأصغر لفيصل ، شاب متحمس وداعية نشيط ، والثاني ضابط زار إقليم البنجاب وإقليم الحدود الشمالية [٣٥] عام ١٩٤٤ ضمن مهمة عسكرية ، أثنى عليه الصواف كثيرا وقال :

- إن أصحابه في أمس الحاجة إلى مطبوعات باللغة الإنجليزية ، لو وجدتم بعض الكتيبات فأرسلوها.

فقلت له :

- حسنا . . بقيت معنا مجموعة سوف نحضرها غدا ونعطيها له .

وفي مسجد قريب صلينا معاً صلاة العشاء ، فقام الإمام (وأنا أعرفه جيدا) بكل احترام بتقديم الصواف للإمامة ، فكانت الصلاة صحيحة ، وكانت غنيمة بالنسبة لنا ، ولكن لم نكد نفرغ من أداء السنن حتى بدأت " المسخرة " التي يطلق عليها الناس هنا " التراويح " فقبل بدء الصلاة ، بدأ اثنان أو ثلاثة من المصليين (وهم في الغالب مكلفون بهذا العمل) بالصياح بصوت عال : " سيد الكائنات محمد " فيقوم الإمام " بخطف " ركعتين ، ركعتين ، في ركوع وسجود سريع . .

انضم الصواف وأصحابه إلى صلاة التراويح بينما خرجت ووقفت بعيدا ، وفي مقر إقامتنا صليت مع عاصم ثماني ركعات باطمئنان وخشوع ، قرأ عاصم فيها جزءا ونصف الجزء ، فأنا أصلي التراويح خلفه ، وأشكر الله تعالى على كرمه وفضله ، ففي جالندهر والبنجاب كان قد قرأ أحد عشر جزءا ، وخمسة عشر جزءا على الترتيب ، وكان يصلي معنا في جالنهر عنايت الرحمن وتاج محمد ، وفي روالبندي كان يرافقنا رحمت إلهي ، وفخر عالم ، وأسلم طوال شهر رمضان المبارك ، كما كان يشترك معنا أخونا غازي ، ومولانا عبد الغفار ، وفي هذا السفر فالمقتدي الوحيد خلف محمد عاصم هو العبد لله فقط ، ومع

هذا فنحن نؤدي الصلاة بخشوع وهدوء ، وهذا فضل من الله عظيم ، فلو كان في عاصم نقص ما فهو فقط في صحة القراءة ، وإن شاء الله سيتلاشى هذا النقص تدريجيا .

الاثنين ٨ رمضان ٦٨ هجرية / ٤ يوليو ١٩٤٩م

كان لنا جلسة اليوم عند الأستاذ الهلالي وكان من ضمن المدعوين عالم نجدي يدعى " حمد بن جاسر " [٣٦] وهو من تلاميذ الأستاذ الهلالي ، عالم وخبير ممتاز في جغرافية الجزيرة العربية ، وعلم الأنساب ، وهذا هو موضوع تخصصه ، لديه شوق ورغبة عارمة للبحث والتحقيق ، وهو يرتحل الآن بحثا عن المصادر والمراجع ، وبالصدفة كنت أعرفه وكان يعرفني ، فدار الحديث عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته ، ففي أثناء قراءة سيرة حياة الشيخ والبحث [٣٧] لم أتمكن من حل بعض المعضلات ، فذكرت له ذلك فقام على الفور - كطالب علم مجتهد وباحث - بتدوين هذه المسائل ، ووعد بأن يرد عليّ بعد البحث والتحقق من الجواب الصحيح ، ثم دار حديث عن علماء نجد .

يرى " حمد الجاسر " أن علماء نجد يفهمون الدعوة جيدا لكن بشكل غير شامل ، كما أنهم ليس لديهم رغبة في التعرف على ما حولهم ، ومن هنا حال هذا الأمر دون اتساع وجهة نظرهم ، ولهذا السبب أيضا فإن تأثيرهم في مجريات الأمور ضعيف .

استمر الحديث من الساعة السادسة مساء حتى العاشرة ليلا ، واشترك معنا الأستاذ الهلالي أيضا ، فدار الحديث عن قضايا وموضوعات متنوعة ومختلفة ، وصلينا العشاء جماعة في بيت الأستاذ الهلالي .

بعد صلاة العشاء اشتركنا في درس الأستاذ الهلالي ، كان عدد الحضور قليلا ، حوالي سبعين ، كانوا في معظمهم من طلبة الكليات ، وعادة ما يكون الطلبة المتمسكون بالدين متأثرين بدعوة " الإخوان المسلمين " ومن الجدير بالذكر أنه لا توجد حتى الآن بالأعظمية صالة للسينما أو دار للقمار ، ومكتبة الإخوان هنا كما هي على حالها ، وينتشر الأدب الديني بين الناس هنا بشكل عام .

استمر الدرس ساعة ، وكان موضوعه " سورة الفتح وبيان تفصيلات صلح الحديبية " كان أحد الطلاب يدرس " الدر المنثور " لكن شرح الأستاذ الهلالي لم يكن قاصرا على السيوطي ، وكان مفيدا من جميع جوانبه ، وعامرا بالمعلومات الوافرة .

سررنا كثيرا بالاشتراك في هذا الدرس ، ففي عالم الفسق والفجور هذا نلتقي بمن يذكر اسم الله ، فلماذا لا نفرح ونسعد ؟ كما أن الكثير من المساجد هنا تقرر لها علماء ووعاظ ، يحصلون على رواتب ثابتة من الأوقاف ، لكن لا قدر لهم فهم مجرد شيوخ ووعاظ محترفون ، ولهذا لا يؤثرون في الناس ، كما لا يختلف إلى مجلسهم أحد من المثقفين أو المتعلمين ، ومن الجدير بالذكر أن المسجد الذي يدرس فيه الهلالي غير خاضع للأوقاف ، ولهذا لا يهتم به أي

عالم أو واعظ ، إلا أن الشباب عمّروه بصلاتهم فيه ، كما أن سكان الحي ، والمشرف على المسجد ، فرحون مسرورون ، بامتلاء مسجدهم بالمصلين .

الثلاثاء ٩ رمضان ٦٨ هجرية / ٥ يوليو ١٩٤٩م

انتهى اليوم تصحيح ومراجعة كتاب " نظام الحياة " وغدا سنقرأ إحدى الرسائل المطبوعة ، وأعتقد أن تأثر الأستاذ الهلالي بدعوتنا ، هو في حد ذاته من الأمور العظيمة ، لقد أثر فكر المودودي فيه ، أثناء تصحيحه ومراجعته لكتاب " نظام الحياة " ونحن نتوقع أن يتعاطف مع دعوتنا بعد سماعه مضمون مطبوعاتنا .

حضر محمد بن كمال الخطيب ظهرا ، وجلس لساعة أو ساعتين ، تحدثنا فيهما عن أمور متعددة ، وجاء ذكر الجهاد ، فقلت : إن العلماء في مصر ابتداء من محمد عبده وحتى الآن يقولون بأن " الجهاد " هو جهاد دفاعي (سلبي) ومن المحير أن عبد الوهاب خلاّف في كتابه السياسة الشرعية ، وعبد الرحمن عزام في كتابه الرسالة الخالدة ، ومحمد حسين هيكل في كتابه محمد يرددون أيضا هذا الأمر ، ويقولون بأنه " جهاد دفاعي " ويبدو أن هؤلاء الناس ، يفهمون الحقيقة ، ولكنهم يخشون قولها ، خوفا من علماء أوروبا ، وهذا هو ما يُطلق عليه الشعور بالنقص أو العقلية الانهزامية ، وهو أمر يدعو للأسف .

وحين سمع محمد الخطيب هذا ألقى على الفور خطبة قصيرة في الدفاع عن " الجهاد الدفاعي " وعندها أوضح العبد لله باختصار الجهاد بنوعيه : الجهاد الدفاعي والجهاد الإصلاحي ، كما ألقيت الضوء على نزول بعض آيات

القتال ، وترتيبها التاريخي ، فاطمأن لحديثي ، ثم أطلعته على كتيب الجهاد في الإسلام(٣٨) للمودودي وقلت :

– حتى الآن لم يكتب ، ولم ينشر ، عن هذا الموضوع أي كتاب بأي لغة غير هذا .

فقال :

– ليته يترجم إلى العربية !

فقلت :

– عندنا نية لترجمة جميع الكتب المهمة ، لكننا لا نجد كاتبا جيدا بالعربية في الهند ، والعبد لله لا يستطيع أن يعمل كثيرا ، نظرا لتدهور صحته ، على كل حال لن تتوقف عملية الترجمة .

وتحول الحديث بعد ذلك إلى موضوع باكستان فقال :

– لماذا سجن المودودي بعد صدور قرار الأهداف ؟ما هو الخلاف بينكم وبين الحكومة ؟

واستمر لفترة طويلة يوجه أسئلة من هذا القبيل ، بينما كنت بدوري ألقي الضوء على أحوال الحكومة الباكستانية وأفكار أرباب الحكم .

الأربعاء ١٠ رمضان ٦٨ هجرية / ٦ يوليو ١٩٤٩م

أسمعت الأستاذ الهلالي صباح اليوم عشر صفحات من " النظرية السياسية " قرأتها عليه فتأثر كثيرا وتحمس وبدأ يقول :

- لقد لفح هواء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية المودودي أيضا .

فقلت له :

- إن التوحيد أساس دعوتنا .

كان يجلس معنا بعض الطلبة أيضا فقال لهم الهلالي :

- هذا هو درسكم اليوم ، فأنصتوا جيدا واستفسروا عن أي أمر صعب .

ظل يتكلم عن التوحيد ، لكن اتجاهه بطبعه كان ناحية القبوريين والمتسامحين في أمور العقيدة ، وكنا نريد أن نفهمه المعنى الحقيقي للتوحيد .

في أثناء قراء النظرية السياسية ، حدث شيء يدعونا إلى غاية الخجل ، فقد طبعت كلمة " مؤمنين " بدلا من " يعلمون " في آيتين من سورة المؤمنين ، ومهما كان من صدر عنه هذا الخطأ ، إلا أن المسئولية كاملة تقع على العبد لله ، سامحني الله وغفر لي ، ومن العجيب ألا يلتفت أحد إلى هذا الخطأ حتى الآن ، كما اكتشفنا أيضا عدة أخطاء لغوية فاحشة لم تكن متوقعة أبداً ، فالأستاذ الهلالي ناقد حاد ، وإمام في اللغة أيضا ، ربما لا يوجد في بغداد كلها من هو في مستواه ممن يكتبون لغة عربية صحيحة ، ونحن بفضل الله نريد أن نصل إلى أعلى مستوى ، فإذا ما قرأنا هذه المطبوعة على الأستاذ الهلالي فسوف يتم استدراك جميع أهم الأخطاء بعد العودة إن شاء الله ، وهذا من مستلزمات الأمانة في التأليف والترجمة ، ورغم أن ترجمة النظرية السياسية ليست ترجمة العبد الفقير ، لكن تصحيح الترجمة يقع على عاتقي بأي حال من الأحوال .

لـم أغـادر مسكننا في المساء ، وكان عاصم قد ذهب لإعطاء نسخ "الكوثر" و" الإنـصاف " وكـذلـك بعض الـمطبـوعات الأردية إلى بعـض الباكستانيين ، حيث توجد تـجمعاتـهم في بغداد ، ومن الـمؤسف ألا يـوجد معنا من المـجلات الأردية سوى نسخة واحدة ، وإلا كنا قد وزعنا العديد منها بين تجمعات الـهنود والباكستانيين ، ولا بد أن أشير إلى أن مطبوعاتنا العربية لا تزال في دائرة البريد منذ أسبوع ، ويسعى طه فياض جاهدا لاسترجاع هذه الكتب ، أما نحن فقد سلمنا أمرنا كله لله .

صلينا العشاء والتراويح على سطح البيت في الليل ، وليالي بغداد مشهورة بفتنتها وسحرها الخلاب ، فبينما يكـون النهار حارا ، يتحول الـجو ليلا إلى جو طيب رائع ، وليالي بغداد لا تدانيها ليالي منطقة شمال الهند (UP) أو البنجاب ، وحين نشاهد السماء الزرقاء الصافية ، والنجوم تتلألأ على صفحتها ، وربيع الليالي المقمرة ، فماذا نقول سوى سبحان الله ! سبحان الله ! والعبد الفقير لا يمكنه أن يتمتع كثيرا بهذا المنظر الخلاب ، فأنا أنام في الطابق الثاني ، وبسببي لا ينام عاصم فوق في الشرفة ، ففي آخر الليل يكون الجو على السطح المكشوف أميل إلى البرودة ، ولا يستطيع أن ينام في هذا الجو من هو مصاب بداء الربو مثلي .

الخميس ١١ رمضان ٦٨هجرية / ٧ يوليو ١٩٤٩م

في الساعة العاشرة صباحا حضر إلينا كمال الدين الطائي (سكرتير الجمعية الإسلاميـة) في ليلة السابع عشر من رمضان المبارك ستعقد جلسة في ذكرى

غزوة بدر ، ولهذا جاء يدعونا لحضور هذه الجلسة ، وكان قد طلب من الأستاذ الهلالي أن يلقي كلمة بهذه المناسبة ، إلا أن الأستاذ رأى أنه ليس من المناسب أن يترك درسه الليلي ، بينما يرى الطائي ورفاقه في هذه المظاهر والجلسات والمهرجانات خدمة للدين ، فعرضنا عليه وجهة نظرنا ، فظل يستمع إلينا صامتا، ولكن من المعروف أن طبيعة " المولويين " في كل مكان طبيعة جامدة، ومستكينة ومطمئنة لما هي عليه !!

زارنا أيضا محمد بن كمال الخطيب الدمشقي لفترة بسيطة ، وقدم إلينا عددين من مجلة التمدن الإسلامي ، هدية ، ولا شك أن هذه المجلة غنيمة طيبة، وعلى كل حال فهي تتميز بأسلوب بيانها العلمي ، لكنها تخلو من روح الدعوة .

لم نتسلم الكتب بعد ، وكان مدير الدعاية قد وعد طه فياض أن يفرج عن الكتب ، وغالبا ما ستسلمها يوم السبت ، كان مدير "السجل " يقول :

- لو كنتم طلبتم الكتب باسمي لما تعرضنا لهذه المشكلة .

فقلت :

- حسنا . . سوف نحتاط مستقبلاً .

الجمعة ١٢ رمضان ٦٨ هجرية / ٨ يوليو ١٩٤٩م

ذهبنا في المساء مع الأستاذ الهلالي إلى بيت الزهاوي ، ودار حديث موضوعه " إصلاح المسلمين " ورغم الاختلاف الشديد في وجهات النظر إلا

أن النقاش جرى بشكل سهل ، وفي غاية التسامح ، دون تعصب لرأي أو تشدد لجانب ، وأهل بغداد جميعا متفقون على إخلاص الزهاوي ، ففيه أيضا همة الشباب وحماسهم ، وهو يريد أن يعمل بكل حماس بعد إقامة فرع المؤتمر الإسلامي (باكستان) ، كما أنه من الممكن أن يصدر مجلة شهرية ، يتولى إدارتها الأستاذ الهلالي مع الشيخ الزهاوي ، فلو اتحد الاثنان على عمل ما ، فنجاح هذا العمل مؤكد بالضرورة .

تحدث الأستاذ الهلالي بعد المغرب عن الجماعة الإسلامية ، ورغم أنه من أصحاب الأفكار المستبدة ، بل رغم تهاونه في بعض الأمور وتساهله ، إلا أنه من أهل الحديث المتمسكين بآرائهم ، وكان العبد الفقير يناقشه باحتياط شديد ، وأدب جم في المسائل والقضايا المختلف فيها ، لكن النقاش احتد في هذه الليلة ، فكنت أقول :

- إن جماعة أهل الحديث في الهند من المتشددين طائفيا ، وهم يقلدون شيوخهم تقليداً أعمى ، بل هم أكثر تقليدا من المقلدين أنفسهم ، وأكثر طائفية ممن يقولون بالطائفية العمياء .

وعندئذ ثار الأستاذ الهلالي وغضب فقلت له :

- أصدر إمام أهل الحديث في الهند فتوى يجيز فيها " التأمين " وأحل " فوائد البنوك " بل نشر إعلان شركات التأمين في جريدة أهل الحديث ، فهل يمكن أن نقول أن هؤلاء هم خلفاء البخاري و الترمذي ؟!

فبدأ يقول :

- لماذا نطعن في الجماعة كلها بسبب خراب بعض أفرادها ؟

فقلت له :

- لقد كانت الجماعة كلها خلفه ، ولم يرفع أحد صوته ضده .

وقلت له أيضا :

- وكان أحد علماء الحديث قد أصدر قبلا فتوى بإبطال " الجهاد " فنال على ذلك عطف وإنعام الحكومة البريطانية .

ورأيت - خوفا من أن تزيد حدة المناقشة أكثر فأكثر - أن أكتفي بهذا ، وطلبت الإذن بالانصراف ، وكان المثير في هذا النقاش أن عاصما كان يؤيدني أيضا ، وكان يتحدث بجرأة وشجاعة ، وتحيرت فأنا حنفي ومسلم عادي ، بينما يرى الناس أنني سلفي ، بل يعتبروني من جماعة أهل الحديث ، والأستاذ الهلالي يقول لي : " أنت أيضا حنفي متسامح " ولا أملك إلا قول الشاعر :

حسبني الزاهد - ضيق النظر - كافرا ، بينما الكافر يحسبني مسلما

السبت ١٣ رمضان ٦٨هجرية / ٩ يوليو ١٩٤٩م

قرأت على الأستاذ الهلالي في الصباح عشر صفحات أو اثنتي عشرة صفحة من كتاب " نظرية الإسلام السياسية " ففرح كثيرا وتأثر وقال : إن شاء الله سوف أنشر هذا في " لسان الدين "[٣٩]

سوف يستمر هذا العمل بدون توقف ، وسوف نصحح المزيد من المطبوعات ، ومع التصحيح نتناول مباحث علمية ولغوية مفيدة .

الحمد لله ! أُفرج عن الكتب اليوم ! فقدنا أحد الطرود إلا أنه وصل بالصدفة إلى الجمعية الإسلامية ، فشكرا لله والحمد لله على كل حال ، فقد كان اليأس قد أصابنا تماما ، وكان الرقيب الظالم قد كتب تقريره بشكل صحيح ، لكن الله بارك في همة " طه فياض " وفي إخلاصه ، فدافع عنا بكل قوة وجرأة ، مؤيدا وجهة نظرنا ، ومعارضا ما جاء في تقرير الرقيب ، ويكفي أن نذكر أن الرقيب وضع علامة خاصة على الطرد الثالث من " دعوتنا " كما كتب تقريرا مفصلا عن المطبوعة الخاصة بعنوان " إن الحكم إلا لله " مما يوضح اتجاه المسئولين هنا .

ذهبنا إلى قادري في المساء ، ، فعنده تعقد جلسة للهنود والباكستانيين ، وقد دخل العراقيون أيضا في زمرة أحبابه وأصدقائه ، فبدؤا يترددون عليه أيضا ، كان يتكلم العربية " المكسرة " أي الركيكة ، وهو رجل صاحب فهم ، وصاحب ذوق ، ومهذب ، وضعنا عنده نسخة من مطبوعاتنا العربية ، ودار الحديث لفترة عن سياسة الهند وباكستان ، كنت أتحدث بينما ينصت جميع الحاضرين في أدب واحترام ، ولكني لا يمكن أن أقطع برأي عن تأثير حديثي على هؤلاء ، فهم ينتمون إلى الجماعة الأحمدية اللاهورية ، وهم دعاة نشطاء ، لكنهم لا يمكن أن يحققوا أي نجاح بين أهالي العراق الأصليين ، فهؤلاء رغم عصبيتهم الشديدة ، يحملون بداخلهم القرآن العربي ، وفي قلوبهم حب النبي العربي ، فكيف يتحولون إلى الإيمان بنبي كذاب من قاديان ، كما أن المتدين منهم ينفر نفورا شديدا من القاديانية .

بعد المغرب ذهبت إلى الصواف ، وقدمت له آخر ثلاث مطبوعات صدرت لنا ، ففرح كثيرا ، وأخذ يطري ويثني على هذه الكتب أمام جلسائه ، ويحثهم على قراءتها ، بدأ يقول : في الواقع أرباب الحكومة هؤلاء أغبياء ، لو كان عندهم ذرة من فهم لما سمحوا لهذه المطبوعات بالدخول - على كل حال كان ذلك من توفيق الله ، ويجب أن نستفيد مما حدث .

الأحد ١٤ رمضان ٦٨ هجرية / ١٠ يوليو ١٩٤٩م

أطالع منذ عدة أيام كتاب محمد سليمان المصري " حدث الأحداث في الإسلام " أو " فتنة ترجمة القرآن " إن مسلك علماء مصر خاصة وعلماء العرب عامة فيما يتعلق بباب ترجمة معاني القرآن ، مسلك محير ويدعو للعجب، فهؤلاء العلماء يُحرّمون ترجمة معاني القرآن تحريما قطعيا، ومن الجدير بالذكر هنا أن التجديد مع اليقظة الإسلامية بدأ في الهند على يد شاه ولي الله الدهلوي (٤٠) الذي ترجم بنفسه معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية ، ثم ترجم نجلاه من بعده ، رفيع الدين(٤١) وشاه عبد القادر (٤٢) معاني القرآن الكريم إلى اللغة الهندوستانية (الأردية) ولهذا لم توضع قضية " عدم جواز ترجمة معاني القرآن الكريم " على مائدة البحث ، كما لم يقل أحد مطلقا بأن الترجمة لها مكانة النص ذاته أو بأنها تكفي عن النص الأصلي ، والترجمة كانت عملا اضطراريا ، فقد كان العلماء مجبرين على ذلك ، وإلا فإن فهم نصوص القرآن الكريم ، ومعرفة اللغة العربية بقدر الضرورة أمر لازم ، وضروري لكل مسلم ، ولا يختلف على هذا اثنان .

جاوز الأتراك حد الاعتدال في هذا الموضوع ، ولا يزال هذا المسلك غير المعتدل يتخذ شكلا من الأشكال حينا فحينا ، ولكن علماء مصر وبلاد العرب ، جاوزوا أيضا حد الاعتدال في هذه المسألة ، وكان كتاب الشيخ محمد سليمان عن هذا الموضوع ، ومنذ عشر أو خمس عشرة سنة كان الشيخ مصطفى المراغي قد وضع برنامجا رسميا كاملا لترجمة معاني القرآن الكريم ، وكانت مكانة شيخ الأزهر تقريبا تعادل مكانة مفتي الإسلام ، بالإضافة إلى أن شخصية الشيخ المراغي كانت شخصية فذة قوية ، وكان الرجل شجاعا ، وقد قدم بنفسه خطة مشروع إصدار ترجمة رسمية تشرف عليها الحكومية ، على أن تترجم معاني القرآن الكريم إلى لغات العالم المشهورة ، ووافقت الوزارة على خطة المشروع ، ورصدت لذلك القسط الأول في ميزانية المشروع ، مبلغ عشرة آلاف جنيه ، ولم يكد العمل يبدأ حتى أصدر الشيخ محمد سليمان سلسلة مقالات بعنوان الفتنة الكبرى " حدث الأحداث في الإسلام " فكان لذلك أثره في وقف المشروع كله ، وقد قرأت هذه المقالات في الفتح وغيرها من الجرائد ، وأردت أن أقرأ هذه المقالات مرة أخرى بعد أن طبعت في شكل كتاب ، لأرى مدى قوة دلائل المؤلف ، فقد كان في مشروع الشيخ المراغي بعض النقائص ، ولا شك أن في المشروع بعض الجوانب الخطيرة ، إلا أن المؤلف لم يقدم في كتابه دليلا معقولا على حرمة الترجمة ذاتها ، ولا يمكنه أن يقدم ذلك ، فالحكم بحرمة الترجمة هنا يكون إذا أقر شخص بأن ترجمة معاني القرآن الكريم يمكن أن تكون عوضا عن نص القرآن ذاته .

بعد المغرب حضرنا لفترة بسيطة مجلس كمال الدين الطائي ، فقدمنا له المطبوعات الثلاث الأخيرة ، فطلب عشرين نسخة من كل مطبوعة ، لم يكن الطرد الخاص به قد وصل حتى ذلك الوقت .

وبعد الظهر حضر إلينا كمال الخطيب الدمشقي ، نشرت مجلته عرضا لكتابنا " الدين القيم " وكانت قد نشرت في عددين سابقين نبذة مختصرة عنه ، فقدمنا له المطبوعات الثلاثة المتبقية ، وكان للرجل اهتمام خاص بالاقتصاد والقانون ، فدار الحديث عن النظام الاقتصادي في الإسلام ، والرجل على درجة كبيرة من الفهم ، لكنه لا يستطيع أن يطلع مباشرة على أفكار علماء الغرب ، وقد درس الحقوق في دمشق باللغة العربية ، ويعرف الفرنسية معرفة بسيطة ، لا تمكنه من الاطلاع مباشرة على الكتب العلمية .

الاثنين ١٥ رمضان ٦٨ هجرية / ١١ يوليو ١٩٤٩م

توجد مطبعة في البيت الذي نقيم فيه ، وفي الطابق الثاني بعض الغرف الخالية يستخدمها العاملون في المطبعة عند الضرورة ، ويقوم هؤلاء أيضا بتأجيرها لآخرين بمبلغ معقول ، فتعج هذه الغرف بمن فيها طوال النهار ، وفي الليل يخيم السكون على المكان ، ومضيفنا طه فياض يطبع جريدته " السجل " هنا أيضا ، وكان يقوم بالعمل هنا أيضا في غرفة مجاورة لغرفتنا ، إلا أنه يعمل الآن في مكتب قريب لأحد أصدقائه ، بينما يقوم مساعده والمدير بعملهما هنا في مبنى المطبعة ، وهكذا يبدو أنه لا يوجد مكتب مستقل خاص بالسجل ، وهذا عجيب . . جريدة يومية ولا يكون لها مكتب مستقل ! هذا ما لا يدخل في عقل وفهم أهل لاهور . .

على كل حال يجب أن نشير هنا إلى أن مستوى الصحف هنا عادي جدا ، تصدر هنا حوالي عشر صحف أو أكثر قليلا ، لكنها جميعها على وتيرة واحدة ، أربع صفحات من الحجم الكبير ، ولا بد أن تحتل الإعلانات صفحة كاملة ، كما أن الصحف تعج بالأخبار المحلية ، أما الأخبار الخارجية فتنشر خلاصة لها في الصفحة الأولى ، إلا أن الافتتاحية (التي تكون في العادة غير وافية) فتنشر أيضا في الصفحة الأولى ، ولا يوجد هنا مجلة شهرية أو جريدة أسبوعية .

كانت ليالينا تمضي بهدوء حتى ليلة أمس ، فقد شعرنا بحركة نقل وبضوضاء منذ أول أمس ، وعرفنا بالأمس أن أمين أحمد (الذي كان يكتب افتتاحية السجل ثم انفصل منذ شهر تقريبا) قد غادر المكان وأخلاه ، والسجل صحيفة مسائية ، ولهذا يخيم السكون عليها في المساء ، كما أن أي عمل صغير أو كبير لا يحدث في الليل إلا لماما ، على عكس الصحف الصباحية التي تبدأ طباعتها وقراءة مسوداتها بعد المغرب ، ويظل المذياع يطلق صيحاته بين موسيقى وأغاني ، وسط ضوضاء شديدة ، وهكذا بدا لنا أن أصحاب المطبعة يقومون بعمل خاص ، وهم في غاية السرور ، بينما حلت بنا مصيبة كبيرة من جراء هذه الضوضاء ، فليرحمنا الله .

وعلى كل حال فالصحف صباحية كانت أو مسائية ، حالها واحد ، ورقابة الحكومة عليها شديدة لدرجة أنه من الصعب أن تقال الحقيقة ، ولأن دم فلسطين لطخ ذيل العراق أيضا ، فموقف الحكومة حرج للغاية ، ولدى الحكومة حساسية شديدة فيما يتعلق بهذا الأمر ، وهنا رأي عام يصل إلى حد اليقين ، أن دم فلسطين في رقبة ثلاثة هم : عبد الله (ملك شرق الأردن التي

تصفه جريدة الجزائر المشهورة " البصائر " وتنعته بالهاشمي الإنجليزي Anglo-Hashimy وعبد الإله ابن أخ عبد الله ، وخال ملك العراق الحالي ، وصي العرش ، ونوري السعيد (رئيس وزراء العراق الحالي) فثلاثتهم من أتباع لندن ، ولا دخل لهم في سياسة العراق ، والوزراء يعملون وكأنهم لا ينتمون إلى بلادهم ، وبريطانيا الماكرة تستخدمهم فيما تريد ، وقد اشتهر عن نوري السعيد أنه إنجليزي أكثر من الإنجليز أنفسهم ، ماذا نقول عن عبد الله؟

في رأي كاتب السطور أن دم فلسطين في رقبته هو فقط ، فلو لم تكن خيانته لما كان تفكك جامعة الدول العربية ، ولما كانت هزيمة الجيوش العربية ، ولما كانت إصابتها بعار الهزيمة بعد أن كانت على وشك تحقيق النصر ، وسياسة العراق تابعة لعبد الله ، وقد اشتهر فيصل بين أولاد الشريف حسين بالذكاء والحكمة والتعقل ، وطالما كان الرجل على قيد الحياة لم يتمكن عبدالله من أن يفعل ما يريد ، لكن بعد وفاة فيصل ، جلس ابنه غازي على عرش العراق، كان معارضا للإنجليز وكان ذا همة عالية ، لكن العمر لم يمهله ، ويقال إن للإنجليز دخلاً في تدبير مؤامرة قتله والله أعلم بالصواب .

بعد ذلك جلس فيصل الثاني ابن غازي الصغير على العرش ، وتم تعيين عبد الإله بن علي بن الشريف حسين وصيا للعرش ، وبدأ تأثير عبد الله أيضا على العراق ، وهناك خبر جديد مفاده أن عبد الله (شرق الأردن) وعبد الإله (العراق) ذهبا إلى لندن ، لا من أجل هدف سياسي ، بل بهدف تبادل الآراء ، لكن الدوائر المطلعة على حقيقة الأمور ترى شيئا غير ذلك .

الثلاثاء ١٦ رمضان ٦٨ هجرية ١٢ يوليو ١٩٤٩م

شاع خبر مفاده أن فرنسا تريد أن تحكم سيطرتها أكثر فأكثر على سوريا ولبنان وهو ما يرفضه أهل سوريا تماما ، أما في لبنان فهناك طبقة تريد أن تقيم علاقة طيبة مع فرنسا ، ولهذا ارتبطت العملة في لبنان بالفرنك الفرنسي ، وكانت سوريا قد حررت عملتها بعد حصولها على الاستقلال ، وفيما يتعلق بفلسطين فإن موقف لبنان غير واضح ، بينما سوريا ثابتة على موقفها حتى الآن ، ويشار إلى أن سياسة سوريا فيما يتعلق بفلسطين أكثر صلابة من سياسة مصر ، فبعد غدر العراق ، وشرق الأردن ، بقيت مصر وحدها في الميدان ، واضطرت إلى قبول محادثات الصلح مع إسرائيل ، وقد نشرت السجل في افتتاحيتها موضوعا عن هذه الرغبة الجديدة لفرنسا ، وحسب تعبير طه فياض ، لو بقيت جامعة الدول العربية يرحمها الله على قيد الحياة ، لأمكن وضع سياسة مشتركة موحدة في مواجهة هذا الخط الجديد ، لكن للأسف فالحسد والتنافس بين البلدان العربية ، لم يسمح للعرب بالاتحاد أبدا .

في الليل عقدت جلسة " الجمعية الإسلامية " في ذكرى غزوة بدر ، وتم الإعداد لها في حديقة قاعة الملك فيصل الثاني ، كما أذيعت وقائع الجلسة أيضا من إذاعة بغداد ، كان عدد الحاضرين كبيرا ، لكن مستوى الخطب التي ألقيت كان عاديا ، وسمعت أحد الخطباء يخطئ حتى في قراءة آيات القرآن الكريم ، رغم أن الخطب كلها كانت مكتوبة ، ويجب أن أقر هنا بأن بعض الأشعار كانت جيدة .

الأربعاء ١٧ رمضان ٦٨ هجرية / ١٣ يوليو ١٩٤٩م

أشعر بالتعب والضعف منذ أسبوع ، أتعبني طعام الفنادق والمطاعم ، فهذه هي المرة الأولى التي أتناول فيها طعامي هكذا في المطاعم منذ عشرين سنة أو أكثر ، فلا يمكن أن يوجد طريق آخر غير هذا ، مع ضيق ذات اليد ، وتواضع الحال ، والله تعالى يشملنا بفضله .

أنتظر وصول الدواء من باكستان ، فلا يوجد هنا غير الدواء الإنجليزي ، والعبد الفقير لم يتعود على مثل هذا النوع من العلاج .

ذهب عاصم اليوم إلى كلية الشريعة للقاء الطلبة الأتراك ، وقد جلس معهم لفترة طويلة ، وحاورهم ، وناقشهم ، وأهداهم بعض مطبوعاتنا ، كما أودع في مكتبة الإخوان نسخة من آخر مطبوعاتنا الثلاث ، وتوجه بعدها إلى محمد محمود الصواف ، بينما ذهب كاتب هذه السطور إلى طه فياض ولم يسعد بلقائه .

هناك شكوى عامة هذه الأيام من كساد السوق ، وقد تدهورت قيمة المنتجات الوطنية ، فثروة البلاد تصرف وتُهدر على الزينات والاحتفالات ، وما عدا طبقة خاصة في المجتمع ، فالجميع هنا يعانون الفقر والفاقة ، والصحافة تدعو هذه الأيام إلى إقامة صناعات جديدة ، وبناء مصانع جديدة ، وتركز على هذا الموضوع ، لكن من أين يأتي رأس المال ؟ رأس المال في يد اليهود ، وهم قابضون ومسيطرون على مفاتيح التجارة الأساسية في الأسواق ، ويزيد عددهم في بغداد وحدها على مائة ألف ، ويعتقد أنهم توقفوا عن تدوير رؤوس أموالهم، فبعد قيام إسرائيل يحلم الكثير منهم بالهجرة .

كانت هذه هي آراء الصحف المحلية ، وكاتب هذه السطور لا يستطيع أن يفهم جيدا الحالة الاقتصادية هنا ، كما لا يستطيع أحد ممن أقابلهم أن يلقي بنظرة عميقة على مثل هذه القضايا ، بالإضافة إلى أن نظرة مديري الصحف هنا نظرة سطحية غير متعمقة في هذا الموضوع .

الخميس ١٨ رمضان ٦٨ هجرية / ١٤ يوليو ١٩٤٩م

انتهيت اليوم من قراءة " العدالة الاجتماعية في مصر " لسيد قطب المصري ، الكتاب في مجموعه جيد ، والمؤلف مسلم متمكن فكريا وثقافيا ، والأهم من هذا وذاك أنه يفرق بين الإسلام والمسلمين ، ويعلم بأن يرى العدل الاجتماعي ، وقد تحقق في المستقبل على أسس الإسلام الصحيح ، ولا يدري المسكين أن هناك في الهند وباكستان من انشغلوا وانهمكوا ، وغرقوا في وضع الأفكار الرامية إلى التطبيق العملي لهذا الحلم ، إن اطلاعه على هذا الأمر يدخل في صميم أعمالنا .

ولا شك أن هناك بعض النواقص في الكتاب ، وأولها تلك اللهجة الشديدة التي تحدث بها في الباب الخاص بعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص ، فهذه الحقائق المرة يمكن أن توضح بطريقة حلوة ، ثم أين العدل إذا ما اتهم إسلام أسرة (هند وأبي سفيان) كلها بسبب أعمالهما قبل الإسلام .

والمؤلف أديب شاب بارز من أدباء مصر ، ولهذا فظهوره في الميدان معبرا عن الإسلام من حين لآخر أمر طيب ، والكتاب بالطبع من حيث الأسلوب أرفع مستوى من الأسلوب العادي ، وليس من شك في أنه يتصف بقوة البيان ، إلا أن

أسلوب البيان الغربي يسيطر على الألفاظ العربية ، كما يتضح في أسلوبه ولغته أيضا الصراع بين القديم والجديد في اللغة العربية وأدبها ، وكاتب السطور يميل بطبيعته إلى الأسلوب القديم ويريد أن يرى اللغة العربية قريبة من لغة القرآن الكريم .

الجمعة ١٩ رمضان هجرية / ١٥ يوليو ١٩٤٩م

الأيام تمر . . توشك أيام إقامتنا في بغداد على نهايتها ، ونحن بدورنا انتهينا إلى حد ما من مهمتنا الأولية في بغداد ، ولاحظنا أن من بين الأعيان والعلماء عددا قليلا يعد على الأصابع ، يحملون في قلوبهم عاطفة صادقة تجاه الإسلام ، وهم أيضا يريدون بقلب صادق ونية خالصة أن يعملوا من أجل الإسلام .

بعد بحث طويل وتدقيق نرى أنه يمكن أن نضع كل أملنا في أربع شخصيات فقط ، يأتي في مقدمتهم الشيخ أمجد الزهاوي ، فهناك إجماع من قبل أهل بغداد على إخلاصه ، وهو خبير في الفقه ، من الطراز القديم ، له مكانته العلمية، ولديه دراية أيضا بكتب الحديث ، يتولى أعلى مناصب القضاء الشرعي، في العهد التركي وبعده في عهد الحكومة الجديدة ، ولكنه من حيث المشرب والمسلك حنفي كح (خالص) وهو متساهل متسامح فيما يتعلق بالبدع، وأحسن وصف ينطبق عليه في شيخوخته هذه أن الرجل لديه حماس للعمل وحماس للجهاد .

ثـم يأتـي الأستـاذ المحتـرم الدكتـور تقـي الديـن الهلالي ، وهـو يحتـل درجة الإمامة في الأدب واللغة ، وما يتصل بهما من علوم ، نظرته في علم الحديث ثـاقبة ، وهو يحفظ عن ظهر قلب الكثير من الصحاح الستة ، حافظ للقرآن الكريم لا مثيل له ، وخبير في التجويد وعلم القراءات ، ويعرف الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأسبانية ، من سكان شمال إفريقيا (مراكش) زار معظم بلاد الشرق والغرب ، وهو من ناحية الفكر ووجهة النظر قريب من جماعة أهل الحديث في الهند ، وهو يعترف دائما في أحاديثه ومناقشاته بمكانة الدين ، وجامعيته ، وشموليته ، بل ويشرح ذلك لسامعيه .

قرأنا عليه بعض مطبوعاتنا فوافق على كل كلمة جاءت فيها ، وفيما يتعلق بالدعوة والتبليغ فهو مثل أهل الحديث لا يتحرك أبعد من " الفروع " ولكنه من ناحية العلم والفضل لا يمكن أن يدانيه أحد من علماء أهل الحديث في الهند .

والشخصية الثالثة هي الأستاذ طه فياض مدير السجل ، فمثله مثل الشيخ الزهاوي ، يتفق أهل بغداد أيضا على إخلاصه ، وهو ليس بضليع في العلم والأدب ، ولكن لا نظير له من ناحية الحماس الديني ، لا يتأثر بعصبية قومية ، ولا يتأثر بالانتهازية ، وهو مستعد على الدوام لخدمة العقيدة الصحيحة والدين الحنيف ، ولكنه يهرب من المطالعة والقراءة شأنه في ذلك شأن بعض أصدقائنا الباكستانيين ، وهو يكتب الافتتاحية عن موضوع ما دون قراءة أو مطالعة ، وصفحات جريدته وقف على كل دعوة خير ولكن كيف يمكن للأحاديث الشفوية أن تؤثر ! ! خاصة مع مثل هذا الرجل الذي لا وقت لديه ؟ !

وفي النهاية نذكر شخصية تحتل أهميتها من ناحية خاصة ، وأقصد الأستاذ محمد محمود الصواف الذي يبلغ من العمر حوالي أربع وثلاثون أو خمس وثلاثون سنة ، ممشوق القامة ، وجهه يميل إلى الحمرة ، تعلو الابتسامة دائما وجهه ، شخصيته جذابة ، ولابد أن أشير إلى أن نجاح الدعوة إلى الإسلام الصحيح في العراق ، إنما يتم بجهوده المخلصة ، وهو من ناحية العلم لا يتفوق في الغالب على علماء بغداد ، ولكنه من ناحية الفكر ، ومن ناحية الرأي ، مسلم صادق ، يضع أمامه دائما وفي كل وقت ، التصور الصحيح للدين ، ورغم أنه سلفي المشرب (أهل الحديث) إلا أنه لا يخوض في الفروع ، وكثيرا ما كان يظهر أسفه على تشدد الأستاذ الهلالي ، ويحاول دائما بإخلاص ومحبة أن يلطف من تشدده هذا ، ومن جهوده المشهودة التوفيق بين الشيخ الزهاوي والدكتور الهلالي ، وربطهما معا بعلاقات الود والأُلفة ، ونحن متفقون معا تماما فيما يتعلق بفهم الدين ، والهدف المنشود ، وأيضا فيما يتعلق بالعزم الصادق ، والجهد المستمر والسعي الدؤوب .

فرح كثيرا بمطبوعاتنا ، وأخذ يقنع أصدقاءه ويحثهم على قراءتها أيضا ، ورغم مراقبة الحكومة الشديدة ، وكتم الأنفاس ، فقد تمكن من تكوين حلقة طيبة من حوله ، تضم أصدقاءه ، وبخاصة طلبة الكليات ، وبعض شباب المدارس ، وبعض الموظفين الحكوميين ، فإذا كانت هناك جماعة صالحة في العراق فهي فقط جماعة الصواف .

السبت ٢٠ رمضان ٦٨ هجرية ١٦ يوليو ١٩٤٩م

جاء دور كتاب " منهاج الانقلاب الإسلامي " بعد " نظرية الإسلام السياسية " ، ولكني حملت بالصدفة مسودة " الجهاد في سبيل الله " للمراجعة ، ولهذا تغير ترتيب المطبوعات التي حددنا مراجعتها ، وبدأنا من اليوم قراءة الجهاد في سبيل الله ، وبينما كان عاصم يقرأ الترجمة ، كان العبد الفقير يراجع المسودة على الأصل ، فيقدم الأستاذ الهلالي مشورته ورأيه بين الحين والآخر ، والحمد لله لم يوجد فيها خطأ فاضح ، وكان أسلوب البيان جذابا أيضا ، فشكرا لله ألف شكر الذي وفق العبد لله في هذا العمل ، وليس على الله ببعيد أن يجعل في لغة عبده المسكين القبول والتأثير ، وما ذلك على الله بعزيز .

دُعينا في المساء على تناول طعام الإفطار في بيت الأستاذ محمد الصواف ، وكان من بين الحضور الأستاذ الهلالي وطه فياض ، وبعض الأحباب الآخرين ، وجاء أحد علماء الموصل أيضا ، ويُدعى عبد الله الحسو ، أراد الصواف أن أسمعه بعضا من كلامي ، لكن وجود الهلالي حال دون ذلك ، وحين استأذن الأستاذ الهلالي وجدت فرصة ، وليس المقصود من كلامي أو خطبتي أن ألقي بخطبة ، ولكن كان قد جاء في " الكوثر " أن جماعة أهل الحديث لهم موقف شديد فيما يتعلق بعبادة الموتى (القبوريين) ولكنهم يجبنون ، ويستخدمون أسلوب المداهنة مع الطواغيت الأحياء ، وكنت قد شرحت هذا الأمر في الصباح للصواف حين جاء يدعونا لتناول طعام الإفطار ، فأُعجب بالطبع بكلامي ، والشيخ عبد الله الحسو ، يمضي وفي يده العصا خلف المقلدين والقبوريين ، ويظل يسأل مرة بعد مرة : كيف حال الدعوة (أي رد البدعة

ورفض التقليد) في الهند ؟ فأفهمته كلامي جيدا ، ووعدته بأن ألتقي به لقاءً طويلا ، وأن أتحدث معه في هذا الأمر بالتفصيل .

الأحد ٢١ رمضان ٦٨ هجرية ١٧ يوليو ١٩٤٩م

بدأت قراءة كتاب محمد سليمان المصري الثالث " رسائل سائر " لكنه لم يعجبني ، ويتضمن الكتاب رحلته إلى لبنان والشام واليونان ، وأسلوبه البياني أسلوب فريد ، لدرجة أنه كثيرا ما يجنح إلى الإيهام والغموض .

وفي ذكرى الأمير شكيب أرسلان كتب تلميذه الفلسطيني المجاهد المشهور محمد علي الطاهر (رئيس تحرير جريدة الشورى بمصر سابقا) كتابا ضخما ، جمع فيه جميع الخطب والقصائد والمقالات والرسائل والخطابات التي كتبها أو قالها أدباء وشعراء العرب بمناسبة وفاة أمير البيان ، فقد حضر تلك المناسبة مندوبون من جميع البلدان العربية ، وهكذا احتوى الكتاب على معلومات مفيدة عن جميع جوانب حياة الأمير شكيب أرسلان ، وصار الكتاب من الناحية الأدبية واللغوية مجموعة مهمة ، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن من المحاسن التي لا تزال توجد في العرب أن فيهم أيضا (وفاء ما بعد الموت) وهذا الأمر نادر عندنا أقصد عند المسلمين ، وهو موجود بدرجة تامة عند الهنادكة ، فالقادة والأدباء المسلمون لا ينسون ولا يتناسون ما بينهم من شقاق حتى بعد الموت ، وما ذكرته قبلا يندرج تحت الأخلاق العامة في العرب ثم إن الأمير شكيب أرسلان كان " إمام الأوفياء " فلماذا لا يسكب الأحبة والأصدقاء الدموع غزيرة على موته ؟!

الحمد لله وصلتنا اليوم بقية طرود الكتب ، ولن يضايقنا رجال البريد هذه المرة فهذه الطرود وصلت بناء على طلبات الجمعية الإسلامية ، ومكتبة الإخوان ، وسوف ترسل لهم مباشرة دون تأخير .

تحدث الأستاذ الهلالي اليوم حديثا ممتعا عن " الجهاد " كان له اعتراض ما ، أثناء قراءتنا " الجهاد في سبيل الله " قال :

- ها أنتم مثلكم مثل الشيوعيين ، تريدون أن تفرضوا أفكاركم ونظامكم على الآخرين .

فقلت :

- إذا سميت هذا جبرا وفرضا ، فالقرآن يرشد إلى ذلك ، وهناك نص قاطع في هذا الباب في آية سورة التوبة .

فقال :

- يجب تأويل لفظ " صاغرين " .

فقلت :

- ما هي القباحة في هذا ؟ نحن لا نجبر أحدا على الإيمان ، نحن نريد تطبيق قانون العدل الإلهي على أرض الله ، وهذا هو المعنى الأساسي في القرآن الكريم ، وسورة براءة بأكملها تحمل روح هذا المعنى .

قدم الأستاذ هلالي من جانبه دلائله ، وكنت مستعدا لهذا الموضوع استعدادا تاما ولهذا بقيت أقدم له الجواب تلو الجواب ، بطريقة معقولة ، وبأدب واحترام ، ثم صمت ، لكن يبدو أنه سيثير بحث الموضوع في جلسة أخرى ، وإن شاء الله ستتحقق الفائدة من النقاش .

الاثنين ٢٢ رمضان ٦٨ هجرية / ١٨ يوليو ١٩٤٩م

ما هو برنامجنا بعد العيد ؟! انتهت مهمتنا الأولية في بغداد ، وأمكننا في المرحلة الأولى التعريف بالدعوة فقط ، وفي قلوبنا شوق لزيارة دمشق أيضا ، فهي من الناحية الدينية والعلمية والأخلاقية ، ومن جميع الجوانب ، أفضل بالنسبة لنا من بغداد ، وزمان الحج قريب ، ويظل هذا السفر ناقصا غير مكتمل ، لا طعم له ، مالم تؤد مناسك الحج ، وهذه الفكرة تراودني وتختلج في قلبي منذ شهر ، لكن " العين بصيرة ، واليد قصيرة " ونقص الوسائل يقف حائلا دون تحقيق الهدف ، كنت في انتظار رأي المركز (بلاهور) فيما يتعلق بهذه الأمور ، وحمدت الله لأنهم أكدوا على الحج ، وزادوا من همتي لتحقيق هذا الهدف السامي .

قرأت على الأستاذ الهلالي فحوى الخطاب ، ففرح كثيرا وأشار علي بالسفر عن طريق الكويت والرياض ، قائلا بأن هذا السفر سيكون مباركا من الناحية الدينية والعلمية أيضا ، وظل يردد هذه العبارة : " لكن فيه مشكلات وعوائق " - فالطريق الرسمي والقانوني لحج أهل العراق هو دمشق وبيروت ، فالطريق البري مغلق بحكم القانون ، لكنه قال أيضا : لو أضافت القنصلية الباكستانية " الكويت " على جوازكم فسوف يسهل الله بقية الأمور .

في اليوم التالي أخذت رأي الأستاذ طه فياض ، فنصحني هو الآخر بالسفر عن طريق الكويت ، وكان قد حج مرة عبر هذا الطريق ، وهو مستعد لمرافقتنا هذا العام أيضا ، فقلت :

- لو حظينا برفقتك فسوف تسهل جميع الصعاب إن شاء الله .

لم أسعد حتى الآن بزيارة القنصلية الباكستانية ، لكن كيف يمكن أن نطوي هذه المرحلة ، لقد ساعدنا قادري في المرة الأولى ، وحين استفسرت منه عن الأمر أخبرني بأنه لا يمكن بأي شكل من الأشكال الحصول على إذن خاص من الكويت ، وهكذا وجدتني مضطرا ، فعقدت العزم على " زيارة " القنصلية الباكستانية ، وتم تحديد الموعد عن طريق قادري ، وذهبت في الساعة الحادية عشرة إلى القنصلية ، كان القنصل الحالي (القائم بالأعمال) الدكتور محمد صديق رجلا معقولا ، قدمت له ثلاثة كتب من مطبوعاتنا العربية ، كما أعطيته بعض المطبوعات الإنجليزية أيضا ، ودار بيننا الحديث لربع ساعة تقريبا ، كان يعرف العبد الفقير ، ولهذا لم نضطر إلى التعارف من جديد ، وفي النهاية تم حل مشكلة " الكويت " .

قال بصدر رحب : أعطني جوازات السفر ، وسوف أبذل كل جهدي ، سوف أضيف الكويت حتى لو كانت هناك إمكانية بسيطة جدا .

في هذا اللقاء المختصر دار بيننا حديث عن الدين والسياسة ، ولم يكن يفوق الناس العاديين في نقاشه معي عن هذا الموضوع ، وقد اضطر للاعتراف بناء على تأكيدي له أنه لا يوجد تفريق في الإسلام بين الدين والسياسة ، ولكن

يُفهم من كلامه أن تصور الدين في ذهنه هو العبادات ليس إلا . على كل حال كان الرجل بالنسبة لنا غنيمة !

فهو يتكلم العربية جيدا ، تحدث مع العبد الفقير بالأردية ، لكن أهل البلاد هنا يثنون على لغته العربية ، وهذا أمر يدعو للفرح والسرور ، فمعظم ممثلي باكستان لا يعرفون لغة البلاد التي يمثلون فيها بلدهم ، مما يدعو للأسى ، ويعتبر مشكلة كبيرة .

الثلاثاء ٢٣ رمضان ٦٨ هجرية / ١٩ يوليو ١٩٤٩م

وأخيرا وصلني خطاب الوالد ، هذا أول خطاب يصلني منذ أن غادرت كراتشي ، ظللت مشوش الخاطر ، مضطربا ، قلقا ، وشعرت بعد قراءتي للخطاب أن قلقي على حق ، فقد مضى عليه في سرير المرض أكثر من شهرين ، وبعد مرضه الشديد تمكن من كتابة سطرين ، ولم يشأ أن يخبرني بمرضه حتى لا أقلق عليه ، وإلا فليس هناك أمل باق في الحياة ، هذه هي حال الدنيا ، فقد تعرض لمثل هذه الأحوال كثيرا ، ولم يطلعني إلا بعد أن يتعافى مما هو فيه ، وهكذا اتبع دائما هذا الأسلوب خشية منه على صحتي أنا ، لكن الله وحده يعلم قدر معاناتي في تلك الأثناء .

قضيت معظم وقتي بعد عصر اليوم وأنا أفكر في هذا الأمر ، وعلى كل حال، الله وحده هو القادر على قضاء الأمور وهو الخالق ، علام الغيوب ، لا دخل لنا في مشيئته ، ولكن الحمد لله فالنية خالصة والإرادة قوية ، وعالم الغيب يعرف أسرار القلوب ، ومنه نستلهم الصبر والسلوان .

أنجز الدكتور محمد صديق وعده ، وأُضيفت " الكويت " على جوازاتنا ، ولكن يمكن الحصول على إذن دخول من السفارة البريطانية ، التي تعطي إذن دخول الكويت بصعوبة كبيرة ، لكننا وضعنا أملنا في صديقنا طه فياض ، فذهبنا وسلمناه الجوازات في الليل .

حثنا اليوم طرف آخر على السفر لأداء الحج ، كنت قد التقيت عدة مرات بسيد / عبد الحميد الخطيب (الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بباكستان) في كراتشي[٤٣] وجاء ذكر الحج أيضا ، بطريقة عابرة ، وعلمت أنه كتب مذكرة فيما يتعلق بالعبد الفقير ، وأرسلها إلى حكومته ، واليوم فجأة ، وصلنا خطابه دون توقع منا ، أطلعني فيه على أن " حكومته قررت أن تقدم لي كافة التسهيلات في سفري أثناء الحج وحيثما شئت " وعليه يرجوني أن أطلعه على أماكن زياراتي حتى يتمكن بدوره من إطلاع المسئولين .

واعتبرت هذا تأييدا غيبيا ، ففضل الله يأتي من حيث لا يحتسب . .

الأربعاء ٢٤ رمضان هجرية / ٢٠ يوليو ١٩٤٩م

تأثر الأستاذ الهلالي كثيرا ونحن نقرأ " الجهاد في سبيل الله " وأثنى على المضمون وأسلوب البيان ، يقول :

-كيف تسمح الحكومة الهندوكية بمثل هذه الكتب ؟!

- فقلت له :

- هذه هي معجزة هذه الكتب .

- ثم بدأ يقول :

- الآن فهمت لماذا اعتقلت الحكومة الباكستانية المودودي ؟ فهذه الكتب سوف تطيح بأسس الفسق والفجور ، ليت هذه الكتب تصل إلينا هناك (أي في شمال إفريقيا : مراكش والجزائر وغيرها) لكن كيف يمكن أن تسمح السلطة الفرنسية بنشرها ، لكن يمكن إيصال عشرين أو خمس وعشرين نسخة إلى عدة أماكن مشهورة ، ولا تفكروا في التكلفة .

- فقلت :

- ليس المقصود من هذه الكتب الكسب التجاري ، أخبرنا فقط بالوسيلة وسوف تصل النسخ المطلوبة بإذن الله .

وانشرح صدر العبد لله بلقاء اليوم ، ورجعت مسرورا مستبشرا .

ذهبت في المساء إلى قادري ، حيث يتردد عليه الباكستانيون ، فيقوم قادري بالدعوة إلى القاديانية بينهم ، إذ لا يمكن لدعاة القاديانية العمل في العراق بين العراقيين ، فقد انحرف القاديانيون عن أصل العقيدة ، وأساس الدين ، وبدؤوا يؤمنون بنبوة هندية جديدة ، وهنا لا يوجد إلحاد ، ولا توجد دهرية ، لكن هنا فقط غفلة وإهمال ، كما أن تقليد الغرب جعلهم يعشقون الراحة والدعة ، ويميلون إلى الملذات والمسرات ، كما أن المستوى العلمي مستوى عادي ، والحالة العقلية أيضا ليست على مستوى عال ، وربما عمدت قلة من الناس - تعد على الأصابع - إلى اتباع مذهب الإلحاد والمادية .

وما يشاهد بشكل عام هو إهمال العمل ، وعدم التطبيق ، لكن هذا الإهمال أيضا لا يزيد عن الحد ، ما كنت أريد أن أقوله هو أن مبلغي القاديانية لا يمكن أن يجدوا مجالا بين سكان العراق الأصليين ، أما أهالي الهند وباكستان من المسلمين ، فيمكن أن تترك هذه الدعوة أثرها عليهم .

وقع اثنان أو ثلاثة في فخ القاديانية ، وهم من المثقفين العاديين ، ومن ناحية الشخصية والوظيفة من البسطاء العاديين ، وهم أيضا لا يدرون شيئا عن أحوال الزمان ، وعلى عكس هؤلاء فممثل الجماعة الأحمدية اللاهورية " تصدق حسين قادري " رجل ذكي ومهذب ، حاول أحد أصدقائه بالأمس أن يثيرني ، ويتعارك معي ، فاضطرب قادري كثيرا لذلك ، وحاول أن يوقفه ، وكان في يدي نسخة من " الإنصاف " فأخذ هذا الرجل يذم الإنصاف أحيانا ، وأحيانا يذكر فتوى المودودي عن جهاد كشمير ، وأحيانا يذكر سوء العلماء لكني قلت له بوضوح :

- المناظرة ليست من طبعي ، هذه الجريدة لا تعجبك ، فلا تقرأها ، بقيت مسألة جهاد كشمير ، كانت هذه مسألة قديمة ، وقد انتهت بعد أن اتضحت معالمها ، فإذا كنت تجهل ذلك فما هو خطأنا ؟!

أوقفه قادري بشدة ، كان هذا الرجل ابن أخ إقبال شيدائي ، ويعمل موظفا في مصلحة الري العراقية ، ويذكر الناس هنا تحول إقبال شيدائي عن الإسلام ودخوله في القاديانية ، ويبدو من حركات هذا الرجل أن شيدائي بالضرورة على صلة بالقاديانية ، والله أعلم بالصواب .

الخميس ٢٥ رمضان ٦٨ هجرية / ٢١ يوليو ١٩٤٩م

لا بد من الإشارة هنا إلى أن للعبد الفقير اهتمامات بالأمور السياسية منذ الطفولة ، وحين كنت في العاشرة أو الثانية عشرة من عمري ، اعتدت مطالعة الصحف ، لكن لا أدري لماذا سئمت قراءة الصحف هذه الأيام ؟! كنت أشتاق دائما لقراءة صحيفتي " الكوثر " و" تسنيم " ولكني محروم حتى الآن من مجرد مشاهدتهما .

تأتينا جريدة الإنصاف، من إله آباد ، فنتعرف من خلالها على الأحوال الإجمالية للبلاد ، كما أن السفارة الباكستانية تصدر نشرة بالإنجليزية تتضمن أهم الأخبار ، كما تصل الصحف المحلية أيضا إلى أصحاب " السجل " فيرسلون إلينا " ربطة " كاملة من الصحف ، وهكذا يمكن أن نتعرف بنظرة سريعة على معلومات مجملة عن الأحوال في باكستان .

وهناك العديد من الصحف تصل إلى السجل عن طريق التبادل ، ونحن في العادة أول من يلقي النظر عليها ، لكن لا يوجد فيها غير الأخبار المحلية والبرقيات الأجنبية ، وأهم موضوع في الصحف هذه الأيام هو الحالة الاقتصادية في العراق ، فكل شخص يشكو البطالة ، والأسواق تشهد كسادا ، والقوة الشرائية في انخفاض مستمر ، وفواتير موظفي الحكومة الواجبة الدفع لدى المحلات التجارية تتزايد ، وإيجارات المساكن في ارتفاع دائم ، ولم يعد الأجر العادي يكفي أصحابه ، والإنتاج القومي يضيع في ترتيب الزينات والحفلات ، ولا يوجد لدى الحكومة خطة للتصنيع .

أما فيما يتعلق بالأمور السياسية فقد سيطرت قضية فلسطين سيطرة كاملة على كل شيء ، حتى إنه لم يعد لدى الصحف من شيء تنشره سوى البكاء والعويل ، وجامعة الدول العربية تفككت ، نظرا لوجود الخلافات بين العرب ، واليمن لا مكان لها والسلطان ابن سعود يعلن عن تعاطفه مع الفلسطينين ، وعبدالله ، الإنجليزي الهاشمي ، كما تقول صحف الجزائر مسيطر على شرق الأردن ، والعراق أيضا يمضي على خطاه ، بقيت مصر وسوريا ، مع أن مصر لم تجد فرصة لسحق الإسلام ، وإيذاء الجماعات الداعية إلى الإسلام ، لكن نظرا لسياستها الضعيفة فقد انتهت عمليا مكانة مصر والسودان ، والخطر الآن محدق من الجهات الأربع ، فالإنجليز في السودان ، والصهاينة استوطنوا في فلسطين ، وإدريس السنوسي يرأس برقة في ظل الإنجليز ، ولو خضعت طرابلس لإيطاليا ، وسيطرت فرنسا على فزان ، فإن الخطر سيحدق بمصر من الجهات الأربع ، وفي الحرب القادمة ستصبح جميع سبل النقل والحركة ميسرة أمام الإنجليز .

كان من المتوقع أثناء الحرب أن تكون ليبيا (طرابلس) الآن حرة ، هكذا وعد الإنجليز ، وعلى هذا الأساس قام محمد إدريس السنوسي (وهو ابن عم المجاهد السنوسي) بمساعدة الإنجليز ، وكان له ولمؤيديه دخل في هزيمة روميل ، لكن يبدو أن من يقولون بتقسيم طرابلس الغرب كانوا قد اتفقوا ، ولم يمكن الموافقة على اقتراحهم في مجلس الأمم المتحدة على الفور ، لكن القياس يؤكد على أن الأمير محمد بن إدريس السنوسي سوف يعين حاكما على برقة ، وأن فزان ستصبح تحت السيطرة الفرنسية ، وأن السيطرة الإيطالية الظالمة

ستعود على طرابلس نفسها ، هكذا تبدو اتجاهات الريح ، ويؤيد هذا الأمر أيضا زيارة الأمير السنوسي للندن ، وللأسف لم يؤكد محمد بن إدريس السنوسي على وحدة طرابلس الغرب ، ونظام الاتحاد الخاص بالمحافظات الثلاث ، ورضي قانعا بحكم أعرج ، وإلا لما صار الحال كما هو عليه الآن .

الجمعة ٢٦ رمضان ٦٨ هجرية / ٢٢ يوليو ١٩٤٩م

تلقيت في المساء العدد الجديد من مجلة " لسان الدين " التي كانت تصدر تحت إدارة الأستاذ الهلالي في تطوان ، ويديرها الآن العالم الأديب المراكشي المشهور عبد الله كنون ، وحين فتحت المجلة وقع نظري على هذا العنوان : " دعوة من الهند " وعرفت أن المحرر المحترم علق تعليقا طيبا على مطبوعاتنا الثلاث ، الحمد لله ، لقد أدرك فحوى دعوتنا ومفهومها ببصيرته النافذة وذكائه، من أول وهلة ، فأيد دعوتنا بحب خالص ، وثقة مؤكدة ، ونشرت مجلة لسان الدين أيضا بعض الصفحات من منهاج الانقلاب الإسلامي ، كمثال لما أورده المحرر ، وأثنى على المضمون كثيرا ، ورأى أنه لا يوجد قبل المودودي من تناول هذا الموضوع بالتأليف والكتابة .

وكان رأيه عن اللغة والأسلوب مشجعا أيضا ، ونقد وجود أخطاء كثيرة في الرسالة الأولى ، وكان نقده بشفقة ومحبة ، والواقع أننا لم نكن مطمئنين للمطبوعة الخاصة بالنظرية السياسية ، وحمدت الله وشكرته ألف شكر بعد أن قرأت رأي محرر صحيفة " لسان الدين " .

في الدنيا نظريات مختلفة للسرور والفرح ، وسرورنا هنا وفرحنا مرده إلى أن العبد الفقير ، كاتب هذه السطـور ، قد وفق في الدعوة إلى الله ، ومضى على الطريق الصحيح .

كان للعرض الذي نشرته " لسان الدين " ولتعليق محررها أثره الكبير على الأستاذ الهلالي ، فظل يتحدث طوال اليوم عن هذا الموضوع ، وطبقا لرأيه يمكن أن تؤسس فروع للجماعة الإسلامية في البلاد العربية يقول :

- لا يوجد لدعوة الإخوان المسلمين هدف معين ، ولا يمكن لأي حركة أن تؤسس فقط على العواطف ، وهؤلاء لديهم حلقة وجماعة لهذا نعمل معهم أيضا لكن عامة أعضائها لا يعرفون لهم هدفا معينا .

- كان متأثرا كثيرا اليوم ، وظل يردد اسم الجماعة الإسلامية ودعوتها . . وقال :

- سوف أذهب إلى باكستان إذا وجدت فرصة ، أو على الأقل أنوي قضاء عطلة الصيف في باكستان العام القادم ، وسوف أشاهد جماعتكم عن قرب ، وإذا لاحظت أنهم هناك لا يعتمدون على القول فقط بل العمل أيضا ، فإن هذه الجماعة سوف تكون حاملة لراية الإسلام الصحيح ، عندئذ سوف نضع سفينتنا معكم في لجة البحر مهما كانت المخاطر .

طالت صحبتنا مع الأحاديث المفعمة بالعواطف المملوءة بالتأثر ، وودعناه في التاسعة ليلا بعد أن صلينا العشاء .

عقدت جلسة بحديقة قاعة الملك فيصل الثاني ، بمناسبة ذكرى ليلة القدر ، وكانت كبقية الجلسات التي عقدت بمناسبة ليلة الإسراء والمعراج ، وبمناسبة غزوة بدر : الزينات نفسها ، وحسن التنظيم ، والازدحام ، إلا أن الجلسة كانت خالية من الروح ، فهؤلاء الناس يسمون هذه الزينات والمهرجانات دينا .

لاحظت في هذه الجلسات ، وخطبائها ، وشعرائها أمرا خاصا ، فإذا ما خاض بعضهم في موضوع ما ، راح يذرف الدمع على فلسطين ، فما فائدة الرثاء إذا كانت الهزيمة قد حدثت على أرض الواقع ، لقد تحول الأمر إلى " مودة " ثمانمائة ألف عربي انهزموا ، وتفرقوا هنا وهناك ، وسبع حكومات عربية اتحدت معا ، ولم تستطع أن تعيد تنظيمهم ، فماذا يمكن أن نتوقع منها بعد ذلك؟!

الأحد ٢٧ رمضان ٦٨ هجرية / ٢٣ يوليو ١٩٤٩م

أصابني التعب طوال يوم أمس ، وشعرت بالإرهاق ، ظهر بعض الاضطراب في انتظام النبض ، لكن ليس بدرجة خطيرة ، كما عانيت قليلا من جراء الإمساك الذي أصابني ، تمضي سفينة رحلتنا حتى الآن بخير والحمد لله ، بيده الأمر ، قادر على أن يوفقنا في المستقبل .

وعدنا الحاج طه فياض بزيارة السفارة البريطانية في الساعة التاسعة من صباح اليوم ، فوصلنا إلى مكتبه في الموعد المحدد ، ولكن لم نعثر له على أثر ، وبعد أن أصابني التعب ، رجعنا من حيث أتينا ، وفي الساعة الحادية عشرة أخبرنا مساعده سيد شاكر بحضوره ، فذهبنا إليه من جديد ، وحين وصلنا ،

وجدناه قد غير رأيه ، وراح يتذرع بأسباب مختلفة ، ثم قال مرة بعد مرة مؤكدا ما يقول : أنا لا يمكن أن أذهب ، هل هناك من شكوى؟!

لقد جلسنا معتمدين عليه لأربعة أو خمسة أيام ، لكن ماذا كان يمكن أن نفعل ؟ مكره أخاك لا بطل . . . في شمس الظهيرة المحرقة اتجهنا إلى السفارة البريطانية ، كان المسئول هناك هو المستر روز ، إنجليزي هندي ، تحدث معنا بطريقة معقولة فقال :

- هاتوا أولا تأشيرة المملكة العربية السعودية وبعدها يمكن أن تطلبوا إذن المرور ، لا ندري أين تقصدون أصلا ، فكيف نعطيكم إذن مرور ؟!

كان الكلام معقولا ، فعدنا إلى طه فياض ، وحددنا موعدا بالهاتف للقاء السفير السعودي ، وتقرر الذهاب للقائه في الساعة الثامنة بعد المغرب ، وعقدت العزم على الذهاب للقائه وحدي ، لكن طه فياض وعد بمرافقتي ، فلم أجد هناك سببا للرفض ، فأفضاله علينا كثيرة ، فلولا مساعدته لنا في بغداد ، لكانت إقامتنا هنا من الصعوبة بمكان ، وكان ما صدر عنه من جفاء وخشونة اليوم أمرا عارضا ، ويبدو أن قبولنا لهذا الأمر كان طيبا .

حضرنا ليلا إلى الخيال (الوزير السعودي المفوض) كان يجلس وحده في ساحة السفارة الواسعة ، فقدمت له خطاب السيد / عبد الحميد الخطيب ، فتأثر كثيرا ، وقد وجدتها فرصة لأوضح له أنه كتب هذا الخطاب دون أن أطلب منه ذلك ، كان الرجل على خلق حسن ، وعادة لا يُسمح بإعطاء تأشيرة حج للمسافرين عن طريق الكويت ، حاول أن يبقينا وقتا أطول معه ، لكن إصرارنا

على الذهاب لم يترك له فرصة ، فوافق وقدم لنا دعوة للقائه صباحا (شريطة ألا يكون غدا هو يوم العيد) وعند الوداع قدمنا له آخر ثلاث مطبوعات من كتبنا .

يعلم الله هل يقرأ هؤلاء الناس الكتب أم لا ؟ عقدت العزم على أن أستفسر عن ذلك غدا ، وكنت قد رأيت على الطاولة ثلاث مجلات مصرية ، من المجلات المصورة ، وعلمت من بعض الأصدقاء أنه يميل إلى قراءة مثل هذه المجلات .

الثلاثاء ٣٠ رمضان ٦٨ هجرية / ٢٦ يوليو ١٩٤٩م

وصلنا إلى السفارة في الساعة التاسعة صباحا ، أرسلت بطاقتي ، في بهو السفارة رحب بي السكرتير الأول ، كما رحب بي الخيال أيضا ترحيبا غير عادي، وعاملني بكل احترام ، معبرا عن حسن أخلاقه ، أخذ السكرتير الجوازات بينما كنا نتحدث مع سعادة الوزير المبجل ، تحدثت معه بصراحة وبوضوح تام ، وحين تطرقنا إلى الحديث عن الدعوة السلفية التي ظهرت في نجد قلت له :

– إن عزة أهل نجد وقوتهم كانت بسبب هذه الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وحين استفسرت منه عن كتبنا ، علمت أنه قرأ فقط الكتاب الأول " نظرية الإسلام السياسية " فلم أسأله قصداً عن رأيه ، لأن الكتاب فيه قضايا شائكة .

حصلنا على تأشيرة مرور من السفارة البريطانية بسهولة أيضا ، وأُعطينا مهلة أسبوع داخل الكويت ، والحقيقة لم نكن بحاجة للإقامة بالكويت أكثر من يومين أو ثلاثة .

غدا آخر أيام رمضان المبارك ، والبيع والشراء في الأسواق على أشدهما ، وتمثل النساء بالطبع الأغلبية العظمى في الأسواق ، والمطاعم مغلقة في رمضان بحكم القانون ، ولكن عمليا لا يوجد فرق بين شهر رمضان وغيره من شهور السنة ، فتناول المشروبات وتدخين السجائر منتشر بشكل عام في الشوارع .

الأربعاء أول شوال ٦٨ هجرية / ٢٧ يوليو ١٩٤٩م

اليوم عيد ، وعيد الغريب ليس بالشيء الجديد على عبد الله الفقير ، فلم يعد في ذهني أي تصور للعيد في بيتي ، فقد تركت قريتي ، وأنا شاب صغير في العاشرة ، ويوما بعد يوم أخذت أبتعد عن وطني الذي ألفته ، ولهذا فالعيد في الغربة ليس عليّ بجديد .

كان القرآن الكريم يُتلى طوال شهر رمضان المبارك ، واستمر هذا الحال أيضا طوال ليلة العيد ، فالناس هنا قلّ أن يناموا ليلة العيد ، وصلاة العيد بعد شروق الشمس بعشرين دقيقة أو أكثر قليلا ، ولا يمكن أن تجد مكانا بعد صلاة الفجر في المساجد الكبيرة ، ولهذا أسرعنا مبكرين ، وكان عاصم قد استيقظ في الثلث الأخير من الليل ، وخرجنا من البيت في الساعة الخامسة صباحا قبل طلوع الشمس ، فوصلنا إلى جامع المرادية ، فوجدناه قد امتلأ بالناس ، ووجدنا القارئ يرتل آيات الذكر الحكيم ، وهو يرتل القرآن الكريم ، في العادة لمدة ساعة قبل صلاة الجمعة وقبل صلاة العيدين ، وبدأت الصلاة في الساعة الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة ، وهذا كرم من هيئة الأوقاف فقد حددت وقت الصلاة في جميع مساجد بغداد ، وكل صلاة تؤدى في أول وقتها ، والعجيب أن

أهل السنة في العراق من الأحناف ، بل هم من أصحاب البدع ، لكنهم فيما يتعلق بأوقات الصلاة مثل أهل الحديث بل هم أكثر تمسكا من أهل الحديث ، وصلاة الجمعة تبدأ في الساعة الثانية عشرة (أي بعد الزوال فورا) وهذا هو الحال بالنسبة لصلاة العيد أيضا .

حين خرجنا من البيت مبكرين وجدنا الشوارع خالية تماما ، واعتقدنا أن أهل بغداد لا يزالون يغطون في نومهم ، وأننا وصلنا مبكرين إلى المسجد ، لكن الحقيقة أن جميع أهل المدينة كانوا قد تجمعوا في مساجد المدينة المختلفة ، والمساجد هنا كثيرة ، ومن يصلون العيد أكثر ، والصلاة لا تقام هنا في الميادين والساحات ، فقد تركوا هذه السنة تماما ، ورغم أن الصلاة بدأت في الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة بالضبط إلا أن الإمام الأستاذ كمال الدين الطائي لم يلتزم بكيفية الصلاة وآدابها . . .

دخل المسجد بكامل أبهته ووقاره ، في الوقت المحدد تماما ، واتجه مباشرة إلى المصلى ، فارتفع صوت المؤذن : الصلاة جامعة ، وبدأت الصلاة ، شعرت وأنا أتطلع يمينا وشمالا وخلفي وأمامي ، أن أحدا هنا لا يعرف كيفية صلاة العيد . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . ووجدت الحال هنا أسوأ مما هو عليه في جالندهر وروالبندي ، فليرحمنا الله .

كانت الخطبة جيدة ومختصرة ، كانت خالية مما اعتدنا عليه من أساليب الخطابة ، وخلافا لما تعودنا غلب على لهجة الطائي اليوم اللحن والتأثر .

لا تروج هنا عادة العناق بين المصليين بعد أداء الصلاة ، فقط المصافحة ، ويبارك المصلي لجاره بالعيد ، ويقول عامة الناس هنا : " أيامكم سعيدة إن

شاء الله " ولا أذكر هنا أهل العلم والأدب ، والبعض يدعو أيضا بأن يتقبل الله صيام شهر رمضان : " تقبل الله منكم الطاعات " ولا تنتشر هنا عادة تقبيل يد خطيب المسجد ، وقد رأيت فقط عدة مصليين من خواص المعتقدين وهم يقبلون يد الإمام .

و " التزاور " مسنون في العيد ، لكننا محرومون من هذه النعمة منذ مدة طويلة ، كما أن أهل جالندهر لم يعتادوا عليه أيضا ، كما أن دائرة جماعتنا في روالبندي محدودة أيضا .

تعرفنا هنا على عدد كبير من الناس ، لكن المظاهر هنا تحتاج إلى وسائل إظهار العظمة ، ولم أكن على استعداد أبدا ، وهذا في طبيعتي ، أن يكون التزاور من جانب واحد فقط ، فأنا أقبل زيارة أهل العلم والفضل والمبلغين مائة مرة ، للاستفادة منهم ، لكن الحضور على أبواب أهل الجاه أمر يفوق طاقتي ، ولهذا كان برنامجنا مختصرا للغاية، الأقرب فالأقرب، جلسنا قليلا عند الطائي، وهم هنا يقدمون " الشيكولاته " ثم القهوة ، وبعض المشروبات طبقا لحالة الجو ، إلا أن الطائي ملتزم بالشاي الذي يقدمه يوميا لضيوفه .

بعدها دقننا باب الصواف ، فخرج لنا فيصل ، ولم يكن الصواف قد رجع من المسجد حتى ذلك الوقت ، جلسنا دقائق قليلة ، واعتذرنا مستأذنين ، وركبنا الحافلة إلى منزل الشيخ أمجد الزهاوي ، الذي رحب بنا بحرارة وقابلنا بشفقة وعطف ، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الأستاذ المحترم العلامة الهلالي ، فقضينا عنده اليوم بأكمله ، وظل سيل الشباب الجارف الصاخب ،يتدفق على

الأعظمية حتى الساعة العاشرة ، انتقلنا بعد ذلك لزيارة الشيخ الزهاوي مرة أخرى ، فوجدنا هناك طلبة الريف والجزائر ، وكانت الجلسة الثانية مع الشيخ الزهاوي مؤثرة للغاية ، كما ذكرت كان الطلبة المغاربة يدرسون في الكلية العسكرية على نفقة الحكومة العراقية ، وكان هؤلاء قد أُرسلوا من قبل الأمير محمد بن عبد الكريم ، طلب أحدهم من الشيخ الزهاوي برقة بالغة أن يدعو له وقال : لقد عاهدنا الله على أن نفدي الوطن بأرواحنا حتى الموت ، فقاطعه الزهاوي وأخذ يشرح لهم بكلمات مؤثرة وجهة نظره :

- لا تذكروا الوطن ، عاهدوا الله على أن تجاهدوا وتستشهدوا في سبيل الله ، إن الوطن صار سببا لمصائب الإسلام والمسلمين [٤٤]

شعر الشباب بالخطأ ، فقد كان في ذهنهم فقط العاطفة الوطنية ، وهي عاطفة مضللة ، وقد جاءت كلمة الوطن على ألسنتهم ، تقليدا للتعبيرات التي راجت بين الناس آنذاك . وقبيل الظهر جاء ت جماعة من الناس مع الصواف ، كان من بينهم أحد العلماء يدعى جلال حنفي ، ظل يتباحث مع الأستاذ الهلالي لفترة طويلة عن موضوع القراءات السبع ، ولم يكن من المناسب إثارة مثل هذه المباحث الطويلة في يوم العيد ، وظل الناس يتدفقون ، وظل الحديث لم يكتمل بعد !

استمر قدوم الناس المتواصل حتى بعد العصر أيضا ، وتنوعت الأحاديث فيما بينهم ، عن موضوعات متفرقة ، ورجعنا إلى مسكننا بعد المغرب .

رأيت شيئا مميزا ليوم العيد في هذه المدينة ، وهو خروج الأطفال من البنين والبنات من بيوتهم ، في ملابس جيدة مفرحة ، يركبون الناقلات ، يغنون

ويصفقون في فرح وسعادة ، كان ذلك منظرا بديعا جذابا ، شاهدت ما يقرب من خمسين أو ستين طفلا يغنون معا ويدقون الطبول ، يمرون عبر الشوارع ، وإذا كان هناك من جديد شاهدته في بغداد ، فقد كان هذا المنظر الجذاب الممتع .

الخميس ٢ شوال ٦٨ هجرية ٢٨ يوليو ١٩٤٩م

يحتفل بالعيد هنا لمدة ثلاثة أيام ، فتظل الصحف متوقفة طوال هذه المدة أيضا ، ولهذا كانت المطبعة الكائنة في مسكننا مغلقة أيضا ، لكن أيامنا لم تمر دون فائدة ، فقد غرق عاصم في تبييض الترجمة العربية لكتاب نظام الحياة ، فلم يعد أمامنا من وقت إلا القليل ، وننوي السفر في عشرين من شوال ، كما لدينا نية للذهاب إلى الموصل حيث سنقيم هناك أسبوعا ، وعلينا أن ننتهي من تبييض " نظام الحياة " و " الجهاد في سبيل الله " بالإضافة إلى أعمالنا الأخرى .

ظل العبد الفقير يكتب يومياته لفترة ، بعدها انشغلت بتلاوة آيات الذكر الحكيم ، الحمد لله إنني مواظب على ما اعتدت عليه ، ولم يطرأ أي تغيير على برنامجي ، رغم هذا السفر .

زارنا قادري مع عدد من الباكستانيين مساء أمس ، صحبهم لتهنئتنا بالعيد ، ولم نكن بالبيت فأعطانا موظف المطبعة بطاقاتهم ، فذهبت إلى محل قادري ، والتقيت هناك ببعض الباكستانيين ، وهم جميعا ما بين تاجر وموظف حكومي ، ومعلوماتهم الدينية تحت خط الصفر ، لكن حب باكستان متعمق في قلوبهم جميعا ، قال حافظ شريف حسين (وهو رئيس رابطة الهنود سابقا وأكبر تاجر

باكستاني في العراق ، كما يمتلك تجارة كبيرة في كراتشي أيضا) وهو يقدمني لأحد الحاضرين :

- إنه لم يضع وقته هباء هنا ، قام بخدمة باكستان ، وكتب ثماني أو تسع مقالات .

فقد تخيل أن عملنا هو نشر بعض المقالات في الصحف والمجلات ، عن قضية كشمير وبعض القضايا الأخرى . . ماذا عسانا نقول له ، إن لم يقل له الآخرون ! !

ومن المؤسف حقا أن يكون العقلاء ، المتحمسون ، الفاهمون من الهند وباكستان ، من المنتمين إلى الجماعة القاديانية ، وأن ينشغل هؤلاء بحماس شديد في " عملهم " أي " الدعوة إلى القاديانية " أما البقية الباقية فهم لا يصرون ، وهناك ضرورة ملحة لاطلاع مثل هؤلاء الهنود على الدين ، فمساعي وجهود كاتب هذه السطور تتركز فقط بين المتحدثين بالعربية ، بل بين طبقة محدودة منهم ، وعاصم - من الناحية المزاجية - يميل أساسا ليكون طالب علم فقط ، فهو يعمل جيدا ، ويؤدي عمله على ما يرام ، طبقا للإرشادات المقدمة إليه من حيث كونه مساعدا معينا ، لكنه يفتقد إلى عاطفة التبليغ أو إلى حماس العمل ذاته .

ذهبنا في المساء كالعادة إلى الأستاذ الهلالي ، بقينا معه حتى الساعة التاسعة ، وفي تلك الفترة وفد عليه عدد من الناس للتهنئة بالعيد ، كانوا في معظمهم من أولئك الناس الذين تأثروا بدروسه التي كان يلقيها في شهر رمضان

المبارك ، وكان لدى بعضهم حماس شديد ، وقد رأى الأستاذ الهلالي النجاح الكبير لدروسه تلك ، والشوق العارم لدى الناس ، فقرر أن يستمر في إلقاء الدروس بعد رمضان أيضا .

ازدانت الأسواق اليوم أكثر من أمس ، وكانت النساء يتجولن مع أطفالهن في الشوارع ، وغالبا ما يحتفل الشيعة بالعيد اليوم ، وهم أكثرية بين مناطق العراق الناطقة بالعربية ، كما أنهم أكثر حيوية ونشاطا ، وقد شاهدت اليوم هذه الجماعات ، فتذكرت مدينة لكهنو ، يا إلهي كيف يكون حالها اليوم ؟! فالمنظر الذي شاهدته في العيد منذ خمس عشرة سنة للجماعات التي تمضي في الشوارع ببلاهة ودون تفكير ، رأيت منه اليوم لمحة في شوارع بغداد !

الجمعة ٣ شوال ٦٨ هجرية / ٢٩ يوليو ١٩٤٩م

كتب السيد / عبد الحميد الخطيب (الوزير المفوض للحكومة السعودية في باكستان) من باكستان عددا من خطابات التعارف والتوصية ، وإن شاء الله ستساعدنا هذه الخطابات في التعرف على الناس ، وعقد لقاءات معهم في الرياض ومكة المكرمة .

جلست عند الأستاذ الهلالي فترة طويلة ، وجاء أيضا محمد كمال الدين الخطيب ، وتحول الحديث بالصدفة إلى مهنة المحاماة ، فمحمد الخطيب يمتهن المحاماة ، ويفخر كثيرا بأنه محام ويقول بل يردد : قضيت في مهنة المحاماة خمس عشرة سنة ، فكانت فرصة مناسبة ، لنعبر عن آرائنا فيما يتعلق بالمحاماة ، والمحاكم غير الإسلامية ، وانبرى محمد الخطيب - كمحام قدير - يدافع ، لكن إذا كان الأساس ضعيفا ، فإلى أي مدى يمكن الدفاع ؟!

واستمر الجدل طويلا ، وزادت حدته أيضا ، وفي النهاية قلت له : ليس الهدف هنا المناظرة ، فالأمر لدينا يتعلق بقضية أصولية ، ومحمد الخطيب جعل المسألة مسألة شخصية ، لهذا من الأفضل تغيير موضوع الحديث .

واليوم يدخل عاصم في النقاش لأول مرة ، ويشترك معنا في الجدال ، ما شاء الله . . لقد انحلت عقدة لسانه ، فالسماع له تأثير كبير على اللغة .

السبت ٤ شوال ٦٨ هجرية / ٣٠ يوليو ١٩٤٩م

كنا على موعد مع طه فياض للذهاب إلى مدير " شرطة الإقامة " لتمديد فترة إقامتنا ، وعرفنا في الوقت المناسب أنه مشغول ، حسنا . . ليكن ذلك في الغد ، فمدير شرطة الإقامة صديقه ، ونظرا لعلاقته الحميمة معه ، فقد حصلنا على إذن بالإقامة لثلاثة أشهر ، وذلك على تصريح المرور ، وتنتهي هذه المدة يوم ١٥ أغسطس ، ولن نقيم أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ، ولكن نحتاج إلى تمديدها بطريقة رسمية .

في المساء ذهبنا إلى " الزوية " للقاء الأديب والشاعر المشهور محمد رضا الشبيبي (وزير التعليم الأسبق) ولا تقل المسافة بيننا وبين الزوية عن ستة أميال ، كان هذا هو اللقاء الثاني ، استقبلنا كالعادة بصدر رحب وكرم ، وحسن خلق ، ودار الحديث عن مؤلفات ابن الفوطي المؤرخ المشهور ، وكان البروفسر محمد شفيع (لاهور) قد نشر عدة أبواب من كتاب لابن الفوطي في مجلة الكلية الشرقية بلاهور [٤٥] .

قرأ مطبوعاتنا الثلاث التي قدمناها له قبلا ، وامتدحها كثير ، فأعطيناه المطبوعات الثلاث الأخيرة ، وطلبنا منه رأيه كتابة .

التقينا عنده أيضا بأديب وشاعر شيعي معمر ، فكان ذلك بالنسبة لنا غنيمة ، وإلا فليس من السهل لقاء السادة الآخرين من هذه الطبقة !! ولهذا لم نرغب في هذا من جانبنا ، ولم يعاوننا الأستاذ الهلالي على ذلك أيضا .

الأحد ٥ شوال ٦٨ هجرية / ٣١ يوليو ١٩٤٩م

تنتهي مدة إقامتنا في ٥ أغسطس ، ولا يمكن أن نغادر العراق قبل ٢٠ أغسطس (٢٥ شوال) ولهذا كان من الضروري تمديد فترة الإقامة ، ومن حسن الحظ أن مدير شرطة الإقامة صديق لطه فياض ، وممن يلتقون عادة بالأستاذ الهلالي ، ولهذا فلن تكون هناك مشكلة بإذن الله .

كان طه فياض قد وعد بمرافقتنا ، لكنه مشغول جدا هذه الأيام ، ولهذا لم يفكر في " الوفاء بالعهد " ونقطة الضعف هذه موجودة بين أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة .

دار الحديث مساء اليوم لفترة طويلة مع الصواف ، وسررنا بعد أن ذكر لنا أنه رغم الديكتاتورية في سوريا ، لا يوجد تشديد على "الإخوان " بل من الممكن أن تستفيد الحكومة أيضا من خدمات بعض الأعضاء !

الاثنين ٦ شوال ٦٨ هجرية / أول أغسطس ١٩٤٩م

انتهى موضوع تمديد فترة الإقامة بسهولة كبيرة والحمد لله ، استقبلنا مدير شرطة الإقامة ومعاونوه باحترام شديد ، وخلق طيب ، ولم يعد أمامنا سوى

الحصول على " تصريح الخروج " وهو ما يمكن الحصول عليه في البصرة أيضا ، ولا توجد مشكلة في هذا الأمر بالنسبة للسائحين ، إلا أن هناك تشديدا بالنسبة للتجار ، الذين لا يتورعون عن استخدام الحيلة والتحايل .

في الطريق عرجنا على محل قادري لدقيقتين ، فأراني بعض كتب المودودي وقال :

- صديق أهداها لي ، يمكنكم أن تأخذوا كتبكم .

وعرفنا أن عبد الرؤوف خان السكرتير الثالث في السفارة الباكستانية أعطاه هذه الكتب ، ويريد أن يلتقي بي ، وكنت قد رأيته في غرفة الدكتور صديق (القنصل) إلا أننا لم نتمكن من التحدث معا آنذاك .

في طريق العودة حاولت الاتصال به هاتفيا ، فعرفت أنه خارج السفارة ، ثم ذهبت في المساء مع عاصم للقائه ، وحددنا موعدا للقاء يوم الثلاثاء الساعة الثامنة صباحا .

الثلاثاء ٧ شوال ٦٨ هجرية / ٢ أغسطس ١٩٤٩م

في الصباح تبادلنا الحديث مع عبد الرؤوف خان (السكرتير الثالث) في مبنى القنصلية الباكستانية لمدة ساعة تقريبا ، شاب طيب فاهم وعاقل ، قرأ كتب المودودي ، وتأثر بها ، لكنه متأثر بأفكار عامة الباكستانيين ودعاياتهم ، ودار الحديث بمنتهى الوضوح والصدق والود ، وكان أول سؤال طرحه هو :

- هل تنتمي إلى الجماعة الإسلامية ؟

فقلت :

– نعم أنا عضو في مجلس شورى الجماعة الإسلامية ، وأنا شريك فيها منذ البداية .

وعندئذ بدأ يذكر الاعتراضات الرائجة ضد الجماعة ، قائلا :

– إنكم بدأتم تطالبون بتطبيق النظام الإسلامي في وقت غير مناسب ، ليس من الواجب الإساءة إلى الوزراء والمسئولين ، فإذا كان بعض الأفراد يتصفون بالسوء ، فلا يجب أن يكون لذلك تأثيره على الحكومة ، إنكم تريدون تطبيق النظام الإسلامي عن طريق هؤلاء المسئولين (في الحكومة) ولهذا يجب أن تكون بينكم وبينهم علاقة مستمرة .

أوضحت له صراحة وتفصيلا موقفي ، وأسلوب عمل الجماعة ، وفي النهاية قال بلطف :

– إن لقاء واحدا لا يكفي ، يجب أن نلتقي على الأقل مرة أخرى قبل السفر .

فقلت له :

– على العين والرأس ، فليس لدينا عمل غير هذا .

وفي الظهر جاء إلينا الأستاذ محمد محمود الصواف ، فتجاذبنا أطراف الحديث لنصف ساعة ، فهو رغم صعوبة الظروف يقوم بنشاط ملحوظ ، وقد ربطتنا الآن برفاقه المقربين علاقات وثيقة ، وكنت أطالع باهتمام شديد ما ينشر

في الصحف المحلية عن الهند وباكستان ، وفي المساء - كالعادة - كانت جلستنا عند الأستاذ الهلالي ، نقرأ عليه هذه الأيام " شهادة الحق " وقد تأثر كثيرا بمضمونها ، ويقول دائما لزواره :

- هكذا تكون الجماعة ، لديها برنامج لنظام الحياة الشامل ، فالجماعة - قبل الحكومة - تقوم باتباع الطريقة الإسلامية الصحيحة ، في نظامها الداخلي .

وقد سمع الأستاذ الهلالي منا حتى الآن ترجمة " نظام الحياة " و " الجهاد في سبيل الله " و " النظرية السياسية " وسوف ننتهي من قراءة شهادة الحق خلال يومين أو ثلاثة أيام ، فنحن نقرأ بسرعة ، ولكن يتخلل ذلك ما يلقيه علينا الأستاذ من خطب قصيرة أو شروح طويلة .

وأثناء قراءتنا لشهادة الحق اليوم فرح الأستاذ كثيرا وقال :

- اعملوا شيئا ، أرسلوا بالبريد المسجل نسخة من هذه المطبوعات إلى القصيمي الخبيث ، ومعه خطاب . . يجب أن تكتبوا فيه العبارات التالية :

إنك تعتبر الإسلام نظاما مهملا ، لا يمكن تطبيقه في العصر الحاضر ، ونحن بفضل الله نعتبر الإسلام هو الحل الأمثل لجميع مشكلات العصر ، وهذا الكتيب دليل على ما نقول ، وهو رد مسكت على كتابك " هذي هي الأغلال " اقرأ هذه الكتب واكتب لنا رأيك ، فإن وافقت على محتواها ، فنور على نور ، وإلا فقدم الدلائل على رفضك لها ، إن إلحادك قائم على الهوى فقط ، أم هناك لديك غير هذا الرأي ، نرجو أن توضح لنا هذا الأمر "

فقلت للأستاذ : إن شاء الله ، سوف نستفسر عن العنوان ، ونقوم بهذه المهمة ، ويمكن أن نعرف عنوان القصيمي في مكة المكرمة .

الأربعاء ٨ شوال ٦٨ هجرية / ٣ أغسطس ١٩٤٩م

تحدثنا اليوم مع الأستاذ الهلالي بعد المغرب عن المسائل الفرعية وأهميتها، وكان يتوقع منا أن نتشاجر، ونتعارك على المسائل الصغيرة، مثلما يفعل أهل الحديث، وكان يبذل جهده في بيان موقفه بقوة وشدة، بينما عرضت عليه وجهة نظري في أدب شديد، وبينت له مسلكي بوضوح، فنحن لا يمكن أن نجعل من المسائل الفرعية " أساسا " للدعوة، وأوضحنا مساوئ الدخول في المسائل الفرعية على العمل الدعوي، وسكت الرجل، لكنه لم يكن على استعداد للتسليم بكلامي، ومن ناحية خطط للهجوم عليه مرة أخرى .

الخميس ٩ شوال ٦٨ هجرية / ٤ أغسطس ١٩٤٩ م

لا تزال الحالة السياسة في العراق تدعو للارتياب حتى الآن، انتهى ميعاد المعاهدة القديمة مع بريطانيا، وكانت وزارة صالح جبر (وهو شيعي متعصب) قد عقدت منذ سنتين معاهدة، عارضها أهالي العراق، وظلت السيطرة الإنجليزية قائمة كما هي، كما أن معسكراتهم موجودة، والملك يتلقى تعليمه في لندن، والوصي على العرش الأمير عبد الله (الذي يميل الآن إلى أن يسمى باسم الملك عبد الله) صار مخجلة العالم كله بسبب ما يطلق عليه الآن ((الأنجلو هاشمي . . .)) وهو يقضي عدة أيام ضيفا في لندن، وقد وصل رئيس الوزراء نوري السعيد أيضا إلى لندن، وعلينا أن ننتظر ونرى ما سيكون . . فالأحوال الاقتصادية للبلاد في تدهور مستمر .

ستتحرك بعد غد إلى الموصل، وتقع الموصل على حدود العراق الشمالية بينما تقع البصرة في جنوب شرق العراق، وتقع بغداد وسط العراق، وتمتاز

الموصل عن بقية مناطق العراق بما حولها من مناطق ريفية ، ومن الناحية الأخلاقية ، فأهلها أفضل عامة أهل العراق ، وأفضل من أهل الهند وباكستان ، والمراد من الأخلاق هنا التواضع والكرم والترحيب بالضيف ، وليس المقصود به الأخلاق الحسنة ، وعلى كل فهم يستقبلون الأغراب عامة بحسن خلق ، فإذا ما سألهم عابر سبيل عن شيء ، بذلوا كل جهدهم لإيصاله إلى هدفه المقصود ، ولكن فيما يتعلق بالصفات الحسنة فإن بغداد صارت مثل المدن الغربية ، لا حياء فيها ، كما أن العري انتشر بين أهلها ، وفي بعض الحارات يمكن أن تشاهد بعض المارة ، يقفون هنا وهناك ، يتبولون نهارا جهارا ، دون حياء أو خجل ، ولسوء الحظ كانت الحارة التي تؤدي إلى مكان إقامتنا ، حيث توجد المطبعة ، قد جعل منها مثل هؤلاء الناس (مرحاضا) خاصا بهم ، وبعد أن تترك شارع الرشيد بعشرة أو عشرين قدما ، تقابلك رائحة كريهة جدا ، وقد نشرت " السجل " عدة مرات عن هذا الأمر ، ولكن لا حياة لمن تنادي !!

أما الحالة الدينية (أي حدود الصلاة والصوم) فهي أسوأ وأسوأ ، فالمطبعة التي في بيتنا ، لم ينس أحد العاملين فيها ، ويذهب للصلاة مرة ، ومر شهر رمضان كاملا ، ومع هذا لم يشعر أحد من هؤلاء التعساء بيوم الجمعة أيضا ، وهم يلتقون بك ، يرحبون بك ، بخلق حسن ، وبشاشة ، ونحن هنا منذ ثلاثة أشهر ، ولم يحدث أن شكونا ولو مرة واحدة من أي شيء ولو بسيط ، وهذا في الغالب ميراث الأخلاق العربية القديمة .

على كل حال ما نعرفه عن الموصل الآن يبعث على التفاؤل والتشجيع والسرور أيضا ، فالأستاذ الهلالي يثني على أهل الموصل بصفة خاصة ، وكل من التقيت بهم صدفة من أهل الموصل وجدتهم أفضل من أهل بغداد .

الجمعة ١٠ شوال ٦٨ هجرية / ٥ أغسطس ١٩٤٩ م

يخيل إلي أحيانا بعد أن رأيت كثرة السيارات في بغداد أن هذه البلاد تتمتع بثروة وافرة ، فيندر أن تجد فيها عربة يجرها حصان ، كما هو الحال في الهند وباكستان ، وقل أن توجد عربات " الحنطور " التي تجرها الخيول ، مثلما هو الحال في منطقة فيكتوريا بكراتشي أو منطقة فتن في بتنة ، لكنه غير مسموح لها بالمرور في الشوارع المزدحمة ، مثل شارع الرشيد ، وهنا شركة تمتلك حافلات حمراء ، كما توجد سيارات أجرة ، ولكن سبب كثرتها لا يرجع إلى وجود ثروة في البلاد أو غنى ، بل يرجع إلى انخفاض أسعار البترول ، فالجاز هنا رخيص جدا مثل الماء ، والموتورات تتحرك هنا بالجاز ، ويمكن أن نشاهد أنواعا كثيرة مختلفة من السخانات والمواقد ، فالحاجة أم الاختراع ، ويوجد هنا محلات كثيرة للمواقد بأنواعها .

وهناك اليوم شكوى عامة من الكساد الاقتصادي، وفي هذا الصدد أخذت إحدى لصحف تتباكى على كثرة السيارات ، فجميع ثروة العراق وإنتاجها يضيع هباء على المظاهر . والأدباء يبكون ويشكون ، حتى صار هذا " مودة " أيضا مثلما يفعل الخطباء والأدباء حين يجعلون من فلسطين موضوعا لخطبهم وأشعارهم ، فحيثما نظرت وجدت من يتباكى على فلسطين ، وفلسطين المسكينة ضاعت من العرب ومن المسلمين .

بعد أن عقدنا النية على الحج ، أخذنا نفكر في " مناسك الحج " كنت أحيانا أقرأ كتب الفقه ، وكما لا يعرف الناس صلاة الجنازة وصلاة العيدين ، كان العبد الفقير لا يتذكر بالتفصيل مناسك الحج وجزئياتها ، وأخذت أطالع

كتاب الأستاذ الهلالي " مختصر هدي الخليل " ففيه باب عن مناسك الحج ، لكني أبحث الآن عن كتاب مفصل ، حتى أتمكن من أن أظل آمنا ، بعيدا عن عطف المعلمين في الحرم ، فعامة الحجاج يقاسون ويعانون الأمرّين على أيدي المعلمين الجهلة ، فهم يجعلون الحجاج يرددون خلفهم كالببغاوات ، عشرات الأدعية التي لا داعي لها ، وقد كتب الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في رحلته عن الحج " الارتسامات اللطاف " واقعة من هذا القبيل ، فبينما كان يطوف أخذ أحد الصبية (وهم يقومون أيضا بأعمال المطوفين) يلقنه الأدعية ، فغضب أمير البيان وقال :

– اذهب . . امش . . إنني أعرف جيدا ما أعرضه على ربي في حضرته عز وجل .

وهكذا أرى ضرورة الاستعداد الجيد لأداء مناسك الحج ، حتى أستطيع أن أظل آمنا من شر المطوفين الجهلة وخدامهم (الذين يطلق عليهم اصطلاحا " صبيان ")

كتب العبد الفقير في الطبعة الأخيرة من كتاب " الاشتراكية والإسلام " بابا عن " النظام الاقتصادي في الإسلام " لكن هذا الباب لا يكفي نظرا لأهمية الموضوع واحتياجات العصر ، وفي هذه الأيام أجد فرصة لإلقاء نظرة على المصادر الأصلية لهذا الباب ، وبدأت أقرأ كتاب " الأموال " بعد أن انتهيت من قراءة كتاب " الخراج " لأبي عبيد القاسم بن سلام (متوفى ٢٢٤هجري) ، وكنت قد سمعت مدحا وإطراء على كتاب الأموال ، لكني لم أجد فرصة من قبل لقراءته ، الحمد لله فقد وجدت الكتاب كما توقعته ، وأنوي الآن قراءة كتاب

الخراج ليحي بن آدم القرشي ، وقد أشار علي أحد الأصدقاء أنني إذا قرأت صحيح البخاري مرة واحدة من البداية حتى النهاية مركزا على هذا الموضوع فسوف أجد ثروة علمية كبيرة - أعانني الله على هذا الأمر ، فسوف أبدأ هذا العمل بعد العودة إن شاء الله .

السبت ١١ شوال ٦٨ هجرية / ٦ أغسطس ١٩٤٩م

في الليل عقدنا جلسة عند الأستاذ محمد محمود الصواف ، وتحدثنا مع رفاقه المقربين ، الذين كانوا يقرؤون بشوق سلسلة مقالاتي " الدعوة الإسلامية في الهند " فطلبوا مني مزيدا من التفصيل عن الموضوع .

وجدت - بالصدفة - الجزء الأول من سيرة حياة الشيخ حسن البنا التي كتبها بقلمه ، وهو كتاب صغير ، قرأته في جلسة واحدة ، بمتعة وجاذبية ، وشخصية الشهيد حسن البنا شخصية عجيبة وغريبة ، لم يكن عالما كبيرا ، كما لم يكن أديبا ولا مفكرا ، أسس جماعة الإخوان المسلمين في شبابه ، وبعد عشرين سنة استشهد وهو في الثامنة والأربعين من عمره. ولكن خلال هذه الفترة، تبدلت الأحوال في مصر ، ففي تلك الأرض التي لم تنجح فيها جهود كل من محمد عبده ، وسيد رشيد رضا عمليا ، حيث قويت شوكة الإلحاد والدهرية ، خلال خمس وعشرين سنة أو ثلاثين سنة ، وحيث لم يكن يسمع صوت للإسلام هناك ، وحيث اهتم مدعو الإسلام (العلماء) بإصلاح عمائمهم، وتدعيم مراكزهم ، في هذه الأرض تمكن هذا الشاب المؤمن من إحداث انقلاب عظيم الشأن ، واليوم أخذت الحكومة المصرية تحاول بكل ما لديها القضاء على دعوة المرحوم حسن البنا ، لكن دعوة الحق لا يمكن أن

تنتهي عن طريق القوة ، فالآلاف يقضون أيامهم في زنازين السجن ، لكن عباد الله حيث كانوا لا يغفلون عن عملهم ، ثم إن هذه الدعوة لم تقتصر على مصر فقط بل انتشرت آثارها في الشام والعراق ، وهي تؤدي واجبها وتمارس نشاطها رغم معارضة الحكومات ورقابتها الشديدة .

لا يمكن التحدث والتساؤل عن الأخطاء التي صدرت عن أعضاء الإخوان المسلمين وإلى أي حد كان لشباب الإخوان دخل في حوادث القتل وغيرها من الأعمال الأخرى الخطيرة ؟ فلا يجب أن ننخدع بالدعاية من طرف واحد ، تلك الدعاية التي تروجها الحكومة المصرية ، فطالما لا توجد أمامنا بيانات الطرفين ، فمن الصعوبة بمكان الوصول إلى رأي صحيح .

في المساء اتجهنا إلى محطة السكة الحديد لنسافر إلى الموصل ، وفي الطريق التقينا بمحمد كمال الخطيب ، تحدثنا معه قليلا وفي المحطة قدم لوداعنا الأستاذ الهلالي والأخ شكيب الهلالي والطالبان (الجزائر والريف) . . ودعنا هؤلاء في الساعة الثامنة مساء وتحرك بنا القطار في الثامنة والنصف .

الحواشي والتعليقات

١ - فيما يتعلق بشبلي النعماني انظر ما سبق ذكره في الحواشي والتعليقات السابقة .

٢ - العنقاء طائر خرافي ويستخدم في التعبير الأردي هكـذا " طارت به العنقاء " أي لا وجود له .

٣ - اعتاد أهل شبه القارة الهندية على تناول الشاي بالحليب دائما ، وتعني كلمة الشاي عندهم الشاي المضاف إليه الحليب ، أما الشاي بدون حليب فيطلق عليه " قهوه " .

٤ - الشيخ أمجد الزهاوي ، أديب عراقي وهو غير جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي المتوفى ١٩٣٦م .

٥ - تأسست مجلة الضياء أواخر عام ١٩٣١م حين التقى الأستاذ الهلالي بعدد من العلماء أثناء جولة له في بنارس وأعظم كره وميئو ومبارك بور ، وتقرر أن يكون رئيس تحريرها العلامة مسعود الندوي صاحب هذه الرحلة على أن يشرف عليها الشيخ أبو الحسن الندوي والأستاذ الهلالي ، فبدأ صدور مجلة الضياء في محرم ١٣٥١هـجرية مايو ١٩٣٢م فكانت لسان حال ندوة العلماء، وتوقفت بعد ثلاث سنوات ، فصدر بعدها مجلة البعث الإسلامي وجريدة الرائد . انظر في مسيرة الحياة ج١ .

٦ - تستخدم كلمة الشيوعية والاشتراكية بمعنى واحد في الأردية .

٧ - وكتاب نظام الحياة في الإسلام من تعريب محمد عاصم رفيق كاتب الرحلة وقد طبع عدة طبعات آخرها طبعة الدار السعودية للنشر بجدة منذ سنوات ، وهي الدار التي طبعت بقية الكتب المشار إليها في هذه الرحلة مثل الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، والإسلام ومعضلات الاقتصاد الذي كان محاضرة ألقاها المودودي في طلاب جامعة عليكره في أكتوبر ١٩٤١م ، ومنهاج الانقلاب الإسلامي ، وهو في الأصل محاضرة ألقاها المودودوي في الجامعة المذكورة في سبتمبر ١٩٠٤م .

٨ - شاه ولي الله الدهلوي من كبار علماء الهند يعرفه دارسو العربية من خلال كتابه إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء الذي كتبه بالفارسية ، ولد في شوال سنة ١١١٤ فبراير ١٧٠٣ وتوفي في دهلي سنة ١١٧٦هجرية / ١٧٦٣م ارتحل إلى الحجاز والتقى بعلمائه ، وترجم معاني القرآن الكريم إلى الفارسية ونظم الشعر بالعربية ووصلت مؤلفاته إلى ٦٣ كتابا ورسالة في مختلف العلوم وقد دافع عن علماء السلف ووقف في صف ابن تيميه وغيره انظر الشاه ولي الله الدهلوي حياته ودعوته لمحمد بشير السيالكوتي دار العلوم إسلام آباد ١٤١٣ هجرية ١٩٩٣م وما كتبه أبو الحسن الندوي في الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية وأيضا تراجم علماء حديث

هند تأليف ملك أبو يحي إمام خان ط الثانية باكستان الغربية ١٣٩١ هجرية ص ٣٨وما بعدها .

٩ - مسلم ليك أو حزب الرابطة الإسلامية هو الذي قاد حركة إنشاء باكستان مقابل حزب المؤتمر الهندي الذي كان يدعو إلى إنشاء دولة تقوم على الإيمان بالوطنية ، وقد تأسس حزب الرابطة الإسلامية في ٣٠ ديسمبر ١٩٠٦ انظر إقبال وديوان ارمغان حجاز سمير عبد الحميد إبراهيم المكتبة العلمية لاهور الطبعة الثانية ١٤١٢هجرية / ١٩٩٢م ص ٨ وما بعدها

١٠ - مولانا إلياس يقصد الشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي .

١١ - بلدة كاتهياوار من مدن الهند التي خرجت علماء مسلمين .

١٢ - رشيد الكيلاني توفى عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م زعيم ثورة اشتهرت باسمه في العراق ، عين وزيراً للعدل وتولى رئاسة الوزارة العراقية أربع مرات ، حماه الملك عبدالعزيز ، وبعد وفاة الملك غادر المملكة إلى القاهرة ومنها إلى بغداد ثم انتقل إلى لبنان حيث توفى بها له مؤلفات في القانون ؟

١٣ - يقصد مصطفى صادق الرافعي المتوفى ١٩٣٧م صاحب كتاب تحت راية القرآن ردا على كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي ، وإعجاز القرآن ، وتاريخ آداب العرب .

١٤ - يقصد ابن الخطيب الذي اشتهر بلقبه " لسان الدين " وهو أديب ، ووزير أندلسي عرف باسم " ذي الوزارتين " أي وزارة القلم ووزارة السيف ، وهو

من أصل يمني ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني ولد عام٧١٣ هجرية ١٣١٣م في بلدة نوشة ودرس في غرناطة ، له كتابات في الأدب والتاريخ ، ومن أشهرها " الإحاطة في تاريخ غرناطة " و" كتاب الحلل المرقومة " في تاريخ المشرق الإسلامي وإفريقية والأندلس ، ونشر له المستشرقون بعض كتبه انظر القاموس الإسلامي المجلد الثاني ص٢٦٢-٢٦٣.

١٥ - جعفر مال الله صحافي سوداني .

١٦ - نواب صديق حسن خان ولد في جمادى الأولى ١٢٤٨ هجرية وتوفي في ١٣٠٨ هجرية (١٨٣٢م-١٨٨٩م) فسر القرآن الكريم ، وهو يرى أن من أهم كتبه فتح البيان في مقاصد القرآن ، وله أيضا عون الباري والسراج الوهاج وغيرها وقد طبع الملك عبد العزيز على نفقته الخاصة التفسير الذي كتبه صديق حسين خان ووزعه مجانا ، وقد وصل عدد مؤلفاته بالعربية والفارسية والأردية في مختلف العلوم إلى ٢٢٣ كتابا ورسالة . انظر تراجم علماء حديث هند ص ٢٣٦-٢٦١ وللوقوف على أسلوبه بالعربية انظر رحلة الصديق إلى البيت العتيق الذي نشره بتعليقات عبد الحكيم شرف الدين وصدر عن دار ابن القيم الطبعة الثالثة الدمام ١٤٠٦هجرية ١٩٨٥م.

١٧ - يشير هنا إلى ما شاع في الهند وباكستان من بدع التصوف والعلاقة بين المريد والمرشد ، وهذه المشيخة مشهورة في كجرات ، تقيم عرسا سنويا

يذهب إليه المريدون ، ويدفعون - رغم عوزهم وحاجتهم - ما لديهم من أموال ، أو حتى مصوغات .

١٨ - محمد بهجت الأثري عالم وأديب عراقي له مؤلفات وأبحاث عن حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

١٩ - من أدباء العربية وقد اشتهر بعبد العزيز الميمني وهو من مواليد راجكوت (١٨٨٨م) عمل بالكلية الشرقية بلاهور ، وفي جامعة عليكره ، ثم انتقل إلى جامعة كراتشي ، ومنها إلى جامعة البنجاب حيث عمل رئيسا لقسم اللغة العربية سنة ١٩٦٤م وعين عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ، له أكثر من ثلاثين مؤلفا ، وقد كتب عنه الشيخ حمد الجاسر مقالا نشر بمجلة المجمع العلمي الهندي في يونيو ١٩٨٥ وقد توفي رحمه الله في عام ١٩٧٨م .

٢٠ - نظام حيدر آباد ، انظر ما سبق ذكره في الحواشي والتعليقات السابقة رقم ١٤ .

٢١ - يعد كتاب حجة الله البالغة من كتب شاه ولي الله الدهلوي الهامة في موضوع العقيدة والتوحيد ، ويدرسه طلاب العلم في شبه القارة الهندية ، كما أنه معروف لدى الدارسين العرب أيضا ، والكتاب فريد في بيان أسرار الشريعة وشمولها .

٢٢ - طبعت هذه الكتب طبعات مختلفة وآخرها ما صدر عن الدار السعودية للنشر في جدة ، انظر الحواشي والتعليقات السابقة .

٢٣ - يشير إلى عنايت الله خان مشرقي الذي عاش ما بين سنة ١٣٠٥ هجرية/ ١٨٨٨م وسنة ١٣٧٩هجرية / ١٩٦٠ ودرس في جامعة البنجاب ، وفي جامعة كامبردج وتخصص في اللغات الشرقية ، ومن أهم كتبه " تذكرة " طبع سنة ١٣٤٢هجرية / ١٩٢٤م وله كتاب آخر بعنوان " حديث القرآن " أثار عليه الناس في الهند . انظر كتاب فتنة إنكار السنة في شبه القارة الهندية الباكستانية ، سمير عبد الحميد إبراهيم ط دار السلام بالرياض ١٤١٢ هجرية ص ٣١وما بعدها .

٢٤ - يبدو أن الشيخ مسعود الندوي لم يتذكر فظائع الإنجليز التي ارتكبوها ضد الهنود ، والمسلمين منهم بصفة خاصة بعد الثورة التي أطلق عليها ثورة العصيان ، ١٢٧٣هجرية / ١٨٥٧م انظر الأدب الأردي الإسلامي ص ٣٧١ وما بعدها وأيضا كتاب مولانا فضل الحق خير آبادي الثورة الهندية باللغة العربية ، وبالإنجليزية الكتاب سابق الذكر لمؤلفه Ram Gopal المسلمون الهنود ، التاريخ السياسي .

٢٥ - رشيد رضا انظر الحواشي السابقة .

٢٦ - يشير إلى رحلة الأمير شكيب أرسلان " الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف " أو الرحلة الحجازية وقد طبعت في مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٥٠هجرية .

٢٧ - جريدة الإنصاف تصدر في إله آباد .

٢٨ - حسن الأعظمي عاش فترات طويلة في مصر وقد زار السعودية وطبع معجم اللغة الأردية باسم المعجم الأعظم على نفقة الملك سعود ، وله مؤلفات عن باكستان ، والتقيت به في لاهور ، إذ كان يقيم في آخر حياته في كراتشي .

٢٩ - محمد عبد الكريم الريفي قام بثورة ضد الأسبان سنة ١٩١٢م وضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥/١٩٢٦م ، والريف يشمل سلسلة الجبال الواقعة شمال المغرب من مضيق جبل طارق حتى وادي ملوية شرقا وأهم المدن طنجة وسبته وتطوان والخيمة .

٣٠ - يرى أتباع الأحمدية اللاهورية (ومركزها مدينة لاهور) أن نبي قاديان المزعوم ليس بنبي ،ولكنه مصلح ومجدد ، ولهذا جذبوا إليهم بعض المخدوعين ، بينما يرى أتباع القاديانية (في بلدة الربوة بباكستان) أن زعيمهم نبي . انظر المصادر التي سبق ذكرها عن القاديانية .

٣١ - هؤلاء من علماء وأدباء العربية

٣٢ - يقصد تحفة الأحوذي على شرح صحيح الترمذي .

٣٣ - ربما بالغ الكاتب هنا بشأن ختم القرآن كله في صلاة التراويح في ليلة واحدة .

٣٤ - بهجت البيطار عالم سلفي مشهور بدمشق وكاتب وأديب . ساهم في إنشاء دار التوحيد بالطائف والمدارس الدينية في مكة والمدينة

٣٥ - يقع إقليم البنجاب الآن بين الهند وباكستان ، بينما إقليم الحدود الشمالية يقع في باكستان .

٣٦ - الشيخ حمد الجاسر علامة الجزيرة ، عرّفه مؤلف الرحلة للقراء ، وهو غني عن التعريف ، لا يزال يثري المكتبة العربية بكتاباته في جميع المجالات ، وبخاصة في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها وأنسابها ، أسس مؤسسة اليمامة عام ١٣٧٢ هجرية ونال جائزة الملك فيصل وجوائز أخرى كثيرة ، ويهتم كثيرا بأدب الرحلات ، ويتابع كل ما يطبع منه وينشر وبخاصة ما يتعلق بالجزيرة العربية ، وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٣٧ - ورد في جريدة أم القرى العدد ١٢٨٠ أول ذي الحجة ١٣٦٨ هجرية ص ٥ تحت عنوان رجال الصحافة والإذاعة ما يلي :

قدم لأداء حج هذا العام فريق كبير من رجال الصحافة والإذاعة نذكر أسماء من اتصلنا بهم أو وصلت إلينا أسماؤهم وهم : العلامة الأستاذ مسعود عالم الندوي صاحب مجلة الضياء التي تصدر من لكهنو ومؤلف تاريخ شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، جمعه من عدة مصادر عربية وإنكليزية وتركية . . إلخ وقد عرضه على بعض العلماء بنجد ليطبعه قريبا .

٣٨ - يعد كتاب " الجهاد في الإسلام " من أحسن ما كتب المودودي وقد ترجمه كاتب السطور وطبع قسمه الأول بعنوان : شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية ، وسيصدر القسم الثاني بعنوان الجهاد بين الإسلام والأديان الأخرى انظر شريعة الإسلام في الجهاد . . . سمير عبد الحميد إبراهيم ط أولى دار الصحوة القاهرة ١٤٠٦هجرية والطبعة الثانية ستصدر من دار العروبة باكستان قريبا .

٣٩ - مجلة عربية شهرية كان قد أصدرها الأستاذ الهلالي في تطوان ، ثم استمرت تصدر وكان يدير تحريرها العالم والأديب المراكشي عبد الله كنون .

٤٠ - شاه ولي الله صاحب حجة الله البالغة انظر الهوامش السابقة .

٤١ - شاه رفيع الدين هو الابن الثالث لشاه ولي الله الدهلوي ولد في دهلي سنة ١١٦٣هجرية ١٧٥٠ م كان عالما تقيا ، نال شهرة واسعة في عموم الهند ويعد جزءاً من التاريخ الثقافي والحضاري لشبه القارة ترجم معاني القرآن الكريم وكتب تفسيرا بعنوان (تفسير رفيعي) انظر : الأدب الأردي الإسلامي ص ٢٦٥ وانظر المجلد الثامن من الموسوعة الأدبية التي أصدرتها جامعة البنجاب بعنوان تاريخ مسلمانان باك وهند ص ١٨ .

٤٢ - شاه عبد القادر هو الابن الرابع لشاه ولي الله الدهلوي وكان عالما جيدا ، ترجع شهرته إلى ترجمته لمعاني القرآن الكريم وتفسيره المختصر بعنوان "

موضح قرآن " الذي أكمله سنة ١٢٠٥ هجريــة ، وقد توفي سنة ١٢٣٠ هجرية / ١٨١٤ م انظر الأدب الأردي الإسلامي ص ٢٦٥ وما بعدها .

٤٣- عبد الحميد الخطيب تحدث عنه المؤلف كثيرا ، كان مجتهدا ونشيطا ، مما جعله يمتلك قلوب الباكستانيين ، وقد نشر كتابا بعنوان " إلى عموم المسلمين في باكستان كراتشي مطبوعه العرب ١٣٦٨ هجرية / ١٩٤٩ م وله مطبوعات أخرى عن دستور جمهورية باكستان الإسلامية انظر : فهارس مكتبة جامعة الإمام تحت عنوان باكستان ، ومن مؤلفاته أيضا الإمام العادل صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود : سيرته : بطولته ، سر عظمته القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي (٢ ج) ١٣٧٠ هجرية ، وله أيضا العيد الذهبي لحكم صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مراكش ، مطبعة العرب ١٩٥٠م ، كما كتب مقالات عن تطور التعليم في المملكة بمجلة المنهل مجلد ٦ الجزء ١١ آخر سنة ١٣٦٥هجرية ، ونشرت أم القرى في ٢٣ من ذي الحجة خبر وصوله لأداء الحج هكذا : قدوم السيد عبد الحميد الخطيب - قدم جوا بطريق مصر لأداء حج هذا العام سعادة السيد/ عبد الحميد الخطيب الوزير المفوض للملكة العربية السعودية في باكستان ص ٥ .

٤٤ - كانت الدعوة إلى القومية - لا تزال - تحمل في طياتها مخاطر كثيرة ، وظل علماء الهند وباكستان يعارضونها بشدة ، فهم يفضلون الشعور

الإسلامي قبل الشعور الوطني ، وقد كرس الشاعر محمد إقبال نفسه لمحاربة فكرة القومية بالمفهوم الغربي ، وعارض الملك عبد العزيز الأمر نفسه وأعلنه وسط جماعــة الأدباء والعلماء قائلا " إنني أحمل رأسي على كفي من أجل الإسلام ، وأريد أن أحطم أصنام النزعات الأخرى ولا يبقى لنا غير الإسلام وأتباعي يرددون : عاشت القومية العربية يريدون أن ينحرفوا عن هدفنا السامي أي رفعة الإسلام " انظر يوميات رحلة في الحجاز لغلام رسول مهر ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم دارة الملك عبد العزيز ١٤١٧ ص ٦- وما بعدها .

٤٥ - يعد البروفيسور محمد شفيع عميد كلية اللغات الشرقية بجامعة البنجاب من العلماء الكبار والمحققين ، اهتم بالمعاجم وتحقيق العديد من الكتب .

الموصل

الأحـد ١٢ شوال ٦٨ هجرية / ٧ أغسطس١٩٤٩م

كان يرافقني في القطار ثلاثة من المسافرين ، فالدرجة الثانية هنا عبارة عن كبائن صغيرة تضم كل منها أربعة مقاعد ، ولا توجد درجة أولى بالقطار ، مما اضطرني لشراء تذكرة بالدرجة الثانية ، فقد تركت السفر بالدرجة الثالثة منذ فترة طويلة ، نظرا لضعفي وتدهور حالتي الصحية ، كان معي ثلاثة رفاق : يهودي ونصرانيان ، وقد عرفت هذا في فترة لاحقة ، كنت أظن اليهودي مسلما ، بينما كان لدي شك فيما يتعلق بالنصرانيين ، في الصباح بدأ النصرانيان بإثارة الحديث ، وأخذا يسألان عن أحوال النصارى الهنود ، ثم سألوا بعد ذلك عن أحوال اليهود ، وأشارا بأصبعيهما إلى اليهودي ، وهما يقهقهان ، وفي أثناء حديثنا استخدمت مصطلح " البصائر " الأنجلو هاشمي ، فضحكا وقالا : ما رأيك لو قلنا الحاخام (والحاخام هو الزعيم الديني لليهود) عبد الله ، فما رأيك ؟ ثم قهقها بصوت عال ، بينما ظل اليهودي جالسا ، صامتا ، مبهوتا .

وصل القطار إلى الموصل متأخرا قليلا عن موعده ، وكان الأستاذ الهلالي ومحمد محمود الصواف قد كتبا من قبل خطابات إلى أصدقائهم ، ولهذا لم تواجهنا أي مشكلة في محطة القطار ، كان الشيخ عمر النعمة في استقبالنا (وهو ابن أخ العالم الموصلي الشهير الشيخ عبد الله النعمة) ومعه أيضا السيد /

ذوالنون يونس ، فرحبا بنا خير ترحيب ، فحص رجال الشرطة جواز السفر ، وركبنا عربة (نطلق عليها في كراتشي فيكتورية) ووصلنا إلى مدرسة ، حيث رتب هؤلاء الناس أمر إقامتنا ، وكانت غرف المدرسة خالية بسبب الإجازة ، ولهذا فضل العبد الفقير هذا الترتيب الجيد على الفندق ، وكانت المدرسة تسمى المدرسة الفيصلية للعلوم الدينية ، وهي مدرسة (متوسطة) عالية ، يلتحق طلابها - بعد الفراغ من الدراسة - بكلية الشريعة في بغداد .

كان في انتظارنا بالمدرسة كل من الشيخ عبد الله النعمة ، وعبد الرحمن محمود عبد الرحيم ، ومحمد صديق الملاح ، وعدد آخر من الناس ، وقد أردت أن أغتسل وأغير ملابسي ، قبل بدء الحديث ، لكن برنامجهم كان غير ذلك ، فقد جهز السيد عبد الرحمن محمود مائدة فطور ضخمة (وقد حسبته في البداية طعاما خفيفا لكني اكتشفت فيما بعد بأنها مأدبة ضخمة) ومن ناحيتي كنت جائعا وأحتاج إلى الشاي ، ولم يكن هناك داع لكل هذه الكلفة ، ثم توقعت أنني سأخلد إلى الراحة بعد تناول طعام الإفطار ، لكن مدير الأوقاف كان قد وعد بالقدوم ، وكان الحاضرون في انتظاره ، ولما كانت مدارس العراق كلها تتلقى نفقاتها كاملة من الأوقاف ، كما أنها تخضع أيضا لمدير الأوقاف ، لذا كان لمدير الأوقاف مكانة الحاكم ، والمحافظ في دنيا هذه المدارس وفي دنيا العلماء .

بدأنا نتجاذب أطراف الحديث أثناء انتظارنا لمدير الأوقاف ، فعرفتهم بالدعوة الإسلامية ، وقدمت مجموعة مطبوعاتنا العربية (ستة كتب) إلى الشيخ عبد الله النعمة ، ألقى الشيخ نظرة على الكتيبات الستة ، ثم قال لأمين المكتبة عبد المجيد :

- ضع هذه الكتب في مكان خاص ، حتى لا يقع عليها نظر مدير الأوقاف .

عندئذ قال عبد الرحمن محمود :

- هذه الكتب تباع في بغداد .

والشيخ عبد الله النعمة من أشهر علماء الموصل ، وهو من بعض الجوانب رجل عظيم حقا .

حضر مدير الأوقاف ، وظل يتحدث لفترة بطريقة خاصة ، تُشاهد عادة لدى الموظفين الصغار ، لكن العبد الفقير لم تعجبه هذه الطريقة ، التي يشوبها التصنع ، على كل حال لقد استقبلني بخلق حسن ورحب بي بلطف شديد .

في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وجدت فرصة للاغتسال وتغيير ملابسي ، ثم وصلني خبر مفاده أن طعام الغداء سيكون في بيت عبد الرحمن محمود ، وكان جميع السادة الأساتذة مدعوين أيضا ، في ذلك الوقت خمنت أن مضيفنا عبد الرحمن محمود يقوم بواجبه ، وهو شاب صالح جدا ، يعمل مدرس رياضيات في المدرسة الفيصلية ، وكان قد فصل من وظيفته ، بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين ، واعتقل لمدة خمسة أشهر ، وحين كان يقوم بالتدريس ، بدأ عملا تجاريا بمساعدة أحد أصدقائه ، وبعد الإفراج عنه تولى التجارة بنفسه ، وحقق نجاحا عظيما بفضل الله ، وقد اعتقل المسكين ثلاث مرات ، في المرة الأولى أُتهم بالنازية ، وفي المرة الثانية أُتهم بالشيوعية ، وفي المرة الأخيرة أتهم بجريمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين ، قال بكل صراحة :

- إنني بريء من التهمتين الأولى والثانية ، لكني أقر بالتهمة الثالثة (أي الإسلام) .

قدمت مجموعة من المطبوعات أيضا هدية لعبد الرحمن محمود ، وطلبت منه أن يشترك معه في مطالعتها عبد الرحمن صديق أيضا .

قضيت المساء في أحد المقاهي برفقة أبي خالد عبد الرحمن صديق الملاح ، وجاء إسماعيل بن مصطفي الكتبي أيضا ، وصلينا المغرب معا ، وعبد الرحمن صديق " من أهل حديث " متعصب ، ولما كنت لا أرفع اليدين في الصلاة ، لهذا وجدته يثير هذه المسألة بعد فراغنا من الصلاة ، فحاولت التملص منه مرارا ، لكنه أخذ يقدم لي الدليل تلو الآخر ، فأهمية رفع اليدين عنده لا تقل أهمية عن التوحيد والرسالة ، وعلى كل حال تراجعت وتقهقرت أمامه في ذلك الوقت .

توجهت في معية إسماعيل بن مصطفى إلى المدرسة الفيصلية ، ونسيت أن أذكر أنني التقيت في المقهى بصهر عبد الرحمن صديق ، ويدعى الدكتور وجيه زين العابدين ، وهو شاب في غاية الصلاح ، ظل يسأل لفترة طويلة عن باكستان .

وفي الطريق ذهبنا عند الشيخ عبد الله الحسو ، وهو رجل عجيب وغريب ، كان في البداية متسامحا فيما يتعلق بالعقيدة أو بالاصطلاح العام " بدعي " يميل إلى أصحاب البدع ، وهو الآن " سلفي قح " أو كما يقولون " وهابي " لكن هذا الانقلاب في حياته كان سببا في نزول المصائب عليه ، فقد أخذ يقرأ كل سطر

في جميع الكتب التي كان قد قرأها في حياته الأولى ضد عقيدة السلف ، ويتوب توبة نصوحًا مما قرأ ، واستمر في هذا لسنوات ، ولم ينته حتى الآن من استكمال التوبة !! فما أكثر ما كان قد قرأ !! ونتيجة لهذا الوهم يرى أن جميع أهل الدنيا كلهم كفار ، وعليهم أن يستمروا في التوبة والاستغفار !!

كنت على معرفة بأفكاره ، وكنت على أتم الاستعداد للرد على أي هجوم يقوم به ، وبعد التحية والسلام ، أُثيرت القضايا المختلفة ، وجاء بالصدفة ذكر " مشكل الحديث " لابن فورك ، وأوضحت له - بيانا للواقع - أن مشكل الحديث طبع في دائرة المعرفة بحيدر آباد ، وأن العبد لله ، كاتب هذه السطور ، اشترك في تصحيح النسخة الأصلية ، وابن فورك كان من المتكلمين ، وفي مشكل الحديث قام بتأويل صفات الحديث على طريقة المتكلمين ، وهذا الذنب في رأي الشيخ عبد الله الحسو يكفي لتكفيره ، وتصحيح مثل هذا الكتاب ، إن لم يكن كفرا ، فهو بالضرورة إثم عظيم . . ثم ماذا كان ؟! سمع عبد الله الحسو هذا الكلام فقال :

- لماذا اشتركت في هذا الشرك ؟!

فقلت بوضوح تام :

- إن تكفير أهل القبلة ليس من مسلكنا ثم إن مسلك الأشعريين والمتكلميين عندي ليس بإثم عظيم .

ورغم أنني - نفسي - من القائلين بعقيدة أهل السلف ، ويتمنى أن يحاسب يوم الجزاء طبقا لهذه العقيدة ، لكن ليس لدي أي حجة لتكفير إمام الحرمين ،

الإمام الأشعري ، وابن فورك ، والرازي وغيرهم من أئمة علم الكلام ، وليس لنا أيضا أن نؤاخذهم على عقائدهم وأعمالهم ، فنحن نقرأ كتب هؤلاء الشيوخ الكبار ، ونعمل طبقا للقاعدة القائلة " خذ ما صفا ودع ما كدر " .

طال الجدل وفي النهاية ، وبعد أن فصلت الحديث عن الدعوة الإسلامية وأصولها ، وجهت له سؤالا :

- ماذا تقول السلفية فيما يتعلق بوظيفة الخطابة والإمامة؟

فسكت المسكين ، ثم بدأ يقول :

-لا توجد وسيلة أخرى للرزق .

فقلت :

- احفظ الأحذية أمام باب المسجد ، أو بع المشروبات ، و في وقت الصلاة ، قم بالإمامة ، ثم انظر كيف سيكون تأثير خطبتكم في المساجد .

فقال :

- هذا عمل صعب وقد تعودت نفسي على الراحة .

فقلت :

- إذن لا تذكر عبارة اتباع السنة .

كان الكلام حادا ، لكن السهم أصاب الهدف .

على كل حال سكت الشيخ ، وظل ساكتا أيضا في لقاءاتنا التالية ، لكن إسماعيل مصطفى و ابن الشيخ عبد الله الحسو ، الشاب الذي تخرج من الأزهر ، ويعمل مدرسا في المدرسة الثانوية تأثرا للغاية ، وتكلم الابن أمام والده معلنا أن علماء بغداد بل علماء العراق ينقصهم هذا الإيمان ، كما تأثر إسماعيل ابن مصطفي أيضا ، وأخذ يقص على أصدقائه في اليوم التالي ما حدث .

تمكنت من النوم في منتصف الليل بعد أن قضيت نهاري كله جالسا .

الاثنين ١٣ شوال ٦٨ هجرية / ٨ أغسطس ١٩٤٩م

الموصل مدينة قديمة ، وتقع على الطرف الآخر من دجلة ، المتاخم لأطلال " نينوى " ويقال إن قبر يونس عليه السلام بجوار " نينوى " ومن الناحية الحضارية والاجتماعية فإنها أقرب إلى الشام منها إلى العراق ، وكانت التجارة في العهد التركي كثيرا ما تأتي من حلب ، والقطار يذهب من هنا مباشرة إلى استنبول ، وهي من الناحية الدينية أفضل بكثير من بغداد ، فالفرق بين الموصل وبغداد كالفرق بين السماء والأرض ، وقد عرفنا أن التجرؤ على أداء الصلاة في مقاهي بغداد صعب للغاية ، فلم ير الكاتب على الأقل إنسانا يؤدي الصلاة في المقهى ، فبينما كنا جالسين ذات مرة مع بعض من جاءوا للقائنا حان وقت صلاة المغرب ، فاستفسرت عن الصلاة ، فقالوا : سوف نصلي في البيت ، فالصلاة هنا تجر علينا شبهة الانتماء إلى الإخوان المسلمين ، إلا أن الوضع يختلف في الموصل ، فالناس هنا يصلون بشكل عام في المقاهي ، والمساجد كثيرة ، وعلى الأقل ترى اللحى على وجوه العلماء ، كما تراها أيضا

على وجوه الناس الآخرين ، وينتشر الزي العربي ، كما لا يوجد هنا " فجور " كالذي شاهدناه في بغداد .

في الصباح حضر الشيخ عبد الله النعمة ، وأخذت أسأله كتلميذ عدة أسئلة، فالرجل عالم متزن الآراء ومتواضع حليم ، كان يعمل قبلا ترزيا يحيك الملابس ، وكان ماهرا في مهنته ، فجذبه شوق العلم على كبر ، فسعى واجتهد حتى وصل إلى مكانته الحالية ، وما يشاهد اليوم من علم في الموصل إنما كان من فيضه .

بعدها حضر إلينا لفيف من الناس ، لفترات متقطعة ، واستمر توافدهم علينا حتى الظهر ، كان معنا عبد الحميد أمين مكتبة المدرسة الفيصلية ، وأخذنا أيضا إلى بعض الناس الذين سمع عبد الرحمن اسمهم فأصيب بالارتباك الشديد، وفي وقت الظهر وصل ذو النون يونس ، فقدم إلينا دعوة لتناول الطعام، وحضر جميع الناس على مأدبة الطعام فكانت صحبة طيبة للغاية .

بعد تناول الطعام حضر عبد الرحمن محمود عبد الرحيم ، لم تكن المدرسة مزودة بالمراوح ، وكان الحر شديدا ، وأراد أن يزودنا بالمراوح ، لكنا اعتدنا الحر الشديد ، ولم نشعر بضرورة لذلك ، جاء أيضا إسماعيل بن مصطفى، وتأثر الاثنان بكلامنا كثيرا ، وإن شاء الله سوف يفهمان " الدعوة " بعد قراءة مطبوعاتنا .

تقرر أن يكون الاجتماع بعد المغرب في منزل الدكتور وجيه زين العابدين ، وهناك دار نقاش لفترة طويلة ، ونبه عبد الرحمن الصديق الملاح ثانية على

مسألة رفع اليدين ، وحاولت كثيرا التملص من الرد ، لكنه راح يقدم الدلائل ، وكأنني ليس لدي فكرة على الإطلاق بهذه الأحاديث ، وفي النهاية ضقت ذرعا بكلامه فقلت له :

– ليس من طبعنا الخوض في الفروع ، كما أنني لست مقلدا لأهل الحديث ، اعفني – من فضلك – من البحث في هذا الموضوع .

ثم غيرت موضوع الحديث ، ولفتُّ الانتباه إلى نظام الباطل ومساوئه ، وقد وافق على ذلك أحد أصدقاء عبد الرحمن وهو من العسكريين ، ولكن عبد الرحمن راح يبحث عن ذريعة هنا وهناك ، وفي النهاية أخذت أتحدث لفترة طويلة مع الدكتور وجيه ، بينما كان إسماعيل بن مصطفى يتولى الدفاع من جانبنا ، واشترك عاصم أيضا في الحديث معه .

في الليل جاء الشيخ قاسم الذي يقيم بجوار المدرسة الفيصلية للقائنا ، وهو رجل سلفي ، ومن جماعة أهل الحديث المتمسكين بمسلك الجماعة إلى حد المغالاة ، وكان الوقت قد تأخر ، ولذا أرجأنا الحديث للغد .

الثلاثاء ١٤ شوال ٦٨هجرية / ٩ أغسطس ١٩٤٩م

كنت أسمع كثيرا من الناس يثنون على الموصل ، وحين وصلت هنا شاهدت مصداق ما يقولون ، لا يمكن أن نقارن بغداد بالموصل أبدا ، فأصحاب سيارات الأجرة ، وأصحاب العربات ، يتعاملون مع الغرباء في بغداد بدناءة وخبث ، كما أن سلوكهم أيضا مع أهل بغداد ليس طيبا ، وأصحاب سيارات

الأجرة في بغداد هم مثل " العربجية " عندنا ، لغتهم بذيئة وسيئة للغاية ، وأخلاقهم رديئة ، أما في الموصل فقد وجدنا أصحاب العربات وسيارات الأجرة في غاية حسن الخلق ، أثناء ذهابي للقاء بعض الأصدقاء ، وهي لقاءات تكررت كثيرا ، ركبت عدة مرات سيارة أجرة ، ووصلت إلى المكان الذي أريد، فكان أصحاب سيارات الأجرة يقبلون ما نعطيهم من أجر قانعين راضين .

وهكذا فالتعامل مع الناس في بغداد يغلب عليه الطابع الإفرنجي تماما ، فيصعب مثلا أن نلتقي بشخص دون تحديد وقت ، والحصول على إذن مسبق ، كما أننا لم نستطع أن نلتقي بحرية وسهولة إلا بأربعة أشخاص أو خمسة فقط من أهل العلم ، رغم حرصنا الشديد وشوقنا العارم للقاء المزيد من العلماء وأفاضل الناس ، وقد زاد محمد الأثري عن الحد ، فكنا إذا ما التقينا به في السوق صدفة يقول : " إنا مقصرون " ثم يعبر عن رغبته في لقائنا ، ثم يختلق الأعذار . . . حرارة الجو . . و . . لكنا وجدنا عكس هذا تماما في الموصل ، فجميع العلماء والأعيان يعتبرون لقاء " الزائر الغريب " فرضا واجبا عليهم ، ولذا فحين رجعنا هنا في الليل علمنا أن بعض الناس جاءوا للقائنا ، وكان من بينهم بعض أعيان البلدة ووجهائها أيضا ، وكان الشيخ عبد الله النعمة - رغم تقدمه في السن ، وعلو مرتبته الدينية - يأتي إلينا صباح كل يوم ، ويسمح لنا دائما بالإفادة من علمه .

استمر توافد الناس علينا من الصباح حتى الظهر ، وسررت كثيرا بعد لقائي بعدد من الشباب ، كان بعضهم قد اطلع على مطبوعاتنا العربية ، وكانوا متأثرين بدعوة الإخوان ، تحدث أحدهم عن " منهاج الانقلاب الإسلامي " بشكل

خاص ، وكان يسأل عن النظام السري والتربية العسكرية على طريقة الإخوان ، فشرحت له نظامنا فاطمأن وقال :

- في الواقع لا يمكن أن يوجد أفضل من أسلوب عمل وبرنامج عمل يشبه ما كان أيام العهد النبوي .

وحين شرحت له أنه لا ضرورة مطلقا لأن يساء إلى الدعوة الإسلامية بما يسمى بالتربية العسكرية أو التنظيم العسكري ، لأن الدعوة سوف تنال ، من تلقاء ذاتها ، تأييد القابضين على السيوف ، أي أصحاب السلطة ، فرح الشاب كثيرا واستمر الحديث هكذا لثلاث ساعات ، وأنا أشرح له خلاصة الهدف من رحلة الموصل .

كان برنامج المساء الذهاب إلى حي " النبي يونس " فمدينة الموصل تقع على نهر دجلة ، وفي الجانب الآخر من النهر ، وعلى مسافة عدة فراسخ تقع أطلال " نينوى " وهناك على إحدى الهضاب ، يوجد قبر يونس ، وبجوار القبر ، بُني أحد المساجد أيضا ، ولا بد من الإشارة إلى أن حكاية القبر لا يوجد لها سند تاريخي ، وهي حكاية ضعيفة جدا ، فمعظم سكان حي " النبي يونس " (أطلق على الحي الذي ظهر على هذه الربوة اسم النبي يونس) من التركمان ، وطبقا للروايات المحلية هنا ، فقد جاء هؤلاء الناس مع حملات " تيمور (لنك) واستوطنوا هذا المكان .

على كل حال فإن ما يذكر فيما يتعلق بالقبر مجرد زيف لا أكثر ، وقد حملنا على المجيء هنا ، رغبتنا في التمتع بمشاهدة الأماكن التاريخية ليس إلا ،

شاهدنا القبر ، وجلسنا في بيت إمام المسجد ، كان منظر الهضبة وقمتها العالية الفسيحة رائعا بديعا ، جلسنا نتمتع بهذا المنظر لفترة ، وقدم لنا صاحب الدار - طبقا للتقاليد - المشروبات والفواكه ، لكن عبد الرحمن صديق راح يثير الجدل عن " رفع اليدين " والقراءة خلف الإمام ، والإمام المسكين شيخ حنفي من الطراز القديم ، لذلك أصابه الارتباك ، ومع هذا أخذ يجيب على قدر علمه ، لكني تضايقت من حركة الشيخ عبد الرحمن هذه ، ماذا يحدث لو غير أكثر من ستين شيخا حنفيا رأيهم ، وماذا نكسب من جراء إثارة مثل هذه المباحث سوى السقم والكدر ، لكنه لم يوافقني ثم راح بعد ذلك يثير مسألة " تارك الصلاة " .

طلبنا الإذن بالعودة ، فوافقوا على طلبنا بصعوبة شديدة ، وبقي عبد الرحمن مع صديقين آخرين ، وعاد كاتب هذه السطور مع إسماعيل بن مصطفى والشيخ عبد المجيد ومحمد عاصم .

الأربعاء ١٥ شوال ٦٨ هجرية / ١٠ أغسطس ١٩٤٩م

جاءنا في الصباح الشيخ محمد عمر النعمة ، ودار الحديث معه لفترة عن واجبات العلماء ، والرجل متزن فاهم ، لكن ليس لديه ذوق علمي ، وكان معه نجله معاذ أيضا .

ذهبنا في الساعة التاسعة إلى منزل الشيخ قاسم المجاور للمدرسة الفيصلية ، كان عنده أحد الأصدقاء أيضا ودار بيننا حديث ، فالشيخ قاسم رجل عجيب وغريب ، ففي دنيا العراق حيث وجود اللحى كوجود " لبن العصفور "[1] فإن هذا الشيخ يرى إطلاق اللحية فرض ، ونتف شعرة منها عنده

ذنب لا يغتفر ، ومن ناحية أخرى فهو يقول بكفر المتكلمين والأشاعرة (الذين يؤولون آيات الصفات) وهذا هو شغله الشاغل ليل نهار ، وقد أكرمه الله ، فحرره من مشاغل ضروريات الحياة ومستلزماتها ، وكان أول سؤال وجهه لي يتعلق بالأشاعرة والمتكلمين ، فأفهمته كما أفهمت عبد الله الحسو من قبل مسلكي ، فاطمأن ، وفي النهاية أثار البحث الخاص بتكفير تارك الصلاة ، وطلب رأيي الخاص في ذلك ، فأجبته بأمانة وكأنني تلميذ ، قلت له :

- أنا في حيرة من أمري حتى الآن فيما يتعلق بهذا الباب ، وشاركنا في الحديث أيضا صديق الشيخ قاسم ، وكان مسرورا جدا ، فقد كان يقرأ مقالات كاتب هذه السطور في " السجل " لهذا كان يتكلم بحب شديد ، ومودة وحسن خلق ، والتواضع وحسن الخلق من الأمور المتأصلة في أهل الموصل ، يتفوقون في ذلك على أهل بغداد كثيرا .

حضر اليوم بعض الشباب المتحمس ودار حديث طويل امتد لساعات ثلاث حتى الساعة الثانية عشرة تقريبا ، وأصروا على دعوتنا لتناول الطعام ، لكن لم يكن لدينا وقت ، ولهذا اعتذرنا لهم ، وهؤلاء الشباب يدرسون في مختلف كليات بغداد ، وفي داخلهم عزم أكيد للعمل الدعوي .

تناولنا طعام الغداء عند عبد الرحمن صديق ، وكان الشيخ عبد الله موجودا أيضا ، ودار الحديث عن قضايا عديدة ، وفي طريق العودة تعرضنا لحادثة بالسيارة ، كان لها تأثير سيئ على نفسيتنا ، وقد أُصيب رفيقنا إسماعيل بن مصطفى ، ونقل إلى المستشفى ، وعلمنا أن إصابته خفيفة ، وقد زرناه في بيته

مساءً ، كان متعبا لكنه كان يتكلم بصعوبة شديدة وبصوت ضعيف ، وإن شاء الله يتم شفاؤه خلال يومين أو ثلاثة ، كان المسكين متأثرا ، فغدا موعد رحيلنا ، ولن يكون آنذاك في المدرسة ، ولهذا كان قلقا .

بعد عيادتنا لإسماعيل بن مظهر ذهبنا إلى محل الأستاذ بشير صقال ، ومحل عبد الرحمن سيد محمود ، لم نجد عبد الرحمن سيد محمود ، والتقينا بالأستاذ بشير صقال ، الذي وعدنا بأن يأتينا ليلا ، لكننا اعتبرنا زيارته في منزله واجبا .

بعد المغرب رجعنا إلى المدرسة الفيصلية ، وبدأت سلسلة قدوم الضيوف ، واستمرت حتى الساعة الحادية عشرة ليلا ، ووسط اللقاءات صلينا العشاء ، وتحدث الأستاذ بشير الصقال عن المدارس العربية في الهند ونظام التعليم بها ، وبدا أنه مثل " نبوت الخفير " كعلمائنا تماما .

سمعت ثناءهم على كتاب " مختصر المعاني " فتعجبت كثيرا ، فكتاب مختصر المعاني وشرح الجامي [٢] من أبغض الكتب عندنا في الندوة ، والحقيقة أن هذه الكتب من أسوأ الكتب في موضوعاتها ، وقد اتفق معي فيما يتعلق بشرح الجامي ، لكنه ظل يناقش ويجادل في أمر " مختصر المعاني " ثم سأل عن الحالة الاقتصادية لعلماء الهند ، فهؤلاء الناس لا يمكن أن يدركوا كيف يمكن للعلماء أن يعيشوا دون مساعدة الأوقاف .

وحضر أيضا عبد الرحمن سيد محمود (صاحب محل A B C) وهو صديق حميم لعبد الرحمن محمود الرحيم ، ومن خاصة أصحابه ، وهو من

الناحية المالية تاجر ناجح ، ومن الناحية الفكرية قريب من جماعة أهل الحديث والإخوان المسلمين ، وكان قد اعتقل أيضا وأطلق عليه اسم المجرم رقم ١ في الموصل ، وبدا من حديثه أنه عاقل وفاهم وقد لفتُ نظره إلى تشدد بعض أحبابه، فوافقني على هذا الرأي ، ورغب في التحدث إلى عبد الرحمن صديق ، فقلت له :

- إنه لا يستطيع أن يفهم .

- فقال :

- إذن لا وسيلة سوى السكوت والصبر على الأحوال الجارية.

اعتذر مرة بعد مرة عن اللقاء وذكر أن السبب كان الخطر في أن تزيد مراقبة الشرطة له من جراء تردده علينا ، كان الشباب موجودين معنا أيضا ، وظل محمد عاصم يتحدث معهم ، وضم مجلس الليلة عددا كبيرا من الضيوف ملؤوا فناء المدرسة ، كان عددهم حوالي ثلاثين ، وكان الحديث بشكل منفرد أمرا صعبًا.

الخميس ١٦ شوال ٦٨ هجرية / ١١ أغسطس ١٩٤٩م

في الصباح الباكر اتجهنا بالسيارة إلى أربيل ، قام عبد الرحمن محمود عبد الرحيم بترتيب أمر جلوسنا في سيارة الأجرة ، في راحة تامة ، وسار معنا بسيارته حتى آخر حدود المدينة ، وظل يعتذر عن تقصيره في خدمتنا !! وهذا الاعتذار تلو الآخر من الأمور التي لا تزال راسخة في العرب : أقصد الأخلاق الموروثة والكرم الفياض الذي لا يمكن لنا نحن في الهند وباكستان أن نتصوره ،

ورغم ذلك ظل يردد : نحن مقصرون ، نحن مقصرون ، وحين سألت عن أجر سيارة الأجرة ، ابتسم فأردت أن أقول شيئا فقال عبد الرحمن : هذا أقل واجب علينا ، سيكون منتهى سعادتنا أيضا لو قبلتم أن تكونوا ضيوفا علينا في الحج .

الطريق بين الموصل وأربيد طريق جميل ، لكنه يرتفع وينخفض في تلاحق عجيب ، وهو يشبه الطريق بين جهلم و روالبندي ، أو بين بكيا وهزاري باغ ، ولكن ليس بنفس مناظر هزاري باغ ، فالأرض قاحلة جرداء وجافة ، فحيث يمضي دجلة وفروعه الصغيرة تنتشر الخضرة ، أما بقية الأراضي فهي قاحلة وجافة ، تشتاق إلى قطرة من ماء ، وبين الموصل وأربيد تقع قرى الأكراد ، وهؤلاء مختلفون عن بقية أهل العراق من ناحية اللغة والحياة الاجتماعية ، وزيهم أقرب إلى التركمان والأفغان منه إلى الزي العربي ، ومن الناحية الدينية ، فهؤلاء سنيون حنفيون متمسكون بسنيتهم ، وبسببهم يمثل أهل السنة أغلبية في العراق ، وإلا فالشيعة أكثرية بين العرب الناطقين بالعربية .

وصلنا أربيل في الساعة العاشرة ، استغرقت المسافة مدة ساعتين ، كان سائق السيارة وصاحبها صديقا عزيزا للحاج هاشم يوسف (من التجار المسلمين المعروفين في بغداد) وكان رجلا طيبا ، أنزلنا في فندق الفرح ، وهناك اغتسلنا وغيرنا ملابسنا واسترحنا .

كان صاحب الفندق أرمنيا ، يقيم في الموصل ، أما الموظفون والعمال فهم مسلمون يتكلمون الكردية ، وكان بعضهم يعرف العربية أيضا ، وكان التفاهم يتم باستخدام العربية والفارسية ، ولم تكن هناك مشكلة ما ، شاهدت

في الفندق ضابطا كرديا في الجيش البريطاني ، سمع لغتنا فأعلن عن رغبته في تعلم اللغة الأردية ، وبإصرار شديد كتب ترجمة خمس أو ست جمل بالأردية ، وظل يتدرب عليها ، ولا نعلم ماذا يفيده تعلم خمس جمل أو ست ، وما هي المتعة في ذلك ؟!

ولما كان الكلام يجر بعضه بعضا ، فقد وجدتني لم أكتب شيئا عن اللغة الأردية هنا ، فهي مفهومة في جميع مناطق العراق ، ما عدا الموصل ، فالإنسان يستطيع أن يقضي أموره في البصرة وبغداد بالأردية فقط ، كما أن اللغة العامية هنا وهناك فيها الكثير من الألفاظ الأردية ، وبكثرة ، فكلمة " بنكها " (بمعنى مروحة) وكلمة " راسته " (بمعنى طريق) وعشرات الألفاظ تستخدم بشكل عام ، ومن المثير أيضا أن الناس كانوا يشاهدوننا بزينا هذا ، فيبادرون بمخاطبتنا بالأردية قائلين :

كيا جاهتا هـى ؟ (بمعني ماذا تريد ؟)

كيا مانكتا هـى ؟ (بمعنى ماذا تطلب ؟)

باكستاني بهائي ؟ (بمعنى هل أنت أخ من باكستان ؟)

وهكذا كنا نسمع هذه العبارات في معظم الأوقات ، وقد كان انتشار الأردية في العراق بفضل الجيش الهندي ، فبعد الحرب العالمية الأولى وحتى عامين مضيا ، كان الجنود الهنود يقيمون بأعداد كبيرة في معسكرات الإنجليز ، وكان عددهم كبيرا جدا أيام الحرب ، كما أن في البصرة عددا كبيرا من التجار الهنود والباكستانيين ، بالإضافة إلى وجود باكستانيين في شركة البترول أيضا .

في المساء خرجنا لمشاهدة هذه البلدة وما حولها ، بلدة عادية ، تفسحنا في البلدة كلها في غضون ساعة واحدة ، هناك بعض المناطق الآهلة بالسكان ، بجوار القلعة القديمة ، وكانت القلعة قد شيدت على تل عال ، وللأسف لم نقابل هناك أي إنسان متعلم أو مثقف ، يمكننا أن نستفسر منه عن تاريخ القلعة ، وأثناء الفسحة ، شاهدت مبنى مكتوبا عليه " دار المطالعة " كان قد أقيم بغرض الدعاية للبريطانيين ، شاهدت في هذه الدار مجلات عادية ، وكان على المنضدة عددان من مجلة البشير [٣] ومدير دار المطالعة تركي ، يعرف العربية ، تحدثنا معه ، فقدم لنا معلومات مفيدة .

قضينا الليلة في الفندق ، وقد غرقنا في النوم لأن غرف المبيت كانت طيبة جدا وبفضل من الله تعالى شعرت في سفري هذا بتحسن كبير ، وكنت أحيانا أشعر بخفقان بسيط ، وكان معي الدواء المجرب ، جاهزا في كل وقت ، فأدوية حكيمنا الكريم محمد يحي في روالبندي ، وافقت تماما طبيعة العبد لله ، وكنت أستعملها كلما دعت الحاجة ، وأستريح دائما بعد تناولها ، بإذن الله .

كــركـــــوك

الجمعة ١٧ شوال ٦٨ هجرية / ١٢ أغسطس ١٩٤٩م

في الصباح اتجهت بنا السيارة ناحية كركوك ، كنا قد حاولنا أن نجد سيارة جيدة ، ووجدنا في النهاية سيارة نقل متوسطة الحال ، فجلسنا بجوار السائق ، وقد أزال عنا هذا السائق بظرفه وفكاهته ، وخفة دمه ، ما كنا عانيناه من تعب في الناقلة ، لغته الأم الكردية ، لكنه يتحدث التركية أيضا بالإضافة إلى الفارسية والعربية ، كما يعرف القليل من الأردية ، فكان يتكلم معنا بالأردية . كان قد ذهب إلى الهند لعدة أيام ، فراح يحكي لنا حكاية عمله مع أحد الهنادكة المدراسيين (٤) عمل هناك ليوم كامل ، ومع هذا لم يسأله هذا الهندوكي حتى عن طعامه ، وحين طلب منه الماء ، بدا وكأنه يريده أن يغرف الماء بيده ويشرب، فغضب السائق الكردي وقال له :

– يا ابن الخنزير ، إذا كنت نجسًا ، فإن عملك أيضا نجس ، نحن لا نستطيع العمل .

قال لنا هذه العبارة بالأردية وراح يقهقه بصوت عال .

والطريق من إربيل إلى كركوك طريق جبلي أيضا ، كانت هناك خضرة تبدو لنا من بعيد ، توقفت سيارة النقل في مكان ما لفترة بسيطة ، ونزل المسافرون

لتناول الشاي ، فشربنا الشاي ، وطلب أحد رجال الشرطة جواز السفر ، ورغب في أن نذهب معه عند مأمور المركز ، فقلت له : هذا ليس بعملنا ، اذهب أنت وأره الجواز وارجع ، فهددنا قائلا : حسنا أنتم لن تذهبوا ؟ فقلت : مطلقا لا ، فتكهرب الجو ، وخيم الصمت ، فقام أحد الأتراك (وكان يتكلم العربية جيدا) بتعنيف الشرطي بشدة ، فقبل بأخذ الجواز والذهاب به إلى ضابط المركز ، ثم عاد بعد فترة ، وصافحنا واعتذر لنا .

تحركت العربة فقال أحد المسافرين :

– لعلك تأثرت من سوء سلوك هذا الشرطي .

– قلت : لا . . فالشرطة في كل مكان عديمو التمييز سيئو الخلق ، ولم يترك سلوكه هذا أي أثر عندي .

أثبت السائق حسن خلقه ، فبعد أن وصلنا إلى كركوك ، أوصلنا إلى المحطة ، حيث تولى أحد العراقيين المسافرين معنا ، مسئولية إيصالنا إلى الفندق ، وأراد أن ينزل أمتعتنا ، لكن السائق الشهم طلب منا أن نستمر معه ، وقام بإيصالنا حتى باب فندق شهرزاد ، وصافحنا بحرارة مودعا إيانا بمحبة بالغة .

لم تكن المسافة الفاصلة بين المحطة والفندق أكثر من فرسخ ونصف ، لكن سائقي عربات النقل في الهند وباكستان ليسوا بمثل هذه الأخلاق العالية .

كان فندق شهرزاد أحب الفنادق إلى قلبي ، من بين تلك الفنادق التي نزلت فيها حتى الآن ، فهو فندق رحب فسيح ونظيف ، والأجرة أيضا معقولة ، روبيتان في اليوم ، أي أجرة الإقامة فقط .

توجد في كركوك آبار البترول ، ولهذا فهنا أكبر مركز لشركة البترول الإنجليزية المسماة Anglo Oil Company ، ولم نتمكن من مشاهدة آبار البترول أو مصانع التكرير الخاصة بها نظرا لبعد المسافة ، وعدم من يقوم بإرشادنا ، ويقع مركز الشركة على بعد خمسة أو ستة أميال من المدينة ، ومن بعيد يمكن مشاهدة خزانات البترول البيضاء .

وصلنا كركوك في الساعة الحادية عشرة ، وحان وقت الصلاة ، واستفاد كاتب السطور من رخصة السفر ، وقام عاصم بالصلاة في مسجد قريب ، وهو يقول بأن صحتي والحمد لله في هذا السفر على ما يرام ، فسفر مستمر مثل هذا في باكستان كان فوق طاقتي ، ولكن وبفضل من الله كان لجو العراق الجاف ، تأثير طيب على صحتي ، ثم إن الصحة لم تعد كما كانت في زمان الشباب ، فقافلة العمر تمر الآن بمرحلة الأربعينات ، ولهذا يصعب علي المشي تحت أشعة الشمس بعد تعب السفر .

في المساء تفسحنا في البلدة وما حولها ، وفي النادي العسكري التقينا بالسيد / توفيق زين العابدين الموصلي إمام الجيش ، كان نجله عابد قد أعطانا في الموصل خطابا لتسليمه له ، جلسنا عنده ساعة كاملة ، كان الرجل غنيمة بالنسبة لنا ، وبدا سمحا خدوما ، وهو قريب جدا من الفكر الإسلامي ، وعلى دراية كاملة بالأحوال الجارية ، قدمنا له مجموعة طيبة من مطبوعاتنا وهكذا يمكن أن نعرف بأنفسنا وبدعوتنا في دائرة خاصة ، من دوائر كركوك .

ويمثل سكان كركوك خليطا من القوميات ، إذ يعيش هنا الأتراك والأكراد والعرب ، ولا شك أن القرى المحيطة يسكنها الأكراد فقط ، كما توجد قرى يسكنها الأتراك ، سأل عاصم أحد أصحاب المحلات بالعربية عن مكتب البريد، فأظهر صاحب الدكان عدم معرفته ، فسألته :

- هل تعرف الفارسية ؟

فقال :

- لا . .

فسألته والإنجليزية ؟ فأجاب بالإثبات .

وحين سألته من جديد عن مكتب البريد ، لم يبد جوابا ، فقال شرطي بجوارنا بالعربية :

- تعالوا سوف أدلكم على مكتب البريد .

وفي الطريق سألنا :

- هل أنتم قادمون من الموصل ؟

فأجبت :

- نعم

فقال :

- الموصل أيضا مدينة جميلة .

فقلت :

- هل أنت من سكان الموصل ؟

فقال :

- نعم .

وصلنا إلى مكتب البريد الذي كان على بعد فرسخ تقريبا ، واستأذن منا وهو يعتذر ، فأهل الموصل يمتازون عن سكان العراق بحسن الخلق والأمانة .

بينما كنا نمر بشوارع كركوك إذا بشاب يرتدي الملابس العراقية يسألنا بلغة أردية جميلة ، هل أنتم باكستانيون ؟ ثم أخذنا إلى محل ترزي قريب ، وعلى واجهة المحل وجدنا لوحة مكتوب عليها " خياطة بنجاب " وهناك التقينا ببعض أهالي البنجاب ، الذين رحبوا بنا ، بحرارة ، وبحب شديد ، وأخذوا يسألوننا بشوق عن باكستان وعن مستقبل باكستان .

وفي المساء بعد أن تفسحنا هنا وهناك ، رجعنا إلى الفندق ، وفي الطريق جهز لنا عاصم مؤونة الطعام ، فتناولنا الطعام ، وصلينا واتجهنا إلى المحطة ، وفي الطريق لم يقع لنا ما يستحق الذكر .

بغداد مرة أخرى

السبت ١٨ شوال ٦٨ هجرية ١٣ أغسطس ١٩٤٩م

وصلنا بغداد في الساعة السابعة والنصف صباحا ، نزلنا في شمال بغداد (باب المعظم) فبغداد من ناحية غارقة في السكر والمجون ، ومن ناحية أخرى ترى المناطق الريفية المجاورة للمدينة بفقرها وحالتها السيئة ، وهو ما يثير الغضب نظرا لتوزيع الثروة بطريقة غير إسلامية ، فمن ناحية تعج المدينة بالسيارات التي لا يشاهد بداخلها ركاب ، ومن ناحية أخرى ترى الفقراء الذين يضطرون إلى العيش في عشش وأكواخ متهالكة كاللاجئين . . هذا هو الجو العام الذي يدعو للألم والأسى ، حيث تنمو الشيوعية وتترعرع ، ومواجهة الشيوعية لا يمكن أن يكون بالألفاظ فقط ، أو بالقوانين التعسفية ، فلا يمكن القضاء على الشيوعية دون إحداث تغيير طيب في النظام الاقتصادي للبلاد ، مما يؤدي إلى جعله صالحا لنظام الحياة بأكمله ، ولكن من المؤسف أن القليل جدا من الناس لديهم هذا الشعور ، وكل ما يفعله المتعاطفون من الناس ، هو كتابة مقالة قوية ، معتقدين أن هذا يكفي للتغيير .

وصلنا المحطة في السابعة والنصف وبعدها بنصف ساعة كنا قد وصلنا إلى مقر إقامتنا ، أمامنا يومان فقط ، وسنتجه بعدهما إلى البصرة مساء الاثنين ، وفوق رؤوسنا كومة من الأعمال ، كان بريد أسبوع كامل قد تجمع عند الأستاذ

الهلالي ، فكان علينا أن نطالع البريد ونتفحص ما فيه ، كما كان علينا أن نحجز مقاعدنا ، وبعدها يمكن أن نحدد برنامجنا .

كنت قد تركت عاصما في المسكن ليرتب أمتعة السفر وينظمها ، وخرجت في الساعة الثانية والنصف ، فالتقيت صدفة بمحمد بهجت الأثري ، فبدأ حديث مجاملة لا أكثر :

- والله نحن آسفون . . نحن مقصرون . .

فلذعته بكلامي :

- لكن الحمد لله لم يصدر عنا أي تقصير في حقكم ، والآن أيضا نريد أن نسلم عليك ونودعك في بيتك .

بدا عليه الضيق ، وفي النهاية تحدد أن نزوره في الساعة الخامسة ، ووصلنا في البداية إلى بيت الأستاذ محمد الصواف ، فلقينا بترحيب عظيم ، وسر كثيرا حين سمع بأمر اهتمام ورعاية وكرم أحبابه ورفاقه في الموصل ، وظل يقول :

- كان هذا أقل واجب ، وما أمكنهم القيام به هو أقل القليل .

وشرحت له مكنون قلبي ، وأبنت له عن مشاعري فيما يتعلق بسير الدعوة في الموصل ، ولفتّ نظره إلى تشدد بعض السادة السلفيين ، وسلوكهم غير الحكيم ، والصواف من سكان الموصل وعلى علم بجميع الأحوال ، فأكد على ما ذكرته له .

استأذن الصواف للذهاب إلى الأستاذ الهلالي ، إلا أننا شاهدنا الأستاذ الهلالي قادما ، فذهبنا إلى بيت الصواف ، وظل الأستاذ الهلالي يسألني عن سفري للموصل ، وعن مشاعري وأحاسيسي ، فهو كثيرا ما يمتدح الموصل ، ويثني على أهلها ، ولهذا فرح كثيرا حين سمعني أؤيد رأيه عن الموصل وأهلها ، لكن أهل بغداد ليسوا على استعداد لسماع الثناء على الموصل ومدحها ، فهناك عصبية شديدة فيما يتعلق بهذا الأمر .

عدت إلى مسكننا . . .

وبعد أن استرحت أخذت جولة مع الأستاذ المحترم في مكتب " السجل " و " مطبعة نجيب " بينما ذهب عاصم مع شكيب هلالي إلى الأعظمية لإحضار البريد ، وفي طريق العودة خرجنا معا ناحية شارع الرشيد ، فحجز عاصم مقاعد السفر ، بينما حددت موعدا للقاء عبد الرؤوف (السكرتير الثالث بالسفارة الباكستانية) ففي مساء يوم الأحد الاحتفال بعيد الاستقلال ، فهم يحتفلون في ١٤ أغسطس بعيد الاستقلال [٥] وينفقون آلاف الروبيات على المشروبات ، ولا يزال مئات الآلاف من مظلومي هذا اليوم يرتعدون بحثا عن الرزق ، والدعوة إلى هذا الاحتفال عامة ، ، فقدموا لنا دعوة لتناول الطعام يوم الاثنين ، لكن مشقة الذهاب في حر الظهيرة أمر فوق طاقتي ، لم أتمكن من التحدث كثيرا بالهاتف ، وسوف نتكلم كثيرا في الحفل ، التقيت أيضا بقادري ، وأعطيته نسخة من " الإنصاف " .

في المساء طرقت باب الشيخ أمجد الزهاوي ، فعلمت أنه خارج البيت ، وكالعادة قضيت معظم الوقت في المساء مع الأستاذ الهلالي ، ودار الحديث عن السفر ، وكان السيد / عبد الحميد الخطيب (الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في باكستان) قد أرسل خطابات لمن سألتقي بهم في الرياض ، ومكة المكرمة ، وجدة ، وأعطانا أيضا عنوان أحد أصدقائه في الكويت ، وبفضل الله تعالى ، ثم بعناية الأصدقاء ، واهتمامهم لن تصادفنا أي مشقة .

الأحد ١٩ شوال ٦٨ هجرية / ١٤ أغسطس ١٩٤٩م

قضينا معظم يومنا هذا في الاستعداد للسفر ، انهمك عاصم في ترتيب أمتعة السفر ، بينما قام كاتب السطور بوداع هيئة تحرير " السجل " في مطبعة الرأي العام ، وجلست قليلا عند طه فياض ، وأطلعت محمد الخطيب بالهاتف على برنامجنا ، وحددنا وقت اللقاء بعبد الله الخيال (الوزير المفوض للحكومة السعودية في بغداد) وكان قد رغب أن نلتقي به وبخاصة قبل السفر .

تجولت قليلا في الساعة العاشرة ثم رجعت ، وكنت قد أرسلت عاصما إلى كمال الدين الطائي ، فأعاد كتاب الأموال واستفسر عن قيمة الكتب .

في الساعة الثانية جاء محمد كمال الخطيب ، وسلمنا خطابات إلى أصدقائه في الكويت والرياض ، ففي العام الماضي أدى فريضة الحج من نفس الطريق ، وهو مشغول بكتابة رحلة للحج ، وفي الخامسة والنصف عصرا ذهبنا إلى محمد بهجت الأثري ، ودار بيننا حديث لنصف ساعة ، وهو عالم وأديب عراقي مشهور ، كما أنه من خاصة تلاميذ محمود شكري الآلوسي (٦) يرتدي

ملابس العلماء ، لكن حديثه كله مجاملة لا أكثر ، وقد ذكر لنا طه فياض هذا الأمر منذ البداية ، وصدق ما قاله لنا بشكل عملي ، فقد ظل يشكو عدة مرات من الحر ، فضقت ذرعا بكلامه وقلت له :

- لقد أعطاك الله النعم الكثيرة ، ووفر لك سبل الراحة والدعة ، فلماذا إذن هذه الشكوى ؟!

فقال :

- نعم صحيح ، لكن ما هو علاج هذا الجو ؟

يا له من إنسان رقيق !!

في المساء كان الاحتفال بعيد الاستقلال يجري في القنصلية الباكستانية ، ولم يحدث أن شاركت في حفل أو جلسة لهؤلاء الناس ، كما أنه لم يسبق أن قدمت لي دعوة إلى أي منها ، وقد عقدت العزم على الحضور اليوم بناء على إصرار عبد الرؤوف ، فاصطحبت الأستاذ الهلالي ، واتجهنا إلى " علوبة كلاب " (أي نادي علوبة) ، هو ناد إنجليزي ، والتقينا بمحمد محمود الصواف في طريق بعيد عن الأعظمية ، وشارع الرشيد ، كان بصحبته طه فياض ، وكان الوقت المقرر للحفل من الساعة السابعة حتى الساعة الثامنة والنصف ، صلينا في الطريق ، ووصلنا إلى " علوبة كلاب " بسيارة أجرة ، وكان في استقبالنا على الباب خورشيد علي (المشرف على المكتب) ولعله " ماسوني " ومن خلفه كان سيد رضا ، يتولى مسئولية الترحيب بالضيوف ، وهو من سكان

منطقـة " يو بي UP "(٧) رجل على خلق عظيـم ، وهو موظف بالقنصلية الباكستانية، وكان يعمل قبلا بالسفارة البريطانية ، وهو في الغالب شيعي ، إلا أنه غير متعصب ، رحب الصدر ومتسامح (وذلك طبقا لرواية قادري) وحين وصلنا إلى القنصلية ، صرت تلقائيا قائدا للقافلة ، كان الصواف هو قائدها حتى باب النادي ، ولكن الوضع تغير داخل النادي ، فقد تقدم العبد الفقير بشكل طبيعي ليتولى التعريف ، وكان خورشيد قد خاطبني قائلا :

- أنت في بيتك ، خذ معك الضيوف

كان فناء النادي منقسما إلى قسمين : القسم الأول يقوم فيه عبد الرؤوف باستقبال الضيوف والتعريف بهم ، بينما كان القسم الثاني وهو القسم الداخلي مخصصا لكبار الضيوف وأرباب الجاه والحشم ، حيث صفت الكراسي الفخمة.

كان الدكتور محمد صديق (القنصل الباكستاني و القائم بالأعمال) وحرمه في استقبال الضيوف ، ولا أدري لماذا أتعب الدكتور حرمه؟! فالمسكينة من خلال لباسها وحركاتها ، تبدو وكأنها سجين جديد لا يدري أين هو ، لقد ظلمها الدكتور ظلما شديدا !

دخلنا الصالة معا ، ولكننا لم نتمكن من الجلوس في مكان وحد ، فقد كان الناس من كل نوع ، ومن كل جنس ، احتشدوا في الصالة ، كان من بينهم الوزراء ، والعلماء ، ورجال الأعمال والناس العاديون والموظفون البسطاء ، غرقوا جميعا في تناول العصائر والمشروبات ، وتبادل الأحاديث ، أما العبد لله

فكان متفرجا ، كانت مقاعد النساء مصفوفة في جانب من القاعة ، بينما كان الناس يدورون في حلقات يكلم بعضهم بعضا ، يغمرهم الفرح والسرور ، لأنهم وجدوا فرصة عظيمة للحديث مع الأصدقاء والمعارف .

ظل كل من الصواف وطه فياض حتى نهاية الحفل ، لم يعجب الأستاذ الهلالي بالحفل فعاد بسرعة ، بينما كنت أود أن أعتذر لعبد الرؤوف ، عن الدعوة التي قدمها لنا لتناول الطعام ظهر الغد ، وكان من الصعب تلبية هذه الدعوة نظرا لمشاغلي ، لكن كيف يمكن الحصول عليه وسط هؤلاء الضيوف الكبار ؟! على كل حال تمكن قادري من إحضاره عندي ، فاعتذرت له عن دعوة الطعام ، وأخبرته أنني سأمر عليه ، وأنا في طريقي للقاء الخيال .

شكا الأستاذ الهلالي عدم اهتمام الداعين به ، ولهذا قرر الانصراف سريعا ، لكن لماذا يعول كثيرا على أرباب الجاه ، ومحبي السلطة ؟! إن ميزان الشرافة والفضل عندهم هو درجة المنصب ، ولا قيمة عندهم لسيرة الإنسان أو صلاحيته أو كفاءته .

الاثنين ٢٠ شوال ٦٨ هجرية / ١٥ أغسطس ١٩٤٩م

نودع بغداد اليوم ، بعد ثلاثة أشهر . . .

انشغل عاصم منذ الليل في ترتيب متاع السفر ، بينما ذهب العبد الفقير بعد تناول الشاي والفطور إلى " الوزيرية " وهو حي جديد في بغداد ، توجد به سفارات البلدان الأجنبية ، لا يبعد كثيرا عن المدينة ، ولا شك أن الحافلات

تذهب إليه بين الحين والآخر ، كل ربع ساعة أو كل عشرين دقيقة ، وقد يضطر الإنسان إلى الانتظار أكثر من هذا .

التقيت أولا بعبد الرؤوف الذي ذكر لي تنبيها صدر إليه من محمد محمود الصواف ، وتأثر منه كثيرا ، وأنا أعرف ماذا عساه أن يكون قد قال له ؟ !

لقد اختيرت امرأة فاحشة من العراق للعمل في القسم العربي في إذاعة باكستان ، والمرأة من الناحية الدينية تنتمي إلى الطائفة البهائية ، أو هي بلا دين ، ومن الناحية الأخلاقية ، تعد من طائفة العاهرات ، وقد أثار هذا الاختيار أيضا شباب العراق الشهم ، فكان كل من يقابلني يلومني أنا على هذا الأمر الذي صدر من المسئولين الباكستانيين ، وكان الصواف قد ذكر لي هذا الأمر ، وقال إنه سوف يتحدث عن هذا أثناء الاحتفال بعيد الاستقلال وظل عبد لرؤوف يعتذر لفترة طويلة :

- نحن لا دخل لنا في اختيار هذه المرأة ، فقد حضر سهروردي (رئيس هيئة الخدمة العامة) من كراتشي ، وتأثر بعد مقابلته لهذه المرأة كثيرا . .

فقال العبد الفقير بوضوح :

- في الحقيقة معيار الاختيار بيننا وبينكم مختلف تماما ، فأنتم أي أصحاب السلطة في حكومتكم ، متأثرون بالظاهر والشكليات ، أما نحن فالشرط الأول عندنا هو الأمانة والديانة ، فإذا فلت زمام الدين في أي شعبة من شعب الحياة ، نتج عن ذلك فساد الأخلاق .

فأقر بما قلته له ، ولكنه أولا وأخيرا موظف ، ماذا يستطيع أن يفعل ، وهو بذاته شاب خجول يلفه الحياء ، كما أنه على خلق طيب ،وشاب صالح .

كان الوقت يمضي بسرعة ، ودارت بيننا أحاديث متفرقة كثيرة ، وعبر لي عن رغبته في أن تستمر علاقتنا عن طريق المراسلة ، بل طلب مني أن أكتب له بشكل خاص من الرياض ومكة المكرمة فقلت له :

– من الصعب أن أكتب لك من الرياض ، إن شاء الله سأحاول أن أكتب لك من مكة المكرمة .

التقيت بعبد الله الخيال (الوزير السعودي المفوض في بغداد) حسب الموعد ، كان في انتظار سماع الأخبار من دمشق ، من خلال نشرة الأخبار عبر الإذاعة ، فقد أوقع الانقلاب الجديد في سوريا الناس في حيرة شديدة ، فقد سيطر حسني الزعيم على منصب الرئاسة ، وتمكن تماما وبسرعة شديدة من السيطرة على زمام الأمور في البلاد ، وكان موت رئيس الوزراء (محسن البرزاني) على يد ضابط عسكري آخر ، وقد أثار هذا عدة أقاويل مختلفة ، وحتى أصدقاؤنا من الدمشقيين الذين التقينا بهم في بغداد ظلوا مترددين في إعطائنا أي رأي عن الانقلاب الجديد ، كان محمد كمال الخطيب من المؤيدين بشدة لحسنى الزعيم ، وفي رأيه أن الشعب مطمئن إليه ومسرور به ، لكن الانقلاب الجديد والنهاية المؤسفة لحسني الزعيم ،أوقعته أيضا في حيرة [٨] .

كان لكل من مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية سياسة واحدة داخل جامعة الدول العربية ، ولهذا كان قلق عبد الله الخيال أمرا طبيعيا ، وقد تبادلنا

الحديث لفترة عن هذا الانقلاب ، وبقيت أستمع معه أيضا إلى الأخبار التي كانت تذاع من دمشق ، وخلاصة أخبار اليوم هي أن هناك وزارة قد تشكلت من جميع الأحزاب بقيادة الزعيم السوري المتقاعد هاشم الأتاسي .

ذهبت بعد ذلك إلى بيت الشيخ أمجد الزهاوي ، وجلست معه فترة ، ثم استأذنت ، استقبلني العلامة الزهاوي كالعادة بود ومحبة ، وهو يستعد من الآن للاشتراك في جلسة " المؤتمر الإسلامي " القادمة ، ويرى أن يشترك في الجلسة المصغرة المقترحة التي ستعقد بمناسبة موسم الحج ، وإلا فقد أدى الرجل فريضة الحج منذ فترة طويلة .

في طريق عودتي ذهبت إلى كمال الدين الطائي ، والتقيت بالصواف في الطريق وأردت أن أودعه ، لكنه قال : " إن شاء الله سأودعكم في المحطة " وهكذا ذهبت أيضا إلى الأخ المحترم " طه فياض " لدقيقتين ، فوعد أيضا أن يأتي إلى المحطة ، وكنت أريد أن أقول له شيئا ، فإذا به يقاطعني قائلا : سوف يكون آخر حديثنا على المحطة ، وقد نشرت : السجل " اليوم بيانا مختصرا ، وكانت قد كتبت تعريفا جيدا بمطبوعات دار العروبة .

رجعت من جولتي هذه في تمام الساعة العاشرة والنصف ، وفي ذلك الوقت كان عاصم قد انتهى من ترتيب الأمتعة ، وأرسلت الأسرة والطاولات والكراسي وغيرها من الأمتعة الضرورية التي سبق شراؤها إلى الأستاذ الهلالي ، ولم يعد في الغرفة من مكان للجلوس سوى الحقائب الضخمة ، والألحفة ، والبياضات المطوية ، التي نحملها معنا عادة ، وهكذا تناولنا طعام الغداء

جلوسا على أرض الغرفة ، ووضعنا الطعام على أوراق الصحف ، وقدم إلينا الصواف ومحمد الخطيب ، ونحن على هذا الحال ، فجلسا دون أي تكلف على الحقائب والألحفة المطوية .

وصلنا محطة السكة الحديد في المساء ، وهناك وجدنا في انتظارنا الأستاذ المحترم العلامة الهلالي ، والحاج طه فياض ، والأستاذ محمد محمود الصواف ، والأستاذ فيصل (وهو أخ للصواف) وتصدق حسين قادري ، وعدد من الشباب ، ودار الحديث على رصيف المحطة لفترة ، وهنا تعرفنا بالحاج فهد الراشد أحد تجار البصرة عن طريق الصواف ، وواعدناه باللقاء في البصرة .

تحرك القطار في الساعة السادسة والنصف بعد أن ودعنا الأحباب والشيوخ ، كنا قد غادرنا كراتشي في ٢٨ إبريل ، ووصلنا إلى البصرة في الخامس من مايو ، وبغداد في العاشر من مايو ، وهكذا مكثت في بغداد أكثر من ثلاثة أشهر ، كانت هذه أولى مراحل السفر ، في كراتشي فكرت في الذهاب إلى دمشق عن طريق بغداد ، ومن دمشق أتجه لأداء مناسك الحج والعمرة ، ولكني غيرت رأيي بناء على مشورة الشيوخ والأحباب ، وها أنا أقصد ديار الحرمين عن طريق الكويت والرياض ، أعانني الله ووفقني لتحقيق ما أصبو إليه ، ووفقني لأداء مناسك الحج وزيارة المسجد النبوي وخدمة الدين الحنيف .

وهكذا أتجه إلى البصرة بعد أن مكثت في بغداد ثلاثة أشهر ، كانت عربة القطار خالية ، وكانت المقاعد كلها بين أيدينا ، ومن الناحية الظاهرية لم يكن هناك تعب ، لكن من الناحية الذهنية كان الدماغ مشغولا ، فعلي أن أكتب تقرير

ثلاثة أشهر ، الحمد لله لم يضع جهدي سدى ، وأنا أسعى للمزيد من التوفيق فالأمر بيد الله .

في الصباح التقيت بالحاج فهد الراشد في عربته ، استقبلني بحرارة شديدة، وأصر على أن أنزل ضيفا عليه في البصرة ، فقلت له : لقد كتبت لعبد الله العقيل ، ومن الممكن أن يأتي ، فقال : عبد الله بمثابة أولادي ، ولو جاء فحقه مقدم ، فالتدخل في أمر الضيف يتعارض مع آدابنا ، وإذا لم يأت ، فأنت ضيف علي تنزل في بيتي ، ووعد أيضا بأن يكون دليلي ومرشدي في السفر إلى الكويت والرياض ، فله أحبة وأصدقاء ومعارف في كل مكان .

البصرة والزبير مرة أخرى

الثلاثاء ٢١ شوال ٦٨ هجرية / ١٦ أغسطس ١٩٤٩م

وصل القطار البصرة في الساعة العاشرة ، فوجدنا أصحابنا في انتظارنا ، وبينما كانت الأيادي تمتد بالسلام ، كانت هناك أياد أخرى تمتد لتحمل الأمتعة من على الرصيف ، وقد أعجبنا بهمة هؤلاء الشباب الذين كانوا يرتدون الملابس الإفرنجية ، فهذه البساطة وهذا الجد ، وسط هؤلاء الناس الذين يبدو عليهم التأثر بالثقافة الغربية أمر يدعو للتقدير ، وينبئ بمستقبل طيب .

على الرصيف التقينا بالحاج فهد الراشد للمرة الثانية ، فقال للشباب : حسنا ، لقد جئتم ، وهكذا ليس من المناسب أن أقول شيئا ، وعلى كل فالجماعة كلها مدعوة لتناول الطعام غدا في بيتنا المتواضع ، كان الشباب يعرفونه جيدا ، ولم يجدوا أي سبب يدعوهم لرفض الدعوى .

نزلنا في فندق السعادة حيث أقمنا من قبل ، كان هذا المكان متعب من ناحية الجو ، فالهواء لا يمر بالغرفة ، ولا توجد مروحة أيضا ، على كل حال تقرر أن تكون الإقامة اليوم في هذا الفندق ، وأن نبحث فيما بعد عن غرفتين في فندق آخر ، وننتقل غدا ، وهكذا بقينا طول اليوم في فندق السعادة ، كتبت الخطابات الضرورية ، وبدأت محاولة استكمال كتابة يومياتي .

في المساء التقيت بشباب " الجمعية الإسلامية " فهؤلاء الشباب هم محط آمالنا في العراق ، وتعتبر محاولة هؤلاء الشباب العودة إلى الدين ، ودعوة الآخرين للدين عملا شجاعا ، وهمة عالية ، وسط هذا الجو الذي يسوده خراب الأخلاق ، ونزعة الابتعاد عن الدين ، ومن الجدير بالذكر أنهم - في معظمهم - متأثرون بدعوة الإخوان المسلمين ، وهم متحمسون تماما ومخلصون ، والحب الذي يجمعهم يدعو للغبطة والسرور ، لكن يقل فيهم الإحساس بعمق الفكر ، ومن الملاحظ أن البرنامج المحدد والمنظم في دعوة الإخوان الشاملة ، والمطبوعات التي تنشر ، فيها حرارة الإيمان ، لكن لا يوجد فيها عمق الفكر والفهم ، ولهذا ، تصدر عنهم أخطاء في معظم الأوقات نتيجة لافتقادهم للعلم.

تحدثت مع هؤلاء الشباب لفترة طويلة ، فمطبوعاتنا تجد قبولا لديهم ومعظمهم متأثر بها ، وقد شكوا جميعا من ارتفاع سعر هذه المطبوعات ، فذكرت لهم ما لدي من معلومات وقلت :

- ليس لدينا تقدير صحيح لنفقات الطباعة ، وسوف نبلغ رسالتكم إلى أحبابنا في المكتبة عند عودتنا ، ولا بد أنهم سيعيدون النظر في هذا الأمر إن كان هناك مجال يسمح بذلك ، فالهدف هو الدعوة وليس التجارة .

الأربعاء ٢٢ شوال ٦٨ هجرية / ١ أغسطس ١٩٤٩م

كنت قد أخبرت الأصدقاء أننا نريد أن نعمل بالنهار ، ولهذا سنكون تحت تصرفهم من الساعة الخامسة مساء حتى العاشرة ليلا ، ويمكنهم أن يأخذونا حيث شاءوا في هذه الفترة .

كتبت بعض اليوميات وبعض الرسائل في الصباح ، ،بينما أخذ عاصم يعيد كتابة الحلقة الثانية من اليوميات حتى نرسلها إلى مجلة " الكوثر " كما كتب هو بدوره بعض الخطابات أيضا .

تناولنا طعام الغداء مع الجماعة كلها في منزل الحاج فهد الراشد ، كانت وليمة كبيرة ، وبالنسبة لي تكون هذه الولائم عذابا ، وعلى كل حال أحاول أن أحتاط على قدر ما أستطيع ، ومع هذا أشعر بعد ذلك بالتعب ، وكانت لنا بالطبع جلسة قبل الطعام وبعده ، ووعد الرجل بأن يقدم لنا جميع المساعدات الضرورية في سفرنا إلى الكويت والرياض ، وسوف نلتقي به إن شاء الله قبل السفر . .

كانت هناك مشكلة قانونية تتعلق بسفرنا ، إذ يجب على من يغادر الكويت الحصول على إذن " خروج " وكان مدير عام " شرطة الإقامة في بغداد " علي غالب قد أخبرنا بأن إذن الخروج يمكن الحصول عليه بسهولة في البصرة ، ولكن حين أخذ عبد الله العقيل جوازاتنا إلى مكتب الجوازات ، أخبره رجل الأمن العام إنه لا بد أن نستفسر من بغداد ، فإقامة هؤلاء الناس كانت في بغداد ، ولهذا لا يمكن أن نعطيهم إذن خروج دون الاستفسار من بغداد ، واضطررنا إلى دفع مبلغ برقية مستعجلة ، كما كتبنا خطابات منفصلة إلى الهلالي وطه فياض ، فعلي غالب مدير عام شرطة الإقامة صديق طه فياض ، ولهذا لم تواجهنا صعوبة تذكر هناك .

كانت جلسة المساء حسب ما سبق في مكتب الجمعية الإسلامية ، ودارت أحاديث مختلفة متنوعة : في القسم العربي بإذاعة باكستان تم تعيين امرأة

عاهرة، ورجل متحرر الفكر ! وهكذا ثار هؤلاء الناس ، وعبروا عن مشاعر القلق ، وظلوا يرددون : كيف يمكن لحكومة باكستان ، وهي حكومة إسلامية أن تتحمل مثل هؤلاء الناس .

ووجه أحدهم حديثه لي ، وكان أكبرهم سنا وأكثرهم فهما :

- يا سيد ! إن هذا الاختيار قد أخجلنا كثيرا .

وهو لا يقصد بـ" أخجلنا " المتكلم بل المخاطب . . فليخبرنا أحد الناس ماذا عسانا أن نخبرهم .

وطبقا لبرنامجنا انتقلنا إلى فندق آخر يسمى فندق الأعيان ، ويقع في شارع متصل بإحدى مناطق عشار النظيفة ، والجو العام طيب ، ولكن بجواره دار للسينما ، ولهذا يستمر الصياح والضجيج والشغب حتى الساعة العاشرة ليلا ، ومن حظنا الطيب أنه لا يوجد صخب أو ضجيج بعد العاشرة ليلا ، ولا شك أنه في صباح يوم الجمعة يعج المكان بالحركة ، إذ تتعطل الدوائر الحكومية .

الخميس ٢٣ شوال ٦٨ هجرية / ٨١ أغسطس ١٩٤٩م

مكثنا في الفندق من صباح اليوم حتى الساعة الخامسة والنصف ، وانشغلت بكتابة الخطابات ، واستكمال اليوميات ، بينما استمر عاصم يعيد كتابة اليوميات بالإضافة إلى كتابة الخطابات ، ثم استراح بعد ذلك .

تشبه حرارة الجو في البصرة حرارة الجو في جالندهر ولاهور ، والهواء خانق جدا ، وبدون مروحة يصبح الأمر صعبا ، وعلى العكس من ذلك يكون

جو بغداد ، فهو ليس بخانق كما أن ليالي بغداد طيبة ولطيفة ، بالإضافة إلى أن الماء في بغداد عذب جدا ، ومفيد للصحة ، مقابل وجود أثر لملوحة البحر علي مياه البصرة ، ولا يتعدى أثر البحر " قرنة " (المكان الذي يلتقي عنده دجلة بالفرات ويطلق عليه اسم " الشط " ويبعد عن البصرة حوالي ٨٠ ميلا تقريبا) والمسافة بين بغداد والبصرة حوالي ٣٥٠ ميلاً تقريبا ، والماء في الموصل أكثر عذوبة من ماء بغداد ، والليالي هناك أكثر برودة وجاذبية ومتعة .

جلسنا بعد المغرب في دفتر الجمعية لفترة ، ثم ذهبنا إلى بيت عبد الله العقيل ، حيث تناولنا بعض الأطعمة والمشروبات ، فلا يوجد أحد في بيته ليلة الجمعة ، لأن أسرته تذهب إلى الزبير ،ولهذا فهو حر اليوم ، ولا بد أن أشير هنا إلى أن والده وأسرته قلقون جدا بسبب علاقته بالحركات الدينية ، وبسبب نشاطه الواسع ، ومن ناحية أخرى فهو أكثر الشباب هنا تحمسا [٩] لقد أعجبني كثيرا أسلوب هذا الشاب ، ومسلكه ، وطريقته في التعامل ، فقط يحتاج الأمر إلى توجيه هذا الحماس إلى الطريق الصحيح ، ومن المفرح أيضا أنه لا يغيب عن نظره قوله تعالى : " صاحبهما في الدنيا معروفا "

وبناء على إصرار هؤلاء الشباب ، قررنا الاستماع إلى البرنامج العربي من راديو باكستان ، لكن اليأس أصابنا ، فقد كان المذيع في الغالب مصريا ، وأهل مصر ينطقون الجيم مثل الكاف الفارسية ، وكانت اللغة رديئة ، وكأن المذيع لا يعرف قواعد الإعراب ، كما استمعنا أيضا إلى حوار إذاعي كان مستواه رديئا ، وكأن المتحدثين يدرسون في مدرسة ابتدائية ، كان يستمع معي إلى الإذاعة حوالي عشرة من الشباب ، وكانوا كلهم غاضبين من باكستان ، ولم يكن في

مقدورنا أن نرد عليهم بشيء ، ولم يكن هناك مجال للتأويل ، ومستوى إذاعة بغداد نفسها ليس جيدا ، لكن مذيعيها يستخدمون لغة جميلة وصحيحة ، ولهجتهم تستحق الثناء ، كما أن أخطاء الإعراب قليلة جدا .

في هذه الجلسة أيضا استمعنا إلى البرنامج العربي من موسكو ، وبصرف النظر عن الأفكار ، فاللغة جميلة جدا واللهجة أيضا ، وتدني مستوى راديو باكستان دليل على عدم أهلية من اختيروا للعمل بالإذاعة الباكستانية ، وإلا فيمكن وجود العديد من الأشخاص الصالحين اللائقين لهذا العمل ، فإذا لم يكن لدى من يختارون المذيعين نظر ، فإن كل شيء ممكن .

الجمعة ٢٤ شوال ٦٨ هجرية / ١٩ أغسطس ١٩٤٩م

صلينا في جامع الخضيري ، صارت هناك طبقة خاصة من شباب البصرة مألوفة لدينا ، وصار بيننا وبينهم ألفة الأصدقاء ومحبتهم ، بعد السلام والتحية على الأحباب والرفاق ، ذهبنا إلى المطعم ، ثم عدنا بعد ذلك إلى الفندق ، وهؤلاء الرفاق والأحبة ، يفوقون قدرا في بعض الأمور رفاقنا وأحبتنا من شباب الهند وباكستان ، ففيهم حماس شبيه بحماس المسلمين الجدد ، ورغبتهم في العمل ، تجمعهم محبة شديدة ، ويضمهم انسجام يفوق أيضا ما نشهده لدى رفاقنا في الهند وباكستان ، إلا أنهم يفتقدون ما لدى رفاقنا من عمق الفكر وبعد النظر ، والفهم الصحيح للقضايا ، وهذا هو الفرق بين الأسلوب الأساسي للدعوة ، فرئيس جماعتنا المودودي يخلو من العواطف ، ويعتمد كلية إلى الفكر والنظر ، وعلى العكس منه كان المرحوم حسن البنا الذي كان يميل كلية إلى العواطف والحماس ، وقد أدركت هذا الأمر بعد قراءة سيرته التي كتبها

بنفسه ، وبعد سماع أقوال رفاقه المقربين إليه ، ويمكن ألا يكون هذا الرأي صحيحا تماما ، ولكن هذا لا يعني أيضا أن فهمه للدين لم يكن صحيحا ، والإخوان لا يكتفون - مثل جماعة مولانا إلياس التبليغية - [١٠] بنطق كلمة الشهادة فقط ، بل يوجد في دعوتهم تصور شامل وجامع للدين .

استمعنا بعد صلاة العشاء وللمرة الثانية إلى البرنامج العربي من باكستان ، ومن حسن الحظ أن التقرير الأسبوعي لصديقنا " أبو محمود " كان يذاع اليوم ، وكان هذا هو الشيء المتميز في البرنامج كله ، فالتقرير كان ممتازا من جميع الوجوه ، اللغة واللهجة ، وأسلوب البيان ، والمحتوى الفكري ، وعاطفة الإيمان ، كان الشباب هنا كلهم آذانا صاغية ، وكانوا يتأسفون لأن مثل هذا التقرير المفيد لا يذاع إلا مرة واحدة في الأسبوع ، وأكثر من هذا مدعاة للعجب ، البرنامج المختصر لتلاوة القرآن الكريم ، ففي إذاعة بغداد برنامج تلاوة القرآن الكريم يذاع لمدة نصف ساعة ، أما هذا البرنامج من إذاعة باكستان فلا يستغرق خمس دقائق . . شيء غير مفهوم[١١] .

السبت ٢٥ شوال ٦٨ هجرية / ٢٠ أغسطس ١٩٤٩م

سبق لي زيارة الزبير مرة ، واليوم أذهب إلى الزبير لتجديد العهد مع الأحباب مرة أخرى ، تحدثت في البداية مع الأستاذ عبد الله الرابح في مكتبة المنار ، واشترك معنا بقية الشباب ، كان موضوع الحديث متنوعا ومتشعبا ، سأل الشباب أسئلة متعلقة بباكستان والهند ومولانا أبي الكلام آزاد ، وتحدث عبد الله الرابح عن إطلاق اللحية والتصوير ، وهو مثل بقية علماء العرب ، أخذ يقدم الأدلة على جواز التصوير الفوتوغرافي ، وكان مُصراً على رأيه ، ولم

أستطع من ناحيتي إقناعه بأي حال من الأحوال ، لكن أدلته عن اللحية كانت إلى حد كبير ضعيفة ، فمن العجيب ألا يكون لدى هؤلاء السادة استعداد للاعتراف بأن إطلاق اللحية سنة مؤكدة . وإذا ما تركنا هذه المسائل الفرعية كان بيننا على كل حال اتفاق في الأصول ، وقد اطلع على مطبوعاتنا الست ، وأثنى كثيرا على أسلوبنا الفكري والنظري ، وعبد الله الرابح عالم على قدر كبير من الفهم ، كما أنه على عكس ما يروج هنا ، رجل متواضع تماما ، لا تشوبه شائبة من تكبر أو غطرسة ، تناولنا طعام الغداء في بيته ، وجلسنا عنده نتحدث ونتحاور حتى العصر ، كان معنا بعض الشباب ، وبصعوبة تمكنت من الاستراحة لساعة أو ساعة وربع ، فهذا الأمر يتعبني ويصيبني بالإرهاق في السفر .

بعد العصر زرنا بيت الشيخ محمد بن عبد الرحمن السند ، وهو عالم سلفي ، حجة في العلم ، ورأيت أن أستفيد من مكانته ، وقدره ، وعلمه ، فسألته بعض الأسئلة تماما مثلما يسأل التلميذ أستاذه ، كان من بين أسئلتي له بعض الأسئلة عن الحج ، ثم سألته رأيه أيضا في التصوير واللحية ، فوجدته معتدلا في هذه القضايا ، ووجدت آراءه قريبة من آرائي ، وعند الوداع ورد ذكر السلطان ابن سعود ، فالشيخ محمد بن عبد الرحمن السند يثني كثيرا على السلطان ، ويطري عليه ، ويمتدحه دائما ، ودار نقاش في موضوعات لم يستطع العبد الفقير الاتفاق معه عليها ، عندئذ قال الشيخ السند :

- إنك الآن ذاهب للحج ، وإن شاء الله تستطيع أن تطلع على الأمور بنفسك ، وترى كل شيء بعينيك .

ذهبت بعد ذلك إلى بيت عبد الله المزين ، وبالصدفة كان هناك الحاج محمد العقيل (عم عبد الله العقيل) وعبد الله الصوفي الموصلي (قاضي القضاة) [١٢] ويعمل عبد الله المزين مدرسا في مدرسة النجاح ، وهو أديب ، صاحب ذوق رفيع ، تمتعت بصحبته وبصحبة من كانوا معه لمدة نصف ساعة ، لم نتحدث عن الدعوة والتبليغ ، بل تحدثنا عن أمور أدبية ، وكان قاضي البصرة قد جاء في أمر شهادة من الشهادات ، وكانت عربة الحاج محمد العقيل موجودة، فعرض علينا أن يوصلنا مع القاضي ، وقدم لنا الحاج محمد العقيل أيضا الدعوة لتناول طعام الغداء ، ولما كان الذهاب والإياب في الحر الشديد يشق علي كثيرا ، اعتذرت له ، لكنه أصر على الدعوة ، وعند العودة وجدت عاصما يستريح في الفندق ، نظرا لما أصابه من إرهاق ، بينما مكثت في مكتب الجمعية الإسلامية ، حتى صلاة العشاء ، حيث تبادلت الحديث مع الأصدقاء والأحبة .

الأحد ٢٦ شوال ٦٨ هجرية / ٢١ أغسطس ١٩٤٩م

كنا قد أرسلنا يوم الأربعاء برقية إلى بغداد ، لكن الرد لم يصل حتى الآن ، والإقامة في البصرة مدة أطول تصيب الروح بالسقم ، فقد كنت أريد أن أقيم في مكة شهرا على الأقل قبل أداء فريضة الحج ، إلا أن التأخير في البصرة يربك هذا البرنامج ، وبقيت أنتظر حتى الساعة الحادية عشرة ثم اتصلت هاتفيا بطه فياض ، وبعد ساعة تمكنت من الوصول إليه بمساعدة أحد الأصدقاء ، فأكد طه فياض على أنه سيرسل الرد بسرعة ، وكان هذا الرد بخصوص تصريح الخروج .

تناولنا طعام الغداء في منزل الحاج محمد العقيل (بيت العقيل) وهو عم صديقنا الحميم عبد الله العقيل ، هو الآمر والناهي في البيت ، وهو تاجر مشهور من تجار البصرة ، دار الحديث عن أمور مختلفة ومتنوعة ، وهو رجل ذكي على دراية ببواطن الأمور ، ولديه شغف بالاطلاع والقراءة ، التقينا في بيته أيضا بالحاج سعد أحمد الربيعة [١٣] وهو مثل الحاج محمد العقيل كثير الاطلاع، على دراية كبيرة بالأمور ، ومن العجيب أننا حين أقمنا في بيته في المرة الأولى لم ندر عنه شيئا، ولم نشعر بوجوده ، وكان نجله عبد العزيز سعد الربيعة قد أكرمنا كثيرا وشملنا برعايته .

بعد المغرب التقينا حسب الموعد بقاضي البصرة في جامع قطان ، ويقع جامع قطان في البصرة ، بينما يقيم هو في العشار (القسم الجديد من البصرة) والقاضي رجل في غاية الصلاح ، وكان يستعد أيضا للذهاب إلى الحج ، وسوف يسافر بالطائرة في منتصف ذي القعدة .

التقينا اليوم في الفندق بأحد الأكراد ، وهو موظف في إحدى دوائر الحكومة العراقية ، يجيد التحدث بالإنجليزية ، كما يتحدث العربية قليلا ، تحدثنا معا لفترة وهو واقع تحت تأثير القومية ، ويبدو أنه من دعاة القومية الكردية ، وقد توزع السكان الأكراد بين إيران والعراق وتركيا ، وهو في الغالب يريد أن ينفصل الأكراد في البلدان الثلاثة ، ليشكلوا بلدا واحدا للأكراد ، فإذا انتشرت هذه الفكرة وشاعت ،فيجب أن نفهم أنها بداية فتنة ! !

الاثنين ٢٧ شوال ٦٨ هجرية / ٢٧ أغسطس ١٩٤٩م

مر علينا اليوم في البصرة أسبوع كامل ، أشعر بالضجر والملل ، غلبني الشوق إلى نجد والحجاز ولم يكن هذا التأخير في الحسبان على الإطلاق ، مما سبب لنا نوعا من الأرق والتعب ، تمنيت أن أرسل عاصما إلى بغداد ، لكن الأحباب عارضوا ذلك ، ويرون أن إرساله الآن لا معنى له ، فلو كان ذهب منذ البداية لكان أمرًا آخر .

تناولنا طعام الغداء في البصرة أي في المدينة القديمة ، في بيت عبد الصمد الرويني ، وقد سئمت الدعوات ، والولائم الفخمة التي تحتوي على اللحوم والدواجن ، ومثل هذه الدعوات عند كثير من الناس مدعاة للسرور والمتعة ، لكنها بالنسبة للعبد الضعيف مدعاة للتعب والإرهاق .

ومن الجدير بالذكر أن عبد الصمد الرويني متأثر أيضا بدعوة الإخوان ، وجميع شباب البصرة " يحتلون " بيته هذا ، وهم سعداء كثيرا به ، كان قد دعا إلى بيته جميع الأحباب والأصحاب ، وكان من بين الحاضرين أيضا صبية صغار ، كان اجتماعا طيبا ، دار فيه الحديث عن موضوعات مختلفة ، وكان حوارا مثمرا ، وقد شكا بعض الحاضرين هنا أيضا من ارتفاع أسعار مطبوعاتنا ، وقالوا يجب أن تكون أسعار الكتب الدينية والتبليغية في متناول يد الجميع .

كنا قد وصلنا في الساعة الثانية عشرة والنصف ، لكن الطعام تأخر كثيرا انتظارا لبقية الأصدقاء ، فالبعض كان في طريقه إلينا بعد انتهاء ساعات الدوام الحكومي ، والمكاتب الحكومية هنا تبدأ العمل في السابعة والنصف صباحا ،

وتنتهي في الساعة الواحدة والنصف ، انتهينا من الطعام في الثانية والنصف ، بعد أن شاهدنا آدابا ورسوما جديدة ، فقد كانت الكراسي قليلة ، بينما وقف الأحباب والأصدقاء يتحدثون ويختارون ما شاءوا من أصناف الأطعمة المصفوفة على المائدة ، وضعوا كرسيين فقط للعبد الفقير ولعاصم ، فتركت السجادة وانتقلت إلى الكرسي ، ثم انتقلت من على الكرسي لأداء هذا الفرض أي تناول الطعام ، ولنرى إلى أين يجرنا هذا الرقي والتقدم ؟!!

استرحنا قليلا بعد تناول الطعام ، ثم انشغلنا بعد ذلك بتبادل الأفكار مع الحاضرين ، وبعد العصر رجعنا في سيارة عبد الصمد ، ونظرا لانخفاض أسعار البترول هنا ، فامتلاك السيارات أمر عادي .

بعد المغرب جلسنا قليلا في مكتب الجمعية الإسلامية ، وراح الشباب يوجهون لنا أسئلة تتعلق بالجماعة الإسلامية ، وباكستان ، وبعدها قمنا بنزهة على طول شط العرب (وهو الاسم الشامل لدجلة والفرات) لمدة ساعة ، وفي الطريق دار الحديث عن أمور متنوعة ، وكان يرافقني الطالب مهدي السامرائي(١٤) بينما كان عاصم يتحدث مع عبد الله العقيل .

استمعنا اليوم أيضا إلى البرنامج العربي من راديو باكستان ، كان مقال كاظم الحيدري (عراقي في باكستان) غنيمة ، يمكن القول بأن لهجته ولغته معقولة ، ويمكن سماعها ، وكان قد سبقه سعيد رمضان إلى قراءة مقال عن " إقبال " وهو يستحق الثناء ، ففي لهجة سعيد رمضان حرارة وتأثير . . ما شاء الله ! بدأ يفهم إقبال ، قرأ بعض الأشعار بالفارسية والأردية ، لكن نطقه حتى الآن ليس صحيحا ، إن شاء الله سوف يتحسن نطقه رويدا رويدا .

دار حديث مفصل عن أسلوب عمل الجماعة ، وذلك قبل الاستماع إلى برنامج الإذاعة وبعده ، وتحير الجميع حين سمعوا عن مسلكنا تجاه الوظائف الحكومية ، وحاول أحد الحاضرين رفض هذا المسلك ، بل وتغليط من يتبعه ، فقلت بأدب واحترام :

- من فضلك إن الأدلة قاصرة على الكتاب والسنة ، وما عدا ذلك غير معروف لدينا .

عندئذ قال :

- إذن لن يكون أمامنا أي مجال للحديث .

وفي الجملة كان أثر حديثنا طيبا .

ذهبت للفراش في منتصف الليل ، كنت متعبا للغاية ، وكان عاصم يقوم على خدمتي لفترة طويلة فجزاه الله خير الجزاء .

تحدثت مع الأخ الكردي ثانية ، وكان يركز في حديثه على هدفه ، فقد أراد أن يشرح لي جيدا " قضيته " فقلت له :

- أعطني الكتب ، وسوف أقرأها وأكون رأيا .

فقال :

- هل تعد بأن تؤيد قضية كردستان حين ترجع إلى باكستان . سوف أرسل لك الكتب .

فقلت :

- من المستحيل أن أقيم رأيا دون قراءة أو اطلاع ، وعلى كل حال مهما كان الرأي الذي أصل إليه ، فإن باستطاعتي أن أعدك بعرضه .

الثلاثاء ٢٨ شوال ٦٨ هجرية / ٢٣ أغسطس ١٩٤٩م

أشعر بالضجر والملل ، كما أن تناول اللحم والدجاج بشكل مستمر أثر كثيرا على صحتي ، فجو البصرة فيه رطوبة إلى حد ما ، وليس جافا مثل جو بغداد ، كما أن الماء ليس عذبا ، كما هو الحال في بغداد والموصل ، فالماء هنا فيه أثر من ملوحة البحر .

وصلنا عصراً خبر يفيد بأن " الرد جاء من بغداد " وغدا سنحصل على إذن الخروج إن شاء الله ، وقبل المغرب وصل أصدقاؤنا من الزبير : الأستاذ عبدالله الرابح وعبد العزيز الربيعة ، فتحدثت كثيرا مع عبدالله الرابح عن الجماعة الإسلامية وعن باكستان ، وهو يوافق على كل ما ورد في مطبوعاتنا ، وصلينا المغرب معا في " جامع الخضيري " وبقينا هناك أيضا حتى صلاة العشاء ، وبعد صلاة العشاء جلسنا في الفندق، واستمر الحديث مع عبدالله العقيل وصديق له يدعى عثماني ، واستمرت اللقاءات حتى الساعة الثانية عشرة ليلا .

اليوم سألني الأخ الكردي :

- ما فائدة إضاعة المال في الحج ؟!

فقلت له :

- هل أنت مسلم ؟!!

فقال :

- نعم

فقلت :

- الحج مثله مثل الصلاة والصوم فرض على المسلم .

قال :

- أعرف . . أعرف لكن ذلك بشروط .

فقلت :

- أنا على علم بهذه الشروط .

على كل حال يجب ألا أفكر في أمر هذا الشاب ، فمثل هذا النوع من أصحاب النزعة القومية ، بدؤوا يولدون بين الأمة الكردية البسيطة ، الأمة الكردية الشجاعة ، وجاءت هذه الفتنة في الغالب عن طريق تركيا ، لكن هؤلاء أيضا يعادون الأتراك ، والله يعلم ، ولهذا كنت أشعر برغبة في أن أطالع كتبهم، فقد وعدني الأخ الكردي وعدا مؤكدا بأن يرسل إلي هذه الكتب .

الأربعاء ٢٩ شوال ٦٨ هجرية / ٢٤ أغسطس ١٩٤٩م

نمت متأخرا بالأمس ، كنت مرهقا ومتعبا للغاية ، كنت أجد صعوبة في التنفس ، وعادة ما تتحسن صحتي في هذا السفر، زاد التعب علي ليلا ، وفي الصباح شعرت بضعف شديد ، والحق أقول إنه لو لم يكن معي رفيق مخلص

لكان خروجي من حجرتي أمرا شاقا ، وقد قطعت مراحل هذا السفر في راحة تامة حتى الآن ، بفضل من الله وكرمه ، ولم أشعر بأي تغيير رغم نشاطي المتزايد وانتقالي هنا وهناك .

اليوم سنحصل على إذن الخروج ، ويرى عاصم أن نتأهب من الآن للرحيل، ونحل أطناب الخيمة ، بينما كنت أرى أن التأخير ليوم أو نصف يوم لن يضيرنا بشيء ، فقد كان تأخر إذن الخروج هو باعث قلقنا ، فلا حرج الآن لو بقينا هنا لسبب آخر ليوم أو بعض يوم .

في الصباح الباكر وصل إلينا عبد الله العقيل ، واستشرناه في موضوع تغيير العملة ، ونقل المتاع والأحمال ، فسلمنا بكل سرور خطاب تعارف وتوصية إلى أحد أصدقائه في الكويت يقيم في منطقة " حولي " .

في الساعة الحادية عشرة جاء إلينا عبد الله العقيل مع بعض من رفاقه ، وسلمونا " تصريح الخروج " .

تتحرك سيارات الكويت عادة من الزبير مرتين في الأسبوع (الأربعاء والسبت) ولهذا فمن المناسب الاستعداد للرحيل اليوم ، وإلا فعلينا أن ننتظر يومين آخرين ، وهناك أيضا سيارات أجرة تذهب من البصرة ، ولكن ليس لها مواعيد محددة .

اتصلنا بشركة الزبير للحافلات ، وعرفنا بوجود مقعدين خاليين ، لا يوجد مسافرون " بالتاكسي " ويمكن لسائقه أن يتحرك إذا دفع له أجر العربة كاملة ، ومن هنا اضطررنا إلى حجز مقعدين في الحافلة ، لكن الحافلة هنا لا تقارن

بالحافلة في البنجاب أو كراتشي أو حتى بغداد ، فهي تشبه تلك الحافلات والناقلات التي تسير على الطرق في المناطق الريفية في شمال الهند في مناطق بيهار و يو بي . UP

جهز عاصم الأمتعة بسرعة ، واستأذن عبد الله العقيل من أهل بيته ، حتى يذهب إلى الزبير ، فهو يقابلني حتى الآن سرا ، لا أدري لماذا ؟! ففضائل عمه علينا كثيرة ، كما أنه رجل عاقل متفهم للأمور، لكنه لا يفضل أن يشترك ابن أخيه في التنظيمات أو الحركات الدينية ، وذلك فقط حبا في الدنيا ، على كل حال يعرف أهل بيته الآن أنه يلتقي بي ، وقد استأذن لفترة بسيطة حتى يذهب للزبير .

تناولنا الطعام في الفندق ، وتحركنا إلى الزبير في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ، فقد حددت الشركة وقت الرحيل في الساعة الثانية ، وهكذا فكرت أن نذهب إلى الزبير فنستريح هناك قليلا ، وبيت عبد الله العقيل في الزبير أيضا ، حيث تسكن الأسرة كلها ، وفي النهار تأتي الأسرة كلها إلى " عشار " فيمارسون أعمالهم التجارية ولا يتخلف عن ذلك سوى والد عبد الله عقيل العقيل الذي يرعى النخيل (وحدائق النخيل تمثل أكبر ثروة في العراق) في القرية ، ومهمة الليل في العشار من نصيب عبد الله فقط ، وهذا بالنسبة له نعمة كبيرة ، فهو يستطيع أن يمارس نشاطاته باطمئنان حتى الساعة الحادية عشرة ليلا .

المسافة بين البصرة والزبير قصيرة ، لكن الإنسان يشعر حقا بـ " لطف " الصحراء في قيظ حر الظهيرة !!

وقد عرفت الآن لماذا يلبس العرب " الغترة " فهي أفضل وسيلة للنجاة من رياح السموم (وهي هواء الصحراء شديد الحرارة) فهي تغطي الوجه والرأس كليهما، ولا يبدو سوي العينان ، وكنت أتعرض من ناحية لرياح السموم تلك ، ومن ناحية أخرى كان ذهني يموج بأفكار مختلطة :

كان سفرنا حتى الآن من أجل الدعوة والتبليغ وطلبا للعلم ، لكن تحرك السيارة من " العشار " في اتجاه الزبير يعني بداية سفر جديد من نوع آخر ، سفر مبارك ، فأخذت أردد الدعاء المأثور ، بينما أخذت أفكاري تسبقني إلى الكويت، ثم الرياض ، لتصل إلى ديار الحبيب ، وكنت أفكر أحيانا ، إذا كانت هذه رياح السموم بين الزبير والبصرة ، فما حالها بين الكويت والرياض ؟! ولكن سيطر على ذهني فورا فكر من نوع آخر غطى على القلق والخوف ، فالله القادر المطلق ، بكرمه ولطفه ، الذي سهل علينا المشكلات السابقة حتى الآن، قادر على أن يهبنا القوة لتحمل حرارة صحراء العرب تلك .

وصلنا الزبير وأنا غارق في هذه الأفكار ، وبعد أن استرحنا قليلا في بيت عبد الله العقيل وصلنا مكتب الشركة في تمام الساعة الثانية ، كانت الساعة الثانية والربع ، وتحركت الحافلة في تمام الساعة الثالثة والنصف ، في تلك الأثناء حدثت واقعة أتعبتني كثيرا ، فقد جربنا مسئولي الجمارك في أماكن مختلفة ، إلا أن تعنت موظفي الجمارك في الزبير لا مثيل له ، فألحفتنا التي لفها عاصم بعناية وترتيب ، ظنا منه بأنها ستصل مكة بنفس الشكل ، تعرضت من قبل موظفي الجمارك إلى " النكش " و " البهدلة " وبينما الحافلة على أهبة الاستعداد للتحرك كانت الألحفة لا تزال مبعثرة على الأرض ، وقد تمكن عبد الله العقيل

وعاصم بصعوبة شديدة من طيها وربطها ، ووضعها على الحافلة ، ولكننا بقينا طوال الطريق نفكر في الألحفة والفرش .

وقام رجال الجمارك مرة أخرى بفحص الأمتعة في الطريق عند آخر حدود العراق ، وقد قام بهذا العمل موظف فاهم ، وبالصدفة كان صندوق المجموعة الأولى من الكتب مفتوحا ، وفوق الكتب أعداد من مجلة " لسان الدين " التي تصدر في تطوان ، ظل الموظف يتفحصها طويلا ثم قال :

- هذه تصدر من تطوان ؟

وكانت هناك أعداد من مجلة الإخوان المسلمين فقال بعد أن رآها :

- هل تنتمي إلى الإخوان المسلمين ؟

فشعرت بالاضطراب الشديد ، لم أكن على استعداد بطبعي لأن أبرئ نفسي من الانتماء إلى جماعة دينية ، لكني لا أنتمي فعلا للإخوان المسلمين أي أنني لست بعضو فيها ، لكن هذا الاضطراب لم يستمر أكثر من ثانية ، فأجبته على الفور :

- أنا من باكستان

ولعله ظن أن جوابي على سؤاله إن لم يكن غير ملائم ، فقد كان الجواب بالنسبة له عجيبا ، لقد استفدت من الجملة العربية فقد كان سؤاله :

- أنت من الإخوان المسلمين ؟

فقلت :

- أنا من باكستان .

كان الجواب بهذا الشكل هروبا ، وكان توفيقا من الله ، فقال الرجل :

- إن دخول هذه الكتب ممنوع .

فقلت له :

- يمكن أن تأخذها إن شئت .

ثم أمسك بكتاب " أساس البلاغة " وراح يثني عليه ، وبسبب هذا الكتاب لم يفحص بقية الأمتعة .

المسافة بين الزبير والكويت تستغرق في العادة أربع ساعات فقط ، لكن لسوء الحظ ، كانت الحافلة خربة ، فتوقفت عدة مرات في الطريق ، ومن ناحية أخرى كان ثلاثة من المسافرين معنا بدون جوازات سفر ، ولهذا حدث تأخير على الحدود لفترة طويلة ، وعند صفوان على الحدود العراقية ، وخارج الحدود الكويتية ، وفي داخل المدينة توقفنا ثلاث مرات لفحص الجوازات ، وبدلا من أن نصل الكويت في الساعة السابعة مساء وصلنا في الساعة الثانية عشرة ليلا .

كان الوقت ليلا ، وهو بالنسبة للأجنبي مشكلة ، بل مصيبة ، فالمكان غير مألوف ، والحمالون نائمون، بحثنا عن فندق ، لكن بابه كان موصدا ، وفي النهاية وعند كراج السيارات ، رقدنا على الحصير ، وكان معنا أيضا بعض المنكوبين ، حالهم مثل حالنا .

حواشي وتعليقات

١ - في الأصل : الكبريت الأحمر

٢ - الجامي شاعر فارسي وفقيه مسلم وهو نور الدين عبد الرحمن بن نظام الدين الدشتي ولد عام ٨١٧ هجرية / ١٤١٤م بقرية جام القريبة من هراة ، وكانت وفاته عام ٨٩٨ هجرية / ١٤٩٢م ، وقد عرف بالدشتي نسبة إلى دشت القريبة من أصفهان موطن آبائه ، له مؤلفات بالفارسية والعربية ومن مؤلفاته العربية شرح فصوص الحكم لابن عربي وهو الشرح الذي زاد فيه من عنده وله شرح على كافية ابن الحاجب وهو شرح متداول ، بعنوان الفوائد الضيائية ، وله أيضا الدرة الفاخرة وهي رسالة في تحقيق مذاهب الصوفية .

٣ - مجلة البشير : أصدرها الآباء اليسوعيون في بيروت ١٨٧٠م

٤ - المدراسي نسبة إلى مدينة مدراس في جنوب الهند ، ويوجد بها حتى اليوم بعض المدارس الدينية الأهلية .

٥ - ورد في جريدة أم القرى العدد ١٢٧٣ الجمعة ١٨ شوال ٦٨ هجرية أنه سيحتفل بيوم باكستان (عيد الاستقلال) يوم الاثنين ١٥ أغسطس / ٢١ شوال بدلا من ١٩ أغسطس الذي يصادف يوم الأحد .

٦ - محمد شكري الآلوسي ، هو حفيد شهاب الدين الآلوسي ، من مؤلفاته تاريخ نجد طبع بالقاهرة ١٣٤٣ هجرية .

٧ - يطلق هذا الاسم يو بي على المنطقة الشمالية الوسطى من الهند وهي منطقة يوجد فيها المسلمون بكثرة ، وتنتشر فيها اللغة الأردية ، وتظهر ملامح الحضارة الإسلامية على سكان المنطقة من مسلمين وغيرهم .

٨ - ورد خبر حكومة حسني الزعيم في جريدة أم القرى العدد ١٢٥٩ الثاني من رجب هكذا : اعتراف الحكومة العربية السعودية بحكومة الزعيم حسني الزعيم - بناء على الاستقرار في الجمهورية السورية فإن حكومة صاحب الجلالة قد اعترفت بحكومة الزعيم حسني الزعيم .

وفي العدد ١٢٧٤ بتاريخ ٢٥ شوال وتحت عنوان الانقلاب الجديد في سوريا كتبت أم القرى : يوم الأحد الماضي وقع في سوريا انقلاب . . . أرسل الزعيم سامي الحناوي قائد الجيش والقوى المسلحة في سوريا قوة إلى دار حسني الزعيم ودار رئيس وزرائه البرزاني فاقتادهما إلى قلعة المزة بدمشق ، ونفذ فيهما حكم الإعدام فورا . . . وأعلن الحناوي أن مهمته انتهت وأنه يعود بالجيش إلى ثكناته ليتولى وظيفة الدفاع عن البلاد ، وأُلفت في دمشق وزارة ائتلافية برئاسة هشام بك الأتاسي .

٩ - انظر في الحواشي السابقة ما يتعلق بالشيخ عبد الله العقيل الذي لا يزال يمارس نشاطه في خدمة الدين ، من مقر عمله في جده أطال الله في عمره .

١٠ - الشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي اهتم بنشاط الدعوة والتبليغ ، وكان لديه برنامج " تبليغي " يقوم على تربية المسلمين من خلال جولات تبليغية ، تركز على التفكير فقط في أمور الدين دون غيرها ، وتستمر الجولة أسابيع أو أشهر ، انظر في مسيرة الحياة ص ١٨٥ وما بعدها وجماعة التبليغ الآن مقرها بلدة (رايوند) في باكستان بالقرب من مدينة لاهور وهي تعقد اجتماعا سنويا يحضره الكثيرون من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، حيث تُلقى الخطب والمواعظ ، باللغات المختلفة، ويتم توزيع الدعاة على مناطق العالم المختلفة من خلال برنامج محدد .

١١ - ربما جانبه الصواب في هذه النقطة لأن إذاعة بغداد العربية برنامجها مستمر طوال اليوم بينما برنامج إذاعة باكستان العربي لا يزيد عن ساعة زمنية ، فلا يمكن أن يقتطع نصف الوقت لتلاوة القرآن الكريم .

١٢ - ورد ذكر عبد الله الصوفي في العدد ١٢٧٨ من أم القرى بتاريخ ٢٤ من ذي القعدة فقد كتبت أم القرى ما يلي : من العراق قدم جوا سعادة عبد الرزاق محمود عضو مجلس النواب العراقي ، وفضيلة الأستاذ عبد الله بن محمد الصوفي قاضي البصرة .

١٣ - الحاج سعد أحمد الربيعة ، والد عبد العزيز الربيعة سابق الذكر من المجمعة أصلا سكنوا الزبير ثم اضطرتهم الظروف في العراق إلى الهجرة إلى الكويت شأنهم في ذلك شأن آل عقيل (وآل عقيل من قرية حرمة القريبة من المجمعة) ، وآل رابح ، وقد سبق ذكر عبد الله الرابح الذي كان له

مكتبة صغيرة بالعراق ، وقد قدم بعضهم فيما بعد إلى المملكة العربية السعودية ، فعادوا مرة ثانية إلى بلادهم . (هذه المعلومات من الشيخ عبد الله بن سعد بن حسين الذي كان يعمل بسفارة المملكة في الكويت وقد تعدى السبعين من عمره أطال الله في عمره)

١٤ - مهدي السامرائي ، لعله الآن يعمل في بشاور باكستان .

الكويت

الخميس غرة ذي القعدة ٦٨هـ / ٢٥ أغسطس ١٩٤٩ م

قضينا ليلة صعبة ، عاودتني " الأزمة " في منتصف الليل وشعرت بضيق تنفس شديد ، وفي الصباح شعرت بضعف ، كان النوم قد غلب على عاصم ، فأيقظته ، وأكدت عليه أن يطوي اللحاف ، وبعد فترة انطلقنا إلى فندق قريب .

نزلنا في فندق يسمى " فندق الكويت " ، كانت الغرفة نظيفة وفسيحة ، لم نجد لها مثيلا في سعتها بين جميع الفنادق التي أقمنا فيها من قبل ، وهي بالنسبة لشخصين واسعة جدا ، لكن الأجرة كانت أكثر من الأجرة في فنادق بغداد والبصرة ، فقد كانت الأجرة في فندق الأعيان ٢٠٠ فلس في اليوم (أي روبيتان وعشر أنات) وفي فندق الكويت الأجرة ثلاث روبيات في اليوم ، كانت هناك مروحة أيضا في فندق الأعيان ، وهنا تضاف أجرة الماء على الأجرة اليومية ، فالأجرة هنا للإقامة فقط ، أو كما يقولون في العراق " منام " والإقامة هناك بالليلة .

كان جسمي متعبا مرهقا ، وكان الجو شديد الحرارة ، فشعرت برغبة شديدة للاستحمام أولا ، لكن لا يوجد ماء ، وماء الشرب هنا يأتي من " الفاو "

مسافة طويلة ، ولهذا فالماء العذب مفقود هنا ، ويمكن الحصول على ماء "أجاج" للاستحمام ، وذلك مقابل روبية ، ولم تطاوعني نفسي .

يصعب التنقل هنا على من معه عفش وأمتعة ، فلا يمكن أن يركب السيارة إلا الركاب فقط ، بدون أمتعة ، فلا يوجد حمالون هنا ، ولا توجد وسيلة لنقل الأمتعة غير " التاكسي " والفرسخ هنا في السيارة بثمان روبيات !! .

لا يوجد أي مطعم قريب من الفندق ، ولكن يمكن الحصول على الشاي من الفندق ، رغم أن الفزع أصابنا حين عرفنا أن كوب الشاي بثماني روبيات ، فقد فاقت الكويت بغداد كثيرا ، وغطت عليها في هذا الأمر ، حسنا شربنا الشاي ، كنت أريد أن أتناول كوبا آخر من الشاي ، لكن لم تكن لدي همة لذلك ، حفظ الله لنا السخان ، ولن نحتاج إلى مثل هذا الشاي مرة أخرى .

غيرت ملابسي وتحركت تجاه المدينة ، أوصلنا خطابات التعارف إلى أصحابها ، كان معي خطابات الحاج محمد العقيل إلى سيد علي ، وسيد سليمان ، قدما إلينا ورحبا بنا وقالا :

- نحن في خدمتكم دائما .

فقلت :

- نحن نبحث فقط عن سيارة طيبة ، ونريد أن نتفق على سعر جيد ، كما نحتاج إلى شراء إحرام الحج ، وبعض الملابس والحاجيات الضرورية .

ثم ذهبنا مع أحد موظفيهم لإيصال الخطابات الأخرى ، كما ذهبنا إلى " دائرة الجوازات " فقيل لنا :

- تعالوا قبل السفر بيوم ، وسنختم لكم ، ونوقع إذن الخروج .

التقينا أيضا بالشيخ يوسف بن عيسى القناعي ، وهو عالم كويتي ومؤلف ، وتاجر أيضا ، تجارته ناجحة ، له تجارة في بمباي ، كما يدرس بعض أولاده هناك أيضا ، وهو يعرف الإنجليزية جيدا ، قدمنا إليه بعض مطبوعاتنا ووعد بالحضور إلينا في المساء .

تناولنا طعامنا في السوق ، كان طعاما عاديا ، لكن الغلاء هنا أكثر مما هو عليه في بغداد ، وفي الظهر استرحنا في الفندق ، فتعافيت قليلا ، كان عبد الله العقيل قد أهدانا بعض الفاكهة ، فأكلناها بلذة شديدة ، وأعد عاصم لنا الشاي كالعادة .

في المساء حضر الشيخ يوسف القناعي ، وكان قد ألقى بنظرة على بعض المطبوعات ، فسأل :

- هل المودودي على قيد الحياة ؟ وكم عمره ؟ وأين تعلم ؟

ثم قال :

- إن أفكاره جيدة .

عندئذ أوضحت له خلاصة منهج الدعوة الذي نتبعه ، ودار بيننا حديث طيب ، ثم دعانا لتناول طعام الغداء في اليوم التالي قائلا :

- السيارة موجودة ، ستصل إلى الفندق ، ولن تكون هناك صعوبة تذكر ، وقدم إلينا بعض مؤلفاته أيضا .

قضيت الليل قلقا ، أتململ في فراشي ، لم أكن أشعر بأي مرض ، لم تكن في الحجرة مروحة ، وكان الهواء يتحرك فيها ، وكنت أتوقع أن أنام لكن الأمور تغيرت عند منتصف الليل ، كان عاصم على السطح ، ولم أدر ماذا أفعل؟! فأخذت أتقلب في فراشي يمينا وشمالا .

الجمعة ٢ ذو القعدة ٦٨ هجرية ٢٦ أغسطس ١٩٤٩م

الكويت بلدة صغيرة على شاطئ الخليج العربي ، وتاريخها أيضا ليس بالقديم ، ولعلها ظهرت إلى الوجود قبل مائتين وخمسين عاما في الغالب ، كانت الحالة الاقتصادية عادية ، إلا أن البترول غير حالها ، ففي غضون خمس أو ست سنوات صارت البلدة " مدينة " تعج بالسيارات ، ولا يوجد هنا من وسائل النقل إلا السيارات فقط ، وازدهرت الحركة التجارية ، وتجدر الإشارة إلى أن نسبة الضرائب والعوائد هنا لا تذكر ، ولهذا فالبضائع الواردة من الخارج رخيصة جدا ، وقد جعلها تجار العراق والهند ومنطقة نجد " مخزنا تجاريا " لهم ، فيطلبون البضائع ، التي تصلهم في الكويت ، ثم ينقلونها بعد ذلك إلى أي مكان آخر ، وهم يتركونها بالقرب من البحر ، فالصحراء تمتد من كل جانب لمئات الأميال ، والماء قليل جدا ، ولهذا لا توجد زراعة في المناطق المجاورة ، ويعتمدون على مياه الأمطار ، والأمطار نادرة ، وتبعد حدود العراق

عن هذه المنطقة أيضا ، وهناك اقتراح بنقل الماء من هناك ، ولو نفذ هذا الاقتراح ، فستخضر مدينة الكويت وما حولها ، لكن هذا الاقتراح لا يزال في عالم الخيال، وقد أشار الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه " تاريخ الكويت " إلى هذا الأمر .

في الصباح انتهينا من الشاي وتناول طعام الفطور ، ثم اتجهنا إلى السوق ، فاشترينا بمساعدة موظف سيد علي ، وسيد سليمان الحاجات الضرورية ، فالتجار يسيل لعابهم إذا ما رأوا أجنبيا غريبا ، لكننا لم نواجه أي مشكلة بفضل مرافقنا الكويتي ، ومع هذا قضينا ثلاث ساعات دون أن نكمل شراء كل ما نحتاج .

وصلت سيارة الشيخ يوسف في الساعة الحادية عشرة والنصف ، وكنا قد ذهبنا إلى المسجد ، والوضع هنا بالنسبة للمساجد يختلف عما هو عليه في العراق ، ويشبه الوضع في الهند ، ففي الكويت يظل المقرئ يرتل القرآن الكريم لساعة كاملة قبل الصلاة ، وتستخدم مكبرات الصوت في كل مكان ، والأوقاف تدفع بانتظام أجور القائمين على المساجد ، والوضع هنا شبيه بما هو في مدن الهند الصغيرة ، فيقوم كل شخص بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم ، ومنذ عشرين سنة أو أكثر كان معظم الناس في الهند يقرؤون القرآن عند الصلاة ، ولكن هذه العادة لم يعد لها وجود الآن ، ولكننا في الكويت شاهدنا الناس جميعا يقرؤون القرآن الكريم في المساجد .

وصل إمام المسجد حوالي الساعة الثانية عشرة ، وكان المؤذن قد أذن قبل ذلك بخمس دقائق فوقف الناس لصلاة السنة ، ولا توجد هنا البدعة الرائجة في

العراق ، أي ارتفاع الصوت وترديد عبارة : الفاتحة . . الفاتحة . . صلاة السنة يرحمكم الله ! ! لكن لم يكد يمض على الأذان ثلاث أو أربع دقائق ، ولم يكد بعض المصلين ينتهون من صلاة السنة حتى بدأ أذان ثان ، وصعد الإمام المنبر ، ولم نستطع أن نفهم المقصود من الأذانين ، فإما أن يكون الأذان واحدا ، وإما أن توجد فسحة من الوقت بين الأذانين ، فليس المقصود هنا أداء واجب رفعهما بهذه الطريقة .

كانت الخطبة محفوظة ، ومقفاة ، ومملوءة بالسجع ، أُلقيت بطريقة جميلة ، ولم يكن هناك اعوجاج في مخارج الألفاظ أو طريقة الإلقاء ، ولم يكن هناك تقعر في النطق ، وانتهت في غضون عشرين دقيقة ، ثم أُقيمت الصلاة ، وكانت خفيفة ، سريعة ، وهذه بدعة موجودة في كل مكان ، والجميع بما فيهم أهل الحديث مصابون بهذا المرض ، ففي روالبندي يظل بعض أهل الحديث يخطبون الجمعة لساعة كاملة ، وقد نبه كاتب السطور إلى ذلك غير ذي مرة ، لكنهم لم يطمئنوا لذلك . . أدعو الله أن يوفق الجميع إلى إقامة الصلاة بطريقة صحيحة . . اللهم آمين .

ذهبنا بعد الانتهاء من الصلاة إلى منزل الشيخ يوسف فوجدناه في انتظارنا ، وكان في الغالب قد صلى الجمعة في مسجد آخر ، تناولنا الطعام على الطريقة الشرقية ، ففي العراق صارت الملاعق والشوك والسكاكين والطاولات جزءاً لا يتجزأ من حياة البشر ، وكانت الزبير فقط تخلو من هذا الأمر .

كان تناول الخبز هنا ، مثلما كان في العراق ، أمرا صعبا بالنسبة لي ، فالأرز هو الطعام المحبوب في العراق ، وهم يطبخونه بطريقة طيبة ، لكننا لم

نجد الأرز البرياني أو البلاؤ ، وهم هنا يقللون من تناول الخبز ، ولا يعدونه في البيت ، بل يشترونه من السوق ، فلا تنتشر هنا عادة تجهيز الخبز في البيوت ، كانت النساء في بيت الأستاذ الهلالي على معرفة بطريقة تجهيز الخبز في البيت ، وعلى موائد العراق ، كانوا يضعون مع الأرز كسرتين أو ثلاث كسرات من الخبز ، وكان خبزا جافا ، لا يمكن للعبد الفقير أن يستفيد منه ، فكنت أتناول قليلا من الأرز ، وكانت مائدة الشيخ يوسف خالية تماما من الخبز ! فأكلت قليلا من الأرز ، ومتعت لساني بتذوق البلح الرطب ، فرغم أن في الهند وباكستان كثيرا من النعم ، لكن كيف يمكن الحصول على مثل هذا الرطب هناك ؟!

بعد الطعام دار الحديث لفترة ، واكتشفنا أنه كان يقرأ مطبوعاتنا ، ووعد بأن يرسل لنا رأيه مكتوبا .

في المساء لم يخرج العبد الفقير من غرفته ، كتبت خطابا إلى عبد الله العقيل ، وأكملت مذكراتي اليومية ، وذهب عاصم لشراء بقية حاجياتي من السوق ، قضيت ليلة طيبة ، رقدت قليلا في البهو ، كان النسيم يهب عليلا ، ونزل عاصم أيضا إلى بهو الفندق ، وكان قد أصيب بزكام خفيف .

السبت ٣ ذي القعدة ٦٨ هجرية ٢٧ أغسطس ١٩٤٩م

مدينة الكويت الآن من المدن المتطورة ، وصل عدد سكانها إلى ما يقرب من ١٥٠ ألف نسمة ، إيجارات المساكن ترتفع بالتدريج لتصل إلى حد غير معقول ، كما أن الأطعمة والمشروبات غالية بشكل خاص ، وهذا كله من "بركات البترول " فعدد العمال في تزايد مستمر ، رأيت في فندق الكويت

موظفا واحدا ، هو صبي Boy راتبه الشهري مائة وعشرون روبية ، ومع هذا فهو أيضا موظف غير معقول ، قال المدير :

- لو عاملته بشدة ، هرب مني على الفور .

ومستوى التعليم هنا عادي ، وقد بدأت الحكومة الآن الاهتمام بالتعليم ، فأُرسل الطلاب إلى مصر ، ولا يزيد مستوى المدارس المحلية هنا على مستوى المدارس الثانوية ، ومعظم المعلمين مصريون ، وينتشر السلوك الإنجليزي هنا ، ويتفشى بسرعة بين الناس بسبب تأثير سلطة الإنجليز ، ولوجود الشركة الأمريكية ، فصاحب المحل مثلا فهم أننا هنود فحاول التحدث بالإنجليزية .

ولا شك أن المجتمع ككل متمسك بالقديم ، وتبدو وجوه الناس صافية لامعة ، وقد أنشأت الحكومة مكتبة في قلب السوق ، زرتها فوجدت نظامها وترتيبها على درجة كبيرة من الجودة ، ويبدو أن العاملين فيها على خلق طيب للغاية ، ويعرفون جيدا واجباتهم ، زرناها عدة مرات ، وكتبت رأيي عن المكتبة في سجل الزيارات، بناء على طلب أمين المكتبة ، والزي المنتشر هنا هو الزي العربي ، لم تقع أعيننا على امرأة سافرة ، وهذه خصوصية لم نشاهدها منذ تجولنا من منطقة بهار في الهند وحتى بغداد في العراق ، ولا بد أن هناك اختلاف في درجات السفور والتبرج ، إلا أن هذا الوباء قد انتشر في كل مكان ، كما أننا لم نشاهد قط النساء هنا يتجمعن حول محلات الأقمشة وغيرها كما هو الحال في روالبندي ولاهور ، وبالقرب من الفندق وقع نظرنا على حوالي خمسين أو ستين امرأة ، يبعن الأشياء القديمة ، والطيور ، وغيرها ، إلا أنهن

كن محجبات ، يجلسن في غاية الطمأنينة على جانبي الطريق في صفوف متتالية ، يؤدين عملهن ، ولا أحد يتعجب أو تأخذه الحيرة من هذا الأمر .

تعج المساجد بالفقراء ، فالأغنياء والأثرياء لا يشاهدون في المساجد كثيرا ، كما أن اللحى تشاهد على وجوه الكثير من الفقراء ، وملابسهم ليست سيئة ، لكن ليس لديهم علم ، فلم يصل التعليم الحديث إلى أعلى مستوى ، كما لم يبق هناك من التعليم القديم أقل القليل ، وفي الكويت كلها عالم واحد معقول هو الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ، وقد يظهر بين الحين والآخر أديب أو شاعر على الطريقة المصرية ، لكن للأسف لم نتمكن من لقاء أحد هؤلاء الأدباء أو الشعراء .

هذا تصور بسيط لما رأيت في الكويت ، بعد أن تجولت في الشوارع والأسواق ليومين ، لم نتمكن من الوصول إلى حل فيما يتعلق بمسألة السفر ، وقد أوكل السيد علي بن السيد سليمان بالمعاملة إلى أحد الدلالين ، الذي فهم أننا حجاج ، وعليه اعتبرنا صيدا ثمينا ، فأخذ يحاول بشتى الطرق ، بالتهديد تارة ، وتجميد الأمر تارة أخرى ، وحين باءت محاولاته بالفشل ، غضب ، واضطررنا إلى الرجوع مرة أخرى إلى السيد / علي بن سيد سليمان ، الذي تحدث بالهاتف ، ووعد بإعطائه أجره كاملا عن هذه المعاملة ، فالتجار الكبار متعودون على التعامل مع الدلالين ، والمعاملة كلها تتم عن طريق الهاتف ، فمن الصعب عليه أن يتحرك من مكانه ، وهذه الرعاية من جانبه كانت بالنسبة لنا كافية .

بالأمس شاهدنا عددا كبيرا من حجاج منطقة السند يمشون في الشارع ، كان المساكين يجلسون في أحد المساجد ، لا يسأل عنهم أحد ، فلا يوجد هنا مندوب لباكستان ، وهناك وكالة للحكومة السعودية ، لكن ليس من مسئوليتها رعاية أمور الفقراء هنا ، وقد تحدثنا معهم لفترة طويلة ، ووعدناهم بالمساعدة ، وربما يتمكن عاصم من أن يمد لهم يد العون ، ففي الفندق الذي نقيم فيه كان هناك رجل يقوم بترتيب ذهاب الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وكان قد قدم الكويت هذه الأيام بحثا عن " صيد ثمين " ويمكن أن نناقش معه الأمر ، فنحن قد سلمنا معاملتنا للسيد علي ، وإلا فليس هناك مشكلة كبيرة فيما يتعلق بانتهاء معاملتنا .

التقينا بعد المغرب - صدفة - بشخصين في الفندق أحدهما من أهالي نجد، والآخر من أهالي الكويت ، كان الكويتي على دراية بأمور الحياة وبما يدور في العالم ،وكان النجدي رجلا طيبا بسيطا على خلق ومتدين بفطرته ، يدافع الكويتي عن باكستان ، ويحب القائد الأعظم [1] درس الإنجليزية في كراتشي ، ويستطيع أن يقرأ الكتب الإنجليزية بسهولة ، وقد وجدتها فرصة ، فأخذت أشرح للاثنين كل ما يتعلق بالإسلام ، فسمعا ما ذكرته لهما ، وأنصتا إلي بصدر رحب ، وجلسا معي لساعتين أو أكثر . .

الحمد لله كان لكلامي أثر كبير عليهما ، فأعطيتهما بعض الكتب للقراءة .

الأحد ٤ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٢٨ أغسطس ١٩٤٩م

كنا نتوقع أن نسافر اليوم ، لكن الدلال اختفى ، وجلسنا في مكتب سيد علي وسيد سليمان ، حتى أصابنا التعب ، وبعد مدة وصلنا خبر بالهاتف ، مفاده أن السيارة ستتحرك في المساء ، فتنفسنا الصعداء ، وقررنا أن نتكلم مع الدلال ، فذهبنا إليه برفقة أحد موظفي سيد علي ، فأخذنا إلى الوكالة السعودية ، وهناك علمنا أن الموظف يريد أن يرانا ، فطائفة الموظفين هذه عجيبة وغريبة ، فمعنا خطاب توصية من السفير السعودي في العراق ، كما أن التأشيرة موجودة على الجواز ، وكنا التقينا بالأمس مع مسئول الوكالة السعودية (نفيسي) فقال بعد أن رأي خطاب عبد الله الخيال :

- لا نحتاج إلى شيء بعد هذا ، سيقوم المكتب فقط بتسجيل هذا .

ثم علمنا اليوم أن أحد الموظفين ليس على استعداد بأن يقوم بالتسجيل قبل أن يرى وجوهنا ، فاضطررنا إلى الذهاب إلى الوكالة السعودية مرة أخرى ، فقال الموظفون المحترمون :

- الآن انتهى الوقت ، تعالوا في المساء .

فغضبنا كثيرا ، ولكن من يستطيع أن يُفهم هؤلاء الجهلة ؟ وفي النهاية أطلعتهم قسرا على خطاب التوصية الذي كتبه لنا عبد الله الخيال ، فظهر الهدوء على وجوههم بعد أن رأوه وقالوا :

- سوف يتم الأمر في المساء ، لا داعي لحضوركم ، لكن لا بد أن ترفقوا هذا الخطاب مع جواز السفر .

في الصباح تحدثت طويلا مع سيد علي ، وبدا الرجل فاهما ذكيا ، لا يجد وقتا للقراءة بسبب انشغاله بالتجارة ، لم يكن لدينا من المطبوعات ما يكفي لإعطائه ، فحاولت بقدر المستطاع أن أوضح له ملامح الدعوة وأسسها ، وأعرفه بالجماعة الإسلامية ، فلم يكن على يقين من أن هذا الأسلوب يمكن أن يجدي في هذا العصر ، وأخذ يعرض العديد من الشبهات والشكوك ، وحين قدمت له الإجابة ، ، سمعها وسكت .

ظل الكويتي والنجدي اللذان يقيمان في نفس الفندق يطالعان ما أعطيناهما من كتب ، وقد تأثر الكويتي ، وآمل أن يخرج بأثر طيب ، أما الأخ النجدي فهو متدين بطبعه ، والدين بداخله أمر فطري وثابت أيضا ، ولذلك كان من الصعب أن تدخل في ذهنه أي تعبير جديد ، ولكنه على كل حال يفهم الكلام وعلى استعداد للاستماع إلى ما نقول ، وقد وجدت الفرصة اليوم لزيارة كل منهما في غرفته على حدة .

تأجل السفر اليوم أيضا ، وقيل أن التحرك بإذن الله سيكون في الغد ولا محالة ، يقول رفيقنا النجدي الجديد :

- إنني أقوم بإصلاح السيارات بسهولة ، ولا أتقاضى عن ذلك أجرا كبيرا من المسافرين .

ماذا أفعل الآن لقد سلمنا المعاملة كاملة لسيد علي ، الذي يهتم بأمرنا كثيرا ، ومع أن الدلال قال بأن المقعد الأمامي بخمسين روبية للفرد إلا أن الصديق النجدي يقول إن ٣٥ روبية على الأكثر تكفي ، لكن طمع هؤلاء يزيد حين تقع أعينهم على الحجاج ، فيزيدون في أجرة الركوب ، ومهما كانت الزيادة ، فهذا أمر لا يشغلنا كثيرا ، فنحن مشتاقون بل متحرقون شوقا لمغادرة الكويت ، فلم يكن في برنامج سفرنا الانتظار بين البصرة والرياض ، وكانت النية قد انعقدت على أن نصل إلى مكة المكرمة في العاشر من ذي القعدة ، لكن هذا الأمر الآن بدا من الصعوبة بمكان ، فاليوم هو الرابع من ذي القعدة ، فإذا تحركنا غدا فسوف نصل الرياض مساء يوم السابع أو صباح الثامن من ذي القعدة .

قضينا وقت المساء في الفندق ، وشعرت بالضجر نتيجة تأخرنا في السفر ، لكن ماذا أملك من أمر نفسي ؟! حين يشاء الله ، سيكون السفر ، ففي الصبر والتوكل على الله طمأنينة وسكون ، وإلا فلا ينال الإنسان سوى الاضطراب والقلق الذي لا طائل ولا فائدة منه .

الاثنين ٥ ذي القعدة ٦٨هجرية / ٢٩ أغسطس ١٩٤٩م

تقرر موعد السفر مساء اليوم بدلا من الصباح ، إذ لا يمكن السفر في الصحراء في النهار ، فالسفر بين الرياض والكويت في فصل الصيف يكون عادة في الليل ، وفي النهار تُنصب الخيام في الصحراء ، ويستريح المسافرون ، ولإدخال الطمأنينة على المسافرين ، وعدهم السائق بالسفر صباحا وإلا فقد تحدد البرنامج في المساء .

في الظهر تحدثت طويلا مع الصديق الكويتي الجديد عبد العزيز الجاسم ، فهو متأثر بمطبوعاتنا ، يقول :

- سأسعى جاهدا لنشرها وتوزيعها .

وبالأمس أعطى إحدى مطبوعاتنا إلى صديق له فلسطيني ، وآخر أرمني ، وقد أثنى كلاهما على مطبوعاتنا كثيرا قال الفلسطيني :

- إن حل مشاكلنا الآن في الإسلام فقط

والأرمني (شيوعي وصديق قديم لصديقنا) أثنى كثيرا على طريقة عرضنا للإسلام ، وطريقة الدفاع ، وحين شاهدت " الحديد " قد لان ، سعيت لأن أفهمه ، وأوضح له منهج الجماعة ، ودعوتها ، وأسلوب عملها ، والحمد لله لم أفشل في مهمتي ، فقد تأثر عبد العزيز الجاسم كثيرا ، وطلب المزيد من المطبوعات ، على أن يدفع قيمتها ، فكتبت له العنوان في لاهور وفي كراتشي ، ومن حسن الحظ أنه لا مشكلة بالنسبة للغة عند عبد العزيز الجاسم فهو يجيد الإنجليزية ، بالإضافة إلى لغته الأم أي العربية ، كما أنه يفهم الأردية أيضا ، وقد طلب مطبوعات بالأردية لأصدقائه الهنود الذين يعملون في شركة البترول ، وبناء على إصراره أعطيناه بعض الكتيبات الصغيرة ، وعدة كتب ، فاحتفظ لنفسه بكتاب الجهاد في الإسلام وقال :

- سوف أقرأه لأحسّن لغتي الأردية .

وقد أسمعني اليوم قصة حياته الأولى ، فقد اعتقل بتهمة الشيوعية ، وكان الشيوعيون يهربون من العراق ، ويقيمون هنا ، ولكنه يقول :

– لم نطمئن أبدا لهذا المذهب (الشيوعية) والحقيقة أن الشباب العربي يعيش في عالم الحيرة ، فالوطنية والشيوعية لا يمكن أن تنقذهم من أي شيء ، وعلاجهم الوحيد في الإسلام فقط .

الصحراء

التحرك في الساعة الخامسة مساء ، يرافقنا عربتان لنقل الأمتعة (لوريآن) ، كانت عربتا النقل مكتظتين بأمتعة المسافرين ، فزنا بمقعدين بجوار السائق ، وقبل أن تتحرك العربات ، تسلم أصحاب السيارات منا مبلغ مائة روبية ، وأعطينا الدلال أجرته ، كما أعطينا سائق سيد علي روبيتين على سبيل الهبة ، وأردنا أن نعطي شيئا للخادم أيضا ، فرفض رفضا قاطعا ، شاب شريف ، ساعدنا كثيرا يوم الجمعة ، حين ذهبنا لشراء حاجياتنا ، وكان يتعامل معنا بمحبة شديدة ، وعند مغادرة الفندق جاء معنا نجل سيد علي ، ورافقنا حتى المحطة .

تحركت العربة فأخذت أقرأ الدعاء المأثور : " سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . . " كنت أجلس بجوار السائق ، الذي أوقف سيارته بعد قليل في مكتب تفتيش الجمارك ، بعدها تحركت العربة خارج المدينة ، ودخلت في الصحراء . . صحراء قاحلة جرداء ، تترامى من بعيد ، حيث لا تُرى نبتة خضراء ، أو قطرة ماء ، والأرض من أمامنا تبدو أحيانا رمالا ناعمة ، وأحيانا ما تختلط الرمال بالأحجار والحصى ، وأحيانا ما نواجه أحجارا كبيرة ، وكان الطريق يعلو ، ثم يهبط بشكل حاد ، بينما الهواء الساخن يلفح الوجوه ، فيضطر الإنسان إلى تغطية وجهه بالمنديل ، حتى في الغروب ، وكنت قد اشتريت منديلا من الكويت على سبيل الاحتياط ، فكانت له فائدة كبيرة .

عند صلاة المغرب توقفت العربة في الصحراء ، أُذّن للصلاة ، وتيممنا وصلينا في جماعة ، كان التيمم غير مألوف بالنسبة لنا ، لكن ماذا يمكن أن يفعل الإنسان وسط هذه الرمال التي لا ماء فيها ؟ كان أصحاب السيارات قد أحضروا أربع صفائح مملوءة بالماء للشرب ولإعداد الطعام ، ولكن لا يزال أمامنا سفر ثلاثة أيام بلياليها ، والشيء الثاني الذي رأيناه تغير عما ألفناه في الكويت هو أن جميع المسافرين في العربة والسائق والعمال بلا استثناء أدوا الصلاة ! وفي الليل تناول الجميع الطعام ، على الطريقة البدوية ، فقد وضعوا الأرز في طبق كبير والتف الجميع حوله ، ونظرا لأن الطعام كان أرزا ، لذا لم يناسبني ، ولكن ماذا أفعل ؟ أموت إن لم أفعل مثلما فعلوا ، وهكذا أخذت غرفة أو غرفتين ثم شربت الشاي (بدون حليب) .

الثلاثاء ٦ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٣٠ أغسطس ١٩٤٩م

أقيمت الصلاة مع بزوغ الفجر ، قام رفيق نجدي من القافلة بواجب الأذان والإقامة ، وبدا أنه لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد ثبت هذا بعد حديثي معه ، لكن جذور " المشيخة " ثابتة إلى حد كبير بداخله ، على كل حال لقد اجتهد بشتى الطرق ، وبعد الصلاة ، جاء دور الشاي ، وما أدراك ما الشاي ! ماء أحمر ساخن أُذيب فيه سكر .

وضع الماء في إناء ، ثم وضعت أوراق الشاي مع السكر ، ووضع الإناء بجوار الحطب ، ثم صبوا الجاز فوق الحطب ، وأشعلوا النار ، وبعد عشر دقائق تقريبا ، تحول الحطب إلى " ركوة " نار ، وعليها تم إعداد الشاي . . هل

يمكن أن يُفعل غير هذا وسط هذه الصحراء ؟! أعتقد أنه يمكن الاهتمام بالأمر قليلا ، لكنهم ليس لديهم الرغبة حتى في التفكير ، أقصد تحسين الوضع أكثر مما هو عليه .

على كل حال لقد شاركتهم هذه الحياة البدوية البسيطة ، وأخذت أُطالع عاداتهم وأخلاقهم في صمت ، وأُنصت إلى أحاديثهم .

وصلت العربة في حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة إلى " قرية " وهي أول بلدة سعودية [٢] على الطريق القادم من الكويت ، وكنا قد دخلنا الحدود السعودية ليلا في حوالي الساعة الواحدة ، ولكن لم يكن هناك سوى الصحراء التي لا زرع فيها ولا ماء ، وفي المناطق الساحلية توجد قرى الحسا والقطيف ، وقد امتلأت الظهران الآن بالعمران بسبب شركة البترول ، وتصل السيارات - هذه الأيام - إلى صحراء سيناء من الظهران ، عن طريق حيفا مباشرة [٣] .

في حوالي الساعة الثالثة في ظلام الليل أخبرنا السائق عن مكان ، وقال إن السيارات تتحرك من هنا ، ثم تتوجه من الظهران إلى حيفا ، ولكن لا توجد قرى أو مناطق عامرة بالسكان وسط الصحراء .

تبدو " قرية " بلدة كبيرة ، وعندها يقوم رجال الجمارك بفحص أمتعة المسافرين ، كما يدفع الحجاج عندها الضريبة الحكومية المقررة ، ويطلق على هذه الضريبة اسم " رسوم " [٤]

لقد التقيت عدة مرات بالسيد / عبد الحميد الخطيب (الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في باكستان) وذكرت له أيضا سفري لأداء مناسك الحج ، ولم تسنح لي الفرصة للقائه قبل السفر مباشرة ، فقد كان خارج مكتبه ، وبعد شهرين أو ثلاثة أطلعني فجأة على إعفائي من رسوم الحج ، ولكن هذه الرعاية كانت خاصة بالعبد الفقير ، فعبد الحميد الخطيب لم يكن يعرف عاصما ، كما أننا لم نطلب ذلك ، ولم نكن أصلا نرغب في ذلك ، لكن الخيال (الوزير السعودي المفوض بالعراق) قام بإعفائنا معا من " الرسوم " حين أعطانا تأشيرة الدخول للمملكة العربية السعودية ، ولا أدري هل أساء فهم خطاب عبدالحميد الخطيب ، أو تصرف طبقا لصلاحياته الخاصة ، لكن هذه المعاملة ليست بالضرورة من صلاحياته ، وبعد استشارة الأستاذ الهلالي قررنا أن نبقى صامتين ، على أن نؤدي الرسوم إذا ما طلبت منا عن فرد أو عن فردين .

إلى أين مضى بنا الحديث ؟!

كنت أريد أن أقول أنه نتيجة لكرم سيد / عبد الحميد الخطيب وعبد الله الخيال ، وفضلهما ، لم تصادفنا مشكلة البتة ، وعاملنا المسئولون الرسميون معاملة حسنة ، لقد أعطاني الخيال أيضا خطاب توصية إلى ضباط الحدود ، وأكد لي على أن هذا سيسهل الأمور .

جلسنا في الصحراء الجرداء من الساعة العاشرة صباحا حتى الساعة الخامسة مساء ، وضعوا ستارة كبيرة بين السيارتين ، وجهزوا أماكن رقدنا فيها ، فنام عاصم نوما عميقا ، ولكن كيف للعبد الفقير أن ينام هكذا ؟! كنت كلما

شعرت بحركة أو هزة أو صوت خفيف ، أفيق من غفوتي ، فيضيع النوم من عيني ، وكان استجلاب النوم بعد أن فرشنا البسط والحواشي على الرمال الساخنة أمرا صعبا ، على كل حال ظللت راقدا أفكر في تغير أحوال الدنيا ، ومستقبل حياتي ، ومراحل الحركة الإسلامية مستقبلا وإمكانياتها المختلفة .

كان رفاق سفري هم : السائق وتابعه وخمسة أو ستة من المسافرين النجديين ، ظنوا في اليوم الأول أننا لا نفهم العربية ، وكلما حاولنا إفهامهم ، قالوا : لا نفهم كلامكم جيدا ، واليوم قال لي أحدهم : إنك تفهم العربية وتتكلمها جيدا ، أما الشخص " المتمشيخ " فقد ظل يعيب الهنود (يعني المسلمين الهنود) بطريقة أو بأخرى ، وعلى كل حال كان حديثهم بالنسبة لنا نوعا من التسلية ، والترويح عن النفس ، كانوا جميعا بلا استثناء من الأميين الذي يجهلون القراءة والكتابة .

انطلقت القافلة في المساء ، واستمرت العربات تمضي طوال الليل ، ولم نتوقف إلا لأداء الصلوات ولتناول الطعام ، كنت مستريحا في الكرسي الأمامي ، لكن غلبة النعاس كانت تقلقني كثيرا ، وطوال الطريق لم أشاهد إلا بعض الناس مع بعض الأباعر في مكان واحد فقط لا أكثر ، وقد حاولت الحكومة جاهدة استخراج الماء من أماكن مختلفة في الصحراء ، وقد مررنا بأول بئر بعد " قرية " ملأنا الصفائح بالماء ، كانت رائحة البترول تفوح من الماء ، هذا شأن الله في خلقه ، ففي هذا الوادي غير ذي زرع ، يتفجر هذا " المخلوق " (البترول) الثري ، فقد كانت آبار البترول تتراءى لنا على البعد منذ غادرنا الكويت حتى الظهران ، وكانت شعلة من النار تجذب أعيننا بوهجها ،

لتحدد لنا مواقع هذه الآبار ، لقد أُكتشفت هذه الآبار في الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية ، وهكذا صارت هذه الدول من الدول الغنية .

عند الصباح سُمح لنا بالنوم لساعة أو ساعة ونصف ، لكن القائمين على أمر السيارات لم يهتموا حتى بأمر إعداد الشاي ، مما أصابني بالضجر .

الأربعاء ٧ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٢١ أغسطس ١٩٤٩م

وصلنا " رماح " حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة صباحا ، وهذه هي البلدة الثانية التي نصل إليها وسط هذه الصحراء [٥] بعد " قرية " وهي تبدو قرية صغيرة ، وهنا أيضا يوجد مكتب للجمارك ، انتهى فحص الأمتعة بسرعة ، كان المسئولون في الجمارك هنا أطيب إلى حد ما ممن شاهدناهم في القرية ، حاول بعض الموظفين هنا " التمنظر " أي التباهي ، لكن خطاب " الخيال " أعاده إلى طبيعته ، إلا أنه لم يتوقف عن حركاته التي يبدوا أنه اعتاد عليها ، وهذا هو حال مثل هؤلاء الموظفين والمسئولين الصغار في كل مكان .

وبلدة " الرماح " قريبة جدا من الرياض العاصمة ، وتستغرق المسافة بالسيارة أربع ساعات على الأكثر ، لكن أشعة الشمس الآن شديدة ، ولهذا وضعنا مظلة خارج مقر الجمارك ، وجلسنا في الصحراء مثلما فعلنا بالأمس ، وذلك حتى الساعة الخامسة مساء .

وهنا أيضا وفي وقت الطعام كان هناك عدد من الأولاد يجلسون ، يتطلعون إلينا ، ينتظرون لقيمات يسدون بها رمقهم ، كان منظرا مؤلما للغاية ، يذكرني

بما حدث في منطقة بهار في شرق الهند سنة ١٩٤٣م حين ساد القحط البلاد ، ومن الممكن أن يكون هذا هو حال المهاجرين واللاجئين ، وفي الأحوال العامة لم أر رغم الفقر أحدا ينتظر هكذا تحت وطأة حرارة الشمس المحرقة ، وذلك من أجل لقيمات معدودة .

في الصباح اعتقدت أننا سنصل الرياض بعد المغرب ، لكن في المساء ، رأوا أن تظل العربات خارج الرياض طول الليل ، وقد أعجبنا أيضا هذا الرأي ، فالغريب لا يعرف أحدا هنا ، والوصول بالليل يوقعنا في متاعب كثيرة ، أما في النهار فيمكن أن ندبر أمرنا بطريقة أو بأخرى ، على كل حال وصلنا الرياض في الساعة التاسعة ، وألقت القافلة برحلها على بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة ، وتنفسنا الصعداء ، كانت هذه أصعب مراحل السفر ، وقد قطعناها بفضل من الله وكرمه ، فالخدمات الجوية بين الرياض ومكة في متناول معظم الناس .[٦]

ندعو الله أن يساعدنا في طي المرحلة الثانية أيضا .

كانت هذه هي الليلة الثالثة في الصحراء ، واليوم نمت نوما عميقا ، وبقيت نائما حتى الصباح ، فشكرا لله ألف شكر .

الريـــاض

الخميس ٨ ذي القعدة ٦٨ هجرية / أول سبتمبر ١٩٤٩م

الريـاض قصبة في بلاد العارض ، وعارض هي مسكن بني تميم القديم ، والجزء الأكبر منها منطقة جبلية ، وتبدو المنطقة بين رماح والرياض منطقة جبلية ، والطريق يمر وسط أرض حجرية ، صلبة ، غير مستوية ، ترتفع وتنخفض ، وأحيانا ما تشاهد آثار قنوات صغيرة ، غالبا ما تنساب فيها المياه المتدفقة من الهضاب العالية ، إذا ما سقطت الأمطار .

والرياض مثلها مثل قصبات العارض الأخرى ، كانت قصبة عادية ، بعد تدمير الدرعية (١٢٣٤ هجرية) جعلها آل سعود عاصمة لهم ، ثم سيطر عليها آل رشيد ، أمراء حايل ، وقضوا على حكومة آل سعود لسنوات (١٣١٤ هجرية/ ١٨٩٦م) ولكن بعد فترة قليلة قام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (الحاكم الحالي) سنة ١٣١٩ هجرية / ١٩٠٢م بدخول الرياض ، بمساعدة مجموعة من رفاقه [٧] .

تولى جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حكم البلاد منذ ٤٩ سنة ، وفي عهده ازدهرت إمارة الرياض بشكل ملحوظ ، بعد تأسيسه للمملكة

العربية السعودية ، وبعد اكتشاف البترول في المنطقة الشرقية من المملكة ، وقد أدى اكتشاف البترول إلى ظهور نتائج عديدة.

ويلقب الملك عبد العزيز الذي ينتمي إلى نجد ، وكان أميرا عليها ، بلقب جلالة الملك عبد العزيز ، وهو يستأثر اليوم بإعجاب الناس ، ويجذب الكثيرين بشخصيته الرائعة .

وهناك شيء آخر مهم جذب كاتب السطور إلى نجد ، فقبل مائتي عام كانت منطقة نجد مركزا لدعوة عظيمة الشأن ، كان لها تأثيرها الواضح في ظهور أدب متنوع [٨] بلغات العالم المختلفة ، ما بين مؤيد ومعارض ، وكان كاتب هذه السطور من المهتمين بهذه الدعوة ، المنشغلين بها ، وهكذا قصرت ثلاث سنوات من عمري على دراستها ، فقمت بمطالعة كل ما كتب عنها ، بهدوء وطمأنينة ، وبطريقة جيدة ، ونشرت نتيجة هذه الدراسة [٩] والبحث في كتاب بعنوان (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه) ولكني رغم جهودي ومحاولتي ، كنت أشعر أن هناك جوانب من حياة الشيخ ، تحتاج مني إلى المزيد من الدراسة والبحث ، حتى أتمكن من إلقاء الضوء عليها بشكل أوضح ، وهكذا ظل الشوق إلى نجد ، يحرك أوتار قلبي ، وحكاية نجد – كما يقولون – تكمن في منطقة نجد ، لهذا اشتقت للوصول إلى نجد ، حتى أجد حلا للمسائل التي تؤرقني ، عن طريق مساعدة علماء نجد أنفسهم .

هذا بالإضافة إلى جاذبية اللغة ، فمنطقة نجد وبلاد اليمن ، هما المنطقتان العربيتان اللتان قل اختلاطهما - بدرجة ملحوظة - بالعالم الخارجي ، ولهذا فاللغة هنا غنيمة كبرى ، وهي قريبة من لغة القراءة والكتابة ، كما أن أهل نجد مشهورون كثيرا بأمانتهم وتقشفهم وجدّهم ، ومن هنا وُلدت بداخلي أمنية أخرى ، ظلت تراودني ، وتدفعني إلى الارتحال إلى نجد ، على أمل أن أجد هنا من يستمع إلي ، رغم تحذير بعض الأحباب لي مؤكدين بأن التحدث هناك-أي في نجد - عن النظام الإسلامي يعد جرما !! - لا حول ولا قوة إلا بالله - ورغم هذا التحذير كان قلبي عامرا بالآمال على حد قول الشاعر :

" إن كنت مؤمنا ، فخل قلبك من كل يأس ، واملأه بالآمال "

كانت هذه هي الأفكار التي أخذت تدور في رأسي في كل حين ، في الطريق بين الكويت والرياض ، وفي تلك الليلة التي قضيناها خارج الرياض ، وركبت العربة صباحا بينما أنا غارق في دنيا هذه الأفكار المملوءة بالأمل ، ثم وجدت نفسي في مدينة الرياض بعد عشر دقائق ، وهكذا انتهت مرحلة طويلة من مراحل السفر ، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلنا الرياض بالفعل ، ولكن لا يوجد هنا فندق ، ولا معارف ولا أصحاب ! فتذكرت أن السيد / عبد الحميد الخطيب (الوزير السعودي المفوض في باكستان) قد أعطانا خطابين لعالمين من علماء الرياض ، كما أنه كان قد

كتب قبلا إلى جلالة الملك ، وإلى ولي العهد ، فيما يتعلق بالعبد الفقير ، ونصحنا بالتوجه مباشرة إلى قصر ولي العهد ، حين نصل الرياض ، وهنا ستتوفر لنا جميع سبل الراحة ، وهكذا دبر لنا عبد الحميد الخطيب بكرمه وعطفه، جميع السبل الممكنة لراحتنا .

كنا قد عرفنا أثناء إقامتنا بالكويت أنه يمكن الحصول في الرياض على بيت للإيجار لفترة معينة ، فتركت محمد عاصم يحرس أمتعتنا وعفشنا ، وحملت حقيبتي وخرجت بحثا عن بيت للإيجار ، لكنني للأسف لم أصادف إلا الفشل!!

أولا : لأنني لم أجد أي بيت للإيجار .

وثانيا : كلما وجدت مكانا معروضا للسكن ، وجدته ضيقا مظلما يصعب علينا أن نقضي فيه ساعة واحدة .

وفي النهاية ضقت ذرعا بالأمر ، وبدأت البحث عن بيت الشيخ عمر بن حسن [١٠] فطلب مني أحد المارة أن أعطيه هبة إذا أرشدني إلى بيت الشيخ ، وهكذا جرى الاتفاق ، وحين وصلنا إلى بيت الشيخ عمر بن حسن ، عرفنا أنه ذهب للسلام على " جلالة الملك " هكذا قال خادمه ثم أغلق الباب فورا ، وفي تلك الأثناء قدم رجلان عند باب الشيخ يريدان لقاءه ، ومن العجيب أن الرجلين لم يبديا أي اهتمام بوجودي مما أثار حفيظتي ، فقلت لهما :

- هل هذه هي أخلاقكم العربية التي ذابت لغتنا في التغني بها والثناء عليها؟! غريب يبحث عن مقر يستريح فيه مؤقتا ، فلا تساعدونه على ذلك ؟!

عندئذ أخذتهما الهمة والحماس ، فتشاورا معا ، وعقدا العزم على أن يأخذاني إلى بيت الضيافة الملكي ، فليس هناك من سبيل آخر غير هذا ، وبعد أن اتفقنا على هذا الأمر ، أخذاني إلى ابن جميعة السكرتير الخاص لولي العهد .

التقينا بمساعد ابن جميعة ، فلم يلق بالا إلينا ، عندئذ جاءتني فكرة : إذا كنا سنذهب إلى بيت الضيافة الرسمي فلماذا لا أستفيد من خطابات عبد الحميد الخطيب ؟! فقمت على الفور باطلاع مساعد ابن جميعة على خطاب عبدالحميد الخطيب ، وعندئذ أشار علي بالذهاب إلى قصر ولي العهد ، والحق يقال إن لهجته تغيرت فور مشاهدته للخطاب ، وقال لرفيقي : اذهبا الآن ، فهؤلاء ليسوا برجال عاديين ، هذه مسئوليتنا الآن ، قال هذا بلهجة شديدة ، لكن الرجلين ظلا معنا .

التقينا بعدها بابن جميعة ، الذي رحب بنا بخلق حسن ، وسألنا عما نريد ونرغب ، فقلنا :

- لا شيء نرجو فقط مساعدتنا في البحث عن مكان للإقامة .

فقال :

- لقد قدمتم خدمة طيبة للحكومة .

فقلت :

- لا . . على الإطلاق . . إنما كان عملي لوجه الله ، الذي وفقني في كتابة سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ومن حسن حظنا ، أو من سوء حظنا ، لا أدري ، كان اليوم هو يوم " سلام " العلماء على جلالة الملك ، فالسلطان ابن سعود ذاهب بعد أيام قلائل إلى الحجاز ، ولهذا يشهد قصره اليوم جموعا غفيرة ، قدمت للسلام عليه (١١) وبالنسبة لولي العهد لم تكن هناك تنظيمات خاصة ، بل كانت هناك ضجة حول المكان فقط ، والعبد الفقير حضر للسلام وهو في ملابس السفر المتسخة ، حاملا في يده حقيبة السفر ! ولكن الحمد لله فلم يُصب أهل نجد حتى الآن بمساوئ التمدن الغربي ، ولهذا لم تكن هناك ضرورة ما تضطرنا لأداء مراسم معينة على مضض منا ، وقد ثبت لي أن السلام العادي فقط كان كافيا ، وقد سألني ولي العهد عن حالي وأمر بالقهوة ، فأخرجت مطبوعاتنا من الحقيبة ، وقدمتها له ، فوقف الأمير سعود وتسلمها مني شاكرا .

كانت هذه كيفية " السلام " وحقيقته ، وقد انتهى كل شيء في ظرف دقيقتين .

إن إبداء رأي ما من خلال الشكل الظاهري ، والصورة الظاهرية ، من الخطورة بمكان ، ومع هذا فيمكن القول بأن الأمير سعود من ناحية الشكل

الظاهري، ومن هيئته ، يبدو رجلا معقولا تماما ، وهو قريب من الأربعين ، ولا يبدو عليه أبدا أنه فوق الأربعين .

بعد الفراغ من السلام على ولي العهد ، تمنيت أن أصل إلى " مثوى " نستريح فيه ، هذا كما أن قلقي على عاصم كان شيئا آخر ، فلعل المسكين يجلس الآن تحت أشعة الشمس المحرقة قلقا مضطربا ، على كل حال حين استفسرت عن الأمر علمت أنه يجب على الانتظار للسلام على جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، وكان الجميع سعداء بذلك ، أما ذهني فقد كان مشغولا بأمور أخرى ، نظرا لحالتي ، وظروفي . .

فقد التقيت حين جاء دوري بالعلماء أولا والأفاضل وبعدها التقيت بولي العهد ، والآن سأشرف بالسلام على جلالة الملك . .

كانت صالة الانتظار فسيحة جدا ، تكتظ بالزائرين والمشتاقين إلى السلام على الملك ، وكانت حالة العبد الفقير ، من بين جميع الحضور ، مثيرة للشفقة، والانتباه أيضا ، بينما ظل رفيقي الجديد الذي ساعدني للوصول إلى هنا ، يأتينا مرة تلو الأخرى يسألني :

– هل سلمت على ولي العهد ؟

فأقول خجلا :

– نعم

فيقول :

- سوف تسلم على الملك .

وبعدها ستتم إجراءات الترتيبات الخاصة بكم في دار الضيافة .

بعد مدة طُلبت للسلام على الملك ، فدخلت إلى بلاط جلالة الملك عبدالعزيز ، صالة كبيرة ، مهيبة ، مفروشة بالسجاد الفخم النظيف ، صفت الكراسي والطاولات ، وكان هناك حاجب وحراس يقفون خارج الصالة ، وفي الداخل وعلى الجانب الأيمن ، على مسافة معينة جلس شخص ، وبناء على إرشادات أحد المسئولين تركت بابا ودخلت من باب آخر ، ثم جلست على يمين السلطان ، تاركا بيني وبينه كرسيا خاليا ، كان الإرهاق يبدو على وجه الملك ابن سعود ، كانت التجاعيد قد ظهرت واضحة على وجهه ، وبدت عليه آثار السنين ، سألني بصوت فيه خشوع :

- كيف حالك ؟

ولم أجد فرصة للتحدث معه في غير حديث السلام والتحية الرسمي ، فقد كان من الصعب أن تخرج من لساني عبارات كعبارات المدح والثناء، كما أن السلطان ومرافقه ليسا على استعداد لسماع آراء أو تبادل آراء معينة في هذا المقام.

جلست فقط في عالم من الصمت لدقيقة أو لدقيقة ونصف ، فأشار علي المرشد ، فقلت للملك :

- السلام عليكم

وخرجت من الباب الأول ، وبعد خروجي أخذني أحد الشباب ، وكان يقف ضمن حاشية الملك ، ونزلنا أسفل ، وركبنا سيارة حكومية ، لتصل بنا إلى الهدف المنشود ، أخذوا الأمتعة ، وفي ظرف خمس دقائق وصلنا إلى دار الضيافة الملكية .

استغرقت هذه العملية كلها ، من أولها إلى آخرها حوالي ثلاث ساعات ، كانت ملابسي متسخة للغاية ، وكان التراب يُغبّر وجهي ، فكيف وأين كان لي أن أغتسل منذ الصباح ، لم أجد فرصة حتى لوضع الماء على وجهي ، وقد مررت بالمراحل السابقة كلها وأنا على هذه الحال ! !

مكثنا في القصر القديم ، ويوم الخميس هنا مخصص لسلام العلماء على الملك ، والله أعلم بالصواب .

توجد هنا داران للضيافة ، دار خاصة بالعرب وأهل نجد والقبائل ، ويطلق عليها دار الضيافة الداخلية ، ودار أخرى خاصة بالمسئولين الحكوميين الكبار والأجانب ، ويطلق عليها دار الضيافة الخارجية ، وقد أقمنا في هذه الدار ، خصصت لنا حجرة واسعة فسيحة ونظيفة ، مفروشة بالسجاد ، ويوجد سرير للنوم ، ولا يوجد كراسي أو طاولات ، ولما كنت قد تعودت أن أكتب مستندا

على الطاولة ، فقد طلبت من مدير دار الضيافة أن يزودنا بكرسي وطاولة ، وذلك حين سألني عما أحتاج . . .

استغرق سفرنا في الصحراء ثلاثة أيام ، من التعب والإرهاق ، لهذا كان أول ما فعلناه هو الاستحمام ، وتغيير الملابس ، والخلود إلى الراحة حتى وقت العصر .

كان كل شيء في متناول أيدينا : الطعام ، والمشروبات ، والشاي وطعام الفطور ، وغير ذلك من ضروريات ، فنحن أولا وأخيرا ضيوف جلالة الملك ، كانت الدار تعج بالموظفين والخدم ، وبكثرة ملحوظة.

في المساء أردت التفرج على المدينة ، كما رغبت أيضا في تسليم خطابات التعارف التي كتبها عبد الحميد الخطيب إلى العلماء الكرام ، وبعد صلاة العصر نزلنا أسفل ، ننوي الخروج ، فسألنا أحد الحراس :

- إلى أين تقصدون ؟

فأجبناه فقال :

- لا عليكم هذا واجبنا ، سوف نقوم بتسليم هذه الخطابات ، ونأتيكم بالرد حين يصل .

كان هذا أول أيامنا في بيت الضيافة ، ورأينا أن من الأفضل أن نظل صامتين، فسلمنا الخطاب الأول إلى الحارس ، وعدنا إلى الطابق العلوي ، ثم

فكرنا بعدها : إلى متى سنظل هكذا نجلس في غرفتنا؟! إن عملنا هو مقابلة الناس والتعرف عليهم وتعريفهم بأنفسنا ، كما أنه كان من الصعب أن نقضي اليوم بطوله في بيت الضيافة ، فنزلنا بعد ساعة تقريبا ، فسألنا موظف آخر :

- إلى أين تذهبون ؟

فقلت :

- للفسحة .

فقال :

- طالما لم يأت طلب من الأمير أو رسالة من الشيوخ ، تفضلوا ، استريحوا هنا .

فقلت :

- أنحن معتقلون ؟!

فقال :

- أنتم أغراب ولذا فهناك خطورة في الخروج وحدكم . .

فقلت :

- يا عبد الله ! نحن لسنا بأطفال ، كما أننا - ما شاء الله - في مدينة المسلمين ، ونحن جميعا أخوة ، ثم ما معنى أغراب ؟!

عندئذ سكت الرجل ، فانطلقنا إلى المدينة ، وأخذت أفكر طوال الطريق في سلوك الموظفين ، هل هذه إرشادات وتعليمات رسمية ؟! أم أن الموظفين يتصرفون من تلقاء أنفسهم ؟! هل تريد الحكومة أن تخفي عن الغرباء أحوال المدينة ؟! لا يمكن الوصول إلى إجابة محددة أو اتخاذ رأي معين .

تجولنا في السوق ، شوارع ضيقة ، بل هي حواري شبيهة بأسواق القرى عندنا ، كان علينا تبديل بعض الروبيات ، فذهبنا إلى الصراف ، كان يغير التسع ريالات بعشر روبيات ، ولهذا رجعنا ، وحين فكرنا في الأمر ، وجدنا أننا خسرنا قبلا مبلغا كبيرا ففي كراتشي كان أحد البنوك يبدل لنا الآنة وربع بجنيه ، وفي الكويت غيرنا العملة العراقية ، فخسرنا ثلاث أنات وربع في الجنيه ، والآن يريد صرافو الرياض أيضا أن يأخذوا نسبة ربح عالية ، كانت قيمة التغيير ٩٤ ريالا و ١١ قرشا كما وردت في الصحف ، لكن الصراف يعطي ٩٠ ريالا فقط .

بينما كنا نتجول هنا وهناك ، تراءت لنا مكتبة لبيع الكتب ، كنت قد سمعت عنها في بغداد من محمد الخطيب ، فهي المكتبة الوحيدة في الرياض ، وصاحبها يدعى " حسن الشنقيطي " وهو من سكان المغرب الأقصى (مراكش)[١٢] يتميز بذوقه الأدبي الرفيع ، وتعد مكتبته هذه أيضا دارا للمطالعة ، تصله الصحف اليومية من مصر بالطائرة ، وفي المساء يفد عليه جمهور الشباب ، تعرفنا عليه ، ورحب بنا ترحيبا حارا ، وهو من مواطني أستاذي المحترم الدكتور الهلالي ، كما أنه يعرفه جيدا ، أخذ يسأل عن حال أسرته وأولاده ، وتركناه على وعد بلقاء في الغد ، ورجعنا إلى دار الضيافة .

الجمعة ٩ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٢ سبتمبر ١٩٤٩م

وعدنا الشخص الذي تعرفنا عليه بالأمس بالمجيء للقائنا في دار الضيافة، لكنه لم يأت، صلينا الجمعة في مسجد قريب من القصر الجديد، وفي الطابق الثاني من هذا المسجد يؤدي الملك وولي العهد الصلاة، لقد دخلت " المدنيّة " جميع شعب الحياة في نجد، لكن المساجد لا تزال طاهرة من هذه " المدنيّة " فرغم أن هذا مسجد القصر إلا أنه مسجد بسيط، يسجد المصلون على الحصباء، وأحيانا ما يكون هناك ألم من هذا لكن الناس هنا اعتادوا على هذا، كما أنه لا توجد مراوح أو كهرباء أو أي نوع من الزخرفة والزركشة، بساطة في بساطة، فناء واسع فسيح، أرضية المسجد البسيطة، ويمضي المصلون بأحذيتهم دون تكلف، ورغم اتساع المسجد إلا أنه امتلأ بالمصليين .

وصلت إلى المسجد قبل الخطبة بساعة، كان معظم الناس قد انصرفوا إلى قراءة القرآن الكريم، ولاحظت أنهم يستخدمون المسواك هنا بكثرة تلفت النظر، وضع المنبر المصنوع من الخشب وسط المسجد، وكانت الخطبة بسيطة، انتهت في عشر دقائق، وأطيب ما في الخطبة أنها لم تذكر أي لفظ خاص بالملك، فقد اكتفى الخطيب بالدعاء العام، اللهم ارزقنا الحاكم العادل الطيب، وأبعد الظالمين عنا . . إلخ وكانت الصلاة مختصرة، لكنها كانت غنيمة، تواجد معظم المصليين في الفناء الخارجي من المسجد، ورغم أنه لم يكن هناك في الصلاة ما نشاهده لدى أهل الحديث عندنا، وعند بعض العلماء

المحتاطين من الأحناف ، إلا أنه لا يمكن أن نقول شيئا عن هذه الصلاة ، إلا أنها كانت غنيمة بالنسبة لنا ، وقد علمت فيما بعد أن الإمام كان الشيخ إبراهيم ابن عبد اللطيف آل الشيخ [١٣] فلا يزال العلم والفضل حتى الآن خاصية من خصائص أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولا يزالون يحتلون مكانة ومقاما لدى الحكومة والناس .

في المساء توجهنا إلى مكتبة حسن الشنقيطي ، وهناك التقينا بشابين ، وجدناهما في منتهى البساطة ، ولاحظنا أن المجلات الأدبية الخفيفة التي تصدر في مصر ، تنتشر كثيرا بين الشباب هنا ، كان أحد الشباب ينتمي إلى أسرة آل الشيخ (يعني أولاد الشيخ محمدبن عبد الوهاب) يشتري واحدة من تلك المجلات التي تصدر في القاهرة وعنوانها " الدنيا الجديدة " وكان على صفحة الغلاف صورة لامرأة سافرة ، لم أستطع السكوت على ذلك ، فقلت : هل تصل مثل هذه المجلات الخليعة إلى نجد أيضا ، ظننت أن نجد في أمان من مثل هذا النوع من المجلات ، فقال الشاب الذي ينتمي إلى أسرة آل الشيخ : نحن نمزق مثل هذه الصور .

لكنه على ما أظن يقرأ هذا الأدب الفاسد . . يا لها من مسخرة !!

وضعنا نحن أيضا مجلاتنا ومطبوعاتنا في مكتبة حسن الشنقيطي ، وهناك علمنا بأن ولي العهد كان قد عرض مثل هذه المجلات على بعض العلماء ، الذين امتدحوا ما تنشره من أدب وفكر ، وفكرنا في القيام بعد المغرب بزيارة

الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف (بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب) أشهر علماء الرياض [١٤] ورأينا أن نحدد الوقت عن طريق الشنقيطي .

اشترينا من الشنقيطي كتابا عن مناسك الحج ، الحمد لله سوف أطالع جيدا مناسك الحج ، والكتاب الذي اشتريته يطابق تماما الفقه الحنبلي ، أما الكتاب السابق (بالأردية) فكان مجرد مذكرة بسيطة ، كانت قيمة الكتاب ريالا واحدا ، وبينما كنت في حيص بيص أبحث عن ريالات إذا بشاب يقول :

- إذا أعطيتني عشرة روبيات أعطيتك مقابلها ثمانية ريالات .

فقلت له :

- هل أنت صراف ؟

فأجاب :

- لا . .

فقلت له بلهجة شديدة :

- أي أمانة تلك ؟ الصراف في السوق يعطي تسعة ريالات وأنت تريد أن تعطيني ثمانية ريالات ، أتريد أن تخدعنا ؟!

احتدم النقاش ، فقال :

- لقد قلت كلمتي وأنت حرٌ . .

وتدخل حسن الشنقيطي قائلا :

- من أين واتته هذه الجُرأة ؟إن هذا لا يقدم صورة طيبة للرياض ، إنه يسيء إلى الرياض وأهلها . .

وعندئذ سكت الجميع . .

السبت ١٠ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٣ سبتمبر ١٩٤٩م

بدأنا الآن نألف الرياض ونأنس بها ، زالت عنا الوحشة ، ولم يعد هناك أي أثر للغربة ، بدأنا نتعرف على بعض الناس ، من أصحاب الذوق ، ودماثة الخلق .

حضر إلينا مساء أمس شابان من المدينة المنورة ، رحبا بنا بحرارة شديدة ، وهما موظفان في الديوان الملكي ، تحدثنا في أمور عامة ، حاولت أن أعرفهما بالجماعة الإسلامية ، وأقدم لهما مطبوعاتنا ، لكن في مثل هذا الجو ، من ذا الذي يستمع إلى كلامنا ، ومع أن القلوب عامرة بتأثيرات الفكر السليم ، لكن لا جُرأة لإظهار هذا التأثير .

تجولنا في المدينة أكثر من مرة ، وهي على الطراز القديم تماما ، الحواري ضيقة ، والبيوت من الطين واللبن ، وفي الليل تتراءى بعض الأنوار الكهربائية في أماكن متفرقة .

والسيارات هنا كثيرة ، إلا أن كثرتها في الحواري الضيقة ، وعلى الطرق غير الممهدة تؤذي الكثيرين ، ففي كل آن وحين يتعرض الناس للغبار والتراب ، وأهل المدينة عامة يميلون إلى الحياة البدوية ، ولا تجد في الرياض كلها سيارة أجرة ، أما العربة الحنطور التي تجرها الخيول ، والركشا (الهندية الباكستانية) والعربة الكارو وما شابه ذلك ، فهي أشياء غير معروفة هنا ، ولا تسأل بعد ذلك عن الحافلات أو الترام ! ! فالإنسان هنا يعتمد اعتمادا كليا على الحكومة ! !

توجد بعض الشوارع المرصوفة بالإسفلت خارج نطاق المدينة ، ومن بينها شارع يصل إلى المطار ، فالمطار بعيد جدا ، وإذا ما أراد إنسان عادي الذهاب إليه ، وجد نفسه مضطرا إلى طلب ذلك من أحد أفراد الأسرة المالكة أو من مسئول كبير في الحكومة ، ويمتلك التجار عربات نقل بضائع ، وهذه الناقلات هي التي تتحرك على الطريق الواصل بين الرياض ومكة المكرمة ، ويستخدمها عامة المسافرون والحجاج ، ويدفعون أجرة زهيدة ، وهي ثلاثون ريالا على الأكثر ، ويمكن مناقشة الأمر ودفع مبلغ أقل من هذا .

بينما كنت جالسا في الصباح أفكر في هذه الأمر إذا بالشاب النجدي الذي تعرفنا عليه من قبل يصل ، فتحدثت معه واستشرته في أمر السفر ، فقال :

– من الصعب السفر بالطائرة هذه الأيام ، كما أن العربات الصغيرة (أي سيارات الأجرة) لا تذهب إلى مكة ، فإذا أرادت الحكومة دبرت لك مكانا ، فانتظر اليوم ، فسوف يسافر جلالة الملك يوم الاثنين في الغالب ، وبعدها يصير من المستحيل أن تجد مكانا في الطائرة .

على كل حال ذهبنا في معية الشاب إلى الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ ، الذي وصله خطاب التعريف الذي كتبه عبد الحميد الخطيب قبلا ، ولهذا رحب بنا ترحيبا حارا ، وأهل نجد يقولون بل يكررون عبارة " كيف حالكم " وغالبا ما يعني تكرار العبارة : هل أنتم بخير ؟ هل أنتم مستريحون ؟ هل أحوالكم طيبة ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟ وهكذا تنهال الأسئلة متعاقبة متواصلة ، فيقع الإنسان في حيرة من أمره .

والشيخ عمر بن حسن هو رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتولى سلطات تعيين أئمة المساجد وكذا تعيين المؤذنين ، كما أن هيئته أيضا يمكن أن تعاقب أي شخص على ارتكابه أي عمل غير مشروع أي مخالف للشريعة ، وتتعاون أجهزة الحكومة مع الهيئة في هذا الأمر ، ومن هنا استفسرت عن سلطات وصلاحيات واختصاصات الهيئة .

كان مجلس الشيخ عمر مكتظا بالموظفين ، وكذلك بمن جاءوا يطلبون مقابلته ، وشاهدت الرجل الذي قابلنا أول يوم ، ورد علينا السلام ثم أوصد الباب في وجوهنا ، كان مشغولا في إعداد الشاي والقهوة بنشاط وهمة ، وعلمنا أنه كاتب الشيخ عمر ، وفي هذا المجلس قدم أيضا الشيخ عبد الرحمن ابن إسحق بن عبد الرحمن آل الشيخ [١٥] وكان والده المحترم الشيخ إسحق بن عبد الرحمن قد درس الحديث في الهند على يد نذير حسين الدهلوي ، والشيخ حسين بن محسن الأنصاري وغيرهما .

دار الحديث معهما عن سيرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وعن بعض أجزاء هذه السيرة ، وذكرت لهما النقاط التي أريد الاستفسار عنها ، فوعداني بالرد عليها بعد بحثها .

تناولنا في هذا الحديث موضوعات متنوعة مثل الجماعة الإسلامية ، وجماعة أهل الحديث في الهند ، وعن أنجال وأحفاد بعض علماء أهل الحديث ، وكان هؤلاء الناس يسألوننا مرة بعد مرة عن " ا لإخوة أهل الحديث " ويقولون :

- كيف حال إخواننا السلفيين في الهند ؟

كان هذا السؤال على لسان كل إنسان .

طلبنا الإذن من الشيخ على وعد بالمزيد من اللقاءات والاجتماعات ، كانت حرارة الشمس شديدة ، وتمنيت أن أجد سيارة لأركبها اتقاء هذا الحر الشديد عندئذ تذكرت أنه لا توجد هنا سيارات أجرة ، وحاول رفيقنا أن " يستجدي " ، لكن لم نجد أمامنا أي صديق من أصحاب السيارات ، وأخيرا عدنا ، نتهادى ونتمايل يمينا وشمالا ، حتى وصلنا إلى دار الضيافة .

تقرر أن نلتقي بالشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ بعد المغرب ، والشيخ محمد بن إبراهيم يعد من أكبر وأجود العلماء ، من بين أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ومن ناحية العمر ، فأخوه الشيخ عبد الله بن إبراهيم أكبر منه ، ومن ناحية المنصب يعد الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ

قاضي القضاة بمكة أعظم الشخصيات البارزة ، وقد ولد مكفوف البصر ، وكلامه موزون مركز ومطابق للحال ، يتكلم بصوت عال وخشن ، ومن الملاحظ أن في لهجة أهل نجد عامة خشونة .

حضرت إليه في معية حسن الشنقيطي ، وكان الشيخ قد بنى منذ فترة بسيطة بيتا جديدا ، وهو بيت رائع وفخم ، إذا ما قورن ببقية بيوت الرياض ، وهو على مستوى بيوت الأسرة المالكة ، وكان البيت قد اكتمل حالا ، وحضر الملك مع ولي العهد بهذه المناسبة ، وتناولا الطعام في بيت الشيخ ، وأهدى الملك للشيخ سيارة صغيرة .

جلسنا على سطح البيت ، كانت الجلسة على الطريقة العربية ، فرشت السجاجيد ، ووضعت الوسائد والحشايا ، واستمر توافد الضيوف واحدا تلو الآخر ، وكان من بين الحضور الأخ الثاني للشيخ وهو عبد الله بن إبراهيم (وهو أكبر منه في العمر) وعبد اللطيف بن إبراهيم (وهو أصغر منه في العمر ويليه في العلم أيضا) وعبد الملك إبراهيم (إمام مسجد القصر الملكي) كما قدم أيضا أحد تلاميذ الشيخ ، وهو عالم ممتاز يدعى الشيخ عبد العزيز الباز(١٦) (قاضي الخرج) وحضر الجلسة أيضا عالم الزبير المطلع الذواقة " مشعان "(١٧) بالإضافة إلى أبناء الشيخ ، وكاتبه وبقية الضيوف .

دار الحديث بطريقة علمية مهذبة ، رحب بنا الشيخ كثيرا ، واحتواني بكرمه الشديد ، قال : بالأمس أخبرني ولي العهد عن قدومكم ، وكنت أشتاق إلى لقياكم ، ثم بدأ يوجه لي العديد من الأسئلة :

- كيف حال عبد الحميد الخطيب ؟

- كيف حال جماعة أهل الحديث ؟

- كيف حال الدعوة هناك ؟

وظل العبد الفقير يجيب على الأسئلة المتتالية في أدب ، وحين امتدحت عبد الحميد الخطيب وأثنيت عليه ، قال عبد العزيز بن باز :

- إنه يسرنا سماع نشاط وجهود عبد الحميد الخطيب ، لكنه طبع على إمساكية رمضان صورة للسلطان وولي العهد ، وهذا غير طيب ، لأنه يعني تقديس الصور في المستقبل .

كنت قد اطلعت على مقال للشيخ عبد العزيز بن باز عن حرمة التصوير في مجلة " الهدي النبوي " القاهرية فأثنيت على المقال ، فلفت نظره إلى هذا الشيخ محمد بن إبراهيم قائلا :

- عبد العزيز ! مسعود يثني على مقالك .

فسر الشيخ عبد العزيز ودعا لي . . والشيخ عبد العزيز مثل أستاذه مكفوف البصر ، ثم أثنى الشيخ عبد العزيز بعد ذلك على كتاب النظرية السياسية : وسأل عن أحوال الشيخ المودوي ، واعترض على قول المودودي في الآية الكريمة : أنزلنا الحديد فيه بأس شديد " بأن معنى الحديد هنا " القوة السياسية (بالأردية

سياسي قوت) ثم قال : يمكن أن يكون الأصل " قوة أساسية (بالأردية أساسي قوت) ثم جاءت في الترجمة " قوة سياسية " .

فقلت :

- لا . . في الأصل أيضا قوة سياسية ، والمترجم التزم بالأصل .

فقال :

- حسنا هذا أمر بسيط ، ولا أثر له على الكتاب الأصلي .

وتحيرت ، كيف وصله كتابنا هذا ؟ فقد أعطينا مجموعة واحدة لولي العهد، وأخرى للشيخ حسن الشنقيطي ، وهنا في هذا المجلس قدمنا مجموعة إلى الشيخ محمد بن إبراهيم ، وعرفنا فيما بعد أن ولي العهد أعطى المطبوعات للشيخ عمر بن حسن ، وأن الشيخ عبد العزيز أخذها من الشيخ عمر .

في هذا المجلس ورد ذكر مولانا شبير أحمد عثماني (١٨) فذكرت علمه وفضله وخدماته الدينية، عندئذ قال الشيخ : لقد رأيت كتابه شرح مسلم ، كان قد أرسله للسلطان ابن سعود ، ويفهم منه أنه حنفي قح (أي خالص أو متشدد) وأشعري ، لقد أول الأحاديث بطريقة عجيبة وغريبة ، ولكن يفهم من أسلوب بيانه أنه على علم جيد ، فقلت :

- نعم هو أشعري قح وحنفي أيضا ، وأنا لست حنفيا ولست أشعريا ، ولكني أعترف بخدماته الدينية ، وأقر بفضله وعلو كعبه في العلم .

وحين تحدثت مع العالم الزبيري " مشعان " وجدته يعرفني من خلال مقالاتي بمجلة الفتح ، فأخذ يقدمني للشيخ لفترة طويلة ، وظل يسأل عن كتابي " حاضر مسلمي الهند وغابرهم " وكان أيضا يقرأ ما كتبته في " السجل " ، فأخذ يسألني عن أحوال كشمير وحيدر آباد ، وخلاصة القول إن الحديث استمر طوال هذا المجلس الذي طال لساعتين تقريبا ، وكان حديثا مفيدا للغاية ، وفي النهاية طلبت من الشيخ أن يحدد لي وقتا للتحدث معه في بعض النقاط التي أريد أن أستفسر عنها فيما يتعلق بكتابي " محمد بن عبد الوهاب " وتقرر أن نحضر عنده في الساعة الثالثة (طبقا للتوقيت العربي الساعة التاسعة والنصف) ثم رافقنا حسن الشنقيطي إلى " دار الضيافة " وجلس معنا لفترة ، ودار الحديث عن موضوعات مختلفة .

الأحد ١١ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٤ سبتمبر ١٩٤٩م

وصلنا في الصباح إلى بيت الشيخ محمد بن إبراهيم في سيارة " دار الضيافة " وكان قد سبقنا إلى هناك بعض التلاميذ ، ومشعان الزبيري ، فأخرجت نسخة من كتاب " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " وبدأت الحديث عن الأماكن المطلوب الاستفسار عنها ، فأخذ الشيخ محمد بن إبراهيم ، والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم يردان بطريقة مهذبة ، وكأنهما تلميذان ، لم يكن فيهما صفات التكبر الموجودة لدى علماء الهند ، ولا صفات الغطرسة ، وفي بعض المواضع ، أصر كاتب السطور على ما ورد في البحث ، فلم يصرا على رأيهما ، وقالا :

- والله أعلم بالصواب .

كان لـدي كاتب الشيخ محمد بن إبراهيم مذكرات فاشترك معنا أيضا في الحديث ، وقدم لنا معلومات مفيدة ، كما وعد بأن يجمع لي كل مؤلفات علماء آل الشيخ أيضا .

وفي طريق العودة التقينا بابن جميعة ، فاستقبلنا كعادته بأدب واحترام ، وخلق حسن ، وكان سؤاله الأول :

- هل ينقصكم شيء ؟ ماذا تحتاجون ؟

فقلت :

- لا شيء ، نريد إذنًا بالسفر ، كما نريد ترتيب مقعدين للسفر بالطائرة ، والنفقات على حسابنا

فقال باتزان كامل :

- في دار الضيافة مسئول عسكري يدعى سعيد جودة ، اكتبوا له خطابا ، وسيأتي الإذن من قبل ولي العهد .

رجعنا إلى دار الضيافة ، ونحن نفكر في إذن السفر ، فقد وقعنا في حيص بيص ، جئنا لنتفسح في الرياض ، فعلما أننا لا يمكن الخروج من هنا بسهولة !!

هـذا بالإضافة إلى أنه لا توجد وسيلة حرة للذهاب إلى مكة !! فجميع الطائرات محجوزة طوال الأسبوعين القادمين، وإلا فإنه في الظروف العادية ، يمكن أن تتوفر مقاعد في الطائرات ، وأجرة السفر بالطائرة رخيصة ، لكن برنامجنا كله قد تعطل ، والشوق يلهب قلوبنا ، ويدفعنا إلى الوصول سريعا إلى مكة المكرمة .

في النهاية ، وبعد تفكير ، كتبنا خطابا إلى ولي العهد ، بعد أن صدرناه بالألقاب المتبعة : صاحب السمو الملكي . . ووعدنا مدير الضيافة بتسليم الخطاب إلى ولي العهد ، وقد صرح العبد الفقير في خطابه بأنه لا يحتاج إلى شيء ، والمطلوب فقط تأمين مقعدين في الطائرة أو في سيارة أجرة.

في السنة الماضية حمل عالم عربي إلى بهوبال مبلغ خمسة آلاف ريال وقد منعه بعض معارفنا قائلين له : لا تتحدث عن الأجرة ، ففهم أن هذا تحقير لشخصه .

وقد قلت من ناحيتي إنني سأذكر ألفاظا في غاية الأدب ، ولكن لا بد أن أميز بيني وبين أولئك الناس الذين يعمدون إلى أسلوب المدح والثناء ، وما يصاحب ذلك من أمور .

في المساء حضرت مجلس عربي مثقف من الشارقة (الخليج العربي) كان يعرف كاتب السطور ، من خلال مجلة الفتح ، وقد جاء للحصول على مطبوعاتنا من حسن الشنقيطي ، كان مسرورا جدا ، ويثني على مطبوعاتنا ،

وكان يقيم في دار الضيافة الداخلية ، وهو صديق لحسن الشنقيطي ، ويعمل مدرسا في إحدى المدارس الابتدائية المحلية ، وبعد المغرب ، كانت لنا جلسة في منزل الشاب البنغالي يوسف إبراهيم خان في " الحلة الجديدة " وهو من الأصدقاء الحميمين لمولانا أكرم خان [١٩]، كان قد التقى بنا أول أمس صدفة في السوق ، فبادر بمصافحتنا ، وأخذ يسأل عن أحوال مولانا أكرم خان ، وحين ذكر له كاتب السطور وضع مولانا أكرم خان الحالي ، وطباعة جريدته ، وفصلت له الحديث عن أحوال ابنه خير الأنام خان ، فرح وسر كثيرا ، وأصر على أن نعده بزيارة بيته ، وهو يعمل موظفا في مستشفى الرياض ، ويعمل والده مطوفا في مكة وكذلك عمه ، كلف المسكين نفسه كثيرا ، وكان جده قد جاء من البنغال ، وهو نفسه من مواليد مكة المكرمة .

الاثنين ١٢ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٥ سبتمبر ١٩٤٩م

في الليل شعرت بصعوبة في التنفس ، لفحني الهواء البارد أثناء النوم ، وفي الصباح شعرت بالتعب والإرهاق ، فلزمت دار الضيافة اليوم كله ، بدأ عاصم في " تبييض " الجهاد في سبيل الله فلم يتمكن من إنهاء ذلك بسبب السفر ، بينما كتبت بعض الخطابات للأصدقاء والأحباب في جدة ومكة المكرمة ، كنت قلقا بسبب تأخرنا في الرياض ، فقد لا نجد مكانا مناسبا للإقامة في مكة المكرمة .

في المساء التقيت بيوسف إبراهيم خان ، وأحد أصدقائه الأندونيسيين ، وكلاهما مخلصان ، سألاني عن برنامج السفر ، فقلت :

- أنا محبوس ، لا أدري عن برنامجي شيئا ، وشرحت لهم تجربتي في العراق والكويت.

وبعد المغرب التقينا صدفة بشخص آخر ، من سكان مكة المكرمة ، وهو المترجم الخاص للسلطان ابن سعود ، يعرف الإنجليزية والفرنسية ، وهو فخور جدا بمعرفة الإنجليزية ، ويعتبر معرفته بالإنجليزية والفرنسية شيئا عظيما ، قدم إلى غرفتنا بزهو ، وقال بعظمة :

- يمكنني أن أقدم لكم جميع المعلومات المتعلقة بالمملكة .

فقلت له :

- شكرا . . كم عدد سكان الرياض .

فقال :

- سبعمائة ألف .

وحين رأى الصمت خيم على وجوهنا ، ورأى أثر الحيرة علينا قال :

- لعلكم لا تصدقون هذا ، لكن هذا هو الواقع .

فقلت :

- صدقنا أو لم نصدق ، ماذا يعني الأمر ، فقد أردت فقط أن أسأل وأستفسر ، لكن سكان الرياض لا يصلون إلى سبعمائة ألف ، بل ولا يمكن أن

يكونوا حتى ثلاثمائة وخمسون ألفا ، فسكان بغداد سبعمائة ألف ، والرياض لا تزيد عن كونها حيا من أحياء بغداد ، مثل حي الكراده .

وظل هذا الرجل يحلق دون أجنحة ، يسوق الحديث دون دليل ، وورد ذكر الشيخ عبد الله (كشمير)[٢٠] فقال :

- سمعت أنه مسلم .

فقلت :

- نعم . . إن من وُلد لأب مسلم وأم مسلمة يكون بالضرورة مسلما ، فهو مسلم .

فقال :

- ماذا تقصد ؟!

فقلت :

- هل اسم عبد الله أو عبد الرحمن يكفي ليكون صاحبه مسلما ؟

فقال :

- لا . .

فقلت :

- هذا يكفي .

وكنت أريد أيضا أن أخبره بأن الشيخ عبد الله فرد من أفراد الأمة المسلمة ، أما عقائده وأعماله ، فتختلف عن عقائد وأعمال المسلمين .

استمر الحديث مع هذا الرجل لفترة ، ظل يتفاخر خلالها بشمولية علمه ومعارفه ، بينما العبد الفقير يصيبه في كبريائه ويحطم من زهوه .

الثلاثاء ١٣ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٦ سبتمبر ١٩٤٩م

لم يكن جو الرياض يناسب صحتي ، بينما كنت أجلس حبيسا في دار الضيافة ، يسألني الموظفون :

- متى العزم ؟

ويسأل مدير الضيافة :

- متى القصد ؟

ويرد العبد الفقير المذنب عليهما :

- يا أخي لا أريد شيئا ، أريد أن أدفع أجرة الوصول إلى مكة المكرمة ، أريد أن أجد وسيلة للوصول إلى مكة ، لكني لم أوفق في هذا حتى الآن .

فيسمعان كلامي ، ويطبق الصمت على شفتيهما ، ويبدو أنه ليس بيدهما حيلة ، فلا ينطقان بشيء .

في حوالي الساعة العاشرة حضر سكرتير الأمير سعود ولي العهد وقال بمنتهى الاتزان :

- لقد وصل خطابك إلى الأمير ، قرأناه عليه ، فقال بأنه لا يوجد الآن مكان للسفر بالطائرة ، ولمدة عشرة أيام ، والآن الأمر بيدك ، إن أردت انتظرت ، وإلا قبلت السفر بعربة البريد ، فيمكن تدبير هذا الأمر .

فقلت :

- حسنا سوف أستطلع الأمر ، وأخبرك عن الوقت المناسب . بعد قليل حضر الشيخ عمر بن حسن ، وكان كرما وفضلا كبيرا منه أن يشرفني بهذه الزيارة، وكان الشيخ سيسافر مع الملك إلى مكة (٢١) ولهذا جاء ليودعني ، وسألني :

- متى تقرر سفركم ؟

فشرحت له ما دار بيني وبين سكرتير الأمير سعود .

فقال :

- سيسهل الله الأمور .

جلس معي خمس دقائق أو أكثر ، ثم استأذن ، لكن قدومه هذا كان له أثر عظيم .

وجاءني اليوم أيضا عالم آخر هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبداللطيف ، فتحدثت معه لفترة ، وأخذ مني بعض مطبوعاتنا ،لم يكن لدينا نسخ للتوزيع ، وكان عندنا نسخة أحد الأصدقاء تركها عندنا ، لكن الشيخ عبد الرحمن لم يصدق ، وأصر على دعوتي إلى بيته ، ثم قال :

- سوف آتي لآخذكم بالسيارة غدا .

فقلت :

- على العين والرأس ، أنا تحت أمركم في كل وقت .

ومن حسن حظي أني صليت اليوم ثم سعدت بصحبة الشاعر خالد بن محمد الفرج [٢٢] وهو أصلا من سكان الكويت ،ويقيم هذه الأيام في الخبر ، بالقرب من الظهران ، يمتلك مساحات شاسعة من الأراضي ، كان قد نظم سيرة السلطان ابن سعود منذ عشرين سنة ، وكان ذاهبا للحج ، وقد وصل اليوم بالطائرة ، وغدا سيسافر بصحبة الملك ، يعرف قليلا من الأردية ، وهو على معرفة بالقادة السياسيين في الهند ، كان يسأل عن ظفر على خان[٢٣] بصفة خاصة ، ويعرف الشاعر محمد إقبال أيضا [٢٤] وكان قد ترجم قليلا من أشعاره، فأخذت أحثه وأشجعه على مطالعة دواوين إقبال ، وترجمة أشعاره ، له مقدرة عظيمة على قول الشعر ، وقد قضيت معظم اليوم في صحبته ، وتبادلنا الأحاديث في موضوعات مختلفة ، وعرفته على الجماعة الإسلامية ومنهج الدعوة لديها ، وذلك بتفصيل كامل ، والرجل له اهتمامات بالأمور السياسية ، ولهذا فقد فهم وضعنا بسرعة ، فاستعار مطبوعاتنا لساعتين أو ثلاث ، وأخذ يقرأها في حجرته .

لم نخرج إلى السوق منذ يومين ، كنت على موعد للقاء الشيخ عبد العزيز ابن باز في بيته ، فلم أستطع الوفاء بذلك ، ولهذا كنت قلقا ، جاء إلي الشيخ حسن الشنقيطي ليسأل عن أحوالي ، وبعدها جلست لفترة طويلة في غرفة خالد محمد الفرج ، وتناولنا الطعام معا .

الأربعاء ١٤ ذي القعدة ٦٨ هجرية ٧ سبتمبر١٩٤٩م

رغم أن إقامتنا في الرياض كانت اضطرارية إلا أنها أضافت الكثير إلى معلوماتنا ، فمن يأتي هنا ينزل ضيفا على الحكومة ، وعادة ما يثني على الحكومة ، وينال مكرمة وإنعاما ، ويُودّعُ مرفوع الرأس سعيدا ، والضيف الأجنبي قد لا يشاهد شكل المدينة ، فهو لا يمكن أن يذهب إلى أي ناحية من المدينة بدون إذن الأمير ، وإذا ما تجرأ أحد ، يتم إطلاع المسئولين خلال، ساعة، فيرافقه أحد الحراس ، وهناك كرم زائد على الصحفيين والأدباء ، وقد يهدى الواحد منهم ألفا أو ألفين هدية ، وهذا شيء عادي جدا .

لم يلتزم العبد الفقير بهذا الأمر ، فكان يذهب إلى المدينة كل مساء دون تكلف ، ولم يطلب سيارة خلافا لما اعتاد عليه بقية الضيوف الرسميين الآخرين، وكنت أحيانا أنال شرف استخدام السيارة الرسمية ، صباحا ، نظرا لشدة الحرارة ، وقد ألفني بعض الناس ، لدرجة أنهم كانوا يسرون لي بما في صدورهم ، وكنت أتعاطف معهم ، فيفتحون لي خزائن أسرارهم ، من تلقاء أنفسهم .

من بين هؤلاء رجل من مكة تأثر بحركة الوحدة الإسلامية إبان الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال يؤمن بهذه الفكرة حتى اليوم ، يعرف بصفة خاصة مولانا ظفر علي خان ، وشعيب قريشي [٢٥] وهذه الطبقة من الهنود . . لكن الدنيا اليوم تبدلت ، والآن يمكن الدعوة إلى الدين الخالص أي الإسلام ، أو ترديد الكفر الخاص المتمثل في الشيوعية ، فقضية المسلمين لا يمكن أن تحل عن طريق الوحدة السياسية أو الاقتصاد المشترك أي ما يعرف بالسوق المشتركة ، وهذه أمور تحدث من خلال الشعارات فقط ، وهذا أمر لا يخدم الإسلام في شيء ، والظروف لا يمكن أن تكون مناسبة لبناء الوحدة السياسية التي ينشدها هذا المكي الغاضب ، كما أن فكره هذا لا يمثل شيئا ذا قيمة على المجتمع أو الدولة .

كانت المدينة قد ازدانت ، وصارت في غاية الجمال منذ ثلاثة أو أربعة أيام ، وكان قدوم الضيوف مستمرا لا ينقطع في أي لحظة[٢٦] لكن هذا كله هدأ اليوم ، وهدأت حركة السيارات ، وقلّت الحركة في دار الضيافة ، فقافلة جلالة الملك سوف تتحرك صباح اليوم بالطائرة إلى الطائف ، فكانت المدينة كلها تحتفل بذلك ، وتوقع أصدقاؤنا أننا سنجد مكانا في الطائرة بعد غد ، ولن تكون هناك صعوبة في ذلك ، لكن من يجزم بذلك ؟!

قال البعض ممن كنا نلتقي بهم :

- هذه الصعوبات كانت بسبب المصاحبين والمرافقين لجلالة الملك ، لو التقيت بولي العهد وأخبرته ، لأوجد لك مكانا .

فقلت :

- إنني أفضل الانتظار ، والحقيقة كنت أفضل أساسا أن أنزل في أحد البيوت في الرياض ، كما أن الوصول إلى مكة بالناقلات لا يمثل بالنسبة لنا صعوبة ، فقد وصلنا من الكويت إلى الرياض بالناقلة (اللوري) وقد فكرنا في السفر بالطائرة للمتعة ثم لاختصار الوقت ، ولكن ليس من الضروري أن يحقق الإنسان كل ما يريده دائما و " ما تشاؤون إلا أن يشاء الله . "

لم نذهب إلى المدينة ليومين كاملين ، فبدأ أهل العلم وغيرهم يفدون للسؤال عن صحتنا ، وبالأمس جاء الشيخ عمر بن حسن ، والشيخ عبد الرحمن ابن محمد بن عبد اللطيف ، واليوم أكرمني الشيخ عبد العزيز بن باز (قاضي الخرج) بزيارته مع تلاميذه ومحبيه ، والمسكين مكفوف البصر ، ولهذا ترك هذا الأمر في نفسي أثرا كبيرا ، فقد كلف نفسه مشقة القدوم ، وهذا فضل كبير منه ، كما أنه رجل عالم ، يتقلد منصبا رفيعا ، وأكبر من كل هذا وذاك أنه لا يدانيه أحد في جرأته على قول الحق ، ويتعرض أحيانا للعتاب بسبب هذه الجرأة .

جلس معي فترة طويلة ، ودار بيننا حديث علمي طيب ، وسألني في أثناء الحديث :

- هل قرأت الحديث النبوي أيضا ؟

فقلت له :

– نعم قرأته ولكن بعد انتهائي من التعليم الرسمي انشغلت بالصحافة والسياسة .

كان يرافقه أيضا مشعان الزبيري ، فقال من فوره :

– الجهاد بالقلم في هذا الوقت خدمة كبيرة أيضا .

فسألني الشيخ عبد العزيز ثانية :

– ماذا قرأت في الحديث ، وعلى يد من من الأساتذة ؟!

فيما يتعلق بالأساتذة كان العبد الفقير قد قرأ على يد أساتذة كبار ، ولكن الأساتذة لا يزيدهم عزة على عزتهم أن يكون لهم تلميذ بليد مثلي .

بعد المغرب ذهبت إلى منزل الشيخ عبد العزيز ، حيث حضر أيضا الشيخ محمد علوان ، وكنت قد التقيت به في بتنه (الهند) وذكرته في كتاب " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " فرحب بي ترحيبا حارا ، وقد كان مريضا لهذا لم أتمكن من مقابلته من قبل ، فراح يعتذر مرة بعد مرة ، ويسأل عن أحوال مولانا سيد سليمان الندوي ، وبقية أهل العلم والأدب في شبه القارة الهندية ، وورد ذكر خليل عرب (٢٧) أيضا ونجله العالم الفاضل ، وسأل الشيخ عبد العزيز أيضا عن حال أخيه ، ربما كان خليل عرب قد تحدث هنا كثيرا عن اللغة الإنجليزية ، وركز حديثه على ضرورة تدريسها ، ونهذا لم يكن الشيوخ مسرورين منه ، وقد وجهوا إليه النقد بطريقة مهذبة .

الخميس ١٥ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٨ سبتمبر ١٩٤٩م

تحسنت صحتي إلى حد ما ، ولكني لا أعرف حتى الآن موعد سفري ، كان عاصم في غاية القلق ، بينما طرأ علي نوع من التوتّر ، كنت أحاول إخفاءه ، وفي النهاية ، وفي تمام الساعة الحادية عشرة (الخامسة طبقا للتوقيت العربي) زفّ إليّ سكرتير ولي العهد بشرى طيبة ، فاليوم تتحرك عربة البريد ، إذن سيكون السفر بعد العصر ، وسوف يتولى مدير دار الضيافة بقية الإجراءات ، تذهب عربة البريد الخاص من الرياض ثلاث مرات في الأسبوع ، بصورة منتظمة للغاية ، أما البريد العادي فينقل مرة واحدة في الأسبوع ، وقد يتأخر ذلك أيضا لفترة أطول ، ويمكن لأربعة مسافرين السفر في عربة البريد بناء على أوامر من الحكومة ، وعربات البريد أكثر أمنا وطمأنينة من الناقلات العامة الأخرى ، فإذا ما حدث فيها عطل في الطريق - لا قدر الله - طلب السائق العون باللاسلكي من محطة أخرى ، وهناك عدة محطات متفرقة في الطريق الذي يربط بين مكة المكرمة والرياض .

وهكذا أبلغنا بالخبر ، ولا يمكن أن يحتمل هذا الخبر أي خطأ ، فالسكرتير أطلعنا به بعد أن ظل يبحث ويتقصى ليومين ، لكن المصيبة هي أن البريد العادي أو العام يذهب مرة واحدة فقط في الأسبوع ، وذلك يوم الأحد فقط ، أصابني القلق ، ووسط هذه الحالة من الارتباك والفوضى ، أرسلت عاصما إلى السوق، وسمع حسن شنقيطي بالخبر فجاء يودعنا ، ولكنه كان على يقين من أن عربة البريد لا تذهب من الرياض يوم الخميس ، لا بد من أنهم دبروا عربة أخرى .

حضر مدير دار الضيافة بعد ساعة ، فاتصل هاتفيا بمكتب البريد ، وعرف أن عربة البريد سوف تتحرك كالعادة مساء يوم الأحد ، فسجل أسماءنا ، وكنا في حيرة من عدم معرفة سكرتير ولي العهد بهذا الأمر ، وظن عاصم أنه فعل ذلك قصدا أو عمدا والله وحده يعلم ، فإذا كان الأمر عمدا فهو أمر مؤسف ، وإذا كان لا يدري فهذا أمر محير للغاية .

جاء حسن شنقيطي ظهرا وظل جالسا معنا لفترة طويلة وتقرر أن تعقد جلسة في المساء في بيت صديقه عبد العزيز ، والشنقيطي يعمل مدرسا في إحدى المدارس الابتدائية ، وعبد العزيز يقوم أيضا بالتدريس في نفس المدرسة ، وقدم أيضا عدد من مدرسي المدرسة ، واستمرت الصحبة حتى المغرب ، وكلما وجد كاتب هذه السطور فرصة قام بتعريفهم بالدعوة ، فالكتب منتشرة هنا ومقروءة لدى شريحة عريضة من الناس ، وقد وجدنا عددا لا بأس به هنا يطالع كتبنا ، لكن أملنا ضعيف في أن تجد دعوتنا صداها هنا ، لأسباب عديدة يطول شرحها .

جلسنا بعد المغرب في صحبة صديق من المدينة ، وكان معنا الصديق المكي ، بالإضافة إلى مجاهد سعودي عائد من ميدان فلسطين ، فحين أعلن الجهاد في فلسطين انضم إلى الجهاد حوالي ٧٠٠ متطوع من البلاد السعودية ، وظلوا يعملون تحت قيادة " فوزي قادقجي " ثم أشرفت عليهم الحكومة ، وحددت لهم راتبا مثل الجنود ، وبعد تأجيل الحرب ، كان هؤلاء ضمن الجيش الشامي ، فرجعوا قبل عدة أيام ، واستقبلوا استقبال الأبطال [٢٨] وكان هذا الرجل الذي لقيناه هو رئيس المتطوعين .

تبادلنا الحديث عن موضوعات مختلفة ، حاولت أن أقدم له دعوتنا ومنهجنا ، وأعرفه بالجماعة الإسلامية عندنا ، ولكني لم أستطع ذلك ، نظرا لأن الرجل لم يكن على درجة من العلم تساعده على ذلك، فلم يفهم غرضي، وظل يسألني عدة أسئلة متفرقة ، لا تتعلق بموضوعنا ، وحاولت أن أوضح الأمر أكثر ، لكن المجاهد لم يفهم جيدا كلامي ، على عكس بقية الحاضرين .

الجمعة ١٦ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ٩ سبتمبر ١٩٤٩م

تقرر سفرنا يوم الأحد لم نستطع أن نختار لنا معلما حتى الآن ، يحفظنا الله من المطوفين الجهلة !! إلا أن هذا كان أمرا ضروريا من وجهة نظر القانون ، وهو ضروري على كل حال ، فيما يتعلق بالمعاملات الأخرى ، إضافة إلى المناسك ، وفي النهاية ، وبعد تفكير ، عرضنا الأمر على عبد الرحمن مظهر ، فأخوه الأصغر محمد مظهر الندوي درس في الندوة ، ويعمل هذه الأيام موظفا في وزارة الخارجية في جدة ، فلعله يعرف بعض المطوفين عن طريق محمد مظهر ، وهو أيضا رئيس جميع مطوفي الهند ، وقد أيد معارفنا هنا هذا الاختيار.

صلينا الجمعة في مسجد القصر ، ولم نلاحظ وجود صفوف السيارات التي اعتدنا على مشاهدتها كل جمعة ، فقد سافر جلالة الملك المعظم ، وحاشيته ، وعدد كبير من الأسرة المالكة ، إلى مكة والطائف، وكان المسجد كما هو يعج بالمصليين ، إلا أن شيخا آخر تولى إمامة الناس في الصلاة ، فالشيخ عبد الملك بن إبراهيم لم يكن موجودًا اليوم .

لم نكن على موعد بلقاء أحد اليوم ، كما لم تكن لدينا حاجة للخروج إلى السوق ، فمكثت أتحدث مع عاصم في الغرفة ، فقد كان مهموما محزونا ، فسألني :

- هل يمكن أن تنجح الدعوة هنا ؟

قلت :

- يا أخي يبدو الأمر صعبا للغاية .

فقال :

- هذا ما أظنه أيضا . . .

- قلت :

- الكتب يمكن أن تنتشر هنا ، وأشعر أن عليها طلبا ، ويمكن أن يكون لها تأثير ، فتتولد من خلالها حركة للدعوة .

فقال عاصم :

- الكتب ستنتشر بسبب اسمك ، فالعلماء مسرورون منك ، بسبب كتابك عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولن يضرهم انتشار كتبك هنا .

قبل المغرب بقليل حضر الصديق المكي الذي اعتاد أن يشكو لي أحواله ، وراح يسمعني لفترة حكايته ، وقال إنه كان ينوي الذهاب للحج ، لكنه لم يحصل على إذن بذلك ، وقد جاوز الستين من عمره الآن . . .

السبت ١٧ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٠ سبتمبر ١٩٤٩م

تقرر السفر غدا ، فرغبت في الذهاب لوداع الشيخ محمد بن إبراهيم ، وانضم إلى في الطريق حسن شنقيطي ،لم يكن الشيخ موجودا ، فالتقينا بابنه ، وطلبنا الإذن بعد أن جلسنا معه قليلا على أمل العودة ليلا .

زرت في معية الشنقيطي المدرسة التي يعمل فيها ليلا ، توجد في الرياض ثلاث مدارس فقط ، ولا توجد مدارس ثانوية ، كما توجد مدرسة على النظام القديم ، وتوجد مجالس للدرس في بيوت العلماء ، ويعتبر السند الذي يعطيه هؤلاء العلماء للدارسين شهادة دراسية ، ويوجد في الحجاز مدارس ثانوية ، إلا أن الوضع في الرياض مختلف ، فنظرا لمعارضة العلماء ، لا يمكن إنشاء مدرسة على الطراز الحديث ، والسؤال هو : كيف يمكن لمدينة بأكملها أن تنال تعليمها من خلال ثلاث مدارس ابتدائية ؟!

كانت المدرسة التي زرناها هي مدرسة العزيزية [٢٩] حيث كان الشنقيطي يعمل مدرسا ، تجولنا في المدرسة ، وألقينا عليها نظرة سريعة ، وكان هناك فصل يدرس للأطفال العرب تجويد القرآن ، فاستمتعت كثيرا بالاستماع إليهم ، ولفني شعور بالسعادة والفرح والهيام ، صوت جميل عذب ،وسط مشاعري القلقة ، فشعرت بشذا عبير ليلى .

بعدها مضيت فسمعت العمال يرددون بعض الألحان والأناشيد بصوت جميل ، وتعجبت فالغناء ممنوع في الرياض أو على الأقل لا يجد من يشجعه ، لكن العمال يحتاجون في عملهم إلى لحن ما .

في إحدى الحارات كان بعض العمال يحملون الطوب على إحدى السيارات ، كان أحدهم على الأرض بينما كان اثنان آخران فوق العربة ، وكانت عبارة " اللهم صلي على محمد " تتردد على ألسنتهم بنغمة عذبة ولحن جميل، لدرجة أننا شعرنا في البداية أنه ربما تكون أغنية ، كان فريق يقول : (اللهم صلي) فيرد الفريق الآخر : (على محمد)

كان ذلك بلهجة عربية سهلة واضحة ، وبإيقاع عذب جميل ، زاد من متعتنا لدرجة أنني رغبت في أن أظل واقفا بالقرب منهم لأطول فترة ممكنة ، لكن وقت صلاة المغرب كان قد حان .

إلى أين أخذنا الحديث ؟!!

ألقينا بنظرة سريعة على المدرسة ، استمعنا إلى تلاوة من آي الذكر الحكيم على لسان أحد الأطفال ، وبإصرار شديد من ناظر المدرسة ، وهل هناك ما هو أطيب من الاستماع إلى القرآن الكريم، وخاصة من طفل عربي ، وقطع وصول عربة دار الضيافة علينا متعتنا ، فقد كان السائق على عجل ، ولهذا لم نتمكن من التمتع أكثر ، ولم تكن لدي همة لصرف السائق ، والعودة تحت أشعة الشمس المحرقة .

في المساء وصلنا كالعادة إلى مكتبة حسن الشنقيطي ، وصلينا معه في مسجد قريب من المكتبة ، وبعدها ذهبنا إلى بيت الشيخ محمد بن إبراهيم ، وسعدنا بصحبته العلمية لساعة كاملة ، وقد سألته بطريقة مهذبة عدة أسئلة ، فأجاب عليها الشيخ بتواضع العلماء الكبار .

كانت هذه الأسئلة في معظمها عن القضايا الاقتصادية ، التي لم يغفلها كاتب السطور في الفصل الخاص بالنظام الإسلامي في الطبعة الجديدة من الإسلام والاشتراكية ، وقد رأيت أن أتبادل الأفكار مع أهل العلم ، والاستفادة منهم كلما وجدت فرصة لذلك .

تتمثل المشكلة في أن فقهاءنا القدامى ، الذين طالعوا كتب أئمتهم المتقدمين ، كانوا يجهلون مشكلات القضايا الحديثة ، كما أنهم اعتبروا المشاكل والقضايا الجديدة التي كانت تواجههم ، قضايا محدودة تماما ، وقاصرة أيضا على الكتب القديمة ، والعبد الفقير ينتمي للطبقة السابقة ، والحل الصحيح للقضية هو أن نطالع الحديث بعمق في ضوء القرآن ، وأن نطالع جيدا كتب الأئمة والمحدثين القدماء . .

طال الحديث إلى حد ما ، بعدها انتقلنا إلى الجلسة العامة ، ثم طلبنا الإذن بالانصراف ، وقد فرح نجل الشيخ ، وسُر سرورا عظيما من سؤالي ، وفي طريق العودة استأذن حسن شنقيطي ، بينما عدنا أدراجنا في دار الضيافة .

حواشي وتعليقات

١ - القائد الأعظم هو محمد على جناح هو مؤسس باكستان ، انظر محمد علي جناح للدكتور محمد مندور ط القاهرة ١٩٦٠م

٢- قرية بفتح القاف وإسكان الراء تقع في مكان متوسط بين شرق الجزيرة وشمالها على مقربة من ملتقى كثير من الطرق التي تعبر الجزيرة . انظر المعجم الجغرافي للبلاد السعودية للشيخ حمد الجاسر القسم الرابع منشورات دار اليمامة ص ١٤١٦ .

٣ - ورد في أم القرى العدد ١٢٧٥ في العاشر من ذي القعدة تكذيب لهذه الشائعات ، تحت عنوان بلاغ رسمي رقم ١٣١ - نشرت بعض الصحف البغدادية بحروف كبيرة بأن المملكة العربية السعودية على استعداد لإرسال النفط عن طريق حيفا ، ونقلت عن جريدة التايمز اللندنية أن الوضع الحالي في البلاد العربية غير طبيعي ، ولذلك فإن المملكة العربية السعودية ، وإن كانت لا تعطف على إسرائيل ، فإنها أعربت عن استعدادها لأن تبعث إلى حيفا السفن التي تنقل النفط السعودي ، فيما إذا ضمنت هذه السفن الوصول إلى هناك .

وإن الحكومة العربية السعودية تكذب ما نشرته صحف بغداد ، وما نشرته جريدة التايمز اللندنية تكذيبا باتا ، وأن الأمر على العكس من ذلك فإن

شركة الزيت الأمريكية متعهدة بعدم وصول أي قطرة من البنزين السعودي لأي جهة يهودية بطريقة مباشرة وغير مباشرة . . . من أجل ذلك وإثباتا للواقع جرى نشر ذلك .

٤ - تم إلغاء رسوم الحج بعد أن من الله على المملكة بالخير الوفير ، بل أخذت المملكة تدعو كثيرا من حجاج البلدان الإسلامية للحج على نفقة حكومة المملكة ومليكها .

٥ - بلدة رماح انظر حمد الجاسر المعجم الجغرافي للبلاد السعودية

٦ - يقصد الخدمات الجوية من الرياض إلى الطائف أو جدة ومنها إلى مكة المكرمة .

٧ - وبهذه المناسبة أي مرور مائة عام يتم الاحتفال هذا العام بمناسبة توحيد الملك عبد العزيز لأجزاء البلاد .

٨ - لمعرفة تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على آداب الشعوب الأخرى انظر الأدب الأردي الإسلامي ، الصفحات المتعلقة ، وانظر بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب الجزء الثاني ١٤٠٣هجرية / ١٩٨٣م

٩ - كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه ترجمه وعلق عليه عبد العليم عبد العظيم البستوي وقدم له وراجعه الدكتور محمد تقي الدين الهلالي وصدر لأول مرة ١٣٧٩هجرية ثم نشرته إدارة الثقافة

والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعد أن راجعه للمرة الثانية الشيخ إسماعيل الأنصاري والشيخ عبد العزيز الرومي وذلك في سنة ١٤٠٤ هجرية/ ١٩٨٤م .

١٠ - غطت أم القرى خبر الحفاوة الفخمة في الرياض بتوديع جلالة الملك ، العدد ١٢٧٨ الجمعة في الرابع والعشرين من ذي القعدة (١٦ سبتمبر ١٩٤٩م) وجاء ما يلي : أشرف سمو ولي العهد المعظم على ذلك .

استيقظت الرياض يوم الثلاثاء ١٤ القعدة ٦٨ هجرية عن بكرة أبيها لوداع الملك المفدى . . . وكان في شرف ركوب الطائرة أصحاب السمو الأمراء السعوديين ، وفؤاد بك حمزة ، ورئيس الشعبة السياسية ، ورئيس الديوان الملكي . . والشيخ عمر بن حسن ، وكبار رجال البلاط ، وفي الساعة الثانية عشرة والربع حلقت الطائرة الملكية في سماء الرياض يتبعها سرب من الطائرات السعودية يقل بعض رجّال الركب الملكي الكريم .

١٢ - حسن الشنقيطي : نسبة إلى شنقيط في موريتانيا

١٣ - إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ولد في الرياض عام ١٢٨٠هجرية ونشأ وتعلم فيها ، وتوفي في الرياض سنة ١٣٢٩هجرية وخلف أربعة نجباء عبد الله أكبرهم سنا و الشيخ محمد رئيس القضاة ، ويليه عبد اللطيف ، ورابعهم الشيخ عبد الملك بن إبراهيم رئيس هيئات المنطقة الغربية انظر علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الله البسام ج ١ ط أولى ص ١٢٦-١٣٠

١٤ - محمد بن إبراهيم آل الشيخ هو محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، أخوه عبد الله بن عبد اللطيف ، عينه الملك عبد العزيز قاضيا في الوشم ، ومقر عمله شقراء ، ثم بعثه إلى عسير وبلاد الحجاز داعيا ومرشدا، ثم عينه قاضيا بالرياض ، وتصدى للإفتاء حتى استفاد منه خلق كثير من بينهم الشيخ حمد بن جاسر صاحب دار اليمامة انظر علماء نجد ص ٨٤٩ .

١٥ - عبد الرحمن بن إسحاق بن عبد الرحمن ، درس والده الحديث في الهند

١٦ - ورد في الأصل آل باز والشيخ عبد العزيز بن باز هو المفتي العام للمملكة العربية السعودية وغني عن التعريف .

١٧ - عالم الزبير المشهور " مشعان " ويقال إنه عالم سلفي خدم الدين

١٨ - شبير أحمد عثماني : يلقبونه أحيانا بشيخ الإسلام علامة شبير أحمد عثماني ، وهو محدث ومفسر للقرآن وخطيب مفوه وقد أثنى عليه سيد سليمان الندوي وأشاد بمقدرته الخطابية ، ولد في بجنور في محرم عام ١٣٠٥ / ١٨٨٥م ، درس في ديوبند ، وقدم للحج ١٣٣٨ هجرية ، وقد دعاه الملك عبد العزيز فجاء ممثلا لجمعية علماء الهند ، وألقي أمام الملك عبد العزيز خطبة عظيمة باللغة العربية ، وفي سنة ١٣٥٤ هجرية صار مديرا لمدرسة دار العلوم في ديوبند ومن تلاميذه المفتي محمد شفيع ومولانا محمد إدريس كاندهلوي ومحمد يوسف بنوري وغيرهم . انظر اكابر علماء ديوبند جمع وترتيب محمد أكبر شاه بخاري اداره اسلاميات لاهور ص ٩٤ وما بعدها .

١٩ - مولانا أكرم خان عالم وأديب ، مضى على نهجه ابنه خير الأنام خان .

٢٠ - الشيخ عبد الله ينتمي إلى حزب المؤتمر الذي يدعو إلى تأسيس الأوطان طبقا للقوميات بصرف النظر عن الدين ، ولهذا لقي دعم حكومة الهند ، وأضر بقضية مسلمي كشمير ، ولا يزال تأثيره باقيا حتى اليوم .

٢١ - الشيخ عمر بن حسن بن حسين بن علي بن حسين بن شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب ، حفظ القرآن وهو لم يبلغ العاشرة من عمره ، ولاّه الملك عبد العزيز رئاسة هيئتي الأمر والمعروف بنجد عام ١٣٤٥هجرية والمنطقة الشرقية ، واستمر في هذا المنصب إلى وفاته ، وكان يعاني كمؤلف الرحلة من داء الربو . انظر تاريخ علماء نجد الجزء ٣ ص ٧٤١/ ٧٤٢ وقد نشرت أم القرى خبر سفر الشيخ عمر بن حسن مع الملك عبد العزيز نظر حاشية رقم ١٠ .

٢٢ - خالد بن محمد الفرج من الأدباء والشعراء المجيدين ، نضم سيرة الملك عبد العزيز في كتاب بعنوان : أحسن القصص أو سيرة جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها وقد طبع في القاهرة (بدون تاريخ) وله قسم ثان أكمل فيه سيرة الملك عبد العزيز منذ دخوله الحجاز حتى عام وفاته١٣٧٢هجرية وطبع بالقاهرة أيضا ، وله ديوان بعنوان ديوان خالد الفرج طبع ١٣٧٣هجرية .

٢٣ - ظفر على خان أديب وصحافي من بلدة كرم آباد بالبنجاب درس في جامعة عليكره سنة ١٣١٢هجرية وفي سنة ١٣٢٧هجرية تولى رئاسة تحرير

مجلة زميندار ، عرف بغيرته على الإسلام ، وتمسكه بشعائر الدين واتباعه للسنة ، ولهذا أعجب بشخصية الملك عبد العزيز ، ونظم قصائد في ذلك ، انظر الأدب الأردي الإسلامي تحت عنوان ظفر علي خان والمغفور له الملك عبد العزيز ص ٥٨١ -٥٨٥ وانظر أيضا صفحات من تاريخ الملك عبد العزيز في المصادر الأردية الصفحات المتعلقة مقال بمجلة جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ٢٤ يصدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية .

٢٤ - محمد إقبال الفيلسوف والشاعر المعروف ، صاحب فكرة إنشاء باكستان ، تنبأ بالمستقبل الزاهر للملك عبد العزيز إبان توحيده لأجزاء البلاد ، وحذر بلدان الغرب ، قائلا بأن جزيرة العرب ستشهد مولد بطل ، وكتب قصيدة إلى الملك عبد العزيز ، انظر اقبال والعرب سمير عبد الحميد إبراهيم ط دار السلام الرياض ١٩٩٢م وانظر أيضا إقبال وأرمغان حجاز . ومجلة اليمامة مقال بعنوان الملك عبد العزيز في الأدب الأردي العدد الخاص باليوم الوطني عام ١٤٠١هجرية .

٢٥ - شعيب قريشي من القادة المسلمين الذين شاركوا في حركة الخلافة في الهند .

٢٦ - انظر ما جاء في أم القرى قبلا .

٢٧ - خليل عرب يصنف على أنه من علماء الحديث بالهند وهو خليل بن محمد عرب نجل مولانا محمد عرب الذي عمل بدار العلوم بندوة العلماء وهو

حفيد الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني ، وكان قد ولد في بهوبال بالهند ، قرأ علوم الحديث في الندوة وعمل بالتدريس في المدرسة العالية في كلكتا وأيضا في داكه بالبنغال ثم عين محاضرا للغة العربية في جامعة لكهنو سنة ١٩٢٣م ثم ترك العمل لاعتلال صحته .

٢٨ - ورد في أم القرى خبر عن الجيش السعودي في فلسطين العدد ١٦٢١ في ١٦ رجب ٦٨ هجرية تحت عنوان : عدد خاص من (المصري أفندي) لفرقة الجهاد السعودية بفلسطين . أصدرت زميلتنا المصري أفندي عددا خاصا لفرقة الجهاد السعودية بفلسطين توجتها برسم صاحب السمو الملكي الأمير منصور وزير الدفاع ورسوم للفرقة وأسلحتها وحوادث بطولتها .

٢٩ - أشارت أم القرى في عددها (١٢٧٤) ٢٥ شوال إلى أن مدرسة العزيزية أقامت صباح يوم الثلاثاء ١٥ من شوال حفلة تكريم لسمو ولي العهد بمناسبة افتتاح أبوابها للدراسة وتحدث مدير المدرسة علي المطلق وقام عبد العزيز بن فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم فألقى قصيدة وتحدث الطالب عبد الله بن محمد بن الشيخ عبد الرحمن بن إسحاق كما تحدث الأستاذ عبد الله بن حسين والاستاذ حسين القاضي والأستاذ صالح الخليفة .

الـــــريـاض - مكـــــة

الأحد ١٨ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١١ سبتمبر ١٩٤٩م

اليوم بداية السفر ، انشغل عاصم بإعداد الأمتعة ، أما العبد الفقير فراح يجول بخياله في بادية نجد ، فالسفر حتى الآن سفر تبليغي من جهة ، وعلمي من جهة أخرى ، وهو لطلب العلم من جهة ثالثة ، مساء اليوم ستبدأ مرحلة جديدة في هذا السفر ، فمن ذا الذي يخلو قلبه من الشوق إلى البيت العتيق ؟ لكن الوصول إلى بيت الله متوقف على مالك هذا البيت ، وعلى توفيقه وعنايته جل وعلا ، لقد نزع المتصوفة ومن جذبهم التصوف إلى الكتابة عن هذا السفر المبارك ، بأسلوب بياني كله عشق وحب ، والعبد الفقير رغم قصوره ورغم ذنوبه ، عاشق للسنة ، ومولع باتباعها ، إلا أنني لا أستحسن أسلوب التعبير بوصل الحبيب ، وفراق ليلى ، وعالم جنون العشق المخجل . . . إلخ وذلك في حضرة الله ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل حال فلكل إنسان ذوقه .

فالبعض يستخدم للتعبير عن ذات الرسول صلى الله عليه وسلم عبارة مثل رموش العين ، والعين الكحيل وغيرها من تراكيب وفقرات ، ويجدون في ذلك لذة ، والعبد الفقير يرى في الخروج على هذه التراكيب الشعرية نوعا من الخروج على الأدب ، ويفهمها البعض على أنني " وهابي " أو نجدي " ، فهذا

هو ذوق العبد لله ، وكان أحد الشيوخ الكرام قد كتب تعليقا على كتاب " محمد ابن عبد الوهاب " فذكر أن المؤلف عنده نزعة " نجدية " (نسبة إلى نجد) مع نزعته " النديوية " (نسبة إلى ندوة العلماء) .

خلاصة الكلام أن القافلة تمضي الآن إلى ديار الحرم ، والقلب عامر بالشوق ، وحلاوة العواطف ، فما هو قدر بساطنا ؟ وما هي إمكانياتنا ؟ العبد الفقير محروم من جميع الوسائل المادية ، لكنه فضل الله ، المالك الحقيقي ، فها هي مشكلات الطريق تسهل ، وها نحن نمضي إلى الهدف المنشود في سكينة وهدوء ، نلبي دعوة ربنا المعبود .

انتهينا من ترتيب أمتعتنا ظهرا ، فأمامنا سفر ثلاثة أيام بلياليها ، وسط صحراء قاحلة جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، ومن الضروري أن يكون معنا بعض الأطعمة والمشروبات الضرورية ، ولهذا ذهب عاصم إلى السوق ، واشترى بعض الأشياء بمساعدة الشنقيطي وسوف نشتري بقية الأشياء من السوق في وقتها .

تحركت عربة البريد من دار الضيافة إلى مكتب البريد عصرا ، أعطينا بعض الهبات إلى الموظفين ، طبقا للمستوى العام ، وتذكرت حكاية الإمام الشافعي ، فقد أعطى الحجام عدة جنيهات حتى لا يسيء السلوك مع تلميذ غريب .

جاء حسن الشنقيطي وحسين المكي وإبراهيم المدني لوداعنا في مكتب البريد ، كان منظر الشنقيطي عجيبا ، فقد حمل على كتفه سلة فيها مأكولات جافة متنوعة ، وفي يده " قربة " ماء ، وكان يتمايل تحت ثقل هذه الأشياء ، وتحيرت كثيرا لسببين :

الأول : هذا الكرم والاهتمام بنا .

والثاني : هذه البساطة الشديدة .

وشعرت بالندم وحاولت أن أقول له ما ضرورة هذا التكلف ؟ لكن رده الدائم :

- هذا عيب .

أي أن كلامك هذا تحقير ، ألست جديرا بأن أكرمك؟!

وبدأنا باسم الله . .

تحركت العربة ، ولأول مرة يقع نظري على الرياض الجديدة ، ومبانيها الحديثة ، وبساتينها وحدائقها ، استمرت هذه السلسلة لمسافة طويلة لتشكل في حد ذاتها نواة مدينة رائعة ، ولهذا أطلقت عليها اسم " الرياض الجديدة " فهنا يقيم الملك وأسرته ، والرياض الجديدة تختلف عن الرياض القديمة ، فالقديمة تضم الحواري الضيقة ، والبيوت المظلمة ، فأين تلك الحواري الضيقة في الرياض القديمة من الشوارع الفسيحة في الرياض الجديدة؟! وأين تلك البيوت الطينية المظلمة من هذه القصور الرائعة المضاءة بالكهرباء . ؟!

توقفت القافلة بعد أن ابتعدنا لفترة ، فصلينا المغرب والعشاء ، لكن ليس في جماعة ، توقفنا في مكان يسمى " المراح " فيه ماء كثير [1] ملأ كل واحد قربته ، كان يسافر معنا شابان من آل الشيخ ، وهما طالبان في دار التوحيد :

حسن ، وعبد العزيز [٢] قاما بمساعدتنا ، وظلا يساعداننا طوال الطريق ، عرفنا عليهما الشنقيطي ، وحين عرفا أن العبد الفقير المذنب كتب سيرة جدهما ، أخذا يكرماني ، ويقولان : "علينا حقكم ، علينا حقكم"

في آخر الليل وصلت العربة إلى مكان يقال له " ثرمداء " [٣] فسُمح للمسافرين بالراحة ، لم تكن هناك قرى أو مناطق مسكونة في الطريق بين الكويت والرياض ، أما الطريق من الرياض إلى مكة المكرمة ، فتكثر فيه بعض القرى والأماكن المعمورة ، كما أن الماء متوفر في كل مكان تقريبا ، و يمكن الحصول على الأشياء الضرورية بكثرة من تلك القرى والبلدات ، وهكذا أقام البدو عند منازل الطريق استراحات صغيرة ، لا ضرورة لسؤال أصحابها حين تنزل فيها ، ويكفي فقط أن تعطي نصف ريال وقت الرحيل .

نزلنا في حجرة صغيرة ، مظلمة حقا ، وكان المسافرون الآخرون (علاوة على النساء) يرقدون في ميدان واسع ، لكن العبد الفقير ، وخوفا من ضيق التنفس ، نام في الداخل ، فبسطت الفراش مستعينا بضوء بطارية صغيرة ، وسميت الله ورقدت ، نام عاصم على الفور ، ولكن كيف ينام صاحب الحس المرهف !! لقد بقيت غارقا في أفكاري لفترة ، وكنت إذا أصابني القلق شكرت الله ، فهذا العبد الذي لا زاد معه ، ولا راحلة لديه ، هذا الإنسان الضعيف العاجز ، يمضي بفضل الله وتوفيقه فقط إلى بيت الله ، وهذه النعمة في حد ذاتها تستحق الشكر المستمر .

الاثنين ١٩ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٢ سبتمبر ١٩٤٩م

فتحت عيني في الصباح الباكر ، فقضيت حاجتي في صمت ، فسفر الصحراء عودني على أمور كثيرة ، لم نكن نحن أهل المدينة على دراية بها ، فكنا إذا ما شاهدنا تلا من التلال أو حفرة من الحفر ، قمنا مجبرين بأداء " هذا الواجب " الاضطراري ! !

وبعدها أُوقظ عاصما ، فنصنع الشاي بعد الصلاة ، فقد كنت أخشى أن يعلن عن تحرك القافلة ، على كل حال كانت العربة تتحرك متأخرة ساعة أو ساعة ونصف عن الموعد الذي يعلن عنه ، فكنا نجلس نشرب الشاي في ظل العربة ، كانت أمامنا قرية تحوطها الخضرة الجميلة ، وكانت النساء البدويات يمضين زرافات ، زرافات إلى آبار الماء يملأن جرارهن .

بعد أن تركنا " ثرمداء " وصلنا إلى " شقراء " وهي قصبة مشهورة في نجد ، فهنا وقعت معركة مشهورة مع المصريين ، في عهد الدولة السعودية الأولى ، وتوجد هنا مدرسة أيضا ، نزل بعض رفاقنا لمقابلة أصدقاء لهم في هذه المنطقة ، كما كان على السائق أيضا إيصال البريد إلى هناك ، وهكذا توقفت العربة لساعة أو أقل قليلا .

بعد أن تحركت العربة من شقراء ظلت تسير بنا دون توقف ، واشتدت حرارة الشمس ، واقتربنا من وقت الظهر ، دون أن تبدو لنا علامة تدل على أي منزل قريب ، بينما كان الطريق يتحول إلى طريق مفروش بالحجارة تارة ، ثم إلى طريق من الرمال الناعمة تارة أخرى ، وتارة ما يرتفع ، وينخفض تباعا .

أخذت شدة الحرارة تتزايد ، وفي النهاية ، وبعد أن دعونا الله مرات ومرات ، توقفت العربة للقيلولة ، ولكن أنى لنا بظل وسط هذه الصحراء القاحلة ؟! لا توجد حتى علامة تدل على وجود الظل في أي مكان . . . وفي النهاية راح جميع المسافرين يبحثون عن حضن تلك الشجيرات المتناثرة ، فبسطوا فرشهم ، وأخذوا يدورون بها مع دوران الظل ، لمدة ثلاث أو أربع ساعات .

بسطنا الفراش ، ثم أخذنا نفكر في أمر الطعام والشراب ، وحللنا هذه العقدة بتناول الخبز الجاف والمربى ، لكن كيف نحل مشكلة الشاي ، إن الموقد لا يمكن أن يشتعل وسط الهواء ، وفي النهاية ساعدنا آل الشيخ ، فجعلوا من حطب الصحراء موقدا ، وهكذا تمكنا من إعداد الشاي .

تحركت العربة في الساعة الرابعة ، واستمرت تقطع الطريق دون توقف حتى منتصف الليل ، وعندئذ سُمح لنا بالراحة عند مكان يوجد فيه بعض الغرف التي أقامها البدو ، فدلفنا إلى إحدى هذه الغرف ، وبسطنا فراشنا في محاولة للنوم ، وقمنا بأداء الصلاة أيضا في هذا المكان .

تأسفت كثيرا لأننا لم نتمكن من ترتيب أمر الصلاة في جماعة في الطريق ما بين الرياض ومكة المكرمة ، ويرجع السبب الرئيس في هذا إلى عدم اتفاق المسافرين معا ، بالإضافة إلى ركون البعض إلى الراحة وأنانية البعض الآخر .

ركب معنا من الرياض أحد الجنود ، وكان له شأن ، فقد استمر يتباهى ويزهو بنفسه ، وقد نبهنا الشنقيطي إليه قائلا :

– انتبهوا لهذا الرجل .

وكان معنا رجل آخر يدعى عبد الجليل ، كان يتحرك في أبهة وعظمة ، كان يفكر فقط في نفسه ، وفي راحته هو دون غيره ، وظل معنا طوال الطريق ، كان يمكن أن ندفع أربعين أو خمسين روبية دون أن نحمل هذه المشقة، هل كنا سنبقى في الرياض ، وتحمس عاصم أيضا فقلت له :

– يا أخي في سفر الحج يجب أن نتحلى بالتقوى ، والصبر أجره على الله .

لكن هذا الرجل لم يتراجع عن مضايقتنا ، وحاول أن يثير العبد الفقير ، فقلت :

– إنك تضايقنا منذ يومين ، وأنا ألوذ بالصمت ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، الحمد لله ، إن ركوب هذه العربة ليس مبعث عزة لنا ، ولو وجدنا الآن عربة أخرى ، فإننا على استعداد لركوبها ، فخجل الرجل وقال :

– لم يحدث أي جدال .

وهكذا إذا ما حدث أي أذى أو مضايقة في الطريق نطقت بهذه الفقرة من دعاء السفر المسنون ، فأطمئن وأستريح وأهدأ : "اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده "

الثلاثاء ٢٠ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٣ سبتمبر ١٩٤٩م

فتحت عيني صباحا ، وأيقظت عاصما ، بعد الصلاة أعددنا الشاي واحتسيناه بلذة ، وبينما نحن على هذا الحال ، نُودي للرحيل ، وكنا جالسين

على أهبة الاستعداد ، طوينا الفرش ، وجلسنا حيث كنا ، صار بيننا وبين السائق نوعا من الألفة والأنس ، بينما أثبت لي حسن وعبد العزيز آل الشيخ ، ما للأسرة من عزة واحترام ، وهما مثالان رائعان على جد طلاب العلم ، وحسن الخلق ، والشهامة ، كان المسكينان يساعداني في كل عمل ، ويسألاني دائما : هل المكان مريح ؟ هل أنت مستريح ؟ فأجيبهما :

- في هذا السفر المبارك يصبح كل تعب راحة وسعادة .

توقفت العربة بعد فترة بسيطة عند مكان يقال له " عفيف " [٤] وهو مكان يقع تماما في منتصف الطريق بين الرياض ومكة المكرمة ، والعفيف بلدة آهلة بالسكان ، فيها جميع الضروريات ، وهنا نزل المخبر ، فتنفسنا الصعداء ، واطمأنت قلوبنا .

تحركنا من هنا ووصلنا عند الظهر إلى مكان يسكن فيه عدد قليل من البدو ، وكانت " استراحاتهم " أيضا في متناول أيدينا ، فقمنا بتأجيرها ، كانت أكواخا وسط الصحراء ، لكنها أطيب بكثير من فندق Palace Hotel في كراتشي ، نزلنا إحداها ، حيث جلس صاحبها معنا لفترة طويلة ، كنا ندفع طوال الطريق عند كل استراحة نصف ريال ، لكن المالك هنا لا يقبل بأقل من ريال ، لكن حديثه كان معقولا ، وطريقته كانت مهذبة ، ملأ لنا قربة الماء أيضا ، ولم يأخذ أجر ذلك .

كانت مسألة الطعام صعبة للغاية ومعقدة أيضا ، كان يمكن أن نعتمد على معلبات المربى والشهد والحليب ، لكن هذا لا يتماشى مع الخبز الجاف ، ولم تكن لدينا وسائل إعداد الخبز الطري ، كان معنا بعض الحمص ، لكن كيف

لمن تعودوا تناول الخبز واللحم أن يقتنعوا بمثل هذا الطعام الجاف ؟! وعلى كل حال فالشاي يحل المسألة في النهاية ، فالإنسان يتلذذ بتناوله في حالة الجوع الشديد ، آكل بعض الحمص ، ثم قليل من المربى ، وعليها كوبين من الشاي ، أظل أرتشفهما بلذة شديدة .

وكما هو الحال في تلك المنازل التي كنا نتوقف عندها في الطريق من الكويت إلى الرياض ، فإن الصبية هنا يشاهدون بكثرة ، ينتشرون في كل ناحية ، يبحثون عن كسرة خبز .

يا مغير الأحوال . . يا رب !

انطلقت القافلة على دربها في المساء ، وعند العشاء توقفت قليلا عند مكان ما ، فجلسنا جميعا دون تكلف على الرمال ، وأمامنا مقهى ، فقد كنا نقترب من مكة المكرمة ، وبدأنا نشاهد الكثير من أماكن الانتظار والمقاهي ، وكان الجميع يتناولون القهوة والشاي كل حسب رغبته ، كانت ليلة جميلة ، كانت النجوم تتلألأ في السماء الزرقاء ، ورقدنا فوق الرمال الناعمة الطاهرة لدقائق .

أين لي بمثل هذا اليوم مرة ثانية ؟! كانت لغة بادية نجد صافية واضحة ، ونقية للغاية ، وكان عامة البدو من أصحاب المحلات يفهمون لغتنا ، ولم تكن تواجهنا أيضا مشكلة في فهم لغتهم .

دخلنا الآن في حدود منطقة الحجاز ، لا يوجد حد واضح يمكن تحسسه ، فقد كنا نسأل رفاق سفرنا ، لو قرأنا جيدا عن جغرافية هذه البلاد ، ولو حملنا معنا خريطة ، لتمتعنا كثيرا ، على كل حال لقد لاحت لنا معالم ديار الحبيب ، منذ أن غادرنا الكويت ، ضعنا وتُهنا - عمدا - لأيام في منطقة نجد ، وها نحن نقترب الآن من الحجاز ، وكلما اقتربنا ، تستيقظ الأماني النائمة بداخلنا منذ مدة . . يا إلهي ! كيف ستكون تلك اللحظة التي سنقف فيها أمام بيتك المعظم ، كيف ستكون اللحظات التي سنسعد فيها بالطواف حول بيتك ؟ كيف سيكون هذا العبد الفقير الذي هو حفنة من تراب ، ونقطة معدومة في ديار حرمك . . أنت الحق ، تملك كل شيء ، كل ما هو موجود ملك لك ، وكل ما هو موجود من عندك يا إلهي .

حين احتوتني هذه العواطف بدأت أشكر الله تعالى ، وأخذت أرتل الآيات الكريمة التي تتناسب مع هذا الحال ، فيطمئن قلبي وينشرح صدري ، وانتهى سفر الليل وأنا غارق في هذه الأفكار ، ووصلت القافلة في نهاية الليل إلى "عشيرة "(٥) وهي منطقة عامرة بالسكان ، تبعد عن الطائف حوالي ثلاث ساعات ، والطائف لا تقع على الطريق بين الرياض ومكة ، ولكن نظرا لأن الملك المعظم يقيم هذه الأيام في الطائف ، لهذا تمر عربة البريد على الطائف .

توجد في العشيرة أماكن للمبيت ، بالإضافة إلى المقاهي ، نزلنا في إحداها ، فطلب صاحب المقهى بنفسه نصف ريال أجرة الجلوس ، فأعطيناه ذلك بسرور .

الطائف

الأربعاء ٢١ ذو القعدة ٦٨ هجرية / ١٤ سبتمبر ١٩٤٩م

فتحنا أعيننا في الصباح الباكر ، كان صوت الأذان يرتفع من كل مكان ، وكانت صلاة الجماعة تقام هنا وهناك ، مما يدل على وجود عدد كبير من قوافل الحجيج ، شربنا الشاي ، ومضت القافلة في طريقها ، فلم يعد بيننا وبين الوصول إلى الطائف سوى ساعتين أو ثلاث ساعات ، تعب يومين أو ثلاث ليال ، ومع هذا كنا نشعر بالسرور والسعادة ، هواء الطائف يبعث على النشاط ، ثم ماذا نقول عن مبلغ سعادتنا وسرورنا ، بالاقتراب من ديار الحرم ؟!

قطعنا المسافة المتبقية ، ووصلنا إلى مطار " الحوية " كان القصر الجديد للملك في مرحلة البناء ، كان في الأصل استراحة ، حولوها إلى قصر فخم ، فهناك ضرورة لأن يستريح المرء فترة بعد النزول من الطائرة ، شاهدنا المطار والمباني المحيطة به ، ثم تحركنا ناحية الطائف ، وفي دقائق وصلنا إلى أبواب المدينة ، لاحظنا أطلال العصر التركي ، كانت هنا مبان كثيرة للشريف وأسرته ، ولكن الدنيا لا تبقى على حال ، فأحيانا كانت الطائف مكانا لإقامة الحكام الأتراك ، وأحيانا كانت أسرة شريف مكة تنعم وتسعد هنا ، والآن يعيش هنا الملك عبد العزيز آل سعود ، ولاح لنا في الأفق من بعيد قصر الأمير فيصل الرائع .

وصلنا الطائف في حوالي الساعة التاسعة صباحا (الثالثة طبقا للتوقيت العربي) فتنفسنا الصعداء ، انتهى سفر الصحراء ، انتهت الرحلة الموحشة ، يقولون كلما كان القرب ، كلما زادت حرقة الشوق ، لكن القلب كان مطمئنا ، ومع حرقة الشوق كانت هناك برودة أيضا ، ربما كان لاختلاف الأمزجة دخل في هذا ، على كل حال ، نزلنا باطمئنان ، وكان أول ما عملناه هو إرسال برقية إلى عبد الرحمن مظهر (شيخ مطوفي الهند ، الذي حددنا عن طريقه اسم مطوفنا) وبعدها نزلنا في مقهى ، فبسبب موسم الحج يضاعف أهل البلاد أسعار كل شيء هنا ، خاصة إذا ما شاهدوا الحجاج الغرباء ، فاسترحنا لأربع ساعات أو خمس ، وطلب منا صاحب المقهى أربع ريالات للفرد ، وتم الاتفاق بصعوبة على مبلغ ريالين للفرد ، وكانت هذه أجرة الاستراحة فقط ، لم يكن المقهى سيئا ، لكن دورة المياه كانت قذرة لدرجة أنني لم أجد الشجاعة للجلوس فيها .

خرج عاصم للتجول في السوق ، بينما كان التفكير في أمر الطعام والشراب على جانب آخر ، فلم نر شكل اللحم والإدام منذ ثلاثة أيام ، ولا بد من الإعداد لهذا الأمر ، ولكن لم نتمكن من إعداد ترتيبات معقولة للطعام ، رغم المحاولات الشديدة ، فكنا نتناول ما نجده برغبة كاملة ، ونشكر الله تعالى على فضله .

تحركنا من الطائف في الساعة الثالثة عصرا ، مررنا بشوارع الطائف وأسواقها ، كانت الناقلات (اللوريات) مملوءة بالحجاج ، كانت عيوننا معلقة بمباني المدينة ، لكن القلب كان مفعما بالعواطف ، يشاهد بعين الشوق كل حجر ، وكل طوبة ، وكل حصاة . . هل هذه هي تلك " الطائف " التي

عارضت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! هل هذه هي تلك الجبال ، وتلك الممرات الصعبة والأودية التي تلطخت بدماء أقدام النبي الزكية ؟! كانت العربة تمضي بين سلسلة جبلين متوازيين ، عابرة أودية متعرجة ، بينما كان العبد الفقير يخاطب نفسه مرة بعد مرة : إن هذا الطريق ، لا يليق أن تمضي عليه سيارة ، نصف أنفسنا بأننا دعاة ، فلماذا لا تكون لدينا الهمة والشجاعة ، فنمضي على نهج داعي الحق الأعظم ؟! وظل هذا حالي طوال الطريق .

كان عاصم يسألني مرة بعد مرة :

- هل مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الطريق ؟

فأرد عليه :

- نعم كان هذا هو الطريق . . انظر هناك . . قافلة الجمال تلك ، التي تعبر بين الوديان الضيقة المتعرجة ، تلك الوديان ، من الممكن أن يكون الطريق قد تغير قليلا خلال الألف وثلاثمائة عام أو الألف وأربعمائة عام ، لكن الأرض هي الأرض ، والجبال هي الجبال ، ولكن السؤال هو أين هذا الإنسان العاشق المتفاني في طريق الحق ، فيمضي على درب النبي الطاهر ؟!

وبينما أنا غارق في هذه العواطف والأفكار ، إذا بنا نصل إلى " الميقات " فتوقفت العربة ، ونزلنا جميعا ، يلفنا الشوق ، كانت المقاهي تشتمل أيضا على أماكن للغسل والاستحمام ، وكان الماء متوفرا بكثرة ، " التنكة " بريال واحد ، فأخذنا " تنكتين " وحاولنا الانتهاء من الغسل بسرعة . . لكن لماذا بدأ أصحاب عربة البريد يفكرون في راحتنا وهدوئنا ؟!

قالوا لنا ضعوا العطر على أجسامكم . . . غيروا ملابسكم . . . وثبتوا ملابس الإحرام . . . . صلوا ركعتين . .

يجب أن نصلي ركعتين بهدوء وسكينة ، لكنهم استعجلونا ، وهكذا انتهينا بشكل أو بآخر ، وعقدنا نية العمرة ، وبدأنا التلبية :

"لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد ، والنعمة لك والملك ، لا شريك لك "

وانطلقت قافلتنا إلى الهدف المنشود ، لم يبق أمامنا سوى مسافة ساعة ونصف أو ساعتين ، كان نداء التلبية على ألسنة الجميع ، وكانت القلوب عامرة بعواطف الشوق والمحبة ، لكن قلب هذا العبد المذنب ظل معقودا على سلسلة الجبال هذه ، لا تنفع هنا قراءة الكتب ، ولا تفيد ، أين نحن المقصرين المذنبين من هذه الوديان ، صعبة المسير ، وتلك الطرق المتعرجة التي تحتاج إلى صبر الصابرين ؟! البون شاسع ، والفرق كبير ، فسلام ألف سلام على عبده المختار ، الذي قاسى وعانى ، وعرض نفسه للمخاطر ، حتى يبلغ الناس رسالة ربه ، فلا يمكن للعالم وأهل العالم أن يعفوا أنفسهم من عبء إحسانه وفضله ، فالرسالة التي بلغها موجودة اليوم ، لكن أين من ينطقون بالشهادة ؟! وأين من امتلأت قلوبهم بمحبته ، فمضوا على نهجه وسنته ؟!

مكـــة المكــرمــة

الله ! الله !

بدت لنا حدود مكة من بعيد !

لبيـك اللـهـم لبيك . . .

مرت العربة بنا من مركز الشرطة ، وعلمنا أن الشيخ عبد الرحمن مظهر قد سأل عن العبد الفقير لعدة مرات ، فبعثت له بالسلام عن طريق الهاتف ، ووصلتنا رسالة تفيد بأن السيارة ستكون في انتظارنا في مكتب البريد ، فاطمأن قلبي كثيرا ، ومضت السيارة في طريقها ثم توقفت ، ومضت ، ولساني يلهج بالتلبية : لبيك اللهم لبيك . . . بينما قلبي فرح مسرور بالشوق ، معمور بالنور ، لا بد أن بيت الله لا يبعد عن هنا . .

أربكتنا المباني العالية من جميع النواحي ، لكن كل شبر من هذه الأرض مقدس ، وكل شبر حرم ، وكل ما فيها يخلب اللب ، ويستهوي القلب ، ولا يمكن للعطش الذي استمر طويلا ، أن تطفئه نظرة أو نظرتان ، على كل حال وصلنا إلى نقطة شرطة المعابدة ، بينما كان لساني يلهج بالتلبية ، وعند " شرطة المعابدة " تم فحص ومراجعة أوراق الحجاج ، وكانت هناك نقاط تفتيش في كل مكان ، جاء هاتف عبد الرحمن مظهر ، ووصلنا خطاب منه ، ومع هذا احتفظت الشرطـة بجواز السفر ، على أن يعاد إلينا عن طريق " المعلم " .

توقفت العربة في مكتب البريد ، حيث كانت سيارة عبد الرحمن مظهر في انتظارنا ، سهولة ما بعدها ، سهولة ، وراحة لم نكن نحلم بها ، وصلنا بيته ، فاستقبلنا استقبالا حارا ، ورحب بنا بحب ، وهو في الأصل من مدينة أعظم كره ، ولد في مكة المكرمة ، فقد هاجر والده من الهند ، واستقر في مكة ، أما أخوه الأصغر محمد مظهر فقد درس في ندوة العلماء ، وأخوه الأكبر عبد الله مظهر هو مدير رباط " بهوبال " وهو يساعد أخاه في وظيفة " الطوافة " .

لم يتم ترتيب أمر إقامتنا بعد ، فقد ترك لنا عبد الرحمن مظهر حرية الاختيار ، وهكذا صرنا ضيوفا عليه فجأة ، وسوف نقوم بترتيب الأمر في الغد إن شاء الله .

انتهينا من زيارة الحرم وأداء العمرة بسرعة ، وقد قادني في ذلك الشيخ عبدالله مظهر ، فقد كنا قد أخذنا عهدا ألا نتعامل مع المطوفين ، كنا في حاجة إلى مساعدة محلية فقط ، واعتمدنا في أداء المناسك على قراءاتنا ، ففي الشهرين الماضيين قرأت كثيرا عن المناسك ، وبفضل الله وكرمه كنت أمضي ولساني ينطق بالتلبية ، وقلبي يدق ، ويدق ، والشوق في العيون ، أتحسس بنظري هنا وهناك ، وفي الطريق قال الشيخ عبد الله :

- إن رغبت أخبرتك بالأدعية .

فقلت :

- السنة هي التلبية .

وفي عشر دقائق تقريبا كنت قد وصلت إلى باب السلام ، واضطرب القلب ، فقد بدت الكعبة أمامي ، ونحن طبقا لمسلك الإمام مالك ، لم نذكر أي دعاء خاص ، واتجهنا مباشرة إلى الحجر الأسود ، كان هناك هجوم للفراشات على الشمع ، وكان الحرم بأكمله بقعة من نور ، تحوم حولها فراشات التوحيد ، ووسط المنزل المعمور بالنور نقطة سوداء تبدو أكثر البقاع ضياء ، وعلى حافة هذه النقطة كانت الفراشات تدور وتدور ، فدخلنا نحن أيضا في هذا المجال ، وأخذنا بدورنا ندور وندور . . أراد المطوف أن يلقننا شيئا ، فاعتذرت له ، ظل يتحرك معنا ، بينما اكتفينا بالذكر المأثور والأدعية المأثورة ، طبقا للسنة ، وفي الرمل أيضا قال المطوف " هز الكتفين " فقلت له : المعنى الصحيح للرمل عندنا هو " الإسراع في المشي " .

انتهينا من الطواف ، وصليت ركعتين في الجزء المتصل عند مقام إبراهيم ، واقترب وقت العشاء ، ولهذا اضطررت للصلاة ركعتين خفيفتين ، وقلبي يتمنى أن أظل كما أنا في مكاني .

تحركنا إلى باب الصفا للقيام بالسعي ، فنادى الشيخ عبد الله نائبه ، وتولى هو إرشادنا ، اتجهنا أولا إلى الحجر الأسود ، كان تقبيل الحجر الأسود بالنسبة لنا أمرا صعبا ، بل كان أمرا مستحيلا ، وبعد الاستلام خرجنا من باب الصفا ، ووصلنا مباشرة إلى الصفا ، واكتفيت بالذكر المأثور ، طبقا لما هو مسنون ، وكنت أقوم كل مرة بعد الذكر بالدعاء ، كان الزحام شديدا ، بينما كان صراخ المطوفين يعلو ويعلو . . الأمان ! يا إلهي . . يا حفيظ ! !

كيف يأتي الخشوع ، والخضوع . . على كل حال كنت أقوم بالدعاء ، وسط عالم من الذهول ، وكان مرشدي قد سألني قبلا : هل ستقوم بالدعاء بنفسك أم هناك ضرورة لتلقينك الدعاء ؟!

فقلت بطريقة مهذبة : من فضلك أخبرنا فقط عن العلامات الدالة على " الهرولة " وهذا يكفي .

حين انتهينا من الشوط السابع في الطواف ، كان المطاف قد تحول إلى سوق عامرة مزدحمة بالناس ، وكانت السيارات أيضا تسير في المطاف ، هناك بعض أهل القلوب يجدون لذة السكون والخشوع وسط هذه الضوضاء أيضا ، لكننا نحن المذنبين نحتاج إلى الهدوء والخشوع . . . كم تمنيت أن يكون المسعى على ما كان عليه أيام إبراهيم وإسماعيل !! صحراء . . وأن يكون جبل " الصفا " وجبل " المروة " على حالتهما الأصلية ، فليس هناك " صفا " وليس هناك " مروة " الآن ، هناك علامات فقط تدل عليهما ، ، لكن العشاق يجدون في هذه العلامات أيضا جاذبية شديدة ، على كل حال فرغنا من الطواف، وقمنا بالتقصير ، وتركنا الحلق للحج ، حتى نكون قد قمنا بالأمرين معا ، وبعد التقصير شعرنا بسرور عجيب ، وكأن أمواج السرور غمرت قلوبنا وعقولنا بالفرح والسعادة ، واغرورقت العيون بالدموع ، رغما عني ، وتعانقنا أنا وعاصم في جو من السعادة والفرح، وقبل عاصم جبهتي على الطريقة العربية، وبارك لنا رفيقنا عبد الله الكاتب (الذي كان ينوب عن الشيخ عبد الله مظهر) .

رجعنا إلى بيت الشيخ عبد الرحمن ، تناولنا الطعام ، وغرقنا في نوم عميق ، فلأول مرة منذ ثلاثة أيام بلياليها يتيسر لنا هذا الطعام " المنزلي " الذي أُعد بطريقة طيبة ، فأكلنا حتى شبعنا ، وشكرنا الله الذي قدرنا على أداء المناسك فور وصولنا ، ولم نتقاعس ، رغم ما كان بنا من تعب السفر ، وشكرنا الله الذي وهبنا التوفيق ، وسهل علينا منازل السفر الطويلة .

الخميس ٢٢ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٥ سبتمبر ١٩٤٩م

فتحت عيني صدفة في آخر الليل ، فانطلقت مباشرة صوب الحرم ، كانت صلاة الفجر ممتعة جدا ، وكان الصوت واضحا للغاية نظرا لوجود مكبر الصوت ، كانت قراءة الإمام مؤثرة ، تبعث في قلب الإنسان حرارة الإيمان ، ويبدو في الغالب أن الشيخ أبا السمح المصري (الخطيب الأول) هو الذي تولى إمامة الصلاة .

رجعت من الحرم ، فغيرت ملابسي ، وتناولت طعام الفطور ، وعرفت من عبد الرحمن مظهر أن أستاذي المحترم سيد سليمان الندوي [٦] أطال الله عمره- قد حضر للحج مع أهله وعياله ، وهو يقيم بالقرب من رباط بهوبال ، وبعد استشارة عبد الرحمن مظهر ، رأى أن أقيم هناك أيضا في إحدى غرف مسكن سيد سليمان الندوي ، فقلت له بوضوح : لست مستعدا لأن ينطق لساني بكلمة مع أحد ، نعم إذا عرض علي ذلك فهذا أمر آخر .

وملخص الحكاية أنني ذهبت إلى أستاذي سيد سليمان الندوي ، والتقيت به بعد أربع سنوات ، فلقيني بحب وشفقة ، جلسنا معا قليلا ، ثم طلبت منه

الإذن بالانصراف ، فقال : لماذا العجلة ؟ فقلت : أريد ترتيب أمر الإقامة والسكن ، وبعدها أحضر إليكم ، ونجلس بهدوء .

ثم انطلقنا إلى المدرسة الصولتية [٧] فقد كان من الضروري أن ألتقي بمولانا الدكتور زين العابدين الندوي ،وحين وصلت هناك ، وجدت عالما غريبا عجيبا ، فلا يوجد هناك من يتكلم كلاما صحيحا ، ولم يكن هناك من يعطيني إجابة مباشرا ، كلما سألت عن عنوان الدكتور زين العابدين سألني أحد الأشخاص (وكان في الغالب طبيبا وشقيق مدير المدرسة) :

- ماذا تريد ؟

فقلت :

- أريد أن أُقابل زين العابدين .

فسكت وراح يرفع رأسه ثم يخفضها عدة مرات ، وفي النهاية عطف علينا شيخ كبير في المكتبة ، وأرشدنا إلى العنوان الصحيح ، فعلمنا أنه الآن بالمكتب، وهو يجلس عادة في الطابق الثاني ، واعتقدت أن زين العابدين مسرور في مكانه ، ومسرور بوضعه هنا ، وظننت أنه ينال الاحترام والعزة ، طبقا لكفاءته وقدراته ! !

التقيت في البداية بمحمد سليم (مدير المدرسة) شاهدني ففطن إلى الأمر ، وشعر بأن موظفيه أخطئوا في تعاملهم معي ، فسألني عن اسمي ، ثم رحب بي في حرارة ، وأصر على أن أقيم عندهم .

فقلت : أقابل أولا زين العابدين ثم أخبرك .

ذهبت إلى الطابق العلوي ، فأصابني الذهول ، بعد أن شاهدت مكتبه ، غرفة صغيرة ضيقة ، ومظلمة ، يصعب مرور الهواء فيها ، على عكس مكتب مولوي سليم ، الذي يشبه مكتب قاضي التحقيقات من الدرجة الأولى ، وبعد السلام أخذني المسكين إلى زنزانته وأجلسني . .

ليرحم الله المسلمين . . ! هذا الرجل الذي يتمتع بكفاءة عالية لا مثيل لها، قضى حياة طيبة لأحد عشر عاما ، فأجاد جميع أنواع الفنون في أمريكا ، أحضروه هنا باسم " الخدمة الدينية " فدفنوه حيا ، والسبب أنه لم يشأ أن يساعدهم في الأعمال التي يطلبونها منه ، ويرغبون فيها ، فمعظم هذه المدارس صارت ميراثا لمؤسس المدرسة ، ينتفع به أولاده ، تحطم قلبي بعد أن شاهدت هذا الوضع ، ورجعت إلى مكتب " محمد سليم " فودعته في صمت ، والتزم هو أيضا الصمت .

أين كلامه الذي قاله لي من قبل ، والذي أصر فيه على أن أقيم عندهم ، ها هو لا ينطق ، ولا يتكلم ، ولم يمض على كلامه السابق خمس دقائق فقط ، هذا نموذج لأعاجيب الزمان ، وكان من فضل الله علي أن طبيعتي حساسة فيما يتعلق بمثل هذه الأمور ، فكنت أميل بطبعي إلى الحرية ، فلم أكن أحتمل أو تطيب نفسي إحسان أحد من أحبائي المقربين ولا من شيوخي .

ذهبت بعد ذلك إلى محل مولانا عبد الوهاب الدهلوي ، لم يكن موجودا هناك ، كانت بعض الخطابات قد وصلت فأخذتها من أخيه ، وخرجت أبحث عن مكان لأقيم فيه .

كان معي عبد اللطيف (وكيل عبد الرحمن مظهر) فشاهدنا عدة غرف بالقرب من الحرم لم يكن أصحابها يقبلون بتأجيرها بأقل من ستمائة ريال ، وبعد بحث وجدنا غرفة مناسبة ، تبعد عن الحرم قليلا ، بإيجار قدره مائتي ريال، واتفقنا على ذلك ، وعدنا في سرور ، إلى مكتب عبد الرحمن مظهر ، وقررنا أن ننقل متاعنا بعد صلاة الظهر .

بينما كنت أجلس في مكتب عبد الرحمن مظهر ، إذا بمولانا عبد المجيد حريري البنارسي [٨] يحضر ، سررت كثيرا وتعانقنا بحرارة ، فها نحن نلتقي بعد سنوات طوال ، وفي الأراضي المقدسة ، علمت من سيد سليمان الندوي أن مولانا حريري قد عين مسئول الحج الخاص ، وهذا فضل من الله ، فحكومة الهند كانت قد عينت عبد المجيد خان اللاهوري قنصلها في جدة مسئولا خاصا عن الحج ، ربما شعرت الحكومة بخطئها ، ولهذا كفرت عن ذنبها بتعيين مولانا عبدالمجيد حريري مسئولا عن الحج ، لكن التعيين المؤقت لا يمكن أن يكون تكفيرا عن ذنب مستمر ودائم ، فحكومة الهند يمكن أن تجد أعضاء آخرين من حزب المؤتمر[٩] لتولي هذه العهدة ، لا أدري ماذا يرون في هذا الأستاذ الانتهازي سليط اللسان ؟!

التقيت بحريري بعد مدة طويلة ، لم يكن هناك وقت لأستمع منه ، وأحكي له ، فتحدثنا حديثا سريعا ، على أن نلتقي فيما بعد لنتحدث معا بالتفصيل ، وهو يقيم ما بين جدة ومكة المكرمة ، كان وقت الظهر قد اقترب فذهبنا معا إلى الحرم ، وصلينا الظهر ، وفي طريق العودة عرفت أن مالك البيت اعتذر عن إعطائنا الغرفة ، لأن أخاه كان قد أعطى كلمة لشخص آخر ، ولم يكن هو على

علـم بذلك ، ومن هنا أعـاد لنا " العربون " (أي مقدم الإيجار) ثم ذهبنا إلى المكتب فوجدناه في انتظارنا ، أخذ يعتذر لنا بشدة ، لم يعطنا فرصة للكلام ، فالاعتذار بهذا الشكل مروءة وخلق حسن .

وهكذا عدنا مكرهين ، مجبرين ، إلى بيت عبد الرحمن مظهر ، تناولنا الطعام ، ثم قضينا وقت القيلولة حتى العصر ، ثم انطلقنا إلى الحرم وصلينا العصر ، وبينما كنت خارجا من الحرم للبحث عن مكان للسكن ، رأيت مولانا سيد سليمان الندوي فناداني وسألني :

- هل رتبت أمر السكن ؟ البيوت هنا غالية !

فقلت :

- لم نرتب أمر السكن حتى الآن ، لكن إن شاء الله سيتم الأمر .

فقال :

- هل تسكن في المدرسة الفخرية ؟ أبو الحسن الندوي [١٠] يقيم فيها .

فقلت :

- لو قال لي هذا بنفسه فهذا أمر آخر ، وإلا فليس من طبعي أن أطلب ذلك .

فقال :

- حسنا لنرى . .

يقع مبنى المدرسة الفخرية فوق مقام إبراهيم ، الملاصق للحرم ، ولم نكد نخطو خطوة حتى التقينا بثلاثة من أصدقائنا ، من مدينة رامبور الهندية ، فبلغناهم سلامنا إلى عبد الحي مدير مجلة الحسنات ، وحامد علي مدير مجلة " زندكي " الحياة ، وأخبرناهم أننا نبحث عن " سكن " فقالوا من فورهم :

- عندنا حجرة خالية ، إذا أعجبتك ، فنحن في الخدمة .

وأعجبتني الفكرة ، فهذه نعمة كبيرة ، أن نكون جيرانا لأناس متجانسين معنا في الرأي والفكر ، إلا أنني زرت المدرسة الفخرية تنفيذا لأمر سيد سليمان الندوي .

بدأ سيد سليمان الندوي بالتمهيد ، لكن مدير المدرسة رد ردا جافًا . . وهكذا طلبنا الإذن ، وذهبنا مع أصدقائنا الرامبوريين ، حيث مكان إقامتهم .

كانوا قد استأجروا ثلاث غرف بالقرب من باب العمرة ، لم يكن هؤلاء يحتاجون إلا إلى غرفة واحدة ، أعجبتنا الغرفة الكائنة بالطابق العلوي ، فوافقوا على هذا بكل سرور ، وماطلوا في الموافقة على قبول قيمة الإيجار ، وفي النهاية وصلنا معا إلى اتفاق ، رغم أن القيمة كانت أكثر مما كنا نتوقع ، فقد كنا قد حددنا مائتي روبية ، لكننا هنا سنضطر لدفع أربعمائة روبية ، فالقيمة هنا تتحدد بقرب المكان من الحرم ، والغرفة طيبة جدا ، والحجاج عامة يقيمون معا في مجموعات تتراوح بين خمسة أو ستة أشخاص ، إلا أننا كنا في حاجة إلى الهدوء والسكينة ، بالإضافة إلى ضرورة وجود متسع في مكان الإقامة ، لندعو أهل العلم ، ومن هم على نهجنا ، حتى نتمكن من لقائهم بسهولة ، ولهذا قبلنا هذا الغلاء بسرور .

ولم يتحرك العبد الفقير من هذا المكان ، فقام عاصم بإحضار الأمتعة ، وتولى أحد الأصدقاء واجب استضافتي طوال الليل ، هيأ لنا هؤلاء الأخوة كل شيء ، النور والماء ، وجميع الضروريات الأخرى ، وكنا سعداء وكانوا سعداء أيضا بهذه الصحبة ، وهكذا رقدنا في هذا المكان كما كنا على أن يرتب عاصم أمتعتنا في الصباح .

الجمعة ٢٣ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٦ سبتمبر ١٩٤٩م

انشغل عاصم منذ الصباح في تنظيف الغرفة وترتيبها ، بينما كان العبد الفقير مشغولا بالحديث مع الأصدقاء الجدد ، كان من بينهم صديق يدعى أمجد علي ، له اهتمام شديد بالدعوة ، وبأسلوب عمل الجماعة ، ويريد أن يعمل شيئا من أجل الدعوة ، فوضعنا معه مخططا بسيطا للعمل ، وبدأنا البحث عن متعاطفين آخرين ، كان برفقته صديقان آخران من مدينة رامبور ، أحدهما يدعى مقصود علي يحمل بداخله عاطفة دينية قوية ، وكان يستمع إلى حديثنا باهتمام ، والآخر يدعى عبد العزيز ويسكن قريبا من الخرم وعلى مسافة بعيدة عنا ، وكان متعاطفا مع الدعوة ومنهج الجماعة .

صليت الجمعة في الحرم لأول مرة ، كنت قد سمعت عن الشيخ أبي السمح عبد الظاهر منذ فترة ، فهو رفيق أستاذي الدكتور الهلالي وصديقه ، كان قد قرأ كتاب " النظرية السياسية " وكان نجله عبد اللطيف بن أبي السمح قد درس في الندوة عدة أيام ، فتعارفنا ، هذا بالإضافة إلى أنني كنت قد سمعت عن تلاوته للقرآن الكريم ، وعاطفته القوية من أجل العمل الإسلامي .

بدأت الخطبة ، كان الصوت واضحا صافيا بمساعدة مكبر الصوت ، كانت اللغة جميلة مؤثرة ، ومفهومة للجميع ، وكان مضمونها مفيدا ، حثت الخطبة على العمل ، وأعجبتنا كثيرا ، وقد ذكر الخطيب عبارات عن التقليد الجامد ، ومن الممكن أن يصيب هذا الكلام بعض الناس بأذى وضيق ، كانت الصلاة طيبة ، وكانت خفيفة ، لكنه أدى واجب الإمامة طبقا لآدابها ، على كل حال رجعنا منشرحي الصدر ، مطمئني البال ، هادئي القلب .

وفكرت في لقائه بعد العصر ، وبالصدفة عرفنا أن بيته قريب جدا ، بل يقع أمام البيت الذي نسكن فيه ، شاهدت لوحة كتب عليها " دار الحديث " ، وهناك يسكن الرجل في الطابق الثاني والثالث ، وفي الطابق الأرضي توجد مدرسة باسم " دار الحديث " وهى لا تزال في دور التكوين ، هكذا لاحظنا ، بعد أن ألقينا عليها نظرة سريعة ، فالمدرسة حجرة واحدة فقط ، وهي مكان جلوس الشيخ مع الناس أيضا ، كما أنه يلتقي أيضا مع زائريه في الطابق العلوي .

حضرنا إليه بعد صلاة العصر بنصف ساعة ، سلمناه خطاب التعارف الذي كتبه عبد الحميد الخطيب ، وبلغناه سلام الهلالي ، ثم أطلعناه على مطبوعاتنا ، فألقى نظرة على الكتب وقال ، لقد شاهدنا بعضها من قبل ، لكن يجب عليك أن تحتاط كثيرا ، فقد لا يعجب مضمون هذه الكتب بعض الناس ، فقلت له بأدب جم :

– نحن نعرف هذا جيدا ، وقد واجهنا هذا الأمر في باكستان وجئنا هنا بهذا العزم أيضا .

دار بيننا الحديث لفترة طويلة ، وجاء ذكر نجله عبد اللطيف أيضا ، فأثنيت على شعره ، فقال لقد ظل يسجع ويسجع حتى صار شاعرا ، وفي النهاية طلب مطبوعاتنا فأخبرته أن الكتب ستصل خلال يومين أو ثلاثة ، وإن شاء الله سنحضرها له فور وصولها . ودار الحديث أيضا عن مناسك الحج ، وأعطاني كتابا مطبوعا له عن مناسك الحج ، وقام بالتوقيع عليه بناء على طلبي .

سررت كثيرا بعد لقائي بالشيخ أبي السمح ، كانت السنون قد تركت آثارها عليه ، كما أن صحته تضعضعت ، قال إن من الصعب عليه الذهاب حتى الحرم ، بصفة عامة ، يؤم الصلاة في ثلاثة أوقات (المغرب والعشاء والفجر) أما بقية الصلوات فينوب عنه عالم نجدي ، وكان نائبه السابق هو الشيخ محمد ابن عبد الرازق حمزة ، وقد ذهب إلى مصر للعلاج ، وسيعود قريبا .

قبل المغرب التقينا بمولانا عبد الوهاب الدهلوي ، وهو من سكان دهلي ، وتاجر ناجح ، تقيم أسرته هنا منذ فترة طويلة ، والدهلوي صار الآن لقبا ليس إلا ، ومولانا عبد الوهاب رجل يتصف بالعلم الوافر والاطلاع الواسع ، رجل متزن ، قليل الكلام ، يحيطه الوقار ، محبوب لدى جميع الناس ، والكل يثني عليه ويمتدحه ، عنده مكتبة جيدة ، فيها كتب متنوعة ، وهي المكتبة التي يمكن أن نطلق عليها بحق كلمة مكتبة ، من بين مكتبات مكة ، وسوف نزورها إن شاء الله باطمئنان بعد الحج ، كنت قد التقيت به في لكهنو قبل حوالي خمس عشرة سنة ، وهو مشترك دائم في " الضياء " تصله بانتظام ، كانت صلاة المغرب قريبة ولهذا لم نتمكن من الاستمرار في الحديث .

السبت ٢٤ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٧ سبتمبر ١٩٤٩م

زيارة الحرم هي عصب الحياة في مكة المكرمة ، فقيمة إيجارات البيوت تقدر طبقا لقربها من الحرم أو بعدها عنه ، كنت أذهب إلى الحرم بكل همة ونشاط ، فأمضي معظم وقتي ، لكن تعب ثلاثة أيام بلياليها لا يزال يفت في عضدي ، ولم تترك لنا رغبة الشوق للمجيء هنا فرصة للراحة ، ولهذا بدأت أعراض النزلة والزكام والكحة ، والله تعالى يكرمنا بفضله .

لم نطلب أبدا المساعدة من المطوفين المحترفين ، فهم في العادة جهلة ، لا يعرفون شيئا عن المناسك ، وهم يبتدعون باستمرار بدعا جديدة ، ويخترعون سلسلة من الأدعية لا يعرفون كيف يختمونها ، والحجاج المساكين الجهلة يرددون وراءهم كالببغاوات .

نحن الآن في وقت الحج والزحام ضروري مع كثرة الطائفين ، لكن هؤلاء المطوفين يخترقون الصفوف ، يشقونها من أجل جماعتهم ، لا يراعون النساء ولا الضعفاء ، ولا كبار السن ، ثم يبدأ الصراع على الحجر الأسود والعياذ بالله، وقد كتب الفقهاء أن هذا التزاحم والتناحر حرام ، لكن الحجاج الجهلة ، يدفعون بعضهم بطريقة سيئة ، كما أن بدعة لمس جدران الكعبة ، والتعلق بها بدعة عامة أيضا ، وقد ورد في الحديث أن يقوم الطائف عند الملتزم (بين الحجر الأسود وباب الكعبة) بتوجيه وجهه والإشارة بيده ، لكن الناس هنا يتعلقون في كل ناحية ، ويظل هجوم الدعاة الطائفين بأستار الكعبة مستمر ، ويفرح المتسامحون في أمر العقيدة بهذا المنظر ، لكننا نرى أن تجاوز سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببوصة واحدة حرام ، فالسنة هي أن نقبل الحجر الأسود ، وما أطيب ما قال عمر رضي الله عنه :

إنني أعرف إنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولكني رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقبلك ، ولهذا أقبلك أيضا .

وما أريد أن أقول هنا هو أن الجلوس في الحرم ، والطواف حول البيت ، والنظر إلى الكعبة في حد ذاته يمنح الإنسان سرورا ومتعة ، لقد أُصيب قلبي بالأسى والغم حين شاهدت انتشار الجهل والبدعة ، وذات يوم ، قبل المغرب ، أخذت أناقش هذا الأمر مع مولانا عبد الحميد حريري لفترة طويلة ، قال الحريري بأسى وألم شديدين :

- صارت هذه المناسك الآن مجرد حركات تقليدية لا أكثر .

كان أول ما خطر ببالي اليوم هو زيارة الشيخ أبي السمح ، لكنه لم يكن في بيته ، فذهبت إلى سيد سليمان الندوي ، وبقيت معه لفترة ، أستفيد من نصائحه وإرشاداته ، فقد حرمت من هذه السعادة فترة طويلة ، ولو وجدت فرصة لزرته كل وقت ، لكن كثرة الأعمال وتتابعها بشكل سريع تمنعني من ذلك ، فميدان الدعوة فسيح ، وعدد الرفاق قليل ، كما أنهم يفتقدون الكفاءة من ناحية والحماس من ناحية أخرى ، وهناك منافع أيضا من بركات الحج ، فأي نفع يمكن أن يكون أعظم من التبليغ والدعوة .

شعرت بشيء عجيب حين كنت أزور سيد سليمان الندوي ، فمعظم من كانوا عنده ، كانوا من محبي مولانا تهانوي [١١] ومن أتباع الفقه الحنفي ، وكانوا جميعا قلقين مضطربين من خطبة الشيخ أبي السمح ، التي ألقاها بالأمس ، أما نحن فقد شعرنا بأن كلام الشيخ في خطبته كان طيبا جدا ويتسم بالاتزان .

أعود وأقول إن ميدان الدعوة فسيح من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لا يوجد عندنا تنظيم ، لقد جاء للحج بعض أفراد جماعتنا ، كما أننا وجدنا عددا معقولا من المتعاطفين معنا ، جاءوا لأداء مناسك الحج ، لكنهم ليسوا مستعدين للقيام بأي عمل ، كما أنهم لا يعرف بعضهم بعضا ، وقد علمت بوصول عضوين من بشاور ، فخرجت للبحث عنهما ، ووصلت في النهاية إلى بيت معلمهما ، فلم أجده فتركت له رسالة وذهبت .

قدما بعد العصر للقائنا ، وبدا أنهما من الطيبين المخلصين ، كانا على استعداد للعمل والتفاني في العمل الدعوي ، لم يكن هناك مجال للإنكار أو الرفض ، لكنهما أظهرا عدم قدرتهما وعجزهما ، فهما مضطربان ، قلقان ، لأنهما لا يعرفان اللغة العربية ، بينما ميدان العمل واسع ، مع أهل وطنهم ، ومع الناطقين بلغتهم ، فالناس الذين تركوا ديار أحبتهم ، وجاءوا يدفعهم الشوق إلى بيت الله ، لا يجدون وقتا ، ولو لحظة واحدة يكونون فيه بدون عمل ، والحقيقة أن قلوبهم كانت على استعداد أكثر للسماع .

التقيت اليوم فجأة بفضل الحق (جمون - كشمير) كان قد غادر كراتشي في فبراير ، وقد وصل هنا بعد عناء شديد ومكابدة ، وقد وصل عن طريق الحسا والرياض ، واضطر في معظم الأحيان إلى السفر مشيا على الأقدام ، وواجه العوز والحاجة أيضا ، ولم يغفل والحمد الله عن واجباته ، وهو يتكلم اللغة العربية (المكسرة) أي الركيكة ، فأخذ يدعو إلى الدين الحق ، بقدر ما يملك من إمكانيات ، بارك الله في إمكانياته وعزائمه .

بحثت بمساعدة فضل الحق عن القاضي عبد الواحد (البهاولبوري) فقد وصل عن طريق مركزنا مائة مجموعة من مطبوعاتنا ،وكنا في حاجة ماسة إليها ، وقد عثرنا عليه بعد بحث شديد عرفنا أنه ترك المطبوعات عند معلمه في جدة ، ولم يكن لنا حيلة سوى الصبر ، ووصلت الكتب ، لكن وصولها تأخر .

التقيت اليوم صدفة عند سيد سليمان الندوي بعالم مغربي الأصل (مراكشي) مالكي المذهب ، يدعى سيد علوي ، كانت لغته فصيحة وسلسة ، التقيت به حين جاء للقاء سيد سليمان الندوي ، فاشتركت معهما في الحديث ، وجاء ذكر علي ميان [١٢] فقال سيد سليمان : لقد كان مقدمة جيشنا ، ولم نستطع أن نتحدث كثيرا بما نريد مع العالم المغربي ، ولهذا اتفقنا على موعد آخر للقاء ، فدعانا إلى بيته مساء غد بعد صلاة العصر .

الأحد ٢٥ ذي القعدة ٦٨ هجرية / ١٨ سبتمبر ١٩٤٩م

ظهرت على العبد الفقير آثار التعب ، وقد أدى إهمالي في صحتي إلى زيادة حدة النزلة والكحة ، فاحتبس صوتي ، وبدأت أتغيب عن الذهاب إلى الحرم ، لقد مرت مراحل السفر بخير وسعادة ، ووصلنا إلى الهدف المنشود ، عندئذ اعتلت صحتي قليلا ، ولكن - بفضل من الله وكرمه - أتوقع ألا يحرمني من تحقيق ما أتمناه وأصبو إليه .

ذهبت إلى سيد سليمان الندوي لفترة ، وهناك وجدت شخصا يدعى عزيز الحسن ، ينشد بعض غزليات مجذوب [١٣] وكان المجلس بأكمله في حالة من الانبساط والسرور ، والعبد الفقير أيضا من المتذوقين للشعر والأدب ، ولهذا

لم أشعر بالوحشة ، فاشتركت معهم في هذه المتعة الحلال ، لكننا نحن طلاب العلم ، جئنا لسيد سليمان الندوي بهدف آخر غير متعة الاستماع إلى الشعر . .

في نهاية الجلسة سألته بعض الأسئلة المتعلقة بمناسك الحج ، وكنت قد وجدت بالصدفة قضية تتعارض مع تصريح فقهاء الحنفية ، ولم أجد في الحديث ما يؤيد مسلك الأحناف ، ولهذا رأيت من المناسب الرجوع إلى سيد سليمان الندوي ، وقد تحير بعض الجالسين في المجلس من " سؤالي " هذا ، فانبرى أحدهم يقول :

- أنت حنفي فما هي ضرورة البحث في الحديث ؟! يكفيك أن تعرف فتوى فقهاء الحنفية .

فأجبته باتزان :

- لقد أسأت الفهم ، فأنا لست حنفيا . .

اللين والشدة ، كلاهما ضروريان للعلاج !! وكانت هذه فرصة مناسبة لاستخدام الشدة وقد أثبتت الشدة نجاحها .

قررت أن يكون مجلسي بالحرم يوميا بعد صلاة العصر ، ولمدة ربع ساعة تقريبا ، على أن يكون ذلك بين مصلى الحنفية والمالكية [١٤] حتى لا تكون هناك صعوبة في البحث عني ، وكان الهدف من هذا هو تهيئة الدعاة ، وإعدادهم للعمل ، بالإضافة إلى متابعة عملهم ، وإبداء الرأي في نشاطهم الدعوي ، فكل يوم هنا يساوي بحساب أيامنا أسابيع وشهور ، فمن يصل إليهم صوتنا من عباد

الله الصالحين ، في اليوم الواحد لا يمكن أن يصل إلى عشر عشرهم في أي مكان آخر ، يا ليت ! الدعاة يستعدون لهذا العمل الطيب .

التقيت في المساء بسيد علوي المالكي ، وحين وصلت إليه اتخذت الجلسة شكلا آخر ، كانت هناك حجرتان صغيرتان تعجان بالحضور ، كان أحدهم ينشد مدائح نبوية على طريقة " القوال " في شبه القارة الهندية ، بينما الحضور يتأوهون طربا ، وبعد ذلك بدأ أحد الحاضرين في تلاوة القرآن الكريم ، وبينما كان الرجل يتلو آيات الذكر الحكيم ، كان سيد علوي (وهو عالم مشهور هنا وناجح) يتحدث مع بقية الضيوف ، ولم يكن المقرئ يتلو القرآن بشكل عادي ، بل كان يعرض على الحاضرين فنّه ، عن طريق التلاعب بالصوت ، فظل يقرأ الآية الواحدة بخمس أو ست طرق .

أرى من المناسب إظهار الإنسان لفنه وبراعته في التلاوة ، لكن الكتاب الذي أنزل للتذكير والهداية ، صار مجالا لتلاعب قرائنا به إلى حد مؤسف ، تماما كما يفعل لاعبو " السيرك " وقد آذاني هذا كثيرا ، أضف إلى ذلك شدة الحرارة ، وانحباس الهواء ، فلم يكن الهواء يمر بالغرفة ، وكان الناس يجلسون على بعضهم ، من فوق ، ومن أسفل ، عن اليمن ، وعن الشمال ، بدأت أنفاسي تحتبس ، وشعرت بالاختناق ، فاعتذرت ، وأجلّت الحديث إلى لقاء آخر ، ننعم فيه بالهدوء والسكينة .

ازدادت حالتي سوءاً بعد أن رجعت من بيت سيد علوي ، وألزمتني شدة الكحة فراش المرض .

الاثنين ٢٦ ذو القعدة ٦٨ هجرية / ١٩ سبتمبر ١٩٤٩م

أصابني التعب ليلا ، واشتد في الصباح ، ولم أستطع الذهاب إلى الحرم رغم أنه على بعد قدمين من هنا ، يا لها من حسرة ، أن يُحرم الإنسان من ينبوع الحياة بعد أن وصل إليه ، بدأت أعداد الحجيج تتزايد ، وكان وصول عباد الله من كل مكان، إلى بيت الله ، مدعاة للسرور والفرح ، ومن ناحية أخرى فالجهل بالمناسك ، وانتهاك حرمة الشعائر ، وارتكاب البدع حول الكعبة ، يصيب القلب بالكآبة واليأس ، يا له من ميدان واسع للعاملين في مجال الدعوة. . يا ليتهم يفطنون !!

يا ليت كل من يعزم على الحج ، يخصص ساعة أو ساعتين قبل الحج بأسبوع ، يتعلم فيها آداب الحج ومناسكه ، فهم يفكرون في السفر ، وترتيب متاع السفر قبل شهور ، لكن إهمالهم للهدف الأساسي من السفر وغايته يبعث على الأسف .

غرق العبد الفقير في دوامة هذه الأفكار ، وهو راقد على فراش المرض يعاني من السعال المستمر ، بينما كان أمجد (الرامبوري) وفضل الحق الكشميري (من جمون) وعاصم يلتقون بالناس في الحرم ، يؤدون واجب الدعوة إلى الدين الحق .

الثلاثاء ٢٧ ذو القعدة ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩م

انزاح عني التعب قليلا ، وقد استفدت من الأدوية التي كنت أحملها معي ، كنت أرقد طول اليوم في البيت ، لم تكن لدي همة للذهاب إلى الحرم ، بسبب

ما أصابني من ضعف شديد ، كما لم تكن لدي همة للقراءة والكتابة ، فلم أتمكن من كتابة يومياتي منذ أسبوعين ، وخشيت أن تنقطع سلسلة الكتابة هذه .

عقدت العزم على الذهاب إلى الحرم ، وبقيت جالسا بعد العصر لفترة طويلة ، ورجعت بعد أن صليت المغرب والعشاء ، ولكني حرمت من الطواف بسبب ضعفي ، وبسبب الزحام الشديد ، الذي لا يمكن أن أتحمله ، ففضلت الجلوس آمنا ، وبالصدفة وجدت مولانا حريري يجلس بجواري فتحدثنا معا ، ودار الحديث في معظمه عن الحج ومناسك الحج .

في الليل زادت حدة السعال ، وقضيت الليل بطوله أعاني من الاضطراب .

الأربعاء ٢٨ ذو القعدة ٦٨ هجرية ٢١ سبتمبر ١٩٤٩م

كلما اقترب وقت الحج زاد عدد القادمين من هنا وهناك ، وكلما ذهبت للحرم شاهدت قوافل القادمين الجدد إلى بيت الله ، أول بيت وضع للناس ، دعا مؤسسه ربه ، فوجه الله تعالى قلوب الناس إليه ، وجمعها حوله .

سكن أولاده هذه الأرض التي لا زرع فيها ولا ماء ، كانوا في خوف شديد من معاناتهم في سبيل الحصول على الرزق ، فكان قبول الدعاء من لدن رب العالمين ، ويمكننا اليوم أن نقدر نتيجة قبول ذلك الدعاء ، وخادم البيت ظل يمارس مهنة سدانة البيت . . ريال من أجل التطويف ، قرش من أجل ماء زمزم ، تحطيم قلوب الفقراء ، ولا مجال لأن يسقيك القائم على سبيل زمزم دون أن يأخذ قرشا ، ويشترك الجميع في هذه التجارة ، ويمتهنون هذه المهنة[١٥] وهذا حال الجميع القادمين من الشرق والغرب ، يعانون شدة

الزحام، يُدفعون هنا ويُدفعون هناك ، لكنهم لا يتضجرون ، ولا ينطقون بكلمة مع أن الناقدين من أمثالنا ، المتضجرين ، المتضايقين من انتشار البدع ، يظلون يتمتعون برؤية هذا البيت العتيق أيضا ، لا يبتعدون عنه رغم كل هذا .

زادت شدة السعال وحدته منذ الصباح ، واقترب يوم الحج ، فليرحمني الله ، كان الخوف يسيطر عليّ ، فطلبت من عاصم أن يذهب إلى زين العابدين ليطلب منه أن يصف لي دواء ، فأخونا زين العابدين الندوي خبير بكل الأمور ، له باع طويل في علم (الهوميوبثاتك) [١٦] والجميع هنا يثنون عليه ، ويمتدحون مقدرته ، وبراعته في العلاج ، والعبد لله في أمس الحاجة إلى من يتعاطف معه ، ويهتم به أكثر من احتياجه إلى معالج حاذق .

والخلاصة أنني بقيت اليوم أيضا في الفراش ، أعاني من السعال ، وجاءني الدواء في المساء ، وشعرت بالراحة مع أول جرعة ، فشكرا لله ألف شكر .

الخميس ٢٩ ذو القعدة ٦٨ هجرية ٢٢ سبتمبر ١٩٤٩م

شعرت بالراحة مع طلوع الصباح ، إلا أن الكحة كانت تعاودني بشدة أحيانا ، وكان أمجد علي وعاصم مشغولين في أمور الدعوة ، ولم يكن فضل الحق أيضا بغافل عن هذا الواجب ، أحضروا بعض الناس للقائي بالبيت ، لكن مرضي كان يقلقهم كثيرا ، وقد نصحنا جميع من قابلناهم ، وجميع الأصدقاء أيضا ، بأن يأخذوا الحيطة وأن يتوخوا الحذر ، حتى يكونوا أصحاء معافين في أيام الحج ، وحتى يمكنهم أن يتحملوا الانتقال الدائم ، والحركة المستمرة من مكان لآخر .

بقيت في البيت طوال اليوم ، وواتتني الهمة عند العصر فذهبت إلى الحرم ، فكان لي حظ مرافقة مولانا عبد المجيد حريري . أخذ كل واحد منا يحكي للآخر تجارب سفره ، ومشاعره ، كنا نتحدث بالقرب من المطاف ، وعيوننا معلقة على بيت الله الحرام ، وأمامنا المطوف الجاهل ، يقود الحجاج المساكين الأميين ، يمضون خلفه زرافات ، زرافات .

من الضروري أن تكشف المرأة وجهها في حالة الإحرام فقط إذا لم يكن عندها رجال غير محارم ، لكننا كنا نشاهد نساء الهند وباكستان ومصر السافرات ، يمضين في الحرم ، وحول المطاف دون إحرام وبدون حجاب ، إن الجهل عام في كل مكان ، لكن يبدو أن الجهل صار جزءا من شبه القارة الهندية بما فيها باكستان ، كما صار السقم والملل والتوحش جزءا من المصريين ، ومن بين أكثر من يسيئون إلينا ، أولئك المجاذيب الأحياء في لباس الموت !! ومن بين فراشات الحرم الأتراك الذين جاءوا بأعداد غفيرة هذا العام ، ومعظمهم من كبار السن ، لكن صحتهم جيدة ، وبفضل الله ، ورغم سيطرة العلمانية في تركيا ، والميل إلى التفرنج لفترة طويلة ، حوالي ثلاثين سنة ، إلا أن إيمانهم ثابت ، ولديهم أمل وثقة في مستقبلهم ، ويتصفون جميعا بالوقار والاتزان ، فهم يرون أن اختراق الصفوف أمر تافه ، ويتجنبون دائما جميع الأعمال المنافية للأدب ، كانت لدي نية للقاء علمائهم ، سمعت أن بعضهم يتكلمون العربية جيدا ، وللأسف فإن عامة الحجاج الأتراك ، لا يعرفون العربية أو الإنجليزية على الإطلاق ، ولهذا فلا يمكن التحدث إليهم إلا بعبارة السلام عليكم فقط ، وصديقنا حريري ما شاء الله ، يعرف التركية ، وهو أيضا يثني كثيرا على

الأتراك، بينما العبد الفقير يجهل التركية ، وينتقد دائما الأتراك الكماليين ، ويعارضهم على الدوام ، لكن فيما يتعلق بالحجاج الأتراك ، فيبدو أننا اتفقنا معا في المشاعر والأحاسيس .

صلينا العشاء ، ورجعنا على أمل أن أتحدث مع حريري بالتفصيل ، بعد الحج إن شاء الله ، نمت في هدوء بعد أن خفت حدة السعال والحمد لله .

الجمعة ٣٠ ذو القعدة ٦٨ هجرية / ٣٢ سبتمبر ١٩٤٩م

اعتدت منذ الطفولة على مطالعة الصحف ، وكانت البداية شوقي إلى قراءة " همدرد " لمولانا محمد علي ، ثم تحول الشوق فيما بعد إلى طبع ، وكنت أعد دائما ملفات بالصحف القديمة بعد قراءتها ، إذ كنت أرغب في جمع الصحف الأردية والعربية والإنجليزية بعد قراءتها ، وبعد عشر سنوات تقريبا ، بدأت أكتفي بالصحف الإنجليزية والأردية فقط ، وكنت ملزما فعلا بالاحتفاظ بها ، لكن هذه السلسلة لم تستمر خلال هذا السفر ، فالظلمة تنتشر في كل ناحية ، لم أتمكن من مشاهدة صحيفة معقولة في بغداد ، فالصحف العربية تنشر الأخبار فقط ، وهي أيضا أخبار ناقصة ، كما لم نتمكن من الاطلاع على الصحف الأردية عندنا ، التي زاد قدرها في قلوبنا ، بعد أن رأينا حال الصحف في بغداد ، وشكرنا الله لأن صحافتنا ليست بهذا القدر من السوء والتدهور ، وتصدر من القاهرة بعض الصحف الجيدة ، لكن ما نفعها في بغداد ؟ تصل جريدة الأهرام يوميا بالطائرة ، لكننا لم نتمكن أبدا من الحصول عليها ، وتصدر في العراق جريدة Iraq Times بالإنجليزية ، وهي أيضا لا تقدم معلومات كافية ،

وانتهت مطالعتنا للصحف منذ تركنا بغداد ، وفي الرياض تصل بعض الصحف المصرية بالطائرة ، وتصدر في مكة المكرمة صحيفتان : أم القرى وهي صحيفة رسمية ، والبلاد السعودية ، وتصدر مرتين في الأسبوع ، لكنها لا تصل أبدا إلى مستوى صحفنا التي تصدر كل ثلاثة أيام ، والحقيقة أن الصحفيين هنا ملزمون بكتابة مقالات وأخبار معينة داخل إطار محدد .

وكانت النتيجة أنني لم أعد أدري شيئا على الإطلاق عن أحوال العالم ، وأحوال باكستان ، وانشغلت تماما بعملي ، وحين أصل إلى كراتشي - بإذن الله- سأضطر إلى قراءة صحف ستة أو سبعة أشهر مضت ، هذا إذا وجدت ملفا لها في مكان ما .

اليوم الجمعة الثانية لي في الحرم ، وقد وصلنا إلى الحرم قبل الصلاة بساعتين أو أكثر ، نظرا لشدة حرارة الجو ، كان الجو حارا للغاية ، وفوق كل هذا جلس الناس متزاحمين على بعضهم ، كان هذا اختبارا للصبر ، لكن نضارة الحرم غطت على كل هذا الأمر ، ورغم أشعة الشمس المحرقة ، والحرارة الشديدة ، كان عدد الطائفين كثيرا . . يا له من مغزى تعليمي عظيم ! ! كم هو درس عظيم ! ! يا لها من عظة وموعظة ، وشاهد حق على قدرة الله ، وانتصار دعوة الحق ، فها هم عباد الله حول بيت الله يذكرون اسم الله ، حول بيت الله يطوف من آمنوا برسول الله ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وصلت أعدادهم إلى مئات الآلاف ، انشغلوا بذكر الله وشكره ، وهم ليسوا من قريش أو جزيرة العرب فقط ، بل فيهم السوداني الأسمر الذي انصرف إلى تلاوة القرآن الكريم ،

والتركي الأحمر الذي جلس في وقار وأدب ، وعينه معلقة على الكعبة ، والفلاح المصري الذي يمضي مع رفاقه في صفوف متتالية ، والبنغالي ضعيف الجسم ، نحيف ، قصير القامة ، يحاول مع أصحابه أن يجد لنفسه مكانا بين الزحام . . ! !

لقد حاول أهل الدنيا أن يعقدوا مؤتمرات ، ورغم دعاياتهم التي لا حد لها، فالمندوب التركي لم يحضر ، وأحيانا لم يحضر المندوب العراقي ، وهكذا ، ولكن في هذا المؤتمر الإبراهيمي ، يأتي الغني والفقير ، والسياسي ، وخبير التعليم ، والتاجر والعامل ، المزارع والأجير ، يأتون من كل فج عميق ، يشد بعضهم بعضا ، إلى هذا المكان ، ولكن هل نستفيد من هذا الاجتماع ؟ هل نخرج بنتيجة من هذا المؤتمر ؟

لقد تحولت عباداتنا إلى تقاليد ورسوم شكلية ، والحج أيضا لا يستثنى من هذا الأمر ، فإلى الله المشتكى !

غرقت في هذه الأفكار وأنا أنتظر الصلاة ، كان بعض الناس يشاهدون الكتب أمامنا فيأتون ، فنعرفهم بمنهجنا في الدعوة ، ونشوقهم لقراءة كتبنا .

أقيمت صلاة الجمعة في وقتها ، وكانت خطبة الشيخ أبي السمح عن مناسك الحج ، خطبة مختصرة وجامعة ، واضطررنا إلى الانتظار قليلا بعد الصلاة ، نظرا لشدة الزحام ، كنت لا أزال أُعاني من ضعف المرض ، وحين رجعت إلى مقر إقامتي اشتدت عليّ نوبات السعال ، ونمت وأنا أذكر اسم الله الشافي .

سيحضر جلالة الملك بعد العصر إلى المطاف ، وهكذا راحوا يخلون المطاف، بينما كانت الجوقة الموسيقية تعلن عن خبر تشريفه ، جاءني عاصم مهرولا وقال :

- هيا بنا . . هيا بنا سوف يطوف الملك .

فقلت له :

- يا أخي اذهب والتق به ، فقد بلغت من الضعف الشديد مبلغا لا يجعلني أتحرك .

فقال عاصم :

- إن صديقك سيد سليمان الندوي موجود أيضا في الحرم ، وهو يشاهد بنفسه هذا الاحتفال .

فقلت :

- منذ متى يقلد العبد الفقير الآخرين ، إن احترامي لسيد سليمان الندوي وتقديري له في مكانه ، لكنني ذهبت للحرم للطواف ، ويصعب علي الآن الذهاب لمشاهدة الاحتفال .

الحمد لله وصلتنا الكتب اليوم من جدة ، وإن شاء الله سوف نبذل المزيد من النشاط في التعريف بالدعوة ، أدعو الله أن يهبنا نصيبا من الصحة والعافية .

السبت غرة ذي الحجة ٦٨ هجرية / ٢٤ سبتمبر ١٩٤٩م

الحمد لله فقد تماثلت للشفاء ، وأتوقع أن أبقى على هذه الحال إن شاء الله لفترة طويلة ، التقيت في المساء بمولانا عبد الوهاب الدهلوي ، وكنا قد أرسلنا إليه بالأمس مجموعة من مطبوعاتنا ، وكنت أريد أن أعرف هل يقرأ أو لا يقرأ ، ودار حديث سريع وعام ، فمن الصعب التحدث بسهولة ، في محله ، وخاصة في هذه الأيام ، التي يشتد فيها هجوم المشترين ، طوال الوقت ، وبدون انقطاع.

التقيت عنده بشاب عالم درس في ديوبند ، كان غلام محمد (محافظ مقاطعة البنجاب) قد أعطاه عنواني ، دار بيننا حديث سريع ، وأجلنا الحديث المفصل للقاء آخر ، وهو متعاطف مع الجماعة ، وقد جاء هنا بنية الإقامة الدائمة ، وربما لفترة طويلة ، وقد رافقني إلى مسكني حتى يتعرف على مكانه فلا يشكل عليه الحضور إلينا فيما بعد .

الأحد الثاني من ذي الحجة ٦٨ هجرية / ٢٥ سبتمبر ١٩٤٩م

الحمد لله فصحتي في تحسن مستمر ، لكنها تحتاج إلى رعاية أكثر مما أقلقني كثيرا ، ورغم رغبتي في التجول هنا وهناك ، إلا أنني التزمت الراحة ليوم أو يومين .

ذهبت في الصباح لحضور الجلسة السنوية للمدرسة الفخرية ، وهي تقع فوق باب إبراهيم المتصل بالحرم ، وتهتم بتعليم تلاوة القرآن وتجويده بصفة

خاصة ، وهي مدرسة للهنود مثلها مثل المدرسة الصولتية ، وتعتمد المدرسة – كبقية المدارس الهندية – على تلقي المساعدات ، وفي وقت الحج يتم جمع تبرعات كثيرة ، وقد حاولت الانسحاب من الاشتراك في حفلات هذه المدارس، وأن أبتعد تماما عن الاقتراب من المدارس نفسها ، إلا أن مدير المدرسة مولوي حبيب أحمد صديقي أصر على حضوري ، وبالصدفة لم يحضر رئيس الجلسة المنتخب أستاذي سيد سليمان الندوي ، فحملني مدير المدرسة مسئولية رئاسة الجلسة .

لم يكن في أعمال الجلسة ما يذكر ، لكن هناك شيء واحد آلمني كثيرا ، وأثّر فيّ ، وقد أوضحته أيضا للجميع ، فقد أعطوا الطلبة المتفوقين جوائز مالية تتراوح ما بين عشرة ريالات وريالين لكل طالب ، وكان هذا في الغالب نتيجة لسيطرة العقلية التجارية للبيئة المحيطة ، فقال مدير المدرسة ، بعد أن سمع نقدي هذا :

– نحن نعطيهم أيضا جوائز في صورة كتب ، وهذه الريالات قدمت حتى يلهو بها هؤلاء الأطفال ، كما أنها أيضا ستشجعهم على المزيد من الدراسة .

لكني لم أطمئن إلى هذا الرد ، كما أيد معظم الحاضرين وجهة نظري .

التقيت في الجلسة بأحد السادة الكبار من حيدر آباد الدكن ، يدعى سيد قادر محيي الدين ، كان لا يدري شيئا عن مطبوعات الجماعة ، لكن يبدو أنه على دراية بأهدافها ومقاصدها ، وأظهر اتفاقه عليها ، وهو يعرف المودودي

معرفة شخصية ، ووعد بأن نلتقي مرة ثانية ، لكن الوفاء بمثل هذا الوعد في الحج يبدو صعبا . . نقابل من ؟ ولا نقابل من ؟ رجل ضعيف مثلي ومريض يظل دائما قلقا منزعجا يخشى ألا يفي بوعده إذا وعد .

يوجد في الحرم مكتبة يطلق عليها اسم " مكتبة الحرم الشريف " اقترح علينا مولانا عبد الوهاب الدهلوي أن نزورها ، ونودع مطبوعاتنا هدية في المكتبة ، لكن أين نجد الفرصة للمطالعة والبحث ؟! لكني قبلت فكرة تقديم كتبنا هدية لتودع في المكتبة ، كان أمين المكتبة ويدعى عبد الله فدا ، مثقفا ثقافة عالية ، وكان رجلا مهذبا .

يمتلك مكتبة تجارية في باب السلام ، تحدثنا معا ، ألقى نظرة على مطبوعاتنا ، وأشار إلى خطأ نحوي وقال :

– هذا أثر الهندية

ولسوء حظه لم يكن هذا خطأ ، ولكن كان نتيجة سوء فهم منه ، وأصر على رأيه قائلا :

– أنا أديب وكاتب ، وشاعر أيضا .

فقلت له بتعقل :

– ليس من شيمتنا الفخر والغرور ، لكن مسألة الخطأ النحوي ، لا يمكن أن تحل عن طريق التعنت والعناد ، ويمكن الرجوع في هذه المسألة إلى شروح " الألفية " و " المفصل " وعندئذ سكت وشعر بالخجل .

في المساء لم أذهب إلى أي مكان ، وقضيت ليلة طيبة بحمد الله .

الاثنين الثالث من ذي الحجة ٢٦ سبتمبر ١٩٤٩م

كان يجب أن ألتقي في الصباح بتاجر نجدي يدعى سليمان الهمداني ، كان محله يبعد قليلا عن مسكننا ، كانت الشوارع الضيقة مكتظة بالمارة ، بطريقة تجعل الإنسان يتوب عن المشي فيها ، ناهيك عن الغبار والتراب ، على كل حال ، وصلت إليه بصعوبة شديدة ، وتحدثنا معاً ، يبدو الرجل معقولا ، كان على قدر كبير من الفهم والإدراك ، ولكنه يشعر بالسقم والملل ، ويشعر أن العالم كله ضده ، وأن الدنيا كلها تعاديه ، فقلت له :

- الدنيا لا تخلو من عباد الله الصالحين ، فمالك الملك الذي كان ينزل خزائن رحمته على الأمم الأولى ، لم تخل خزائن رحمته ، كما أن فطرة الإنسان أيضا لم تتغير ، ولم تتغير قوانين الفطرة أيضا ، والحقيقة هي أن قلوبنا تغيرت .

اطمأن الرجل إلى كلامي ولكنه لم يكن على استعداد للعمل الدعوي بأي حال من الأحوال ، ورغم ذلك فقد تركت له بعض كتبنا ليطالعها ، على وعد بأن نلتقي بعد الحج لقاء طويلا نتحدث فيه بالتفصيل .

في الطريق عرجت على الحجاج " البهلواريين " وهم قادمون من مسقط رأسي ، فقد جاء للحج شيخ بهلواري ورع تقي ، في قافلة كبيرة ، لأداء مناسك الحج ، التقيت به على قارعة الطريق ، ونظرا لالتزامه بالاعتكاف ، فلم يأت إلى مسكننا ، فحضرت إليه بنفسي ، وهناك رأيت " حضرة المشيخة " !! لم يكن

المسكين يدري عن وصولي ، فقال لي ابن عمه ، وهو غالبا في نفس عمره ، ويمضي على نفس نهجه ومسلكه :

- إن الشيخ مشغول .

فقلت لك :

- إذا كان الشيخ مشغولا ، فالعبد المسكين يستأذن .

فأذن لي بكل سرور ، وأخذ مني كتابين لمطالعتهما ، وتحدثت معه أيضا قليلا ، لكني رجعت مكتئبا حزينا .

حين رجعت وجدت الأستاذ خالد بن محمد الفرج في انتظاري ، كنت قد التقيت به في دار الضيافة بالرياض ، وكنا على موعد باللقاء في مكة المكرمة ، وقد تمكن من الوصول إلى عنواني بصعوبة كبيرة ، بعد بحث وعناء ، أخبرني عن رغبته في لقاء سيد سليمان الندوي ، فذهبت على الفور إلى مقر إقامة سيد سليمان الندوي ، وتم التعارف ، وانعقد مجلس الأدب والشعر ، فخالد الفرج شاعر مجيد ، ولغته جميلة للغاية وبيانه سلس سهل ، لكنه مقل في شعره .

التقيت بعد العصر بأحد الشباب (من تانده) [١٧] يدعى حافظ محمد زمان، التقى به أمجد في مكان ما ، أو أنه قدم إلى أمجد بعد أن رأى مطبوعاتنا معه ، على كل حال أتى به أمجد ، وهو شاب صالح وذكي ، ومن المتوقع أن يصبح عضوا من أعضاء الجماعة في المستقبل .

تعرفت اليوم على عالم بخاري يعرف الأردية قليلا ، ويفهم العربية جيدا ، ويتكلمها ببطء ، لكنه لا يجيد التحدث بها ، ويبدو أنه يعرف شيئا عن دعوتنا ، فأخذ كتبنا للاطلاع عليها ، وكان راغبا في ذلك ، وأصر على أخذ الكتب ، ووعدنا بأن يعرفنا على علماء بلده .

أشعر اليوم بالتحسن بشكل عام ، ويبدو أنني نجوت من هجوم البرد والنزلة والكحة ، وسوف تمر أيام الحج علي بخير وسلام إن شاء الله .

الثلاثاء ٤ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٢٧ سبتمبر ١٩٤٩م

لم أتمكن من كتابة يومياتي ، منذ أن كنت في الرياض ، مر أسبوعان ، ولم أكتب شيئا ، كانت هذه السلسلة في البداية نوعا من التسرية عن النفس ، ولكنني فكرت في طباعتها بعد العودة من السفر ، مع أنني حافظت على طريقة الكتابة ، وأسلوب البيان ، ولم أتخل عن السهولة والوضوح ، وقررت أن أستمر على هذا المنوال ، واليوم بدأت باسم الله أكتب يومياتي من جديد ، ويجب علي أن أستعيد ذكريات أسبوعين مضيا ، والله المعين .

لم ألتق ثانية بالشيخ عمر بن حسن (رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بعد لقائي به في الرياض ، عقدت العزم أكثر من مرة على لقائه ، لكن عائقا ما ، كان يحول دون ذلك ، لم أكن أرغب رغبة شديدة في لقاء أخيه الشيخ عبد الله بن حسن (قاضي القضاة في المملكة العربية السعودية) لكن عبدالحميد الخطيب كان قد أعطاني خطاب تعارف له ، وبالصدفة وجدت فرصة اليوم لألتقي بالاثنين معا ، في مكان واحد ، فقد كان بيت عبد الله بن

حسن قريبا جدا من الحرم ، بل لاصقاً بالحرم ، وكثيرا ما يأتي عمر بن حسن إلى أخيه ، وقد جاء أحد أصدقائه بعد تناول الفطور ليقول :

- هيا فالشيخ عمر موجود هنا .

وهكذا تم اللقاء ، رحب بي كالعادة بحرارة شديدة ، وعرفني بأخيه الأكبر ، فالشيخ عبد الله بن حسن طاعن في السن ، ويعاني من ضعف في حاسة السمع ، وكنت في أشد الحاجة إلى مؤلفات أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ، وكان تلميذ الشيخ محمد بن إبراهيم قد جمعها في صورة كتاب ، وطبعت باسم " مجموعة ابن قاسم " ولم أتمكن من الحصول على هذه المجموعة في الرياض ، فأخبرنا أنه يمكن أن نجدها في مكة المكرمة ، ويمكن أن نحصل عليها أيضا عن طريق الشيخ عمر ، وبناء عليه ذكرت الموضوع للشيخ عمر ، وكان عليّ أيضا أن أذكر الشيخ محمد بن إبراهيم .

فسأل أخوه : ما الأمر ؟

فقال : لا يوجد أي كتاب باسم مجموعة ابن قاسم .

قلت لهم :

إذا كان لديكم بعض المعلومات عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وعن أولاده فأخبروني ، وابنكم الشاب هذا صديق لي ، يعرف مقر إقامتي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يتمتع الشيخ عبد الله بن حسن بمكانة عالية لدى الحكومة ، ويأتي إليه علماء مصر وبقية الدول .

التقيت اليوم بشابين من الشباب : قاضي معين الله ، وعبد الرشيد الأعظمي ، وهما من تلامذة سيد سليمان الندوي المقربين ، وجاءا مع جماعة التبليغ إلى الحجاز بهدف الدعوة والتبليغ ، ومع وجود اختلاف في فهم الدين يقل أو يزيد ، إلا أن عاطفتهم في سبيل الدعوة ، تستحق التقدير ، وللأسف لم نجد مثيلا لعاطفتهم وتفانيهم في خدمة الدعوة ، لدى رفاقنا ، ولم نحاول إثارتهما بشكل أو بآخر ، فالعقيدة عمياء ، فإذا كان الأمر عندهم يتعلق (بحضرت مولانا) عندئذ لا تجدي الدلائل (١٨) ولا تنفع السبل لإقناعهم .

بينما كان الشابان يجلسان في وقت العصر إذا بمولانا إسماعيل (الكوجرانوالي) يأتي ، وسررت كثيرا بهذا اللقاء الذي لم يكن متوقعا ، كانت هذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها للحج ، ولهذا كان على دراية بجميع الأمور ، أخذت أسأله عن أحوال باكستان ، وحزنت حين علمت بمرض حافظ زكريا الشديد ، ودعوت الله أن يشفيه ، وأعطاني مولانا إسماعيل سكينا هدية ، صنعها بنفسه ، وهو من مصنوعات كوجرانواله ، فقبلت الهدية بكل سرور ، كان مع مولانا إسماعيل بعض الحجاج الآخرين ، وإلا طلبت منه أن يقيم معنا .

كنت في غاية الشوق للقاء العلماء الأتراك ، بعد أن سمعت عن الأخبار الطيبة المتعلقة بأهل تركيا ، حين كنت في بغداد ، لكني رأيت الآن كل شيء هنا في الحج بأم رأسي ، وجلست كثيرا مع الأتراك في الحرم ، ولكني لم أجد من

بينهم من يعرف العربية أو الفارسية ، فقال أمجد على :

- لن يتم لقاؤنا بأحد بهذه الطريقة

انطلقت عاقدا العزم على ألا أعود دون لقاء أحد علماء الأتراك والتحدث إليه .

وقلت لأمجد :

- حسنا يا أخي !

وصلت مع أمجد وعاصم إلى الحرم لصلاة العصر ، وبعد العصر جلست ، بينما ذهب الاثنان بحثا عن أي تركي يعرف العربية ، وبعد عشر دقائق سمعت صوتا ينادي :

- تعال !

فنظرت ، فإذا بكوكبة من العلماء الأتراك . . . قابلونا بأدب واحترام ، كان من بينهم أئمة ثلاثة مساجد كبار في استانبول ، وكانوا جميعا يعرفون العربية ، ويتكلمونها وكان أبرزهم حافظ محمد عمر (إمام جامع السلطان الفاتح) دار بيننا الحديث ، فقالوا إننا لا ندري شيئا عنه أحوال باكستان ، لكن اسم الدين ، وملامح الدين ، شيء لا وجود له في مصر والشام والعراق ، ونحن بحمد الله متدينون ، فقدمنا لهم المجموعة الثالثة من " دعوتنا " فقالوا : ما المراد

بالطواغيت ؟ وعندئذ دار الحديث لمدة ربع ساعة ، وأعطيناهم مجموعة أخرى من مطبوعاتنا على وعد بلقاء آخر بعد الحج نتحدث فيه حديثا مفصلا .

ولم نكد ننهض حتى أمسك بنا تركي " جنتلمان " وقال :

- لقد تحدثتم مع العلماء فاسمعوا حديثي أيضا .

كان هذا الرجل - قبلا - ضابطا في الجيش ، ولديه معرفة باللغة العربية والعلوم الدينية ، فظل يخطب فينا لفترة ، وكانت خلاصة كلامه أنه يجب علينا أن نقدم تعاليم الإسلام للعالم بطريقة طيبة ومقبولة ومناسبة ، حتى يدرك الناس محاسنه ، وحتى يرغبوا فيه ، فأعطيناه كتابين من كتبنا ، وأجلنا الحديث إلى ما بعد الحج .

الأربعاء ٥ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٨ سبتمبر ١٩٤٩م

لم أستطع أن ألتقي بسيد علوي المالكي بسبب المرض ، وقد تحدد اليوم وقتا للقاء ، وعرفناه بالدعوة ، في حديث مختصر ، وقدمنا له كتبنا ، فالرجل ذكي ، ويبدو أنه يداوم على القراءة والمطالعة ، كان حديثه مؤثرا بصفة خاصة ، وهو يتمتع بشخصية جذابة ، شكلا ومضمونا ، ويبدو أنه " مولوي " ناجح ، وعد بأن يشرفنا في بيتنا المتواضع بعد الحج ، وهو يعرف جماعة التبليغ التي يرأسها مولانا إلياس ، كما أنه يلتقي كثيرا بالشيخ أبي الحسن الندوي .

عرفنا منذ عدة أيام خبر وصول مولانا منظور النعماني [١٩] وفي أثناء رجوعنا شاهدنا سيد علوي مشغولا بالكتابة في " الحرم " التقينا به ، فرحب بنا

ترحيبا حارا ، لقد فرق تقسيم الهند بيننا وبين الكثير من أصحابنا ، وكان من قدرة الله تعالى أن نلتقي بالكثير من أحبابنا في ديار الحرم ، بدلا من الهند ، كان مولانا منظور النعماني مشغولا للغاية في برنامج خاص به ، فقلت من الضروري أن يعطينا فرصة للكلام معه والاستماع إليه ، وإن شاء الله سيتم ترتيب لقاء ، والتقيت أيضا بأخينا الفاضل القاضي معين الله الندوي الكوالياري ، الذي صحبنا حتى مقر إقامتنا ، وقد قدم عبد الرشيد الندوي عددا من المطبوعات العربية إلى سيد سليمان الندوي ، واستمر الحديث مع هؤلاء الأصدقاء لفترة طويلة ، عن موضوعات مختلفة ، فهم يقومون بالتبليغ هنا منذ سنتين تقريبا ، ويريدون أيضا تعلم اللغة العربية وإجادتها ، مع دراسة الأدب العربي .

بعد صلاة الظهر حضر إلينا " نمـــى خان " وكنت في شوق لرؤياه ، وفكرت في أن ننشر منهجنا في الدعوة في المدينة المنورة عن طريقه ، ونمـــى خان من سكان البنجاب ، يقيم في الحجاز منذ ست وثلاثين سنة ، يعرف أسلوب الدعوة ، كما زارنا أيضا في " دار الإسلام " ولكني اكتشفت من خلال حديثي معه أن ثقافته ثقافة عادية ، كما أنه يجهل أيضا مبادئ الدين وأساسياته ، ولا يمكنه القيام بمهمة الدعوة .

يقوم الملك عبد العزيز آل سعود بدعوة الحجاج كل سنة بمناسبة موسم الحج ، وتوجه إليهم ثلاث دعوات :

- دعوة لممثلي المملكة العربية السعودية .

- دعوة لكبار الحجاج من أهل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين . .

- دعوة كبار الحجاج والشخصيات البارزة مع ممثلي حجاج البلاد الأخرى

ويدخل في البلاد الأخرى العراق والشام ومصر ، وقد تحدد اليوم ، بعد صلاة المغرب ، موعدا للدعوة الثالثة ، وكان العبد الفقير من بين المدعوين أيضا ، وبقيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، ثم استقر الرأي على الذهاب ، لأرى كيف تكون هذه الدعوة [٢٠] .

يقع مكتب الحكومة بالقرب من الحرم ، وهناك بعد صلاة المغرب ، اصطفت أعداد كثيرة من السيارات الفخمة والحافلات الرائعة لنقل الضيوف ، وقد رافقت سيد سليمان الندوي ، فركبنا إحدى الحافلات ، ومن الجدير بالذكر أن حدود القوميات والأوطان هنا تبدو معدومة تماما ، ففي حافلة صغيرة ركب أناس من الهند وباكستان ومصر ولبنان وإندونيسيا ، لم يكن القصر الملكي يبعد عن هذه المكان أكثر من ميلين ، دخلنا في قاعة واسعة ، ازدانت بالأنوار ، وامتلأت بالخدم ، وفي كل منعطف وزاوية وقف موظفو الحكومة الكبار يستقبلون الضيوف ، وعلى الباب شاهدت عبد الحميد الخطيب (الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في باكستان) فسلمت عليه بسرعة ، وتبادلنا كلمات قليلة ، كان يقف بملابس الإحرام ، وبجواره سيد أمين الحسيني ، وشاهدت في الأماكن الأمامية خواجه شهاب الدين (وزير داخلية باكستان) وبعض الباكستانيين الآخرين ، جلس بجواري شاب يدعى الزبيري [٢١] وكان بملابس الإحرام ، عرفت منه أنه كان في بعثة ودية إلى باكستان .

بعد فترة وجيزة دخلنا إلى قاعة الطعام ، صفت الموائد الطويلة ، ومن حولها الكراسي ، ووضعت الملاعق والشوك ، وكان الطعام على الطريقة

الغربية ، وكان الموظفون على قدر كبير من الأدب ، وبينما نحن على هذا الوضع دوى صوت الحاجب معلنا :

" جلالة الملك عبد العزيز "

قالها بلهجة عربية مميزة ، فوقف الناس ، ووقف سيد سليمان الندوي بعد برهة ووقف العبد الفقير أيضا .

شرف جلالة الملك وسط المائدة ، على يمين المفتي ، وبدأت " فلاشات " أجهزة التصوير تلمع ، كما علا أيضا رنين الملاعق والسكاكين ، كان مولانا ظفر أحمد تهانوي (عضو الوفد الباكستاني) قد حضر وجلس بجوار سيد سليمان الندوي ، وبدأنا نتناول الطعام على طريقتنا باستخدام أيدينا ، وكانت أضواء الكاميرات تبرق ، تلتقط الصور بين حين وآخر .

عدنا إلى القاعة الضخمة ، بعد تناول الطعام ، وهناك بدأ دور الشعر ، ثم ارتفعت الهتافات : :

" عاش جلالة الملك "

ثم علا صوت التصفيق أيضا ، كان المصريون في مقدمة الهاتفين والمصفقين ، وكان إبراهيم الغزاوي [٢٢] شاعر الملك الخاص هو الذي خطف الأضواء من بين جميع الشعراء الذين ألقوا بقصائدهم ، فكانت أشعاره رائعة من الناحية اللغوية والفنية ، ومن العبث إبداء رأي في المضمون ، وفي النهاية ألقى أيضا صديقنا خالد بن محمد الفرج قصيدة ، وبعد انتهاء دور الشعر سمح

للضيوف بالسلام على جلالة الملك ، فنال الجميع هذا الشرف ، وكان لكل شخص ثانية واحدة أو ثانيتان ، وبصعوبة شديدة ، وقد شرفنا بالسلام على جلالة الملك أيضا ، وشعرنا بانفعال وحرارة ، وخرجنا ونحن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكان سيد سليمان الندوي قد سبقنا بالخروج ، واستقل العبد الفقير حافلة ، وكانت العودة إلى المبيت في حوالي الساعة التاسعة ليلا .

الخميس ٦ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٢٩ سبتمبر ١٩٤٩م

يعج الحرم المكي الآن بعباد الله ، صار من الصعب الوصول إلى الأصدقاء والمعارف الذين نريد لقاءهم ، تتغير الصورة في كل لحظة ، وتأتي قوافل جديدة في كل ساعة ، تفسر قوله تعالى : " من كل فج عميق " وكما ذكرت فهناك محاولات تبذل لعقد مؤتمرات عالمية في هذه الدنيا ، ولا يأتي ممثلو جميع الدول ، ولكن منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، وبناء على الدعوة العامة التي وجهها عبد موحد لله ، للقدوم إلى بيت الله الكائن في واد غير ذي زرع ، بناء على الأمر الإلهي " وأذن في الناس " منذ ذلك اليوم لم تنقطع سلسلة الملبيين " لبيك اللهم لبيك " فلا يحول سوء الطقس ، أو صعوبة الطريق أو طول المسافات أو العوائق السياسية أو ظهور عصبيات قومية ، دون وصول الملبين للنداء الإبراهيمي إلى بيت الله .

جلست في الحرم بينما عيناي معلقتان بالكعبة المشرفة ، أفكر في هذا الأمر ، يا ليت من يريد الاستفادة من هذا الاجتماع الدائم والمؤتمر السنوي يستيقظ ويفيق من غفوته ، فقد تحولت شعائر الدين بأكملها إلى مجموعة من

الأعمال التقليدية ، بما فيها الحج أيضا ، وفقنا الله إلى حسن العمل وأعطانا الهمة للاستفادة من نعمه .

وكنت رغم هذا الزحام الشديد ألتقي بأحد الأصدقاء الذين لم أرهم منذ سنوات عديدة ، أو ممن انقطعت صلتي بهم منذ زمان ، لقد عرفت العشرات من أهل البلاد العربية معرفة غيابية ، وتبادلنا الرسائل ، ومن بين هؤلاء من التقيت بهم مصادفة في الطريق ، فرحت أنظر إليه ، وينظر إلي نظرة فاحصة مستفسرة ، ثم يبدأ السلام ، وتبدأ التحيات ، وبعدها يبدأ العناق ، منظر ممتع مشوق ، لا يمكن أن أنساه أو يغيب عن ذاكرتي أبدا ، أدعو الله أن يوفق كل مسلم إلى أن يشرف بالوصول إلى بيته الحرام .

جلست قليلا بعد صلاة العصر وإذا بي أرى " شرقي " قادما في ملابس الإحرام ، تعانقنا ، وتساءلنا عن أحوال الأصدقاء ، واصطحبته لأريه مكان إقامتنا ، وكنت على موعد في ذلك الوقت للقاء الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة (الخطيب الثاني للمسجد الحرام) وجاء لمرافقتنا نجل الشيخ أبي السمح ، ولهذا استأذنت من شرقي وذهبت إلى الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة ، فقد كنت أشتاق إلى لقائه ، كان قد سافر إلى مصر للعلاج ، ورجع بالأمس ، وكان قد قرأ بعض كتبنا في السنة الماضية ، وطلب من مولانا عبد الوهاب الدهلوي بقية كتبنا ، وهو شيخ لا يدري شيئا عن أحوال الدنيا ، كما أنه ليس مجرد مولوي ، تعارفنا غيابيا عن طريق " الهلال " وهو مشغول جدا حاليا بسبب سفره السابق ، أخذ الكتب بشوق شديد ، وطلب المزيد من النسخ على

أن يدفع قيمتها ، فسكت العبد الفقير في الحال ، واتفقنا على أن نلتقي بعد الحج للتحدث بالتفصيل .

التقيت بعد المغرب بالأديب المعروف عبد الله بن سليمان المزروع ، وهو يقرأ كتاب العبد لله عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كما يطالع أيضا مقالاتي في الصحف العربية ، ودار الحديث بيننا لفترة ، ووعدنا هو الآخر بأن يقابلنا بأهل العلم الممتازين بعد انتهاء الحج أو في منى ، وذكر لي أن جريدة أم القرى نشرت عني بعض السطور (٢٣) .

فالحمد لله لقد جئت هنا متخفيا دون إعلان ، ولكن ما حدث كان بفضل من الله .

وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث ، إذا بخالد بن محمد الفرج يأتي باحثا عنا ، ودعانا للقاء في المساء نحضر فيه مجلس شعر وأدب ، وترددت ، لكن مجلس الشعر هنا ليس بالأمر المعيب .

التقيت اليوم صدفة بأديب مصري معقول ، كانت لدي رغبة عارمة في الحصول على معلومات صحيحة عن الإخوان المسلمين ، ولم أستطع أن ألتقي بشخص عارف بالأمور ، وقد رأى كتبنا ، وشعر بالألفة والود فبدأ يتكلم ، وطبقا لمعلوماته ، فالحكومة المصرية تشدد من قبضتها على الإخوان مضطرة مجبرة ، بناء على رغبة السفير البريطاني الملحة ، ونظرا لما تتعرض له بريطانيا من تهديدات .

ويعتقد أن الحال في العراق شبيهة بالحال في مصر، وقد ألقى صديقنا المصري بتفصيل كامل الضوء على الأسباب والظروف التي دعت إلى إعلان الحرب على الإخوان

الجمعة ٧ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩م

اليوم آخر جمعة في موسم الحج ، فلا تسأل عن الزحام وهموم الناس ، فقد قدمت أعداد لا حصر لها من حجاج الخارج ، ومن المناطق القريبة أيضا ، ولهذا فضلنا الانتهاء من جميع أعمالنا في الصباح الباكر .

وصلنا الحرم في الساعة الثالثة بالتوقيت العربي (التاسعة والنصف بتوقيتنا) كان الزحام شديدا ، والحر لا يطاق ، وهذا الوضع في الحالات العامة يخرج الروح من الجسد ، لكنها بركة المسجد الحرام ، وجاذبية بيت الله ، سهلتا كل المشكلات . جلسنا باطمئنان وسكينة ، في انتظار الصلاة ، وكان رفيقنا أمجد علي قد بسط الكتب الأردية للجماعة ، أما نحن فوضعنا أمامنا الكتب العربية ، وقد رغب بعض الناس في مطبوعاتنا ، وعن طريقها تعرفوا على الدعوة .

انتهى الأذان وبدأت الخطبة ، شرح الخطيب مناسك الحج بوضوح تام ، كانت لهجته صافية وأسلوب بيانه مناسبا ، ومفهوما للجميع ، لكننا افتقدنا حرارة وحماس الشيخ أبي السمح ، وفيما يتعلق بالخطبة ذاتها فالفرق بينهما أمر ضروري ، فقد كانت الخطبة واضحة ، ومفهومة للعامة تماما ، لكن الفرق الذي أتعبني وكدر طبيعتي هو الفرق في التلاوة ، ففي لهجة الشيخ أبي السمح حرقة عجيبة وحرارة تذيب القلوب ، ورغم كبر سنه وضعفه إلا أن تلاوته للقرآن

الكريم ، تؤثر في القلوب ، بما فيها من حرقة ممزوجة ببحة في الصوت ، على كل حال هذا شأن الله .

بعد الصلاة تناولنا الطعام مع صديقنا " شرقي " وأخذنا نتحدث بالتفصيل عن أحوال الإخوة الباكستانيين .

في المساء رجع عاصم من السوق فرحا مسرورا واندفع قائلا :

– لقد جئت بخبر سار ، لقد ذهب المفتي سيد أمين الحسيني ، واشترى مجموعة كاملة من كتبنا من محل عبد الله فدا ، وأخبره بأنه لابد أن يقابل العبد الفقير .

كان خبرا مفرحا ، وكان السرور عظيما لا حد له ، لكن كيف يكون اللقاء ؟ فقد حل المساء ، وغدا سيكون الانطلاق صباحا إلى منى ، على كل حال سنحاول لقاءه بعد العودة من منى إن شاء الله ، فقد كنت قد التقيت به قبل خمس عشرة سنة في لكهنو (الهند) حين جاء في وفد مع محمد على باشا علوبه ، يا له من أمر عظيم أن يظل يذكر طالب علم حقير ، بعد هذه المدة الطويلة !

بدأ عاصم يهرول تحت أشعة الشمس المحرقة بعد أن رأى همة أمجد علي الرامبوري المتزايدة ، فقد التقيا بعدد من شباب نجد ، وعرفناهم بالدعوة ، وقدما لهم الكتب لمطالعتها ، وحضر بعضهم للقاء العبد الفقير هنا في مقر إقامتنا ، ورغم ما في أهل نجد من اتزان شديد وصمت أو التزام بعدم الكلام ،

إلا أن فيهم صلاحية واستعداد لقبول دعوة الحق ، وصلاحية واستعداد للبحث عن الحق .

غدا صباحا سيكون الانطلاق إلى منى ، وصار الماء نادرا كالكبريت الأحمر ، فقد كانت صفيحة الماء في البداية بأربعة أو خمسة قروش ، لكن السقاء لا يرضى بأن يحضرها حتى بريالين ، ظل عاصم يهرول هنا وهناك ، ليرحمنا الله ، فالغسل قبل الإحرام مسنون ، وحتى الآن لم أترك بفضل الله أثناء أدائي مناسك الحج أي سنة مسنونة .

السبت ٨ ذو الحجة ٦٨ هجرية / أول اكتوبر ١٩٤٩م

ها قد جاء اليوم الذي انتظرناه منذ أسابيع ، استيقظ عاصم مبكرا قبل صلاة الفجر ، وهيأ لنا الأمتعة الضرورية بسرعة ، وأسرعنا إلى الحرم فصلينا الفجر ، واغتسلنا وغيرنا ملابس الإحرام ، وصلينا ركعتين ونوينا الحج وبدأنا التلبية :

" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة ، لك والملك ، لا شريك لك "

كنا قد قررنا بالأمس أن نذهب إلى بيت عبد الرحمن مظهر في الصباح الباكر، ثم نمضي مع بقية الأصدقاء إلى منى ، وطبقا للبرنامج أخذنا الأمتعة الضرورية ، ووصلنا إلى بيته ، ومن السنة أن نصل إلى منى قبل الزوال ، وأن نصلي هناك خمسة فروض ، ولهذا جلسنا مطمئنين ، وحين جاء دورنا ، جلسنا في العربة ، ونحن نردد التلبية ، ووصلنا منى قبل الزوال ، كان معنا في العربة

اثنان من أعيان السند ، وأحد شيوخ (الطريقة) وللأسف ورغم محاولتنا لفت أنظارهم ، إلا أنهم ظلوا طوال الطريق يتحدثون مع بعضهم أحاديث متفرقة ، بينما كان الوقت ، هو وقت التلبية والذكر والشكر .

وصلنا إلى منى بحمد الله ، لكني لم أتمكن من صلاة الظهر والعصر في مسجد الخيف نظرا لشدة الحرارة وضعف العبد الفقير ، وقد بني هذا المسجد في المكان الذي صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحاولت أن أصلي العصر لكني وصلت بعد مرور الوقت ، وعلى الباب التقيت بسيد عظمت علي شاه ، والعجيب أني التقيت عدة مرات من قبل مع شرقي ، ولكنه لم يذكر عظمت علي شاه ، ولهذا سررت كثيرا بهذا اللقاء غير المتوقع ، وذهبت معه حيث يقيم ، ودار بيننا حديث طويل شارك فيه شرقي وبقية الأصحاب، وبعدها توجهنا إلى مسجد الخيف ، قبل المغرب بوقت كاف ، وهنا شعرت بالألم والحزن بعد أن شاهدت الوضع هنا ، فلا يمكن أن ترى صورة مجسمة واضحة على سوء نظام المسلمين ، أكثر من تلك الصورة ، لقد تحول المسجد ابتداء من الصحن وانتهاء بالمحراب إلى مطبخ ، ناهيك عن المناظر الأخرى المؤذية ، فالباصقون يبصقون أيضا حيث يجلسون ، ولا يوجد ترتيب للصفوف على الإطلاق ، ولا يوجد أي ضابط بين الإمام والمصليين والخلاصة هي أنك ترى عالما عجيبا من الفوضى والاضطراب ، وفي ناحية من المسجد بسطنا " سجادتنا " وجلسنا ، وكان معنا كالعادة المطبوعات العربية ، وبينما كنا نتطلع إلى الوجوه ، وننظر هنا وهناك ، بحثا عن أناس مثقفين ، إذا بشاه أمان الله البهلواري (خلف مولانا شاه محي الدين البهلواري والآن صاحب سجادة

خانقاه مجيبه بهلواري) [٢٤] يأتي إلينا ، ففرش له خادمه السجادة ، وجلس الرجل دون ما تكلف ، وبكل تواضع ، وكنت قد ذهبت إلى مقر إقامته في مكة إلا أن مريديه وحاشيته لم يسمحوا لي بالذهاب إلى " مخدعه " !! وكانت هذه فرصة عظيمة ، فبدأت الحديث معه ، سررت كثيرا حين عرفت أنه على علم ببواطن الأمور ، وأنه متزن الفكر وذواقة للعلم والأدب . سألني من تلقاء نفسه عن أحوال المودودي ، وعن إصلاحي ، وذكر أيضا كتاب العبد الفقير " الاشتراكية والإسلام " وقال إنه يشتاق إلى قراءته ، وقد طلبه عدة مرات من الأخ أحمد (سيد أحمد عروج قادري وهو من أبناء عمومته) فقلت له :

- انتهت الطبعة الأولى منذ مدة طويلة والطبعة الثانية ستصدر مزيدة ومنقحة وإن شاء الله ستصلكم نسخة .

أطلعناه على المطبوعات العربية ، وقدمناها له ليطالعها ، فتساءل :

- هل هذه هدية ؟

فقلنا له :

- اقرأها ، قراءتك لها هي الهدية .

ودارت بيننا أحاديث أخرى متنوعة ، وامتدت الجلسة طويلا ، وفي تلك الأثناء جاء القاضي عبد الله الصوفي (قاضي البصرة) أيضا ، فقدمته إلى شاه أمان الله أيضا ، وبينما نحن هكذا حان وقت صلاة المغرب ، فصلينا المغرب ، وتمتعنا بالصلاة كثيرا نظرا لعدم وجود مكبرات الصوت .

كان المحرمون في زي الإحرام منتشرين في كل ناحية ، الغني والفقير ، المصري والهندي ، لا فرق بين مسلم وآخر ، فجميع الناس ، من جميع بقاع الأرض ، في مكان واحد ، اصطفوا معا في حضرة الله ، وكان لهذا أعظم الأثر في النفوس معنويا وروحانيا .

بعد المغرب قام شخص فألقى خطبة في صحن المسجد ، بعد أن سمعت طريقة بيانه وعرفت نوعية الموضوع ، هتف بداخلي هاتف بأن هذا الخطيب هو محمد حامد الفقي (٢٥) وحتى لو لم يكن هو محمد حامد الفقي ، فقد كانت بداية الخطبة مؤثرة تجذب السامعين ، كان يتحدث عن معاني الحج ، إلا أن الاستطرادات الكثيرة ، أطالت الخطبة ، وقللت من أثرها ، وقد حمل في نهاية الخطبة على المتصوفة ، وطعن فيهم ، وجاء ذكر الطواغيت أيضا .

رجعنا بعد الصلاة ، وظلت حالتي على ما يرام ، رغم شدة الحر ، والتحرك هنا وهناك ، ورغم أنني تحملت مصروفات تزيد على مقدرتي المالية ، وأديت كل ما طلبه المعلم بلسانه ، إلا أن ترتيب أمر الطعام والشراب لم يكن معقولا ، فقد أفقرنا ، وأجاعنا خلال النهار وفي الليل قدم إلينا طعام فطور خفيف !

كان يقيم معنا عشرة أفراد أو اثنا عشر فردا ، أدوا جميعا رسوما للمعلم يطلق عليها رسوم الدرجة الأولى ، ولهذا غضب الجميع ، وتملكهم الغيظ من سلوكه ، ولكن ماذا عسانا نستفيد من الحزن والأسى ؟!

إن هؤلاء المحترفين لا يتراجعون أبدا عن مسلكهم هذا ، وليس أمامنا من سبيل سوى الصبر والتحمل ، وفق الله تعالى حجاج بيت الله إلى الصبر والتحمل ، وهدى الله مطوفي مكة ، وخدامهم إلى حسن الخلق .

السبت التاسع من ذي الحجة ٦٨ هجرية / الثاني من أكتوبر ١٩٤٩م

طلع الفجر . . فجر الأماني العظيمة والآمال ، فاليوم " يوم عرفة " وهو عصب الحج أو خلاصة الحج ، وركنه الأعظم ، فالدنيا كلها ستعمر ميدان عرفات ليوم واحد ، ومع حلول الظلام ، تنتهي الإقامة في عرفات ، يغادر الجميع ، ويخلو الميدان ، من كل إنسان ، وتظل الإقامة في منى حتى الثالث عشر من ذي الحجة ، ولهذا فهناك مبان قائمة ثابتة باستمرار ، يستفاد منها في حج كل عام ، هذا بالإضافة إلى سلسلة الخيام التي تمتد على مرمى البصر . ولكن عرفات تخلو من أي بناء ، فهناك خيام متداخلة في خيام ، ويُقال : لو نسي الإنسان خيمته ، فليقابل رفاقه بعد ذلك في منى أو في مكة ، ولكل معلم راية مختلفة ، ليتعرف عن طريقها كل حاج على مكان معلمه .

من السنّة أن نبدأ الذهاب من منى في الصباح الباكر ، وبينما كنت أقف في ردائي الأبيض ، ممسكا بيدي حقيبتي ، إذا بي أشاهد سيد سليمان الندوي ، وبالقرب منه كان مولانا عبد الله شائق (من أعظم كره بالهند) ونزل معلمنا الشيخ عبد الرحمن مظهر أيضا من غرفته العليا ، وبقينا فترة نتحدث ، وقال مولانا عبد الله بعد أن رأى " الصندل المصنوع في نجد " :

– لقد صرتم عربا من أولكم إلى آخركم .

فرد سيد سليمان الندوي معلقا على كلامه :

- ومنذ متى لم يكن هؤلاء عربا ؟!

ودارت هذه الأحاديث بينما كنا في انتظار السيارات ، وجاء دورنا ، ونظرا لاعتلال صحتي ، فقد أخذت مقعدين في سيارة الأجرة ، وتأخرت قليلا ، واضعا اعتبارا لسيد سليمان الندوي ، فبادرني بقوله :

- بسم الله . . تقدم . .

وركبنا السيارة ، وقلوبنا ترتعد ، ووجوهنا مصفرة ، وألسنتنا تلهج بالتلبية ، وخلال ساعة إلا ربع الساعة على الأكثر ، كنا قد وصلنا إلى خيمة معلمنا في عرفات ، وكان معنا شيخ السجادة السندي ، واثنان من أعيان السند ، كنا قد تعرفنا عليهم في منى ، وكان الشيخ من جماعة أهل الحديث وسبق له أن عمل أيضا مع مولانا سندهي ، وقد وصل هنا بنية الهجرة الدائمة ، وقد تطرق الحديث إلى أسلوب عمل الجماعة الإسلامية ومنهجها ، والشخص الثاني هو فقير محمد منكرو ، وهو من أعضاء حزب الرابطة الإسلامية ، رجل له مكانته العظيمة ، وعلى معرفة بالجماعة الإسلامية ، وقد مرض في منى ، وظل قلقا مضطربا ، ولهذا لم أستطع أن أتحدث معه بالتفصيل ، والشخص الثالث شاب في مقتبل العمر ، وهو كأولاد الذوات ، يبدو أنه لا يعرف شيئا عن أمور الدين والدنيا .

استمر العبد لله يلفت نظرهما إلى " التلبية " وإلى الذكر والشكر ، طوال الطريق كلما سنحت فرصة لذلك ، وقد ترك هذا الأمر أثرا بسيطا عليهما .

بعد أن وصلنا إلى الخيمة ، عرفنا أن مسجد نمرة يبعد عن ذلك المكان بميل تقريبا ، كانت الساعة الثانية طبقا للتوقيت العربي ، قبيل الظهر ستكون خطبة الإمام ، ثم تكون صلاة الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين ، وهذه هي السنة ، وأهل مكة أيضا يصلّون مثل عامة الحجاج الصلاة جمعا وقصرا ، فهكذا فعل رسول الله صلى الله علية وسلم ، والمكان الموجود في نمرة المقام عليه الآن المسجد المعروف باسم مسجد نمرة ، هو المكان الذي صلى فيه وخطب فيه ، كنت أشتاق للصلاة في مسجد نمرة ، وسماع الخطبة ، ولهذا تركنا أمتعتنا في الخيمة ، وانطلقا إلى المسجد ، ومن الصدف الطيبة أن خيمة مطوفنا كانت على قارعة الطريق ، فتطلعنا هنا وهناك ، ودققنا في العلامات المميزة للمكان ، حتى لا يشكل علينا أمر العودة ، لم يكن في مسافة الميل أي نوع من الذوق أو الشوق ، فعلى كل ناحية من الطريق خيام مصفوفة ، بينما الناقلات (اللوريات) والحافلات والسيارات من كل نوع تنطلق بسرعة ، بينما كان الأبيض والأسود ، التركي ، والسوداني ، والتكروني ، والهندي ، والإيراني ، كانوا جميعا في ملابس الإحرام ، تلهج ألسنتهم بالتلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . . واتخذت هذه الدنيا الصغيرة شكلا واحدا ، ولونا واحدا ، وانتشت أيضا لسبب واحد . . ومضى عباد الله وسط هذا العالم المتحرك كالأمواج ، وصلنا إلى المسجد ، فشعرت بالاطمئنان ، فالنظام هنا أحسن كثيرا مما كان عليه الوضع في مسجد الخيف ، فقد عين رجال الشرطة على أبواب المسجد ، يمنعون منعا باتا ، وبشدة كل من يحمل أمتعة من أي نوع داخل المسجد ، فقد حول الناس مسجد الخيف إلى مطبخ عام ، نظرا لعدم الاحتياط ، وتراخي

رجال الشرطة ، وتهاونهم وتساهلهم من الناس ، فشكرا لله الذي حفظ مسجد نمرة من هذه القاذورات ، وكان بالمسجد هنا ، نظام معقول ، فمياه الشرب متوفرة ، وبالمجان ، وميسرة للجميع ، لدرجة أن حاملي القوارير كانوا يطوفون يقدمون الماء للناس ، ولا يطلبون ثمنا لذلك ، كما أُقيمت مظلات ، لمسافات طويلة في صحن المسجد المفتوح ، وفي الداخل فرشت البسط في صفوف ، كما كانت هناك مراوح كهربائية أيضا ، وكان نظام مكبرات الصوت معقولا ، وقد أخلي مكان صغير بالقرب من المنبر للمسئولين بالحكومة .

وصلنا المسجد قبل الصلاة بأربع ساعات ، ومع هذا فقد كان الجزء الداخلي من المسجد قد امتلأ تماما ، كان عباد الله مشغولين في التلاوة والتسبيح والتهليل ، وكان عبق الذكر الإلهي يملأ المسجد بأكمله ، ولابد أن أي إنسان سيتأثر بما يشاهده هنا ، حتى لو كان قلبه صلدا ، وقد رأيت مجموعات من الناس يبكون بكاء يقطع القلوب .

لم يكن انتظار الصلاة لأربع ساعات عملا سهلا ، لكن الجو الممتع المحيط ، والجو الديني الباعث على الوجد ، ساعد كثيرا في هذا الأمر ، بدأ عالم يمني في تلقين الناس " التلبية " عن طريق مكبر الصوت ، وكان لهذا أثر طيب ، فظلت جنبات المسجد تهتز بصدى التلبية لفترة طويلة ، ثم قام أحد علماء الشام الشافعيين ويدعى سليمان الداراني بإلقاء خطبة رائعة مختصرة عن الحج وأركان الحج ، وقام علماء آخرون بالوعظ بما أفاض الله به عليهم .

في ذلك الوقت حضر الأمير فيصل مع بعض أعيان الحكومة ، لكني لم أستطع أن أراه جيدا ، نظرا لبعد المسافة ، عندئذ وقبل الخطبة قام أحد القراء المصريين (٢٦) بتلاوة آيات من الذكر الحكيم بعظمة .

انتهى وقت الانتظار ، وألقى أحد الشباب خطبة يوم عرفة ، وكان هذا من واجب الإمام ، لكن هذا الواجب الآن صار من نصيب قاضي القضاة ، وقاضي القضاة في المملكة العربية السعودية الآن هو الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ، رجل طاعن في السن ، وضعيف ، ولذلك قام نجله عبد العزيز بن عبد الله الذي يدرس في جامعة الأزهر بهذا الواجب العظيم . . . على كل حال كانت الخطبة غنيمة ، وكانت طريقة إلقائها طيبة وموزونة (٢٧) صلينا بعدها الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين .

ومن المحير أن بعض المقلدين كانوا قد أكملوا الصلاة ، ولسوء حظهم لم تكن هناك فترة راحة بين صلاة الظهر وصلاة العصر ، وهكذا أفسد هؤلاء الناس الصلاتين معا ، فحين بدأت صلاة العصر كان هؤلاء مشغولين في إكمال صلاة الظهر .

رجعنا إلى الخيمة بعد الصلاة ، فتناولنا الطعام ، ورقدنا لبعض الوقت ، لم يكن إعداد الطعام وتنظيمه جيدا ، فرغم أن معلمنا أخذ منا نفقات الدرجة الأولى، إلا أنه لم يرتب الطعام بطريقة تليق بالدرجة الأولى ، لكن ماذا يفعل الإنسان في الحج ؟ فالعبد الفقير يذكر القليل من فضائل المطوف في هذه الصفحات ، والحقيقة أننا لم نحصل على أي شيء ، ولا بد أن أشير إلى هذا الأمر حتى يأتي زوار بيت الله هنا ، وهم على أتم استعداد لتحمل هذه المتاعب .

استيقظنا بعد القيلولة فتوضأنا ، وانشغلنا حسب مقدرتنا في الذكر والاستغفار ، فالانشغال بالتوبة والاستغفار من بعد الظهر إلى غروب الشمس سنة ، وكنت ألفت نظر رفاقنا أيضا إلى هذا الأمر ، لكن أكثرهم كانوا من الغافلين ، فبدأت توجيه النصح لهم بعد العصر لمدة نصف ساعة ، وبعد أن ضقنا بالضوضاء والضجيج والصخب ، ابتعدت و عاصم عن الخيمة ، ووقفنا ، وظل عاصم واقفا يدعو الله ويستغفره حتى غروب الشمس ، ولم يكن هذا في مقدور العبد لله ، فكنت أجلس أحيانا وأقف أحيانا أخرى ، ولا يشترط في السنة أن يقف الإنسان وهو يذكر الله ويستغفره .

وهكذا كان مساء عرفة أعظم مساء في السنة بركة وخيرا ، وقد جاء في الأحاديث أن الشيطان لم يشاهد في مذلة وحقارة أكثر مما شوهد في تلك الليلة ، وكان ميدان عرفة كله مملوءا بعباد الله الذين حملوا أكفانهم على رءوسهم ، يبكون ، وينتحبون ، يدعون الله بما يريدون ، وميدان عرفة كله " موقف " لا يوجد قيد على مكان دون آخر ، وليس من الضروري صعود " جبل الرحمة " بل إن علماء السلف رأوا في هذا بدعة ، ونحن أيضا ذرفنا دموع الندم على أعمالنا طبقا لمقدرتنا ، ودعونا الله بصفة خاصة لرفعة الدعوة الإسلامية ، واستقامة أعضائها المخلصين ، ماذا عساه يفيد دعائي ؟ لكن ورد في الأحاديث التأكيد على الدعاء ، ومن يدري ما هو الوقت المحدد للإجابة ؟ وخاصة أن مساء يوم عرفة مخصوص ومشهور لإجابة الدعاء ، أدعو الله أن يتقبل أعمالنا وأن يجعل حجنا حجا مبرورا وأن يجعله كفارة ذنوبنا .

اللهم اجعله حجا مبرورا وذنبا مغفورا وسعيا مشكورا .

كان الحجاج في خيمتنا وخارجها مشغولين بالذكر الإلهي ، لكني رأيت جماعة واحدة ، تنظر إلى هذا العمل نظرة تجارية خالصة ، لم يكن على وجوه أفرادها أثر يذكر لهذا اليوم ، وهذه الجماعة هي جماعة المطوفين وخدامهم .

اتجهنا بعد المغرب مباشرة إلى المزدلفة ، حيث سنقضي الليلة هناك ، وستقام صلاة المغرب والعشاء في وقت واحد ، لكن المنظر هناك كان عجيبا وغريبا ، فمن المفروض قضاء الليل هناك فقط ، ولهذا لم يُعد المطوفون ترتيبات تذكر ، تأتي السيارات ، وينزل الركاب حيث شاءوا ، لم يكن في استطاعة أحد أن يتزحزح من مكانه ، فالابتعاد عشرة أقدام أو عشرين قدما عن الرفاق يعني الضياع ، كما لم يكن هناك أي ترتيب لدورات المياه ، والخلاصة هي أن ما وجدناه من حسن ترتيب وتنظيم في عرفات ، وجدنا عكسه تماما في المزدلفة ، فقد كان الوضع مؤلما وسيئا للغاية ، وفيما يتعلق بعرفات ، كان الحجاج القدامى داخل مكة يقولون بأن ترتيبات هذا العام كانت جيدة للغاية ، ونظرا لسوء التنظيم والاضطراب في المزدلفة ، لم نتمكن من الذهاب للمسجد ، فماذا عساي أقول عما أصابني من تعب عند قضاء الحاجة ، وما إلى ذلك ؟ ! وقمنا بطريقة ما بفرش بساطنا في ناحية قريبة من الطريق وجلسنا .

الاثنين ١٠ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٣ أكتوبر ١٩٤٩م

طلع الفجر . . لم يكن من المستطاع بالنسبة للعبد الفقير النوم في العراء ، فمنذ فترة طويلة لم أرقد في الطل ، ولكن الليل انقضى بفضل من الله وكرمه ، واستيقظنا مبكرين ، ومع طلوع الفجر صلينا ، لكنها صلاة في غير مسجد وفي

غير جماعة ، في بداية الغلس أي مع طلوع الفجر ، وحتى الإسفار الكامل أي حتى ظهور نور الصباح وانتشاره في الأرجاء ، وطبقا للسنة النبوية ، انشغلنا بالتسبيح والتهليل ، وقد جاء تأكيد الذكر في القرآن الكريم عند المشعر الحرام (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) والمشعر الحرام هو الواقع بين المزدلفة ومنى وعرفات ، ويجب ألا يفهم الذكر هنا على أنه الذكر عند الصوفية ، فالمقصود بالذكر هنا هو التسبيح ، والتهليل ، والتوبة ، والاستغفار ، أخذنا الجمرات من المزدلفة لرمي الجمار في منى ، وهذه هي السنة .

اليوم هو العاشر من ذي الحجة ، ومن السنة أيضا أن نرجع إلى منى مع طلوع الشمس ، والانتهاء من مناسك الحج قبل الزوال أيضا من السنة ، وهو الأفضل ، ولكن كما قال سيد سليمان الندوي : لقد حطمت هذه السيارات السنة والحدود المستحبة ، ففي زمان البعير والجمال ، كان كل شيء من اختيار الإنسان ، وكان كل شيء يمضي ببطء .

إلى أين أخذنا الكلام ، كنت أريد أن أقول أنه في الصباح مكر بنا سائق السيارة الأجرة ، فبقينا في المزدلفة ثلاث ساعات ، ولم نجد هناك حتى الشاي لنشربه ، وكنا قد تعرضنا للجوع والعطش بفضل المعلم ، أخذت الشمس ترسل أشعتها ، وأخذت أشعة الشمس تزيد من حرارتها ، وهذا الوضع لن يمكننا من أداء مناسك الحج في أوقاتها المسنونة أي قبل الزوال ، وجاءت السيارة في وقت متأخر جدا ، ونظرا للزحام وسوء التنظيم على الطريق ، قطعنا المسافة - التي تقطع عادة في نصف ساعة - في ساعتين ، ووصلنا منى في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف .

كان قد بقي من مناسك الحج ثلاثة أشياء ضرورية :

رمي الجمار ، الهدي ، والحلق

نزلنا بسرعة من السيارة ، وانطلقنا لرمي الجمار حتى ننتهي منه قبل الزوال ، فاليوم نرمي " الجمرة " الثالثة (جمرة العقبة) لكن الازدحام كان شديدا ، ورميت سبع جمرات بشكل أو بآخر ، وأخذت أدعو الله أن يتقبل حجتي ، ورجعت .

من المشهور أن رمي الجمرات هو رمي للشيطان ، ولكن يبدو أنه لا أصل لهذا ، وقد كتب بعض العلماء أن هذه تذكرة لما حدث مع أصحاب الفيل ، حين نزلت عليهم من السماء حجارة من سجيل ، ولم أتمكن من بحث هذه النقطة .

على كل حال بعد الفراغ من (رمي الجمار) رجعت إلى حيث نقيم ، فقد كنت أشعر بالتعب ، تناولت الطعام ، وجاءنا مولانا عبد الله (من مئو – أعظم كره) بلحم الهدي ، وكان قد انتهى من الذبح ، فتمتعنا كثيرا بتناول هذا اللحم اللذيذ ، كنت قد تعودت على نوم القيلولة بعد تناول طعام الغداء لكني اليوم كنت في عجلة من أجل الهدي ، فلا بد للمتمتع (من يحل إحرامه بعد العمرة ثم يحرم في الثامن من ذي الحجة للحج) من تقديم هدي الشكر ، هذا بالإضافة إلى الأضحية السنوية . وهكذا عقدت العزم في هذا الحر الشديد ، فاتجهت صوب " المنحر " وكما أن ميدان عرفات كله " موقف " فإن منى كلها " منحر " أي يمكن الذبح في أي مكان ، لكن الحكومة قررت مكانا واحدا ، وذلك بالطبع من مستلزمات المحافظة على الصحة وهو من الضروريات الطبية ،

وفي المكان الذي خصصته الحكومة يمكن الحصول على الأضحية بسهولة ، كانت المسافة بعيدة إلى حد ما ، لكن الذوق والشوق زادا من همتي ، ووصلت المنحر في ظرف خمس دقائق ، واشتريت الأضحية ، ودعوت الله " بسم الله والله أكبر ، اللهم تقبل منا كما تقبلت من إبراهيم خليلك " قلت هذا وفرغت من هذا الفرض . . وفي الطريق انتهيت من الحلق أيضا ، لا أذكر أنني فعلت هذا إلا في زمان طفولتي ، وبعد العمرة عمدت إلى التقصير ، ورأيت أن الحلق بعد الحج مناسب ، لأن القيام بهذه السنة أفضل .

فرغنا الآن من مناسك " الحج " تقريبا ، بفضل من الله وكرمه وعنايته الواسعة ، ولم يتبق أمامنا غير طواف الإفاضة (وهو آخر وأهم أركان الحج) وسوف ننتهي منه إن شاء الله في المساء ، ولم نعد الآن ملتزمين بملابس الإحرام ، رجعنا إلى مقر إقامتنا ، لبسنا ملابس نظيفة ، والمسلمون في أنحاء العالم يصلون اليوم ركعتي عيد الأضحى ، وليس من السنة أن يصليهما الحاج ، فعيد الحجاج هو " مناسك الحج " هذه وقد غيرنا ملابسنا ، وشكرنا الله على حصولنا على هذه النعمة ، ودعونا الله من قلوبنا أن يتقبل منا هذه الفريضة .

كنا في عجلة لأداء طواف الإفاضة ، حتى نفرغ منه قبل غروب الشمس ، فهذا هو الأولى وهو المسنون ، وعند بعض الأئمة يكفي للمتمتع السعي مرة واحدة ، ويبدو أن هذا ما يرجحه الإمام ابن تيميه ، لكننا قررنا أن نسعى بين الصفا والمروة أيضا مع طواف الإفاضة ، ومسلكنا هذا مبني على الاحتياط ، وهو قريب من السنة ، وحقيقة العلم عند الله ، وهكذا خرجنا من محل إقامتنا

بنية الطواف والسعي ، وكانت المركبات بجميع أنواعها تذهب باستمرار من مركزها عند جمرة العقبة إلى مكة المكرمة ، ولم تكن أجرة الذهاب غالية ، وفي ظرف نصف ساعة كنا قد وصلنا إلى مكة ، في راحة تامة وهدوء .

اليوم تغير منظر المدينة كلية ، عما كان عليه قبلا ، فالمدينة التي كانت منذ يومين تبدو عامرة مزدحمة طوال أربع وعشرين ساعة ، بدت نائمة ، كانت المحلات مغلقة ، والبيوت مقفلة ، لم يكن هناك من يمشي في شوارعها سوى الحجاج القادمين للطواف ، بالإضافة إلى عدد قليل جدا من المارة ، هنا وهناك، ويمكن القول بأن سكان مكة جميعهم انتقلوا إلى منى ليومين أو ثلاثة .

وصلنا الحرم مباشرة ، لم يكن الزحام شديدا ، فطفنا ببيت الله باطمئنان وهدوء بال ، وانشراح صدر ، وكان الحرم يبدو خاليا من الناس ما عدا منطقة المطاف ، فلا يسمع اليوم صخب ولا ضجيج ممن اعتادوا على الوقوف على باب الحرم للحفاظ على الأحذية ، ولا أولئك الذين كانوا يسقون الناس ماء زمزم .

انتهينا من الطواف قبل غروب الشمس بوقت كاف ، ولكننا تأخرنا في السعي لأن الزحام كان شديدا ، بالإضافة إلى أن التعب قد غلب علينا ، على كل حال وفقنا الله إلى أداء هذا الفرض ، فشكرنا لله الذي وهبنا نعمة أداء مناسك الحج بخير وبطريقة جيدة .

رجعنا إلى منى ، وصلينا المغرب والعشاء حيث نقيم ، جمع تأخير ، أي صلينا المغرب والعشاء معا في وقت صلاة العشاء ، وهذا هو المسنون (أي

جمع تأخير) ولا يقول بعض الفقهاء بالجمع ، ولكننا ومنذ فترة طويلة اعتدنا على الاستفادة من هذه الرخصة في السفر ، وكان صدرنا منشرحا تماما من هذه الناحية .

الثلاثاء ١١ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٤ أكتوبر ١٩٤٩م

اليوم يلتقي جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بحجاج بيت الله في قصره ، أعلن معلمنا ذلك قائلا بأن على كل من يريد السلام على الملك أن يستعد ، وكان كاتب هذه السطور قد نال هذا الشرف في الرياض ، في الدعوة العامة التي يلتقي فيها الملك بالعلماء ، ولهذا لم أكن أرغب في مزاحمة الآخرين ، بالإضافة إلى أنني لم أكن بطبعي أميل إلى التكلف ، وقد أبقاني التعب في الصباح حيث نقيم ، وجاء عندي مولانا عبد الحميد حريري ، فأخذنا نتكلم معا لفترة طويلة ، بالعربية تارة وبالأردية تارة أخرى ، وبمزيج من اللغتين تارة ثالثة ، فشيخنا حريري يتكلم اللغة العربية في الهند أيضا ولا شك أن لهجته العربية تفوق جميع من يتكلم العربية في الهند ، وكان موضوع الحديث متنوعا وواسعا .

وجاءني سيد سليمان الندوي أيضا لفترة وجيزة وعندئذ جاء مولوي محمد ميان فاروقي لمقابلته ، وتحدث معي قليلا ، وكنت قد قابلته في بتنه وإله آباد[٢٨] ويعرف كل منا الآخر .

يجب رمي " الجمرات " الثلاث بعد الزوال ، وفي الغد أيضا ، ونحتاج بالضرورة إلى يومين ، وفي اليوم الثالث (يعني ١٣ من ذي الحجة) أيضا ،

فرمي الجمار من السنة وهو أفضل أيضا ، وكان العبد الفقير قد قرر قبل الحج أن يبقى حتى الثالث عشر من ذي الحجة ، مع أن أكثر الحجاج يرجعون في يوم الثاني عشر ، بعد انتهائهم من رمي الجمار بعد الزوال .

ذهبنا عند العصر " للرمي " كان الزحام أقل إذا ما قورن بزحام الأمس ، لكن الالتزام بالسنة هنا أيضا معدوم ، فبعد رمي الجمرة الأولى والثانية ، يأتي دور الدعاء والذكر لفترة ، وهذا من السنة ، وقد انشغل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذكر بتلاوة سورة البقرة ، وما عساي أذكر هنا تلاوة سورة البقرة، ولا يوجد هنا من يقوم بالذكر والدعاء لدقيقة واحدة فقط ، ولا أحد يستغفر الله لثوان معدودات فقط ، بينما يقوم بعض الجهلة بالتفوه بألفاظ بذيئة، وكلمات غير معقولة سبا وشتما ! ! انتقاما من الشيطان ، وتأديبا له ، على حد زعمهم .

ومن سوء الحظ أيضا أن اسم " الجمرات " على لسان أهل مكة صار يطلق على " الشيطان " وإذا أردت أن تتأكد من ذلك ، فما عليك إلا أن تسأل بعضهم :

– أين موقف السيارات المتوجهة إلى مكة ؟

سيأتيك الرد :

– عند الشيطان الأكبر .

كان من الصعب علينا الوقوف لفترة طويلة بسبب الزحام والغبار والتراب ، ومع هذا واتباعا للسنة ، أخذنا جانبا ، بعد أن انتهينا من رمي الجمرة الأولى والثانية ، ودعونا الله أن يغفر لنا ذنوبنا ، وأن يكفر عنا سيئاتنا ، ودعونا لوالدينا ولأحبائنا ، ولأصدقائنا .

ذهبنا إلى عبد الله بن سليمان المزروع ، وجلسنا معه لفترة في مجلس عبدالرحمن مظهر ، وهناك التقينا بالأديب الأستاذ احمد علي ، وهو رجل طيب فاهم ، يعرف الأردية أيضا ، اطلع على بعض كتبنا ، فقدمنا إليه المزيد من الكتب ، وأخبرنا عبد الرحمن مظهر أن مولانا عبد الوهاب الدهلوي يقيم قريبا منا ، وكان قد ذكر العبد الفقير ، وهكذا ذهبنا إلى مولانا عبد الوهاب بمساعدة خادم عبد الرحمن مظهر ، وهناك صلينا معا في جماعة ، وقد تحدثت اليوم مع مولوي عبد الوهاب بصراحة وبوضوح ، فالرجل صاحب علم غزير ، ويتصف بالاتزان والوقار ، كما أنه أيضا قليل الكلام .

على كل حال تحدثنا اليوم بالتفصيل عن الجماعة الإسلامية وعن مولانا المودودي ومولانا سندهي ، بالإضافة إلى موضوعات أخرى متنوعة ، وتحدثنا بصفة خاصة عن مولانا سندهي لأنه من تلامذته ، وهو أيضا من جماعة أهل الحديث ، طال الحديث ، وتناولنا معا طعام العشاء ، ورجعنا في تمام الساعة التاسعة .

الأربعاء ١٢ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٥ أكتوبر ١٩٤٩م

كان حجاج معسكرنا يستعدون للرحيل صباح اليوم ، وكان هذا هو الشغل

الشاغل للناس في منى ، و "رمي الجمار " بعد الزوال مسنون ، لكن المئات بل الآلاف كانوا قد رموا الجمرات في الصباح ، وهم الآن في طريق عودتهم إلى مكة المكرمة .

ليس هناك من يكبح جماح هذه الناقة ، كنا نشاهد هذا المنظر بصبر وشكر ، وكان فضل الحق (جمون - كشمير) ـ الذي عانى كثيرا ، نظرا لقيامه في المسجد ـ راجعا اليوم أيضا ، وقد انتبهنا فيما بعد لمسألة قيامه في المسجد ، وفكرنا في دعوته ليقيم معنا ، فالبيت سيخلو تماما اليوم ، وعبد الأحد (من سكان التبت) سوف يرجع غدا ، وهو متعاطف مع الجماعة ورجل طيب ، أقام في إمرتسر [٢٩] عدة أيام ، وهناك تأثر بالدعوة ، ويقيم في مكة منذ سنتين ، جاء معه رجل آخر من جماعة أهل الحديث ، وأثار مسألة اللحية ، وبعض المسائل الأخرى ، وفي النهاية تواعدنا على أن نتحدث بالتفصيل في المدينة المنورة ، فهو يقيم في المدينة المنورة ، وسررنا كثيرا لأن " شرقي " سيبقى مع قافلته كلها ، وهو الوحيد الذي سيبقى من بين جميع أصدقائنا .

بعد الزوال بل قبيل العصر ذهبنا لرمي الجمار ، كان الزحام قليلا ، وقمنا اليوم بأداء هذه السنة بهدوء وسكينة ، ووجدنا اليوم الفرصة متاحة للدعاء والاستغفار باطمئنان ، لكن قواي بدأت تخور ، فقد عانيت كل هذه المشقة ، وكل هذا التعب ، والحركة ، وحرارة الشمس بحماس شديد ، لكن رد الفعل بدأ يظهر عليّ ، أدعو الله أن يشملنا بحفظه ورعايته .

الخميس ١٣ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٦ أكتوبر ١٩٤٩م

صارت منى قفرا منذ مساء أمس ، ومساء اليوم سيغادر ما تبقى من الناس ، أخذت الخيام تُقلع بسرعة ، وتُفك أطنابها ، وتُخلع أوتادها ، بينما المحلات تُغلق ، ويغادر أصحابها ، كان معنا في مقر إقامتنا ثلاثة أو أربعة من الحجاج ، كما جاء إلينا عالم من ديره إسماعيل خان (باكستان) وهو خطيب مسجد هناك ، أعطيناه بعض كتبنا ليقرأها ، ويبدو أنه ديوبندي ، ويميل إلى حزب المؤتمر .

طوينا فرشناوبساطنا ، وانتهينا من رمي الجمار بعد الزوال ، حيث لم يكن هناك زحام ، فقد بقي عدد قليل من الناس لرمي الجمار في اليوم الثالث ، ومعظمهم أيضا قام بهذه المهمة قبل الزوال ، ورجع إلى مكة .

جاءت العربة متأخرة قليلا مما عكر مزاجنا ، وكان ممن رافقنا في العربة عبد الصمد شرف الدين (تاجر الكتب العربية في بمباي) كانت تربطنا معرفة سابقة ، وكانت بيننا مراسلات ومكاتبات ، لكننا لم نتقابل من قبل على الإطلاق ، ولم ير أحدنا الآخر من قبل .

ظل عاصم يخبرني بوجود شخص في الطابق العلوي يتكلم العربية بطريقة أفضل من طريقة المولوية الهنود [٣٠] فقلت هيا بنا نتعرف على هذا الشخص ، ونتحدث معه ، لكن عاصما لم يجد فرصة لذلك ، وحين ركبنا العربة في طريق عودتنا إلى مكة ، تعرفنا على بعضنا على الفور ، وأخذنا نتحدث معا طوال الطريق ، كان قد طبع كتاب ابن تيميه " الرد على المنطقيين " وجاء به معه ، وقد مد له الملك عبد العزيز آل سعود يد العون لطباعة هذا الكتاب ، وإلا فمن

وجهة النظر التجارية ، من المستحيل طباعة مثل هذه الكتب العلمية في الهند ، وكان أستاذي المحترم مولانا سيد سليمان الندوي قد كتب مقدمة مختصرة للكتاب ، لكنها مفيدة ، ومن حسن الحظ أن الرجل كان يقيم بالقرب من " دار الحديث " منزل الشيخ أبي السمح .

الحمد لله . . فرغنا من الحج ، وأنعم الله علينا بالصحة أيضا ، فهذا فضل وكرم من الله تعالى ، لكن للصحة أصولها ، فقد كان من الصعب على العبد الفقير أن يتحمل الحركة والنشاط ، وسط حرارة الشمس الحارقة ، أثناء أداء المنسك ، بالإضافة إلى الإهمال أحيانا ، وعدم أخذ الحيطة والحذر ، في الطعام والشراب خلال الأسابيع الماضية ، لم أشعر بضعف أو تعب في أيام التشريق نظرا لمشاعر الشوق والعاطفة الجياشة بداخلي ، ولكن بعد عودتي ، وفي مكة المكرمة ، بل وقبل وصولي ، وأثناء الطريق تعرضت لنوبة من الكحة الشديدة ، وأصابتني نزلة برد شديدة ، ووصلت إلى البيت بعد أن نزلت من السيارة ، بصعوبة شديدة ، وبينما انشغل عاصم بترتيب الغرفة ، وتجهيز الماء وما إلى ذلك ، ظل العبد الفقير يتأوه ويتأوه ، وقضيت الليل أعاني من ألم شديد ، ورغم كل هذا كان القلب عامرا بعواطف الشكر ، وأخذت أفكر لو داهمني هذا المرض أثناء الحج فماذا عساي كنت أفعل ؟! وكلما طرأت هذه الفكرة على بالي ، امتلأ قلبي بعواطف الشكر ، وقلت آلام الكحة ، فشكرا لله الذي وفقني إلى شكره وامتنانه ، فهو مالك كل شيء ، يفعل ما يشاء ، خلقنا ، وإليه المصير ، فعلام الشكوى إذن ؟!

الجمعة ١٤ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٧ أكتوبر ١٩٤٩م

طلع الفجر بعد ليل طويل ، واستمر الألم يلازمني ، استعملت اللوز والشاي كالعادة ، لكن الألم ظل كما هو ، وذهب عاصم - وفقه الله - ليحضر الدواء من أخي المحترم الدكتور سيد زين العابدين الندوي ،لكن عيادته قريبة من الحرم ، ويقيم هو نفسه بعيدا عن الحرم ، في المدرسة الصولتية ،ولهذا فيمكن الحصول على الدواء الأصلي من العيادة في المساء ، ولهذا فقد أعطى عاصم في الغالب بعض الحبوب المسكنة .

اليوم الجمعة والعبد الفقير لا يزال طريح الفراش ، من جراء النزلة والكحة ، وكان الحرم يعج اليوم بالمصليين الذين نالوا بركات الحج ، أكثر من مائتين وخمسين ألف حاج وقفوا على عرفات ، وسيصل عدد المصلين اليوم بالحرم إلى حوالي مائة ألف مسلم ، وسوف يضطر الآلاف من عباد الله إلى أداء الصلاة في هذا الحر الشديد ، تحت أشعة الشمس ، ويعانون صعوبة المشي على الحصى والأحجار الحارقة (فحر مكة في أكتوبر حر شديد كاللهب) لأداء الصلاة ، وكم من هؤلاء الناس اضطر إلى انتظار الصلاة عدة ساعات في الحر الشديد . . . الله أكبر كل هذا والعبد الفقير ، راقد على السرير ، يتأذى ، ويتحسر على آلام المصليين ، لكن كيف حال عباد الله الآخرين الذين يمضون في أيام الحر الشديد هذه في شوارع مكة الصخرية ، يصيبهم الأذى ، يتحملون المشقة ، في سبيل ذكر الله وشكره ، حين تلقي بنظرة أحيانا على الجبال القريبة من الحرم ، ويأتي إلى الذهن تصور حرارة شهري يوليو وأغسطس ، يقشعر البدن ، ويرتعد القلب ، حين نتذكر سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد

سار على الطريق من مكة إلى الطائف ، طريق صخري ، دروبه ضيقة متعرجة ، سبحان الله كانوا أناسا ، ونحن أناس ، فنحن نتضجر لأنه لا يوجد نظام معقول لوضع مظلات هنا أو هناك !!

والخلاصة أن كاتب السطور ظل راقدا في غرفته وقت صلاة الجمعة ، تتجاذبه الأفكار المتضاربة ، وتدور رأسه بأمور مختلفة ، بينما تعاوده الكحة بين حين وآخر ، فتقطع عليه سلسلة أفكاره .

بعد العودة من منى كنت في غاية الشوق للقاء رجلين اثنين : سيد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأعظم ، والأديب المصري المسلم ، سفير مصر بالمملكة العربية السعودية الدكتور عبد الوهاب عزام ، فقد تعارفنا غيابيا ، وتبادلنا الرسائل والخطابات ، فقد كنت أخشى أن يعود هؤلاء بسرعة ، فلا أتمكن من لقائهم ، وبينما كنت أعاني من حالة المرض تلك ، أرسلت عاصما إلى المفتي ، وبفضل من الله نجح في مهمته وعاد فرحا مسرورا ، فقد ترك حسن خلق المفتي أثرا طيبا على عاصم ، وكنت قد طلبت من عاصم أن يبلغه السلام ، وأن يخبره بأن العبد الفقير ، يعتذر عن الحضور فورا للقائه نظرا لمرضه ، وقد تقرر أيضا أن يتم اللقاء صباح يوم الأحد ، فأنا عاجز اليوم تماما عن الحركة ، أعانني الله ، فإذا ما تحسنت حالتي قليلا ، فسوف أذهب حسب الموعد للقاء المفتي .

جاءني الدواء بعد المغرب، وسميت الله وتناولت الدواء ، فهذه هي الحيلة والوسيلة الظاهرة ، أما الشفاء الحقيقي فهو بيد الله .

السبت ١٥ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٨ أكتوبر ١٩٤٩م

بقيت طريح الفراش طوال اليوم ، أتناول الدواء بانتظام ، لكن شدة السعال لا يمكن أن تخف على الفور ، مع وجود النزلة .

قدم لزيارتي بعض الأصدقاء والمعارف ، فكنت أتحدث إليهم مستندا على الوسادة ، ومن الصدف العجيبة أننا كنا قد حددنا اجتماعا للأعضاء والمتعاطفين معنا من الأصدقاء ، ففي حج هذا العام يوجد عدد لا بأس به من الأعضاء والمتعاطفين ، فإذا شعروا – وبخاصة الأعضاء – بواجباتهم ، فسيكون هذا أمرا عظيما يخدم الدعوة ، لكن سوء الوضع وصل إلى درجة أن بعض الأعضاء لم يأت حتى ليأخذ كتابا أو مطبوعة ، ويختلقون فيما بينهم أحاديث خاصة ، ويجعلون من سيرة المودودي مادة لأحاديثهم ، ويبدو أنهم نسوا أمر الدعوة وتبليغ الدين ، فما هو مفهوم الانتماء لدى هؤلاء ؟!

لقد تأثر بعض الحجاج بالدعوة ، وتأثر أيضا بعض المهاجرين المقيمين هنا إلى حد ما ، وكنا قد وجهنا الدعوة إليهم للاشتراك في هذا الاجتماع أيضا ، والحمد لله فقد حضر معظمهم في الموعد المحدد ، بينما كنت طريح الفراش ، وقد أصيب بالمرض أيضا الصديق الرامبوري المتعاطف معنا ، بالإضافة إلى سيد أمجد علي أكثر المتعاونين معنا نشاطا ، ولهذا كان الاجتماع غير مجد ، ورغم ذلك فقد نبه العبد لله جميع الحاضرين إلى أداء واجبهم ، وطلبت من عبدالأحد أن يحاول نشر الدعوة في مكة المكرمة على قدر استطاعته ، ولا عذر لهؤلاء ، لكن كلا منهم يمتلك صلاحيات محدودة وكفاءة بسيطة ، ورغم هذا

فيمكنهم العمل طبقا لإمكانياتهم ، فأهم شيء بالنسبة لمكة المكرمة وبقية المدن التي يتكلم أهلها اللغة العربية ، هو المقدرة على التحدث بالعربية ، أما القدرات الأخرى فهي أمور ثانوية تماما ، كما أنه بمناسبة موسم الحج يمكن لكل منهم أن يؤدي خدمة خاصة إلى حجاج بلده ووطنه ، فالقلب لا يخلو عادة من التعصب الوطني أو القومي ، ولكن من الضروري للعاملين في حقل الدعوة أن تكون لديهم مقدرة على التحدث بالعربية .

الأحد ١٦ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٩ أكتوبر ١٩٤٩م

استيقظت في الصباح وأنا أفكر في لقاء المفتي الأعظم ، لم يكن الفندق المصري يبعد كثيرا عن مسكننا ، ولكن المشي حتى هناك يبدو بالنسبة لي صعبا ، مع السعال الشديد والضعف الذي أصابني ، وفي النهاية ركبت عربة يجرها حصان ، تسمى هنا (عربية) ووصلت إلى (لوكاندة مصر) كان الطريق جيدا وظهر منظر (اللوكاندة) من بعيد ، كان معظم الناس هناك من المصريين ، أخبروا المفتي بقدومي ، فحضر بعد مدة بسيطة ، وعانقني بحرارة شديدة ، واستقبلني بحب وشفقة ، ثم سألني عن الحال والأحوال ، وقدمني لمن كانوا معه ، بينما كان القارئ المصري الشيخ محمد سعيد يتلو القرآن الكريم ، فاستفدنا مع المفتي أيضا غذاء روحيا ، كانت التلاوة بسيطة ، ومؤثرة ، فالمصريون يجيدون تلاوة القرآن الكريم ، وللمصريين أيضا ذوقهم الخاص في سماع القرآن الكريم .

بعد التلاوة جلسنا في حجرة الاجتماعات ، حيث جاء بعض مرافقي المفتي وخدمه ، وجلست بالقرب منه ، وبدأ الحديث الذي دار في معظمه عن باكستان ، وبهذه المناسبة شرحت له منهجنا في الدعوة ، وقدمت له بعض مطبوعاتنا ، وقال المفتي بعد أن سمع كلام العبد الفقير :

- إن تشودري خليق الزمان يدعو أيضا إلى الحكومة الإسلامية .

فأصابني الذهول لدقيقة ، ثم تمالكت نفسي وقلت :

- نعم ولكن مفهومه للإسلام والحكومة الإسلامية محل نظر ! !

وحاولت أن أوضح الأمر بطريقة لطيفة ، إلا أن المفتي الأعظم قال :

- يا أخي لقد رأيناه هنا يصلي .

وهكذا استمر الحديث على هذا النحو ، ثم تغيرت دفته إلى فلسطين ، فبدأ يقول بحسرة شديدة :

- إن فلسطين جزء من القضية ، قضية المسلمين جميعا والبلاد الإسلامية، فلسطين هي القضية .

ثم أوضح بعد ذلك من الأمور ما أصابني بالألم والأسى ، وهي أمور لا يمكن أن أكتبها هنا ، كما ألقى الضوء على محاسن الإخوان المسلمين ، وتحدث عن التحقيقات التي تجري الآن معهم ، وما يتعرضون له من تعسف ، فأزال عني الشكوك التي كانت بداخلي ، واطمأن قلبي لما ذكره لي .

كان الضعف قد بلغ مني مبلغه بعد حديث استمر ساعة ، فاستأذنت في أدب ورجعت من حيث أتيت .

لقد رأيت في الدنيا أشكالا وأنواعا من الناس ، الكبير والصغير ، العالم والجاهل ، الغني والفقير ، ولكني لم أر إنسانا في مثل خلقه وتواضعه ، فعندنا المولوية ، وعندنا القادة ، إذا ما ذكر اسم واحد منهم في الصحف ، تراهم وقد طاروا في أعلى عليين ، وإذا مشوا على الأرض يمشون الخيلاء ، لكن هذا الرجل يعد مثالا للأخلاق الحسنة ، وبالإضافة إلى كماله وفضله ، فهو يمتلك جميع متع الحياة من جاه وحشم ، ورغم ذلك يلتقي بكل إنسان في الفندق ، ويقابل أقل عامل فيه فيبتسم إليه في تواضع ومحبة ، وقد وصل حب الناس له إلى حد أن بعض الناس ينظرون إليه ويتطلعون إليه في سرور عظيم ، يلقون إليه بالتحية والسلام ، فقد وهبه الله بالإضافة إلى صفاته الطيبة وسامة وحسنا في الشكل والصورة .

رجعت بعد لقائي بالمفتي ، وزادت حدة السعال ثانية وشعرت بضعف شديد ووهن كبير ، وانتشر خبر مرضي وشاع ، فحضر لعيادتي بطريقة غير متوقعة ، شقيق الشيخ أبي السمح (خطيب الحرم) الشيخ عبد المهيمن ، وأبلغني سلام الشيخ " أبي السمح " فجزاهما عني خير الجزاء ، فهما رجلان صالحان ، ووجودهما في مكة غنيمة لا تقدر ، والتمتع بالصلاة الجهرية ، إنما يكون خلف الشيخ أبي السمح ، فرغم أنه يبدو ضعيفا نحيفا ، لكني لا أدري من أين تأتيه هذه القوة في وقت الصلاة ، كما أن طريقته في القراءة ، التي تتميز بالمد والجزر ، تجذب القلوب ، وتؤثر في الأرواح ، كما حضر فجأة أيضا

صديق بغداد محمد الخطيب الدمشقي ، وكان قد جاء بوالدته وخاله للحج ، ووصل قبل عدة أيام ، والتقي صدفة اليوم بعاصم أثناء الصلاة ، وحين سمع بخبر مرضي ، جاء مع الشيخ عبد المهيمن ، وكان هذا أول معرفته بالشيخ عبد المهيمن .

كما حضر اليوم أيضا صديق الرياض ومضيفنا حسن الشنقيطي ، بعد غياب طويل ، ورغم البحث والتقصي في منى وعرفات ، لم نتمكن من لقائه ، وقد أشكل عليه كثيرا أمر البحث عن مقر إقامتنا ، وهو رجل مخلص طيب العشرة ، لم أستطع أن أتحدث معه جيدا نظرا لمرضي وضعفي الشديد .

وفي الليل جاء مولانا محمد منظور النعماني لعيادتي ، وبعض أصدقاء الندوة ، ودار الحديث عن الجماعة الإسلامية وعن باكستان وعن التصوف ، وقد عبرت عن رأيي بصوت منخفض ، فيما يتعلق برحلة الحج لمولانا أبي الحسن الندوي [٣١] وأسلوب بيانه العاطفي ، وكذا بعض البدع ، وقد وعد مولانا بأن نتحدث في هدوء عن التصوف ، أما فيما يتعلق بالشوق والذوق والعشق فهو لا يقل في ذلك عن الشيخ أبي الحسن الندوي ، وأنا أعترف بحبي للصديقين العزيزين ، وأعترف بمكانتهما العلمية ، ورغم أني أغبطهما على عاطفتها الجياشة وشوقهما وذوقهما إلا أنني لا أتساهل أبدا فيما يتعلق بالبدع ، والأمر الصعب هو أن العشق نفسه يؤدي إلى البدعة ، فالمضي على العشق ، وطريق السنة يحتاج إلى همة عالية ، وكان مولانا محمد علي قد قال عن هذا الصراع النفسي (أي الباطني) أن العشق نفسه بدعة ، وأنه مصدر مئات البدع ، وربما أشار الشاعر إلى هذا الصراع النفسي بقوله [٣٢] :

در كفى جام شريعت   دركفـى سندان عشق

هر هوس تا كه ندانـد   جام وسندان باختــن

في كف كأس الشريعة ، وفي كف سندان العشــق ، وكل من في طبعه هوس العشق ، لا يعرف اللعب بالكأس والسندان .

الاثنين ١٧ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٠ أكتوبر ١٩٤٩م

ذهب عاصم في الصباح إلى فندق التيسير للقاء الشيخ محمد حامد الفقي ، الذي كان يقيم هناك ضيفا على الحكومة ، والشيخ الفقي هو المشرف على جمعية نصرة السنة المحمدية في مصر ، بل هو الآمر والناهي فيها ، وهو مثل بعض أهل الحديث عندنا ، يتخذ موقفا صلبا ، وجريئا فيما يتعلق بالقبور ومجالس التعزية والنذور ، وما شابه ذلك من قضايا ، وعلى كل حال فهو علم من أعلام " الدعوة " وهو يتلقى دعما ماديا معتبرا من بلاط جلالة الملك عبد العزيز .

أهداه عاصم مطبوعاتنا ، واعتذر له عن عدم زيارتي له بسبب مرضي ، وحين عرف الرجل ذلك وعد بالمجيء إليّ بنفسه ، والتقى عاصم في نفس الفندق بالشيخ عبد المجيد سليم " وهو عالم أزهري مشهور ، وكان المفتي الأكبر في مصر من قبل ، وأهداه كتبنا أيضا .

جاء الشنقيطي ، وجلس معنا لفترة طويلة ، وظل الزوار يتلاحقون ، وتحسنت حالة العبد لله بفضل رعاية الأصدقاء والأحباء ودعائهم .

ذهب رفيقنا فضل الحق (جمون - كشمير) إلى جدة ، أثبت أنه رجل بسيط جدا ، كادح ، وشجاع ، تنقل بين بلاد كثيرة ، ورغم معرفته البسيطة باللغة العربية إلا أنه عرف عددا كبيرا من الناس بالدعوة ، فإذا وجدت الهمة ، وإذا وجد الإخلاص ، فإن العوائق - مهما كانت - تزول مهما كانت .

شعرت بتحسن في المساء ، فواتتني الهمة للذهاب إلى الحرم ، وصليت المغرب هناك ، وبالصدفة مر بالقرب مني محمد حامد الفقي ، فالتقى به عاصم وأشار ناحيتي ، فقمت والتقيت به ، وذهبت معه إلى منزل الشيخ عبد الله بن حسن (قاضي قضاة المملكة العربية السعودية) الملاصق للحرم ، وهناك تبادلنا الأحاديث لفترة طويلة ، وناقشنا أيضا موضوع " الاشتراكية " فقد كان الفقي يريد كتبا عن الاشتراكية ، ووعدت بأن أرسلها إليه ، كما وعدته أيضا بإرسال نسخة من " الدستور " غدا ، فقال :

- إنني أكتب ضد الاشتراكية ، لكن المعارضين يقولون بأنني لا أعرف شيئا عن الاشتراكية ، ولذلك أعارض ، فإذا ما وجدت بعض كتبهم ، أشرت إليها واستشهدت بها ، و مثل هذه الكتب ممنوع بيعها في مصر .

فسألته :

- هل تعرف الإنجليزية ؟

فقال :

- لا لكن ابني يعرفها ، وسوف يقرأ ويترجم لي .

تحدث في هذا المجلس أيضا نجل قاضي القضاة عبد العزيز بن عبد الله بن حسن حديثا شيقا ، وهو يدرس الآن في الأزهر الشريف ، وقد أُسند إليه واجب إلقاء خطبة يوم عرفة في مسجد نمرة ، وقد أثبت أنه شاب موزون وعاقل وعلى دراية بالأمور ، سألني :

- كيف وجدت الرياض ؟ أود أن أعرف رأيك في مدينتي ؟

فقلت :

- هل تريد مدحا وثناء أم تريد رأيا صريحا وتقريرا عن رحلتي . ؟

كما سألني الفقي السؤال نفسه أيضا ، وتحدثت بصراحة فذكرت رأيي وعبرت عن مشاعري بصراحة ، وظل الاثنان يستمعان إليّ بكل اهتمام وبجدية .

طال مجلسنا رغما عنا ، وغلب الضعف عليّ ، وكنت أخشى أن تعاودني الكحة في أي لحظة ، فاعتذرت ، واستأذنت عائدا إلى مسكني .

الثلاثاء ١٨ ذو الحجة ٦٨ هجرية ١١ أكتوبر ١٩٤٩م

قضيت الليل متوعكا ، لا بد أن هذا من تأثير تعب الأمس ، لا أزال أستعمل دواء زين العابدين ، وتتحقق به الفائدة ، لكن قلة الراحة ، تحول دون الشفاء الكامل .

كنت أقوم بأداء واجب الدعوة قبل الحج بكل طاقتي ، لكن هذا العمل توقف الآن ، مع أن هذا هو الوقت المناسب للتعارف والتحدث مع الناس ،

فقبل الحج يكون الجميع قلقين ، غير مطمئنين، بينما بعد أداء الحج ، ينزاح عن كاهلهم عبء ثقيل ، عندئذ يكون وقت الحصول على " المنافع " وأي شيء أعظم " منفعة " لهذه الفريضة المقدسة من تبليغ " دعوة الحق " لكن للأسف وقف مرضي حجر عثرة في سبيل استكمال هذه الخطط .

والمصيبة الثانية أنه لم يكن هناك صبر فالزوار كانوا يأتون عندي ، وأنا على هذه الحال ، فيدور الحديث أيضا دون توقف ، كما اضطررت أيضا في بعض الأحيان إلى الخروج من البيت للقاء البعض منهم ، ثم أعود بعد كل هذا النشاط ليلا منهك القوى ، فأنال جزاء ما فعلت ، فليرحمني الله .

جاءني في الصباح مع الشنقيطي أديب شاعر من المدينة المنورة ، يدعى ماجد أسعد ، وهو من خواص أصدقاء الشنقيطي ، وكنت قد التقيت في الرياض باثنين من المدينة المنورة ، وهما على شاكلته ، ويحملان نفس فكره ، ودار الحديث عن موضوعات متنوعة ومختلفة ، وقدمت بعض المطبوعات ، وورد ذكر الشاعر محمد إقبال أثناء الحديث ، وذكرنا أيضا الدكتور عبد الوهاب عزام[٣٣] عندئذ قال ماجد أسعد :

– الدكتور عبد الوهاب عزام قريب من هنا ، يقيم في " لوكاندة مصر " ولا بد أن يكون مشغولا لأنه " أمير الحج المصري " لنذهب إليه وإن لم نجده تركنا له بطاقاتنا .

ورغم ضعفي ، تهيأت للذهاب ، وهذه نقطة ضعف طبيعية في العبد لله ، فإذا اشتد المرض ، رقدت أتأوه وأتضجر ، فإذا ما أفقت قليلا ، لا أفكر أبدا في

المرض ، ولم أكد أتهيأ للذهاب إلى الدكتور عبد الوهاب عزام حتى جاء عبدالله المزروع حاملا رسالة للقاء الأمير مساعد بن عبد الرحمن ، والأمير مساعد هو الأخ الأصغر للسلطان ابن سعود أقصد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وهو يمتاز بحبه للعلم وتذوقه للأدب ، ومكتبته في الرياض مشهورة ومعروفة (٣٤) ومجلسه عامر بالمثقفين والعلماء على الدوام ، وتقرر أن ألقاه صباح الغد .

استأذن عبد الله المزروع ، ووصلنا نحن إلى " لوكانده مصر " كان هناك زحام شديد على غرفة عبد الوهاب عزام ، كانوا حجاجا من مصر ، يحاول كل واحد منهم جاهدا أن يسبق الآخر في الذهاب إلى المدينة المنورة ، ورغم انشغال عزام الشديد إلا أنه طلبني على الفور بعد أن رأى بطاقتي .

رحب بي بخلق حسن وبحرارة شديدة ، وعرفني على رفاقه ، ثم قال :

- لقد سمعت بخبر قدومكم ، وبحثت عنكم في منى أيضا ، لكني لم أستطع معرفة العنوان .

قدمت له مطبوعاتنا فقال :

- لقد وصلتني هذه الكتب بالأردية وإن شاء الله سأقرأ هذه الكتب أيضا .

طلبت الإذن بعد أن رأيت مشاغله الكثيرة ، وطلبت منه أن نلتقي فيما بعد لنتحدث بالتفصيل ، ولم أكد أتأهب للذهاب حتى سألني عن سيد سليمان

الندوي ، وأظهر عن رغبته في لقائه ، وفي النهاية اتفقنا على أن أحضر إليه بعد العصر لنذهب معا إلى رباط بهوبال ، حيث يقيم سيد سليمان الندوي .

وصلت إلى مقر إقامتي منهكا ، في غاية التعب والضعف ، وأرسلت عاصما إلى سيد سليمان الندوي حتى يطلعه على موعد زيارة الدكتور عبد الوهاب عزام .

والدكتور عبد الوهاب عزام رجل لا مثيل له في مصر ، صاحب أسلوب متميز في الكتابة ، وهو أديب ومؤلف ، يعشق الأدب الفارسي ، وعلاوة على ذلك يعشق إقبالا ، بل هو الإنسان الذي يفهم إقبالا ، ورسالة إقبال ليس في مصر فقط بل في العالم العربي كله ، يجيد اللغة التركية ويتعلم الأردية الآن ، كانت بيننا مراسلات ومكاتبات منذ فترة طويلة ، وقد وصلته مطبوعات الجماعة الإسلامية منذ عدة سنوات ، وبالإضافة إلى ذلك فهو رجل على خلق طيب ، وهو إنسان ممتاز ، وبالإضافة إلى فضائله العلمية وكمالاته يتمتع بجاه وعز دنيوي ، ويتقلد هذه الأيام منصب سفير مصر في المملكة العربية السعودية ، وهو في الغالب ابن عم المرحوم عبد الرحمن عزام ، وقد نسيت أن أسأله عن ذلك .

على كل حال قضيت وقت الظهر بشكل أو بآخر ، ووصلت بعد العصر إلى " لوكاندة مصر " ومن هناك أخذت الدكتور عبد الوهاب عزام إلى سيد سليمان الندوي ، وكانت صحبة طيبة استمرت ساعة كاملة ، تحدثنا خلالها عن ترجمة مؤلفات سيد سليمان الندوي إلى العربية ، فقال عزام :

- مسعود يمكن أن يقوم بهذا العمل .

فتطلع الأستاذ المحترم ناحيتي وقال مبتسما :

- ... إنه مشغول اليوم بعمل آخر ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

فقلت :

- من بين تلاميذ الأستاذ من هم أفضل مني، ولهم قدرة كاملة على الترجمة .

وكنت أشير بذلك إلى الصديق العزيز محمد ناظم الندوي .

وعندئذ أخرج سيد سليمان الندوي الترجمة العربية لـ " خطبات مدراس " وأراها لعزام ، وفرح الدكتور عزام فرحا شديدا ووعد بأن يرتب طباعتها في مصر تحت إشرافه وكانت هذه ترجمة محمد ناظم الندوي [٣٥] ومع أنني لم أستطع رؤيتها لكن يكفي وجود اسم محمد ناظم عليها دليلا على أن الترجمة جيدة .

كانت صحبة طيبة وممتعة ، لكن وقت المغرب حان ، ولهذا طلبنا الإذن بالانصراف ، وركب عزام السيارة متجها إلى الفندق ، ورجعت إلى مقر إقامتنا، وكان عاصم قد ذهب منذ الصباح لقضاء بعض الأعمال ، ولهذا لم يستطع أن يرافقني ، وإلا فأتمنى أن يكون معي في مثل هذه الاجتماعات ، فسماع اللغة له أثر كبير على الكلام .

استمر نشاطي طوال اليوم أيضا ، بين التنقل في لهيب الحر ، واللقاءات هنا وهناك ، ولهذا عاودتني الكحة الشديدة طوال الليل ، ولم أستطع النوم ولو لدقيقة واحدة ، أدعو الله أن يشملني بفضله ورعايته .

الأربعاء ١٩ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٢ أكتوبر ١٩٤٩م

قضيت الليل أتململ ، وازددت ضعفا على ضعف ، وبلغ مني الوهن مبلغا كبيرا ، ومع ذلك استمرت اللقاءات دون توقف ، فقد كنت على موعد للقاء الأمير مساعد بن عبد الرحمن .

أخذت الدواء ، كالمعتاد ، في الصباح الباكر ، واستعملت اللوز ، وتناولت الشاي الساخن ، فشعرت بالراحة ، ونلت قسطا من الهدوء في الصباح .

وصل عبد الله المزروع في الوقت المحدد ، ومن حسن الحظ أن مقر إقامة الأمير مساعد قريب منا ، قابلني بتواضع شديد وخلق طيب ، وبعد الاستفسار عن أحوالي ، بدأ يطلع على "معضلات الاقتصاد"[٣٦] (المسألة الاقتصادية للإنسان والحل الإسلامي) ودار الحديث عن الاشتراكية لساعة ، فقد ظن خطأ أننا نميل إلى الاشتراكية ، وحين أكدت له عكس ذلك ، وألقيت الضوء على فلسفتها وأصولها ، تبدل الموقف ، وأخذ هو بنفسه يذكر بعض جوانب الاشتراكية ، ويعارضني على طول الخط ! وعلى كل حال دار الحديث بجدية كاملة ، ومعقولية واتزان ، وقد تحمل الأمير بصدر رحب ، كلام العبد الفقير ، وقد حضر الجلسة شقيقه الأمير سعد بن عبد الرحمن ، وكان معنا أيضا حسن

الشنقيطي ، وماجد أسعد بالإضافة إلى مرتب اللقاء عبد الله المزروع ، وقد عمهم السرور بفضل مناقشتي مع الأمير ، وعند عودتي سألني الشنقيطي وماجد أسعد عن الأمير فقلت : وجدناه كما سمعنا ، وهو رجل عاقل يفهم الأمور ، ويزن كل شيء بميزان العقل ، وهو واسع الاطلاع ، والشباب هنا يرغبون في أن يصبح وزيرا للتعليم ، والأمير نفسه يرغب في هذا (٣٧) .

تحدثت اليوم مع صديق من المدينة حديثا صريحا ، كان قد قرأ كتاب " الدين القيم " فقال حين سمع عن اعتقال المودودي :

- إن هذه الرسالة أي " منهاج الانقلاب الإسلامي " تعبر بذاتها وتعلن بأن كاتبها في السجن ، وهذا أمر طبيعي .

وهو شاب ذكي للغاية ، لديه معرفة ببواطن الأمور .

التقينا بعد المغرب ، وبطريقة غير متوقعة بالشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع " مدير المعارف " أعلى منصب في هيئة التعليم ، كان اللقاء برفقة حسن الشنقيطي ، والشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع رجل طاعن في السن ، وهو في غاية التواضع ، درس دراسة جيدة ، على الطريقة القديمة ، ورغم أنه من أهل نجد إلا أنه قضى سنوات تعليمه في العراق والبحرين وغيرهما ، ذكر باستفاضة علماء أهل الحديث في الهند و مؤلفات حسن خان صديق وخدماته العلمية .

يعد ابن مانع أعلى مسئول تعليمي في المملكة كلها ، ويذكر أن جميع موظفي المعارف يفدون إلى الحج من جميع أنحاء المملكة قريبها وبعيدها ، ولهذا فزواره كثر ، ورغم أن أصدقاءنا قد حددوا لنا موعدا من قبل ، إلا أننا لم نتمكن من التحدث معه في هدوء وسكينة ، بسبب كثرة المترددين عليه .

رجعت إلى البيت عند العشاء تقريبا ، سألني الشنقيطي ونحن في طريق العودة ، عن رأيي ، فقلت له باحتياط وجدية :

- رجل ذو علم واسع ، وهو صاحب فهم ومعقول .

وقد أعطيت الشيخ كتبنا المطبوعة ، مما أقلق عاصما إلى درجة كبيرة، فأخذ يقول : ما فائدة إعطاء الكتب لمثل هؤلاء الناس الطاعنين في السن ؟

وكلامه صحيح ، لكن وصول الكتب إلى هؤلاء العلماء أمر طيب .

الخميس ٢٠ ذو الحجة ١٨ هجرية / ١٣ أكتوبر ١٩٤٩م

عاودتني الكحة ، واشتد السعال ، وفكرت أكثر من مرة أن أستريح تماما ليومين أو ثلاثة أيام ، لكني لم أستطع أن أتغلب على ما جبلت عليه ، وأخذت أفكر : متى تواتيني هذه الفرصة ؟

كان أمجد أسعد والشنقيطي يأتيان لزيارتي يوميا بل كانا يأتيان عدة مرات في اليوم الواحد فيسريان عني ، ويخففان من عناء مرضي .

زارني اليوم عبد الصمد شرف الدين (من بمباي) وأبلغني سلام الشيخ " أبي السمح " واعتذاره لعدم عيادته لي ، فكيف يتيسر للمسكين أن يصعد الطابق الرابع ؟

وكان اعتذاره هذا من طيبته وحسن أخلاقه ، وتواضعه الشديد .

استمرت حالتي على ما هي عليه ، تعاودني الكحة ، ويشتد السعال ، فأصر عاصم على أن أذهب بأي شكل إلى الدكتور زين العابدين ، فالبقاء على هذا الحال ليس فيه علاج لمرضي ، والدكتور زين العابدين يعمل في عيادة بالقرب من الحرم ، أمام باب الزيارة ، فسميت الله ، وعقدت العزم على ذلك ، صلينا المغرب في الحرم ، وذهبنا إلى الدكتور زين العابدين ، وبينما كنا ذاهبين إلى عيادة الدكتور زين العابدين سمعت خطيبا يجلجل بالأردية ، فنظرت فإذا به مولانا " إسماعيل " (من كوجرانواله) يخطب في الناس ، لم يكن هناك حظر على الخطابة في أيام الحج ، فقد كان مختلف العلماء يقفون ، ويعظون الناس ويرشدونهم ، كنا في عجلة من أمرنا ولهذا لم نتوقف لسماع الخطبة .

أخذنا الدواء من الدكتور ، وسعدنا بالتحدث معه أيضا ، والدكتور زين العابدين متعصب للهند ، ورغم أنه لا يكره باكستان ، إلا أنه لا يكن لها حبا ، وهو محافظ على أصول الدين ، ومخلص ، وذكي ، وربما كان تعصبه نتيجة لأسباب نفسية ، ولم أكن على استعداد أبدا للبحث والنقاش ، نظرا لضعفي ، ولآلام الكحة التي تعاودني باستمرار ، بالإضافة إلى الغضب الذي كان يتملكه ،

فإذا ما كانت الأفكار قائمة على العواطف فقط ، لا يكون هناك مجال للبحث والنقاش أو حتى تبادل الحديث .

الجمعة ٢١ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٤ اكتوبر ١٩٤٩م

رأى جميع الأصدقاء ألا أخرج من البيت لعدة أيام ، والحقيقة أنني كنت بحاجة إلى راحة ، فقد استمر التعب ، وزاد الضعف ، لكنني لا يمكن أن أترك صلاة الجمعة في الحرم ، فقد تركت صلاة من قبل ، والحرمان من صلاة جمعة أخرى في الحرم أمر لا أتحمله على الإطلاق .

كان من الضروري الوصول إلى الحرم قبل صلاة الجمعة بثلاث ساعات ، إذا ما أردت الصلاة بالحرم ، وعقدت العزم ، وسميت الله ، وذهبت الحرم ، وجلست .

كان المكان يضيق اليوم أيضا بالمصليين ، واضطر الآلاف منهم إلى الجلوس لساعات تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكانت خطبة الشيخ أبي السمح كالعادة مؤثرة وقوية .

بعد الصلاة خلدت إلى الراحة ، فاستعدت قليلا من عافيتي ، وبعد العصر ذهبت إلى الشيخ أبي السمح ، فبيته يبعد عن مقر إقامتي مسافة قدمين فقط ، فالصعوبة كانت في نزول السلالم وصعودها ، وإلا تمكنت من الذهاب يوميا إليه في حالة مرضي أيضا ، كان هناك مولانا إسماعيل (كوجرانواله) أيضا ، فقدمته بطريقة جيدة ، واعتذر الشيخ عن عدم زيارته لي ، فشكرته بما يليق

بمقامه وعلمه وسنه من ألفاظ طيبة ، فقدم لي كتابين من مؤلفاته ، وقدم أيضا لمولانا إسماعيل نفس الكتابين هدية ، وحين خرج مولانا إسماعيل من بيت الشيخ أبي السمح قال :

- هذا جَرُّ جوار .

وجر جوار مصطلح نحوي ، ومولانا إسماعيل يشير إلى أن الشيخ أبا السمح أراد أن يعطيني هدية ، فلم يشأ أن يحرج من معي ، فأعطاه بالتالي هو الآخر هدية مماثلة ، وكان هذا مزاحا ، وإلا فالشيخ أبو السمح عالم على خلق ، وإنسان متواضع وكريم ، دمث الخلق ، حسن العشرة .

انشغل الحجاج القادمون من الخارج بشراء الهدايا لأحبابهم وأقاربهم ، وكاتب السطور ليس من القائلين بشراء البضائع الأوربية والأمريكية ، وهناك بعض الهدايا تنسب إلى الحرمين ، لكن لا يعرف أصلها ، ولا مصدرها ، ومن هنا ، فماء زمزم ، والتمر هما الهديتان اللتان يمكن أخذهما من هنا دون أدنى تردد ، ويمكن تقديمهما إلى أي إنسان ، وجميع أهل العبد الفقير : والداه ، وإخوته ، وأخواته ، وجميع أقاربه ، يقيمون في وطنهم ، الهند ، والعبد المذنب اضطر إلى الهجرة إلى كراتشي في باكستان ، ولهذا فقد كنت قلقا جدا . . . كيف يمكنني أن أرسل ، ولو شيئا بسيطا إلى بيتي في الهند؟ ومن ذا الذي يحمل هذا العبء ؟ وأخيرا وقعت عيناي على الشاب العالم حافظ محمد زمان ، وهو من بلدة تانده ، مركز فيض آباد ، متعاطف مع الجماعة ، ومتأثر

تماما بالدعوة ، كان يزورنا باستمرار في مكة ، ونتبادل الآراء في مختلف القضايا ، فلديه شوق للبحث ، وهو دائم الاستفسار عن قضايا متنوعة ، وقد قبل المسكين طلبي ، واستعد بكل سرور لحمل الهدايا ، فجزاه الله خير الجزاء ، فقد حمل عن العبد الفقير عبئا ثقيلا ، وبهذا اطمأن قلبي وهدأت نفسي ، وألقيت بمسئولية اختيار الهدايا وشرائها على عاتق عاصم ، فأنا عادة ما أختاره خبيرا لمثل هذه الأمور .

زادت حدة الكحة ليلا ، وكنت قد عقدت العزم على الاعتكاف ، إلا أن صلاة الجمعة حلت ما كنت قد عقدت من عزم ، واستمرت مشاغلي المختلفة هنا وهناك ، طوال اليوم ، أعانني الله بفضله وكرمه .

السبت ٢٢ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٥ أكتوبر ١٩٤٩م

اشتدت الكحة ، فلتشتد كما تشاء الكحة . . . فهذه أيام اللقاءات وساعات العمل ، ولن يعوقني المرض عن أداء العمل ، على كل حل اعتدت على ذلك ، بفضل من الله وكرمه ، وأخذت أستعمل الأدوية للتسكين أيضا ، ووسيلة للشفاء ، فالشفاء بيد الله وحده .

ذهب حافظ محمد زمان اليوم إلى جدة ، وكانت قوافل الناس الذين ذهبوا إلى المدينة قبل الحج ، تتحرك الآن إلى جدة ، ذلك لأن بواخرهم بدأت تستعد للعودة .

بعد عقد النية على " الاعتكاف " اتجهت في المساء إلى مكتب مجلة " المنهل " التي يرأس تحريرها الأديب المشهور عبد القدوس الأنصاري ، ومكتب المنهل قريب ، ولهذا لن أصاب بالتعب ، صعود السلالم وهبوطها فقط ، كان يرافقني ماجد أسعد والشنقيطي ، وجدنا رئيس التحرير مشغولا جدا ، ولذلك لم أستطع أن أتحدث معه كثيرا ، كان يكتب مقالة عن أبي بكر الصديق ، وحتى يشغلني قدم إلي صفحات مما كتب بعنوان " رأي ونظر " وكان هذا من حسن خلقه ، وقد حضر أيضا محمد الخطيب ، ودار بيننا جميعا حديث ممتع للغاية .

السبت - الاثنين ٢٣- ٢٥ ذو الحجة ٦٨ هجرية

الموافق ١٦- ١٨ اكتوبر ١٩٤٩م

عانيت كثيرا من السعال طوال الليل ، وحين استيقظت في الصباح قررت ألا أخرج من البيت لثلاثة أيام أو أربعة على الأقل ، وأدعو الله أن يعينني على ذلك ، جاء لعيادتي كل من ماجد أسعد ، والشنقيطي ، ومحمد الخطيب ، وخففت أحاديثهم عني الغم والحزن ، وكنت أستعمل الدواء كالمعتاد ، وكان في الدواء - بإذن الله - شفاء ، ولكن ثبت أن التحرك هنا وهناك يضر كثيرا بصحتي .

زارني أيضا عبد الله المزروع الذي كان متوجها إلى الطائف ، ولهذا جاء لوداعي ، وأكد على ضرورة لقاء الأمير مساعد يوم الاثنين ، فقلت : لنرى ، فليست لدي مقدرة على الحركة .

كان موعد اللقاء مع الأمير مساعد يوم الاثنين ٢٤ ذو الحجة ، فأرسلت عاصما ليعتذر ، فقابله الأمير مقابلة طيبة ، وحمله السلام ، على أن يكون اللقاء إذا وجدت فرصة إن شاء الله ، لأنه سيرجع إلى الرياض بعد يومين أو ثلاثة أيام ، فهو يقيم في الرياض ، وجاء هنا لأداء مناسك الحج .

كان للراحة أعظم الأثر على صحتي ، فبدأ السعال يختفي ، وتحسنت حالتي كثيرا ، ولا زال ماجد أسعد والشنقيطي يترددان علي عدة مرات في النهار ، كان لمواساتهما أعظم الأثر في تخفيف آلامي في هذه الغربة ، فقد أدخلا الطمأنينة إلى قلبي ، وعملا على تهدئة خاطري ، أحضر الشنقيطي العدد الجديد من جريدة " أم القرى " الذي يتضمن تذكرة للحجاج العلماء والأدباء وأهل الصحافة ، وقد ذكرني أحد الأشخاص بخير ، ولهذا حمل إلي هذه الصحيفة ، والحمد لله فقد جئنا هنا ، وقضينا منازل السفر في الخفاء . ويحضرني دائما هنا ما قاله إقبال :

أي حياة تلك التي يعتمد فيها الإنسان على غيره

فلتترك أيضا الاعتماد على الشهرة في حياتك

كنت قد التقيت قبل الحج بشاب ديوبندي ، عند محل مولوي عبد الوهاب الدهلوي ، وقد زارني يوم الاثنين ، وعلمت أنه كان مريضا أيضا ، ونظرا لضعفه لم يستطع المسكين أن يتكلم كثيرا ، فدعوته إلى زيارتي بعد عدة أيام ، يكون قد تماثل فيها للشفاء الكامل .

وفي ٢٥ من ذي الحجة تحسنت حالتي تدريجيا ، وقد مكثت في البيت طوال اليوم ، وجاء لزيارتي بالإضافة إلى ماجد أسعد و الشنقيطي بعض الأحباب الآخرين ، وكان عاصم مشغولا هذه الأيام في شراء الكتب ، فكلما وجد فسحة ، اتجه إلى باب السلام (حيث توجد مكتبات بيع الكتب) فاشترى لنفسه بعض الكتب واشترى لي أيضا ، وكنت قد رغبت في شراء بعض الكتب هدية للأحباب والأصدقاء ، فكلفته بهذه المهمة .

الأربعاء ، الخميس

٢٦ ، ٢٧ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ١٩-٢٠ أكتوبر ١٩٤٩م

الصحة غنيمة ، مكثت في البيت طوال اليوم ، جاءني ماجد أسعد والشنقيطي عدة مرات طوال النهار ، والشنقيطي رجل متواضع ، حسن العشرة، دمث الخلق ، ولهذا صار من خواص أصدقائنا ، ولكنه رغم فكره الصحيح إلى حد ما ، غير مرتبط بأي عمل دعوي أو فكري ، وعلى العكس من ذلك ماجد أسعد ، الذي يدلي برأيه في جميع القضايا ، ويغلب على فكره الشعور الديني والعاطفة الدينية ، وقد لاحظت أن كتبنا تؤثر فيه كثيرا .

كان عاصم كالعادة يحاول أن يجد الفرصة ، فيذهب إلى باب السلام ، ولكنه تعرض اليوم إلى وضع عجيب وغريب ، غير متوقع ، فقد سبق أن أعطينا كتبنا لأحد تجار الكتب في باب السلام (وهو يمتاز من بين بقية التجار بعلمه وفهمه وهو بنفسه يدعي أنه أديب وشاعر) ليتولى بيعها ، فطلب منه بالأمس كل

ما تبقي من كتب ، ووعد بأن يعطينا القيمة نقدا ، وفي الصباح حين ذهب عاصم لمحاسبته ، أصر التاجر على أن يشتري عاصم منه كتبا مقابل ما ابتاعه منه ، وكان هذا شرطا جديدا لم نتفق عليه ، وهو غير مقبول من جانبنا على الإطلاق ، فقد كنا قد اتفقنا على أن يدفع لنا قيمة الكتب نقدا ، ثم إنه أصر على أن يأخذ الكتب بنصف قيمتها ، لكننا اشترينا ما نحتاج إليه من كتب ، والإشكال الثاني هو أنه يبيع الكتب بسعر أعلى من الآخرين ، وفي النهاية جاءنا عابسا متجهما ، وأعاد إلينا جميع الكتب ، وكان ما حدث ، أمرا غير متوقع ، سبب لنا ألما نفسيا شديدا .

لقد حاول كاتب السطور أن يرسم صورة لما يراه هنا ، ويكتب لنا بعض الأصحاب ، يخبروننا ألا ننتقد أفعال وأعمال أهل الحرم ، ولكن ماذا أفعل ؟ ففي كل مكان من بغداد حتى الرياض كنا نجد التعاطف والحب ، بل اعتبر الجميع عملنا عملا لخدمة الدين ، فحاولوا أن يمدوا لنا يد العون ، ويشاركونا العمل ، ولكن هنا في أرض الحرم الطاهرة ، وبعد المساومة ومراعاة النسب المقررة مراعاة كاملة ، ماذا نقول عن " حسن المعاملة هذه " من قبل التاجر المحترم ؟ !

ذكرت هذه القصة لكل من ماجد أسعد والشنقيطي ، فتألما كثيرا ، وأخذا يفكران في إصلاح هذا الأمر ، رغم أنني لم أرغب في ذلك ولم أظهر لهم ذلك .

٢٧ ذو الحجة ٦٨ هجرية

لم تستقر صحتي على حال ، رغم أن الراحة تركت أثرها الطيب ، ورغم هذا بدت بوادر نزلة جديدة .

كان غيابي عن الحرم لخمسة أيام متواصلة مدعاة لألم روحاني شديد ، وعند العصر عقدت العزم ، وتضرعت إلى رب العزة ، ودعوته ، ووصلت إلى الحرم، وأخذت أدعو الله بعد الصلاة لفترة طويلة ، فقد تعبت ومللت الدواء ، وليس لإجابة الدعاء وقت محدد ، ولعل صوت القلب يسمع ، رجعت بعد الصلاة مطمئن البال ، وبدا كأن الكحة زالت نهائيا ، لكن ذهني ظل يموج بتيارات فكرية متنوعة ، قبل أن آوي للفراش ، وأخذت أتقلب في الفراش طوال الليل ، وجربت مختلف الحيل ، وبذل عاصم كل جهده ليساعدني ، لكن النوم المسلوب من عيني لم يكن ليعود .

كان أصدقاؤنا الرامبوريون سيذهبون إلى المدينة المنورة يوم الأحد القادم ، وتمنيت من كل قلبيي أن أذهب معهم ، لكن ضعفي يحول دون ذلك ، رغم أن معالجي الدكتور زين العابدين أذن لي بالسفر ، يقول :

إن الكحة ستستمر نظرا لجو مكة الحالي ، المملوء بالغبار ، وهواء المدينة الصافي ، النقي ، الخالي من الغبار فيه الشفاء .

على كل حال كنا قد عقدنا النية على الذهاب أيضا ، والصحة والعافية بيد الله .

مطوفنا هو " شيخ المطوفين " يتمتع بنصيب وافر من متاع الدنيا ، ومن الجاه والحشم ، ولذا فهو ليس بحاجة إلينا نحن المساكين ، كما أنه في غفلة عنا تماما ، ورغم معرفته بمرض العبد لله ، فقد ظل على حاله لا يسأل حتى بكلمة ، وقد قمنا طبقا لمكانتنا المتواضعة بإبلاغه بذلك عن طريق خدمه وموظفيه ، فأرسل يعتذر عن عدم حضوره وابتسم قائلا لعاصم : " أنا لم أر حتى بيتكم ، انظر . . ! ولعلي آتيكم "

حين ذكر مولانا عبد الماجد الدريابادي في رحلته الحجازية [٣٨] إبداعات مطوفه (معلمه) عبد القادر إسكندر ، كان ذلك بأسلوب لطيف للغاية وأنقل هنا المعنى وليس النص :

" إذا ذكرت جميع إبداعات المعلم (المطوف) كاملة ، فأخشى أن يتحول هذه الكتاب من كتاب رحلة (سفر نامه) إلى كتاب سكندر المطوف (سكندر نامه) "

لكني هنا لا أستطيع أن أكتب عن الرحلة ولا أستطيع أن أكتب عن إسكندر ، لكن في هذه اليوميات ، يمكن أن أفقأ فقاعات القلب ، إلا أن ما هو أصعب من ذلك أنني كنت قد أخذت عهدا على نفسي ألا أذكر في يومياتي هذه- ما استطعت إلى ذلك سبيلا - المتاعب الجسدية والمادية ، وهكذا فلت القلم مني أحيانا ، فاعذروني واعتبروا ما حدث نتيجة للضعف البشري .

الجمعة ٢٨ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٢١ أكتوبر ١٩٤٩م

أعاني من الإعياء البسيط ، وحالتي غير مطمئنة ، فعلاوة على الغبار والتراب ، كثرت القاذورات ، كانت عفونة دورات المياه تسبب أذى كبيرا لمريض الصدر من أمثالي ، فالرائحة الكريهة مضرة جدا بل تزيد من علتي ، ولم يكن من السهل بالطبع السيطرة على هذا الأمر ، كما لا يمكن أن نلوم البلدية على هذا الأمر .

بدأنا التفكير في الاستعداد لسفر المدينة المنورة وشراء ما قد نحتاجه في هذا السفر ، كان لا يزال معنا ثلاثة طرود من الكتب . وأصحاب سيارات الأجرة يرفضون حمل أمتعة كثيرة في سياراتهم ، ولهذا فكرنا أن نرسل الأمتعة مع محمد مظهر الندوي الذي يأتي من جدة ، حيث يعمل موظفا ، إلى مكة مساء كل خميس ، فذهب عاصم إليه وجاء به ، وبعد مشاورات قررنا أن يأخذ الكتب معه في الغد ، ثم يحمل الصندوق الثاني في الجمعة التالية ، وهكذا يتم خفض النفقات ونطمئن من ناحية أخرى على الكتب .

في الصباح ذهبت مع عبد الأحد التبتي إلى الشيخ محمد بن على التويجري، وهو عالم نجدي ، يتقلد منصبا قضائيا رفيعا ، ظل لعدة سنوات يعمل بالتجارة ، كما يتولى أيضا منصبا رفيعا في " إدارة شئون الحج " تحت إشراف وزارة المالية ، وكان قد رأى كتبنا ، ودعانا إلى الإقامة في بيته ، بعد أن رأي سوء حال المكان الذي نقيم فيه ، ومرض العبد الفقير ، فقلت له :

- سنرى ! إن لم نذهب إلى المدينة بسرعة فسوف نستفيد من دعوتك بالضرورة .

صليت الجمعة باطمئنان كامل وسكينة ، فلم يعد الزحام كما كان ، ورجع عدد كبير من الحجاج إلى ديارهم ، ويتجه مئات الزوار الآن إلى المدينة المنورة، ألقى الشيخ عبد المهيمن (شقيق الشيخ أبي السمح) خطبة الجمعة ، كانت غنيمة ، مع أنها لم تكن في حرارة خطبة الشيخ أبي السمح ، وَلا في وضوح بيان الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة .

بعد العصر عاودتني بوادر النزلة ، ومع حلول الليل عادت آلام السعال والكحة ، ثم بدأت الكحة المتواصلة التي لا تنتهي ، لكن ماذا أملك من أمر نفسي ؟ لقد رضيت بما قسم الله لي ، والحمد لله ، فلم يتبادر إلى ذهني أو إلى عقلي أبدا وهم اليأس أو الكفر في أي مرحلة من مراحل المرض ، والحمد لله .

السبت ٢٩ ذو الحجة ٦٨ هجرية / ٢٢ أكتوبر ١٩٤٩ م

أرسلنا الكتب في الصباح إلى المحطة ، وأخذها محمد مظهر معه إلى جدة ، كما أرسلنا الصندوق الكبير أيضا إلى بيته مباشرة ، وقد رغبت في تغيير محل الإقامة بسبب مرضي ، ونظرا لسوء حالتي الصحية ، فهو لا يخلو من الغبار والتراب كما أن وجوده على قارعة الطريق ، تجعله عرضة أكثر للغبار والتراب .

ذهب عاصم في المساء إلى مولانا عبد الوهاب ليستشيره في أمر السكن ، فالرجل يشرف على رباط " الهنود " من منطقة (تونك) وتوجد هناك غرفة خالية رحبة وفسيحة ، ويمكن الحصول عليها بسهولة ، إلا أنها بعيدة عن الحرم ، وكنت أرغب من صميم قلبي الانتقال من المكان الذي أسكن فيه حاليا ،

لكن استشارة الدكتور زين العابدين الندوي أمر ضروري ، ومقدم على كل شيء ، فهو يرى أن الذهاب إلى المدينة المنورة هو الأنسب ، ومرضى الصدر من أمثالي لا يمكن أن يتعافوا بسرعة ، بسبب الغبار والتراب ، وهكذا عزمت على الذهاب للمدينة المنورة ، أعانني الله على ذلك .

دعاني الدكتور زين العابدين لتناول الطعام في بيته ، رغم أنه لا يجهل حالة مريضه ، ماذا قلت : دعاني . . ؟ لا بل أمرني ، بل أصدر حكما بالحضور إلى بيته ، يقول :

- لقد أخرت هذه الدعوة بسببك ، ولا يحتمل الأمر الآن أي تأخير آخر .

الأحد غرة محرم ٦٩ هجرية / ٢٣ أكتوبر ١٩٤٩م

اليوم أول أيام السنة الهجرية ، تحتفل الأمم الأخرى بالنوروز ، وبدأ بعض العرب أيضا وسط هذا السباق ، يحتفلون بغرة المحرم أيضا ، ولا شك أن مظاهر الاحتفال بالعيد تختلف من أمة إلى أخرى ، وعيدا المسلمين يختلفان عن أعياد بقية أمم العالم أجمع ، فإذا تذكرنا مع بداية العام الهجري هذا الانقلاب العظيم الذي ظهر في تاريخ العالم مع هجرة الرسول صلي الله عليه وسلم ، فإن هذا لا يعد عملا كبيرا ، فمنذ ذلك التاريخ بدأت رفعة الإسلام ، وعلت كلمته ، وارتفعت دعوة الحق ، فكيف لنا أن ننسى هذه الواقعة التاريخية العظيمة ، وذكرى هذا اليوم ، لقد كان فطنا ذكيا ، ذلك الإنسان المقبول عند ربه الذي أذاع التاريخ الهجري في العهد الفاروقي ، فهذا التاريخ وهذا التقويم يعد اليوم مأثرة للفخار وذكرى تبقى على الدوام .

قبل الظهر ركبنا " عربية " (٣٩) ووصلنا إلى بيت زين العابدين ، فقد كان من الصعب على العبد الفقير أن يذهب ماشيا ، وهناك توجد أعداد قديمة من الصحف المحلية ، وحضر بعض الناس ، وعلى رأسهم الأستاذ المحترم سيد سليمان الندوي ، ومولانا عبد العزيز بهاري (المقيم في بمباي) وكانت الجلسة ممتعة للغاية ، وتيسر لنا بعد فترة طويلة تناول الطعام البهاري الخالص ، ورغم الالتزام الكامل بالاحتياط ، فإنني لم ألتزم الاحتياط في الطعام أبدا ، فإذا كان الطبيب المعالج نفسه قد دعاني إلى عدم الاحتياط فما عساه المريض يفعل ؟ ! وهناك أمتعنا مولوي كرم مليح آبادي بأحاديثه الشيقة .

حين رجعنا علمنا أن رفاقنا الرامبوريين ذاهبون اليوم إلى المدينة ، ورغم أنني عقدت العزم على مرافقتهم ، إلا أنه لم تكن لدي همة على ذلك ، كما حزن عاصم كثيرا من تعجلهم ، ولكن الحمد لله ، تخطى العبد الفقير هذه المراحل الصعبة من المرض ، فلماذا أعقد الأمل على أحد هكذا جزافا ، ثم أشعر بعدها بالحزن والأسى !!

الاثنين ٢ محرم ٦٩هجرية / ٢٤ أكتوبر ١٩٤٩ م

منذ أن شرفت بالحضور إلى مكة المكرمة ، وأنا أجد فرصة لمشاهدة الأحوال ، وتحليل ما أراه ، اليوم زارنا في الصباح الباكر مولانا إسماعيل (كوجرانواله) ومولوي أبو سعيد (مدرس بدار الحديث) فأوضحت لهما ما بداخلي من مشاعر وأحاسيس ، وقد ورد ذكر السلطان بالطبع ، وتحدثنا عن رجال السياسة الذين يتحدثون كثيرا ، وأنا لست من رجال السياسية ، رغم أنني كنت في البداية أميل إلى السياسة ، فصرت من المهتمين بها ، فكما ذكرت

جذبتني مطالعة الصحف منذ طفولتي ، وكانت النتيجة أن تعودت على الكلام ، وكان من الصعب علي أن أصبر حين يتكلم الطرف الآخر ، وصديقي المخلص وأخي " علي الندوي " الذي يعرف جيدا طبع العبد الفقير كان قد نصحني كثيرا بقوله " لا تتكلم كثيرا كعادتك ، وإلا سوف تنال ثواب الجهاد فضلا عن ثواب الحج والعمرة " .

لكن العبد الفقير لم يأخذ احتياطه أبدا ، فهل نلت ثواب الجهاد مع ثواب الحج والعمرة أم لا ؟ الله وحده يعلم .

لقد بذلت أقصى ما في وسعي للحصول على ثواب الجهاد . . . إلى أين أخذنا الكلام ؟

كنا نتحدث عن بعض القصور الذي يجب تداركه ، عندئذ غضب مولوي أبو سعيد ، ودعاني للنقاش والمناظرة ، وقد غضبت أنا أيضا ، ولكن مصاحبتي للمودودي أفادتني هنا فقلت :

- إذا كان المقصود هو الإفهام والتفهيم فأنا مستعد ، وإذا كان المقصود هو المناظرة ، فأنا أعترف لك من الآن أني مهزوم .

عندئذ تدخل مولانا محمد إسماعيل ، وحاول أن يهدئه بطريقة معقولة .

كنت قد التقيت بالشيخ محمد بن عبد الرازق حمزة قبل الحج ، ثم لم أشرف بزيارته بسبب المرض ، وكان عاصم قد ذهب إليه ، فلم يتمكن من لقائه، ومن حسن الحظ أنني لقيته ، واعتذرت له عن عدم حضوري بسبب ما أصابني من مرض ، وكان الرجل نفسه مريضا ، ومن الصعب عليه صعود

السلالم ، بسبب مرض في رجله ، وكنا قد حصلنا على كتابه الذي كتبه ردا على القصيمي ، لكنه أعطاني نسخة هدية من الكتاب ممهورة بتوقيعه الكريم قائلا :

– سوف نتحدث بالتفصيل في وقت لاحق ، نسعد فيه معا بالهدوء والسكينة .

الثلاثاء ٣ محرم ٦٩هجرية / أكتوبر١٩٤٩م

الصحة غنيمة ، ونعمة من الله ، لم تعد الكحة تعاودني ، لكن حالتي لا تدعو إلى الاطمئنان ، عقدنا العزم على الذهاب إلى المدينة المنورة مساء اليوم ، معتمدا على فضل الله وكرمه ، في هذا السفر الطويل ، وفي ظل ظروفي الصحية المتدهورة ، فالوصول بصحة وسلامة هو فضل من عند الله .

انشغل عاصم منذ مساء أمس بترتيب أمتعة السفر ، وفي الصباح ، وبعد أن شربنا الشاي ، وخلال ساعتين كنا على أُهبة الاستعداد الكامل للسفر إذا ما وجدنا سيارة .

ربما سنتحرك بعد العصر ، لكن لم يحدد الوقت بالضبط ، واستقر الرأي على أن أقوم أولا بطواف الوداع قبل أن يشتد الحر ، ومن السنة ألا يقيم الإنسان في مكة بعد طواف الوداع ، كان هذا ممكنا في عصر قوافل الجمال ، أما في عصر السيارات ، وخاصة في عصر احتكار شركات تأجير السيارات ، فإن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فأحيانا يعدوننا بالتحرك صباحا ، ثم تتحرك الحافلة في العاشرة ليلا ، ويضطر الإنسان في معظم الأحيان إلى البقاء في مكة اثنتي عشرة ساعة ، بعد طواف الوداع ، ويضطر البعض نظرا لهذا

التأخير إلى القيام بطواف الوداع مرة ثانية ، وعلى كل حال حاول العبد الفقير القيام بطواف الوداع قبل أن يشتد الحر .

لم تغرورق العين بالدموع كثيرا نظرا لصلابة القلب ، لكن القلب كان أكثر تأثرا ، انتهيت من الطواف ، وصليت ركعتين في الجانب الأيمن من مقام إبراهيم ، ودعوت لكل من يعمل باسم الله ، أن يهبه الله الإخلاص في العمل والاستقامة ، في عصر الضلالة هذا . . .

كان الناس يتشبثون بأستار الكعبة ، وجدرانها ، يدعون الله ، وكان هذا المنظر هو كل ما يمكن أن تشاهده في كل ناحية ، وفي كل اتجاه ، ومن الواضح أن مثل هذه الحالة من الجذب والشوق تغلب على الإنسان ، وتؤثر فيه ، وتجعله في حالة من الوجد ، لكن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اتجه بوجهه المبارك ناحية الملتزم فقط (ما بين باب الكعبة والحجر الأسود) وأشار بذراعه الكريمة ، ولهذا أُطلق عليه " الملتزم " وذكر ابن تيميه أنه من المستحسن أن تقف قريبا من الملتزم ، وقد احتاط كاتب هذه السطور حتى الآن فيما يتعلق بالتمسك بستائر الكعبة أو لمس جدرانها ، فلدي أيضا عواطف شوق وعشق وجذب ، ولدي أيضا نهج السنة ، والعشق الذي يجعل الإنسان يتعدى حدود السنة ليس بعشق إنما هو بداية للبدعة .

بعد الانتهاء من طواف الوداع ، شعرت برغبة من داخلي للذهاب ثانية إلى " الملتزم " لأداء هذه السنة أيضا ، فهذا أطيب ، ومن حسن حظي أن المكان كان خاليا ، فمكثت فترة أتوجه إلى الله بالدعاء ، لكن أحد الأشخاص كان يقف

بجواري يتضرع إلى الله بصوت عال باللغة البنجابية ، فأربكني وأزعجني فابتعدت عنه ، بعد أن أصبت بالحزن والغم ، لكن ماذا عساي أفعل ؟ أخليت المكان لعبد من عباد الله الآخرين بقلب تملؤه الحسرة .

عادة ما يعود الناس بظهورهم بعد طواف الوداع ، حتى لا تكون ظهورهم إلى الكعبة المشرفة ، ولا أدري من روّج لهذه البدعة ؟

كتب أحد علماء سهارنبور في كتاب له بعنوان " معلم الحجاج " أن هذا لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن صحابته الكرام ، لكن الشيوخ والعلماء جعلوا هذا الأمر من آداب بيت الله .

وهذا أمر يبعث على الحيرة ، فكيف لعالم دين أن يعتبر هذا الأمر ضروريا ، رغم عدم ثبوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا لم يثبت هذا الأمر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فما ضرورة أن يتقول عالم أو شيخ بهذه الزيادات التي تفتح باب البدعة .

بعد الطواف رغبت في السلام على الشيخ أبي السمح ، وحين وصلت إلى باب " دار الحديث " وجدت مولانا عبد الوهاب الدهلوي قادما من مقر إقامتي ، وكان قد ذهب لزيارتي ، وكان برفقته محمد بن عبد الرزاق حمزة ، فجلسنا معا ، نتحدث في موضوعات مختلفة ، كان الشيخ أبو السمح قد ذهب إلى دار الأرقم ، ويقال إن هذا المبنى الخاص بدار الأرقم بني في بداية العهد العباسي (٤٠) ولهذا فإن مكانته التاريخية حقيقية وثابتة ، وقد أخذ الشيخ أبو السمح هذا المبنى لدار الحديث ، وهناك فكرة الآن لبناء مبنى رائع وضخم في

هذا الموقع ، وللأسف لم أتمكن من زيارة " دار الأرقم " الدار التي كان يرابط فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته من الفدائيين الأوائل ، وإن شاء الله أزورها بعد العودة من المدينة المنورة بصحبة مولانا عبد الوهاب ، فهو من أشهر علماء آثار مكة المكرمة ، وهو أيضا مسئول المالية في لجنة دار الحديث .

وبمناسبة " دار الأرقم " ذكر الشيخ محمد بن عبد الرازق رأيه فيما يتعلق بالأماكن التاريخية في مكة ، يقول : يجب الإبقاء على جميع هذه المباني وجعلها مقرا للإدارات والهيئات العلمية والدينية ، وكان من الضروري بالطبع هدم القباب ، ولكن لا معنى لإهمال تلك الأماكن ذات الصلة بالحياة الأولى للدعوة الإسلامية .

وفي النهاية أثرت مع محمد بن عبد الرازق حمزة بحثا يتعلق بالصلاة والخطبة ومكبر الصوت ، ولعله ناقش الأمر مع سيد سليمان الندوي والشيخ أبي السمح ، فسيد سليمان الندوي يرى أن الصلاة لا تصح باستخدام مكبر الصوت ، وهنا في الحرم يستخدم مكبر الصوت يوميا ، وقد عبر الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة عن رأيه المخالف لرأي سيد سليمان الندوي ، وقدم الأدلة على ذلك ، وحين سأل مولانا عبد الوهاب رأيه ، بقي مولانا عبد الوهاب كعادته صامتا ساكتا ، فقلت : سيد سليمان الندوي هو أستاذي وأنا خادمه ، أما توفيق الأدلة ونفيها ، فليست بعيدة عنه ، لكن فيما يتعلق بمكبر الصوت فرأي يتفق تماما مع رأيك .

حواشي وتعليقات

١ - المراح بالميم المفتوحة والراء المفتوحة بعدها ألف فحاء مهملة من قرى المبرّز وتقع على مقربة من قرية القرن (الجرن) المعجم الجغرافي ص ١٥٩٧ .

٢ - نشرت جريدة أم القرى في عددها ١٢٦٨ الصادر في ٧ شعبان ٦٨ هجرية حسن وعبد العزيز آل الشيخ ضمن أسماء طلاب دار التوحيد بالطائف وجاء ذكر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ ضمن أسماء طلاب الصف الخامس ، بينما ورد ذكر حسن بن عبد الله آل الشيخ ضمن طلاب الصف الثاني ، كما ذكر اسم عبد العزيز بن عبد المحسن آل الشيخ ضمن طلاب الصف الثاني أيضا فلعل المؤلف قصد بحسن وعبد العزيز ، حسن بن عبد الله وعبد العزيز بن عبدالمحسن فالاثنان في صف واحد وعمر واحد والله أعلم .

٣ - ثرمداء بفتح الثاء وإسكان الراء وفتح الميم والدال المهملة بعدها إلف ممدودة ، بلدة في شمال الوشم بمنطقة شقراء في إمارة الرياض ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ص ٢١٠ .

٤ - العفيف حمد الجاسر : المعجم الجغرافي .

٥ ـ العشيرة حمد الجاسر : المعجم الجغرافي .

٦ - سيد سليمان الندوي من علماء الهند الكبار ، أكمل كتاب السيرة النبوية التي بدأه شبلي النعمـــاني ، وقد عرفته جريدة أم القرى في عددها ١٢٧٨ الجمعة ٢٤ من ذي القعدة لقرائها هكذا : " قـدم من الهنـد لأداء حج هذا العام فضيلة العلامة الأستاذ سليمان الندوي ، قاضي بهوبال . . " للمزيد من المعلومات انظر علامه سيد سليمان الندوي شخصيت وادبي خدمات للدكتور محمد نعيم صديقي الندوي مكتبه فردوس لكهنو ١٤٠٥هجرية ١٩٨٥م

٧ - المدرسة الصولتية في مكة المكرمة أسسها الشيخ رحمت الله كيرانوي المتوفى عام ١٣٠٨ هجرية / ١٨٩١م وهو صاحب كتاب إظهار الحق ، أسس المدرسة الصولتية سنة ١٢٨٥هجرية لتكون أول مدرسة في مكة ، وسميت بالمدرسة الصولتية نسبة إلى صولت النساء التي تبرعت ببنائها ، وظل الشيخ مديرا للمدرسة حتى توفي في رمضان ١٣٠٨ هجرية ومن الجدير بالذكر أن الملك عبد العزيز يرحمه الله زار هذه المدرسة وتفقد فصولها وبنايتها في جمادى الثانية عام ١٣٤٤هجرية .

٨ - قدمت جريدة أم القرى في عددها الصادر بتاريخ ١٧ من ذي القعدة مو لانا حريري للقراء تحت عنوان " رئيس الحج الهندي والوفد الهندستاني " فقالت : قدم لحج هذه العام رئيس الحج الهندي فضيلة العلامة مو لانا عبد المجيد الحريري ، ومعه مولانا محمد عبد الحق الفاروقي رئيسا ، ويضم

الوفد مولانا عبد الحق عثماني ، ومولانا محمد ميان سكرتير جمعية علماء الهند ومولانا عتيق الرحمن وقد تشرفوا بمقابلة جلالة مولانا الملك المعظم .

٩ - حزب المؤتمر الهندي هو الحزب السياسي الذي قاد الهند إلى الاستقلال جنبا إلى جنب مع حزب الرابطة الإسلامية ، وانضم إليه المسلمون والهندوس ، ويرى الحزب أن الدين يخرج من حياة الشعوب وأن الوطن هو أساس المجتمع لا الدين ، انظر المسلمون وقضية القومية للمودوي والمسلمون والصراع السياسي الرهن للمودوودي أيضا والكتابان ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم دار الأنصار القاهرة ١٩٨٠م .

١٠ - الشيخ أبو الحسن الندوي معروف لدي قراء العربية ، وهو يؤلف بالعربية والأردية وقد كتب سيرته الذاتية في مجلدين بعنوان في مسيرة الحياة صدرا عن دار القلم بدمشق ١٤٠٧هجرية - ١٩٨٧م ، انظر الأدب الأردي الإسلامي ص ٦٦١ وما بعدها .

١١ - التهانوي ، مولانا أشرف علي التهانوي يعتبرونه في شبه القارة حكيما للأمة ومجددا ، ولد في ربيع الثاني ١٢٨٠ هجرية درس في دار العلوم ديوبند ، وقد وقف حياته على خدمة الدين وتوفي في رجب ١٣٦٢هجرية/ يوليو ١٩٤٣م انظر اكابر علماء ديوبند اداره اسلاميات لاهور ص ٣٣ - ٤٥ .

١٢ - يقصد بعلى ميان الشيخ أبا الحسن الندوي .

١٣ - مجذوب هو تخلص (اسم أدبي) لأحد شعراء الأردية اشتهر بشعر المدائح والغزل (والغزل في الأردية لا يعني التغزل في النساء ، ولكن يعني منظومات شعرية تتناول موضوعات أخلاقية وما شابه ذلك .

١٤ - كان أصحاب المذاهب المختلفة يصلون كل على حدة الحنفية لهم مصلى ووقت معين والمالكية والشافعية وهكذا ، انظر الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية الفصول الأولى، وقد جمعهم الملك عبدالعزيز على إمام واحد .

١٥ - يتم الآن توزيع مياه زمزم هدية على الحجاج ، بالإضافة إلى المياه المثلجة .

١٦ - الهوميوباثاتك هو العلاج بالمثل ، أو علاج السم بالسم وهو شبيه بالتطعيم وهو يطلق على علم الطب الذي يعالج بناء على العلامات والآثار ويطلق عليه المعالجة المثلية .

١٧ - بلدة تانده مركز فيض آباد في شمال الهند .

١٨ - يقصد هنا ما شاع في الهند من تقديس الناس لشيوخهم .

١٩ - الشيخ محمد منظور النعماني من علماء الهند الكبار ولد عام ١٣٢٣ هجرية في قرية بجوار مراد آباد بشمال الهند ، ودرس في مدرسة عبد الرب بدهلي ودار العلوم بمؤ في أعظم كره ثم التحق بمدرسة ديوبند حيث درس على أساتذتها الكبار من أمثال الشيخ محمد أنور شاه وتخرج فيها سنة ١٣٤٥ هجرية ، توفي منذ عامين عن عمر يناهز الثمانين ، أسس مجلة

الفرقان ، له مؤلفات عديدة منها كيف نفهم القرآن ؟ ، ما هو الإسلام ؟ كلمة التوحيد وحقيقتها وغيرها وكان عضوا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي للتعرف على كتاباته انظر الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم طبع عدة مرات دار الصحوة بالقاهرة وقدم له الشيخ أبو الحسن الندوي ، وانظر كتاب دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب للشيخ منظور النعماني ترجمة نور عالم الأميني الندوي لكهنو ١٤-هجرية .

٢٠ - ذكرت جريدة أم القرى في عددها ١٨٢١ تحت عنوان " حفلة الاستقبال الكبرى في ١١/ ١٢/ ٦٨ صباح يوم الثلاثاء في القصر الملكي العالي بمنى " فأشارت إلى تشريف الوفد الباكستاني برئاسة وزير الداخلية والوفد الهندي برئاسة فضيلة أمير الحج الهندي . . إلخ

٢١ - أقام الزبيري في باكستان من عام ١٣٦٨ هجرية / ١٩٤٨م حتى عام ١٣٧٢هجرية / ١٩٥٢م فترجم أشعارا لإقبال وتأثر بأشعار إقبال ، ومحمد محمود الزبيري اليمني من الشعراء المجيدين انظر اقبال والزبيري لعمر بهاء الدين الأميري وحدة التعليم بسفارة باكستان بجدة ١٤٠٨ هجرية .

٢٣ - ألقى الغزاوي ، أحمد بن إبراهيم في المأدبة الملكية الموسمية قصيدته الرائعة أمام جلالة الملك عبد العزيز ومما جاء فيها :

بمصـــرك دين الله تعــلو منابـره   وفي قصــرك الوضاء تهـدي شعـائره

....

إلى ملك تشــدو البـرايا بمجــده   وتســبـقـه قـبـل اللقـــاء مـــآثــره

إلــى مثـل (للراشـدين) كأنمـــا   به (عصرهم) يمتد في الأوج حاضره

وجاء أيضا أن الأستاذ فؤاد شاكر ألقى قصيدة في حفل المأدبة نفسه جاء في مطلعها :

(عبد العزيز) وحسبه من دهـــره   مـجـد يـطـــاول ســيـرة الأزمـــان

مولاي كـم لك مـن يـد أو ليـتهـا   سـطـعــت قـلائدهـا عـلى الأعــنان

قلدت أجـياد العـروبـة خير مـا   تسـمــو إلـيــه مكــارم الإحســـان

ومضيت في سبل الجهاد مـدججا   بعـقــيــدة الـتـوحــيد والإيمـــان

حتى ابتنيت لها الخلـــود مكـانة   فـي الخـافـقــين فكـنـت نعـم الباني

وأقمـت بالـتنزيل شـرع حكـومـة   ونشــرت دســتـورا مـــن الـقـــرآن

٢٣ - ورد خبر وصوله في أم القرى .

٢٤ - يشير هنا بطرف خفي إلى انتشـار الطرق الصـوفية ويوضـح كيفـية تعـامل شيخ الطريقة مع الناس .

٢٥ - الشيخ محمد حامد الفقي كان يصدر جريدة الهدي النبوي ويستكتب فيها العلماء الفطاحل من أمثال علامة الحديث أحمد محمد شاكر الذي كتب فيها مقالات تضمنت آراءه القوية ، كتب سيرة الملك عبد العزيز في كتاب بعنوان : أزهار من الرياض : سيرة الامام العادل حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود طبع في القاهرة في مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٩٦هجرية ، كما كتب عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتابا بعنوان أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها طبع بالقاهرة في مطبعة النهضة عام ١٣٥٤هجرية .

٢٦ - " تلى آيات القرآن الكريم فضيلة الشيخ طه الفشني " هكذا جاء في أم القرى العدد الصادر في ٢٣ من ذي الحجة وذكرت الجريدة أيضا أنه بعد تلاوة القرآن الكريم أذن المؤذن بأذان واحد للظهر والعصر ، وصعد الخطيب المنبر وهو فضيلة الشيخ عبد العزيز ابن سماحة رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ فألقى خطبة يوم عرفة عن مناسك الحج، وقد كانت آلات تكبير الصوت (المكرفونات) تنقل صوت المؤذن والخطيب والمبلغ إلى أذان الحجاج في رحالهم البعيدة عن المسجد .

٢٧ - انظر ما جاء عن خطبة عرفة في الحاشية السابقة .

٢٨ - بتنة وإله آباد من المدن الهامة في شمال الهند وقد عمل المؤلف في بتنة لسنوات .

٢٩ - ظلت مدينة إمرتسر (البنجاب الهندي حاليا) قبل التقسيم من المدن الهامة التي خرجت العديد من العلماء وبخاصة علماء الحديث وكانت بها مطابع لطبع كتب أهل الحديث وغيرها .

٣٠ - يشير إلى طريقة المولوية أي أنصاف الشيوخ - حين يتحدثون العربية مستخدمين الأساليب القديمة والألفاظ التي فقدت دلالاتها .

٣١ - انظر أدب الرحلة عند أبي الحسن الندوي بين العربية والأردية ، بحث تحت الطبع رابطة الأدب الإسلامي ، بحث مقدم للندوة العالمية التي عقدت في تركيا ١٤٠٨هجرية . وانظر في مسيرة الحياة الجزء الثاني .

٣٢ - هذه أشعار بالفارسية كانت تروج في الهند .

٣٣ - يعد الدكتور عزام من الشخصيات المعروفة في العالم العربي والإسلامي ، وكانت له مكانة طيبة لدى الملك عبد العزيز والأسرة المالكة ، وقد ذكرت جريدة أم القرى أن عبد الوهاب عزام بك أ مير الحج المصري أقام يوم الإثنين ١٧ / ١٢ حفلة عشاء رائعة بفندق مصر بمكة ، وقد شرف الحفل صاحب السمو الملكي الأمير فيصل المعظم يرافقه الأمير منصور وزير الدفاع والأمير عبد الله الفيصل . (أم القرى العدد ١٢٨١) .

٣٤ - ومكتبة الأمير الآن موجودة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٣٥ - محمد ناظم الندوي ترجم كتاب خطبات لسيد سليمان الندوي ، وعنوان الكتاب الأصلي خطبات مدراس يعني سيرة النبي ، وهو محاضرات أسبوعية كان سيد سليمان الندوي قد ألقاها في شهري أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٢٥م على طلبة المدارس الإنجليزية في مدراس ، وقد طبعت المحاضرات بالأردية وهو في الحجاز سنة ١٩٢٦م ونشرت الصحف الأردية والإنجليزية ملخصا لها .

٣٦ - طبع كتاب معضلات الإسلام في جدة وصدر عن الدار السعودية للنشر كما طبع عدة مرات في مطابع عديدة في مصر .

٣٧ - عمل وزيرا للمالية

٣٨ - ولد عبد الماجد الدريابادي في عام ١٨٩٢م ونبغ في علوم الدين وأجاد الأردية والإنجليزية وكتب تفسيرا للقرآن الكريم باللغتين ، له مؤلفات متنوعة في مختلف العلوم ، عمل بالصحافة وتوفي سنة ١٩٧٧ ورحلته للحج مؤثرة جدا نظرا لأسلوب الأديب المؤثر انظر تاريخ الأدب الأردي الإسلامي ص ٥٤٣ وما بعدها وأيضا الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردي الصفحات المتعلقة برحلته للحج .

٣٩ - هكذا في الأصل

٤٠ - يمثل هذا بالطبع وجهة نظر المؤلف فيما يتعلق بالعهد التركي .

مكـــة المكرمة - المدينـــة المنورة

عند العصر وصلنا خبر الاستعداد للسفر (أي تأهب الحافلة للمسير) فحملنا أمتعة السفر ، ووصلنا إلى المكان المحدد ، ركبنا الحافلة ، لكن الحيرة أصابتنا حين عرفنا أن الحافلة التي ستتحرك بنا في الساعة الخامسة مساء لا يمكن أن تصل " جدة " قبل الثانية عشرة ليلا !! فالسيارات - في العادة - تقطع المسافة بين مكة وجدة في حوالي ساعة ونصف أو ساعتين ، وهذه حكاية كحكايات الأمير حمزة في كتب التراث الشعبي الصفراء !! لكن لم نر في الحرم أكثر منهم توحشا ، وهم لا يقلون جهالة عن الهنود والباكستانيين ، بل يزيدون عنهم . والخلاصة أنه بعد متاعب جمة ، وبعد مشقة يعجز القلم عن بيانها ، وصلنا جدة ، وكنت أريد أن ألتقي بصفة خاصة بأشهر علمائها وأكرمهم نفسا وطبعا ، وهو الشيخ محمد حسين نصيف [١] لكن قلبي لم يطاوعني ، لأن الوقت لم يكن مناسبا .

الأربعاء ٤ محرم ٦٩ هجرية / ٢٦ أكتوبر ١٩٤٩م

في الصباح بدأ السفر إلى المدينة المنورة ، ركبنا " الأتوبيس " وهو حافلة معدة لركاب الدرجة الثانية [٢] حوالي ثلاثين مسافرا ، أكثرهم من المصريين ، مع بعض الإندونيسيين ، وباكستانيان فقط (يقال لهم دائما هنود ، هنود) وكان من بين المسافرين المصريين عدد كبير من النسوة ، وكن بالنسبة لنا

مصيبة كبرى ، فقد كان من الممكن أن تواتيني القوة ، أو العزيمة أو الهمة ، فأرد على ما يمكن أن يصدر عن رجل من سوء أدب أو مضايقات ، لكن ماذا أملك هنا غير السكوت على ما يصدر من النساء من مضايقات أو تمسخر ؟!

بدأت حالتي تسوء في الطريق ، وارتفعت درجة حرارتي ، بالإضافة إلى السعال ، ومع الظهر وصل ارتفاع درجة الحرارة إلى حد خطير ، فكان من الصعب علي أن أجلس ، وحين توقفت الحافلة على مسافة بعيدة من رابغ ، على ساحل البحر الأحمر ، سُمح للمسافرين بإعداد الطعام والقيلولة ، فذهبت إلى مقهى ، وجلست هناك ، وأحضر عاصم " الإسبرين " من مكان ما ، فاسترحت بعد أن تناولته ، لكني كنت أشعر بالضعف العام ، ووفقني الله لأداء الصلاة ، وكان ذلك بصعوبة كبيرة .

رأيت من المناسب أن أكتفي بفنجان من الشاي ، واستمرت درجة حرارتي مرتفعة ، واستمر الضعف الشديد يلازمني ، إلا أنه بفضل من الله ، شعرت بالتحسن عند العصر ، وتمكنت من الجلوس في راحة وطمأنينة داخل الحافلة .

توقفت الحافلة عند رابغ قبل المغرب ، استرحنا لفترة في أحد المقاهي ، وتمكنا من تناول الشاي ، ورابغ ميناء مشهور على البحر الأحمر ، وهي تشتهر بسمكها ، الذي يُقلى بزيت الزيتون في جميع المطاعم هنا ، وهكذا بدأ لعابي يسيل ، ورغبت في أن أتجاوز حدود الاحتياط ، وحرضت عاصمًا ، فأحضرنا سمكة تناولناها معا برغبة شديدة ولذة ما بعدها لذة ، ورفع عاصم شعار " هل من مزيد ؟! " ولكن من أين لي بالهمة ، الحمد لله ، لم يترك السمك أثرا سيئا علي ، وظلت حالتي كما هي عليه .

تحركت الحافلات بعد المغرب ، كان الطريق بين الكويت والرياض أفضل قليلا ، والشيء الطيب هنا هو توفر الماء في كل مكان ، ويشار إلى أن الماء في الطريق بين الرياض ومكة ليس بالقليل ، بينما الماء في الطريق بين الكويت والرياض نادر ندرة الكبريت الأحمر .

اعتاد العبد لله على سفر الصحراء ، لم أعان من تعب السعال ، فهذا السفر لا يحتاج إلى نشاط أو حركة ، لكن النشاط موجود في القلب والروح ، وحين اقتربنا من المدينة دبت الروح في الجسد الميت ، ورغم صعوبة التنفس ، كنت أرغب في الدندنة .

مكثنا في " المفرق " ليلة ولا بد من الإشارة إلى أنه في كل منزل من المنازل كان هناك مقهى على الطراز القديم ، يمكن للمسافر أن يجد فيه الأرائك والحصر ، فيدفع الفرد نصف ريال ، وأحيانا ما يضطر لدفع ريال مقابل استخدامها للراحة ، ولم تتوفر لي فرصة النوم في السفر ، وعلى كل حال فالراحة من السعال وارتفاع درجة الحرارة مهما كانت غنيمة كبرى .

المدينة المنورة

الخميس ٥ محرم ٦٩ هجرية / ٢٧ أكتوبر ١٩٤٩م

طلع الفجر ، ومضت القافلة ، وبدأ الاقتراب من المدينة يحرك مشاعري ، لا تزال هناك مسافة ثلاث أو أربع ساعات ، لكن القلب بدأ يرتجف من الآن ، لقد مرت فترات ، وفترات ، ومضى زمان ، وكان شوق زيارة المدينة يثير مشاعر القلب ، فيحرك الكلمات بداخلي ، فكنت من فرط الشوق أترنم بمطلع قصيدة للشاعر آسي غازي بوري (٣) :

" هبي يا رياح الصبا ، بلغي سلامي ، وأخبري الحبيب أنني أردد اسمه دائما بعد اسم الله ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله "

أي ساعة هذه ! حين يقف العبد المذنب للسلام على رسول الله ؟! حين أفكر في هذا الأمر ، تغرورق العين بالدموع ، فأردد السلام على النبي ، وتجري على لساني الأشعار العربية والأردية التي تتناسب مع المقام .

توقفت الحافلة عند محطة " مسيجيد " لفترة ، وفي الطريق انتشرت محطات اللاسلكي ، ومحطات تزويد العربات بالوقود ، فنزلنا في إحدى المحطات حيث تم تزويد حافلتنا بالوقود ، نزلنا من الحافلة ، وحركنا أقدامنا قليلا ، لفترة بسيطة ، وشاهدنا مبنى مدرسة قريب ، ولكن لم يكن لدينا وقت للدخول فيها .

انطلقت القافلة من " المسيجيد " وتملكني الشوق ، ورغم جفاف مشاعري ، ورغم سلفيتي الشديدة ، التي يعيبني البعض عليها ، فقد وجدت قلبي يضطرب ، كنت أعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر من هذه الطرق ، لم تكن هناك سيارات ، ولا مركبات ، فلعلي أسأل غبار الطريق لأجد علامات آثار أقدامه ، وكما قال الشاعر :

تعطر وادي النعمان كله بمرور الحبيب :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت به زينب في نسوة عطرات

فهل يمكن أن يخلو معبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من النسائم المعطرة بالمسك ؟ وعطر عرقه الذي يفوح بالعنبر؟

كانت أرض المدينة الطاهرة تقترب وتقترب ، والعبد الفقير يدندن بأنغام سرية ، تتلاشى وسط هجوم السعال المتواصل ، أخذت أردد الصلاة على النبي ، مع أنغام المدائح النبوية ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كانت الحافلة تضم حوالي ثلاثين مسافرا ، فرغوا جميعا من الحج ، وهم الآن متوجهون لزيارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكني لم أشاهد على وجوههم أي أثر لملامح الشوق ، ولم يكن فيهم ما يدل على تأثر أو عاطفة، كانوا كما هم ، مشغولين بأحاديثهم اليومية العادية ، مما سبب لي الضجر ، لكن ماذا عساي أفعل ؟ فأنا نفسي أتفحص حال قلبي فأجده كالحجر ، يخلو من دعوى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا يمكن أن أقيم رأيا يتعلق بي شخصيا ، لكن لماذا أسيء الظن بالآخرين ؟!

وسط الضوضاء والجلبة الداخلية ، وصلنا إلى " ذي الحليفة " (ويقال لهذا المنزل أيضا آبار علي) حين سمعت الاسم ، بدأت دقات قلبي تسرع وتسرع ، فها قد وصلنا إلى ميقات أهل المدينة ، والمدينة لا تبعد عن هنا أكثر من أربعة أو خمسة أميال ، ومن هذا المكان أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته للحج ، صحابته الذين كانوا يفتدونه بأرواحهم ، رغبت من أعماق قلبي أن أغتسل وأغير ملابسي ، وأنطلق من هذا المكان إلى المدينة مشيا على الأقدام ، لكن السعال ثم الحرارة بالإضافة إلى الوهن والضعف الذي زاد عن الحد منعني وجعلني لا أجرؤ على هذا الأمر .

تمنيت منذ فترة طويلة أن أدخل المدينة مشيا على الأقدام ، والإمام مالك لم يستعمل أي مركبة أو ركوبة في المدينة المنورة ، فقد كان يعتبر الركوب على أي حيوان على الأرض التي بها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حرام ، وكان ينشد هذا الشعر بشوق وذوق كبيرين :

وإذا بلغن بنا المطايا محمدا فظهورهن على الرجال حرام

لكن حين حان وقت تحقيق هذه الأمنية ، جعلني المرض بلا حول ولا قوة . . . يا له من فشل ! واستشرت عاصم : هل يمكن تغيير الملابس فقط ؟ ونظرا لوجود تراب وغبار ، لم يفصح عاصم عن رأيه ، وفي النهاية صبرت ، وجلست ، لكن صوتا كان يردد داخل قلبي بيتا من الشعر الأردي :

فرشت الأهداب طريقا ، وجعلت من رأسي جسرا

فتأدب ، تأدب ، فهذا زقاق الحبيب

كنت أنشد الشعر ، لكن من يسمعني ، جلست أنا العبد المسكين في المقهى ، دون رفيق، أهرب من السعال ، أتطلع إلى المسافرين ، بنظرات ملؤها الأمل ، شربت الشاي في أحد المقاهي ، ولأول مرة أتمتع بعنب المدينة ، كان العنب طيبا ولذيذا ، وقد زاد شوق المحبة من لذته ، ومن سوء الحظ أن أحدا من هذه القافلة لم يجرؤ على الاغتسال أو تغيير الملابس أو التفكير في الذهاب مشيا على الأقدام .

مضت القافلة ، وابتعدت عن " ذي الحليفة " وبعد قليل صاح السائق : انظروا . . . رفعنا أعيننا ، وأخذت العيون المغرورقة بالدموع تلقي بالسلام على الحرم النبوي من بعيد ، وكلما اقتربنا من الهدف المنشود زدت غرقا في حالة من الذهول والحيرة ، وكنت بالإضافة إلى السلام والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أردد بعض أشعار من القصيدة المشهورة لابن جبير[٤] فبعد رحلاته الطويلة في طول البلاد وعرضها ، وحين اقترب من المدينة المنورة تخدرت مشاعره المفعمة بالألم ، فكتب قصيدة بث فيها ما يعاني ، فجاءت قصيدة رائعة فيها بالإضافة إلى المحاسن الشعرية حرارة وحرقة ، فظلت بعض أبياتها منذ فترة طويلة تجري على لساني ، وهكذا بدأت أتمتع بإنشاد هذه الأبيات :

أقول وقد آنست بالليل نارا   لعل سراج الهدى قد أنارا

تقدمنا إلى ما بعد " ذي الحليفة " ووصلنا إلى " بئر عروة " وهو بئر المدينة المشهور، ماؤه عذب ، وصحي ، ويقال إذ ماءه كان يحمل هدية إلى

هارون الرشيد ، ويبعد البئر عن المدينة مسافة ميلين تقريبا ، وكان معظم أصحاب الشوق وعشاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، يدخلون المدينة من هذا المكان مشيا على الأقدام ، لكن قافلتنا لم يخرج منها عاشق واحد ، وكل ما فعله من كانوا معنا هو النظر إلى مباني المدينة ، بعدها كان إعلان السلام على المصطفى ، ثم قراءة الفاتحة .

دخلنا نطاق المدينة المنورة ، وتوقفت الحافلة عند " باب العنبرية " وتم فحص التذاكر ، وما إلى ذلك ثم تم تحديد تاريخ العودة على التذاكر ، وقد تعرف عليّ شخص بفراسته فسألني :

– هل أنت مسعود الندوي ؟

فقلت له :

– نعم

فقال :

– كان سيد أحمد العطاس يبحث عنك الآن ، وبرفقته " شرقي " ثم ذهبا ، ولعلهم يلقونك في الطريق .

وكان شرقي قد جاء بسيد أحمد محضار العطاس مع قافلته كلها ، وانتظر في هذا المكان ، وكان العطاس قد قدم الدعوة أيضا إلى كاتب هذه السطور في مكة المكرمة ، وقد زار سيد محضار العطاس الهند من قبل ، وزار جالندهر ، وقبلت دعوته وأرسلت له برقية عند بدء السفر .

بعد مدة بسيطة اخترقت الحافلة وسط المدينة المنورة ، ووصلت إلى موقف الحافلات ، ومن حسن الحظ أن شقيق سيد محضار العطار الأصغر كان موجودا ، فذهبنا معه دون أدنى تردد ، وفي ظرف خمس دقائق كنا في بيته . . فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فقد التقينا بشرقي ، وأسرار محمد خان (مساعد مدير الأمن) وعظمت علي شاه وغيرهم ، فشكرا لله ألف شكر الذي بفضله وصلنا إلى المدينة المنورة ، رغم ما أعانيه من مرض وضعف ، فهو القادر على أن يوفقنا في الحصول على فيض بركات المدينة المنورة وما ذلك عليه بعزيز .

كانت المرحلة الأولى هنا هي زيارة المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فجهز لنا شرقي الماء الساخن ، فاغتسلنا ، وغيرنا ملابسنا ، وتعطرنا ، ووصلنا الحرم بقيادة صديقنا شرقي ، لم يستغرق الطريق أكثر من دقيقتين ، وصلنا إلى الباب ، وعلى العكس من " خشونة " مكة ، وبساطة الحرم المكي ، بدا الجو هنا لطيفا ، وبدا المسجد النبوي عروس المساجد ، كلما وجهنا أنظارنا ، شاهدنا أعظم وأجمل نماذج الخط العربي والأعمال الفنية ، لكن هل هناك فرصة لمشاهدة هذه الخطوط الجميلة أو الأعمال الفنية الرائعة ؟!

في جو من الرهبة والتأثر صلينا ركعتين تحية المسجد في الروضة المشرفة (أي بين المنبر والقبر الأطهر) ماذا أقول عن الشوق داخل القلب وسط هذا الزحام والهجوم ، ووسط الضجيج والصخب ؟!

بعد الصلاة تقدمت في أدب إلى الشباك النبوي ، وعلى طريقة أهل السلف قلت : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقرأت الصلاة والسلام على النبي ، ثم وقفت أمام قبر الشيخين ، وقلت : السلام عليك يا أبا بكر يا خليفة رسول الله ، السلام عليك أيها الفاروق يا عمر بن الخطاب ، وتقدمت ثم اتجهت ناحية القبلة ودعوت الله ببعض الأدعية المناسبة للزمان والمكان ، ثم ألقيت بعد ذلك نظرة سريعة على بقية أجزاء المسجد النبوي ، يرشدني في ذلك شرقي ، وأخيرا عدت إلى مقر إقامتنا .

كانت هذه المرحلة هي أصعب المراحل ، فقد تتعثر القدم وتزل ، ويذكر أن ابن عمر حين رجع من السفر قال :

- السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ، واكتفى الإمام مالك بأن قال : السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ولكن العلماء والصوفية التالين ، اخترعوا سلامات طويلة ، ولا ندري هل هؤلاء العلماء والصوفية أكثر عشقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن عمر رضي الله عنه ومن الإمام مالك ؟ أو أنهم أكثر معرفة بآداب التعبير عن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ابن عمر رضي الله عنه والإمام مالك .

وأذكر هنا أن بعض أصدقائنا وأحبائنا يرون من الضروري التعبير عن تقديرهم وحبهم لرسول الله ، ورغم ذلك فإني أتساءل هل يمكن التعبير عن فضائل ومحاسن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة أسطر أو خمسة عشر سطرا ؟

نحن من محبي وعشاق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحيثما لا توجد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن سنة صحابته هي المشعل الذي يهدينا على الطريق ، ومن الواضح للجميع أن هناك آدابا اتبعوها في حضورهم عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندئذ يجب القول بضرورة اتباع الطريقة الصحيحة لأكابر الصحابة ، والعالم المخلص الذي يتساهل في مثل هذه الأمور ، نتيجة المحبة الشديدة أو العشق ، هو في الحقيقة يفتح - دون أن يدري - باب البدع .

على كل حال اكتفى العبد الفقير بالسلام ، وتقيد بالسلام المختصر على طريقة ابن عمر والإمام مالك ، أما الضجيج والصراخ والصخب ، والمعلم الجاهل الذي يُقرئ الجهلة من القادمين من البلاد البعيدة والقريبة " السلام " بصوت منفر ، فكل هذا مذموم إلى درجة كبيرة ، ومكروه للغاية ، فلم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يرفعون أصواتهم أو يتكلمون بصوت عال في المسجد النبوي ، ففي ذلك خطورة في " أن تحبط أعمالهم " فقد نبه عمر رضي الله عنه - في عهد خلافته - بعض الصحابة ، حين رفعوا أصواتهم في المسجد النبوي ، ولكننا هنا في وقت السلام على النبي نسمع ضجيجا وصياحا . . . ندعو الله الأمان .

لقد اقشعر البدن ، وتوترت الأعصاب ، فهذا حال الأمة في كل مكان ، وليس فقط في المسجد الحرام ، فهم لا يفكرون في حرمة بيت الله والحجر الأسود ، كما لا يراعون الآداب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي ، والله وحده يعلم إلى متى تنتهك حرمات " الشعائر " ؟! وهو أرحم الراحمين ، بيده العفو والغفران .

تناولنا الطعام عند العودة واسترحنا حتى المساء ، ثم توجهنا لأداء الصلاة في الحرم النبوي ، قضينا بقية أوقاتنا بالغرفة في الطابق الأول ، ثم علمنا بوجود غرفة غالية في الطابق الثاني ، فقررنا الانتقال إليها عند المساء .

سوف يغادر عدد كبير من الزوار من قافلة شرقي في الغد ، الحمد لله قضيت وقتا طيبا رغم السعال والتعب فشكرا لله ألف شكر .

الجمعة ٦ محرم ٦٩ هجرية ٢٨ أكتوبر ١٩٤٩م

بالأمس كنت أشعر بالتحسن ، ولكن الحال تغير صباح اليوم ، وارتفعت درجة الحرارة ، كما زادت الكحة أيضا ، هذا أمر الله . .

وجدت فرصة لأداء صلاة الجمعة في المدينة المنورة لأول مرة ، لكنني كنت متعبا ضعيفا ، وزاد من ضعفي وتعبي تلك الحمى التي اعترتني اليوم .

دارت في عقلي أثناء انتظار الصلاة أفكار متنوعة ، فكرت مرارا : هل هذه الحياة حياة ؟ إذا كان هذا أمر الله ، فأنا قانع ، راض بما قسمه الله . . وبينما أنا غارق في هذه الأفكار ارتفع الأذان ، فنظرت إلى الحارة ، فوجدت السوق قد امتلأ بالصفوف ، وجاءني صوت مكبر الصوت واضحا ، فتيممت ، وتوجهت ناحية القبلة ، وشاركت في صلاة الجمعة ، وفي حالة مرضي هذه ، فإن المشاركة الاسمية في الصلاة نعمة غير متوقعة .

دُعيت عند سيد محضار العطاس لمرتين ، كنت أنوي أن أرتب أموري من اليوم بشكل مستقل ، ولكن عرفت أنه أرسل لي دعوة ، لحضور مأدبة دعا إليها

جميع المسافرين ، وكانت مأدبة وداع ، ولهذا لم يقبل عذري ، رغم أني شرحت له ما أعاني من حمى شديدة ، فلبيت الدعوة وتناولت ما استطعت من طعام ، أدعو الله أن يعيننا دائما .

أجبرني هذا السعال المستمر على البحث عن معالج جديد ، كنت قد سمعت عن طبيب (هوميوباثاتيك) من بهار (الهند) يدعى الدكتور عبد الرحمن ، فأرسلت إليه عاصما ، فوصف له حالتي ، وأحضر لي الدواء ، وقبل المغرب انتقلنا إلى غرفة فسيحة ، في الطابق الثالث ، كان شرقي و أسرار محمد خان ، في غرفة مجاورة ، بينما كان عظمت على شاه يقيم مع أهله في جانب آخر من نفس الطابق ، كان كل شيء متوفرا ، بما في ذلك قدامى الأصدقاء ، ناهيك عن أحاديث أسرار محمد خان الممتعة ، وماذا أقول عن عاطفة الكرم والسخاء ، وحسن الأخلاق التي يتمتع بها صاحب البيت سيد محضار العطاس ، فهو أنموذج لطيبة أهل المدينة ، وكرمهم وسخائهم ، لكن كان لمرضي وضعفي أثر في عدم الاستفادة الكاملة من هذا النعيم ، فليعيننا الله .

السبت ٧ محرم ٦٩ هجرية ٢٩ أكتوبر ١٩٤٩م

زالت عني الحرارة لكن السعال الشديد ظل يلازمني ، فأعطاني الطبيب دواء آخر ، ورقدت في البيت طول اليوم ، من جراء ما أصابني من ضعف شديد ، فحضر لزيارتي كل من أمجد علي (الرامبوري) ومولانا إسماعيل (الكوجرانوالي) وشرفني بالحضور معهما صديق سلفي المشرب ، ولهان ، يدعى محمد إشفاق ،كنت قد تعرفت عليه في مكة ، رجل طيب وجيد ، تجري

السلفية في عروقه ، والتوحيد في دمه ، نال من فيض العلم القديم والجديد ، وهو رجل شجاع لا يخشى في الحق لومة لائم ، يعتمد كلية على الله ، كما كان معهم أيضا أحد علماء أهل الحديث من مدينة ملتان .

بعد صلاة العشاء سعدت كثيرا بصحبة شرقي ، وأسرار محمد ، وغيرهما من الأحباب ، ويجب أن أشير هنا إلى أن شرقي من سلالة أسرة اشتهرت بوجود الشيوخ فيها ، وهو ابن عم رجل عاشق للرسول ، ومنذ خرج من كراتشي طرأت عليه حالة خاصة ، فقد التزم التزاما كاملا في أدائه لمناسك الحج بالسنة المشرفة ، واتبع في كل خطوة العزم والثبات ، وقد ظهر هذا واضحا عليه في المدينة ، فأخذ يسمعني بعض الأشعار عن الحالة التي طرأت عليه في مكة المكرمة ، وكنت بدوري منذ الصباح أشتاق لسماع بعض الأشعار المملوءة بالعواطف ، فكانت هذه الفرصة غنيمة بالنسبة لي .

أثرت أشجان شرقي ، وعرضت عليه حالي ، وسمعت منه وشعرت بالحرارة والحماس ، لكن جعبتي كانت خالية من أشعار المدائح العربية ، وكان ما لدي يخلو أيضا من الألم والحرقة ، فأشعار حسان بن ثابت أيضا لا تروي ما أُعانيه من ظمأ ، وهناك قصيدة لكعب بن زهير (بانت سعاد) فهي رغم مكانتها في الشعر العربي إلا أنها لا تطفئ النار المتأججة في القلب ، وهكذا وصلنا إلى قصيدة البوصيري المشهورة " قصيدة البردة " ولا شك أن بينها بعض الأبيات تجاوز فيها البوصيري " مقام النبوة " لكن كل بيت من أبياتها مملوء بالحرقة والألم ، والعبد الفقير رغم سلفيته ، يقرأها ويتمتع بها ، وقد كتب عبد الرحمن البرقوقي في شرح ديوان حسان أنه " لا يوجد في الشعر العربي حتى الآن من

شعر المدائح ما ترك أثره في القلوب سوى شعر البوصيري وشوقي " ولا شك أن العبد الفقير لا يستطيع الآن أن يقطع برأي فيما يتعلق بشوقي .

وبعدها يرد ذكر المدائح في الشعر الأردي ، وخاصة أشعار مولانا ظفر علي خان ، فقد أثرت أشعاره في قلبي تأثيرا عظيما . . . ثم ماذا حدث ؟ لقد أثار الذكر الجميل حصان الشوق ، فاندفع شرقي يسمعنا أشعار المدائح الرائعة ، وهو يتمايل طربا ، فأدخل الفرح والسرور على قلوبنا وأرواحنا ، وخلاصة القول أنها كانت صحبة ممتعة حققت لي سعادة غامرة .

الأحد ٨ محرم ٦٩ هجرية / ٣٠ أكتوبر ١٩٤٩م

شعرت في الصباح أنني استعدت صحتي ، فرغبت في الذهاب إلى الحرم ، ذهبت عند الشباك النبوي فوقفت في أدب واحترام ، كان الناس يطيلون في سلامهم مستخدمين عبارات طويلة ، وكانوا يقفون على هيئة المصليين عاقدين أيديهم على صدورهم ، تلهج ألسنتهم بالدعاء وطلب الحاجات ، والعوام (ويبدو أن الأمة كلها فيما يتعلق بالدين عوام) يرددون السلام على النبي بصوت عال ، بعد كل صلاة ، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وهي تابعة للحكومة ، لا تتدخل في هذا الأمر ، الذي يصدر عنهم على أنه حب أو عقيدة ، رغم أنه خارج عن اللياقة والأدب ، كما أن الهيئة أيضا لا تلزم المعلمين باتباع الأدب والاحترام في ذلك ، أما العبد لله فحاله غير هذه الحال ، فالإمام مالك من أهل المدينة المنورة ، وكان على علم جيد بآداب المحبة ، وآداب العقيدة ، يقول : " إن الزيارة المتكررة تُقلل تدريجيا من الهيبة والوقار " وهذه هي الزيارة

الثانية لي ، والله يعلم حال القلوب ، ففي هذا الجو من الطمأنينة ، تدمع العين أحيانا ، لكن قانون المحبة فريد وعجيب ، فالتأثير والتأثر يختلفان أيضا باختلاف الطبائع والأمزجة ، والألفاظ التي عبر بها ابن جبير الأندلسي بطريقته الخاصة ، هي نموذج طيب لتأثر رجل عاشق متأدب ، وعاشق حقيقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن وصل إلى المدينة حضر للسلام على النبي صلى الله عليه وسلم :

وحين دنونا لغرض السلام قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا

وحين اقترب لأداء السلام ، أبطأ من سيره وأمسك بزمام الوقار والأدب :

فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا ولا نرفع الطرف إلا انكسارا

والآن وقعت العيون على الأرض ، فلننظر من الشباك هنا وهناك ، لكن الرجل لم يرفع ناظريه تأدبا وخشية :

ولا نظهر الوجد إلا اكتتاما ولا نلفظ القول إلا سرارا

فالسكوت هنا أفضل من إظهار الوجد والتعبير عن الشوق ، وما يقال هنا يجب أن يقال بصوت خافت :

سوى أننا لم نطق أعينا بأدمعها غلبتنا الفجارا

نعم . . . لا يمكن أن نسيطر على العيون ، فغلب طوفان الدموع على أدبنا ووقارنا .

صليت الظهر في الحرم ، ورغبت من كل قلبي أن أُلقى نظرة على النقوش والزخارف التي تزين جدران المسجد ، وهي من ذكرى العهد التركي ، ولكن لم أكد أفرغ من السنـة ، حتى بدأ ضوضاء وضجيج " الصلاة والسلام " فأصابني نوع من الكدر ، وشعرت بأن الأمان يكمن في الخروج من الحرم ، فماذا عساي أفعل ، وأنا أشاهد " المنكر " أمامي ؟!

ذهبت قبل المغرب إلى الدكتور عبد الرحمن ، فسمع مني وصفا لحالتي ، وأعطاني دواء جديدا ، وبعد المغرب رجعت إلى غرفتي ورقدت في الفراش ، وفي الليل عاودني السعال ، فحرمني النوم تماما .

الاثنين ٩ محرم ٦٩ هجرية / ٣١ أكتوبر ١٩٤٩م

كان للدواء الجديد أثر ما ، لكن صحتي لم تكن مطمئنة بعد ، واستمر سيد محضار العطاس ، وشرقي ، وأسرار محمد يسألون باستمرار عن صحتي ، ولا يمكن أن أنسى ما أحاطني به سيد محضار العطاس من كرم وعطف .

مرت أربعة أيام ، ولم نبدأ بعد سلسلة اللقاءات والتعارف ، أرسلت عاصما إلى بعض الناس الذين حملت لهم خطابات تعارف من بعض الأحباب في الرياض ، فقد كان يجب علينا - على الأقل - تسليم هذه الخطابات ، وعندئذ تبدأ سلسلة الاتصالات .

كان علينا أن نلتقي بأحد تجار الكتب ، كان قد طلب كتبنا ، فربما تعاطف الرجل مع الدعوة ، واستمر عاصم منذ الظهيرة يقوم بهذه المهمة .

صليت اليوم في المسجد النبوي والتقيت بالطبيب المعالج ، وبعد المغرب جاءنا الأستاذ محمد الحافظ ، وكان هذا أول نجاح لعاصم ، وكان ماجد أسعد قد أعطانا له خطابا ، وهو أستاذ ماجد أسعد ، ويعمل مدرسا بالمدرسة الشرعية ، وهو عليم ببواطن الأمور ، عنده شوق للقراءة والمطالعة ، دار بيننا حديث لفترة طويلة ، فقد قرأ أربعة من كتبنا ، فقدمت له الكتابين الأخيرين ، وكان على دراية بشكل إجمالي بمنهج الجماعة الإسلامية ودعوتها ، وودعنا بعد ساعة ونصف على موعد بلقاءات أخرى فيما بعد .

كان لدينا خطابات لمدير المدرسة الشرعية ، محمد حبيب أحمد (وهو ابن شقيق مولانا حسين احمد) (٥) بالإضافة إلى خطابات باسم المحررين في جريدة المدينة المنورة ، قمنا بإيصالها إليهم ، وقد وعدوا عاصما باللقاء ، وكان قد اعتذر لهم نيابة عني لظروفي المرضية .

الثلاثاء ١٠ محرم ٦٩ هجرية / أول نوفمبر ١٩٤٩م

في الصباح زرت مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت الشهيرة ، التي أسسها شيخ الإسلام التركي عارف حكمت منذ مائة سنة تقريبا ، ولا يوجد بالمملكة العربية السعودية مكتبة تماثلها من ناحية ما تضمه من نوادر ومخطوطات ، وقد خصص لها شيخ الإسلام مبنى رائعا ضخما ، ووقف للإنفاق عليها ممتلكات كثيرة في البلقان ووسط آسيا ، إلا أن الممتلكات التي كان قد وقفها في البلقان ، ضاعت قبل الحرب العظمى ، كما صودرت بقية الممتلكات بعد الانقلاب التركي ، كان يعمل بالمكتبة عدد لا بأس به من الموظفين ، ولا يوجد الآن

سوى مديرها الشيخ إبراهيم حمدي ، الذي يحتل وظيفة تتقلدها الأسرة من عهد جده ، ومنذ أكثر من عشر سنوات تدهورت الحالة المالية للمكتبة ، فقدم إبراهيم حمدي إلى الهند ، وقد استضفته في مسكني ، الملحق بمكتبة بتنه الشهيرة ، وعاد الشيخ بعد أن تلقى وعودا بإرسال مساعدات شهرية معقولة من حيدر آباد وبهوبال ، ولا تزال هذه المساعدات تصله حتى الآن ، وربما تكون قد توقفت ، وهناك توقعات باسترجاع الأوقاف في ظل الحكومة التركية الجديدة ، ومن العجيب أن هؤلاء رفضوا قبول معونة حكومة المملكة العربية السعودية !! .

هذا هو تاريخ المكتبة باختصار ، وكنت قد سمعت عنها منذ مدة طويلة ، والآن واتتني الفرصة لمشاهدتها : المبنى رائع ومتين ، رتبت الكتب في نظام دقيق ، وهي تضم فهارس مرتبة على الطريقة القديمة ، ولكن أين القراء ؟! وأين المستفيدون ؟! والعبد الفقير نفسه ، في سفره هذا – ترك مسألة التلمذة التي كان عليها ، فالقراءة والكتابة تحتاج إلى هدوء وسكون ، بينما التعريف بالدعوة ، ولقاء الناس أمر يحتاج إلى الحركة هنا وهناك والعدو يمينا وشمالا .

ألقيت نظرة سريعة على المكتبة ، فاطمأن قلبي ، وقد لقيني الشيخ إبراهيم حمدي الذي اشتهر بين الناس عامة باسم إبراهيم الخربوطلي ، لقيني حسب العادة بحرارة شديدة وبحب وإخلاص ، وهو في انتظار سيد سليمان الندوي ، وظل يسألني عن أخي المحترم سيد هاشم الندوي ، لكنني لا أعرف شيئا عن أحواله منذ زمن طويل .

في المساء ذهبت إلى " دار الحديث " وهي مدرسة دينية ، أقامتها جماعة أهل الحديث بالهند ، وهي تدار في الغالب بمساعداتهم وتبرعاتهم ، ورئيس المدرسين بها يدعى الشيخ عبد الرحمن إفريقي ، رجل طيب وصالح ، وهو بجانب عمله هذا يلقي دروسا في الحرم أيضا ، كان قد قرأ كتابين من كتبنا في السنوات الماضية ، فقدمنا لمكتبة مدرسته مجموعة كاملة من مطبوعاتنا ، وتبادلنا الأحاديث أيضا ، وبينما كنا نتكلم قال أحد الحاضرين :

- هل ترغب في مقابلة (رئيس المحاكم الشرعية) (رئيس القضاة بالمدينة المنورة)

فقلت :

- ضروري أنا مستعد في كل وقت .

وتم الاتفاق على اللقاء في الصباح ، على أن يرافقنا الشيخ عبد الرحمن من دار الحديث .

في الطريق تسلمنا الخطابات الواردة إلينا ، كان مولانا عبد الوهاب الدهلوي قد أرسلها إلينا بعد أن جمع خطابات خمسة أو ستة أيام .

كان للتحرك والتنقل واللقاءات والأحاديث التي جرت من الصباح حتى المساء أثر على صحتي ، فعاودني السعال بعد العشاء ، ولم يغمض لي جفن طوال الليل ، والآن لم تعد لدي طاقة على الحركة ، لكن ما العمل ؟! بعد أن فقدت القدرة على الصبر أيضا ليرحمني الله . .

الأربعاء ١١ محرم ٦٩ هجرية / ٢ نوفمبر ١٩٤٩م

لم تنفع معي أدوية الدكتور عبد الرحمن الهوميوباثاتيكية ، فقد مر أسبوع كامل ولا يزال التعب يلازمني ، أخبرني غسكاني تاجر الكتب أن حكيما جيدا يسكن قريبا من المدرسة الشرعية ، فذهبت إليه في الصبح ، فسألني :

- هل تناولت شيئا ؟

فقلت :

- نعم شربت الشاي فقط ، ومنذ مدة .

فقال :

- لا فائدة من فحص النبض الآن ، تعال غدا

فقلت :

يا سيدي إن الألم شديد ، كيف يمكن الانتظار مده أربع وعشرين ساعة ، سوف تطلع روحي .

فرق قلب الحكيم ولان ، وأعطاني جرعة من الدواء على طريقته الخاصة ، وأرشدني إلى ضرورة استعمال هذه الجرعة بعد العصر .

وفي الطريق عرّجت على مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ، وبقيت هناك فترة ، فقد وجدت صديقي محمد الثاني الندوي (وهو ابن أخت صديقنا

وحبيبنا وأخينا الشيخ أبي الحسن الندوي)[٦] فتحدثنا طويلا ، وكنت أريد أن أظل معه فترة أطول ، لكن ضعفي حال دون ذلك ، وقد ورد ذكر كتاب " محب الدين الطبري " وعنوانه " القرى لقاصد أم القرى " وكان كتاب تاريخ مكة المفصل قد طبع حالا ، ولا يوجد في السوق ، فوعد الشيخ إبراهيم حمدي بتزويدنا بنسخة ، وأبان عن رغبته في الحضور إلى حيث نقيم ، وقد علمنا أنه حضر لزيارتنا بعد المغرب ، بينما كنا في المسجد النبوي .

بعد المغرب شرفنا بزيارته مولوي حبيب الله ، نجل مولانا أحمد علي اللاهوري ، الذي يقيم هنا منذ سنة كاملة ، وينوي الإقامة هنا لسنة أخرى ، يعمل مولوي حبيب الله مدرسا بالمدرسة الشرعية ، كما يقوم بالتدريس في الحرم أيضا ، ويحضر درسه هذه الأيام عدد كبير من حجاج باكستان والهند .

تحدثنا معا لوقت طويل ، ويبدو شابا صالحا تقيا ، عارفا ببواطن الأمور ، قرأ معظم مؤلفات المودودي ، كما يحتفظ بملف كامل لمجلة ترجمان القرآن ، وهو يبحث عن هذا النوع من المطبوعات العربية .

وبينما كنا نتبادل الأحاديث إذا بسيد أمجد يأتي إلينا بالشيخ العالم بدر الدين الغلاييني من قطنا (بالشام) وقد تحدثنا معه لفترة طويلة حديثا مفصلا ، وهو متأثر بدعوة الإخوان المسلمين ، ولهذا وجد كلامنا لديه أذنا صاغية ، فظل يمطرنا بأسئلة عن الحركة الإسلامية والجماعة الإسلامية ، كما سألنا عن تعليم المودودي ودراساته وغير ذلك ، والخلاصة أنني لأول مرة ألتقي اليوم بعالم على شاكلتي في المدينة المنورة .

كان أمجد يبحث ويفتش ويلتقي بالناس ، ولو لم يكن يجهل اللغة لكان له شأن آخر ، استمرت الأحاديث لفترة ، وانشرح الفؤاد ، وفرح الغلاييني كثيرا بمطبوعاتنا ، وسر كثيرا بلقائنا ، وكان مسافرا في اليوم التالي ، فظل يتأسف ، لأنه تعرف علينا في اليوم الأخير من وجوده هنا .

لا يزال العبد الفقير لا يستطيع أن يفعل إلا القليل ، وذلك بسبب مرضه وضعفه .

الخميس ١٢ محرم ٦٩ هجرية / ٣ نوفمبر ١٩٤٩م

في الصباح وقبل تناول الفطور وصلت إلى الحكيم عبد القادر (وهو نجل الحكيم نابينا رحمة الله عليه) ففحص نبضي ، وتفضل علي بالدواء ، فقلت :

- كم أدفع لك ؟

فقال :

- الدعاء فقط

فقد كان مسافرا بعد غد ، لهذا أعطاني دواء ثلاثة أسابيع ، أدعو الله أن يحفظ عليه صحته .

في طريق العودة اعتذرت لإبراهيم حمدي (في مكتبة شيخ الإسلام) فقد كلف الرجل نفسه ، وجاء لزيارتنا بالأمس ، رغم كهولته وتقدمه في العمر ، وإبراهيم حمدي رجل في غاية التواضع ، دمث الخلق ، حسن العشرة ، قدم

إلينا بكل حب نسخة من كتاب " القرى لقاصد أم القرى " وكان قد شارك في تصحيح بعض أجزاء الكتاب ، ولهذا وصلته بعض النسخ ، وحين كنت أودعه ، قدم لي دعوة لتناول الشاي معه في الصباح .

بدأت تناول الدواء ، وشعرت بالفائدة من أول جرعة ، رقدت في البيت طول اليوم بسبب الضعف والوهن ، فكنت إذا ما زارني شرقي أو غيره تحدثت معه قليلا ، وإلا فكنت أغرق في مختلف الأفكار إذا بقيت وحدي ، أما عاصم فقد حمل الكتب وأخذ يدور هنا وهناك ، على كل حال كان وأمجد يقومان بعمل طيب .

في الليل التقى أمجد بعالم أزهري معقول ، قدم له كتبنا العربية ، وطلب منه أن يلقي بفكرة على كتاب " دعوتنا " وفي النهاية ذكر اسمي قائلا :

- أين هو ؟ لقد قرأت اليوم في (جريدة المدينة المنورة) خبر قدومه

وهكذا جاء به أمجد علي مباشرة ، فعانقني الرجل بحرارة شديدة ، وبحب وعاطفة جياشة ، وقال :

- كنت أقرأ مقالاتك في الفتح ، لقد جئت الآن لأعرف بيتك ، إذ أنني مرتبط بموعد مع صديقين ، وبعدها لن يكون بيننا لقاء واحد بل لقاءات متعددة .

قبل النوم جاء سيد عظمت علي شاه ، وظل جالسا لفترة طويلة ، تبادلنا الأحاديث ، حاولت كثيرا تشجيعه بل حثه على العمل الدعوى ، فيمكنه أن يأتي بنتيجة طيبة مع حجاج الهند وباكستان ، فالجو هنا - مقارنه بجو مكة - هادئ والزحام قليل ، لكن رفاقنا المؤهلين للعمل الدعوي لم يخرجوا من بيوتهم بعد !

استرحت في الليل فقد خفت حدة السعال ، وإن شاء الله يتم الشفاء ، والراحة الكاملة خلال يومين .

الجمعة ١٣ محرم ٦٩ هجرية / ٤ نوفمبر ١٩٤٩م

في الصباح الباكر تمتعت بضيافة إبراهيم حمدي ، فمسكنه ملحق بالمَكتبة ، كان مجلسنا في غرفة مزينة ، مفروشة بأثاث فاخر للغاية ، وهي تقع في الطابق الثاني ، ومن هنا كنا نشاهد مبنى الحرم النبوي ، والقبة الخضراء ، على بعد قدمين فقط ، منظر يشرح القلب ويسر النفس .

تجدر الإشارة إلى أن مساكن العرب هنا فاخرة ، ولا يمكن لديوانات أعياننا ورؤسائنا في شبه القارة أن تدانيها فخامة وروعة ، لقد وهب الله أهل الحجاز الأموال الكثيرة ، لكنها تنتهي تماما مع نهاية كل عام ، إذ ينفقونها في أمور لا طائل منها ، فينفقونها على مساكنهم وبيوتهم التي تكلف أموالا باهظة ، دون حاجة لذلك .

بعد تناول طعام الفطور ، ذهبت لمشاهدة نسخة مخطوطة للمصحف ، يقول عنها إبراهيم حمدي إنها " مصحف عثمان " رضي الله عنه ، وقد حمل هذه النسخة معه حين جاء إلى بتنه ، وهناك عارضت هذا الكلام ، ورفضت هذه الفكرة ، فرجال المكتبات عادة مصابون بداء المبالغة ، وعندنا في بتنه أيضا كان العاملون في المكتبة " يكذبون " كثيرا ، وحين كنت أصحح بياناتهم ، كانوا يتألمون كثيرا ، لكني اليوم لن أثير أحدا ، ولن أعاكس أحدا ، وقد أخبرت عاصما اليوم بحقيقة الأمر .

قدم لي الشيخ حمدي كتابين عن تاريخ المدينة المنورة ، وقد سألته عن قيمة الكتابين فقال :

- هدية

فسألته ثانية ، وتمسكت بالسؤال ، فقال :

- الكتابان هدية ، وما ستعطيه صدقة وإحسان .

فقلت :

- أستغفر الله ، من نحن حتى نعطيك صدقة ؟!

لكن الأفكار ظلت تدور في رأسي : ماذا عساي أفعل ؟ وبينما كنت غارقا في حرج شديد ، طلبت منه الإذن بالانصراف ، وفي الطريق أخذت رأي عاصم، لا بد من إعطائه قيمة الكتب على كل حال ، واتفقنا معا على هذا الرأي .

أعددنا العدة للصلاة ، ووصلنا الحرم النبوي ، حيث كان الناس مشغولين بالتلاوة والتسبيح والتهليل ، بدأت الخطبة في وقتها ، لم يكن فيها ما يلفت الانتباه ، والإمام الحالي يتولى في الأصل منصب القضاء ، وهو ينوب هذه الأيام عن الإمام الأصلي صالح الزغببي .

كانت التلاوة عادية ، فعلماء نجد فيهم تواضع وبساطة ، كان أصدقاؤنا من الهنود والباكستانيين ، المتسامحين المتساهلين ، ممن يتأثرون بالظاهر ،

يسبحون بحمد الحكام الأتراك (الخلفاء) بعد أن شاهدوا آثارهم المادية الممثلة في زخارف المسجد النبوي وزينته ، لكن ماذا كان وراء كل هذا ؟ إنهم لا يدرون شيئا ، لا أحد يشك في محبتهم وعقيدتهم تجاه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، لكنهم أيضا كانوا يحبون بقاء حكومتهم أكثر من محبتهم لخير وصالح أهل الحرمين ، فإذا ما انتشر التعليم ، فإن مسألة طاعة المريدين للمرشدين ستكون كاللعب بالنار تماما ، ولهذا أراد الأتراك أن يبقى أهل الحجاز على جهلهم ، وكانت هذه سياسة متعمدة ، لا يمكن أن يشك فيها إنسان خبير ، وللأسف انفلت قلمي هنا أيضا في هذه الصفحات القليلة من يومياتي ، وربما كان لزيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم دخل في هذا .

التقيت ليلا بأحد أعضاء جماعة أهل الحديث الباكستانيين ، كنت قد التقيت به في منى ، وكان بيننا موعد هنا في المدينة المنورة ، لنناقش معا بعض الأمور بالتفصيل ، لكنه حاول التهرب من النقاش ، والحقيقة أن بعض الناس لا يضعون نصب أعينهم الرغبة في الوصول إلى الحق ، كما أنهم لا يعملون شيئا من أجل إقامة الدين ، وعلى سبيل الحيلة يجعلون الموضوع " اللحية " و " مسلك الاعتدال " ويحاولون دائما الانغماس في النقاش ، والاستمرار في التحاور ، لفترة طويلة دون الدخول في لب الموضوع ، ومن جانبي أيضا لم أر من المناسب إثارتهم أكثر .

السبت ١٤ محرم ٦٩هجرية / ٥ نوفمبر ١٩٤٩م

ظهرت فائدة الدواء والحمد لله ، لم يعد السعال يعاودني إلا لماما ، وبدأ النوم يزورني طوال الليل ، وكل ما أشكو منه الآن هو الضعف العام ، وسيزول بالتدريج إن شاء الله .

زراني صباحا تاجر الكتب غسكاني ؟ وهو من سكان ما وراء النهر ، رجل صالح للغاية ، يدرس بالمدرسة الشرعية ، ولديه أيضا " مكتبة " لبيع الكتب أمام باب الرحمن ، ونظرا لبسأطته ، وحبه للعلم فإن معظم أهل العلم يجلسون عنده ، فتصبح هذه وسيلة للتعارف بين أهل العلم من كل مشرب .

في العام الماضي أعطاه الشيخ قمر الدين بعض الكتب ، كما أرسل له بعض الكتب في رمضان ، وقبل شهر أرسلنا " طلبية كتب " إلى المكتبة المركزية بناء على اقتراح فضل الحق (من جمون في كشمير) ، ووصلتنا هذه الكتب في مكة منذ شهر تقريبا ، وقبل قدومنا بيومين فقط جاء أمجد بالكتب المطلوبة ، وصلت الكتب لكن سعر تغيير العملة كان مشكلة بالنسبة له ، فحين طلب الكتب كان سعر التغيير ٩٢ ريالا لكل مائة روبية ، والآن وصل السعر إلى ١٢٥ ريالا و١٢٨ ريالا لكل مائة روبية ، وهنا لا يمكن أن تزيد قيمة الكتاب عن ريال واحد ، وحتى بريال واحد ، يكون سعر الكتاب غاليا ، إذا ما قورن بالمطبوعات المصرية ، وقيمة الكتاب عندنا روبية ، فإذا أعطى خصما قدره ٢٥٪ يبقى ١٢ آنه ، فإذا ما أضيفت مصاريف البريد ، تصبح قيمتها على التاجر ريالا ، والتاجر ليس على استعداد لبيعها دون أن يكسب أقل من ٢٥٪ أو ٢٠٪ ،

وقد قبل مسئولو " تاج كمبني " ريالا مقابل الروبية الباكستانية أي بخسارة قدرها ٢٠٪ تقريبا ، هذا ما شرحه لنا غسكاني تاجر الكتب ، وكنا بدورنا قد قبلنا في الرياض ومكة - بصورة مؤقتة - ريالا مقابل الروبية ، فعرضنا عليه هذا الأمر أيضا ، ومثل هذه القضية يمكن أن يتفهمها جيدا أصحاب المكتبات ، فهم يعقلونها أكثر منا ، ولا ندري هل يمكن تعويض تكلفة الطباعة بهذا الشكل أم لا؟!

وما يمكن أن أقوله في هذا الأمر هو : أعطنا ما معك الآن ، وإذا لم يقبل أصحاب المكتبة ، فسوف أتحمل الخسارة بنفسي ، فأنا لا أقوم بالتجارة ، بل أقوم بالدعوة ، أما فيما يتعلق بالتعامل في المستقبل ، فسوف نكتب عن ذلك بعد استشارة مدير المكتبة ، وتحدثنا عن هذه " الصفقة " وعن أمور أخرى كثيرة .

قال الرجل إنه من ناحيته هو سيقوم بإرسال مطبوعاتنا إلى أصدقائه الأتراك هدية ، وبشكل عام كان لحسن أخلاقه وحديثه اللطيف وتواضعه أثر كبير علينا .

بعد العصر ذهبنا إلى بيت نسمـى خان ، وهو من سكان منطقة البنجاب ، وهو يقيم هنا منذ ٣٦ سنة ، فتأثر بالجماعة الإسلامية ، وكان قد شارك أيضا في اجتماع إله آباد ، كان لقاؤنا في مكة المكرمة ، ثم التقينا هنا بالمدينة وقد طلب مني أن أساعده في العمل بالدعوة في أوساط المتكلمين بالأردية في المملكة العربية السعودية ، ولكني عرفت بأنه ليس أهلا لذلك ، فوعدنا بتقديم العون

المالي والمساعدة المادية ، كان قد بدأ مشروع تجارة جديد ، قال إذا وفق في هذا العمل ، فسوف يتحمل مصاريف وإقامة ومعيشة عضو عامل في المدينة المنورة ، وقدرنا همته وعزيمته ، وانتهى المجلس بالدعاء ، ودعانا لتناول طعام الغداء في بيته غدا .

بعد المغرب زارنا الأستاذ محمد الحافظ ، وكان هذا هو اللقاء الثاني معه ، فجلسنا فترة طويلة ، وتحدثنا في موضوعات متنوعة ، ووعد بأن يصحبنا لمشاهدة آثار المدينة المنورة ، لكن توقع هذا الأمر من رجل مشغول جدا أمر غير معقول .

لم أتمكن من شراء كتاب عبد القدوس الأنصاري " آثار المدينة المنورة " من السوق ، ولهذا وعد بأن يعطيني نسخة لقراءتها ، سيكون هذا طيبا لو أوفى بوعده .

زارني أحد النجديين في الليل ، كان قد عاش في الهند ، ويعرف الجماعة ، وهو رجل طيب ، صالح متواضع ، كان أسرار محمد خان قد وعده بأن يرسل إليه مجموعة كاملة من مطبوعاتنا ، فهو يفهم الأردية ، ولما كان الوقت قد تأخر ، أجلنا الحديث إلى لقاء آخر .

الأحد ١٥ محرم ٦٩هجرية / ٦ نوفمبر ١٩٤٩م

وصلنا خبر قدوم سيد سليمان الندوي ، لكني لم أتمكن من التشرف بزيارته

نظرا لضعفي ، والآن بعد أن تحسنت حالتي ، بحمد الله ، عقدت العزم على زيارته رغم أن السعال يعاودني أحيانا ، ولا أتحمل المشي لمسافة طويلة ، وفي الصباح بعد تناول الفطور ، وصلت إلى رباط " بهوبال " فوجدت الجلسة ساخنة ، كان صديقنا شرقي من البارزين في المجلس ، وكان التصوف هو الطابع الغالب على الحديث ، وجاء ذكر عمارة المسجد النبوي وزخرفته وتزيينه ، كان سيد سليمان الندوي يتحدث عن حبه للأتراك وتقديره لهم ، وجاء ذكر المدائح النبوية ، فأسمعنا سيد سليمان الندوي أيضا بعض أشعاره . . . والخلاصة أنها كانت صحبة طيبة ، تناولنا الطعام بعدها عند ننهى خان وكان معنا أمجد علي وعاصم ، وطعام الفطور هنا يشمل جميع أنواع الأطعمة وكأنه وجبة كاملة ، كما الحال في منطقة بهار بالهند ، و بعد الظهر أو قبيل العصر تناولنا طعام الغداء ، ويروج هنا تناول طعام خفيف في الليل ، وقد وجدنا هذا التقليد في العراق أيضا ، ولهذا فالدعوة هنا تقدم عادة في النهار بينما يكون الوقت بين الظهر والعصر مخصصا للراحة ، وليس من المعتاد أن تتم لقاءات أو تضرب المواعيد في هذا الوقت ، كما أن أصحاب المحلات يغلقون حوانيتهم بين الظهر والعصر .

بعد العصر شرّفنا بزيارته الأستاذ جواد المرابط (مدير الحج السوري) وكان مقر إقامتنا - بفضل من الله وكرمه - مناسبا للقاءات ، فقد أكرمنا سيد محضار العطاس بغرفة طيبة ، مفروشة ومعدة بكل شيء ، وجواد المرابط من

سكان دمشق ، وهو رجل غيور ، فاهم ، عاقل ، وصاحب علم ، أكمل دراسته في باريس وحصل على درجة الدكتوراه في القانون ، لكنه لم يفصح عن ذلك أبدا ، كان محافظا لدمشق وبعد وصول حسني الزعيم للسلطة عين مديرا لبعثة الحج ، فقد كان حسني الزعيم يريد أن يبعده كلية ، لكن نظرا لمعارضة الوزراء الآخرين والمستشارين بالحكومة ، اقتنع بأن يبقيه مديرا لبعثة لحج ، وقد قدم في حج هذا العام بهذه الصفة ، وقيل إن تعيينه في هذا المنصب تحقير لعلمه ، لكنه يقول : الحمد لله ، إنني مطمئن ومسرور بهذا المنصب . مع أنه يمكن عودة الأمور إلى وضعها السابق بعد الانقلاب الحالي [٨] وكان عاصم قد التقي به أيضا في مكة المكرمة ، أما هذا اللقاء فهو الأول بالنسبة لي .

تحدثنا بصراحة ووضوح ، وقد فهم قصدي بسرعة ، نظرا لعلمه وسعة اطلاعه ، ويبدو رجلا حصيفا صائب الرأي ومخلصا ، دعاني لزيارة سوريا ، ودعوته لزيارة باكستان ، فقال : إذا أرسلتم لي دعوة في المؤتمر القادم، فلا بد أن أحضر ، فقلت : إن شاء الله سنبذل الجهود في سبيل ذلك ، واستمر الحديث حتى المغرب ، لكنني لم أشبع من الكلام معه ، ولهذا طلبت منه أن يقبل دعوتي لتناول الشاي بعد عصر الغد ، فقبل دعوتي .

يسافر رفاقنا شرقي وأسرار محمد خان وعظمت علي شاه إلى جدة اليوم ، وسيصبح البيت بذهابهم هادئا ، فنحن شخصان فقط ، لكننا على كل حال مشغولان في العمل ، كنت فرحا مسرورا بنجاتي من السعال ، بالإضافة إلى سرور آخر بسبب لقاءاتي بالعديد من الناس .

الاثنين ١٦ محرم ٦٩ هجرية / ٧ نوفمبر ١٩٤٩م

زرت مكتبة شيخ الإسلام في الصباح الباكر ، أخبرني حمدي بأن الناس يطلبون كتبنا بكثرة ، وتلك المجموعة للمكتبة فأعطوني مجموعة أخرى ، حتى يمكن أن أعطيها للراغبين في القراءة ، لم يكن هناك مجال لهذا ، ولكن بناء على طلبه وإصراره ، لم تكن هناك فرصة للإنكار .

الحمد لله بدأ عملنا ، وبدأنا نتعرف على الناس ، ونعرف الناس بدعوتنا ، وكتبنا تدور بسرعة بين أيدي الناس يتبادلونها فيما بينهم ، وعاصم الآن يتكلم العربية بسهولة ، ولا يجد صعوبة في التحدث مع الناس ، وتلجلجه الفطري في الحديث هو أمر طبيعي ، فهو يعاني من ذلك في تحدثه بالأردية أيضا ، وهكذا صارت له مقدرة على بيان أفكاره ، وهو يقوم الآن بالتعريف بالدعوة بين المتحدثين بالعربية .

بعد العصر حضر جواد المرابط ، فأعد له عاصم واجب الضيافة بطريقة طيبة ، وكان نجل صاحب البيت قد أعطانا " طقم شاي " جميل ، لكن الضيف تناول فقط كوبا من الشاي ، وتحدثنا بالتفصيل في أمور كثيرة ، وفهم كل منا الآخر ، وتواعدنا على تبادل الرسائل مستقبلا ، والتعاون معا ، فالرجل في بلده له تأثيره وفاعليته ، وقد ذكر لي عن فلسطين أمورا كان من المستحيل أن أعرفها بأي وسيلة أخرى ، وقد سأل عن بعض الكتب الجديرة بالقراءة في التفسير والحديث ، ودوّنها في مفكرته ، واستمرت الجلسة لأكثر من ساعة ، لكنها لم تشبع من نهمي ، ولم تطفئ من ظمئي ، فتواعدنا على أن نلتقي يوم الخميس في فندق " التيسير " .

زارني بعد المغرب شاب يدعى محمد زين الشنقيطي ، يسكن بالقرب من مراكش ، وهو يدرس هنا في الصف الأخير بالمدرسة الشرعية ، وسيتخرج بعد ستة أشهر ، واستفدت أيضا من قدوم العالم النجدي الشيخ محمد بن تركي ، الذي تأثر كثيرا بمطبوعاتنا وكتبنا ، وقد بقيت لفترة طويلة أوضح له تفصيلات الدعوة ، وخرج الرجل بانطباع طيب .

الثلاثاء ١٧ محرم ٦٩ هجرية / ٨ نوفمبر ١٩٤٩م

مضى علينا في المدينة ثلاثة عشر يوما ، زرنا خلالها ، بالإضافة للمسجد النبوي البقيع فقط ، وبالرغم مما حدث قبلا ، فمقبرة البقيع الآن في حالة طيبة للغاية ، لا يسمح للمتسولين أو " الطالبين ! " الدخول فيها ، وقد خصص مكان للنساء ، فقد جاء عليهن وقت كن يسلمن على أهل القبور ، ويطلبن منهم الدعاء بالمغفرة ، ولا توجد هناك شواهد قبور ، مكتوب عليها أي شيء ، كما لا توجد علامات من أي نوع ، وعلى كل حال وطبقا لبيانات أهل العلم ، فإنه يثبت وجود بعض القبور ، لم نلجأ قصدا إلى طلب مساعدة " الأجراء " فقد وعدنا أهل العلم من أصدقائنا بمرافقتنا في الزيارة الثانية ، لكن الناس المشغولين يصعب عليهم الوفاء بالوعد ، وهذا أيضا من ملامح الضعف البشري في أمتنا ، وكأنه لا أهمية مطلقا للوفاء بالوعود . .

يعد مسجد قباء من أهم الأماكن بعد المسجد النبوي ، وتبعد قباء عن المدينة المنورة مسافة ميلين أو ميلين وربع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة ، قد أقام في هذا المكان ، قبل دخوله المدينة المنورة ،

وصلى فيه ، ومن هنا يعد هذا أول مسجد في الإسلام ، وقد ورد ذكره بصفة خاصة في القرآن الكريم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذهب إلى مسجد قباء كل يوم سبت ، بصفة عامة ، ولهذا تمنيت أن أذهب إلى مسجد قباء يوم السبت ، ومشيا على الأقدام .

في أيامنا هذه تذهب ناقلات إلى مسجد قباء يوميا وبأجرة معقولة ، لهذا فكرت في أن أذهب إلى قباء في زيارة خاطفة ، بالناقلة مع عامة الناس ، ثم أذهب بعد ذلك بعد صلاة فجر يوم السبت مشيا على الأقدام .

وهكذا ذهبت إلى المحطة ، وحصلت على مقعد بجوار السائق في إحدى الناقلات ، فوصلنا في مدة قصيرة إلى مسجد قباء ، وهنا تذكرت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثّرت عظمة المسجد في نفسي كثيرا ، صليت تحية المسجد ، وناجيت ربي بما في قلبي ، وبما استطعت أن أنطق به .

مع أن الحكومة الحالية لابن سعود قضت على مراكز البدع كلها ، لكن ما هو علاج الجهلة ؟! لقد شاهدت عددا من النسوة من منطقة البنجاب يقبلن حائط مسجد قباء ، ويجعلن من أنفسهن فداء له !

إن مسلمي الهند وباكستان يرون أنفسهم من أحسن مسلمي الدنيا ، لكن ما رآه كاتب السطور في بغداد والحرمين ، جعلني أصل إلى نتيجة مفادها أننا نحتل الدرجة الأولى في الجهل ، كما أننا نظن أن هناك سفورا في مصر والعراق ، وأننا أطهر من الناس هناك ، لكن نساء الهند وباكستان في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، لسن بأقل سفورا من النساء المصريات والجاويات ، وقد نَبّهنْا العلماء المصريين إلى ذلك .

في طريق العودة من قباء ، اتجهت الناقلة إلى أحد ، وتوقفت في الطريق عند " مسجد الفتح " وهنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا الله في غزوة الخندق ، ويقع مسجد الفتح على هضبة عالية ، وبجواره أربعة مساجد أو خمسة ، تنسب إلى أبي بكر وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما ، ولكن لا يوجد ما يثبت هذا الأمر ، ولهذا لم نشأ أن نزور مسجد الفتح احتياطا ، وأيضا بسبب " سلفيتنا " .

كان صاحب الناقلة - وهو سائقها أيضا - هو أحد الحرفيين من مدينة إمرتسر ، ويُدعى عبد الله ، ولذلك لم نطمئن إلى روايته عن هذه المساجد . بعد أن وصلنا إلى البيت ، وبحثنا الأمر ، واطلعنا على كتاب عبد القدوس الأنصاري " آثار المدينة المنورة " اطمأن القلب إلى ما رأيناه ، فيما يتعلق بتاريخ هذه المساجد ، فإذا ما وجدنا فرصة فيما بعد فسوف نزورها يوما ما .

وصلنا بعد ذلك إلى مسجد " القبلتين " فصلينا فيه تحية المسجد ، وهذا هو المسجد الذي أمر فيه رب العزة رسوله الكريم ، بتحويل القبلة أثناء الصلاة ، فتوجه المصلون أثناء صلاتهم ناحية مكة ، ويوجد المحراب في صحن المسجد ، وكان موجها ناحية بيت المقدس ، والذي قال عنه المزور إنه من آثار عهد النبوة ، ولكن يبدو أن هذا المحراب قد بني بعد ذلك بفترة طويلة ، ومن الممكن أن تكون الصلاة قد أقيمت هنا قبل تحويل القبلة ، ولكن من الصعب إثبات ذلك .

توقفت الناقلة في النهاية بالقرب من جبل أحد ، وهو سلسلة من الهضاب العالية ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه " هذا جبل يحبنا ونحبه " .

سكبنا دمعتين عند قبر سيد الشهداء حمزة ، وعند قبر شهداء أحد رضوان الله عليهم ، فلم تكن هناك واقعة في تاريخ الإسلام الأول ، أثرت على نفس كاتب هذه السطور ، أكثر من غزوة أحد ، وشهادة حمزة رضي الله عنه ، واقتربت من مقابر بقية الشهداء ، فسلمت عليهم طبقا للسنة ، ودعوت الله لهم ولي بالعفو والمغفرة ، والصحة والعافية ، وبالقرب من هذا المكان شاهدت ينبوعا صافيا شفافا ، كان قد حفره معاوية ، وهو أقدم من عين الزرقاء ، لكن الماء ليست عذبة ، وهو ينبوع يمضي من تحت مقابر الشهداء ، ولهذا يشرب الناس من مائه تبركا ، إلا أن سلفيتي منعتني من ذلك .

كانت لي رغبة لفهم خريطة غزوة أحد ، لكني لم أستطع أن أفهم جيدا ، بسبب عدم وجود رفيق ذي علم ، وقراءة الكتب لا تنفع في هذا الأمر ، وقد وعدنا أحد الأصدقاء بذلك ، وننتظر أن يفي بوعده .

توجد آثار عمران ، وأطلال عظيمة الشأن بالقرب من جبل أحد ، وقبل أن يؤسس الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية ويوحد أجزاء البلاد ، كان يقام هنا كل عام " مولد عظيم " (مهرجان ديني عظيم) يستمر عدة أيام ، فينتقل هنا جميع سكان المدينة ، مثلما ينتقل جميع أهل مكة إلى عرفات ، ومثلما كانت نساء مكة يسخرن من أي رجل يشاهدنه في حواري مكة يوم عرفة ، كانت نساء المدينة يسخرن من أي رجل يشاهدنه في حواري المدينة ، ولكن هذا المولد أو المهرجان ، أُلغي بقوة القانون ، وتم القضاء على جميع البدع بجرة قلم ، فلا يسمح لأي حاج أو زائر أن يبقى بالليل ، وتستحق الحكومة السعودية الشكر والثناء والمديح والإطراء على هذا العمل الإصلاحي العظيم .

رجعنا عند الظهر ، وبينما كانت الصلاة تقام في الحرم لحقها عاصم فقد كان متوضئا ، بينما حُرم العبد الفقير من هذه النعمة .

قضيت وقت الصباح كله في اللف والدوران ، وبسبب الإرهاق الشديد ، رقدت في البيت ، بينما ذهب عاصم إلى " دار الحديث " للقاء الشيخ عبد الرحمن إفريقي ، ليخبره بأن العبد الفقير بخير الآن ، وعلى استعداد للقاء الشيخ عبد الله بن زاحم (رئيس المحاكم الشرعية) لكن عاصما تشاجر معه ورجع ، فقد نقد في جمع من الناس بعض المسئولين الكبار ، ونسب هذا الكلام إلى الشيخ دون أن يستطيع أن يقدم شهادة على ذلك ، فغضب الشيخ عبد الرحمن غضبا شديدا ، وأخذ يعاتبه ويعنفه بشدة ، فعاد عاصم قبل المغرب ، وأطلعني بالأمر ، والحقيقة أن الاحتياط واجب ، ويجب الالتزام بآداب الحديث في هذه المناطق ، فإذا ما حدث سوء تعبير مرة أو مرتين ، فلن نجد مجالا هنا للدعوة ، ولن نستطيع القيام بخدمة الدين ، وكنت قد طلبت من عاصم أن يذهب فقط ويعتذر له ويطلب منه الصفح والسماح ، وقلت له : لا يجب أن تترك مجلسه قبل أن تعتذر له .

وغرقت في دوامة من الأفكار . . . ماذا يجب أن أفعل ؟!

التقيت بعد المغرب بالشيخ عبد الرحمن الإفريقي ، وكان قد رآني في الطريق ، فقال :

– هذا الولد سوف يقضي على دعوتكم ، وأنا أُدرك أنه شاب ، لا تجربة له ، ولهذا رأيت من الضروري أن أخبرك ، ومن فضل الله أن المجلس كان يضم معارفنا المقربين .

فاعتذرت له وأكدت له أن عاصما يعترف أيضا بالخطأ الذي ارتكبه .

دار الحديث مع الشيخ عبد الرحمن بعقلانية كبيرة وبمحبة أيضا ، كان يتكلم معي بسرعة نظرا لموعد درسه الذي يلقيه اليوم بعد المغرب ، على كل حال اتفقنا على أن نلتقي بالشيخ ابن زاحم غدا في الساعة الثانية صباحا (أي الثامنة بتوقيتنا)

الأربعاء ١٨ محرم ٦٩ هجرية / ٩ نوفمبر ١٩٤٩م

مضى علينا بالمدينة أسبوعان كاملان ، ألفنا جو المدينة ، وبدا كل شيء أمامنا واضحا ، فأهل المدينة على خلق ، ويتصفون بالمروءة.

يقع البيت الذي نقيم فيه وسط السويقة ، مما سهل على عاصم توزيع كتبنا على عدد من أصحاب المكتبات ، الذين ألفهم واطمأن إليهم كثيرا ، والناس هنا حسنو العشرة ، دمثو الخلق ، متواضعون ، مهذبون ، حدثني قلبي أكثر من مرة أن أبقى بالمدينة ، فلو لم أفكر في أمر الارتباط بالجماعة ، والمسئولية ، وخدمة والدي العجوز (أطال الله عمره) لنويت الآن أن أمكث هنا لمدة سنة ، والأمر الثاني يتعلق برفيقي ، فبيننا اتفاق ، وليس من المناسب أن أبقيه هنا كثيرا ، وكنت أفكر في أن أتركه هنا فترة أطول ، فالأرض هنا خصبة وممهدة وقابلة للزراعة ، تحتاج فقط إلى فلاح مجتهد وجاد .

كنا على موعد للقاء الشيخ ابن زاحم في الصباح ، ووصلت إلى بيته في معية الشيخ عبد الرحمن إفريقي ، شاهدت في القاعة عالم نجدي بسيط ، تبادلنا

السلام ، وساورني شك في ألا يكون الرجل الذي أمامي هو الشيخ ابن زاحم ، فقلت للشيخ عبد الرحمن :

- لماذا لا تقوم بمهمة التعريف ؟

فقال :

- الشيخ ابن زاحم (رئيس المحاكم الشرعية)

وجدته رجلا في غاية البساطة والتواضع ، وهذه خصوصية عامة في علماء نجد ، دار الحديث بيننا لفترة ، قمت خلالها بتعريفه بدعوتنا بصورة مجملة ، وقدمت له مجموعة من الكتب ، فدعانا لتناول الطعام في بيته في اليوم التالي ، ووجدتها فرصة للتحدث معه فقبلت الدعوة على الفور .

زرت اليوم أيضا سيد سليمان الندوي ، جلست معه وتبادلنا الحديث ، يقول فيما يتعلق بالجماعة الإسلامية ، يجب عليكم أن تربوا الأمة ، بدلا من أن تطالبوا بالحكم ، تربية تصل إلى حد أن تظهر المطالبة بما تريدون من داخل الأمة ذاتها ، ثم تقدمون معلومات مفيدة عن أصول الدستور الإسلامي ، وبعض الجزئيات ، وتقدمون برنامج عمل طبقا لوجهة نظركم ، ولم أقتنع تماما بوجهة نظره ، ولهذا طلبت منه أن يتناول الشاي معي في المساء حتى أجد فرصة للاستفادة منه في جو من الهدوء والسكينة .

حضر سيد سليمان الندوي بعد العصر ، وتحدث معي بشفقة وببساطة ، فالندوة الآن لها سمعة طيبة ، ولها شهرة بين علماء مصر والحجاز ونجد ، فقبل

عامين جاء أبو الحسن الندوي وكان بمثابة مقدمة الجيش (طبقا لتعبير سيد سليمان الندوي) وبقي في الحرمين الشريفين ستة أشهر ، وقد ترك انطباعا طيبا عند أهل العلم هنا ، ولا يزال بعضهم يذكر هذه الزيارة حتى الآن ، بالإضافة إلى وصول المجلات العربية أيضا ، ثم جاء في العام المنصرم الأخ محمد إدريس الندوي (وهو زميل دار المصنفين ومدرس بدار العلوم بندوة العلماء) وكان يحمل تفسير ابن القيم " التفسير القيم " الذي جمعه بعد عناء شديد ، من كتب ابن القيم ، وقد طبع في مصر ، وصدر ويوزع الآن .

وحين وصلنا الرياض كان الناس يسألونني : الندوي اسم أسرة ؟ ما هي أسرة الندوي ؟ وما علاقتك بأبي الحسن الندوي ، ومحمد إدريس ؟ وهذا العام حضر سيد الطائفة أستاذنا جميعا ، ومربينا ، ومخدومنا سيد سليمان الندوي ، وكان أول سؤال وجهه لي خادم مطوفنا هو : ما قرابتك بسيد سليمان الندوي ؟ وكان ردي على هذه الأسئلة تعريفا بالندوة (٩) وعلى كل حال ساد انطباع عند الناس هنا بأن أهل الندوة يعرفون العربية جيدا ، جعلنا الله عند حسن ظنهم ، ووفق طلاب الندوة الحاليين ، حتى يستطيعوا الحفاظ على تقاليد الندوة ، والخاصة بكتابة اللغة العربية والتحدث بها .

بعد المغرب أتحفنا الأستاذ محمد الحافظ بتلاوة ثلاثة أرباع من القرآن الكريم . ثم دار حديث اتسم بالصراحة ، رغم أنه تناول أمورا دقيقة ، وقدم البعض مقترحات واستشارات مفيدة ، كما قدم البعض لنا معلومات تتعلق بآثار المدينة المنورة ، وكانوا قد وعدونا باصطحابنا في جولة حول هذه الآثار ،

فجددوا الوعد اليوم أيضا ، لكن الانشغال ، وضيق الوقت ، قد لا يسمحا بالوفاء بالوعود ، وإقامتنا هنا محدودة ، وأيامها معدودة .

الخميس ١٩ محرم ٦٩ هجرية / ١٠ نوفمبر ١٩٤٩م

كنت على موعد في الصباح للقاء الأستاذ جواد المرابط ، فوصلت في الموعد المحدد إلى فندق " التيسير " ، وهناك عرفت بالصدفة أن العالم المصري المحقق الشهير والمؤلف الأستاذ أحمد شاكر يقيم في نفس الفندق ، وكنت قد شاهدته بالأمس قبيل الظهر عند " محل غسكاني " فتبادلنا السلام والتحية بشكل سريع ، وذكرت ذلك لجواد المرابط ، فقام باطلاع الأستاذ أحمد شاكر ، ببساطة شديدة ودون تكلف ، وهكذا حين وصلت إلى بهو الفندق حضر الأستاذ أحمد شاكر ، وحضر ضيوف آخرون ، وبعد أن تعارفنا جميعا ، بدأ الحديث ، كان قد اشترى مطبوعاتنا العربية في مكة المكرمة ، ولذا لم أشعر بالحاجة إلى تفصيل الحديث ، بالإضافة إلى أن عالما معتدا بنفسه مثل أحمد شاكر ، لم يكن يترك فرصة ليتحدث أحد غيره ، وكان موضوع الحديث واسعا، فاستفدنا منه كثيرا ، امتدح مطبوعاتنا ، وأثنى عليها ، كما شجعني على زيارة مصر حتى تصبح لغتي وقلمي أكثر سلاسة وأكثر نضجا ! ، وحين جاء ذكر سيد سليمان الندوي طلب مني أن آخذه إليه ، ولهذا تقرر أن يكون اللقاء يوم الأحد القادم ، ثم ودعنا الأستاذ جواد المرابط لآخر مرة ، فقد كان على أهبة السفر .

تناولنا الطعام بعد الظهر في منزل الشيخ ابن زاحم ، وكان عبد الله إفريقي موجودا ، تناولنا طعاما بسيطا على الطريقة الشرقية أي لم تكن هناك طاولات أو مقاعد أو شوك أو ملاعق وسكاكين ، وغير ذلك من مظاهر التكلف الحديثة ، وكان الحديث مجملا وعاما ، وهنا تقليد يقضي بتناول الشاي بعد الطعام ، وهو تقليد ضروري ، ولهذا قضينا وقتا طيبا ، ثم طلبنا الإذن بالمغادرة ، بعد تناول الشاي .

بقيت في البيت بعد العصر ، مع أنني كنت أشعر بالتحسن الكامل والحمد لله ، لكن تناول الطعام في غير مواعيده أصابني بنوع من الخمول والثقل ، فأوقات الدعوات هنا تختلف عما تعودنا عليه عندنا ، ولكن ما باليد حيلة ، فهذه هي آداب وتقاليد اللقاءات في هذا الزمان .

الجمعة ٢٠ محرم ٦٩ هجرية / ١١ نوفمبر ١٩٤٩م

أنس إلينا محمد زين صديق الشنقيطي ، وصار مستعدا للعمل الدعوي ، بعد أن قرأ ستة كتيبات من مطبوعاتنا ، وهو من سكان شمال غرب إفريقيا ، ومسقط رأسه بالقرب من شنقيط ، التي اشتهرت بأنها موطن العلماء والأدباء المشهورين ، ولهذا يلقب أيضا بالشنقيطي . شربنا عنده الشاي في الصباح ، كان يقيم في غرفة صغيرة في المبنى الثاني للمدرسة الشرعية ، وقد قبلنا الذهاب إليه ، وتناول شاي الصباح معه في غرفته ، نظرا لما نشعر به نحوه من حب وإخلاص ، وإلا فمن الصعب على كاتب السطور الخروج من مسكنه صباحا ، دون تناول الشاي ، كما أن الجو قد تغير الآن ، والبرد شديد وقت الصباح .

نحاول الآن أن نستفيد تماما من إقامتنا بالمدينة المنورة ، ولا شك أ ن البرد الشديد يحول بيني وبين الذهاب للصلاة ، وقت العشاء ، ووقت الفجر ، وهذا من سوء حظ هذا العبد التعيس ، أما باقي الصلوات فأقدر عليها بفضل الله .

كانت عملية التعارف واللقاءات تمضي بسرعة ، وقد ارتبك نظام كتابة هذه اليوميات لشهر كامل ، نظرا للسعال الذي أصابني ، وأحاول الآن تعويض ما فات ، وهكذا أقضي ما يتوفر من وقت بعد اللقاءات في كتابة هذه الصفحات ، وسوف تكون هذه الصفحات كاملة ومعدة تماما حتى تاريخه أو كما يُقال حرفيا بالإنجليزية Up _to _ date حين أغادر المدينة المنورة .

كنت أتمتع كثيرا في صلاة الجمعة ، ولكن نظرا لعطل في مكبر الصوت ، ورغم جلوسي بالقرب من المنبر فلم أكن أتمكن من الاستماع جيدا إلى الخطبة، ومنذ أمس أو قبل أمس تم إصلاح مكبر الصوت ، فصار الصوت مسموعا في جميع جنبات المسجد النبوي بل وفي خارجه أيضا ، لكن الخطبة والصلاة كانتا كالعادة دون تأثير أو حرقة ، أما مسألة البحث عن العمق العلمي ، فأمر لا طائل منه .

تناولنا الطعام بعد الصلاة في منزل محمد غسكاني ، وكان قد دعا أيضا الأستاذ أحمد محمد شاكر ، والشيخ محمد الخيال (قاضي الأمور المستعجلة)، فكان الحديث ممتعا ، بينما كان الطعام أكثر متعة ، لا أدري هل حلت فيه بركة المدينة المنورة أيضا ؟! أم هناك دخل لفن إعداد الطعام الذي اشتهر به أهل ما وراء النهر ، كان الشيخ محمد الخيال عالما نجديا بسيطا متواضعا على طريقة أهل نجد ، كان قد علم بزيارتي للرياض ولقائي بالعلماء

هناك ، ففرح كثيرا بتعارفنا معا ، ودعاني لتناول الشاي في بيته بعد العصر ، وكان الهدف هو أن يتم اللقاء في هدوء وسكون .

ذهبت إلى بيته بعد العصر ، وجلسنا لفترة طويلة ، عرفته بالدعوة ، وأطلعته على مطبوعاتنا ،لم يعد هناك مجال لتقديم هدايا لأحد ، فقلت له : إذا أعجبتك كتبنا فيمكن أن تطالعها عند الشيخ ابن زاحم أو في مكتبة دار الحديث ، فصار يقلب في الكتب لفترة ، ثم احتفظ لنفسه بالكتاب الأول .

كنا قد تواعدنا بالصدفة للقاء الشيخ محمد بن تركي بعد صلاة العصر ، والشيخ محمد بن تركي عالم نجدي مشهور ، وذكرنا أيضا لتلميذه رشيد محمد زين أن يبلغه اعتذارنا ، لكن الرجل سامحه الله نسي أو أنه لم ير ضرورة لذلك ، والتقينا بعد المغرب بالشيخ محمد بن تركي ، فشعرنا بالندم ، وحين ذكرنا محمد زين ، آخذه الشيخ كثيرا ، لكننا شعرنا على كل حال بالندم ، وفي النهاية اتفقنا على لقاء آخر عصر يوم الأحد .

بعد العصر حضر محمد زين ، وكان قد تأثر كثيرا بدعوتنا ، أخذ يقول : سجلوا اسمي ضمن أعضاء جماعتكم ، فأنا جاهز لأي عمل ، فذكرت له تشكيل الجماعة ، وكيفية تقسيم المنتمين لها إلى أعضاء عاملين ، وإلى متعاطفين ، وبينت له أسلوب ومنهج عملنا في الدعوة ، وقلت له إذا كنت مصرّاً فسوف نسجل اسمك في قائمة المتعاطفين ، وهو بنفسه لا يمكن أن يتفرغ للدعوة تفرغا كاملا لستة أشهر ، فهناك صعوبة بالنسبة له في ظل قيود المدرسة ، على كل حال كان هذا أول رجل نكسبه ، فقد أعلن استعداده للعمل وتفاعل معنا بعد أن قرأ مطبوعاتنا .

بعد صلاة العشاء تفضل بزيارتنا مولوي حبيب الله نجل مولانا أحمد علي، وكان يطلب منا أن نمده بكتب عربية في مستوى كتاب سيرة النبي والحجاب ، وللأسف فإن مستوى المؤلفين العرب في العصر الحاضر ليس كما كان ، وعرضت عليه أسماء كتب على مستوى ما كتب منذ خمسين أو ستين سنة ، فقال : من الأفضل أن تكتب لي أسماء الكتب ، فقلت : إن شاء الله سأحضر قائمة بالكتب بعد غد ، وهو شاب صالح جدا ويتصف بالبساطة ، كما أنه مشغول أيضا ، وقد وفر من وقته بصعوبة ليأتي إلينا .

السبت ٢١ محرم ٦٩ هجرية / ١٢ نوفمبر ١٩٤٩م

فرغنا من تناول الشاي وما إلى ذلك في الصباح الباكر ، ثم تحركنا في تمام الساعة الواحدة والنصف إلى قباء ، يقول عبد القدوس الأنصاري إن المسافة حتى باب قباء يمكن أن تستغرق أربعين دقيقة ، ويقول أحبابنا : بل في خمس وثلاثين دقيقة ، أما نحن فوصلنا في خمس وأربعين دقيقة ، وأنا أمشي بسرعة ، إلا أن السعال المستمر أضعفني ، وهدني كثيرا ، ولا يزال أثره واضحا حتى الآن، توضأنا وصلينا تحية المسجد في هدوء وسكينة ، ودعونا الله بإخلاص النية ، والاستقامة لنا ولجميع رفاقنا .

رجعنا في الساعة الثالثة والنصف ، وفي الطريق رغبت في السلام على محرري جريدة المدينة المنورة ، لكن أحدا منهم لم يكن موجودا ، فتركت بطاقتي ، ووصلت إلى مقر إقامتي بعد الساعة الرابعة (حوالي الساعة العاشرة والنصف عندنا) وبعدها لم أذهب إلى أي مكان .

كان علينا أن نُطلع سيد سليمان الندوي على خبر الأستاذ أحمد محمد شاكر، فذهبنا إليه بعد العصر وجلسنا قليلا، بينما خرج عاصم للبحث عن " المعلم " فقد عقدنا العزم على العودة إلى مكة المكرمة، ورغم أننا نحمل تذكرة العودة إلا أن المسئولين في الشركة ليسوا على استعداد لسماع كلمة واحدة دون وساطة المعلم . . يا لها من " لخبطة " عجيبة، فنحن لا نعرف المعلم، كما أننا لم نحصل منه على عون يذكر، أو مساعدة ما طوال الأسبوعين الماضيين، والمعلم نفسه لا يدري عنا شيئا، لكن السفر لا يمكن أن يتم دون وساطته . . لا ندري أي نوع من الاحتكار هذا، لعله يأخذ عشرة ريالات رسوما على كل شخص، يقول البعض ماذا عسانا نفعل ؟! نحن أهل الإسلام طيبو القلب، والفقير صار لئيما ، والغني صار محتالا .

على كل حال أخبر عاصم معلمنا البنجابي حيدر الحيدري بأننا ننوي السفر يوم الأربعاء في الخامس والعشرين من محرم، فدعانا لزيارته يوم الاثنين .

حددت موعد لقاء الأستاذ أحمد محمد شاكر مع السيد سليمان الندوي صباح يوم الأحد .

بعد المغرب دعونا صديقنا القديم محمد الخطيب الدمشقي لتناول الشاي، وجاء معه أيضا محمد زين، ومحمد الخطيب يرتل القرآن ترتيلا جميلا، فوهب أرواحنا النشوة والسرور لنصف ساعة تقريبا، في ذلك الوقت جاء لزيارتنا شاب يدعى هاشم رشدي الغزي ،وكان ماجد أسعد قد كتب خطابا يعرفنا فيه بالشاب الذي يعمل موظفا في " اللاسلكي " وقد أعطانا معلومات كافية عن نظام الاتصالات هنا، وتمتعنا بالحديث معه .

بعد العشاء شرفنا الشيخ يوسف عبد الرزاق بحضوره ، لم نجد فرصة للقائه منذ أن تحدثنا معا حديثا مجملا من قبل ، وكان الرجل بدوره يشتاق للقائنا ، فتحدثنا حديثا صريحا واضحا لمدة طويلة ، شرحت له منهجنا في الدعوة ، والرجل ذكي حصيف ، فهم كل شيء بعد أن قرأ ثلاثة مجموعات من كتبنا ، وكان قد أخذها كلها ، وقال بأنه سيشتريها من غسكاني إن أعجبته ، تحدثنا عن موضوعات مختلفة بالإضافة إلى الدعوة والتعريف بها ، فتناولنا موضوعات تتعلق بفلسطين والإخوان المسلمين ، ومن الصدف السعيدة أن يطلع هو نفسه فلسطينيا ، سافر إلى مصر طلبا للعلم وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ثم مكث هناك ، ويعمل الآن مدرسا بكلية أصول الدين بالأزهر ، وقام الأزهر بترشيحه للتدريس هنا في مدارس المملكة العربية السعودية ، وهو يعمل الآن في المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة .

الأحد ٢٢ محرم ٦٩ هجرية / ١٣ نوفمبر ١٩٤٩م

تناولت شاي الصباح ووصلت إلى فندق " التيسير " للقاء الأستاذ أحمد محمد شاكر ، سألته بعض الأسئلة ، وكأني تلميذ صغير يقف أمام أستاذه ، ثم ناقشنا موضوعنا الأساسي ، والرجل مثل عبد العزيز ميمن عندنا ، يشيد بنفسه أثناء الحديث ، كلما وجد فرصة لذلك ، وهو بلا شك عالم محقق ، وصاحب نظرة فاحصة ، لكن ثناءه وإطراءه على كتبه ومقالاته كل حين ليس من شيم أهل العلم واسعي النظر ، وعلى كل حال فهو إنسان ، ولا يخلو من الضعف البشري .

انتقلنا بعد ذلك إلى حيث يقيم سيد سليمان الندوي ،وكنت أريد أن أستفيد من حديث العالمين الجليلين ، ولكن الأستاذ أحمد محمد شاكر - هنا أيضا - أخذ يثير ذكر كمالات والده المرحوم محمد شاكر ، وكمالات جده أيضا ، وأسمعني حكاية جهادهما ، وصلابتهما في قول الحق .

وردت في أثناء الحديث معلومات وأمور مفيدة أيضا ، فقد شرح ماهية العمل الذي يقوم بتحقيقه على مسند أحمد ، وعلى كل حال لم تكن الجلسة بالنسبة لنا خالية من الفائدة ، وقد رحب به سيد سليمان الندوي ترحيبا كبيرا ، وقدم له الشاي وطعام الفطور .

التقيت بعد العصر في الحرم النبوي بالشيخ محمد بن تركي ، العالم النجدي الشهير ، وهو رجل ذو علم واسع يقول الحق ، ولا يخشى في قوله لومة لائم ، وقد استقال من القضاء منذ مدة ، وقد تجاوز الستين من عمره ، قابلني بحرارة وبمحبة وشفقة ، حاولت أن أشرح له منهجنا فقال : أعرف . . أعرف ،كانت لديه معلومات كثيرة ، وقد تحدث هو معظم الوقت ، وفرح كثيرا حين عرف رأي كاتب السطور المعتدل فيما يتعلق بالاجتهاد والتقليد ، وتحدث أيضا عن مستقبل العالم الإسلامي .

طال مجلسنا لكن الحديث في معظمه دار على لسانه هو ، وقد أثاره صديقنا وتلميذه رشيد محمد زين ، لكننا أسكتناه وأفهمناه أننا نرغب في الاستماع إلى الشيوخ الكبار ، فهم يفهمون دعوتنا ، وهذا يكفينا .

اجتمع أثناء الحديث محمد الخطيب وبعض الأخوة الأحباب ، لكن أحدا لم يتدخل في الحديث وظل الجميع ينصتون في صمت .

الاثنين ٢٣ محرم ٦٩ هجرية / ١٤نوفمبر ١٩٤٩م

مساء أول أمس التقيت صدفة بمولوي عبد العليم صديقي المرهتي ، كان ذلك في الحرم النبوي الشريف ، فدعاني إلى تناول الشاي حيث يقيم ، فذهبت إليه في الصباح الباكر ، واستشرته فيما يتعلق بداء الربو الذي أعاني منه ، ثم تحدثنا عن أحوال الحجاز ، ذكر مولوي عبد العليم صديقي أنه رأي منشورا في بغداد وقع عليه جميع دراويش البريلوية ، والمولوية المتساهلون في أمور العقيدة المشهور منهم والمغمور [١١] ويتضح من التوقيعات أن هناك اختلافا من نوع ما منذ فترة طويلة ، وعلى كل حال فالرجل مطلع على أحوال العالم ، وصاحب خبرة وتجربة ، وحين ورد ذكر الجماعة أثني على المودوي بتحفظ شديد ، وعارض فكرة تشكيل الجماعة الإسلامية ، فذكرت له وجهة نظري أيضا .

كان يوسف عبد الرازق الأزهري يتوق شوقا للقاء سيد سليمان الندوي ، فصحبته بعد صلاة العصر إلى رباط بهوبال ، وجلسنا ساعة ، جاء خلالها مولوي حبيب الله ، ومحمد الخطيب ، وعالم سوري يدعى علي السمان ، ولاحظت أن يوسف عبد الرازق يميل إلى العلوم النقلية ، فكان في غاية الإعجاب بمؤلفات علماء الهند ، وهكذا دار الحديث في معظمه عن المعقولات ، وتحدث سيد سليمان الندوي حديثا كله عالم وفائدة ، فاستفدنا جميعا ، وبدا مولوي حبيب

الله - بصفة خاصة - أكثر الحاضرين سرورا وفرحا ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها جلسة علمية لسيد سليمان الندوي .

في طريق العودة ألقيت نظرة على مكتبة شيخ الإسلام ، ويبدو الأمر هنا وكأنك ذاهب إلى " مزار " لا إلى مكتبة ، ويأتي هنا عامة الحجاج ، رجالاً ونساء ، فتوضع أمامهم نسخة قديمة من القرآن الكريم ، فيتبركون بها ، ويضع إبراهيم حمدي المصحف على رؤوس الزائرين ، ويمس به أعينهم ، ولا يحرم صدورهم أيضا من بركاته !! ويعود الزائرون من هذه الزيارة بعد أن يكونوا قد حصلوا على فيض البركات !! ، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع ، وقبل عودتهم يعطون إبراهيم حمدي ما تجود به نفوسهم ، وهذا هو " بيت القصيد " من هذه الزيارة . . . . هذا شأن الله في خلقه !!

لقد حطم جيش ابن سعود القباب ، فجعل عامة الحجاج من المكتبات " مزارات " . . .

كان على العبد الفقير أن يعطيه أيضا ثمن الكتب ، فقد أعطاها لي " هدية " على الحساب ، ولكني أُصبت بالضيق والضجر ، كنت قد رأيت مسكن إبراهيم حمدي ، وديوانه الذي يستقبل فيه الضيوف ، المفروش بأحسن فرش ، والمزخرف بأجمل الزخارف ، ولم أفهم بعدها سبب هذا " الاستجداء " ، لقد كان سلوك الأتراك مع أهل الحجاز مشينا للغاية من ناحيتين :

الأولى : أنهم أبقوهم عن عمد في جهالة تامة .

والثانية : أنهم عوّدوهم على استجداء الصدقات فأماتوا قلوبهم .

وليس من السهل القضاء على العادات التي استمرت لقرون .

حضر محمد الحافظ بعد المغرب ، فدار الحديث في معظمه عن هذا الموضوع ، وقد أيد جميع ملاحظات كاتب السطور ومشاعره ، وجاء محمد زين بعد العشاء ، فتحدثنا عن الجماعة الإسلامية ومنهج الدعوة .

الثلاثاء ٢٤ محرم ٦٩هجرية / ١٥ نوفمبر ١٩٤٩م

أشرت من قبل إلى كرم سيد أحمد محضار العطاس ، واهتمامه الشديد بنا ، تناولنا معه الشاي صباح اليوم ، وتمتعنا بأحاديثه الجذابة الممتعة ، وصحبته الطيبة ، لمدة ساعة ، شرحنا له منهجنا في الدعوة ، فذكر أنه يقرأ الجزء الثالث من " دعوتنا " ، وأشار إلى أن البعض هنا لن تعجبهم هذه المطبوعات لأن مؤلفها في السجن .

والحقيقة أنني مهما شكرت ، وأثنيت وأطريت على كرم سيد أحمد محضار العطاس ، فلن أستطيع أن أوفيه حقه ، وقد حاولت أن أقدم له خدمة تتناسب معي كطالب علم ، وطبقا لإمكانياتي ، لكنه لم يقبل بأي شكل من الأشكال ، وضاعت جميع توسلاتي له هباء ، وظل يردد قوله :

- فقط يكفي دعاؤكم لي . . دعاؤكم يكفي .

غدا السفر . . هكذا وضعنا البرنامج ، ولهذا انشغل عاصم في الشراء والإعداد لمستلزمات السفر ، وكان لدي وقت فذهبت لمقابلة عبد الرحمن

إفريقي (في دار الحديث) واشتركت لفترة في الدرس الذي يلقيه على طلابه ، كان موضوع الدرس معقولا ، وكانت اللغة واضحة سهلة ، ومن حسن حظي كان الموضوع عن القران والتمتع ، ونظرا لقرب الموضوع من الحج ، فقد كانت المسائل لا تزال عالقة في ذهني ، فسألته سؤالا ، وكأنني أحد تلاميذه ، فأجاب إجابة معقولة وهو يبتسم ، وكان أكثر ما تأثرت به في درسه ، شخصيته الثابتة التي لم تهتز ، وبساطته الشديدة ، فلم يتأثر أبدا بحضوري المفاجئ ، وظل يلقي درسه على سجيته ، وبعد أن فرغ من المسألة قيد البحث ، توجه بالحديث إلى العبد الفقير ، ونظرا لانشغاله طلبت منه الإذن بالانصراف .

وفي الطريق التقيت بالأستاذ أحمد محمد شاكر ، وجلست مدة عند " محل " غسكاني ، وتحدثنا عن الكتب ، وبالصدفة شاهدت كتابا معروضا بالقرب من باب المحل ، كان بعنوان "الأصول السياسية للاقتصاد الإسلامي "(١٢) فأدرك الأستاذ أحمد شاكر موضوع الكتاب وقال :

- هل تعرف مؤلف الكتاب ؟

فقلت أنا والغسكاني في وقت واحد :

- سيد أبو الأعلى المودودي ، هو نفسه مؤلف الكتب العربية الأستاذ المودودي

فقال :

- إذن لماذا لا تترجمونه ، هناك ضرورة لمثل هذه الأشياء .

فقلت :

- لقد ترجمناه ، وسوف يطبع مع أربعة أبحاث أخرى .

كنت قد دعوت الشيخ على السمان لتناول الشاي بعد المغرب ، فجاء معه بصديقين ذوي فهم وذوق ، فدار بيننا حديث صريح واضح ، وجه إلينا هؤلاء السادة أسئلة عن الجماعة الإسلامية ، وعن باكستان والهند ، وكان كاتب السطور يجيبهم بما لديه بالتفصيل ، وهكذا كان اللقاء مفيدا ، وكانت الجلسة موفقة في مجملها .

بعد العشاء حضر إلينا ثانية صديقنا الأزهري يوسف عبد الرزاق، وتحدثنا معه اليوم بقلوب مفتوحة ، والرجل يعقل الأمور ويفهمها جيدا ، وعلى عكس علماء الأزهر يبدو متعاطفا ، ولكن لا شك في أن بيننا وبينه اختلافًا كبيرًا في باب العقائد ، ولهذا اكتفينا بإظهار توجهاتنا ، وفي النهاية قدم لنا في حب صورته الشخصية ، وكتب تحتها بعض السطور ، ذكرى هذا اللقاء ، فقال كاتب السطور بصوت منخفض : إننا دقيانوسيون نعتبر التصوير في هذا الزمان حرام أيضا ، ولكنه لم يعر قولي أي انتباه .

الأربعاء ٢٥ محرم ٦٩ هجرية / ١٦ نوفمبر ١٩٤٩م

عقدنا العزم على السفر ، مضى علينا بالمدينة عشرون يوما ، لكن بدا لنا كأن أقدامنا وطئت هذه الأرض الطيبة حالا ، كانت رائحة الألفة الذكية وعبير المحبة ينبعث من الجدران والأبواب ، وكانت العين إذا ما وقعت من بعيد على

القبة الخضراء ، زادت سرعة دقات القلب ، لو كان الأمر بيدي لقمت بدور الكنّاس ، فما أسعد من يقيم في ديار الحب والألفة ، ويقدرها حق قدرها . .

انشغل عاصم منذ الصباح بإعداد أمتعة السفر ، بينما ذهبت إلى المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فصليت ركعتين باطمئنان ، في رياض الجنة بالقرب من الروضة ، وسلمت سلام الوداع على رسول الله صلى الله عله وسلم ، وعبرت هذه المرحلة بقلب يرتعد ،وبعيون دامعة ، ثم اتجهت إلى القبلة ، ودعوتُ رب العزة بما في قلبي ، لم تكن قدماي تطاوعاني على الخروج ، لكن القلب قسا وتصلب ، فخرجت من المسجد ، وذهبت إلى فندق التيسير حيث ودعت الأستاذ أحمد محمد شاكر ، كما ودعت مولانا سيد سليمان الندوي في رباط بهوبال .

أكد أحمد شاكر على ضرورة إرسال مطبوعات دار العروبة ، وجدد الدعوة لي لزيارة مصر ، وودعني سيد سليمان الندوي بكل حب فقلت له : كان من محاسن الصدف أن ألتقي بأستاذي المحترم بعد أربع سنوات ، ويكون اللقاء على هذه الأرض الطيبة الطاهرة .

وبعد صلاة الظهر التقيت بالدكتور أحمد علي ، وهو متعاطف مع الجماعة ومتأثر بالدعوة ، وقد ورد ذكره كثيرا في هذه الصفحات ، جلسنا لفترة ، وتحدثنا عن إمكانيات العمل الدعوي في المدينة المنورة ، وهو أكثر فهما وذكاء بالمقارنة بالمتعاطفين معنا الآخرين من الهند وباكستان ، إذا توفرت له صحبة عضو عامل من أعضاء الجماعة ، فمن الممكن أن يكون له شأن آخر ، وقد شجعته على تعلم اللغة العربية فورا ، وكان قد درس اللغة العربية حتى المرحلة

الثانوية ، ويقيم هنا منذ عدة سنوات ، يتكلم لغة عربية عامية وركيكة ، لا تمكنه من إدارة حوار علمي .

كنا قد أعددنا العدة للسفر ، وصرنا على أهبة الاستعداد ، لكن عاصما رجع من عند المعلم بخبر يفيد تأجيل السفر ، فلا يوجد غير ثلاثة مسافرين ، وطالما لم يكتمل العدد ، لا يمكن للحافلة أن تتحرك ، ولا يمكن أيضا معرفة متى يمكننا السفر . .

الخميس ٢١ محرم ٦٩ هجرية / ١٧ نوفمبر ١٩٤٩م

حدد لنا الأصدقاء موعدا في الغد للقاء سيد محمود المدير السابق للمدرسة الشرعية (الأخ الأصغر لمولانا حسين أحمد المدني) فذهبنا إلى بيته في الصباح الباكر ، وتحدثنا معه لنصف ساعة ، كان مؤسس المدرسة الشرعية مولانا سيد أحمد (الأخ الأكبر لمولانا حسين أحمد) رجلا في غاية الإخلاص ، وفي زمانه كانت أحوال المدرسة طيبة للغاية ، أما سيد محمود فله طبيعة مختلفة ، فهو الشخصية الثالثة بين أثرياء المدينة ووجهائها ، ونجله الشاب هو مدير المدرسة هذه الأيام ، لقد أوجد الأمير معاوية رضي الله عنه بدعة طيبة ، فقد تعدى أمر التوارث من الحكم إلى المدارس والجمعيات ، وقد نال المدرسة الصولتية في مكة شيئا من هذه البدعة ، فمؤسس المدرسة الصولتية هو مولانا رحمة الله [١٣] واليوم يمتلك حفيده مولوي محمد سليم كل كبيرة وصغيرة في هذه المدرسة ، ومكتب محمد سليم لا يقل فخامة عن مكتب أي وزير ، والمدرسة الشرعية لم تصل بعد إلى هذه الحالة المتردية ، لكن وضع شاب كهذا في منصب مدير المدرسة أمر لا يبشر بخير ، وأكثر من ذلك أنه لا يوجد

للمدرسة ناظر أو مدرس أول (مفتش أو موجه) وجميع أمور المدرسة تتم تحت إشراف المدير ، وقد التقينا به لقاء متواضعا طبقا لعمره ومقامه ، وسألناه بطريقة مهذبة بعض الأسئلة عن المدرسة ، ونظرا لأخلاقه ومروءته لم نشعر أبدا بما يدعو للشكوى .

ذهب عاصم إلى مكتب الشركة ، ومر على محرري جريدة " المدينة المنورة " ، ذكر له مسئولو الشركة أنه لا داعي للقلق ، فعادة ما يسافر الزائرون بعد صلاة الجمعة ، وسيكتمل عدد المسافرين يوم السبت أو الأحد ، حاول مدير تحرير جريدة المدينة المنورة الاتصال بالشركة هاتفيا لكنه لم يستطع .

بعد العصر ذهبنا إلى بيت نمى خان ، مع الدكتور أحمد علي ومحمد زين شنقيطي ، فلو تعرف هؤلاء على بعضهم لكان أمرا طيبا ، فنمى خان رجل مخلص ، رغم أنه قليل الفهم ، فكلما تحدث كان يذكر بالضرورة ، كلما واتته الفرصة ، علاقته بالملك عبد العزيز آل سعود ، وفي جلسة التعارف القصيرة هذه ظل يذكر أيضا الكرم الخاص لجلالة الملك ابن سعود ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور أحمد علي رجل ذكي وعاقل ، يطالع كتب الأدب والفكر ، أخذ يحثنا ويشجعنا على قراءة الكتب العربية ، وكان محمد زين أكثرهم فهما وذكاء بل وأكثرهم حماسا ، فقد أعلن عن استعداده للعمل معنا بعد أن طالع ستة كتب من مطبوعاتنا ، إلا أن هذا لا يكفي لفهم طبيعة الدعوة ، ومنهج الجماعة ، فهناك ضرورة لرجل يستطيع أن يُهيئ هؤلاء الناس للعمل ، وأن يستفيد منهم أثناء تربيته لهم ، وقمنا بتعريف هؤلاء الناس ببعضهم ، وطلبنا منهم بصفة خاصة أن يتعاونوا مع بعضهم بعضًا .

بعد العصر زرنا مسجد الغمامة ، ففي هذا المكان كانوا يُصلون صلاة العيدين في العهد النبوي ، وقد دخل هذا المكان الآن في حيز العمران ، وبني هنا مسجد ، وتؤدى الصلوات الخمس في جماعة ، في وقت كثرة الزوار ، لم تكن هناك نقوش أو كتابات ، كما أن دليلنا لم يكن على علم بشيء خاص يخبرنا به ، وبصفة عامة ترجع جميع المباني الموجودة بالمدينة المنورة وضواحيها إلى العهد التركي .

في مكان ما داخل المدينة المنورة ، يوجد قبر مالك بن سنان رضي الله عنه (والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه) الذي جُرح في غزوة أحد ، وجاء إلى المدينة ، ولكنه فارق الحياة ، فدفن في بيته ، وفي هذا المكان توجد مدرسة لتحفيظ القرآن ، يديرها علي السمان الدمشقي ، وفي أثناء عودتنا من مسجد الغمامة ، وصلنا بالقرب من بيته ، فعرفنا أن المدرسة مغلقة اليوم ، وستظل مغلقة غدا (الجمعة) أيضا ، ويمكن أن نزورها يوم السبت ، فقد جلبنا الشوق لزيارة المكان ، واتجهنا إلى بيت على السمان ، فلم نفلح أيضا في مقابلته ، لأنه ذهب للصلاة بالحرم النبوي .

بعد المغرب التقيت بالأستاذ أحمد شاكر عند " مكتبة " غسكاني ، كان غاضبا ، فقط طلبني صباح اليوم عن طريق عاصم ، ولم أستطع الذهاب إليه نظرا لمشاغل السفر ، وعدم تأكدنا من برنامجنا ، فاعتذرت له ، لكنه ظل يعبر عن غضبه . . لقد قمنا بواجبنا ، اعتذرنا له ، ماذا نفعل ، فإذا ما غضب رجل مرهف الإحساس ، فهذا من شأنه وحده ، وهو دائما يميل إلى مثل هذا النوع من السخط والغضب ، والذي عادة ما يكون وراءه غرض ما .

حضر بالصدفة سيد سليمان الندوي ، وبعده بقليل حضر عبد الرحمن إفريقي ، ودار حديث " على الواقف " فسألني سيد سليمان الندوي :

- ألا زلت هنا . . ؟!

فقلت :

- لقد وقعت فريسة مسئولي الشركة ، وتوخيت الحذر ألا آتيكم وأنا في هذه الحالة من الاضطراب والقلق .

حواشي وتعليقات

١ - الشيخ محمد نصيف شخصية معروفة ، تحدث عنه المؤلف بما فيه الكفاية ، وقد نزل الملك عبد العزيز في بيته ، حين دخل الحجاز .

٢ - كانت الحكومة قد حددت " تعريفة الحجاج لعام ١٣٦٨ هجرية " أجور الانتقال كما يلي :

الدرجة	جدة - المدينة	مكة - عرفات	جدة - مكة
أولى تاكسي	١٨ جنيها	٦ $\frac{٣}{٤}$ جنيها	٤ $\frac{١}{٢}$ جنيها
ثانية أتوبيس	٩ جنيهات	٣ $\frac{١}{٢}$ جنيها	٢ $\frac{١}{٤}$ جنيها
ثالثة لوري بكراسي	٦ جنيهات	٢ $\frac{١}{٤}$ جنيها	١ $\frac{١}{٢}$ جنيها
رابعة لوري عادي	٣ جنيهات	١ $\frac{١}{٢}$ جنيها	١ جنيها

ويقابلها بالروبية الدرجة الأولى جدة المدينة ٢٤ روبية ومكة عرفات ٩٠ روبية وجدة مكة ٦٠ روبية وأما الدرجة الثانية فنصف الدرجة الأولى أي ١٢٠ ، ٤٥ ، ٣٠ روبية واللوري بكراسي ٨٠ ، ٣٠ ، ٢٠ روبية وبدون كراسي ٤٠ ، ١٥ ، ١٠ روبيات . انظر أم القرى العدد ١٢٦٢ الجمعة ٢٣ رجب عام ٨٦ هجرية .

٣ - الشاعر آسي غازي بوري من شعراء الأردية المشهورين .

٤ - رحلة ابن جبير من رحلات القرن السادس الهجري ، وكان ابن جبير قد سافر من طريق سبتة إلى الإسكندرية والقاهرة ، والبحر الأحمر ، والأراضي المقدسة ومنها إلى العراق فحلب ودمشق وعكا وصقلية فغرناطة سنة ٥٨١ هجرية / ١١٨٥م ثم عاد إلى الشرق بعد أربع سنوات وتوفي في الإسكندرية ، انظر الرحلات للدكتور شوقي ضيف الصفحات المتعلقة بالرحلة .

٥ - ولد مولانا حسين أحمد في ١٩ شوال ١٢٩٦ هجرية وهو من مركز تانده مديرية فيض آباد ، سافر إلى ديوبند حين كان في الثانية عشرة من عمره وتمكن في مدة بسيطة من قراءة الكثير من الكتب وتخرج في ديوبند سنة ١٣١٦ هجرية ، وحين هاجر أبوه إلى المدينة اصطحبه معه وهناك درس كتب الأدب على يد أديب المدينة المعمر الشيخ آفندي عبد الجليل براده كما درس الحديث على يد مشاهير العلماء ، وقد رجع إلى الهند سنة ١٣٢٦ هجرية ثم عاد ورجع إلى المدينة سنة ١٣٢٩ هجرية ، سجن في مالطا ، ورجع إلى الهند ليعمل بالتدريس حتى توفي سنة ١٣٧٧ هجرية وكان قد ترأس جمعية علماء الهند وسجن عدة مرات لجهوده في حركة تحرير الهند من الاحتلال الإنجليزي انظر أكابر علماء ديوبند ص ١٠٠ - ١٠٥ .

٦ - محمد الثاني الندوي من علماء ندوة العلماء واليد اليمنى للشيخ أبي الحسن الندوي ، يشاركه أسفاره وأعماله ، وهو عالم وأديب بالعربية

٧ - العالم بدر الدين الغلاييني من قطنا بالشام

٨ - انظر ما نقلناه عن أم القرى عن الانقلاب ضد حسني الزعيم

٩ - سبق التعريف بندوة العلماء

١٠ - أحمد محمد شاكر عالم وأديب مصري ، وهو علامة الحديث ، عمل بالقضاء الشرعي ، وتوفي عام ١٩٥٨م ، ألف وحقق الكثير من الكتب ، ومن بين ما حققه سنن الترمذي والرسالة للإمام الشافعي ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ، وكتاب أحكام الأحكام في الفقه لابن دقيق العيد ، وكتاب الكامل للمبرد ، كما شرح وحقق كتاب المفضليات والأصمعيات ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وكانت له آراء اجتهادية في قضايا إسلامية كثيرة ، كتب عنه أخوه العلامة محمد محمود شاكر كلمة نفيسة في مجلة المجلة عند وفاته عام ١٩٥٨ م .

١١ - يقصد تلك الفرق البدعية والبريلوية فرقة معروفة بتقديسها لأصحاب القبور والمولوية المقصود بها تقديس الشيوخ والميل إلى التمشيخ مما يفتح طريقا للبدع ، انظر ما كتبه العلامة إحسان إلهي ظهير بعنوان البريلوية طبع في لاهور المكتبة العلمية ، وفي القاهرة دار الأنصار .

١٢ - طبع الكتاب وصدر عن الدار السعودية للنشر في جدة وله طبعات أخرى كثيرة

١٣ - انظر ما ذكرناه عن مولانا رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية .

المدينــة المنورة - مكة المكرمة

الجمعة ٢٧ محرم ٦٩ هجرية / ١٨ نوفمبر ١٩٤٩م

أخيرا . . . ! تقرر يوم السفر . .

أخبرنا المسؤولون بالشركة أن نستعد بعد صلاة الجمعة ، كما أصدر المعلم أوامره لنا بالاستعداد بعد الصلاة مباشرة ، لكن القلب يتململ ، لا يرغب في الذهاب ، من ديار المحبة ، ولولا حلول فصل الشتاء ، لعزمت على البقاء هنا لعدة أشهر ، ولكني قسوت على قلبي اليوم ، وطويت متاع سفري بعد الصلاة ، فليعنيّ الله ، ويوفقني إلى العودة إلى مدينة حبيبه صلى الله عليه وسلم، لأقيم فيها بعض أيامي ، فالجو المفعم بالحب لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يجذبني ناحيته ، فربيع المدينة ربيع دائم ، فلماذا لا ننجذب إليها ؟ وإذا لم نعشق مدينة الحبيب فأي مكان ذلك الذي يجذب القلوب ويهز أوتار الروح ؟ من ناحية الذهاب ، فنحن لا شك ذاهبون ، لكن صورة المدينة المنورة ستظل باقية على مرآة القلب :

فمـا رأتـه العـين ، لا يزال مـاثلا أمام العين
ما رأتـه العين ، ذاب وامـتزج فـي القـلب
ماذا أحكي ؟وماذا أقول عن ربيع المدينة ؟
ربيعـــها ربيـــع فـــي ربيـــع فـــي ربيـــع

كان متاع السفر جاهزا منذ أول أمس ، ونظرا لتأخير السفر فقد تواعدنا على لقاء بعض أهل العلم ، فدعونا في الصباح الباكر يوسف عبد الرزاق الأزهري لتناول الشاي ، بينما دعانا هو لتناول الطعام عنده ، فذهبنا إليه وجلسنا فترة طويلة ، وحاولنا أن نعتذر عن تناولنا الطعام معه ، لكنه كان مشغولا بشراء لوازم الطعام ، كان معه أهل بيته ، لكن لم يكن عنده خادم ، أطلعناه على البرنامج الجديد للسفر ، واعتذرنا له عن حضورنا عنده لتناول الطعام ، لكنه لم يقبل اعتذارنا على الإطلاق ، وكنا بدورنا مضطرين ، إذ يجب علينا أن نكون في المحطة بعد الصلاة مباشرة ، وهكذا ظل الأمر معلقا بيننا ، قال بأنه سيأتي إلينا بعد الصلاة ، فإن وجدنا فرصة ذهبنا معه ، كنا قد دعونا بعض الناس يوم السبت، وأطلعنا بعض الأصدقاء على موعد سفرنا المفاجئ ، وأرسلنا لهم اعتذارنا .

وصلنا الحرم قبل الصلاة بفترة ، فوجدنا الروضة تعج بالزائرين ، فالمصلون يأتون قبل الصلاة بفترة طويلة ، وتلاوة القرآن يسمعها الإنسان بأصوات منخفضة من كل جانب ، لكن الصوت مسموع ، يرن ، ويطن في الأذن ، فصليت تحية المسجد في ركن من الأركان ، تأثر القلب كثيرا ، لعل هذه آخر تحية مسجد أصليها في هذا المسجد الجميل الرائع المقدس ، ثم تحركت ناحية قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنني أغبط نفسي ، فأنا فخور ومعجب بجرأتي ، فرغم أنني أتحرز الذهاب إلى بلاط الملوك والسلاطين ، لكنني هنا كنت مشدوها ، دهشا ، ماذا أقول ؟! وماذا أطلب ؟! إن القدم لا تتعدى أكثر من حدود النبوة ، كما أن زمام الأدب والوقار لا يزال في قبضة

يدي ، فالعبد المذنب الخجل يقف أمام سيده ومولاه ومحسن الإنسانية كلها (محمد سيد العرب والعجم) يريد أن يقول شيئا ، لكن اللسان لا يمكن أن ينطق بأكثر من : السلام عليك يا رسول الله ، والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وبهمة كبيرة نطقت بعض الأدعية المأثورة ، وتقدمت وسلمت على الشيخين ، ثم انتحيت جانبا ، واتجهت ناحية القبلة وناجيت رب العالمين :

" اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي بمسجد نبيك صلى الله عليه وسلم "

ثم حانت اللحظات ، انتهينا بسرعة من تناول الطعام عند يوسف عبدالرازق، فقد كان قلقا ومضطربا ، لكن برنامج الشركة لم يتحدد بعد ، لا الوقت ولا اليوم ، حين يستكمل عدد المسافرين تتحرك الحافلة ، لا شك أن الناقلات (اللوريات) تستكمل ركابها بسرعة وسهولة ، فمعظم الحجاج من الفقراء الذين يفضلون ركوب السيارات من الدرجة الثالثة والرابعة ، لكن العبدلله لا يمكنه أن يسافر في أقل من الدرجة الثانية أي الحافلة ، التي يصعب استكمال ركابها ، وخاصة هذه الأيام نظرا لأن معظم الحجاج رجعوا إلى ديارهم .

كان الوقت المقرر بعد الجمعة ، لكن لا يوجد نظام هنا ، فقد تحركت الحافلة بعد العصر ، وبقينا في حالة الانتظار مضطربين ولكن حين تحركت الحافلة ، طرأ علينا حالة عجيبة فقد كنا نتطلع إلى القبة الخضراء ولساننا يلهج اللهم صلى على محمد . . إلخ ونتطلع في حسرة حوالينا ، لقد قضينا في مدينة الحبيب اثنين وعشرين يوما ، بدت وكأنها حلم استيقظنا منه حالا ، وبينما

كانت الحافلة تمضي أخذت أقلب عيني هنا وهناك ، حتى اختفى كل شيء من أمامي وبقيت في حالة من الذهول . .

اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي بمدينة رسولك صلى الله عليه وسلم

توقفت العربة عند باب العنبرية ، فهنا تُملأ استمارة البيانات طبقا للقوانين المتبعة ، وبعدها توقفنا عند بئر عروة ، وهو بئر المدينة المشهور ، فشربنا من مائه ، لكن جرعتين أو ثلاث جرعات لا تطفئ ظمأ العبد لله ، لكن تزيد من ظمأ العطشان ، ومضينا بعد المغرب في طريقنا إلى مكة المكرمة .

أخذ السائق يقود العربة بسرعة مثيرا ضوضاء شديدة جعلت جميع المسافرين يصرخون ، كان السائق شابا سودانيا ، قوي البنية ، موفور الصحة ، فأخذ يقود العربة بسرعة ، لا يبالي شيئا ، فكادت عظامنا تتحطم من فرط اهتزاز العربة العنيف ، وكان معظم المسافرين من الباكستانيين والهنود ، لم أكن أفهم لغة البنغاليين ، ولم يكونوا بدورهم يفهمون لغتنا ، وكان المسافرون الآخرون طيبين دمثي الخلق ، وبناء على أمر من هؤلاء جميعا حاولت أن أفهم السائق بأن يتعقل ، ووعدته طبقا للعادات السائدة هنا بتقديم " الخدمة " المتعارف عليها ، والسائق يأخذها مقدما ، وإلا كسّر عظام الحجاج وهدّ روحهم ، وكان قد تسلم قبلا ريالين أو ثلاثة ريالات باسم " التمر " ، فقد نطق خادم المعلم والسائق معا وفي صوت واحد : " ضريبة التمر على حده " ويعلم الله : هل هذا قانون الشركة أم كانت مؤامرة تحاك في هذه الأيام ، فإذا كان هذا قانونا فهو أمر غير لائق على الإطلاق ، فكيف يمكن لزائري المدينة أن يشتروا هداياهم لأقاربهم وأصدقائهم ؟

على كل حال استمرت الحافلة تمضي بسرعتها ، بينما المسافرون يتضرعون إلى الله أن يحفظهم ، وأخذ بعضهم يصرخ ويولول ، لكن السائق لم يعطهم أذنا صاغية ، وتوقفنا في المسيجيد لأداء الصلاة وتناول الشاي ، والاستراحة قليلا .

بعد المفرق وعند مكان يقال له أم السدر ، قضيت الليل في راحة وهدوء فشكرا لله ألف شكر .

السبت ٢٨ محرم ٦٩ هجرية / ١٩ نوفمبر ١٩٤٩م

طلع الصباح وانطلقت الحافلة ، وذهبت جميع محاولاتنا الرامية للتعامل مع السائق بأسلوب لطيف أدراج الرياح ، ولم يؤثر ترجيبنا به ، بكافة الأشكال ، فلم يتراجع السائق عن مسلكه السابق ، وأخذنا نعاني من الإصابات ، وأخذ بعض كبار السن ، وبعض النسوة في الصراخ والعويل ، ونازعتني عاطفتان متضادتان ، فمن ناحية أخذت العربة تتمايل بشدة ، وبطريقة لا يمكن تحملها ، فأخذت أدعو الله :

اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده

واستمر هذا الدعاء يجري على لساني ، أردده مرة بعد مرة ، فيهدأ القلب ، ويطمئن .

ومن ناحية أخرى كانت صورة المدينة المنورة لا تزال ماثلة أمام عيني ، فكان هذا الجو الجاذب للقلب ، الممتع للروح يتراءى في فكري وفي خيالي ،

فيطرأ عليّ نوع من الخدر والدغدغة ، فتشارك العين أحيانا بنصيب في هذه الحالة التي تنتابني .

استمرت هذه الحالة لفترة حتى وصلت القافلة إلى رابغ ، لم يحن وقت الظهر حتى الآن ، ونتوقع أن نصل جدة مساء اليوم ، لكن إرادة الله شاءت أمرا آخر ، فقد تعطلت الحافلة فجأة ، أو أن نية السائق تغيرت ، والعلم عند الله .

على كل حال بدأ السائق يتبع أسلوب الاستغناء وعدم الاهتمام ، وظن الناس أن هذه علامات " هل من مزيد ؟ " وليس هذا هنا بالأمر العجيب ، فمثل هؤلاء الناس متعودون على هذا النوع من الشقاوة ، ففي وسط الطريق والحجاج صامتون لا حول لهم ولا قوة ، يستجيبون لمطالبهم ، حفاظا على أرواحهم ، وبعدها ، وبقدرة قادر ، تصبح السيارة في حالة جيدة .

جربنا هذه " الوصفة " هنا أيضا ، وأثبتت نجاحها إلى حد ما ، إلا أن عدم الاتفاق جعلنا نستغرق وقتا طويلاً في إعداد " الوصفة " واستعمالها .

حل الظلام ، ومع هبوب العواصف الشديدة ، بدأ سقوط المطر ، والآن صار السائق مستعدا لقيادة السيارة ، لكن أغلب المسافرين فضلوا قضاء الليل هنا .

وبينما كنت أفكر مع عاصم في الاستراحة في مقهى ، إذا بعربي مثقف يحدثنا بلغة عربية فصيحة ، سمعنا لهجته الجميلة فانتبهنا ، وجلسنا ، وبدأنا نتحدث معه ، كان يدعى سليمان بن سالم ، يعمل مديرا لإحدى المدارس الابتدائية في رابغ ، بدا عليما بالأمور ، ومهذبا ، عرفناه بدعوتنا ، وتحدثنا معا

حديثا مفصلا عن قضايا الهند وباكستان ، وطال جلوسنا معه ، نظرا لاهتمامه وكثرة أسئلته ، واستغرق ذلك ساعتين تقريبا ، لم نسعد أبدا بقضاء الليل في رابغ ، لكن هذا اللقاء ، وهذه الصحبة الطويلة الممتعة ، أزالت عن أنفسنا الضجر والكدر ، وشعرنا كأننا حصلنا على قيمة المبيت في رابغ كاملة .

الأحد ٢٩ محرم ٦٩ هجرية / ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩م

قضينا ليلة طيبة رغم العاصفة والمطر ، لكن الحافلة أصابت عظامنا برضوض شديدة ، لا نزال نعاني من آلامها رغم استراحتنا طوال الليل .

دقت أجراس الرحيل مع طلوع الصباح ، وطالما كان السائق نائما ، لا يجرؤ أحد على أن يلمسه ، كما لا يمكن لأحد أيضا أن يسائله ، ولكن إذا ما استيقظ ، عمت فوضى الاستعداد للرحيل ، حيث لا يفكر أحد حتى في ضروريات المسافرين الشديدة !!

استمرت الحافلة تمضي بنفس سرعتها ، حتى وصلت إلى جدة قبيل الظهر ، بعد أن تكسرت عظامنا ، فاستأجرنا سيارة أجرة ، وذهبنا على الفور إلى بيت الشيخ محمد نصيف العامر ، وهناك تنفسنا الصعداء ، لم يكن صاحب البيت موجودا ، وبالصدفة شاهدنا الشيخ محمود شويل يجلس هناك ، فسلمنا عليه وتبادلنا التحيات ، ثم غسلنا أيدينا ووجوهنا ، وبدلنا ملابسنا ، وعندئذ حضر الشيخ محمد نصيف ، وهو رجل من أحسن الرجال في جدة ، بل في الحجاز كله ، وهبه الله العلم والمروءة ، وحسن الخلق وطيب العشرة ، والتواضع ، وباختصار كل أنواع النعم .

تربطه علاقة وثيقة بالعلماء في جميع أنحاء العالم ، ويقيم في بيته العلماء القادمون من الخارج ، وبيته " مضيفة " عامة " لطلبة العلم " ومكتبته رائعة ، وهي بالنسبة لمحبي القراءة من أهل البلاد مثل " المكتبة العامة " يفدون عليها إذا ما أرادوا ، وفي أي وقت للقراء والاطلاع ، وكنت قد راسلته من مدة ، وكان الرجل كعادته يرسل إلينا أحيانا الكتب " هدية " .

واليوم ألقاه لأول مرة ، وليس من سمع كمن رأى ، فعادة ما يصاب الإنسان باليأس ، لكن فيما يتعلق بالشيخ محمد نصيف ، وجدناه أطيب كثيرا مما كنا قد سمعناه عنه ، ورغم تقدمه في العمر ، إلا أنه لا يزال يعشق القراءة والمطالعة ، وصحته - ما شاء الله - طيبة للغاية .

وبينما كنا جلوسا إذا بالشيخ عبد الله الحسو (الموصلي) يأتي ، عائدا من مكة المكرمة ، متوجها إلى موطنه بالطائرة المتجهة إلى الظهران صباح الغد ، وقد ذكرت لقائي به في الموصل من قبل ، وقد أثار هنا أيضا مسألة التكفير ، كان الشيخ محمد نصيف ، والعبد الفقير يؤكدان على الاحتياط ، أما الشيخ محمود شويل وعبد الله الحسو فكانا يؤكدان على التكفير بالضرورة (في ظروف خاصة) .

لا شك أن تشدد هؤلاء السادة من " السلفيين " ينفر الآخرين من الاتجاه إلى الحق ، وقد صدق الشيخ نصيف حين قال إنه " تنفير " لا " تكفير "

حضر الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ ، الذي قدم من مكة للقاء جلالة الملك ابن سعود ، وسوف يعود في المساء ، وكان محمود شويل قد جاء في صحبته وسوف يعود معه أيضا .

أُعد الطعام ، ودخل الجميع إلى قاعة الطعام ، وعرفنا أن نجل الشيخ رشيد رضا يرحمه الله "سيد معتصم رضا " يقيم أيضا في هذا البيت ، وهو يفكر في نشر بعض مطبوعات " دار المنار " عن طريق السلطان ابن سعود ، ويبدو من ملامح وجهه الذكاء والفهم ، وسوف أتحدث معه إن شاء الله في وقت ما .

بعد تناول الطعام طلبنا الإذن من مضيفنا وانتقلنا إلى غرفة أخرى لنستريح فترة .

وبعد العصر قصدنا القنصل الهندي للقاء مولانا عبد المجيد حريري ، وهناك وجدنا الشاي الأخضر جاهزا ، فضاعف الشاي في متعتنا أثناء الحديث ، وخاصة أن مولانا الحريري لم يلتزم بموضوع واحد ، لكن حديثه كان متشعبا وجذابا .

طلبنا منه الإذن بعد المغرب ، والتقينا بالحكيم وكيل معلمنا فتح عبد الرحمن مظهر في بيته . وكانت (ورقة المرور) الخاصة بنا قد بقيت لدى السائق، فكان علينا أن نستخرج ورقة مرور تمكننا من الذهاب إلى مكة ، فوصلنا إلى بيت الأخ مولوي محمد مظهر الندوي (الأخ الأصغر لعبد الرحمن مظهر) فقابلنا بترحاب ، وبخلق كريم ، كان في بيت أخيه في مكة المكرمة ، وسلوكه أيضا كان يتسم بالسلوك التجاري ، نظرا لوجوده في البيئة التجارية لأعمال الطوافة ، لكنه هنا يعيش حياة حرة ، ويمتلك بيتا ، ولهذا فقد قابلنا على الطريقة التقليدية لندوة العلماء ، بحرارة شديدة ومحبة خاصة ، ووعد

بمساعدتنا على قدر الإمكان في جميع مراحل السفر ، وهكذا استخرجنا بسهولة كبيرة " ورقة المرور " .

حين رجعنا بعد العشاء ، شاهدنا محمد الخطيب في مكتب الشيخ محمد نصيف ، وسررنا كثيرا لهذا اللقاء غير المتوقع ، وهو مسافر في الصباح إلى دمشق عن طريق بيروت ، بعد الطعام جُهزت لنا حجرة النوم ، ومكثنا نتحدث لفترة طويلة ، ولعل هذا آخر لقاء في سلسلة اللقاءات هذه .

الاثنين ٣٠ محرم ٦٩ هجرية ٢١ نوفمبر ١٩٤٩م

يأتي الحجاج في العادة هنا ، وقد حجزوا تذاكر العودة ، ويتم ترتيب عودتهم في الغالب طبقا لترتيب قدومهم ، ولهذا فقد كان أهم عمل أمامنا هو الحصول على تذكرة العودة ، كنا قد جئنا بالطريق البري ، ولهذا فمن الصعب أن نحصل على تذكرة للعودة في الوقت الذي نريده ونرغبه ، ولكن حين يفيض علينا عون رب العزة ، وننال مساعدة الأصدقاء ، فمثل هذه الصعوبة ، ومثل هذه العوائق القانونية تتلاشى بسهوله .

فرغنا من طعام الفطور صباحا ، ونحن نفكر في هذا الأمر ، فوصلنا مباشرة إلى القنصلية الباكستانية ، وقد حجزت القنصليتان الهندية والباكستانية أماكن في البواخر حتى تتلاشى الصعوبات والمشاكل التي تنشأ عادة في موسم الحج كل عام ، كنت أعرف - غيابيا - القنصل الباكستاني في جدة محمد مسعود ، فهو نجل العالم المشهور مولانا أبو البركات عبد الرؤوف دانابوري رحمة الله عليه ، وكانت له علاقة خاصة بأخي سيد محمد عثمان رئيس بلدية كلكتا سابقا ، ومن

هنا رأيت أن أستفيد من هذه الصداقة ، وهكذا استقبلني باحترام ، وتحدثنا معا عن موضوعات مختلفة لمدة ساعتين أو أكثر ، ودار الحديث بالطبع عن الجماعة الإسلامية ومنهجها الحالي ، وكان أسلوبه في الحديث مهذبا ، غير معقد ، لم يتطرق أبدا أثناء الحديث إلى أي نوع من الكلام اللاذع ، وقمت أيضا بتوضيح موقفي من القضايا التي أثارها .

دار هذا الحديث الطويل في غرفته الخاصة ، وبعدها دخل علينا غلام حيدر (نائب القنصل) وتشاور الاثنان معا ، واتخذا قرارا فيما يتعلق بالمقاعد الخاصة بنا ، ولم نكن نحن بدورنا في عجلة من أمرنا ، فقد عقدنا العزم على أن نذهب إلى مكة لمدة أسبوع أو عشرة أيام ، على أن نرجع في الأيام الأولى من ديسمبر .

وبينما كنت على وشك وداعه ، دخل مندوبان سعوديان سيحضران المؤتمر الاقتصادي المقترح في باكستان ، وقد جاءا للقاء القنصل الباكستاني محمد مسعود ، وهكذا اندفع القنصل ناحيتي قائلا :

– يا أخي انتظر دقيقتين ، من فضلك تول الترجمة بيننا .

فقلت :

– حسنا

وبدأ الحديث ، وكان في مجمله عبارات مجاملة رسمية .

ذكر القنصل أيضا أنه دعا إلى هذا المؤتمر تجار باكستان ، ولا علاقة للحكومة به ، وقد أكد للمندوبين السعوديين بطريقة طيبة أنهم سوف يسرون

كثيرا بعد أن يشاهدوا باكستان ، وسوف يتحقق النجاح للمؤتمر ، بتعاونهم ومساعدتهم .

رغبت في لقاء مولانا حريري بعد العصر ، ومن الصدف الطيبة أنني لقيته عند مولانا محمد منظور النعماني ، فقد كان بيننا موعدٌ منذ فترة طويلة لنتحدث حديثا خاصا ، وهو مسافر غدا ، ولهذا قررنا أن نلتقي في مكان ما لنتحدث في هدوء .

كما كان يجب أن ألتقي أيضا بمحمد مظهر ، ورافقني مولانا حريري ومولانا نعماني ، وأطلعنا محمد مظهر على ما فعلناه في الصباح ، على أن تكون بقية الترتيبات على عاتقه ، فقد كنا ذاهبين في الغد إلى مكة المكرمة ، لأن أي يوم نقضيه في الحرم غنيمة لا تعوض .

وهكذا اتجهنا جميعا إلى بيت الشيخ محمد نصيف ، وجلسنا في بيته لفترة، استأذن مولانا حريري بسرعة ، وبقي مولانا نعماني لتناول الطعام معنا ، كان يود أن يقول لنا شيئا ، فتحدث معنا بصراحة في تأثر بالغ وإخلاص شديد ولم يحاول كاتب السطور أن يخفي تأثره ، ولكن كيف يمكن أن نعمل بنصيحته؟

لم أتمكن من الوصول إلى حل معقول يتعلق بنصيحته ، ولكنه عرض الأمر كما شاء ، ولعلي بقيت مشغولا أفكر وأتأمل فيما قال ، لأسابيع وربما لشهور .

الثلاثاء أول صفر ٦٩ هجرية / ٢٢ نوفمبر ١٩٤٩م

قضيت وقت الصباح في مقر إقامتنا ، بينما انشغل عاصم بترتيب الأمتعة ،

فسوف نتجه إلى مكة قبيل العصر ، وانشغلت بالاطلاع على فهرس مكتبة الشيخ محمد نصيف ، بينما كان عاصم يحاول أن يدخر وقتا ليطلع على المكتبة ، وقد أهدانا رب البيت كعادته بعض الكتب .

حضر مولانا حريري قبيل الظهر ، فأخذنا نتحدث معا عن نجد والحجاز ، وكأننا نتبادل المشاعر ، كان الشيخ محمد نصيف في مكتبه ، ولهذا مكثنا فترة طويلة نتحدث وحدنا .

وتوفرت لي فرصة للحديث مع سيد معتصم رضا (نجل العلامة سيد رشيد رضا) فهو على اطلاع بالظروف والأحوال الجديدة في العالم ، ولديه إحساس كامل بالمستلزمات الجديدة ، ومن المصادفات الطيبة أنه اشترى مطبوعاتنا العربية من إحدى المكتبات في مكة المكرمة لصاحبها عبد الله فدا ، وقد قرأها ، وأثنى كثيرا على مضمون الكتب ولغتها وقال :

- يبدو أنك أعطيت كتاب الاشتراكية (الشيوعية) لحامد الفقي ، لنرى ماذا سيحدث له ، فدخول هذه الكتب ممنوع في مصر ، وهناك تفتيش دقيق على الحدود .

فقلت :

- على كل حال لا يمكن لمثل هذا التشديد أن يواجه (الشيوعية) فإن الارتباك الاقتصادي في مصر بيئة صالحة لنمو (الشيوعية) .

وقد اتفق على ما عرضناه وقال :

- هذا ما نقوله في مصر أيضا ، إن مواجهة الشيوعية لا يكون بالأقوال بل يمكن مواجهتها بالأفعال .

جئنا إلى مكتب الشركة عصرا ، وركبنا الحافلة ، ونظرا لأننا سنقيم في مكة مدة قصيرة ، فقد تركنا معظم أمتعتنا عند محمد مظهر ، أخذنا فقط فرش النوم ، وحقيبة صغيرة ، ورغم ذلك كان عامل الحافلة يهددنا محاولا الحصول على "هبة " فقال أحد الأشخاص :

- أعطه ريالا وخلص نفسك .

- فقلت :

- راجع القانون ، عليه أن يزن الأمتعة ، وليأخذ الرسوم على الوزن الزائد، ولكنني لن أدفع تحت ضغط التهديد (١) .

فراح العامل يقفز وينط ، ثم قال :

- من يتبع القانون ؟!

واستمر في تهديده ، بينما جلسنا في هدوء واطمئنان .

تحركت الحافلة بعد العصر ، كانت المسافة إلى مكة ساعة ونصف ، فالطريق واسع ، ومسفلت ، فمضت الحافلة تقطع المسافة بشكل جيد ، وفي هدوء ، توقفنا عند مكان يقال له (بحره) فشربنا الشاي في أحد المقاهي ، واتجهت القافلة صوب الحرم ، بعد أن جددنا نشاطنا .

اشتد البرد بشكل خاص نتيجة هطول المطر الذي استمر ثلاثة أيام أو أكثر ، ولهذا لم أتمكن من ارتداء ملابس الإحرام ، وأحرم عاصم للعمرة ، وكذلك بعض المسافرين ، ومعظم حجاج الخارج الذين ينتظرون السفينة يحرمون إذا أرادوا المرور بمكة ، لكن سوء الحظ يلازمني منذ زمان ، وأنا لا أملك من أمر نفسي شيئا ، فالصحة والمرض بيد الله .

وصلت الحافلة متأخرة قليلا عن موعد وصولها الأصلي ، صلينا المغرب في الحرم ، ووضعنا الفراش في مكتب عبد الرحمن مظهر ، واتجهنا للحرم ، فطفت فقط بينما طاف عاصم وسعى ، وأتم العمرة ، وفي الليل بقينا في المكتب ، لكن هجوم الناموس حرمني من النوم .

الأربعاء ٢ صفر ٦٩هجرية / ٢٣ نوفمبر ١٩٤٩م

تناولنا طعام الفطور مع عبد الله مظهر ، كان الفطور وجبة كاملة ، وطعام الفطور هنا بشكل عام مثل طعام الفطور عند أهل بهار في الهند كما ذكرت ، كثير متنوع ، يملأ المعدة ، فطعام الغداء يكون عادة بعد الظهر ، بل قبيل العصر ، وفي الليل لا يأكلون ، فيكفي تناول طعام خفيف كطعام الفطور عندنا .

بعد صلاة الظهر أخذنا نفكر في أمر السكن ، ويمكن تدبير الأمر بسهولة في رباط بهوبال القريب من مكتب شيخ مطوفي الهند ، فالغرف عادة تكون خالية بعد الحج ، وقد أقام في هذا الرباط أخونا المحترم الدكتور زين العابدين .

بعد الفطور التقينا في الحرم بالشيخ محمد بن عبد الرازق حمزة ، وتحدثنا لفترة قصيرة ، ويمكن أن نتحدث بالتفصيل إذا وجدنا فرصة للقاء في المستقبل

القريب ، وهكذا صار بيننا ألفة ، رغم أنه لم يتمكن حتى الآن من قراءة مطبوعاتنا العربية ، وكان العبد الفقير يفكر في هذا الأمر كثيرا .

في المساء التقينا بمولانا عبد الوهاب الدهلوي ، فقد كنت أنوي أولا الإقامة في رباط (تونك) الذي يشرف عليه الدهلويون ،لكن رباط بهوبال أفضل منه ، وأقرب إلى الحرم ، فشكرتهم على عرضهم هذا ، وقد حصلت وأنا في المدينة ، على خطاب توصية للقائمين على رباط " تونك " لكنني أعدته شاكرا .

كانت أعداد " الكوثر " و" الإنصاف " قد وصلت ، فأخذها مولانا معه ليطالعها في البيت ، وسوف تصلنا غدا .

ذهبنا إلى " مكتبة " عبد الله فدا وجلسنا فترة ، وهناك التقينا بمولانا عبد الوهاب ، وعلمنا أن الشنقيطي كان قد أعطاه ٢٥ مجموعة من مطبوعاتنا العربية، وحصل على قيمتها في شكل كتب ، فلم نستطع أن نوافق على هذا العرض ، وانتهى الأمر .

قابلنا اليوم على غير العادة ، فقد عكر صفو علاقتنا حدة عاصم ، وعبوس وجهه ، وافتقاده للتجربة والخبرة ، كل ذلك حمله على أن يعاملنا بطريقة سيئة ، وقد أفصح لنا عن رغبته في استمرار التعامل معنا ، فقلت له :

- لقد كنت مريضا ، ماذا كان سبب تعكر الصفاء بيننا ؟ وماذا يمكنني أن أفعل بهذا الشأن ، مضى ما مضى ، وأنت الآن مستعد للتعامل معنا بشكل دائم ،

وهذا يكفينا ، وإن شاء الله سنرسل لك من كل كتاب جديد ٢٥ نسخة بخصم قدره ٢٥٪ ، على أن يتسلم منك قيمتها أحد رفاقنا كل سنة في وقت الحج .

مكثنا في الرباط بعد المغرب حيث تحدثنا مع سيد زين العابدين الندوي وسيد نجم الهدى (البهاري) لفترة طويلة عن موضوعات مختلفة ، وقد سبق ذكر سيد زين العابدين مرات عديدة في الصفحات السابقة ، أما سيد نجم الهدى ، فهو من سكان بهار وهو ابن شقيق الدكتور عبد الرحمن ذائع الصيت ، رئيس الهيئة الطبية في بهوبال سابقا .

الخميس ٣ صفر ٦٩ هجرية / ٢٤ نوفمبر ١٩٤٩م

لقد تغير شكل مكة المكرمة والحرم المكي ، أين ذلك الزحام ، وتلك الحشود ، وأين سيل الحجاج من هذا السكون والصمت ؟! ومع هذا فليس عدد عشاق بيت الله ، وفراشات الحرم بقليل ، فالمطاف لا يخلو أبدا من الناس ، والدنيا هنا غير الدنيا ، فإذا ما دخلت الحرم ، نال القلب والروح نصيبا من السكون والطمأنينة والهدوء ، والنظر إلى الكعبة أيضا فيه ثواب ، والحقيقة أن في بيت الله ، الملفوف بالغلاف الأسود جاذبية عجيبة ، مثلما يشعر الإنسان كلما سمع تلاوة القرآن مرة بعد مرة بسرور متجدد ، ومسرة لا تنتهي ، وهكذا فإن منظر بيت الله يعطي الآن كيفية جديدة في كل لحظة ، ويهب القلب والروح مسرة متجددة ، فما أسعد من نال نصيبا من هذه المتع أثناء إقامته في مكة المكرمة .

لم يستطع كاتب السطور أن يحلق طويلا ، فهو يشكو من مرض عضال ، ماذا يفعل إنسان نحيف ضعيف مصاب بداء الربو ، إنه قانع بنصيبه ، وراض بما قسم الله له ، وشاكر لفضله .

ومع تغير جو الحرم ، تغير أيضا جو مكة ، فقد اشتد البرد نتيجة هطول الأمطار المتواصل ، ومع زيادة البرودة ، بدأت أنفاسي تخرج بصعوبة ، وبدأت أشعر بضيق التنفس ، وكنت بالطبع أستعمل الأدوية ، والحمد لله ، لم يكن الأمر بالشدة التي كان عنيها قبلا ، لكنني لم أجد القدرة على بذل النشاط والجهد المطلوب ، يا ليت هذا الأسبوع ؛ أو هذه الأيام العشرة تخلو من متاعب المرض وآلامه ، هذا بأمر الله ، لكن لا أحد يعلم متى تنزل رحمة الله ، فأعمالنا تعرض عليه ، وهذا يكفي !

قضيت معظم وقتي صباحا في كتابة الرسائل أو استكتابها ، وكنت قد تأخرت في الرد على الكثير من الخطابات في الأيام القليلة الماضية ، وكما تجمعت علي الرسائل ، تجمعت علي اليوميات أيضا ، فكان عليّ أن أنجز بشكل أو بآخر كل هذا ، مع ما يستجد من أعمال أخرى .

كما ذكرت بدأت كتابة هذه اليوميات على سبيل التسلية ، والآن اتخذ الأمر شكل الواجب المنزلي ، وهكذا طلبت من عاصم أن يتولى كتابة الخطابات ، وفي أكثر الأحيان كنت أُملي عليه اليوميات أيضا ، بما في ذلك هذه السطور .

بعد الظهر جاء عاصم بأعداد من مجلة " الكوثر " و" الإنصاف " كما جاء أيضا بعدد رمضان من " ترجمان القرآن " وثلاثة أعداد من مجلة " الأنوار " وبقينا معا نطالع بمتعة هذه الصحف والمجلات لفترة طويلة .

بعد صلاة العصر ، جلسنا في الحرم ، كانت هذه فرصة طيبة للدعوة ، ولتجديد اللقاءات ، ولكن ضيق التنفس حال دون نشاطي ، والحمد لله فعاصم حتى الآن له قدرة على لقاء الناس ، والتحدث معهم ، لكنه لا يجد فرصة لأداء أعمال متفرقة ، ثم إنه لا ذنب عليه فيما يستجد من أمور ، أو ما يطرأ لنا .

الجمعة ٤ صفر ٦٩ هجرية / ٢٥ نوفمبر ١٩٤٩م

استمر ضيق التنفس على حاله ، وكلما رغبت في بذل نشاط ما ، لا تواتيني الهمة ، وقد علم الأخ المحترم الدكتور زين العابدين بمعاناتي ، فجاء المسكين فورا ، وفحص نبضي ، وقدم لي الدواء ، ولكن الصعوبة كانت في أن أدوية الهوميوباثاتك غيورة جدا ، لا تتحمل مشاركة أي أدوية أخرى ، وبسبب الأدوية التي قدمها لي الدكتور زين العابدين فقد اضطررت لترك الأدوية التي وصفها لي الحكيم محمد يحي (الروالبندي) وشعرت بأن الألم ازداد نتيجة لهذا التغيير .

كانت صلاة الجمعة في الحرم كما هي ، تتصف بالعظمة والجلال ، والفرق الوحيد هو عدم وجود زحام أيام الحج ، وبدا صحن الحرم الواسع خاليا في معظم أجزائه ، ورغم ذلك كانت الجماعة كبيرة جدا ، ألقى الخطبة الشيخ

أبو السمح ، لكن كانت على غير العادة قديمة ومحفوظة ، كان يلقي بالخطبة في أيام الحج بطريقة مؤثرة ومناسبة للظروف والأحوال ، ولا تسأل عن تأثير تلاوته للقرآن الكريم ، وحلاوتها . . فسبحان الله ! ولا شك أن الركوع كان خفيفا وكذا السجود ، أين ذلك الإنسان الذي يخلو من التقصير ؟ !

بعد العصر جلست فترة مع أعضاء جماعة التبليغ(٢) رجال طيبون ، مخلصون ، صالحون ، كان معهم شاب من شباب ندوة العلماء يدعى قاضي معين الله كوالياري ، ويفهم أن أثر العاطفة واضح على شاب في مثل عمره ، وقد تقدمت للسلام ولكن الشاب لم يشعر بي أبدا ، وبدا كأنه تائه في عالم آخر ، إنني أخشى التصوف ، لأن طريق التزكية هذا يجعل من الشباب عجزة قبل فوات الأوان ، وعلى الأقل لا يمكن أن يعد الإنسان للجهاد ، والله أعلم !

هل هذه الحالة التي طرأت على هذا الشاب من أثر التصوف أم أن هذا شيء في طبعه وفطرته ؟! تحدثت مع أصدقائه الآخرين ، ووعد معين الله بأن نلتقي ثانية .

في الليل تحدثت مع الدكتور زين العابدين عن أحوال الهند وباكستان ، فهو حتى الآن من أتباع حزب المؤتمر المغالين ، المتعصبين ، وقد تغيرت الدنيا في الهند ، وتزلزل إيمان أكابر أعضاء حزب المؤتمر ، لكن صديقنا المحترم الذي يعيش حياته بعيدا عن أرض الهند ، لا يزال تابعا وفيا لحزب المؤتمر الذي تأسس قبل التقسيم(٣) .

نظرا لما أعانيه من آلام شديدة في الصدر ، وبإذن من الدكتور المحترم فقد تركت أدوية الهوميوباثاتيك وبدأت تناول الأدوية اليونانية التي وصفها لي الحكيم محمد يحيى ، شفاني الله وعافاني !

السبت ٥ صفر ٦٩ هجرية / ٢٦ نوفمبر ١٩٤٩م

دعاني عبد الأحد لتناول الشاي صباحا ، وهو يقيم قريبا منا في رباط (عمون جان) أعد لنا الشاي ، وجاء به إلينا ، فتناولناه جميعا ، للإخلاص وللمحبة قيمة عظيمة ، فالعبد الفقير يجد متعة وسرورا في قبول دعوة الفقراء بشكل خاص ، وعلى العكس من هذا أشعر بالضيق الضجر ، حين أُدعى لتناول الطعام في بيوت أرباب الجاه والثراء ، لا أدري لماذا ؟!

كانت هناك بعض الأوامر التي وجهها لي صديقي المحترم نصير الدين (صاحب صيدلية نظامي بكراتشي) كنت قلقا جدا ، أريد أن أعرف الدواء المناسب لحالتي ، وفي النهاية ذهب عاصم في صحبة عبد الأحد لشراء الأدوية المطلوبة ، وأحضروا أحسن دواء ، كان ممهورا ومختوما من قبل حكيمنا ومستشاره أيضا ، مما يدل على أن عاصما وعبد الأحد نجحا في مهمتهما .

كان لتعب الأمس والآلام التي لازمتني أثرها على حالتي اليوم ، ونظرا لمحبتي وتقديري لزين العابدين ، وإصراره أيضا ، قبلت دعوته لتناول طعام الغداء ، لم نتناول الطعام ليلا ، لعل تغيير وقت الطعام والاحتياط ، يساعدان على تحسن حالتي .

حضر إلينا اليوم فجأة علي الطيب صهر الأستاذ المحترم الدكتور الهلالي ، وكان عاصم قد زاره مرة ، فجلس معنا بعض الوقت ، سألته عن أحوال الهلالي وأولاده ، ولما دعاني لتناول طعام الغداء ، اعتذرت له ، لمرضي وضعفي ، فقال :

- سوف أرسل السيارة ، فلا مجال للاعتذار إذن .

وبقيت فترة أتعلل ، وهو يصر ، وفي النهاية تقرر أن نتناول طعام الغداء في بيته ظهر الغد ، فليعينني الله ، فمثل هذه الدعوات تؤثر - بشكل عام - سلبا على صحتي .

التقيت في الحرم بالشيخ علي السمان ، كان ذلك في الظهر ، وقد قدم إلى مكة لضرورة ما ، فهو يدرس في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم في المدينة المنورة ، وكان قد وعدني بأن أشاهد مدرسته ، ويقع بيته أيضا بالقرب من مكان قبر الصحابي مالك بن سنان رضي الله عنه ، إلا أن سفري المفاجئ من المدينة حرمني هذه الفرصة ، وعلى كل حال كنا قد أبلغناه اعتذارنا ، والسمان من سكان دمشق ، وهو رجل طيب للغاية ، كان معه رجلان سوريان من أهل العلم والكمال ، فتعرفنا عليهما ، ودعاني أحدهما إلى زيارة سوريا وأكد على ذلك كثيرا .

وهكذا التقيت بعد العصر بتلميذ الشيخ محمد بن إبراهيم ورفيق القاضي عبد العزيز بن باز ، وتحدثنا لفترة ، كنت قد لقيته في الرياض ، وقد سبقني

بالزيارة ، وتواعدنا على اللقاء أكثر من مرة ، إلا أن مدة إقامتنا محدودة ، بالإضافة إلى أن آلام ضيق التنفس نتيجة داء الربو قد زادت عليّ ، وأفقدتني الرغبة في أي عمل .

رقدت على الفراش أُعاني طوال الليل ، وكان هذا حالي في المدينة أيضا ، حيث كثر الزائرون من حولي ، لكني هنا أجد الهدوء والسكون ، فبدأت أُملي على عاصم هذه اليوميات .

الأحد ٦ صفر ٦٩ هجرية / ٢٧نوفمبر ٩١٤٩م

بقيت في الرباط طوال الصباح أنتظر علي الطيب ، وبينما كنت أطالع " الكوثر " و " الإنصاف " كان لساني يلهج بالدعاء لأصحاب الإنصاف بصفة خاصة ، فالكتابة بهذه الجرأة ، والتعبيرات المفعمة بحرارة الإيمان ، وسط ظروف الهند الحالية ، شأن عظيم ، أسبغ الله عليهم نعمة إخلاص النية والاستقامة .

حضر علي الطيب في تمام الساعة السادسة ، فضاعت منا الصلاة في الحرم، نتيجة لهذه الدعوة ، وغالبا لا يهتم هؤلاء الناس بالصلاة في الحرم ، فقد شبع أهل مكة من زيارة الحرم ، وهذا أمر طبيعي .

كانت مأدبة فاخرة ، وهذا هو عذاب الروح بالنسبة للمريض ، وكان علي الطيب قد دعا بعض الأصدقاء الآخرين ، كانوا في معظمهم من أهل نجد ، ومسئولي السيارات الملكية ، وكانوا بالطبع على مستوى تعليمي عادي ، كما كانت ثقافتهم ثقافة قليلة ، ودار الحديث في مجمله عن " جلالة الملك " وعن

عظمته ، وعلو شأنه ، ولم تكن لدي فرصة للحديث ، ولهذا انشغلت بالاستماع إليهم ، والتعود على تعبيراتهم الخاصة .

جلست بعد صلاة العصر عند مولانا عبد الوهاب الدهلوي قليلا ، وكان قد وعدني مؤكدا على أن يأخذني لزيارة دار الأرقم ، وزيارة مكتبه ، فتبادلنا الحديث عن مطبوعات الجماعة ، وطريقة توزيعها وبيعها ، وحين علم أن بعض مطبوعاتنا العربية لم تصل إلى بعض الإدارات ، والهيئات المهمة في مكة ، وأنه ليس لدينا المزيد من النسخ ، تكرم بشراء خمس مجموعات من مكتبة عبد الله فدا ، وقام بهذا دون أن أطلب منه ذلك ، وإنما كان بدافع الرغبة الشديد في خدمة الدعوة الإسلامية ، ولهذا قبلت عرضه هذا شاكرا .

كان معظم الحجاج يفضلون البقاء في مكة على البقاء في جدة ، انتظارا للبواخر ، وقد التقيت هذه الأيام في مكة بعدد من الأصدقاء الهنود والباكستانيين، ممن فضلوا الانتظار في مكة ، بدلا من البقاء في جدة انتظارا للبواخر التي ستنقلهم إلى بلادهم ، والتقيت بعد العصر ، ولأول مرة بأحد علماء دلهي ، الذي كان قلقا مضطربا فوق الحد ، وتعجبت بعد أن شاهدت حالته تلك ، ومن الممكن أن تكون ظروفه العائلية هي التي سببت له هذا الاضطراب والقلق ! !

الاثنين ٧ صفر ٦٩ هجرية / ٢٨ نوفمبر ١٩٤٩م

تناولنا فطور الصباح عند إسحاق أحد أصدقاء مولانا عبد الوهاب

الدهلوي ، ووصلنا إليه في قيادة مولوي سعيد عبد الله ، وهناك وجدنا حشدا كبيرا من الدهلوين ، وبدلا من طعام الفطور ، ازدحمت المائدة بجميع أصناف الطعام الهندي ، وكان أمرا صعبا !

حاولت بقدر المستطاع أن أسلك على الأقل سلوك القناعة ، كان الحديث ممتعا ، وكان مولانا عبد الوهاب موجودا أيضا ، فقمنا بزيارة دار الأرقم بعد تناول طعام الفطور .

تقع دار الأرقم في حضن الصفا ، والطريق إليها من حارة متصلة بالمسعى ، والمبنى الحالي الآن متهدم ، وفي حالة سيئة ، كانت أم هارون الرشيد " الخيرزان " (متوفاة ١٨٣ هجرية) قد عمرته ، فصار من المسلم به لدى الجميع ، ومنذ ذلك الوقت أن هذه دار الأرقم .

يرى الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزه وبعض العلماء أن المبنى الحالي من بناء الخيرزان ، لكن مولانا عبد الوهاب يرى أن الحائط الحالي والباب من بناء العصر التركي ، وهذا الرأي قرين القياس ، وعلى كل حال فقد كان يكفينا أن يكون المبنى الحالي مقاما في مكان " دار الأرقم " .

ألقينا بنظرة ملؤها الشوق والذوق على الباب والحائط ، ومن الصدف الطيبة ، ومن حسن الاختيار أن تنتقل هنا " دار الحديث " ، فتحويل هذه المدرسة التاريخية ، مدرسة الإسلام الأولى ، إلى مركز لتعليم الحديث ، وتبليغ الدين أمر يستحق الثناء والإطراء ، فالمبنى الحالي صغير ، كما أنه آيل

للسقوط ، ولهذا فقد اقترحوا أن يقام على أرضه مبنى واسع ، ومن المؤسف أن الحارة التي تصل المسعى بدار الأرقم مملوءة بالقاذورات والنفايات .

انتظرنا هناك لفترة ، لم يكن الشيخ محمد عبد الرزاق قد وصل بعد ، ثم ذهبنا إلى بيت مولانا عبد الوهاب ، الذي يقع عند الصفا ، بالقرب من هذا المكان ، وقد سمعت عن شهرة مكتبته ، وهكذا واتتني الفرصة اليوم لمشاهدتها لأول مرة ، ما شاء الله ، جمع عددا كبيرا من الكتب ، ولم يقتصر على جمع الكتب ، بل قرأ الكثير من الكتب أيضا ، وقام بنفسه بترتيب فهارس المكتبة ، وقد ترك بعض الملاحظات الخطية على صفحات الكتب ، كانت لدي رغبة شديدة لمشاهدة فهارس المكتبة ، لكن الحديث بيننا لم يسمح لي بذلك .

حين رجعنا إلى مقر إقامتنا علمنا بوصول رسالة هاتفية من جدة ، كان مكتب عبد الرحمن مظهر قريبا ، وقد أخبره محمد مظهر أنه لم يتمكن من الحصول على تذاكر للدرجة الأولى ، وسأل : هل يحجز تذكرتين على " السطح " ، فأصابنا قلق شديد ، فالعبد لله ، مريض ضعيف ، لا يستطيع السفر على السطح ، وفي النهاية اتصلنا هاتفيا بمسعود القنصل الباكستاني في جدة ، وتمكنا من التحدث مع نائبه غلام حيدر الذي قال :

- مقعدك محفوظ ، ومظهر لم يأت عندي ، ولا يمكن للشركة أن تعطيه التذكرة على الفور ، بدون الإيصال الموجود عندنا .

وعلى الفور أبلغنا محمد مظهر بالأمر ، ثم كتبنا له خطابا بعد ذلك .

التقينا عصرا بمحمد المدني (الموظف في إدارة شئون الحج) وهو مجددي ، ومن سكان رام بور أصلا ، نشأ وتربى في مكة المكرمة ، يتكلم العربية والأردية بطلاقة ، وعلى معرفة بأحوال الهند وباكستان ، رجل فاهم ، وعاقل ، ومن العجيب أنه اطلع على خبر وجودنا في مكة من " الإنصاف " التي تصدر في إله آباد ، واستفسر من مولانا عبد الوهاب ، ودعانا للقاء به ، وأعطيناه عند الوداع مجموعة كاملة من مطبوعاتنا العربية ، هدية لإدارة الحج ، فعبر عن رغبته في تكرار اللقاء بنا ، وطلب منا أن نخبره بإمكانية ذلك ، إذا لم نسافر غدا .

الثلاثاء ٨ صفر ٦٩ هجرية / ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩م

مضت أيامنا في مكة بهدوء ومتعة ، ورغم ضيق التنفس الذي عانيت منه لفترة ، إلا أنني تمتعت بالصحة في مكة ، والحمد لله ، وكان الجلوس في الحرم تلك الأيام هو أعظم متعة ، أما متعة الطواف فيعجز القلم عن بيانها ، وكان حلول فصل الشتاء البارد سريعا مدعاة للاستعداد للوصول إلى كراتشي .

قد نضطر إلى الوصول إلى جدة الليلة ، لذا حاولت الالتقاء بعدد من الإخوة ، فالتقيت أولا بمدير تحرير " البلاد السعودية " وهي جريدة تصدر كل ثلاثة أيام ، ووجود مثل هذه الجريدة هنا غنيمة كبرى ، قدمت للمدير مجموعة من مطبوعاتنا العربية حتى يكتبوا عنها تعليقا أو مراجعة ، فمن الصعب إبداء رأي ما من خلال لقاء فوري سريع ، ومدير البلاد السعودية لا يقل عن الآخرين إخلاصا وطيبة وحسن خلق ، فقد كتب على الفور خبرا يتعلق بكاتب السطور ،

وأرسله لينشر في العدد الجديد ، فذكرت له أنني لست من الراغبين في نشر اسمي في الصحف ، وكل ما أتمناه هو أن يقرأ هذه الكتب ، ويكتب رأيه ، فوعدني وأكد لي أنه سينشر مراجعة لها .

لم أستطع الالتقاء بمدير تحرير (أم القرى) فقد كان قد ذهب إلى جدة ، واضطررت إلى إلقاء هذه المسئولية على عاتق عبد الأحد ، الذي يتكلم اللغة العربية " المكسرة " أي الركيكة ، ولهذا لا يمكن أن يكون له أدنى تأثير على الآخرين ، فهنا إما أن تؤثر دنيا الجاه والحشم ، وإما أن تؤثر اللغة المهذبة المطابقة للآداب المتعارف عليها هنا ، ولا يوجد غير هذا .

كان هؤلاء الناس مشغولين جدا أيام الحج ، وكان من المستحيل اللقاء بهم في هدوء وسكينة ، فهذا وقت اللقاء بعلماء وأدباء مكة المكرمة ، فإذا ما وفقنا الله إلى ذلك ، فستتحقق الفائدة بإذنه تعالى ، ولا بد أن يأتي إلى هنا في موسم حج العام القادم أحد رفاقنا ممن يجيدون اللغة العربية .

كان مكتب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متصلا تماما بباب الصفا ، وهناك توجد مكتبة صغيرة ، فقدمنا للمسئولين فيها مجموعة من مطبوعاتنا العربية أيضا ، لكني لم أتمكن من لقاء رئيس الهيئة ، لم يكن موجودا حين وصلت ، وكان العاملون بالمكتب ممن تعرفت عليهم في الرياض ، ولهذا لم تكن هناك مشكلة في التعارف ، فأهل نجد وعلماؤها قد عرفوا العبد الفقير ، والحمد لله ، وكان للقائي بالشيخ محمد بن إبراهيم أكبر علمائهم في الرياض أثر كبير في ذلك .

ذهبت إلى مولانا عبد الوهاب ، لم أكمل زيارتي السريعة لمكتبته ، فبقيت اليوم أيضا أطالع الفهارس لفترة ، ثم التقيت بعدها بالشيخ عبد الرزاق حمزة ، في دار الأرقم ، وحضرت درسه ، كان يشرح لطلابه " مناقب صحيح البخاري " فقد وردت أحاديث في مناقب العباس رضي الله عنه ، وجعفر رضي الله عنه ، وفاطمة رضي الله عنها ، وكانت طريقة شرحه مناسبة ومعقولة ، فهو يلقي نظرة على الرجال ، ويشير أيضا إلى أسماء الرواة ، وكنية كل منهم ، ولغة الشرح صافية سهلة وسلسلة ، ومفهومة للجميع ، إلا أن حالة الطلبة لا تبدو مشجعة ، فهناك بعض البنجابيين لا يستطيعون قراءة حتى العبارات المشكولة قراءة صحيحة ، وقد وجدت طالبا تكرونيا - أو سودانيا - على قدر كبير من الذكاء والفهم ، وكان على جميع الطلاب قراءة الحديث كل في دوره .

بعد انتهاء الدرس اتجه إليّ الشيخ ، وكان قد ترجم البحث الخاص بذي القرنين في تفسير ترجمان القرآن لمولانا أبي الكلام آزاد ، لكن ترجمته تحتاج في الواقع إلى ترجمة أخرى ، وكان مولوي أبو سعيد عبد الله (المدرس بدار الحديث) قد ترجمها من الأردية إلى العربية ترجمة حرفية ، ثم قام الشيخ محمد ابن عبد الرزاق بصياغتها صياغة عربية ، فرغب كل من مولانا عبد الوهاب والشيخ عبد الرزاق في أن أراجع الترجمة بعد مقابلتها بالأصل ، حتى يطمئن على صحة الترجمة ، ذلك لأن أحد علماء حلب ويدعى راغب طباخ [٤] بنشر كتاب عن هذا الموضوع ، وكان هؤلاء السادة يريدون أن تصل أبحاث عالم هندي إلى قراء العربية .

قبلت هذه الخدمة رغم مشاغلي ورغم مرضي ، فسمحوا لي مسرورين أن أقوم بهذا العمل بعد عودتي ، واقترح مولانا عبد الوهاب أن أقوم بالترجمة من جديد ، لكن العبد الفقير اعتذر له ، فلدينا مطبوعات كثيرة تحتاج إلى ترجمة ، وحقها عليّ مقدم .

انتهت هذه " المهمة " عند الظهر ، وعند عودتي وجدت خطابا من محمد مظهر يخبرني فيه بأن الباخرة ستصل في غرة الشهر ، وستتحرك في اليوم الثاني ، ويمكن الحصول على تذاكر الدرجة الأولى قبل المغادرة بيوم واحد ، وبدا كأن الأمر لم يحسم بعد ، وقررنا بعد تفكير أن نحسم الأمر بأنفسنا ، وأن نذهب إلى جدة ، لنقرر كل شيء ، فاليوم هو التاسع والعشرون من نوفمبر ، والإقامة هناك ليومين ليست بالشيء الكثير .

رتب عاصم أمتعتنا بعد صلاة العصر ، وحضر إلينا الأخ عبد الرشيد الندوي ، والأخ عبد الأحد ، ووصلنا المحطة قبل الوقت ، تاركين مسئولية الأمتعة وحجز المقاعد على عاتق عبد الرشيد ، وذهبنا إلى الحرم لآخر مرة ، طفنا وصلينا العصر قبل الجماعة ، ورجعنا . . يعلم الله هل سنرجع مرة أخرى إلى الحرم أم لا ؟!

كانت هذه آخر صلاة في المسجد الحرام ، ندعو الله ألا تكون الأخيرة ، فهو الرحيم الكريم الذي حمل هذا العبد الفقير ، بلا زاد ، ولا راحلة ، إلى بيته العتيق ، قادر على أن يأتي به مرة أخرى . . يجب أن يكون في القلب عزم وهمة ، وشوق ورغبة أيضا ، والحمد لله ففي هذا الجسم الضعيف الهزيل قلب

قوي متين ، فيه عزم وفيه همة ، فلا عجب إذا نلت هذا الشرف سنة من بعد أخرى .

التقيت بعبد العزيز نجل الشيخ محمد بن إبراهيم (الرياض) أثناء خروجي من الحرم ، وكنت قد أرسلت رسالة إلى والده المحترم من المدينة المنورة ، فجاء ذكرها ، ووعدني بإرسال كتاب " مجموعة ابن قاسم " الذي جمعت فيه رسائل (بحوث) علماء نجد المتأخرين وعلماء آل الشيخ وفتاويهم ،كنت في حاجة إلى هذا الكتاب من أجل بحثي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقد طبع كتاب مجموعة ابن قاسم على نفقة الحكومة ولهذا فلا يمكن الحصول عليه من الأسواق .

تحركت الحافلة في الساعة العاشرة (الرابعة مساء) ووصلت بعيد المغرب ، توقفت عند بحرة ، ولهذا تأخرنا في الوصول ، اتجهنا إلى بيت الشيخ محمد نصيف ، الذي كان يجلس في مكتبه ، فجلسنا معه .

لم نكد نجلس حتى حضر الدكتور عبد الوهاب بك عزام (سفير مصر في المملكة العربية السعودية) مع بعض رفاقه المصريين ، وسررنا كثيرا بهذا اللقاء غير المتوقع ، وسأل عن برنامج السفر ، فقلت :

- غدا سأذهب إلى القنصل الباكستاني ، ويمكن أن أخبركم بعد أن أستفسر منه .

فقال :

- حسنا السفارة المصرية على بعد قدمين من هناك ، ويمكن أن تشرفنا أيضا ، كما يمكن أن تأتي معك بالسيد / مسعود أيضا (القنصل) ، لكن لا تقل له شيئا ، فقط أخبره أنك ذاهب إلى عزام .

فقلت :

- إن شاء الله إني مشتاق كثيرا وسوف آتي بمسعود معي ، فهو يثني عليك كثيرا .

غلب التعب عليّ بعد برنامج يوم طويل ، فتناولت شيئا قليلا من الطعام واستأذنت مضيفي وغرقت في نوم عميق .

الأربعاء ٩ صفر ٦٩هجرية / ٣٠ نوفمبر ١٩٤٩م

في الصباح الباكر التقينا بوكيل معلمنا أحمد حكيم ، وهو رجل عجوز طيب ، يثني عليه الجميع ، لم يقصر المسكين في أي شيء ، لكن الحصول على تذكرة الباخرة ، كان أمرا يفوق طاقاته وإمكانياته ، وهناك لكل معلم عدد من الوكلاء ، يتولون القيام بجميع المهام ، ويقوم الوكيل الواحد بتمثيل عدد من المعلمين .

وصلت إلى مكتب القنصل الباكستاني ، أخذ أحد العاملين في القنصلية بطاقتي إليه ، بعد نقاش ، وبصعوبة كبيرة ، فالموظفون والعاملون بالقنصليات والسفارات على حال واحد في كل مكان ، وعلى الفور طلبني القنصل ، وجلسنا معا لساعتين ، وجاء ذكر عزام ، فأخبرته بحديث ليلة أمس ، فقال :

- هيا نذهب ، فبيننا محبة وألفة .

وعند ذهابنا سألت غلام حيدر (نائب القنصل) عن أمر التذكرة ، فأخبرني أنه حجز تذكرة ، وسيصدر القنصل إذن بالتذكرة التي سنتسلمها من الشركة ، فقلت :

- حسنا سوف نحضر بعد المغرب .

كانت السفارة المصرية على بُعد قدمين ، فذهبت في معية مسعود القنصل إلى مكتب الدكتور عبد الوهاب عزام ، وبقينا نتحدث معا لفترة طويلة ، كان مسعود لا يعرف اللغة العربية ، ولهذا دار الحديث في معظمه بالإنجليزية ، ولا شك أنني كنت أتحدث أحيانا بالعربية مع الدكتور عزام ، وكان موضوع الحديث أيضا سياسيا ، تشوبه الدعابة أحيانا ، وكان الموضوع العلمي الوحيد الذي تناولناه هو كتاب العبد الفقير الذي أكمله الآن " تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند " فقد وعد عزام بكتابة مقدمة للكتاب ، وترتيب أمور طباعته في مصر والإشراف على ذلك ، واتفقنا على أن أطلعه - في عجالة - على المسودة التي لم تكتمل بعد ، والتي أحملها معي ، حتى يمكنه أن يقدر بطريقة صحيحة نوعية الكتاب ومدى فائدته للقراء .

أصر عزام - كثيرا - على أن أبقى لعدة أيام ، وأيده في ذلك مسعود القنصل الباكستاني تأييدا شديدا ، وظل يردد ذلك كثيرا بل قال :

- لماذا تطلب منه ذلك ، إن حجز تذكرته في أيدينا نحن ، فإن شئت حجزناه هنا .

وبعد توسلات كثيرة تراجعا عن عزمهما ، وفي وقت الذهاب قدم لي عزام دعوة لتناول الطعام معه في الغد ، وكنت قد وعدته بالعودة إليه لإطلاعه على مسودة كتابي سابق الذكر ، بعد المغرب ، حين أ مر على القنصلية الباكستانية من أجل التذكرة .

رافقنا مسعود على سبيل الكرم حتى بيت الشيخ محمد نصيف ، وحين نزلنا من السيارة ، جاءته فكرة السلام على الشيخ نصيف ، وأكد كاتب السطور على ذلك ، فقدمت القنصل إلى الشيخ نصيف ، وتوليت أمر الترجمة بينهما ، وقد أسف مسعود القنصل الباكستاني على جهله بالعربية ، واعتذر كثيرا عن ذلك ، كما ذكر أنه سيبدأ تعلم اللغة العربية ، وإن شاء الله سيتمكن من التحدث بالعربية جيدا .

التقيت بعد العصر بمولانا حريري ، الذي تعتريه هذه الأيام حالة عشق للشعر الفارسي ، فظل يُسمعني لفترة طويلة أشعار " نظامي " و " فيضي " (٥) وأُسمي هذه " حالة " لأن الرجل العالم الذكي غرق في الأعمال التجارية ولم يكتب له النجاح ، فأي أسف أعظم من هذا ، كما أن وظيفته الحالية لا تليق بشخصه فهو " مسئول الحج " لكن العمل كله يتولاه عبد المجيد خان (القنصل الهندي) ومولانا نفسه يعترف بذلك .

بعد المغرب تسلمنا إيصال التذكرة من القنصلية الباكستانية ، وتمتعت بصحبة الدكتور عزام ، الذي ألقى نظرة سريعة على مسودة كتابي ، وفضل أن يراجع الكتاب ، وحين علم أن مسودة كتابي الأول " حاضر مسلمي الهند

وغابرهم " قد " نام عليها " محب الدين الخطيب (رئيس تحرير الفتح) عبر عن أسفه لذلك ، ووعد بمساعدتي قدر الإمكان في هذا الشأن ، أدعو الله أن يوفقنا إلى استعادة حقنا المغصوب ، الذي غصبه منا رئيس تحرير الفتح ، فعزام له مكانته وتأثيره .

لم يطاوعني النوم في الليل نتيجة لكثرة تناول الشاي ، فأخذت أتقلب في الفراش طوال الليل ، بالإضافة إلى أن الطعام كان على خلاف العادة ، فكان أحيانا طعاما بسيطا ، وأحيانا طعاما دسما للغاية ، ولم أستطع أن أبقي على التوازن المطلوب في هذا السفر ، على كل حال لم يبق على انتهاء السفر سوى عدة أيام ، ندعو الله أن يقدرنا على قضائها بخير وسلام .

الخميس ١٠ صفر ٦٩ هجرية / أول ديسمبر ١٩٤٩م

انشغل عاصم في ترتيب أمتعة السفر من جديد ، واستغرق ذلك وقتا طويلا ، من الصباح حتى الظهر ، فقد زادت أمتعتنا عما كانت عليه من قبل ، بسبب شراء الكتب ، وماء زمزم ، والتمور ، وقد استفدت لفترة من صحبة الشيخ محمد نصيف ، ومن أحاديثه العلمية ، ثم ذهبت بعد ذلك إلى مولانا عبد الحميد حريري ، الذي كان يشتاق كثيرا إلى لقاء الدكتور عبد الوهاب عزام ، وكان يرغب في أن يتم اللقاء الأول في حضوري ، بينما كان عزام ذاهبا إلى مكة مساء اليوم ، وكنت على موعد للذهاب إليه لتناول الطعام عنده ، وموعد سفري في الغالب هو الغد . . . وهكذا كنت مرتبكا ، ماذا أفعل ؟! وفي النهاية رأيت أن أرافقه الآن ، فكل ما لدي عشر ساعات .

أكرمنا عبد المجيد خان بالسيارة ، وداهمنا السفارة المصرية دون سابق إنذار ، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطبقة من الناس أي الوزراء والسفراء ، لا يقابلون الناس دون سابق إنذار ، لكن الدكتور عزام الرجل الطيب ، حين بلغه خبر وصولنا ، طلبنا على الفور إلى مكتبه ، فقدمت مولانا حريري إليه ، أما ماذا حدث بعد ذلك ، فكان الصحبة الطيبة . . وظل عزام يردد قوله :

- مسعود . . لقد جئتني بأعظم هدية .

فقد تعجب كثيرا ، كيف لهذا الرجل الذي يسكن الهند أن يتحدث هذه اللغة العربية الفصيحة الجميلة .

كان اللقاء طيبا وممتعا ، رغم أن الحديث كان مختصرا ، لكن شيئا واحدا جعل الحزن يطرأ علينا في هذا اللقاء ، فقد ورد ذكر العلامة موسى جار الله [٦] فقال عزام :

- ليغفر الله له ، فقد انتقل إلى الدار الآخرة منذ شهرين .

وكان مولانا حريري من خاصة تلامذته ، ومن أصدقائه المقربين أيضا ، فترك هذا الخبر عليه أثرا واضحا في الحال ، رغم أنه حاول أن يتمالك نفسه ، وقد تحدثنا قليلا عن الإنجازات العلمية للعلامة موسى جار الله ومؤلفاته ، فقد كان الدكتور عزام ينوى كتابة مقال عن سيرته .

حين طلبنا الإذن بالانصراف ، دعا الدكتور عزام مولانا حريري لتناول الطعام معنا أيضا ، وقد طلبت من مولانا حريري ، وبإصرار شديد ، ضرورة

الحضور ، لكن قلبه كان لا يزال مكلوما من أثر الصدمة ، فطلب مني أن أبلغ الدكتور عبد الوهاب عزام اعتذاره .

كان جو المائدة ممتعا ، وكان الطعام مطابقا للذوق العام ، وقد دُعي رفاق القنصل : غلام حيدر نائب القنصل ، والدكتور غلام مصطفى ، كما حضر موظفو مكتب الدكتور عزام ، ومساعدوه أيضا ، كان الحديث متنوعا وممتعا ، لكنه لم يكن يتناسب مع ذوقنا وطبيعتنا ، وظلت الإنجليزية هي لغة الجلسة ، وشاركت في الحديث ، فقد تدربت كثيرا على التحدث بالإنجليزية في هذا السفر ، ولكني لم أتمتع بالتحدث بالعربية .

حل المساء ، ورجعت إلى البيت ، ولم أخرج منه نظرا لهطول المطر ، بينما ذهب عاصم ليطمئن على مولانا حريري ، كما حضر الأخ محمد مظهر الندوي ، حاملا التذاكر التي أحضرها من الشركة ، يقول أن التذاكر الأصلية ستوزع في آخر لحظة ، فإذا جاء المسافر الأصلي تصبح هذه الورقة لاغية ! ! يرحمنا الله ، فلابد أن نسافر على هذه الباخرة بأي شكل كان . .

كم من الحجاج يرقدون في الشوارع ، وقد جعلتهم الأمطار في وضع لا يحسدون عليه ، وفضل الله علينا عظيم ، فنحن نجلس في اطمئنان وهدوء ، لا نقاسي ألما ، ولا نعاني قلقا ، إن القلق علامة بل هو اسم للضعف البشري .

بقي أمر ضروري ! فبينما كنت أكتب يومياتي هذه ، رآها عالم من أهل البلاد ، فسألني :

- ماذا تكتب ؟

فأجبته :

- مذكرات ، بل يوميات .

فقال :

- إن الأدباء يأتون من الخارج ثم يكتبون في رحلاتهم ما يسمعونه من كلام من بعض أهل الحجاز ، وقد يضر هذا البعض ، فنحن هنا نختلف عنكم .

هكذا ظن الرجل ، فقلت له :

- إنني أشعر بهذا ، وقد لفت نظري سابقا بعض العلماء ، في البصرة وفي المدينة المنورة .

الجمعة ١١ صفر ٦٩ هجرية ٢ ديسمبر ١٩٤٩ م

تقرر أن تتحرك الباخرة (جل دركا) (٧) في الثاني من ديسمبر ، لكن ركابها الثلاثمائة لم يتمكنوا من الوصول ، ولهذا تقرر أن يتأخر إبحار السفينة ليوم واحد ، على أن تصرف التذاكر الجديدة وقت السفر ، ورغم أننا كنا في غاية الاطمئنان بسبب كرم واهتمام القنصل الباكستاني ، لكننا كنا نشعر بالقلق طالما كان الأمر لا يزال معلقا ، إذ لا يمكن الجزم بما سيحدث .

في الصباح توجه عاصم إلى مكتب غلام حيدر نائب القنصل ، فقال له :

- اطمئنوا ولا تقلقوا ، فإن معكم بطاقة السفر ، وإلغاء مثل هذه البطاقات يتم عن طريق مكتبنا ، فاطمئنوا تماما .

صلينا الجمعة هنا في المسجد الكبير ، كان الخطيب رجلا ممتازا ، لم أر مثله من حيث اللغة واللهجة ، وقوة الخطابة ، ولم أشاهد منذ سفري من البصرة حتى وصولي المدينة من يتمتع بقوة الخطابة هذه ، ففي خطبة الشيخ أبي السمح حرقة وألم ، لكن ليس فيها قوة ، أما من ناحية المضمون والمعلومات ، فالخطبة عادية .

توجهنا بعد العصر إلى بيت محمد مظهر الندوي ، وجلسنا عنده قليلا ، فقد كان على موعد مع مولانا حريري ، لكن مولانا نسي ، وظل ينتظره ، ثم ذهب إلى السوق واشترى بعض الضروريات ، وفي معية محمد مظهر ذهبنا إلى بيت أحمد حكيم ، حيث تم الاتفاق على البرنامج الخاص بالباخرة ، والقوارب التي ستقل الركاب إليها وغير ذلك مما يتعلق بأمور السفر ، ورجعت قبيل المغرب .

بعد المغرب حضر إلينا مولانا حريري ، كما وصل فجأة القنصل الباكستاني، وبدأ يلومني :

- أين كنت طوال اليوم ؟

فقلت :

- رأيت من المناسب ألا أتدخل في معاملاتك كل وقت .

ثم ذهبت مع مولانا حريري إلى القنصلية الباكستانية حيث بقينا نتحدث حديثا جذابا لساعة ونصف تقريبا ، وقد حضر إلينا الدكتور غلام مصطفى ، وطلع علينا أيضا غلام حيدر وبقي معنا لدقائق ، فجميع هؤلاء السادة المحترمين يسكنون هذا المبنى ، بينما الطابق الأول خاص بمكاتبهم .

ظل مولانا حريري يدندن بالأشعار الفارسية ، ودار حديث سريع ومجمل أيضا عن الشيوعية ، ورافقني مولانا حريري في العودة حتى بيت الشيخ نصيف ، ثم ودعني على وعد بالكتابة إليّ وتبادل الخطابات ، ولكني أعرف أنه كسول جدا في الرد على الخطابات ، والسبب الرئيسي هو انشغاله التام بالعلم وشغفه الشديد بالقراءة .

العودة إلى كراتشـــي

السبت ١٢ صفر ٦٩ هجرية / ٣ ديسمبر ١٩٤٩م

استيقظ عاصم قبل صلاة الفجر ، لم يداعب النوم جفوني ، لكني آثرت البقاء في الفراش حتى طلوع الفجر الصادق ، أعاد عاصم من جديد ترتيب أمتعة السفر ، وانطلق ليحصل على التذاكر قبل طلوع الشمس ، فقد حددت الشركة الموعد في الصباح ، لكن موظفي الشركة جاءوا متأخرين ساعتين عن الموعد ، فكانت النتيجة أنه لم يتمكن من الحصول على التذاكر قبل الساعة العاشرة ، وظل كاتب السطور جالسا مع الشيخ محمد نصيف طوال هذه الفترة ، يستمع منه إلى أحول البلاد ، وإلى تاريخ الحجاز القديم ، فلا يمكن أن يوجد عالم أكبر وأعظم منه في معرفة أحوال ووقائع الحجاز ، فهو رغم تجاوزه السبعين من عمره لا يزال يداوم على القراءة والمطالعة ، ولا تراه في أي وقت من الأوقات فارغا أو عاطلا ، وقد وجدته كما ظننته عالما متواضعا ورجلا كريما ، وقد سمعت عن أناس كثيرين علماء وزعماء ، لكني لم أجدهم بعد لقائي بهم كما ظننتهم ، ويستثنى من هؤلاء في جدة الشيخ محمد نصيف والدكتور عبد الوهاب عزام ، فقد زاد تقديري لهما ، وزادت محبتي لهما ، بعد لقائي بهما ، فقد رأيت فيهما أكثر مما سمعت عنهما ، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء .

يتساقط الرذاذ منذ الصباح ، فقد ظلت الأمطار تهطل في الليل ، واشتدت سرعة الرياح ، لقد شاهدت منظر نقل الركاب من القوارب إلى السفن في كل من البحرين والكويت ، فأخذت أفكر في المرحلة التالية ، لكن حين يحل فضل الله وكرمه تسهل جميع المشكلات .

انقشعت الغيوم وصفت السماء عند الساعة الحادية عشرة ، وسكنت الريح، ولم يكن هناك ما يؤذيني سوى الطين المتراكم في الشوارع ، ووصلنا إلى الساحل بسهولة ويسر ، فركبنا القارب البخاري " اللنش " ووصلنا إلى السفينة، وصعدنا على ظهرها بهدوء واطمئنان ، لم يصبنا التعب ولو بمقدار ذرة ، ولا شك أنني دفعت " هبة " للحمالين وعمال السفينة ، ومن الملاحظ أن أعدادا كبيرة من الحجاج ينفقون الكثير على شراء الهدايا ، ثم يعمدون - في أغلب الأحيان - إلى البخل مع الحمالين وأصحاب العربات التي تنقلهم ، ولهذا تضيع أمتعتهم ، ويصيبهم الأذى والضرر أيضا .

ومن الصدف العجيبة أن المطر بدأ يهطل من جديد بعد وصولنا ، واشتدت الريح حتى صار من الصعب على المراكب الاقتراب من السفينة ، وتمكن المسافرون من ركوب السفينة بصعوبة بالغة ، ومشقة لا حد لها ، وابتلت ملابس الكثيرين ، وتبعثرت أمتعتهم .

أقلقنا شيء واحد فقط ، هو أن الشركة لم تدرج رقم " الكابينة " على التذكرة ، فقال لنا مسئولو السفينة إن قائمة الشركة ستصل بعد قليل ، وعندئذ سنسلمكم " الكابينة " الخاصة بكم ، ولهذا انتظرنا في مكان الدرجة الأولى

لمدة ساعتين ، ورأى عاصم أن نستولي على إحدى الكبائن ، ثم نرى ما سيحدث بعد ذلك ، تردد العبد الفقير ، فقال عاصم : هذا يحتاج إلى همة وشجاعة ، والحقيقة هذا هو الفرق بين أهل البنجاب ، وأهل منطقة بهار ، وفي النهاية غلب رأي عاصم ، فوضعنا أمتعتنا في إحدى الكبائن ، وجلسنا في طمأنينة ، ثم وجد عاصم مكانا مناسبا له على " السطح " .

حضر غلام حيدر (نائب القنصل) بعد ثلاث ساعات أو أربع ، وجعل من العبد الفقير " أميرا للحج " دون سابق إنذار أو مشورة !! وكان القنصل قد ذكر هذا الأمر عرضا أثناء حديثي معه في الليل .

قال غلام حيدر :

- لقد عُينتم أميرا للحج .

فقلت :

- لا تقل شيئا الآن ، يمكن أن تقول هذا على ظهر السفينة .

ولم أعط للأمر أهمية على الإطلاق آنذاك ، فقد ظننت أنه يمزح ، ولكني عرفت الآن أنه ذكر ذلك عرضا حتى لا أستطيع أن أعتذر بعد ذلك .

يتولى " أمير الحج " الوساطة بين قبطان السفينة والحجاج ، فكل شخص يرفع إليه شكواه ، فيحاول هو بالتالي أن يلتقي بالمسئولين لإزالة أسباب الشكوى ، كما يقوم أيضا مسئولو السفينة برفع شكواهم إليه ، فيحاول من

جانبه شرح الأمر للحجاج ، وكثيرا ما يُقابل ذلك بغضبهم عليه ، وعلى كل حال ، إذا كنت قد حُمّلت هذا العبء ، فيجب علي أن أحمله بطريقة جيدة .

كان معي في " الكابينة " أحد أهالي بهاولبور ، يدعى الدكتور عبدالرشيد ، فوعد بأن يقدم لي يد العون والمساعدة كلما أمكن ذلك .

سوف أبدا هذا العمل بانتظام ابتداء من الغد ، وقد قمت اليوم في معية الدكتور بتفقد الدرجة الثالثة لمدة ساعة ، وتعرفت في عجالة على عامة الحجاج ، بينما كان الدكتور ينادي بصوت عال باللغة البنجابية ويقول :

- هذا أمير الحج ، يمكن لمن لديه حاجة أن يخبره بها .

مكثت في الليل أتحدث مع الدكتور عبد الرشيد رفيقي في الكابينة ، كان الحديث في حدود المعقول ، فالرجل طيب وصالح ، لكن ليس له نصيب من الدين !! حاولت أن أحثه على القراءة والمطالعة ، وللأسف لم يكن لدي كتاب واحد بالأردية ، فقد وزعت كل ما كان معنا من كتب بالأردية في مكة المكرمة ، ورغم أنني أجد الفرصة متوفرة هنا ، للاتصال بهذا العدد الكبير في السفينة ، لكن ليس لدي مطبوعات بالأردية أو البنجابية ، لم يكن على ظهر السفينة كلها رجل واحد من أعضاء الجماعة الإسلامية أو حتى المتعاطفين معها ، لقد تعرفت على رجل واحد ، أنست إليه وألفته ، وهو محمد أمين من روالبندي ، لكنه أيضا لم يكن معه أي كتاب ، واعتبارا من الغد سيكون تحت تصرفي لمدة ساعتين أيضا مكبر الصوت ، ولكن من يستفيد من هذه الفرصة ؟! أنا لا أستطيع أن أخطب نظرا لما أعاني من ضيق في التنفس ، ينتابني بين حين وآخر ،

بالإضافة إلى لكنتي في اللغة ، أما عاصم فهو لا ينطق أبداً ! لو وجد أحد الرفاق مثل تشودهري أحمد خان أو حافظ محمد فتح الله ، لاختلف الوضع تماما .

غرقت في مثل هذه الأفكار لفترة طويلة ، بينما تحركت السفينة في الساعة الرابعة والنصف مساء ، كانت الريح تعصف بشدة ، فظل كثير من الناس يشكون من الدوار والغثيان والقيء ، وكان عاصم أيضا مضطربا قلقا ، لكن العبد لله الضعيف النحيف ظل غارقا في هذه الأفكار ، وهو قوي متماسك ، حتى غلبه النوم في الساعة التاسعة . . . ونمت في هدوء حتى الصباح .

الأحد ١٣ صفر ٦٩ هجرية / ٤ ديسمبر ١٩٤٩م

استيقظت فجرا ، لم أكن أعاني من أي نوع من التعب ، بينما كان الناس يشكون من الغثيان والقيء ، كان رفيق " كابينتي " قلقا ، وهكذا كان عاصم أيضا الذي بدا في حالة يُرثى لها ، وبحمد من الله لم أتأثر بشيء البتة .

وهكذا ركبنا السفينة (جل دركاه) كان معظم المسافرين في درجة " السطح " ، فكبائن الدرجة الأولى والثانية قليلة جدا ، ودرجة السطح ثلاثة طوابق ، الطابق الأسفل عند مستوى سطح البحر ، فكانت أنفاسي تحتبس هناك ، وفي أعلى السفينة يوجد دهليز الدرجة الأولى ، لكن لا يوجد من يجلس هناك ، أما دهليز الدرجة الثانية فقد جعلناه مسجدا ، لكنه لم يكن يتسع للمصلين ، ولا يوجد مكان في السفينة أوسع منه ، أما الطابق العلوي فكان من نصيب القبطان وموظفي السفينة ومسئوليها .

بعد تناول طعام الفطور ، أخذت أفكر في كيفية أداء عملي بشكل جيد ، فالتقيت أولا بالقاضي محمد سرور (المفتش بمحكمة سركودها) الذي كان أميرا للحج على نفس الباخرة ، أثناء قدومها من كراتشي إلى جدة ، ورأيت من المناسب أن أستفيد من تجاربه ، هذا بالإضافة إلى ضرورة " جبر خاطره " ، وكان لمبادرتي هذه أثرها الطيب ، فوعد الرجل بتقديم المساعدة اللازمة كلما لزم الأمر ، ظل يقول :

- اعتبرني مساعدا لك ، لك أن تأمر ، وعليّ الطاعة .

وعلى الفور أوكلت إليه مسئولية بعض الإعلانات الضرورية عن طريق مكبر الصوت ، كان معظم الحجاج من إقليم البنجاب ، وكانوا أيضا من الأميين الذين يسكنون المناطق الريفية ، ولهذا رأيت من الضروري أن تكون الإعلانات باللغتين الأردية والبنجابية معا .

التقيت بعد ذلك بالموظف المسئول عن ضبط الحسابات ، وبالقبطان ، كان الأول مسلما من باكستان الشرقية (٨) وهو رجل طيب على خلق ، تحدثت معه عن توفير ماء الشرب ، والضروريات الأخرى للمسافرين ، حتى يمكن أن يُعلن لهم عن ذلك والقبطان إنجليزي ، لكنه دمث الخلق ، وظريف ، قلت له :

- سوف نتفقد اليوم ركاب السطح ، فهل ترافقني .

فقال ضاحكا :

- هل هذا عملي ، سوف أذهب معك ، وأنقل لك شكواي من الحجاج .

فقلت :

- وإذا اشتكى الحجاج من عمال السفينة ، فمتى نخبرك ؟

فقال :

- في أي وقت .

أعلنّا عن البرنامج من خلال مكبر الصوت ، الذي ظل تحت تصرفنا مدة ساعتين ، ولكن لم يكن لدينا برنامج سوى الإعلان عما يتعلق بالمستلزمات اليومية ، لو وجدت رجلا معقولا ، فسأطلب منه أن يخطب لمدة نصف ساعة ، ويمكن أن تكون الخطبة بالبنجابية أيضا ، كان نصف المسافرين على الباخرة من الأميين أو أنصاف الأميين ، والمقصود بأنصاف الأميين من يستطيعون " فك " الخط بصعوبة . . هذه إرادة الله ! فالصلاة كانت قاصرة على الفقراء وكذا الصوم أيضا ! ! والآن صار الحج قاصرا على الفقراء والجهلة والطبقات المتخلفة ! ! أما الأغنياء والمثقفون من الناس فصاروا إما غافلين عن هذا الفرض ، وإما أنهم انشغلوا ببناء بيوتهم الفخمة ، فلم يسمح لهم ذلك بتوفير الأموال اللازمة للحج ، وهكذا فتمثيل الهند وباكستان في الحج ، يتم بصورة خاطئة وسيئة ، لا يمكن التعبير عنها مهما تكلمنا ومهما كتبنا .

تفقدت ركاب السطح مع القبطان ومساعده وبقية طاقم السفينة ، واستغرق ذلك ساعة تقريبا من العاشرة حتى الحادية عشرة ، وتعرفنا على مشاكل الركاب والصعوبات التي تواجههم ، ثم ظل الناس يترددون عليّ طوال اليوم ، يشكو

البعض من ضياع شيء ما ، ويشكو البعض الآخر من قلة الماء ، ويشكو عدد كبير منهم من نوعية الطعام ، ومن الجدير بالذكر أننا أيضا في الدرجة الأولى نشكو من الطعام أيضا ، لكن من المعروف أن الحجاج عادة لا يصبرون ولا يتحملون ، فالطعام رغم ذلك لم يكن بالسوء الذي يصفونه ، فأساس " السوء " يرجع إلى سلوك طاقم عمال المطعم ، وقلة أدبهم ، وانحرافهم عن الصواب ، فقد اعتادوا على النظر باحتقار إلى مسافري الدرجة الثالثة ، وإلى فقراء القوم ، وهذه تجربة ذاتية مر بها كاتب هذه السطور ، فإذا لم تعاملهم بقسوة ، فإنهم يعودون إلى طبيعتهم السيئة ، في التعامل بطريقة تفتقد إلى الأدب ، حتى مع ركاب الدرجة الأولى ، وأحيانا لا يتراجعون عما جبلوا عليه ، وقد طلبت الشاي في الليل ، فقال العامل :

- لا يمكن أن أحضر لك الشاي في ذلك الوقت .

فقلت :

- لا بد أن أشرب الشاي ، وإذا لم يكن في البرنامج ، فسوف أدفع قيمة الشاي .

عندئذ ابتل عرقا وأحضر الشاي في ظرف دقائق معدودة .

حدث اضطراب ، وعمت الفوضى في الليل ، أحضر الحجاج الغاضبون الطعام ، واقتحموا " كابينتنا " وهم يصيحون :

- هل نأكل طعام البهائم هذا ؟! نرجوك أن تصلح شأن هذا الطعام ، وإلا أضربنا عن الطعام .

هدأت من غضبهم وثورتهم بصعوبة شديدة ، واستدعيت مدير المطعم ، وأفهمته الوضع ، ولفت نظره إلى جميع المساوئ التي أدت إلى ما حدث ، فلو أن موظفيه استعملوا الإنسانية ، وحلاوة اللسان ، لما حدث كل هذا ، وقد ساعدني القاضي محمد سرور ، والدكتور عبد الرشيد في القضاء على هذه النزاعات بل في القضاء على العراك الذي نشب إن صح التعبير .

في الليل أُصبت بتعب شديد بسبب الطعام " الوطني " أو " البلدي " فلست معتادا أصلا على تناول الفلفل الأحمر الحريف (الشطة) وكان رد الفعل ألما شديدا ، فنصحني الدكتور عبد الحي المشرف على المستشفى بتناول الطعام الإنجليزي ، فلحم البقر وغيره من الذبائح يخضع لإشراف دقيق ، ونحن (أي العاملون على ظهر السفينة من المسلمين) نتناول هذا الطعام .

وهكذا غيرنا نظام طعامنا منذ الصباح ، وانضم إلينا أيضا الدكتور عبدالرشيد .

الاثنين ١٤ صفر ٦٩هجرية / ٥ ديسمبر ١٩٤٩م

كنت قد بدأت كتابة هذه اليوميات في ٢٩ إبريل على ظهر الباخرة بين كراتشي والبصرة ، وفي تلك الفترة توقفت أيضا عن الكتابة ، ولكني كنت أتدارك الأمر ، وأكمل ما فاتني ، وانقطعت سلسلة كتابة اليوميات في مكة المكرمة بسبب المرض ، وحاولت استكمال ما فاتني أثناء الإقامة في المدينة المنورة ، ثم كنت أنقطع أحيانا عن الكتابة ، وأحاول استكمال ما فاتني كلما وجدت فرصة لذلك ، حتى وجدت نفسي اليوم أكتب هذه السطور على ظهر

السفينة ، والسفر في آخر مراحله ، وهذه اليوميات تصل أيضا إلى نهايتها ، ومن الصدف الطيبة أن الكراسة التي اخترتها لهذا العمل ، قد وصلت أيضا إلى آخر صفحاتها ، وهذا ما يُطلق عليه " حسن الختام " .

الريح تعصف ، وأمواج البحر ترتفع وتنخفض ، بينما الناس يعانون من الدوار والصداع ، والحمد لله حفظ الله لي صحتي ونشاطي ، كنت قد عانيت من ضيق التنفس في جدة ، لكني أشعر الآن بالتحسن ، ويبدو أن سفر البحر يناسب طبيعتي ، ولا شك أنني لا أتمتع أثناء كتابتي لهذه اليوميات بالهدوء السابق ، فبينما أكتب هذه السطور يطرق بعض الناس أبواب " كابينتي " حاملين معهم شكاواهم ، ويتولى الدكتور عبد الرشيد الاستماع لهم نيابة عني .

استمرت مشاغل النهار ، واستمر برنامج الإشراف على الحجاج على ما هو عليه ، وعند العصر حدثت واقعة غير سارة ، فقد ألقى أحد المسافرين الماء من على السطح العلوي للباخرة ، وعندئذ قام رئيس المهندسين ، وهو بارسي[٩] بمحاصرة جميع الناس ، وحبسهم بطريقة غير مهذبة على الإطلاق ، وأتعبهم كثيرا ، وكنت موجودا بالصدفة ، وإلا كان من الممكن أن يقوم أحد المسافرين من أصحاب الهمة العالية بتأديبه ، وتهذيبه بطريقة شديدة ، وبعد الصلاة عبر أحد الشباب عن تضايقه من جراء سكوتي ، فحاولت أن أفهمه قائلا :

- ليس من عملي العراك ، سوف أُطلع القبطان ، وسيتولى هو التحقيق فيما حدث .ا

التقيت بالقبطان ، فقال شاكيا من رئيس المهندسين :

- إنه رجل غير محتمل ، وهو غير مناسب للعمل على باخرة للمسافرين وخاصة إذا كانت تحمل حجاجا ، وأفضل علاج هو إصلاحه وتقويمه .

فقلت له :

- عليك أن تُفهمه ، فهذا أطيب ، وإلا لو ارتكب مثل هذا العمل ثانية ، وصدر رد فعل شديد ، فلن يكون هذا من مسئوليتنا .

قضيت الليل في هدوء ، كنت أشعر بثقل في معدتي ، كان من الواجب الاحتياط في الطعام ، وربما كان هذا من أثر الخبز " الإفرنجي " وكان عاصم تعبا مرهقا طوال النهار ، فقد أقلقه دوار البحر والصداع .

الثلاثاء ١٥ صفر ٦٩ هجرية / ٦ ديسمبر ١٩٤٩م

نمر الآن عند آخر حدود البحر الأحمر ، يطالعنا منظر الجبال ، عن يميننا وشمالنا ، دخلت السفينة بحر العرب في الساعة الثانية عشرة ، ومرت في الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل بالقرب من عدن ، فباخرتنا هذه لن تتوقف حتى تصل إلى هدفها المنشود (كراتشي)

لم تكن الأمواج في بحر العرب هائجة كتلك التي شاهدنا في البحر الأحمر ، لكن الريح كانت تعصف ، مما جعل عددا كبير من ركاب السطح ، وخاصة في الطابق الأسفل يشكون من الغثيان والدوار ، وكان عاصم فاقد الوعي مصابا بالذهول ، بينما يشعر الدكتور عبد الرشيد اليوم بتحسن ملحوظ ، لم يطرأ على كاتب السطور تغيير يُذكر ، ولم يتأثر بأعراض الدوار في هذا السفر ، سألني القبطان :

- لا تبدو عليك آثار دوار البحر ؟

فقلت :

- لا . . . الحمد لله أنا لا أتأثر بدوار البحر .

فقال الدكتور عبد الحي (المشرف على المستشفى) مازحا :

- هذا تأثير مصاحبة طبيب .

زادت قائمة الأمتعة المفقودة ، وكنا نعلن عن ذلك بمكبر الصوت كل يوم لكن لا حياة لمن تنادي ، فمن لديه متاع غير متاعه لا يكلف نفسه عناء البحث ، وهكذا بدأنا منذ ليلة أمس فحص كل مقعد ، وحققنا بعض النجاح ، لكن عامة الحجاج لا يتعاونون معنا ، هذه هي الحالة الأخلاقية لأمتنا ، فأهلنا في العادة يشكون من شيء بسيط ، ونحاول نحن إزالة أسباب الشكوى بقدر الإمكان ، بينما يرون أنه لا تقع على عاتقهم أي مسئولية .

كان الدكتور عبد الرشيد يمد لي يد العون بكل حماس ونشاط ، ولولا تعاونه لما أمكن لي تحمل هذا العمل على الإطلاق ، فقد كان التعب يصيبني نتيجة التحرك هنا وهناك ، وقد مكثت ليلة أمس ، ولمدة ساعة كاملة ، في الجزء الأسفل من السطح أبحث عن المفقودات ، تقطعت أنفاسي ، وأصابني اختناق ، وتحملت ذلك بصعوبة كبيرة ، وعلى كل حال تحاملت على نفسي حتى لا يلاحظ رفاقي مدى ما كنت أعانيه من آلام .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها الاتصال بيني وبين جمهور الناس، وعامتهم فلم تتوفر لي فرصة العمل في القرى ، نتيجة اعتلال صحتي ، وشوقي الشديد لتحصيل العلم ، وانشغالي بذلك ، وعلى ظهر السفينة شعرت بأنني لا أعرف اللغة البنجابية رغم أنني أعيش في البنجاب منذ خمس سنوات ، كان يمكن أن أفهم بسهولة كبيرة اللغة البنجابية المتداولة في جالندهر والقرى المحيطة بها (قرى العلماء) بل كنت أجد ، في معظم الأحيان ، لذة شديدة في الخطابة البنجابية ، ولكن لغة مراكز البنجاب وبخاصة لغة القرى التي يتكلمها هؤلاء القرويون مختلفة تماما ، ولا أفقه منها شيئا ، كما أنني أفهم الأردية أو الهندوستانية [١٠] الرائجة في المناطق الشرقية ، ولولا ترجمة الدكتور عبد الرشيد ، لواجهتني مشاكل عديدة .

سمعت مسافرين يتكلمان عني ، بينما كنت أمر على سطح السفينة ظهر اليوم ، قال أحدهم :

– هذا ينتمي إلى الجماعة الإسلامية ، وعمله خدمة عباد الله .

فنظر الثاني ناحيتي وقال لي :

– ألا يزال المودودي في السجن .

فقلت :

– نعم فقد امتدت فترة الحبس الانتقالي إلى ستة أشهر أخرى .

وعندئذ بدأ أحد الأشخاص يذم الحكومة الباكستانية ، فتظاهرت بأنني لا أسمع شيئا ، ومضيت إلى حال سبيلي ، وأمكنني من خلال طوافي بين المسافرين ولقاءاتي بهم أن اشعر بأن سكان المدن والمراكز الكبيرة يعرفون الجماعة ونشاطها الدعوي ، وقد تعودوا على سماع اسم الجماعة ، إلا أن صوت الجماعة الإسلامية يصل خافتا إلى سكان القرى .

الأربعاء ١٦ صفر ٦٩ هجرية / ٧ ديسمبر ١٩٤٩م

كان الجو بديعا وجميلا ، زادت البرودة قليلا ، لكن الجو داخل " الكابينة " معتدل ، ولهذا نمت نوما هادئا ، لم أتمتع بمثله منذ شهور ، وكانت أحوالي الصحية طيبة أيضا ، وقد تعرضت لنوبة بسيطة في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، زالت بحمد الله في الصباح .

شربت الشاي بعد صلاة الفجر ، ثم أخذت أتصفح اليوميات ، لأني سأسلمها للطباعة فور وصولي كراتشي ، ولهذا بدأت أراجعها مرة من بعد مرة ، وللمراجعة فائدتان :

الأولى : تدارك السهو والخطأ .

والثانية : مراجعة أفكاري السابقة وتحليلها ، فقد قطعت برأي في بعض المسائل منذ ستة أشهر ، وأشعر أن بعض هذه الآراء صحيح ، بينما كنت خمنت شيئا ، وظهر لي خطأ تخميني أو بالغت كثيرا فيما يتعلق ببعض الأمور ، وهكذا قيدت هذه التخمينات بكلمتي : (لعل) و (غالبا) فهذه اليوميات مجموعة

" تأثرات " وقتية ، ويجب أن ينظر إليها من هذا الجانب ، ولا فائدة في البحث فيها عن أسلوب بياني رائع أو عن وقائع تاريخية معينة .

استمر البحث عن الأمتعة المفقودة ، واستمر الإعلان عنها من خلال مكبر الصوت ، وقمت في معية الدكتور عبد الرشيد بالمرور على المسافرين فردا ، فردا ، وناشدتهم التعاون في هذا الشأن ، لكن عامة المسافرين ، لم يتعاونوا معنا ، فكان كل مسافر يكتب قائمة بالأمتعة الضائعة منه ، لكنه لا يكلف نفسه عناء الكشف عما لديه من أمتعة زائدة ، ضائعة من الآخرين ، كان أحد المسافرين ممن فقدت أمتعته قد عبر بالأمس عن غضبه الشديد من كاتب هذه السطور ، وكان يشك في ركاب الدرجة الأولى والثانية ، وبناء على إصراره ، اصطحبت أخته ، ودرنا على كل " كابينة " حتى تبحث بنفسها ، وقام أصحاب الكبائن - بكل احترام - بفتح أمتعتهم لها ، ولكنها رغم كل هذا ، لم تجد أمتعتها الضائعة ، وفي المساء حضر الشخص نفسه ليخبرني بأنه وجد متاعه الضائع في الجزء الأسفل من السطح .

أخذ رئيس المهندسين - سابق الذكر - يضايق المصليين ، ويسبهم ، ويشتمهم ، وجلس المصلون ، وهم في غاية الضيق ، ثم أخذوا يشفون غليلهم فيه ، ويصبون غضبهم عليه ، فقد جاوز الرجل حدوده للمرة الثانية ، فوجدوا في ذلك فرصة ، وبينما كانوا ينتقمون منه ، جاء اثنان من المسافرين ليخبراني بما حدث ، فنصحتهم بالذهاب ، ومنع الناس من التعرض له ، على أن أقوم بإطلاع القبطان بما جرى .

بعد قليل حضر القاضي محمد سرور وأخبرني بأن المهندس " البارسي " قد نال عقابه ، وسوف يلزم حده بعد ذلك ، وأخبرني بأني بريء الذمة ، لأنني أخبرت القبطان عن سوء سلوك المهندس وعدم مسئوليتي عن ذلك مستقبلا .

انتقلت إلى الرفيق الأعلى هذه الليلة عجوز من مركز " لائل بور " حصرنا أمتعتها وأموالها ، وأخذت مفاتيحها ، وكانت كل هذه الأشياء قد سجلت في قائمة ، فتسلمتها ، على أن أقوم بتسليمها للورثة ، وأرسلت صورة منها إلى المسئولين عن مثل هذه الأمور .

قمنا بتجهيزها وتكفينها ، وتعاون معنا طاقم السفينة ، وبخاصة الدكتور عبد الحي ، وتولى الأمر من جانبنا القاضي محمد سرور ، والدكتور عبد الرشيد .

ماذا نقول عن قواعد الحياة والموت ؟! فهذه العجوز حملت لبناتها الهدايا ، ولفت صندوق الهدايا الضخم بغطاء من القماش ، حاكته بدقة وبراعة ، من كان يعرف أن سفينة حياتها قد اقتربت من الشاطئ ؟!

الخميس ١٧ صفر ٦٩ هجرية / ٨ ديسمبر ١٩٤٩م

نحن الآن في بحر العرب ، ورغم أن البحر الأحمر ضيق ومغلق ، لكنه سبب لنا الكثير من المتاعب ، فقد ظل الكثير من المسافرين يشكون لعدة أيام من الدوار والغثيان والقيء ، ومنذ أمس دخلنا بحر العرب الذي بدا كبحيرة هادئة ساكنة ، فتحسنت أحوال المسافرين ، وبدت السعادة والفرحة أيضا على وجه رفيقينا الدكتور عبد الرشيد وعاصم .

كنت أقوم مع القبطان وبقية مسئولي السفينة بالتجول في جميع أدوار السطح ، وكانت الجولة تستغرق نصف ساعة تقريبا ، نقوم خلالها بتفقد أحوال طعام الغداء ، فالشكوى من الطعام عامة ، ولكني أرى أن الطعام ليس بهذا السوء ، فقد دفع مسافرو السطح ٢٤روبية فقط لتناول الطعام طوال رحلة العودة، التي تستغرق تسعة أيام ، ولهذا فالطعام من هذه الناحية غنيمة كبرى ، لكن الناس يريدون التمتع بالسمن البنجابي البلدي الصافي ، والسمن الموجود هنا سواء كان جيدا أو غير جيد ، فلا يمكن تغييره ، فهذا شأن " لجنة الحج " فلو كانت اللجنة قد فحصت نوع السمن ، وعاينته بإخلاص وأمانة لما صدرت مثل هذه الشكاوى ، لكن عادة ما يقبل " كبار الناس " في أمتنا المسئوليات الجسام لمجرد أنها منصب تشريفي ، ولمجرد الظهور ، بينما يفتقدون أساسا الشعور بالمسئولية والواجب .

كنت أريد أن أظل بعيدا عن مسئوليات " أمير الحج " نظرا لاعتلال صحتي ، ونظرا لطبيعتي ، ولكن حين أُلقيت عليّ هذه المسئولية ، حاولت جاهدا أن أُوفيها حقها ، وأحاول أن أقوم بأدائها على أطيب وجه ، فالصحة بفضل الله وكرمه على أحس وجه ، فلم أشكُ من الألم حتى الآن ، ولو ليوم واحد ، ولم أُقصر في التحرك تحت أشعة الشمس الساخنة ، كنت ولا زلت أستمع لشكاوى الحجاج من الصباح حتى المساء ، ولا أتوانى عن البت فيها ، وإزالة أسبابها ، يساعدني في هذا الدكتور عبد الرشيد بقلبه وبعقله ، وكان قد أُرسل من قبل إمارة بهاولبور لخدمة حجاج بهاولبور في موسم الحج ، ويرافقه أيضا مساعد مع أحد الخدم ، وقد وقف نفسه أيضا لخدمة جميع حجاج السفينة

دون استثناء ، فكان يتولى علاج المرضى دون تفرقة بين من يشرف عليهم وبين أي مريض آخر ، وهو رجل طيب ومخلص ، لكنه للأسف يفتقد علوم الدين ، كنت أحثه على القراءة والمطالعة ، وقد تأثر كثيرا ، وقال لي في الليل :

- لقد قصرت كثيرا في حق نفسي .

فقلت :

- إن الوقت لم يفلت منك بعد .

كان على ظهر السفينة حجاج من أفغانستان وتركستان الصين أيضا ، فكنا نتفاهم مع الأفغانيين بالفارسية ، أما الحجاج من تركستان الصين فلا يفهمون أي لغة غير التركية ، وكان من بينهم حاج يفهم الفارسية قليلا ، وعلى كل حال كانت الأمور تمضي بشكل أو بآخر ، لم يكن طعام المطعم يروق لهم ، ولم يكن هؤلاء على استعداد حتى للمس الأرز والعدس ، كما كان الطبيخ يحتوى على كمية كبيرة من " الشطة " فكانوا يعافونه ، ولما تحدثت مع الطباخين ، كان جوابهم واضحا :

- من الصعب أن نطبخ لثمانية عشر شخصا على حدة ، لكن يمكن الإقلال من " الشطة "

فاعتذرت لهم فهؤلاء الحجاج الأفغانيون طيبون ومهذبون ، وليسوا من المشاكسين أو معتلي المزاج كفلاحي قرى البنجاب ، الذين كانوا يمثلون أغلبية على ظهر السفينة ، وقد قمنا بتحقيق رغباتهم كاملة ، وبالرغم من ذلك فلم نستطع إدخال السرور على قلوبهم .

وطاقم السفينة يضم أناسا على خلق ، والقبطان رجل معقول جدا ، وكان مساعده ونائبه مسلمين من البنغال ، وكانا ملتزمين بحدود الدين ، كما كان المسئول عن الذبح أيضا مسلما بنغاليا طيبا ، أما العمالة التحتية فهي سيئة للغاية تفتقد الأدب والتهذيب ، وبسببهم صدرت معظم شكاوى عامة المسافرين .

لقد تربى هؤلاء في ظل الإنجليز ، لا يحترمون على الإطلاق أصحاب اللحى أو الناس الذين يحافظون على تقاليدهم وأصولهم وتراثهم ، فـ" البنطلون والجاكيت " هما معيار الشرف عندهم ، ولولا تعنيفي لهم مستخدما اللغة الإنجليزية لتعاملوا معي بسوء وقلة أدب .

كان خادم " كابينتنا " بنغالي مسلم يفهم الأردية أكثر من فهمه للإنجليزية ، ولكن تبدو على وجهه سمات الطيبة والسلامة ، يلتزم بأداء الصلاة في أوقاتها وهذه صفة عامة في مسلمي البنغال .

الجمعة ١٨ صفر ٦٩ هجرية / ٩ ديسمبر ١٩٤٩م

لأول مرة يصلي حجاج هذه السفينة الجمعة على ظهر السفينة ، وبدأنا الإعلان عن هذا الأمر ، كان معظم الحجاج ممن قدموا قبلا على ظهر هذه السفينة ، وربما بلغ عدد من استجد عليهم ثمانية مسافرين ، وجدوا تذاكر للعودة على ظهر هذه السفينة ، وكان من بينهم عدد كبير من العلماء الذين ينتمون إلى جماعات وفرق مختلفة : الديوبندية ، والبريلوية ، وجماعة أهل الحديث وغيرها ، وقد حدث اختلاف بينهم فيما يتعلق بصلاة الجمعة ، وكان المثقفون ثقافة جديدة يصرون على ضرورة صلاة الجمعة ، وكسبوا الجولة في

النهاية ، وجعلنا الإمام الذي صلى بالناس الجمعة من قبل ، يصلي بنا أيضا هذه المرة ، وقد نأيت بنفسي عن هذه الخلافات ، ولم أشعر أبدا بأي حرج لأداء الصلاة في صفوف الجماعة ، فلو لم تقم صلاة الجمعة لحدثت فوضى لا حد لها .

بعد العصر كنت حزينا ، أخذت أسترجع أيام سفري ، وانشغل عاصم بمراجعة الحسابات وتدقيقها ، وأحيانا كانت تأتيني شكاوى المسافرين ، فأذهب لحلها على السطح ، وتم تسليم أمتعة العجوز التي توفيت قبل أمس ، ونقودها إلى أقاربها ، وقد أعد مساعد مسئول حسابات السفينة ورقة وقعنا عليها جميعا ، وأعطيت صورة منها إلى المسئولين .

مع مرور الوقت توطدت العلاقة بين المسافرين ، كان هناك اتفاق وتعاطف بين المثقفين مع الجماعة الإسلامية ، وكنت في غاية الحزن والألم لعدم وجود مطبوعات الجماعة معي ، كان مسئول الحسابات ونائبه بنغاليين مسلمين ، متمسكين بدينهما ، ينقصهما العلم فقط ، حين جاءا في المساء لتوقيع الورقة الخاصة بممتلكات العجوز المتوفاة ، طلبا مني بكل حب أن أوضح لهم بعض الأمور المتعلقة بالإسلام والقرآن ، وإن شاء الله سأحدثهما اليوم في موضوعات دينية مفيدة ، وسأكتب لهما قائمة بأسماء الكتب الإنجليزية التي تفيدهم ، حتى يتمكنا من شرائها من " بمباي " ، وللأسف لم يكن معنا عنوان الجماعة في بمباي ، سوف أعطيهما عنوان مولانا عبد التواب في كلكتا ، فسوف تجذبهما الكتب البنغالية أكثر ، فقد فرحا كثيرا حين علما أن بعض كتبنا ترجم إلى البنغالية .

قضيت الليل أتململ ، كنت أعاني من آلام الربو ، فرقدت في فراشي حتى تمكنت من النعاس بعد فترة طويلة ، وبقيت نائما حتى الصباح ، فقل أن تتوفر لي فرصة للنوم حتى الصباح ، ويبدو أن هذا من أثر البحر والجو الهادئ ,

السبت ١٩ صفر ٦٩هجرية / ١٠ ديسمبر ١٩٤٩م

كان بحر العرب ساكنا كالبحيرة ، زادت سرعة السفينة منذ أمس ، ومن المتوقع أن نصل إلى كراتشي صباح يوم الثلاثاء ، بدأ المسافرون يرسلون رسائل لاسلكية إلى بيوتهم وأحبتهم وأصدقائهم ، فقد ضعف تأثير الحج عليهم ، وكل ما بقي لديهم الآن هو لعبة الرسائل اللاسلكية ، فمعظم حجاج هذه السفينة يظنون أنهم أسمى من عامة المسلمين وأطهرهم ذنوبا ، فإذا ما سألت أحدا عن اسمه ، وجدته يضيف عليه بالضرورة لقب " الحاج " فتسمع من يقول : الحاج محبوب ، والحاج نبي بخش وهكذا صرت أسمع هذه الأسماء فينقبض قلبي ، ويتضجر ، ما هي خصوصية الحج حتى تقول : الحاج فلان والحاج علاّن ، فلتقل أيضا لمن يصلي : المصلي فلان ، ولتقل أيضا لمن يصوم : الصائم فلان. . . لقد أدى الإنسان فريضة الحج ، ويبدو كأنه يحسن إلى ربه ! !

من ناحية هناك فخر وغرور ، ومن ناحية يضع يده على أمتعة وممتلكات زملائه ، اشترى الكثير من الأشياء المحرمة قانونيا ، ويجلس يفكر ، كيف سيحتال ، ويكذب للهروب من موظفي الجمارك ، وكلما اقتربنا من كراتشي ، كان قلق هؤلاء الحجاج يتزايد ، وقد جاءني أحدهم بالأمس وهمس في أذني وبطريقة سرية للغاية :

- لقد أخطأت ، فأحضرت معي ذهبا ، فقل لي ما الحيلة ؟!

قلت له :

- قل الحقيقة كاملة لموظف الجمرك .

ويبدو أن مشورتي لم تكن مقبولة ، فرجع الرجل يائسا .

وجاء أحدهم يطلب مني فتوى ، سألني :

- هل يجوز الكذب في مثل هذه الحالة ؟! فقد أعطانا أحد العلماء في مكة فتوى تجيز لنا الكذب .

ولما كان شراء الذهب ، والاتجار فيه لا يعد مخالفا للشريعة قلت له :

- قل بشجاعة ما عندك ، وتحمل ما قد يقع عليك من خسارة ، فقول الكذب لا يجوز أبدا في أي حالة من الأحوال .

وقضيت اليوم أرد على مثل هذه الأسئلة .

في الليل حدد مسئول الحسابات البنغالي ومساعده وقتا ، فالتقيت بهما وشرحت لهما مفهوم الدين لمدة ساعة ، كانا في غاية الشوق لمعرفة الإسلام ، وفهمه ، فأوضحت لهما الفرق بين الإسلام والأديان الأخرى ، وأوضحت لهما أن الإسلام هو أكثر الأديان شمولية وجامعية ، استمرت الجلسة لمدة ساعتين وفي النهاية حضر الدكتور عبد الرشيد أيضا ، وقدمت لهما قائمة الكتب حتى يمكن أن يشترياها من بمباي .

رجعت إلى " كابينتي " فبدأ الدكتور عبدالرشيد الكلام ، فنمت في فترة متأخرة، وبقيت قلقا طوال الليل .

الأحد ٢٠ صفر ٦٩ هجرية / ١١ ديسمبر ١٩٤٩م

بدأت الأمتعة المفقودة تظهر ، فتسلم إلى أصحابها ، في الصباح بدأت عملية تنظيف الجزء الأسفل من السطح ، فوصلنا هناك بهذه المناسبة ، ولم تظهر معظم الأمتعة الضائعة ، وبالأمس تم الشيء نفسه مع الجزء الأوسط من السطح ، حيث وجدت أمتعة كثيرة كانت من بين المفقودات ، والآن بقي على وصولنا يومان فقط ، فإذا وجدت بقية الأمتعة الضائعة ، فسيكون هذا أمرا طيبا للغاية .

كان الدكتور عبد الرشيد رفيقي في " الكابينة " يبذل النفس والروح ، ويحاول بكل قوة ، ولولا مساعدته لما تمكنت من عمل شيء يذكر ، كنت أظن أنني سأستريح ، وأمرح في السفينة بعد سفر دائم استمر ثمانية أشهر ، ولكن لم أكد أضع قدمي على ظهر السفينة حتى أُلقيت عليّ مسئولية " أمير الحج " وهي مسئولية لا تنتهي بعد مغادرة السفينة بل لها ذيول تمتد إلى ما بعد الوصول إلى كراتشي ، فسوف يستغرق إعداد التقرير الخاص بقافلة الحجاج يوما أو يومين ، والشكر لله على كل حال .

لأول مرة تضيع من أحد الحجاج نقوده على هذه السفينة ، فقام المسافرون جميعا بالتعاون فيما بينهم وتبرعوا له بملغ ٥٣٠ روبية وستة ريالات ، وحدث بالصدفة أن وجدت النقود الضائعة ، فاتفق المسافرون على إنفاق هذا المبلغ في

الحرمين ، وطبقا لهذا القرار قام القاضي محمد سرور (أمير الحج السابق) بتسليم المبلغ مناصفة لإدارتين دينيتين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهو يحتفظ معه بإيصالات التبرع ، وقد سلمها لي اليوم ، وأعلن عن ذلك في الإعلانات اليومية من خلال مكبر الصوت ، وقد فعل هذا احتياطا نظرا لسوء الظن الذي يتصف به بعض أفراد أمتنا .

كنت أمر مع القبطان وبقية أفراد طاقم السفينة على السطح بأقسامه الثلاثة يوميا من الساعة العاشرة ، ولا زلت أتبع هذا " الروتين " وألتزم به ، واليوم قال القبطان :

- لقد قمت بجولتك في الصباح ، لماذا لا تستريح يوم الأحد ؟

فقلت :

-حسنا استرح أنت وسوف أقوم أنا بمعاينة الطعام .

قلت هذا ونزلت المطبخ ، وعاينت الطعام ، فغدا هو آخر يوم ، ولهذا سيقدم لركاب درجة السطح " الأرز البلاؤ " والحلوى ، وكان جميع العاملين في المطبخ من سكان لكهنو وأوده ، فقالوا لي :

- غدا تفضل بتناول الطعام ، وسترى !

فقلت :

- لو كان السمن من النوع الخالص ، فلا عذر عندي .

قضيت بقية اليوم في سماع الشكاوي ، فلم يبق على انتهاء السفر غير يومين اثنين ، ولهذا تلاشت " بلادة " المسافرين ، وغلب عليهم الشوق لديارهم ، وأنا نفسي أشعر بالشوق للوصول إلى كراتشي غدا بدلا من بعد غد ، والرسائل اللاسلكية ترسل من هنا إلى الأهل والأقارب والأحبة يوميا ، كانت مسئولية كتابة البرقيات من نصيب الدكتور عبد الرشيد ، وكان عاصم بصحة جيدة ، يقضي معظم وقته في الدرجة الأولى ، ويأتيني أيضا بعض المسافرين الآخرين ، في البداية كان طاقم السفينة يتشدد في هذا الأمر ، والآن صاروا يتسامحون ، فلم يعد أحدهم يجرؤ على قول شيء بعد تأديب رئيس المهندسين .

الاثنين ٢١ صفر ٦٩ هجرية / ١٢ ديسمبر ١٩٤٩ م

الساعة السابعة صباحا ، قضيت ليلتي أتقلب في الفراش ، كنت أعاني من ضيق التنفس ، ربما كان هذا بسبب الإرهاق ، وهو نتيجة حتمية للحركة المستمرة طول النهار ، على كل حال لم يبق غير يوم واحد ، سيمر بطريقة طيبة بفضل الله وكرمه .

بالأمس طلب مني محمد طه خادم السفينة أن أعطيه شهادة ، وهو شاب طيب وظريف ، يؤدي الصلاة في أوقاتها ، وهذه خصوصية في مسلمي البنغال ، فكتبت له شهادة مناسبة باللغة الإنجليزية ، فرح بها كثيرا ، وجاءني في الليل وأخذ يشجعني بإصرار شديد على تناول الطعام اللذيذ (من وجهة نظره) وكان ينادي عاصما بأخي عاصم ، وحسن الخلق فيه شيء عجيب ، وهو طاقة قوية ، وللأسف حرمت من خدماته مجموعة كبيرة من المسافرين على ظهر هذه

السفينة ، ويدخل في أسباب ذلك غلظة أهل البنجاب ومنطقة الحدود الشمالية وخشونتهم ، فالتعارك والتشاجر على الأمور الصغيرة أمر عادى .

كانت الساعة الحادية عشرة ظهرا حين طلب القبطان إجازة اليوم أيضا ، وعلى كل حال تم تجهيز مستلزمات الغد ، اليوم الأخير ، الماء العذب سيكون متوفرا طوال الوقت حتى يتمكن المسافرون من الاستحمام ، وتغيير ملا بسهم ، وقام القاضي محمد سرور بإعلان ذلك في مكبر الصوت ، فراح الناس يستعدون في فرح وسرور ليوم الوصول ، تمت معاينة الطعام ، طبخ الأرز بطريقة جيدة ، لكن الحلوى لم تكن طيبة فقد أفشت رائحة السمن الكريهة السر ، بينما الطباخ حاول إخفاء الحقيقة بقوله :

- لقد نسيت وضع اللون على الحلوى .

كما كشف الأرز المالح حقيقة الأمر .

كان جميع من بالمطبخ من أهل لكهنو ولغتهم تعطيني متعة كبيرة ، بالإضافة إلى أنهم اطمأنوا إلي بعد أن ألفوني ، وأنسوا إلي صحبتي .

توفى أحد الحجاج الأفغان بالأمس ، كان الدكتور عبد الحي قد أخبرني منذ الصباح أن حالته خطيرة ، قمنا بتجهيزه وتكفينه في كنف الليل ، وأودعنا جثته البحر ، وحصرنا أمتعته وأمواله ، وأعددنا قائمة بذلك ، وقع عليها المسئولون ، لم يكن هناك أحد من ورثته على ظهر السفينة ، ولهذا سوف تسلم أمتعته وأمواله إلى لجنة الحج ، فكرنا في إعطاء أمتعته وأمواله إلى بعض رفاقه ،

ولكننا وجدنا من بين قافلته عالما فاهما ، فوجدنا عن طريقه حلا لهذه المعاملة، وفرغنا من هذه المسألة في منتصف الليل ، وكان معي محمد سرور والدكتور عبد الرشيد بوري .

الثلاثاء ٢٢ صفر ٦٩ هجرية / ١٣ ديسمبر ١٩٤٩م

الساعة السابعة صباحا ، قضيت الليل متعبا ، رقدت في الفراش في منتصف الليل لكن النوم لم يطاوعني ، تحايلت على النوم مائة ألف حيلة ! لكن هجوم الأفكار تتابع على ذهني ، يقلقني حتى الساعة الثانية ، وبعدها لم أدر شيئا ، ثم استيقظت في الساعة الرابعة ، كانت هناك أصوات تتناهى إلى سمعي، كانت الليلة الأخيرة . . .

ظل المسافرون مستيقظين ، لا يريدون الخلود إلى النوم ، فقد كانوا في شوق إلى الوصول إلى كراشي ، لدرجة أن أحدهم أذن لصلاة الفجر قبل الموعد، فاستيقظ الدكتور وأوقفه ، وبعد ساعة أُذن للصلاة ، ولم نكد ننتهي من صلاة الفجر حتى لاحت لنا أنوار كراتشي ، فصعد الناس جميعا من شدة الشوق إلى أعلى السفينة ، التي ستصل إلى الساحل حوالي الساعة الثامنة .

كان الدكتور عبد الرشيد و عاصم مشغولين بالمشاهدة والتفرج ، أما العبد الفقير فراح يفكر في القيام بآخر مسئولياته ألا وهي كتابة التقرير ، ولكني رأيت أن أكتبه في هدوء حين أصل إلى كراتشي على أن أضع النقاط الأساسية الآن .

كراتشي

الأربعاء ٢٣ صفر ٦٩ هجرية / ١٤ ديسمبر ١٩٤٩م

الحمـــد لله انتهى السفر . . .

نزلنا من السفينة في الساعة العاشرة ، مكثنا في الجمرك ساعتين ، فوضى عارمة ، واضطراب شديد ، هجوم المستقبلين من جميع الجهات ، امتلأت أعناق الحجاج بأكاليل الزهور ، وبدأت النسوة في النزول من السفينة في زهو وفخر ، ولم يكن المكبرون بقليلين ، مشاعر متضاربة ، فالعين تدمع أحيانا لمشاهدة هذا الحماس الظاهري أو الشكلي ، لكن حين أشعر أنه لا توجد روح أو مشاعر حقيقية وراء هذه الحركات الظاهرية يصيبني ألم شديد .

قدم لاستقبالي محمد ناظم الندوي ، وحكيم نصير الدين الندوي ، وجاء أيضا رحمت إلهي ، وأخي سيد سراج الحسن الندوي (من أحفاد نواب صديق حسن خان) ووصلت في معيتهم إلى بيت حكيم نصير الدين الندوي في حوالي الساعة الواحدة ظهرا ، فشكرا لله ألف شكر ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وكانت هذه آخر سطور يومياتي ، أو رحلتي ، بينما المسافر الضعيف النحيف في حاجة لالتقاط أنفاسه .

تمـــــت

حواشي وتعليقات

١ - يشير المؤلف إلى أن الحكومة كانت قد حددت الوزن الذي يحمله كل راكب ، وطبقا لما نشر في أم القرى يحق لكل راكب أن يحمل ٣٠ كيلو فقط ضمن أجرة السيارة وما زاد عنه يدفع للكيلو :

١ قرش سعودي من جدة إلى مكة

١ قرش سعودي من مكة إلى جدة

٢ قرش سعودي من مكة أو من جدة إلى المدينة ذهابا وإيابا

انظر أم القرى العدد ١٢٦٢ الجمعة ٢٣ رجب ٦٨ هجرية

٢- جماعة التبليغ انظر الحواشي السابقة

٣- انظر ما ورد في الحواشي قبلا عن حزب المؤتمر

٤- ربما يقصد طباع

٥ - نظامي وفيضي من أدباء الفارسية المشهورين ، تجري أشعارهم حتى الآن على ألسنة العلماء والأدباء وقد عاش فيضي في عصر الإمبراطور المغولي أكبر ، أما نظامي فهو شاعر فارسي وهو نظامي كنجوي اشتهر بمثنوياته

(شعر المزدوج) التي أثرت كثيرا على شعراء الهند فأخذو يقلدونها انظر تاريخ ادب اردو جميل جالبي جلد دوم حصه أول ص ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩٢ ، ٤١١ جلد دوم وأيضا حصه دوم ص ٧٥٦ - ٨٥٨

٦ - العلامة موسى جار الله ولد عام ١٢٩٥ هجرية / ١٨٧٨م وتوفى ١٣٦٩ هجرية/ ١٩٤٩م وهو تركستاني قازاني تتاري روسي ، كان شيخ الإسلام في روسيا قبل الثورة البلشفية ، ولد في روستوف دون بروسيا ، وتفقه في العربية ، وتبحر في العلوم الإسلامية ، حج وجاور بمكة ثلاث سنين ، كان يحسن العربية والفارسية والتترية والتركية والروسية ، كتب عن رحلته إلى البلاد الإسلامية كتابة مفصلة وطاف بالهند وجزيرة العرب ، ومصر وتركيا والتركستان الغربي وإيران والعراق ، واعتقله الإنجليز في الهند خلال الحرب العالمية ، مرض في مصر ودخل ملجأ العجزة وتوفى بالقاهرة ، ونشرت عنه جريدة الأهرام في عدد ٢٦ أكتوبر عام ١٩٤٩م ، ومن مؤلفاته تاريخ القرآن والمصاحف ، وله أيضًا الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ، وبعض الكتب في علوم الحديث . انظر الزركلي المجلد السابع ط ٧ دار العلم للملايين ص ٣٢٠-٣٢١.

٧ - ورد ذكر مواعيد سفر السفينة ورسمت هكذا في جريدة أم القرى (الباخرة جولا درقا) وهي تكتب بالأردية جل دركا بالكاف الفارسية انظر أم القرى العدد ١٢٧٣ الجمعة ١٨ شوال ٦٨ هجرية . وقد ورد رسمها هكذا (جولا درقا) ورسمت بشكل آخر في العدد ١٢٦٨ (جلا دركا)

٨ - الآن بنجلا ديش

٩ - بارسي أي من عبدة النار

١٠ - الأردية أو الهندوستانية ، وكان يطلق على الأردية في البداية اسم اللغة الهندوستانية ، وفي الهند لا يزال البعض يسميها هكذا ، انظر الفصول الأولى في الأدب الأردي الإسلامي .